(الجزء الاول) محرم ١٣٣٢ (المجلد السابع عشر)

المنار

١٣١٥

﴿ الاشتراك ﴾
[ثمن] سنة ٨٠ قرشا صاغا
[في] مصر والسودان
[و] ٤ ريالات في المملكة
[ا]لعثمانية و٢٠ فرنكا
[و] ٩٠ سنتيما في الخارج
[و] ١٩ شلنا في الهند
[و] ٩ روابل في روسيا
ويجب الدفع سلفا

الاشتراك في [المجلة]
يكون دائما من أول
سنتها « المحرم »
ومنتصفها « رجب »

﴿ مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران ﴾

(لمنشئها)
السيد محمد رشيد رضا

(مدير الادارة والمطبعة)
السيد صالح مخلص رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

﴿ فهرس ﴾

﴿ الجزء الاول ﴾ ١ ﴿ المجلد السابع عشر ﴾

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ المحرم ١٣٣٢ هـ ق ٨ الشتاء الاول ١٢٩٢ هـ ش ٢٨ ديسمبر ١٩١٣

فاتحة السنة السابعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٧ : ٥٩) قُلِ الحمدُ للهِ وَسلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اَصطَفَى ، آللهُ خَيرٌ أمَّا يُشرِكون (٢٧ : ٩٣) وَقُلِ الحمدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعرِفُونَها ، وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عمَّا تَعمَلُونَ (٤٥ : ٣٥) فلله الحمدُ ربِّ السموات ِ ورب الأرض ربِّ العالمين ٣٦ وله الكبرياء في السموات ِ والارض وهو العزيز الحكيم) فنحمده بما حمد به نفسه ، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله ، وصفوته من بني آدم الذين فضلهم على كثير من خلقه ، محمد

﴿ وكلاء المنار ﴾

في مصر القاهرة	مكتبة المنار بشارع عبد العزيز ومحمد افندي رمضان
» عموم ولايات الهند	السيد عبد الحق حقي الاعظمي البغدادي نائب أستاذ الشعبة العربية في كلية عليكره وصاحب المكتبة العلمية
» سنغافورة	السيد محمد بن عقيل والسيد سعيدان جميعان
» الزاوية وجبة بشراي	بطرس بك بشاره كرم
» الكورة	جبران افندي مكاري
» دمشق الشام	الشيخ محمد سليم افندي اللحام
» بيروت	محمد علي افندي النابلسي بمحل الامانة
» الفشن	الشيخ محمد عبد السميع المدرس بمدرسة صبور بك
» الخرطوم	عبد الرحيم افندي مصطفى قليلات
» حيفا	عزيز افندي الميقاتي
» يافا	صاحب الصيدلية العثمانية
» القدس	الشيخ عبد الرحمن رياض شيخ تكية الهنود
» نابلس	الشيخ حسن افندي خير الدين فتيان
» جدة ومكة المكرمة	السيد محمد افندي حسين نصيف وكيل الامارة الجليلة
» كسروان	السيد عبد الله افندي الحسيني بجيل
» الكويت	سليمان بن خالد العدساني
» البصره	أحمد افندي سالم الرئيس الثاني لجمعية ناشئة الوطن
» البحرين	الحاج مقبل الذكير
» صيدا	يوسف افندي بكار
» حلفا	احمد افندي رياض
» بغداد	محمود سامي افندي الكتبي بسوق الخيل
» الشرقية والدقهلية والغربية	الشيخ محمد النادي بالمزقازيق

اعلان

ترجو ادارة المنار من المشتركين ان يطلبوا الاجزاء التي لا تصلهم حين توزيعها لا في آخر العام كما ترجو من الذين لم يسددوا ما عليهم من بدلات الاشتراك ان يسرعوا الى ادائها ونخص اهل القطر التونسي ومسلمي روسية

وان الامم أشد من الافراد احتياطا ، وأخفى حيلة وأدق استنباطا ، وأوسع في المستقبل آمالا ، وأكثر استعدادًا له وأعمالا ، لانها أطول أعمارًا ، وأشد قوة واقتدارًا ، وأكثر أعوانا وأنصارًا ، فما بال أمتنا لاتتعظ بكلام الله ولا بكلام البشر ، ولا تعتبر بما تشاهده من الأحداث والعبر ، وكلما أنذرها الله بطشته تمارى بالنُّذُر ؟ ! (٥٤ : ٤ ولقد جاءهم من الانباء مافيه مُزْدَجَرٌ ـ ٥ ـ حكمةٌ بالغة فما تغني النُّذُر * ـ ٢١ : ٤٥ قل إنما أُنذركم بالوحي ولا يسمعُ الصمُّ الدعاءَ إذا ما يُنذَرُونَ)

تركت هذه الامة هداية القرآن ، ففاتها ما كانت نالت به من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان ، والبسطة في العمران ، وأمست غافلة عن سبب ذلك التوفيق وهذا الخذلان ، بل أتى عليها أحقاب من الزمان ، لاتشعر بكنه هذا الخسران ، وقد استيقظ فيها الشعور بما فسد من أمر دنياها ، قبل الشعور بما كان سببًا له من فساد أمر دينها ، وبما خسرت من سلطانها وأملاكها ، قبل الشعور بما خسرت من أخلاقها وملكاتها ، ولما شعرت بالخطر على حياتها المادية والسياسية ، غافلة عن عللها الروحية وأسبابها المعنوية ، شرعت في شيء من الاصلاح الصوري ، بدون أن تؤيده بروح الاصلاح المعنوي ، فعُد السلطان محمود مصلحا بتغيير الزي الرسمي ونظام الجندية ، والسلطان عبد المجيد مصلحا باعلان التنظيمات الخيرية ، والسلطان عبد الحميد مصلحا بانشاء نظارة العدلية ، ومصطفى رشيد باشا مصلحا بادخال الدولة العثمانية في سلك الدول الاوربية ، ومدحت باشا وأعوانه مصلحين باقتباس القوانين الغربية الغربية ، ومحمد علي باشا وأحفاده مصلحين بفَرْنَجَة البلاد المصرية ، والامير عبد الرحمن

النبي الامي ، العربي الحجازي ، الذي أرسله رحمة للعالمين ، وأتم به نعمته في الدنيا والدين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الهادين المهديين ، والتابعين لهم في هدايتهم وهديهم الى يوم الدين .

وبعد فاننا نذكّر قراء المنار على رأس سنته السابعة عشرة بنحوما ذكرناهم به في السنين الخالية ، من سوء عاقبة الإفراط والتفريط اللذين رزئت بهما أمتهم الجاهلة الغافلة ، — الافراط في عبادة الهوى واتباع الشهوات ، والانهماك في الفواحش والمنكرات ، والمحافظة على البدع وسيئ العادات ، — والتفريط في حقوق الله وحقوق الامة ، وما يجب من التزام هدي الكتاب والسنة ، ومجاراة الامم بما يستطاع من حول وقوة ، ولا سيما قوة الاعتصام والوحدة ، وقوة العلم والمعرفة ، وقوة الكسب والثروة . ثم نذكرهم بتلك الآيات والعبر ، وهاتيك المواعظ والنذر ، وبما يفتنون به في كل عام ، وما تسلب من ملكهم الامم والاقوام ، وبيان سنن الله تعالى في الظالمين والمسرفين . (٦:٤) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين (١٠:١٠١) قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون[١] ١٠٢ — فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين)

سبحان الله ! ان من العقلاء من يتعظ بالعبارة ، ومنهم من يكتفي بما توحيه اليه الاشارة ، وانهم ليستنبطون من وقائع الاحوال ، م يستعدون به لما ينتظر في الاستقبال ، ولو على سبيل الفرض والاحتمال

(١) أي لا يصدقون بما تدل عليه الآيات وما تخوفهم به النذر والمواعظ لجهلهم وعدم تدبرهم

الاحتلال ، (٦:١٢٩ وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ١٣١ ذلك أن لم يكن ربُّك مُهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ١٣٢ ولكلّ درجاتٌ مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون)

وأما ما كان نافعا من تلك الاعمال ، التي وسمت بسمة الاصلاح ، فانما كان نفعه موضعيا ، وعارضا لا دائما ، فكان كمداواة بعض أعراض الزهري (الداء الافرنجي) الظاهرة بما يزيلها ، مع بقاء العلة في الباطن (كتسمم الدم) تصدر عنها آثارها ، فما زال منه بالمعالجه الموضعية اليوم ، يظهر ماهو شر منه وأعصى على العلاج في الغد * كلما داويت جرحاً سال جرح * ذلك مثل ما كان في الدولة العثمانية ، وهي اكبر مظاهر السلطة في الامة الاسلامية ، وخير منه ما قام به الامير عبد الرحمن ، من جمع كلمة قبائل الافغان ، وتدريبها على القتال ، الذي يحفظ به الاستقلال ، وكذا ما قام به الامير محمد علي في مصر ، فانه بنى ركني الثروة والقوة على أساس العلم ، ولو أتم أحفاده ما بدأ به ببناء ركني الاخلاق والآداب ، على أساس الدين وسنن الاجتماع ، لتم لهم تكوين الأمة ، ولاستقام لهم بالامة أمر الدولة ، فهذا العصر عصر الامم والشعوب ، لا عصر الامراء والملوك ، ولكن جميع أقيال المسلمين ، كانوا ولا يزالون عن هذا غافلين ، (٣٥ : ٤٤ أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قَبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟ ٤٠:٢١ * ـ أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم * ـ ٣٠ : ٩ أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأَثارُوا الارضَ

خان مصلحا بالتأليف بين القبائل الافغانية. ولم تتوجه همة أحد الى إصلاح الاخلاق والعادات ، وازالة البدع والمنكرات ، وجمع الكلمة التي فرقتها المذاهب واللغات ، فما زاد الأمة ذلك الاصلاح الصوري الا ضروبا من الفساد ، ولا أفاد الدولة الا إضعاف الاستقلال وإضاعة البلاد ، (٢١. ٤٤ بل متَّعْنَا هؤلاءِ وآباءَهم حتى طال عليهم العُمُر ، أفلا يَرَون أنَّا نأتي الارضَ نَنْقُصها من أطرافها ، أفَهُمُ الغالبون ؟)

لا أقول ان جميع ماقام به أولئك الرجال لم يكن مطلوبا ، ولا أقول ان ضرره وما ترتب عليه من الفساد كان ذاتيا ، بل أقول ان أكثره كان ضروريا ، ولكنه لم يكن علاجاً لهذه الامة من طبيب اجتماعي ، عرف من أمراضها الظاهري والباطني ، فوصف لها من الدواء ما يزيل العلة ، ويحفظ البنية ويقوي المنة ، لذلك رأيناها بعد هـذه المعالجات لم تزدد الا مرضاً ، حتى كادت تكون حرضا ، ازدادت ذلا وفقرا ، وتفرقاً وضعفا ، وفساداً في الاخلاق ، واسرافا في النفاق ، وكان ما أدخل فيها من علوم الامم القويه وقوانينها وآدابها ، كالجسم الغريب الذي يدخل في البنية فيفسد مزاجها ، لانه لم يكن على حسب استعدادها وحاجها ، بل كان تقليداً صوريا ، أو عارضا وقتيا ، فمنه ما كان ضارا ومنه ما كان نافعا ، فأما الضار فأ كبر ضرره التقاليد والقوانين الافرنجية ، التي قطعت كثيرا من روابط الامة الملية ، وأزالت ما أزالت من مقوّماتها ومشخصاتها الاجتماعية والادبية ، ولم تستبدل بهـا ما يحـل محلها من مقوّمات الامم الأوربية ، بل صارت عيالاً عليهـم في جميع الشؤون ، حتى انتهى ذلك الى هذا الفتون ، بأن فقـدت الاستقلال ، باسم النفوذ أو الحماية أو

مع اصلاح ، ولا إصلاح للدولة ، الا بصلاح الأمة، ولا صلاح لأمة الا اذا كان فيها بقية من أولي الرأي والعزم ، يأمرون بالصلاح وينهون عن الفساد في الأرض ، ولا تأثير للأمر والنهي ، الا بإجماع الأمر وإحكام الرأي ، ولا يفيد الإحكام والإجماع ، الا مع مراعاة سنن الاجتماع ، لاختلاف استعداد الأقوام ، باختلاف احوال الزمان والمكان ، وزماننا هذا هو زمان الجماعات العلمية والأدبية والسياسية ، والشركات الزراعية والصناعية والتجارية ، فحظ الافراد الكثيرين من معنى الامة ، على قدر حظهم من إقامة هذه الاركان الستة ، ولا ينبغي أن يطلق هذا اللفظ ، على من لانصيب لهم منها ولا حظ ، الا على سبيل التجوز في القول ، كما يطلق اسم الشيء على صورة الشيء ، ومتى ملكت الامة بالجمعيات أمورها المعنوية ، وبالشركات أمورها المادية ، كانت جديرة بأن تقوّم أمر حكومتها ، وتقيمها على صراط شريعتها ، لهذا كان همنا منذ سنة المنار الاولى ، أن نذكر أهل العلم والرأي من المسلمين بهذه الطريقة المثلى ، اهتداء بقوله تعالى (٨٧:٩ فذكّر ان نفعت الذكرى ١٠ سيذّكرُ من يخشى) وليس بعد اقامة حجة الله في الورى ، الا فلاح من اتبع الهدى ، وهلاك من آثر الهوى (٢٢:٤٥ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله اللهُ على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكّرون !)

ألا وان أمر التربية والتعليم هو أهم مايجب أن يوكل الى الجماعات ، ولا يجوز أن يترك الى الافراد ولا الى الحكومات ، لان المدارس للافراد دكاكين لكسب المال، وللحكومات معامل لسبك العُمّال ، فكل

وعَمَرُوها أكثرَ مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

نعم انهم لم يسيروا في الارض، لاجل الاعتبار بسنن الله في الكون، فينظروا في سوء عاقبة الامم الجاهلة النائمة ، ومصير الدول المستبدة الظالمة ، وحسن عاقبة الامم العالمة العاملة ، وسيادة الدول المنظمة العادلة ، وكيف ان اصلاح الارض وعمران الدور، لا يغني عن إصلاح الاخلاق وارتقاء الجمهور ،ولو ساروا لما نظروا، ولو نظروا لما أبصروا، ولو أبصروا لما اعتبروا ، (٢٢:٤٦ أفلم يسيروا في الارض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؛ فانها لا تَعْمَى الابصارُ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وأي عمى أشد من عمى الاستبداد ؟ وهو مَصدر كل فساد وافساد، حتى انه يفسد الطباع ، ويغير الاوضاع ، ويقطع رابطة الزوجية ، ويزيل عاطفة الابوة والبنوة ، فيغري الولد بقتل والده ، والوالد بقتل ولده ، وكيف يؤمن على حياة أمته ، من لا يكبر عليه قتل والده أو ولده ، اذا هو نازعه في سلطته ، أو عارضه في ارادته ؟ فانتظار الأمم ان يكون صلاحها ورشادها ، ممن لاحظ لهم من حياتهم الا استذلالها واستعبادها ، اتباعا لترفهم ونعيمهم ، وافتتانا باطرائهم وتعظيمهم ، يشبه طلب العلم من الجاهلين، والتماس الهدى من الضالين، (١١ : ١١٧ فلولا كان من القرون من قَبلكم اولو بَقيَّةٍ يَنْهَوْنَ عن الفساد في الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين ١١٨ وما كان ربك ليُهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

ألا انه لا بقاء مع ظلم وفساد ، ولا عدل مع استبداد ، ولا هلاك

في نفسها كل ما هو أجنبي عنها ، فيقطعون جميع روابطها الملية ، ويزينون لها ذلك باسم المدنية ، فهم المنافذ والكوى التي يدخل منها الفساد ، وهم الآلات التي يستعين بها الاجانب على ادارة امر البلاد ، لأنهم تربية مدارسهم، بل صنع معاملهم ، او الجيش السلمي لشكناتهم ، ولا يتم لهم مايسمونه الفتح السلمي بدونهم، ولأجل هذا ربوهم هذه التربية المذبذبة ،وحشوا مخيلاتهم بمسائل العلوم المضطربة، فلاهم صاروابها اوربيين، ولاظلوامسلمين او شرقيين ، ولكنهم لغرورهم باسم المدنية الافرنجية يفسدون على الأمة أمرها ، ويزعمون انهم هم المصلحون لشأنها ، (٢: ١٠ واذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مُصلِحون ١١ الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)

هكذا ذفف على جرح هذه الامة من جعلوا انفسهم أساة لها وأطباء ، فكان اقتل أدوائها ما عالجوها به من الدواء، ومن كان له عقل وبصيرة، فليتدبر ما تقوله فيهم كتب الافرنج وصحفهم الشهيرة[1] ومن اهمه ما نقلته مجلة العالم الاسلامي الفرنسية،عن مجلة العالم الاسلامي الانكليزية، في سياق الكلام على فتح العالم الاسلامي (الذي نشرناه في ص ٥١٦ م ١٥) وهذا نصه : « اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي اسسها الاوربيون كان لها تأثير في حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربة كلها » !!! فاذا لم يكن للمسلمين مدارس ملية ، تديرها حكومة أو جماعات اسلامية، فتربيهم على مايجمعون به مصالحهم الدينية والدنيوية، واذا

(١) ومنها ما كتبه لورد كرومر في كتابه مصر الحديثة في سوء حال المتفرنجين

من الفريقين يتوخى في التعليم منفعته الخاصة ، وان باينت مصلحة الأمة العامة ، وانما تطلب الحكومة عمالا لها كالآلات ، لا ارادة لهم ولا رأي ولا استقلال ، والافراد يتبعون سننها ويسيرون على طريقها ، وانما ربح تجارتهم برواج بضاعتهم في سوقها ، وشر من ذلك ما ابتلي به جماهير المسلمين ، من ترك تربيتهم النفسية والعقلية الى خصومهم في السياسة والدين !!! فكانوا بهذا الخزي من الاخسرين ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فأنّى تصلح أمة تركت تجديدها وتكوينها ، الى من لاهم لهم الا ازالة ملكها ودينها ؟؟؟ كلا! انها كرّة خاسرة ، يخسرون بها الدنيا والآخرة ، (١٧٨:٧ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون)

الامم تصلح بالتربية ونحن قد افسدنا المربون ـ الافرنج والمتفرنجون ـ وترتقي بالعلم ونحن قد دلاّنا العلماء المقلدون المفتونون ، وتقوى وتعتز بجمع المدارس لكلمتها ، ونحن قد أوهنتنا وشقت عصانا المدارس ، لانها إما معاهد سياسية وإلحاد ، وإما أديار وكنائس ، قد قطعت روابط الامة الدينية والمدنية ، وفتنتها بالاهواء والشهوات الحيوانية ، وسرى سم تقليدها الى المدارس الاميرية والاهلية ، فالمتخرجون فيها أقلهم الذين يسلمون ، ومنهم الملحدون وأكثرهم الفاسقون ، يجرفون ثروة الامة الى الاجانب ، ويقذفونها بالفجور والنفوذ الاجنبي من كل جانب ، ويتغلبون فيها على المناصب ، فينالون منها جميع المآرب ، يحقرون لها سلفها ، ويعظمون

رجالهم ، الذين ليس لهم فينا اهواء دينية ، ولا مطامع سياسية استعمارية ، وبهذا نكون مهتدين بما امرنا الله به من السير في الأرض ، والاعتبار بأحوال الامم ، وبسنة سلفنا، في جعل الحكمة ضالتنا ، واعتقاد انها حيث وجدت فنحن أحق بها ، (٨: ٢٤ يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تُحشرون ٢٥ واتقوا فِتْنَةً لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً ، واعلموا أنّ الله شديد العقاب ٢٦ واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافونَ ان يتخطَّفكُمُ الناسُ فآواكم وأيَّدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ٢٧ يا ايها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم وانتم تعلمون *

الدعوة الى انتقاد المنار

أمر الله تعالى بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونهى عن الغيبة وتوعد المغتاب ومن يحب شيوع الفاحشة ، وأوعد الهمزة اللمزة ، بالويل الشديد والحطمة ، فنحن نذكر كل من يطلع على منارنا هذا بأمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وندعو من رأى فيه خطأ ان يذكرنا به قولا أو كتابة ، مبينا ذلك بالدليل والبرهان ، لا بقول فلان ورأي فلان ، مع أدب العبارة ، والاكتفاء منها بقدر الحاجة ، ونحن ننشر ان شاء الله تعالى كل ما يكتب الينا ، سواء كان لنا أو علينا ، اذا التزم الكاتب ماشرطنا ، ثم نبين ماعندنا فيه من قبول وإذعان ، أو رد أدبي مؤيد بالبرهان ، وليعلم كل عاقل منصف أن من يخطئنا ولا يكتب الينا ، فهو لا ثقة بعلمه ولا بدينه ولا بما يقوله فينا ، وانه حاسد مغتاب ، أو مدّع كذّاب ، والى الله المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب

منشئ المنار ومحرره
محمد رشيد رضا الحسيني

كانوا لا يعرفون للتعليم غاية الا المنفعة الشخصية ، وما يتخيلون من المنافع الحسيسة المادية ، فان اوربة تعرف كيف تنشئهم في مدارسها ومدارسهم خلقا جديدا ، يكونون بها على توهم الحرية خدما لها وعبيدا، فهم مقادون من امامهم ، ومسوقون من ورائهم، ولكن لا يدرون كيف بدءوا ولا اين ينتهون ، (١٦: ٢١ أمواتٌ غير أحياءٍ وما يشعرون أيّان يبعثون * ٣ : ١١٧ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عَنِتُّمْ قد بدتِ البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورهم اكبرُ ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون)

ألا اننا في اشد الحاجة الى الصناعات الافرنجية ، وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية ، والى الاعتبار بتاريخهم ، وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم ، ولكن يجب ان يقوم باقتباس ذلك جماعات منا ، يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا ومشخصاتنا ، وأركانُها اللغة والدين والشريعة والآداب[1] فمن فقد شيئا من هذه الاشياء فقدْ فقدَ جزءا من نفسه ، لا يمكن ان يستغني عنه بمثله من غيره ، كما انه لا يستغني بعقل غيره عن عقله ، ولا بجسم سواه عن جسمه ، وانما نستفيد من العبرة بحالهم ، كيف نرقي لغتنا كما رقوا لغاتهم ، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العمل بشريعتنا وآدابنا كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم ، ولنا ان نستعين على ما نستمده منهم ، بأهل الفضيلة والاستقلال من

(١) هذا التقسيم بحسب عرف العصر . والشريعة عند المسلمين بمعنى الدين والمراد بها هنا احكام المعاملات من السياسة والقضاء والادارة والحرب . وهي موضع اجتهاد أولي الامر في الدين الاسلامي . والآداب الاسلامية منبعها الدين وهي اعلى من آداب الافرنج وأكمل

ومناشئ غرورهم ، ثم لما لم يزدهم ذلك كله الا كفرا وعنادا - بين الله تعالى في هذه الآيات واقعة من وقائعهم مع موسى عليه الصلاة والسلام الذي أخرجهم الله على يديه من الرق والعبودية واضطهاد المصريين لهم ، الى الحرية والاستقلال وملك أمرهم ، وكونهم على هذا كله كانوا يخالفونه و يعادونه حتى فيما يدعوهم اليه من العمل الذي تم به النعمة عليهم في دنياهم التي هي أكبر همهم ، ليعلم الرسول بهذا ان مكابرة الحق ومعاندة الرسل خلق من أخلاقهم الموروثة عن سلفهم ، فيكون ذلك تسلية له (ص) ومزيد عرفان بطبائع الامم وسنن الاجتماع البشري . وبهذا يظهر حسن نظم الكلام ووجه اتصال لاحقه بسابقه . قال عز وجل :

﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ﴾ أي واذكر أيها الرسول لبني اسرائيل وسائر الناس الذين تبلغهم دعوة القرآن إذ قال موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه وأخرجهم من أرض العبودية : اذكروا نعمة الله عليكم بالشكر له والطاعة لأن ذلك يوجب المزيد ، وتركه يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد : ولفظ نعمة يفيد العموم بإضافته الى اسم الله تعالى ، وقد بين لهم موسى مراده بهذا العموم بذكر ثلاثة أشياء كانت حاصلة بالفعل ، بعد نعمة انقاذهم من المصريين التي هي بمعنى الدفع والسلب ، وهذه الاشياء الحاصلة المشهودة هي أعظم أركان النعم ومجامعها التي يندرج فيها مالا يحصى من الجزئيات الدينية والدنيوية ، وهي

(الاول) جعل كثير من الانبياء فيهم . وهذا يصدق بوجود المبلغ اذلك ووجود أخيه هرون عليهما السلام ، وتشعر مع ذلك بأن النعمة أوسع ، وان عدد هؤلاء الانبياء أكثر ، وانه غير محصور في الحاضرين ، وقيل كان عدد الانبياء فيهم كثيرا في عهد موسى ، حتى حكى ابن جرير ان السبعين الذي اختارهم موسى ليصعدوا معه الجبل اذ يصعده لمناجاة الله تعالى صاروا كلهم أنبياء . ومن المشهور ان يوشع فتى موسى (خادمه) كان نبيا ، ولا ندري أصار نبيا في زمنه أم بعده ؟ وأهل الكتاب لا يسمونه نبيا . والمشهور من معنى النبوة عندهم الإخبار ببعض الامور الغيبية التي تقع في المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل . وكان جميع أنبياء بني اسرائيل من بعد موسى

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٢٢*٢٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتٰكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعٰلَمِينَ (٢٣*٢٤) يٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللهُ لَكُمْ، وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خٰسِرِينَ (٢٤*٢٥) قَالُوا يٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دٰخِلُونَ (٢٥*٢٦) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمَا: ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غٰلِبُونَ (٢٦*) وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧) قَالُوا: يٰمُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقٰتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قٰعِدُونَ (٢٨) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفٰسِقِينَ (٢٩) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفٰسِقِينَ

لما أقام الله تعالى الحجج القيمة على بني اسرائيل، وأثبت لهم رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم حتى فيما أوحاه اليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبيائهم من البشارات وأخبار الغيب وتحريف الكتب ونسيان حظ منها، ونحو ذلك من الآيات الدالة على صدقه وكون ماجاء به من عند الله تعالى هو من جنس ماجاء به أنبياؤهم، الا انه أكمل منه على سنة الترقي في البشر، وأيد ذلك بدحض شبهاتهم وإبطال دعاويهم

ابن جرير مثله عن ابن عباس وعن مجاهد . وعن ابن عباس رواية أخرى سنأتي نصها وقد صححوا سندها . والمرفوع ضعيف السند . والمعنى الجامع لهذه الاقوال ، ان المراد بالملك هنا الاستقلال الذاتي والتمتع بنحو مايتمتع به الملوك من الراحة والحرية في البيوت ، وهو مجاز تستعمله العرب الى اليوم في جميع ماعرفنا من بلادهم. يقولون لمن كان مهنئا في معيشته ، مالكا لمسكنه ، مخدوما مع أهله ، : فلان ملك. او ملك زمانه ، أي يعيش عيشة الملوك . وترى مثل هذا الاستعمال المجازي في رؤيا يوحنا قال (١ : ٦ وجعلنا ملوكا وكهنة)

وذهب بعض المفسرين الى ان المعنى انه جعلهم ملوكا بالقوة والاستعداد ، بما آتاهم من الحرية والاستقلال ، وشريعة التوراة العادلة التي يرتقون بها في مراقي الاجتماع ، وهو بشارة بأنه سيكون منهم ملوك بالفعل ، لأن ما استعدت له الامة من ذلك في مجموعها ، لابد ان يظهر أثره بعد ذلك في بعض افرادها . وهذا المعنى لايعارض ماقبله ، بل يجامعه ويتفق معه ، فان تلك المعيشة المنزلية الراضية ، هي الاصل في الاستعداد لهذه المعيشة الثانية ، ـ عيشة الملك والسلطة ـ . فان الشعوب التي يفسد فيها نظام المعيشة المنزلية ، لاتكون أمة عزيزة قوية ، فهي اذا كان لها ملك تضيعه فكيف تكون أهلا لتأسيس ملك جديد ؟ فليعتبر المسلمون بهذا ، ولينظروا أين هم من العيشة الاهلية التي وصفناها .

(الامر الثالث) إيتاؤهم ما لم يؤت أحد من العالمين ، أي عالمي زمانهم وشعوبه التي كانت مستعبدة للملوك العتاة الطغاة كالقبط والبابليين روى الفريابي وابن جرير والمنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس في قوله « اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » قال : المرأة والخادم ، وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين » قال : الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ • وروى ابن جرير من طريق مجاهد عنه في الاخير أنه المن والسلوى • وروى هو وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد هذا المعنى مع زيادة الغمام الذي ظللهم في التيه ، وزاد بعضهم الحجر الذي انبجست منه العيون بعدد اسباطهم ، رواه ابن جرير ، وقد تقدم تفسير هذه الخصائص في سورة البقرة فيراجع في الجزء الاول من التفسير .

مؤيدين للتوراة عاملين وحاكمين بها حتى المسيح عليهم السلام . وللنصارى تحكم في اثبات النبوة ونفيها عمن شاؤا من أنبياء بني اسرائيل حتى انهم لا يعدون سليمان ابن داود نبيا !! بل حكيما أي فيلسوفا ، على ان كتبه هي أعلى كتبهم المقدسة علما وحكمة ، فهي أعلى من حكم الاناجيل التي عندهم ، وقد كان هذا مما ينتقده عامتهم على رؤساء كنيستهم ، حتى قال أحد الاذكياء اللبنانيين : ان الكنيسة لم تعترف بنبوة سليمان ليكون منتهى مبالغة المعجبين بحكمه وأمثاله من أهل الفهم ان يرفعوه الى مرتبة النبوة فيبقى دون المسيح ، وان رؤساء الكنيسة كانوا يخشون ان يقول الناس : انه احق من المسيح بالألوهية ، اذا هم اعترفوا له بالنبوة . أما علماء المسلمين الذين تكلموا في المفاضلة بين الانبياء فقد فضلوا المسيح على سليمان فهو عندهم في المرتبة الرابعة بعد محمد وابراهيم وموسى صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، وقد تقدم القول في المفاضلة في أواخر تفسير سورة النساء

(الثاني) جعلهم ملوكا . اولا ما ورد في التفسير المأثور عن النبي (ص) والصحابة والتابعين ، لكانت هذه النعمة موضع اشتباه عند المتأخرين الضعفاء في فهم العربية ، لان بني اسرائيل لم يكن فيهم ملوك على عهد موسى وانما كان أول ملوكهم — بالمعنى العرفي لكلمة ملك وملوك — شاول بن قيس ثم داود الذي جمع بين النبوة والملك . وان من يفهم العربية حق الفهم يجزم بأنه ليس المراد من الملوك هنا رؤساء الامم والشعوب الذين يسوسونها ويحكمون بينها ، لانه قال « وجعلكم ملوكا » ولم يقل : وجعل فيكم ملوكا . كما قال : جعل فيكم انبياء ، فظاهر هذه العبارة انهم كلهم صاروا ملوكا ، وان أريد بكل المجموع لا الجميع ، أي ان معظم رجال الشعب صاروا ملوكا بعد ان كانوا كلهم عبيدا للقبط . فمعنى الملك هنا الحر المالك لأمر نفسه ، وتدبير أمر أهله ، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال ، بعد ذلك الرق والاستعباد . يدل على ذلك التفسير المأثور في حديث ابي سعيد الخدري مرفوعا عند أبي حاتم « كانت بنو اسرائيل اذا كان لاحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا » وفي حديث زيد بن أسلم « من كان له بيت وخادم فهو ملك » ورواه أبو داود في مراسيله تفسيرا للآية بلفظ « زوجة ومسكن وخادم » وروى

نهر الفرات » (تك ١٥ : ١٨ وعد ٣٤ : ٢ - ١٢ وتث ١ : ١٧) وأ كثر هذه الاراضي كانت تحت سلطة سليمان • فكان التخم الشمالي حينئذ سورية ، والشرقي الفرات والبرية السورية ، والجنوبي برية التيه وأدوم ، والغربي البحر المتوسط • ه بنصه مع اختصار حذف به أكثر الشواهد • ولا حاجة لنا بغير الاخيرة منها وهي التي ذكرناها

فقوله تعالى « كتب الله لكم » يريد به موسى ما وعد الله به ابراهيم ، يعني كتب لهم الحق في سكنى تلك البلاد المقدسة بحسب ذلك الوعد ، أو في علمه . وليس معناه انها لهم تكون ملكا لهم دائما ، أو لا يزاحمهم فيها أحد . لان هذا مخالف للواقع وان يخلف الله وعده . فاستنباط اليهود من ذلك الوعد انه لا بد أن يعود لهم الملك في البلاد المقدسة غير صحيح . ويحسن هنا أن نذكر نص التوراة العربية الموجودة الآن في هذا الوعد : جاء في سفر التكوين انه لما مر ابراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب (١٢ : ٧ وقال لنسلك أعطي هذه الارض) وجاء فيه أيضا ما نصه (١٥ : ١٨ في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات) وهذا الوعد ذكر في سفر التكوين قبل ذكر ولادة اسماعيل . وجاء فيه بعد ذكر ولادة اسماعيل له ووعد الله بتكثير نسله وبكونهم يسكنون أمام جميع اخوتهم (١٧ : ٨ وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم) فهذا وذاك يدلان على ان العرب أولى أولاد ابراهيم بأن يكونوا أول من تناولهم العهد والميثاق ، والوفاء الابدي لا يتحقق الا به . والامر كذلك فقد أصبحت تلك البلاد كلها عربية محضة . وليس فيه بعد ذكر ولادة اسحق وعد لابراهيم مثل هذا ببلاد ولا بأرض . ولكن فيه أنه يقيم معه عهدا أبديا لنسله ، وان هذا العهد لاسحق دون اسماعيل . فما هذا العهد ؟ ان كان عهد النبوة فالواقع انها ليست أبدية في نسل اسحق لانها انقطعت بالفعل منهم من زهاء ألفي سنة . وكان خاتم النبيين من ولد اسماعيل . وان كان عهد امتلاك الارض المقدسة فهو لم يكن أبديا فيهم لانها نزعت منهم قبل العرب ثم أخذها

﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ فسر مجاهد المقدسة بالمباركة . وروى ابن عساكر عن معاذ بن جبل ان الارض المقدسة ما بين العريش الى الفرات • وروى عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة انها الشام • والمعنى واحد فالمراد بالقوابين القطر السوري في عرفنا. وهذا يدل على ان هذا التحديد لسورية قديم ، وحسبنا انه من عرف سلفنا الصالح وقالوا انه هو مراد الله تعالى ، ولا أحق ولا أعدل من قسمة الله تعالى وتحديده • وفي اصطلاح بعض المتأخرين ان سورية هي القسم الشمالي الشرقي من هذا القطر والباقي يسمونه فلسطين ، أو بلاد المقدس ، والمشهور عند الناس انها هي الأرض المقدسة. والقول الاول هو الصحيح فان بني اسرائيل ملكوا سورية ، فسورية وفلسطين شيء واحد في هذا المقام • ويسمون البلاد المقدسة أرض الميعاد فان الله تعالى وعد بها ذرية ابراهيم • ويدخل فيما وعد الله به ابراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب ، وقد خرج موسى ببني اسرائيل من مصر ليسكنهم الارض المقدسة التي وعدوا بها من عهد ابيهم ابراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم • وإنما كان يريد موسى عليه السلام بأرض الموعد والبلاد المقدسة ماعدا بلاد الحجاز التي هي أرض أولاد عمهم العرب •

قال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس : اختص اسم فلسطين أولا بأرض الفلسطينيين ، ثم اطلق على كل أرض الاسرائيليين غربي الاردن فكان يطلق عليها في الاصل اسم كنعان. وكانت فلسطين معروفة أيضا بالارض المقدسة وأرض اسرائيل وأرض الموعد واليهودية • وهي واقعة على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط بين سهول النهرين (الدجلة والفرات) والبحر المذكور ، و بين ملتقى قارتي آسيا وافريقية ، وهي متوسطه بين اشور ومصر و بلاد اليونان والفرس ــ الى ان قال ــ و يعسر علينا معرفة حدود فلسطين ، فانه مع دقة الشرح عن التخوم التي تفصل بين سبط وآخر لم يشرح لنا في الكتاب المقدس شرحا مستوفى تتميز به تخوم فلسطين عن تخوم الامم المجاورة لها • و يظهر ان هذه التخوم كانت تتغير من جيل الى جيل • أما الارض الموعود بها لابراهيم والموصوفة في كتابات موسى فكانت تمتد من جبل هور الى مدخل حماه ومن نهر مصر العريش » الى النهر الكبير

وهو يدل على انتفاء المعلول بانتفاء علته . وتحرير هـذا المعنى هو الذي أوحاه الله تعالى الى خاتم رسـله محمد النبي الامي (ص) بقوله في سورة الاسراء التي تسمى أيضا سورة بني اسرائيل. وملخصه انهم يفسدون في الارض مرتين قبل الاسلام ، فيسلط عليهم كل مرة من يذلهم ويستولي على مدينتهم ومسجدهم ويتبروا ما استولوا عليه منهما تتبيرا ، وقد كان ذلك . ثم قال (عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا) قال المفسرون وقد عادوا وعاد انتقام العدل الإلهي منهم . فسلط الله عليهم الروم قبل المسيحية وبعدها ثم المسلمين ، ومزقوا في الارض كل ممزق . وتدل بعض الآيات على ان الملك لا يعود اليهم ، ولولا ذلك لكانت آية (عسى ربكم) أرجى الآيات لهم . لانها تدل على ان الامر يدور من العلة وجودا وعدما ، وانهم ان عادوا الى الايمان الصحيح والاصلاح يعود اليهم ما فقد منهم . ولا يتحقق هذا الا بالاسلام ، فان أسلموا واتحدوا ببني عمهم العرب يملكون كل هـذه البلاد وغيرها ، ولكن الرجاء في هذا بعيد في هذا العصر ، لأن الاسرائيليين شديدو التقليد والجمود في جنسيتهم النسبية والدينية ، وهذا العصر عصر العصبية الجنسية للأقوام ، حتى ان كثيرا من شعوب المسلمين يحاولون رابطتهم الدينية ، لأجل شد عروة الرابطة اللغوية ، وان لم تكن لهم لغات ذات آثار يحرص عليها ، بل منهم من يتكلفون تدوين لغاتهم وتأسيسها لانها لم تكن لغات علم وكتاب. ثم ان أمر الدنيا غالب فيه على أمر الدين . واليهود يريدون ان يعيدوا ملكهم لهذه البلاد بتكوين وتأسيس جديد ، ويستعينون عليه بالمال وطرق العمران الحديثة

فيا دارها بالخيف ان مزارها   قريب ، ولكن دون ذلك اهوال

فان الشعوب النصرانية ودولها القوية تعارضهم في التغلب على بيت المقدس . والعرب أصحاب الارض كلها لا يتركونها لهم غنيمة باردة ، ولا تغني عنهم الوسائل الرسمية والمكايدة . وانما الذي يغني ويقني هو الاتفاق مع العرب على العمران ، فان البلاد تسع من السكان أضعاف من فيها الآن .

ويؤيد التعليل الذي بيناه أخيرا هذا النهي الذي عطف على الأمر بدخول الارض المقدسـة وهو ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ على أحـد

العرب وصارت لهم بالامتلاك السياسي ثم بالامتلاك الطبيعي، اذ غلبوا على سائر العناصر التي كانت فيها وأدغموها في جنسهم المبارك الذي وعد الله ابراهيم بأن يباركه و يثمره و يكثره جدا جدا و يجعله أمة كبيرة (راجع ١٧ : ١٨ من سفر التكوين)

نعم ان الفصل الرابع والثلاثين من سفر العدد صريح في أمر بني اسرائيل بدخول أرض كنعان واقتسامها بين أسباط بني اسرائيل . وهذا حق قد وقع فلا مراء فيه ، وهو يوافق ما قلناه قبل من أن بني اسرائيل يكون لهم حظ في تلك البلاد في وقت ما ، وان وعد الله لابراهيم (ص) يشمل ذلك ولكنه ليس خاصا بهم ، ولاهم أولى به من أولاد عمهم العرب، بل هؤلاء هم الاولى كما حصل بالفعل وكان وعد الله مفعولا

يوضح هذا ما نقله كاتب سفر تثنية الاشتراع عن موسى (ص) وهو (١ : ٦ الرب إلهنا كلمنا في حوريب قائلاً : كفاكم قعود في هذا الجبل ٧ تحوّلوا وارتحلوا وادخلوا جبل الاموريين وكل ما يليه من العربة (وفي الترجمة اليسوعية القفر) والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات ٨ أنظروا قد جعلت امامكم الارض . ادخلوا وتملكوا الارض التي أقسم الرب لآبائكم ابراهيم واسحق و يعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم) وأعاد التذكير بهذا الوعد في الفصل الثالث من هذا السفر ، وهذا النص هو المراد من الآية التي نفسرها ، وليس في العبارة شيء يدل على الاختصاص ولا التأبيد . و يدخل في عموم نسل ابراهيم نسل ولده اسماعيل

وأما ذكر اسحق و يعقوب هنا فلان الرب ذكرهما بوعده لابراهيم أبيهما وأكده لهما ولنسلهما . ولكن ليس فيه ذكر للتأبيد (تك ٢٦ و ٢٨) كما سبق في وعده لابراهيم وحده ، فالوعد المؤكد المؤبد انما كان لابراهيم، ولم يصدق الا بمجموع نسله وهم العرب والاسرائيليون .

ومما يجب التنبيه اليه ان ذكر الرب لاسحق ما وعد به أباه ابراهيم من اعطاء نسله تلك البلاد معلل بحفظ أوامره وفرائضه وشرائعه (تك ٢٦ : ٥ وخر ١٣) وهو عين الوعد الذي ذكره ليعقوب في المنام في الفصل ال ٢٨ وان لم يذكر هنالك التعليل:

ر أفسد عليهم باسهم، وكان بنو عناق الذين يسكنون أمامهم في أدنى الارض المقدسة اولي قوة واولي بأس شديد، وكانوا كبار الاجسام، طوال القامات، وهو المراد من كلمة جبارين.

فالجبار يطلق في اللغة على الطويل القوي والمتكبر والقتال بغير حق والعاتي المتمرد والذي يجبر غيره على ما يريد والقاهر المتسلط والملك العاتي. وكله مأخوذ من قولهم: نخلة جبارة، أي طويلة لا ينال ثمرها بالايدي، وان عد الزمخشري هذا من المجاز في أساسه، لان الصيغة صيغة المبالغة لاسم الفاعل من جبره على الشيء كأجبره. والصواب أن الاصل في الالفاظ ان تكون موضوعة لما يدرك بالحواس، ويتفرع عنها ما وضع لما يدرك بالعقل والاستنباط. وقد رجعت بعد جزمي بما ذكرت الى لسان العرب فاذا هو ينقل مثل هذا او ما يؤيده. ذكر الآية وقال: قال اللحياني أراد الطول والقوة والعظم، قال الازهري كأنه ذهب به الى الجبار من النخيل، وهو الطويل الذي فات يد المتناول. ويقال جبار اذ كان طويلا عظيما قويا، تشبيها بالجبار من النخل اه وقال الراغب: أصل الجبر اصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال جبرته فانجبر واجتبر وقد جبرته فجبر كقول الشاعر * قد جبر الدينَ الاله فجبر * هذا قول اكثر أهل اللغة ــ الى ان قال ــ والجبار في صفة الانسان يقال لمن يجبر نقيصته بشيء من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال الا على طريقة الذم. وذكر عدة آيات فيها الآية التي نفسرها، ثم قال: ولتصور القهر بالعلو على الاقران قيل نخلة جبارة وناقة جبارة اه وكأنه اراد ان يجمع بين المعنيين لمادة الجبر ــ معنى العلو والقوة ومعنى جبر الكسر وجبر الجرح، وما اخذ منه كجبر المصيبة بالتعويض عما فقد، وجبر الفقير باغنائه ــ. وكل هذه المعاني تدخل في معنى جبار النخل الذي هو القوة والنماء والطول

والجبار من اسماء الله تعالى فيه معنى العظمة والقوة والعلو على خلقه وكونه لا يمكن ان يناله أحد بتأثير ما، ومعنى جبر القلب الكسير، وإغناء البائس الفقير، ومعنى جبر الخلق بما وضعه من السنن الحكيمة والمقادير المنتظمة على ما اراده من التدبير، وهو العليم الخبير. وهو مثل اسم المتكبر مدح للخالق وذم للمخلوق، اذ ليس

الوجهين في تفسيره ، وهو لا ترجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل والهدى ، الى الوثنية أو الفساد في الارض بالظلم والبغي واتباع الهوى، فيكون هذا الرجوع الى الوراء انقلاب خسران تخسرون فيه هذه النعم، ومنها الارض المقدسة التي ستعطونها جزاء على شكر النعم التي تقدمتها ، فتعود الدولة فيها لأعدائكم ، وذلك ان شكر النعم مدعاة المزيد منها ، وكفرها مدعاة سلبها وزوالها . والوجه الآخر في الارتداد على الأدبار : النكوص عن دخولها والجبن عن قتال من فيها من الوثنيين ، وقد فرض الله عليهم قتالهم، والخسران على هذا قيل هو خسران ثواب الجهاد ، وخيبة الامل في امتلاك البلاد ، والذي أجزم به ان المراد بالخسران تحريم الارض المقدسة على المخاطبين وحرمانهم من خيراتها وبركاتها التي ورد في بعض أوصافها انها « تفيض لبنا وعسلا » وعقابهم بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم كما سيأتي . فان هذا الخسران هو الذي وقع بالفعل وبينه الله في الكتاب ، فلا معدل عنه . ولا يعارضه كون الله تعالى كتبها لهم ، فان هذه الكتابة ليست لأولئك الافراد بأعيانهم وانما هي لشعبهم وأمتهم . ومثل هذا الخطاب الذي يوجه الى الامم والأقوام معهود في عرف الناس ولغاتهم : يسند الى الحاضرين المخاطبين ، ما كان من أعمال سلفهم الغابرين ، ويبشرون أو يوعدون بما لا يكون الا لخلفهم الآتين، كبشارة النبي (ص) لقومه بأنهم سيفتحون القسطنطينية قبيل قيام الساعة. على ان الله حرمها على جمهور الذين خالفوا وعصوا أمر موسى بدخولها ، ولما دخلوها بعد التيه كان قد بقي من الذين خوطبوا بأنها كتبت لهم بقية ، فقال بعض المفسرين ان كونها كتبت لأولئك المخاطبين بأعيانهم يصدق بهؤلاء ، من باب إطلاق العام وارادة الخاص . ولكن الاسلوب الفصيح يأبى هذا التوجيه اللفظي كل الإباء . وقال السدي ان المراد بالكتابة هنا الامر فمعنى « كتب الله لكم » أمركم بدخولها . وهو بعيد أيضا . والمتبادر أنه كتب لهم ذلك في الكتاب وما أوحاه الى آبائهم ، ويؤيده الواقع، ولولاه لكان المعنى كتب لكم ذلك في علمه، أي أثبته بقضائه وقدره

﴿ قالوا : ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فانا داخلون ﴾ كان استعباد المصريين لبني اسرائيل قد أذلهم

الذي مر تفسيره : أرسلهم موسى الى الجبارين فوجدوهم يدخل في كم أحدهم اثنان منكم ، ولا يحمل عنقود عنبهم الا خمسة أنفس بينهم في خشبة ، ويدخل في شطر الرمانة اذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة .

وهذه القصة مبسوطة في الفصل الثالث عشر والرابع عشر من سفر العدد الذي هو السفر الرابع من اسفار التوراة . وفي أولها ان الجواسيس تجسسوا ارض كنعان كما امروا ، وانهم قطعوا في عودتهم زرجونة فيها عنقود عنب واحد حملوه بعتلة بين اثنين منهم مع شيء من الرمان والتين ، وقالوا لموسى وهو في ملأ بني اسرائيل : ١٢ : ٢٩ قد صرنا الى الارض التي بعثتنا اليها فاذا هي بالحقيقة تدرّ لبنا وعسلا (*) وهذا ثمرها ٢٩ غير ان الشعب الساكنين فيها اقوياء والمدن حصينة عظيمة جدا . ورأينا ثم ايضا بني عناق - الى ان قال الكاتب — ٣١ وكان كالب يسكت الشعب عن موسى قائلا : نصعد ونرث الارض فانا قادرون عليها ٣٢ واما القوم الذين صعدوا معه (أي للتجسس) فقالوا : لا نقدر ان نصعد الى الشعب لأنهم أشد منا ٣٣ وشنعوا عند بني اسرائيل على الأرض التي تجسسوها وقالوا . . . هي أرض تأكل أهلها وجميع الشعب الذين رأيناهم فيها طوال القامات ٣٤ وقد رأينا ثم من الجبابرة جبابرة بني عناق فصرنا في عيوننا كالجراد وكذلك كنا في عيونهم » هذا آخر الفصل وذكر في الفصل الذي بعده تذمر بني اسرائيل من أمر موسى لهم بدخول تلك الأرض وانهم بكوا وتمنوا لو انهم ماتوا في أرض مصر أو في البرية وقالوا (١٤ : ٣ لماذا أتى الرب بنا الى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ؟ أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر) الخ

فأنت ترى انه ليس في الرواية المعتمدة عند بني اسرائيل تلك الخرافات التي بثوها بين المسلمين في العصر الاول وانما فيها من المبالغة أنهم لخوفهم ورعبهم من الجبارين احتقروا أنفسهم حتى رأوها كالجراد واعتقدوا أن الجبارين رأوهم كذلك ، وأما حمل زرجون العنب والفاكهة بين رجلين فلا يدل على مبالغة كبيرة في عظمها وقد يكون سبب ذلك حفظها لطول المسافة

(*) يشير بهذا الى ما في « ٣ : ٨ » من سفر الخروج وهو وعد الله لموسى بان ينقذ قومه من ظلم المصريين الى أرض تفيض لبنا وعسلا

لمخلوق ان يبالغ في معنى الجبر وهو العظمة والعلوّ والامتناع ، كما انه ليس له ان يتكبر بأن يظهر للناس المرة بعد المرة انه كبير الشأن ، ولو بالحق ، فكيف اذا كان ذلك بالباطل كما هو شأن البشر ، فان الكبير بالفعل لا يتعمد و يتكلف أن يظهر للناس انه كبير و إنما يتعمد ذلك ويتوخاه من يشعر بصغار نفسه في باطن سره ، فيحمله حب العلوّ على تكلف إخفاء هذا الصغار بما يتكلفه من اظهار كبره ، فيكون من خُلقه ان لا يخضع للحق ولا يقدر الناس قدرهم، لأن جعله نفسه اكبر من الحق ومن الناس فلا يرضى ان يكونوا فوقه . ولذلك فسر النبي (ص) الكبر بهذا المعنى الذي هو موضع النقص وسبب المؤاخذة فقال « الكبر من بطر الحق وغمط الناس» رواه ابو داود والحاكم من حديث ابي هريرة بسند صحيح . واما تكبر الخالق عز وجل وهو اظهار كبريائه وعظمته لعباده المرة بعد المرة فهو - على كونه لا يكون الا حقا لانه تعالى أكبر من كل شيء وأعظم - تربية لهم وتغذية لإيمانهم ، يوجه قلوبهم الى الكمال الأعلى فيقوى استعدادهم لتكميل انفسهم وعرفانهم بها ، فيكونون أحقاء بألاّ يرفعوها عن مكانها بالباطل ، ولا يسفهوها فيعرضوا لها بالخسائس. وانما أطلنا في تفسير كلمة جبارين واستطردنا الى اسم الجبار والمتكبر من اسماء الله تعالى لما نعلمه من ضلال بعض الناس في فهم الاسمين الكريمين .

أما ماروي في التفسير المأثور من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الاسرائيليات الخرافية التي كان يبثها اليهود في المسلمين، فرووها من غير عزو اليهم ، كقولهم ان العيون الاثنى عشر الذين بعثهم موسى الى ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الارض ومن فيها قبل ان يدخلها قومه، رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم في كسائه أو في حجزته ، وفي رواية كان أحدهم يجني الفاكهة فكان كلما أصاب واحدا من هؤلاء العيون وضعه في كمه مع الفاكهة . وفي رواية ان سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا في ظل خف رجل من هؤلاء العماليق . وامثل ماروى في ذلك وأصدقه قول قتادة عند عبد الرزاق وعبد بن حميد في قوله تعالى « ان فيها قوما جبارين » قال : هم أطول منا أجساما وأشد قوة . وأفرطوا في وصف فاكهتهم كما أفرطوا في وصفهم، فروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى « اثني عشر نقيبا »

الكتاب . فهما اللذان كانا يحثان القوم على الطاعة ودخول أول بلد للجبارين ثقة بوعد الله وتأييده . والظاهر ان قوله « يخافون » معناه يخافون الله تعالى ، وقيل يخافون الجبارين ، ومعنى النعمة هنا نعمة الطاعة والتوفيق حتى في حال الخوف على القول بأنهما كانا من جملة الخائفين طبعا . ﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾ أي باب المدينة ﴿ فاذا دخلتموه فانكم غالبون ﴾ بنصر الله وتأييده لكم اذا طعتم أمره، وصدقتم وعده، ﴿ وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ﴾ أي وعليكم بعد ان تعملوا مايدخل في طاقتكم من طاعة ربكم ، ان تكلوا أمركم اليه وتثقوا به فيما لا يصل اليه كسبكم ، فان التوكل إنما يكون بعد بذل الوسع ، في مراعاة السنة وامتثال الامر، ان كنتم مؤمنين بأن ما وعدكم ربكم على لسان نبيكم حق ، وانه قادر على الوفاء لكم بوعده ، اذا أنتم قمتم بما يجب عليكم من طاعته وشكره ، والوفاء بميثاقه وعهده ،

﴿ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ أي لم تنفع بني اسرائيل موعظة الرجلين بل أصروا على التمرد والعصيان ، وأكدوا لموسى القول بأنهم لايدخلون تلك الارض التي فيها الجبارون أبدا أي مدة الزمن المستقبل ماداموا فيها ، لأن دخولها يستلزم القتال والحرب ، ويئسوا لذلك بأهل ، وقالوا لموسى ما معناه : إن كنت أخرجتنا من أرض مصر بأمر ربك لنسكن هذه الارض التي وعد بها آباءنا وقد علمت ان هذا يتوقف على القتال وانا لا نقاتل ـ فاذهب أنت وربك الذي أمرك بذلك فقاتلا الجبارين واستأصلا شأفتهم او اهزماهم واخرجاهم منها ، إنا ههنا قاعدون منتظرون ومتوقعون، أو قاعدون عن القتال أي غير مقاتلين ، فقد استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى كقوله تعالى (وقيل اقعدوا مع القاعدين) وقوله (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون) الآية . وقد حاول بعض المفسرين حمل هذا القول السمج الخارج من حدود الآداب ، على معنى مجازي يليق بأهل الايمان ، ككون المراد بذهاب الرب إعانته ونصره ، وقال بعضهم لاحاجة الى مثل هذا مع أمثال هؤلاء القوم الذي عبدوا العجل ، وكان من فساد فطرتهم وجفاء طباعهم ما يبنه

والعبرة في هذه الروايات الاسرائيلية التي راجت عند كثير من علماء التفسير والتاريخ وقلّ من صرح ببطلانها ، أو الرجوع الى كتب اليهود المعتمدة ليقفوا على المعتمد عليه عندهم فيها ، اذ لم يقفوا عند ما بينه القرآن ، من أخبار الانبياء والاقوام ، هي انه لو كان النبي (ص) أخذ ماجاء به عن بعض أهل الكتاب كما يزعم بعضهم وبعض الملاحدة ! لكان ماجاء به نحو مانبذ كره هؤلاء الرواة الذين غشهم اليهود ، مع انه كان يسهل عليهم الاطلاع من كتبهم ، والتمييز بين حكاياتهم عن اعتقادهم وبين كذبهم ، مالا يسهل على الرجل الامي في مثل مكة التي لم يكن فيها يهود ولا كتب ، وأ كثر أخبار الانبياء والامم في السور المكية

وملخص معنى الآية ان موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة أمرهم بدخولها ، مستعدين لقتال من يقاتلهم من أهلها ، وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل باضطهاد المصريين لهم وظلمهم اياهم ، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم وقوة أهل تلك البلاد ، وحاولوا الرجوع الى مصر، كما كان بعض العبيد يرجعون باختيارهم الى خدمة سادتهم في أمريكة بعد تحريرهم كلهم ومنع الاسترقاق بقوة الحكومة ، لأنهم ألفوا تلك الخدمة والعبودية وصارت العيشة الاستقلالية شاقة عليهم ، وقالوا لموسى انا لن ندخل هذه الارض مادام هؤلاء الجبارون فيها ، كأنه يريدون ان يخرجهم منها بقوة الخوارق والآيات لتكون غنيمة باردة لهم ، وجهلوا ان هذا يستلزم ان يبقوا دائما على ضعفهم وجبنهم ، وان يعيشوا بالخوارق والعجائب مادامو في الدنيا ، لا يستعملون قواهم البدنية ولا العقلية في دفع الشر عن أنفسهم ، ولا في جلب الخير لها ، وحينئذ يكونون أكفر الخلق نعم الله ، فكيف يؤيدهم بآياته طول الحياة ! والحكمة ان مثل هذا التأييد انما يكون لبعض أصفياء الله تعالى موقتا بقدر الضرورة ، فهو خلاف السنة العامة كالدواء بالنسبة الى الغذاء . وقولهم « فان يخرجوا منها فانا داخلون » تأكيد لمفهوم ماقبله مؤذن بأنه لاعلة لامتناعهم الا ماذكروه

﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ اتفق رواة التفسير على ان الرجلان هما يوشع (١) بن نون وكالب بن يفنّة ، وفاقا لرواية التوراة عند أهل

(١) هكذا نطقت به العرب واهل الكتاب يقولون يشوع

﴿ قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض ﴾ أي قال الله لموسى مجيبا لدعائه، اجابة متصلة به : فانها أي الارض المقدسة محرمة على بني اسرائيل تحريما فعليا - لا تكليفيا شرعيا - مدة أربعين سنة يتيهون في الارض، أي يسيرون في برية من الارض تائهين متحيرين لا يدرون أين يذهبون في سيرهم . فالتيه الحيرة ، يقال تاه يتيه - ويتوه لغة - ويقال مفازة تيهاء اذا كان سالكوها يتحيرون فيها لعدم الأعلام التي يهتدى بها . والتحريم المنع ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ أي فلا تحزن عليهم لانهم فاسقون مستحقون لهذا التأديب الإلهي . وسنبين هذا وحكمة الله تعالى فيه . وقال الراغب :الاسى الحزن، وحقيقته إتباع الفائت الغم، يقال اسيت عليه اسى واسيت له .

ذكرنا قبل أن هذه القصة مفصلة في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من سفر العدد ، وذكرنا شيئا منهما . وفي الفصل الرابع عشر ان بني اسرائيل لما تمردوا وعصوا امر ربهم سقط موسى وهرون على وجوههما امامهم ، وان يوشع وكالب مزقا ثيابهما ونهيا الشعب عن التمرد وعن الخوف من الجبارين ليطيعو، فهم الشعب برجمهما ، وظهر مجد الرب لموسى في خيمة الاجتماع (١١ وقال الرب لموسى : حتى متى يهينني هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم ؟ ١٢ اني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم) فشفع موسى فيهم لئلا يشمت بهم المصريون وبه ، فقبل الرب شفاعته ثم قال (٢٢ ان جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية وجربوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا قولي ٢٣ لن يروا الارض التي حلفت لآبائهم ، وجميع الذين أهانوني لا يرونها) واستثنى الرب كالبا فقط . ثم قال لموسى وهرون (٢٧ حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علي ؟ قد سمعت تذمر بني اسرائيل الذي يتذمرونه علي ٢٨ قل لهم « حي أنا » يقول الرب ، لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني ٢٩ في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمروا علي ٣٠ لن تدخلوا الارض التي رفعت يدي لاسكننكم فيها ماعدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون ٣١ وأما

الله تعالى في كتابه ، والتوراة التي في أيديهم تؤيد ذلك أشد التأييد ، تارة بالاجمال وتارة بأوسع التفصيل . والقرآن يبين صفوة الوقائع ومحل العبرة فيها ، لا ترجمة جميع الاقوال بحروفها ، وشرح الاعمال ببيان جزئياتها ، فما يقصه من أمور بني اسرائيل هو الواقع وروح ما صح من كتبهم او تصحيح ما حرف منها ، وهذه العبارة منه تدل على منتهى التمرد والمبالغة في العصيان والاصرار عليه ، والجفاء والبعد عن الادب ، فلا وجه لتأويلها بما ينافي ذلك

﴿ قال ربِّ اني لا املك إلا نفسي وأخي ﴾ هذا القول من موسى عليه السلام ، صورته خبر ومعناه انشاء ، فهو من بث الحزن والشكوى الى الله ، والاعتذار اليه والتنصل من فسق قومه عن أمره ، الذي يبلغه عن ربه ، ومعنى العبارة إنني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسي وأمر أخي ، ولا أثق بغيرنا ان يطيعك في اليسر والعسر والمنشط والمكره . وهذا يدل على انه لم يكن يوقن ثبات يوشع وكالب على ما كانا عليه من الرغبة والترغيب في الطاعة ، اذا أمره الله بأن يدخل أرض الجبارين ويتصدى لقتالهم هو ومن يتبعه ، فان الذي يجرأ على القتال مع الجيش الكثير ، يجوز ألا يجرأ عليه مع النفر القليل ، واما ثقته بأخيه فلعلمه اليقيني بأن الله تعالى أيده بمثل ما أيده به ، ولو لم يعلم هذا باعلام الله ووحيه ، وما يجده من الوجدان الضروري في نفسه ، لكان بلاؤه معه في مقاومة فرعون وقومه ، ثم في سياسة بني اسرائيل معه وفي حال انصرافه لمناجاة ربه ، ما يكفي للثقة التامة . فلفظ « أخي » معطوف على « نفسي » وجعله بعضهم معطوفا على الضمير في « إني » أي وأخي كذلك لا يملك الا نفسه .

﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ الفرق الفاق والفصل بين الشيئين أو الاشياء ، ومنه فرق الشعر ، ويطلق على القضاء وفصل الخصومات ، وذلك قسمان حسي ومعنوي ، ومعنى الجملة هنا : فافصل بيننا — يعني نفسه وأخاه — وبين القوم الفاسقين عن الطاعة وهم جماعة بني اسرائيل ، بقضاء تقضيه بيننا ، اذ صرنا خصما لهم وصاروا خصما لنا . وقيل معناها : اذا أخذتهم بالعقاب على فسوقهم فلا تعاقبنا معهم في الدنيا ، وقيل في الآخرة . والاول هو المختار الموافق لقوله :

نصب أو جوع، أو كلفوا أمرا يشق عليهم، يتطيرون بموسى ويتململون منه، ويذكرون مصر ويحنون الى العودة اليها ، وما غاب عنهم أياما لمناجاة ربه اتخذوا لهم عجلا من حليهم الذي هو أحب شيء اليهم وعبدوه ! لما رسخ في نفوسهم من إكبار سادتهم المصريين واعظام معبودهم العجل (أبيس) وكان الله تعالى يعلم انهم لا تطيعهم نفوسهم المهينة على دخول أرض الجبارين، وان وعده تعالى لاجدادهم انما يتم على وفق سنته في طبيعة الاجتماع البشري اذا هلك ذلك الجيل الذي نشأ في الوثنية والعبودية للبشر وفساد الاخلاق ، ونشأ بعده جيل جديد في حرية البداوة ، وعدل الشريعة ونور الآيات الإلهية ، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم ، حتى يبين لهم حجته عليهم ، ليعلموا انه لم يظلمهم وانما يظلمون أنفسهم ، وعلى هذه السنة العادلة أمر الله تعالى بني اسرائيل بدخول الارض المقدسة ، بعد ان أراهم عجائب تأييده لرسوله اليهم ، فأبوا واستكبروا فأخذهم الله تعالى بذنوبهم ، وانشأ من بعدهم قوما آخرين ، جعلهم هم الأئمة الوارثين ، جعلهم كذلك بهممهم وأعمالهم ، الموافقة لسننه وشريعته المنزلة عليهم . ـ فهذا بيان حكمة عصيانهم لموسى بعد ما جاءهم بالبينات ، وحكمة حرمان الله تعالى لذلك الجيل منهم من الارض المقدسة

فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بينها الله تعالى لنا ، ونعلم ان اصلاح الامم بعد فسادها بالظلم والاستبداد ، إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها ، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها ، وقد كان يقوم بهذا في العصور السالفة الانبياء ، وإنما يقوم بها بعد ختم النبوة ورثة الانبياء ، الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع، وبين البصيرة والصدق والاخلاص في حب الاصلاح ، وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

أطفالكم الذين قلتم انهم يكونون غنيمة فأني سأدخلهم فيعرفون الارض التي احتقرتموها ٣٢ فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر ٣٣ و بنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة ، و يحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر ٣٤ كعدد الايام التي تجسستم فيها الارض أربعين يوما للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي ٣٥ أنا الرب قد تكلمت لأ فعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ ، في هذا القفر يفنون ، وفيه يموتون)

لا نبحث هنا في هذه العبارات التي أثبتناها ، ولا في ترك ما تركناه من الفصل في موضوعها ، لا من حيث التكرار ، ولا من حيث الاختلاف والتعارض ، ولا من حيث تنزيه الرب وتعالى ، ولا نبحث عن كاتب هذه الاسفار بعد سبي بني سرائيل . وانما نكتفي بما ذكرناه شاهدا ، ونقول كلمة في حكمة هذا العقاب ، تبصرة وذكرى لأولي الالباب ، وهي :

ان الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد ، وتساس بالظلم والاضطهاد ، تفسد أخلاقها ، وتذل نفوسها ، و يذهب بأسها ، وتضرب عليها الذلة والمسكنة ، وتألف الخضوع ، وتأنس بالمهانة والخنوع ، واذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الاخلاق موروثة ومكتسبة ، حتى تكون كالغرائز الفطرية ، والطبائع الخلقية ، اذا أخرجت صاحبها من بيئتها ، ورفعت عن رقبته نيرها ، ألفيته ينزع بطبعه اليها ، و يتفلت منك ليتقحم فيها ، وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه و يجرون عليه من خير وشر ، وايمان وكفر ، وقد ضرب النبي (ص) مثلا لهدايته وضلال الراسخين في الكفر من أمة الدعوة فقال « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، و يجعل يحجزهن و يغلبنه فيتقحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها » رواه الشيخان

أفسد ظلم الفراعنة فطرة بني اسرائيل في مصر ، وطبع عليها بطابع المهانة والذل ، وقد أراهم الله تعالى مالم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى عليه السلام ، و بين لهم انه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذل والعبودية والعذاب ، الى الحرية والاستقلال والعز والنعيم ، وكانوا على هذا كله اذا أصابهم

هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه — وهكذا كان عباد الاصنام سواء — وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها (١) من البشر. قال الله تعالى حاكيا عن اسلاف هؤلاء المشركين (والذين اتخذوا من دونه أولياء: ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) ثم شهد عليهم بالكفر والكذب وأخبر انه لا يهديهم فقال (٢) (ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار) فهذه حال من اتخذ من دون الله وليا يزعم انه يقربه الى الله، وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادي من انكره!

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم ان آلهتهم تشفع لهم عند الله. وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد الا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء، فانه يأذن سبحانه لمن شاء في الشفاعة لهم حيث لم يتخذوهم شفعاء من دونه، فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعا من دون الله

والشفاعة التي أثبتها الله ورسوله هي الشفاعة الصادرة عن أذنه لمن وحده، والتي نفاها الله (٣) الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفاعتهم ويفوز بها الموحدون. فتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة ـ وقد سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله؟ قال ـ « أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله الا الله خالصا من قلبه » كيف جعل أعظم الاسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين ان الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله، فقلب النبي

---

(١) وفي نسخة « اتخذها » (٢) هذه الجملة بين طرفي الآية ساقطة من نسختنا

(٣) المنار: نفى الله الشفاعة نفيا مطلقا ومقيدا، فالمطلق كقوله { انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} والمقيد كقوله { ما للظالمين من شفيع ولا حميم يطاع } ومنها ما أشار اليه المصنف

﴿ كتاب مدارج السالكين . بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ﴾

هذا الكتاب للامام الحافظ المحقق ابن قيم الجوزية ، شرح فيه كتاب (منازل السائرين) في التصوف لشيخ الاسلام ابي اسماعيل الهروي شرحا بين فيه غوامضه ، وفصل بين مايوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه ، فهو أفضل كتب التصوف وأنفعها ، وهو يطبع الآن في مطبعة المنار ، وقد أوشك ان يتم طبع الجزء الاول منه ، وقد رأينا أن ننشر هذا الفصل منه تعجيلا بالفائدة لقراء المنار ، ولشدة الحاجة اليه.
قال المصنف رحمه الله تعالى في سياق بيان انواع الكفر :

﴿ فصل ﴾

وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر . فالاكبر لا يغفره الله الا بالتوبة منه ، وهو ان يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار (تالله ان كنا لفي ضلال مبين * اذ نسويكم برب العالمين) مع اقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه ، وان آلهتهم لاتخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت . وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم ، بل كلهم يحبون معبوديهم و يعظمونها ويوالونها من دون الله . وكثير منهم بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، و يستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم اذا ذكر الله وحده ، و يغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون اذا انتقص أحد رب العالمين ، واذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوديهم غضبوا غضب الليث اذا حرد ، واذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها ، بل اذا قام المنتهك لها باطعامهم شيئا رضوا عنه ولم تتنكر له قلوبهم . وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة ، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ان أقام وان قعد وان عثر وان مرض وان استوحى (١) فذكر إلهه ومعبوده من دون الله

(١) كتب في هامش نسختنا « لعله وان استوحش » وفي النسخة الثالثة . « وان استوى » أي جالسا أو راكبا أو قائما

ورماك بتنقص الإلهية (١) التي له ور بما عاداك . رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بعداوتهم و بغوا لنا الغوائل (٢) والله مخزيهم (٣) في الدنيا والآخرة ، ولم تكن حجتهم الا ان قالوا كما قال اخوانهم : عاب آلهتنا . فقال هؤلاء تنقصتم مشايخنا وأبواب حوائجنا الى الله . وهكذا قال النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم لما قال لهم : ان المسيح عبد (٤) ، قالوا : تنقصت المسيح وعبته . وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانا تعبد ومساجد ، وأمر بزيارتها على الوجه الذي اذن الله فيه ورسوله، قالوا : تنقصت أصحابها . فانظر الى هذا التشابه بين قلوبهم حتى كأنهم قد تواصوا به و (من يهدي الله فهو المهتدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)

وقد قطع تعالى الاسباب التي تعلق بها المشركون جميعها قطعاً يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً او شفيعاً فهو (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً و ن اوهن البيوت لبيت العنكبوت) فقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) فالمشرك انما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع . والنفع لا يكون الا ممن فيه خصلة من هذه الاربع : إما مالك لما يريده عابده منه ، فان لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ، فان لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فان لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى سبحانه المراتب الاربع نفياً مترتباً متنقلا (٥) من الاعلى الى ما دونه (٦) فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك ، واثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة باذنه ، فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد وقطعاً لاصول الشرك ومواده لمن عقلها ، والقرآن مملوء من أمثالها

(١) وفي نسخة « رماك بانتقاص الآلهة » الخ (٢) يقول مصحح الكتاب : نحمد الله ان كان لنا في المصنف وأمثاله من الدعاة الى توحيد الله أسوة ، فقد رأينا ما رأى وابتلينا بما ابتلي (٣) وفي نسخة « يجزيهم (٤) وفي نسخة « عبد الله » (٥) وفي نسخة مرتباً متنقلا (٦) وفي نسخة الادنى

صلى الله عليه وسلم ما في زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع ان يشفع .

ومن جهل المشرك اعتقاده ان من اتخذه وليا أو شفيعا انه يشفع له وينفعه عند الله كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم ، ولم يعلموا ان الله لا يشفع عنده احد لا باذنه ، ولا يأذن في الشفاعة الا لمن رضي قوله وعمله كما قال تعالى في الفصل الأول (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟) وفي الفصل الثاني (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) وبقي فصل ثالث ، وهو انه لا يرضى من القول والعمل الا التوحيد واتباع الرسول ، وعن هاتين الكلمتين يسأل الاولين والآخرين كما قال أبو العالية : كلمتان يسئل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون ؟(١) وماذا أجبتم المرسلين ؟ فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها : لا شفاعة الا باذنه ، ولا يأذن الا لمن رضي قوله وعمله ، ولا يرضى من القول والعمل الا توحيده واتباع رسوله (٢) فالله تعالى : لا يغفر شرك العادلين به غيره كما قال تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين انهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة كما في الآية الأخرى (تالله ان كنا لفي ضلال مبين * اذ نسويكم برب العالمين) وكما في آية البقرة (يحبونهم كحب الله)

وترى المشرك يكذب حاله وعمله لقوله فانه يقول : لا نحبهم كحب الله ولا نسويهم بالله . ثم يغضب لهم ولحرماتهم اذا انتهكت أعظم مما يغضب لله ، ويستبشر بذكرهم ويتبشبش به (٣) سيما اذا ذكر عنهم ما ليس فيهم من اغاثة اللهفات ، وكشف الكربات ، وقضاء الحاجات ، وأنهم باب بين الله وبين عباده . ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه ويهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة ، واذا ذكرت له الله وحده وجردت توحيده ، لحقته وحشة وضيق وحرج (٤)

(١) كتب في هامش نسختنا هنا «تعملون» (٢) وفي نسخة «رسله» (٣) يقال تبشبش به اذا آنسه وواصله وفي نسخة «ويستأنس» بدل «ويتبشبش» (٤) فات المصنف ان يستشهد هنا بقوله تعالى (واذا ذُكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) ولا فرق بين المشرك الذي لا يؤمن بالآخرة البتة ، والمشرك الذي يؤمن بها على غير الوجه الذي بينه الرسول (ص)

في يناير الماضي بعد وفاة ابن عمه. وقد اسلم هذا اللورد الآن وأُعلن اسلامه في حفلة للجمعية الاسلامية بلندن، وكان هو نفسه حاضرا في وليمة الجمعية السنوية

قال في اجتماع البارحة «اني باعلان اسلامي الآن لم أحد مطلقا عما اعتقدته منذ عشرين سنة، ولما دعتني الجمعية الاسلامية لوليمتها سررت جدا لأتمكن من الذهاب اليهم واخبارهم بالتصاقي الشديد بدينهم وأنا لم أهتم بعمل أي شيء لاظهار نبذي لعلاقتي بالكنيسة الانكليزية التي نشأت في حجرها، كما أني لم أحفل بالرسميات في إعلان إسلامي، وان كان هو الدين الذي اتمسك به الآن

إن عدم تسامح المتمسكين بالنصرانية كان أكبر سبب في خروجي عن جامعتهم، فانك لا تسمع أحداً من المسلمين يذم أحداً من أتباع الاديان الأخرى كما تسمع ذلك من النصارى بعضهم في بعض، فإن المسلمين وإن كان يحزنهم عدم اهتداء الناس إلى دينهم إلا أنهم لا يحكمون على كل من خالفهم بالهلاك الابدي

إن طهارة الاسلام وسهولته وبعده عن الاهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت كل هذه الاشياء أكبر ما أثر في نفسي. وقد رأيت في المسلمين من الاهتمام بدينهم والاخلاص ما لم أر مثله بين النصارى، فان النصراني يحترم دينه عادة يوم الاحد حتى إذا ما مضى الاحد نسي دينه طول الاسبوع: وأما المسلم فبعكس ذلك، يحب دينه دائما، وسواء عنده أكان اليوم يوم الجمعة أو غيره، ولا يفتر لحظة عن التفكر في كل عمل يكون فيه عبادة الله

وإني وإن كنت اعتنقت الاسلام الا أني لازلت نصرانيا، بمعنى أني لازلت مؤمنا بالمسيح ومتبعا تعاليم المسيح، فان الاسلام يصدق بتعاليم جميع الانبياء على حد سواء فلا يفرق بين موسى والمسيح ومحمد «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» اه كلام هدلي

ثم قالت الجريدة المذكورة: إن اللورد (هدلي) هو مهندس. وفي المسابقة الرياضية التي جرت في كمبردج حاز قصب السبق في الملاكمة مثل المستر النسون وين (Allanson Winn)

﴿ لماذا أسلمت ﴾

وجاء في جريدة الأبزرفر الأسبوعية (The Observer) في عددها الصادر في ٢٣ نوفبر الماضي تحت عنوان (لماذا أسلمت) بقلم اللورد هدلي (Headley) ما ترجمته حرفيا: —

ونظائرها ولكن اكثر الناس لا يشعر (١) بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنه في نوع، وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله أن كان اولائك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لاولائك، ولكن الامر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « انما تنقض عرى الاسلام عروة عروة اذا نشأ في الاسلام من لا يعرف الجاهلية » (٢) وهذا لانه اذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه واقره، ودعا اليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف انه هو الذي كان عليه اهل الجاهلية أو نظيره، أو شر منه (٣) أو دونه، فينتقض (٤) بذلك عرى الاسلام ويعود المعروف منكرا والمنكر معروفا، والبدعة سنة والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الايمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الاهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا والله المستعان اهـ

اسلام اللورد هدلي

وما قاله وكتبه في سببه

خاضت جرائد العالم في اسلام « اللورد هدلي » الانكليزي فكتب بعضها ما وقف عليه كما هو على سبيل الخبر، وزعم بعضهم إن اسلامه اسلام سياسي ليمثل المسلمين في مجلس اللوردات! وابى بعض المتعصبين من النصارى الا ان يشوب الخبر بشوائب التلبيس وايهام القارئ ان اللورد لا يزال نصرانيا يؤمن بالثالوث ويجمع بين الضدين أو النقيضين: التوحيد والتثليث. وكأن هذا التلبيس والايهام قد استنبط من كلمة عزيت الى اللورد. واننا ننشر ما نقلته جريدة مسيحية انكليزية عن اللورد وما كتبه هو عن اسلامه فنقول:

جاء في جريدة الديلي ميل الصادرة في ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ تحت عنوان (اسلام اللورد هدلي) ما يأتي:

اللورد هدلي هو البارون الخامس في بيته (عائلته) وقد ارتقى الى هذه الرتبة

(١) وفي نسخة لا يشعرون (٢) وفي نسخة من لم يعرف الجاهلية (٣) وفي نسخة أو أسوأ (٤) وفي نسخة فينقض. ولعله الاصل الصحيح

يحاول قط أن يكون له فيّ أقل تأثير ، ولكنه كان حقيقة كقاموس حيّ يفسر ويترجم لي ـ مع الصبر ـ ما لم يتضح لي من آيات القرآن . وكان سلوكه هذا مسلك المبشر الاسلامي الحقيقي الذي لا يحاول إرغام سامعيه أو التأثير فيهم . فان الدخول في الاسلام يجب ـ كما يقول القرآن ـ أن يكون بارادة الانسان الحرة وبرأيه الذاتي بدون أي وسيلة من وسائل الاكراه . وكذلك أراد عيسى أيضا حينما قال (مر ٦: ١١ وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوه من هناك ...)

إني أعرف حوادث عديدة جدا لبعض البروتستانت المتحمسين الذين يظنون أنه يجب عليهم أن يزوروا بيوت الكاثوليك ليحولوهم إلى مذهبهم ، ومثل هذا التعدي الجارح قبيح طبعا . وقد أدى في الاكثر الى إثارة الاحقاد التي نشأت عنها مشاحنات وجعلت الدين يزدرى . وإني ليحزنني أن أرى أن دعاة النصرانية قد سلكوا هذا الطريق عينه مع اخوانهم المسلمين ، ولا يمكنني أن أفهم كيف يريدون أن يدعوا الى النصرانية من هم في الحقيقة أفضل منهم نصرانية (أو قال نصارى أفضل منهم) لم أقل « نصارى أفضل منهم » جزافا فان ما في الاسلام من الخير والتسامح وسعة المدارك أقرب إلى ما دعا اليه المسيح من تلك العقائد الضيقة التي أخذت بها فرق النصارى المختلفة

عقيدة اثناسيوس (١)

أذكر مثلا واحدا وهو عقيدة أثناسيوس التي تشرح الثالوث شرحا في غاية التعقيد . في هذه العقيدة ـ وهي كبيرة الاهمية جدا وتنص على احدى العقائد الاساسية للكنائس المسيحية ـ ترى جليا أنها عقيدة الجمهور وأننا إذا لم نأخذ بها نهلك هلاكا أبديا . ثم يقال لنا إنه « يجب علينا أن لا نفكر في الثالوث بغير ذلك » وبعبارة أخرى إن الاله الذي نصفه في لحظة بالرحمة والقدرة ، نصفه في اللحظة الثانية بالظلم والقسوة ، وهو ما نحاشى أن نصف بها أقسى البشر السفاكين ، فكأن الله تعالى القديم الذي فوق كل شيء يكون خاضعا لما يذهب اليه الهالك المسكين (يريد الانسان) في أمر الثالوث .

وهاك مثلا آخر من أمثلة بعدهم عن الخير : أتاني كتاب بمناسبة ميلي للاسلام يقول لي فيه كاتبه : إنني إن لم أومن بلاهوت المسيح فلا سبيل لي إلى الخلاص . أما مسألة ألوهية المسيح هذه فلم يظهر لي أنها تقرب في أهميتها من تلك المسألة الاخرى وهي : هل بلغ رسالة ربه للبشر ؟ فلو كان عندي الآن أي شك في هذه المسألة

(١) حاشية للمترجم : عاش هذا الرجل بين سنة ٢٩٦ ـ ٣٧٣ م

عقيدة الاسلام

أخذت صحف عديدة تخوض في معتقدي الديني ، ويسرني أن أرى أن جميع الانتقادات التي وجهت إليّ للآن كانت بلهجة لطيفة ، وما كان ينتظر أن الخروج عما الفه الناس واعتادوه لايلفتُ الأنظار اليه ، وذلك مما يسرني . إني أحب مهنتي ومولع بالألعاب الرياضية ، ولم يكن لي في ذلك غرض لطلب الشهرة وبعد الصيت ، ولكن لو كان عملي في هذه الحالة سببا في جعل الناس كبيري المدارك سمحاء فأنا في غاية الاستعداد لأن أتحمل بكل صبر أي نوع من الاساءة والاستهزاء

أتاني في يوم كتاب من نصرانيّ متمسك بدينه يقول لي فيه : إن الاسلام هو دين شهوات، وإنه كان لنبيه عدة زوجات . فما أعجبها من فكرة عن الاسلام ! ! ولكنها هي الفكرة السائدة على عقول تسعة وتسعين من كل مائة بريطاني ، فانهم لايتعبون أنفسهم في البحث عن حقائق دين يدين به مائة مليون من اخوانهم الخاضعين لهم . نبيّ العرب المقدس كان على الأخص حصورا عن الشهوات طاهراً ، فكان مخلصاً لزوجته الوحيدة خديجة التي كانت أكبر منه بخمس عشرة سنة ، وكانت أول من آمنت ببعثته . وبعد موتها تزوج عائشة ثم تزوج أيضا عدة أرامل لاصحابه الذين قتلوا في الحرب لا لأنه كان له أدنى رغبة فيهن بل ليعولهن ويقوم بكفالتهن ويرفع مقامهن إلى منزلة ما كن يصلن اليها بغير ذلك . وكان عمله هذا ملتئما مع بعده عن الأنانية ومع حياته الشريفة العالية . وكان من شدة زهده في هذه الحياة أنه ما كان يملك ما يكفيه من العيش

نحن البريطانيين تعودنا أن نفخر بحبنا للانصاف والعدل ، ولكن أي ظلم أعظم من أن نحكم ـ كما يفعل أكثرنا ـ بفساد الاسلام قبل أن نلم بشيء من عقائده ، بل قبل أن نفهم معنى كلمة إسلام ؟

القرآن والدعوة

من المحتمل أن بعض أصدقائي يتوهم أن المسلمين هم الذين أثروا فيّ ، ولكن هذا الوهم لاحقيقة له ، فان اعتقاداتي الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيت فيه عدة سنين . أما مذاكراتي الفعلية مع المتعلمين من المسلمين في موضوع الدين فلم تبدأ الا منذ أسابيع قليلة ، ولا حاجة بي إلى القول بأني ملئت سرورا حينما وجدت نظرياتي ونتائجي متفقة تمام الاتفاق مع الدين الاسلامي . وأما صديقي الخوجة كمال الدين فلم

الله من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان. وقد سبق لحكيمنا الكبير السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى كلمة مثل كلمة اخينا اللورد هدلي. ذلك ان سائلا سأله عن سبب الدعوة الى المذهب (النيشري) المادي في الهند فقال: ان الذين أرادوا حل رابطة المسلمين في الهند دعوهم أولا الى النصرانية فلم تنجح دعوتهم لان الاسلام مسيحية وزيادة، فانه يقرر الايمان بالمسيح وبما جاء به من التوحيد والفضائل ويبطل ما زاده النصارى في دينه من الخرافات، - أي مع زيادة في المعارف الالهية والآداب والفضائل والهدي الكامل - فلما خابت هذه الدعوة رأوا ان يشككوهم في الدين المطلق الخ ما قاله وقد ذكرناه بالمعنى. ولولا العصبيات المذهبية، والاحقاد السياسية، وسوء حال مسلمي هذه الازمنة وبعدهم عن حقيقة الديانة الاسلامية، وجهل الافرنج بها وبلغتها العربية، ثم هذا الحجاب الذي اسدلته العلوم والاعمال المادية، ومقت الدين الذي أثارته الخرافات الكنيسية، وما كان قبل من قسوة السلطة البابوية، لكان هؤلاء الافرنج أجدر الناس في هذا العصر بالاسلام، دين العقل والعلم والحضارة والسلام، الذي كشف ماغشي كتب الانبياء من الخرافات والأوهام، ورفع امتيازات الاجناس والاصناف والاقوام. ودعا الناس كافة الى الإخاء والوحدة والاعتصام. ولا بد أن يجلى حقه لهم بعد احقاب ان لم يكن بعد اعوام، وقد ظهرت بوادر ذلك بما يكتشفون في هذه الايام، من غرائب آياته تعالى في الانفس والعقول والقوى والاجسام، وقد قال في كتابه المجيد (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق. أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم، ألا انه بكل شيء محيط)

وأما الكلمة الثانية من كلمتي (اللورد هدلي) فهي إخباره بأن كثيرا من قومه مسلمون، أي قد ظهر لهم نور الاسلام، فانقشعت به ظلمات الاوهام، وتلك الظلمة الوثنية، التي غشيت تعليم المسيح النورانية، فعلموا أن دين محمد هو دين المسيح عليهما السلام، ولكنه غير أديان الكنائس المنسوبة الى المسيح بين انهم مسلمون في باطنهم ولكنهم يخافون ان يظهروا اسلامهم كما كان يخاف هو مدة عشرين سنة، وانما يخافون ان يحتقرهم قومهم، ويمتعض منهم أهلهم، لأن تعصبهم للدين وللمذهب شديد جداً، وان خفي هذا عن سفهاء المتفرنجين منا الذين يزعمون ان جميع الافرنج مارقون من الدين. لانهم لميلهم الى الالحاد لايجذبون الا الى أهله، وقد يحملون من الكلام عليه مالايراد به منه، كما انهم لافتتانهم بالفسق يظنون ان جميع نساء الافرنج بغايا، وانهم لاهمّ لهم من حياتهم

الاخيرة لضايقني كثيرا ، ولـكني ـ ولله الحمد ـ لا أشك فيها ، وأرجو أن يكون إيماني بالمسيح وبما أوحاه الله اليه ثابتا كايمان أي مسلم أو أي نصراني به . وكما قلت من قبل مرارا إن الاسلام والنصرانية ـ التي أتي بها المسيح نفسه ـ هما توأمان لم يفرق بينهما الا الأهواء والاصطلاحات التي يحسن أن تنبذ ظهريا في هذه الأيام. يميل الناس الى الالحاد حينما يطالبون بالأخذ بعقائد جامدة لاتحمل التسامح، وان كانوا ـ ولا شك ـ لفي شوق الى دين يذعن لحكم العقل كما يذعن للوجدان. من سمع بمسلم انقلب ملحدا ؟ يجوز أن يوجد أحوال قلائل كهذه ولـكنني مع ذلك أشك في وجودها كل الشك

خوف الانتقاد

إني أعتقد أنه يوجد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون بالاسلام في قلوبهم، ولـكن مخالفة الاجماع وخوف الانتقاد العدائي والرغبة في اجتناب كل ضيق أو تغيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم . قد سلـكت الآن نفس هذا المسلك . على أني أعلم أن كثيرا من أصدقائي وأقربائي ينظرون الي كأني روح ضالة تستحق الدعاء لها، مع أن عقيدتي الآن هي عين عقيدتي منذ عشرين سنة، ولـكن جهري بها هو الذي أفقدني حسن ظنهم بي إن الخوف هو السبب في وجود أحوال لاتحصى من الشقاء والشر في هذا العالم ، ولو اتبع الناس الصراحة في القول لقل سوء التفاهم بينهم، ولزاد احترامهم ، ولنقتبس هنا كلمة المستر (بلفور) الحـكيمة وهي قوله « لا ناصح أضر من الفزع إلا اليأس » ولـكن أفضل أن أقول في هذه الحالة « هناك ناصح أضر وأشد خطراً من الشك أو الـكفر ألا وهو الخوف »

وحيث اني قد أتيت هنا بملخص بعض الاسباب التي حملتني على اعتناق الاسلام وقد بينت أني أعتبر نفسي بهذا العمل نصرانيا أكمل بكثير مما كنت من قبل، فلذا أرجو أن يقتدي بي غيري في ذلك ، فانه خير لاشك فيه . وفيه السعادة لـكل من يرى أن عملي هذا ارتقاء لايراد به أي عداء للنصرانية الصحيحة . اه

(المنار) في كلام أخينا اللورد هدلي كلمتان جديرتان بالاعتبار (احداهما) قوله : ان الاسلام هو النصرانية التي كان عليهـا ودعا اليها المسيح عليه السلام . وهذا حق فان دين جميع رسل الله (عليهم السلام) واحد في اصوله وجوهره ، وانما كان بيان خاتمهم (محمد صلى الله عليه وسلم) أتم وأكمل على سنة الارتقاء في الحياة ، وقد حفظه

تاريخ الجهمية والمعتزلة (١)

(١٣) ما نتج من تعصب الجهمية والاثرية وبيان آفة الغلو في التعصب

(قال الامام الغزالي) في احياء علوم الدين : واما الكلام — اي علم الكلام — فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها اهل السنة من السلف الصالح لا غير

(ثم قال) ويحتاج اليه لمناظرة مبتدع ، ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي ،وذلك لاينفع الا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم. اما المبتدع بعد ان يعلم من الجدل ولو شيئا يسيراً ، فقلما ينفع معه الكلام، فانك ان افحمته لم يترك مذهبه ، واحال بالقصور على نفسه ، وقدر ان عند غيره جوابا ما ، وهو عاجز عنه ، وانما انت ملبس عليه بقوة المجادلة. واما العامي اذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن ان يرد اليه بمثله قبل ان يشتد التعصب للاهواء ، فاذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ،اذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس ، وهو من آفات علماء السوء ، فانهم يبالغون في التعصب للحق ،وينظرون الى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة ، وتتوفر دواعيهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا اليه ،ولو جاؤا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير، لانجحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لا يقوم الا بالاستتباع ، ولا يستميل الاتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب

*) تابع لما نشر في ج ١٢ م ١٦ ص ٩١٣

ولا اشتغال لهم الا بالشهوات البهيمية ، وسبب ذلك انهم لايبحثون الا عن ذلك . ولو كان همّ الذين يذهبون الى أوربة منهم موجها الى علم من العلوم أو فن من الفنون أو صناعة من الصناعات ، لبدا لهم من اهتمام الافرنج به مايحملهم على الظن بأنه لاهمّ لهم في غيره. على ان في الافرنج من يهتم بافساد دين الشرقي لافساد جامعته التي يعتصم بها

هذا واننا كنا منذ ميزنا وعقلنا نسمع من أهلنا وأصحابنا أن كثيرا من نصارى بلادنا يوقنون بحقية الاسلام ولا يجرؤون على اظهار ذلك لقومهم ، ومنهم من يدخل في الاسلام ويؤدي فرائضه كلها أو بعضها في الخفاء ، حتى اتفق ذلك لبعض رؤساء الاديار ، وأخبرنا والدي رحمه الله تعالى أنه عاد فلانا القائمقام في أحد أقضية جبل لبنان في مرض موته — وكان صديقا له — فخلا به فأشهده على نفسه انه مسلم يشهد أن لا إله الا الله وان محمد رسول الله . وأذكر أنني رأيت ذلك الرجل وكنت طالب علم فسألني عن بعض الاحاديث النبوية وكان يذكر النبي (ص) بتعظيم فوق المعتاد في مجاملة أدباء النصارى للمسلمين، فحملت ذلك على المبالغة في المجاملة

وانني أعرف افراداً من فضلاء النصارى المستقلين يودون لو كان في البلاد حرية دينية يعذرهم بها أهلهم اذا هم أسلموا ، منهم من يود لو كان مسلما اعتقادا منه بأفضلية الاسلام ورجحانه على جميع الاديان ، ومنهم من يود ذلك لغرض سياسي اجتماعي وهو التمكن من التأثير في اصلاح بلاده التي يجزم بأنها لاتصلح الا اذا صلح المسلمون وجاروا الامم القوية في اسباب العزة والحضارة . وهذا الصنف كثير جدا . ولو كان للاسلام حكومة تقيم بنيانه ، وتنفذ أحكامه ، وتحمل الامة على فضائله ، وتظهر للناس حقيقة عدله وسماحته ، لرأيت الناس يدخلون فيه أفواجا ، ولكن رؤساء المسلمين هم أشد تنفيرا عن الاسلام من دعاة الاديان الاخرى ورؤسائها ، ومن كل أحد . وما هذه الاعوارض لاتدوم ، اذ وعد الله تعالى بان يظهره على الدين كله وكان الله قويا عزيزا

بحيث صار يرثه المتأخر عن المتقدم ، حتى اصبح يبغض القريب قريبه اذا وجده يخالف رأيه ، ويلصق به كل تهمة شنعاء ولو اقام على صحة رأيه مئين من البراهين ، بل بلغ احتقار بعضهم لبعض مبلغا دفع به ان يحنق على مخالفه ، ويتحين الفرص للايقاع به ، حتى اذا بدرت منه هفوة ، أو ظهرت زلة — ولا معصوم الا المعصوم — رفع مخالفه عقيرته بتأنيبه ، وملأ الأرض والسماء صراخا بتشهيره ، غير مبال بما حظره الشرع مما يولد البغضاء والشحناء ، ويفكك عرى الاخاء ، ولاملام على الدهماء من ترويج مثل هذه الخطة الشائنة لغرقهم في بحار الجهل ، وانما يلام قادة الافكار على احتذائهم هذا الحذو ، ونسجهم على هذا المنوال ، اذ لولا صخب هؤلاء الرهط ، وبثهم هذه الالقاب في النفوس ، لكانت الامة متماسكة الاجزاء ، متينة عرى المحبة بين الإفراد .

نعم لا بأس ان تنتقد الاقوال ، وتُضَعَّف بالبرهان ، ويوضح كل خطإ ينجم عنها ، ولكن الذي يجب التوقي منه هو ان يتشاحن قادة العقول ويتطاحنوا ويتباغضوا لما لا يصح ان يكون سببا معقولا ، وان يثب كلٌّ على مخالفه وثبة الغادر المنتقم ، فيود ان ينكل به أو يمزقه شر ممزق ، فيقتفي إثرهم مقلدهم ، فتصبح الامة اعداء متشاكسة ، واحزابا متنافرة ، بشؤم التعصب الذميم ، الذي لم يتمكن من امة الا وذهب بها مذهب التفرق والانحطاط ، واضعف قواها ، واحاق بها الخطوب والارزاء ، فمن الواجب العمل على ملاشاة الشحناء والشقاق ، والقيام بالتحاب والاتفاق ، وبالله التوفيق

عادتهم وآلتهم ، وسموه ذبا عن الدين ، ونضالا عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ، ورسوخ البدعة في النفوس اهـ

(وقال الغزالي) رحمه الله ايضا - في الجدل المذموم ومضراته : وله ضرر آخر في تاكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيتها في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ، ويشتد حرصهم على الاصرار عليه (قال) ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . ولذلك ترى المبتدع العامي يمكن ان يزول اعتقاده باللطف في اسرع زمان . الا اذا كان نشوءه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب ، فانه لو اجتمع عليه الاولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره ، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي على قلبه . ويمنعه من ادراك الحق ، حتى لو قيل له : هل تريد ان يكشف الله تعالى لك الغطاء ، ويعرفك بالعيان ان الحق مع خصمك ؟ لكره ذلك خيفة ان يفرح به خصمه (قال) وهذا هو الداء العظيم الذي استطار في البلاد والعباد ، وهو نوع فساد اثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره اهـ

وقال العلامة المقبلي في العلم الشامخ : واعلم ان الخلاف والتعصب والتحزب هو الذي حمل سيوف بعض المسلمين على بعض ، وحلل دماءهم واموالهم واعراضهم ، وحرف الكتاب والسنة ، ثم صيرهما كالعدم بسد باب الاجتهاد اهـ

(وقال ايضا) ثم ترتب على الافتراق تقويم كل لعمود الشقاق ، وصار كل منهم انما يعتز بمن مال اليه من الملوك على خصمه اهـ

وبالجملة فمن اعظم آفات التعصب ما نشأ عنه من التفرق والتعادي ،

اصحابنا في اثبات الصفات وخلق الاعمال . واما المشبهة فقد كفرهم مخالفوهم من اصحابنا ومن المعتزلة، وكان الاستاذ ابو اسحق يقول : اكفر من يكفرني ، وكل مخالف يكفرنا فنحن نكفره والا فلا »

ثم قال الرازي : « والذي نختاره ان لا نكفر احدا من اهل القبلة والدليل عليه ان نقول المسائل التي اختلف اهل القبلة فيها مثل ان الله تعالى هل هو موجد لافعال العباد أم لا ؟ وانه هل هو متحيز ، وهل هو في مكان وجهة ، وهل هو مرئي ام لا ؟ لايخلو اما ان تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها اولا تتوقف ، والاول باطل ، اذ لو كانت معرفة هذه الاصول من الدين ، لكان الواجب على النبي صلى الله عليه وسلم ان يطالبهم بهذه المسائل ، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها ، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل ، بل ماجرى حديث من هذه المسائل في زمانه عليه السلام ، ولا في زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ؛ علمنا انه لايتوقف صحة الاسلام على معرفة هذه الاصول ، واذا كان كذلك لم يكن الخطأ في هذه المسائل قادحا في حقيقة الاسلام ، وذلك يقتضي الامتناع من تكفير اهل القبلة » اه

ثم قال الامام ابن تيمية بعد ذلك : «والاصل في هذا الباب ان الالفاظ نوعان مذكور في كتاب الله وسنة رسوله وكلام اهل الاجماع، فهذا يجب باعتبار معناه وتعليق الحكم به ، فان كان المذكور به مدحا استحق صاحبه المدح ، وان كان ذما استحق الذم ، وان اثبت شيئا وجب اثباته وان نفى شيئا وجب نفيه ، لأن كلام الله حق وكلام رسوله حق ، وكلام اهل الاجماع حق . ومن دخل في اسم مذموم في الشرع

(١٣) حظر الائمة للمحققين ، رمي فرق المسلمين بالكفر والفسق

من اعظم ما بليت به الفرق الاسلامية ، رمي بعضها بعضا بالفسق والكفر ، مع ان قصد كل الوصول الى الحق ، بما بذلوا جهدهم لتأييده واعتقاده ، والدعوة اليه ، فالمجتهد منهم وإن اخطأ مأجور (وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية) في كتابه موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول[١] عن الامام الرازي(في نهاية العقول) فى مسألة التكفير مامثاله:

«قال الشيخ ابو الحسن الاشعري في اول كتاب(مقالات الاسلاميين): اختلف المسلمون بعد نبيهم في اشياء ضلل فيها بعضهم بعضا وتبرأ بعضهم من بعض فصاروا فرقا متباينين ، الا ان الاسلام يجمعهم فيعمهم . فهذا مذهبه ، وعليه اكثر الاصحاب ، ومن الاصحاب من كفر المخالفين

« واما الفقهاء ، فقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه قال : لا أرد شهادة اهل الاهواء الا الخطابية ،[٢] فانهم يعتقدون حل الكذب . واما ابو حنيفة رضي الله عنه ، فقد حكى الحاكم صاحب المختصر في كتاب المنتقى عن ابي حنيفة انه لم يكفر احدا من اهل القبلة . وحكى ابو بكر الرازي عن الكرخي وغيره مثل ذلك .

« واما المعتزلة ، فالذين كانوا قبل ابي الحسين تحامقوا وكفروا

---

(١) جزء ١ صفحة ٤٩ وما بعدها من الطبعة الاميرية على حاشية منهاج السنة (٢) فرقة من غلاة الشيعة منسوبة الى ابي الخطاب محمد بن مقلاص كان قبحه الله من الغلاة في جعفر الصادق عليه السلام ادعى له علم الغيب وغير ذلك حتى لعنه الصادق مرارا لفساد عقيدته وخبثه وكذبه عليه وقد تبرأ الصادق عليه السلام منه ، ومن اراد الوقوف على اخبار ابي الخطاب فليرجع الى كتاب رجال الشيعة للكشي فقد اسهب في شأنه في عدة اوراق اهـ

ونحوهم ، وفي الجملة فالكفر متعلق بما جاء به الرسول لا بمجرد مايعلم بالعقل، فكيف يجوز ان يكون الكفر بامور لا تعلم الا بالعقل ؟ الا ان يدل الشرع على ان تلك الامور التي لا تعلم الا بالعقل كفر ، فيكون حكم الشرع مقبولا، لكن معلوم ان هذا لا يوجد في الشرع بل الموجود في الشرع تعليق الكفر بما يتعلق به الايمان ، وكلاهما متعلق بالكتاب والرسالة، فلا ايمان مع تكذيب الرسول ومعاداته ، ولا كفر مع تصديقه وطاعته

ومن تدبر هذا رأى اهل البدع من النفاة يعتمدون على مثل هذا فيبتدعون بدعا بآرائهم ، وليس فيها كتاب ولا سنة ، ثم يكفرون من خالفهم فيما ابتدعوه ، وهذا حال من كفر الناس بما أثبتوه من الاسماء والصفات التي يسميها هو تركيبا وتجسيما واثباتا لحلول الصفات والاعراض به ونحو ذلك من الاقوال التي ابتدعها الجهمية والمعتزلة ثم كفروا من خالفهم فيها » اه كلام الامام ابن تيمية رحمه الله

ولب هذا كله قوله « فلا ايمان مع تكذيب الرسول ومعاداته ، ولا كفر مع تصديقه وطاعته » وما ذكره ونقله قبل هو الفيصل في هذا الباب

وقال رحمه الله في شرح الاصفهانية : « خاصة اهل السنة المتبعين للرسول صلى الله عليه وسلم هي انهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاد ، حيث عذره الله ورسوله » اه وانما رحموه لانهم تجمعهم معه اخوة الايمان ، وقد قال تعالى « رحماء بينهم » فالمؤمنون مهما اختلف اجتهادهم، وتباينت مداركهم ، فهم اخوة يتراحمون ، يتآلفون ولا يتباغضون، ولا يلزم من اختلاف الرأي اختلاف القلوب ، وبالله التوفيق

كان مذموما كاسم الكافر والمنافق والملحد ونحو ذلك ، ومن دخل في اسم محمود في الشرع كان محمودا كاسم المؤمن والتقي والصدّيق ونحو ذلك »

«واما الالفاظ التي ليس لها اصل في الشرع ، فتلك لايجوز تعليق المدح والذم والاثبات والنفي على معناها ، الا ان يبين انه يوافق الشرع، والالفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب كلفظ الجسم والحيز والجهة والجوهر والعرض ، فمن كانت معارضته بمثل هذه الالفاظ لم يجز له ان يكفر مخالفه ان لم يكن قوله مما يبين الشرع انه كفر ، لأن الكفر حكم شرعي متلقى عن صاحب الشريعة ، والعقل قد يعلم به صواب القول وخطؤه ، وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفرا في الشرع ، كما انه ليس كل ما كان صوابا في العقل يجب في الشرع معرفته . ومن العجب قول من يقول من اهل الكلام : ان اصول الدين التي يكفر مخالفها هي علم الكلام الذي يعرف بمجرد العقل ، واما مالايعرف بمجرد العقل فهي الشرعيات عندهم ، وهذه هي طريقة المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم كاتباع صاحب الارشاد وأمثالهم فيقال لهم : هذا الكلام يتضمن شيئين : احدهما ان اصول الدين هي التي تعرف بالعقل المحض دون الشرع. والثاني ان المخالف لها كافر ، وكل من المقدمتين وان كانت باطلة ، فالجمع بينهما متناقض ، وذلك ان مالا يعرف الا بالعقل لا يعلم ان مخالفه كافر الكفر الشرعي ، فانه ليس في الشرع ان من خالف ما لا يعلم الا بالعقل يكفر ، وانما الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما اخبر به ، او الامتناع عن متابعته ، مع العلم بصدقه ، مثل كفر فرعون واليهود

ان نبز الفرق المتجادلة بتلك الألقاب اوجب ان تصرف الالباب عن النظر في ادلة كل منها ، لتزن المقبول منها بمعياره ، والمردود بمقداره ، لأنها حاولت الضغط على الافكار ، وحرمانها من حرية البحث والنظر والتأمل ، لتحملها على رأي واحد ، ومذهب منفرد ، وذلك ما كان ولن يكون

ان اختلاف الآراء لا يدعو بطبيعته الى الحفائظ والاضغان ، وغرس الاحقاد والشنآن ، ولكن اكثر الفرق استولت على مناظريها الضغائن ، فذهبت بهم مذهب التشفي والانتقام ، هذه بالنبز بالالقاب السوءى ، وتلك بها او بسلطتها الجائرة ، واضطهادها لمخالفيها بضروب العذاب

من عجيب امر التنابز ، ان الاغراق فيه قد يغري خلي الذهن بالبحث عن المنبوز والتنقيب عنه ، فيحمله على التأمل في مداركه ، والتبصر في مآخذه ، فربما انضم اليه وشايعه تقليدا أو نظرا واستدلالا

فالمتحاملون على فئة قد يحببون فيها من حيث يريدون التنفير منها ، ويجذبون اليها مما يأملون به الإبعاد عنها ، ويصدق فيهم قول القائل :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء

هؤلاء المتحاملون يرون اعظم منفر عن خصومهم هو التكفير ، فاتهم ان هذا لا يغني من البرهان ، ولا يجزئ من الحق شيئا ، بل قد يكون من اعظم امانيّ الخصوم ، فان الفكر الذي يحارب بهذا الاسم ربما يكون قد بلغ اشده واستوى ، ووصل الى اعماق الرسوخ ورسا .

ولما حاول اعداء حجة الاسلام الغزالي عليه الرحمة والرضوان رميه بالكفر (وما أسهل رميهم به لامثاله) لمخالفته الاشعري ، انتدب لتأليف

(١٤) بيان انه لا تضليل ، لمن اصاره اجتهاده الى التأويل

قدمنا أولا انا لم نرد في هذه الورقات ذكر عقائد الجهمية والمعتزلة، ولا مناقشتهم ، لان لذلك مواضع معروفة ، لاسيما وهذا المقام طويل الذيل ، متشعب المناحي ، ويكفي انه لأجله صنف ودوّن علم الكلام ، وانما اردنا تعرف شأن هاتين الفرقتين من الوجهة التاريخية ، وقد اتينا على جمل منها

بقي التنبيه على النصفة مع مجتهدي فرق الاسلام ، ومجافاة التضليل عن كل من التزم قانون التأويل ، فنقول : قد وقر في قلوب كثير من الناس رمي أمثال المعتزلة بالمروق والضلال والزيغ ، تقليداً لمن ينبزهم بذلك من حشوية المتفيهقين ، وهذا من اغرب الغريب ، اذ كيف يصح هذا وكان القائمون بمذهب المعتزلة خلفاء الاسلام في العهد العباسي ،وقضاتهم وعدة من علمائهم ، وهم يحتجون لما يدعون ، ويبرهنون على مايذهبون ، لاجرم انهم - وان اخطأوا - لمجتهدون

ومما يدل على ان هذا العقد بلغ تمكن صحته من نفوسهم منتهاه من اليقين حملهم الخلفاء على اكراه الناس عليه ابتغاء نجاتهم — بزعمهم — بتصحيح عقيدتهم على ما يرون ، وجليّ ان كل من استدل على ما يراه ، واحتج على دعواه ، فقد آذن في اجتهاده فيه ، وتحرى الحق فيما يقصده ويبغيه ، فقصارى امره اذا نقض برهانه ودحضت حجته ، ان يكون مجتهداً مخطئاً ، وهو معذور بل مأجور ،اذ لم يرد الا الحق ، فمن اين يسوغ بعد ذلك قرض الاعراض بالتضليل والتفسيق ، وتثوير المنبوز على المقابلة بالمثل بل الامثال ، والخروج بالاقذاع عن آداب المناظرة والجدال

وعن مالك بن دينار قال : يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء الا قول بعضهم في بعض

وعن عبد العزيز بن ابي حازم قال سمعت ابي يقول : العلماء كانوا فيما مضى من الزمان اذا لقي العالم من هو فوقه في العلم كان ذلك يوم الغنيمة ، واذا لقي من هو مثله ذاكره ، واذا لقي من هو دونه لم يزْهَ عليه ، حتى كان هذا الزمان ، فصار الرجل يعيب من هو فوقه ابتغاء ان ينقطع منه ، حتى يرى الناس انه ليس به حاجة اليه ، ولا يذاكر من هو مثله ، ويزهى على من هو دونه ، فهلك الناس

(قال الامام ابن عبد البر) : لقد تجاوز الناس الحدّ في الغيبة والذم فلم يقنعوا بذم العامة دون الخاصة ولا بذم الجهال دون العلماء ، وهذا كله يحمل عليه الجهل والحسد . ثم قال رحمه الله : ومن صحت عدالته ، وعُلمت بالعلم عنايته ، وسلم من الكبائر ولزم المروءة ، وكان خيره غالبا ، وشره اقل عمله ، فهذا لا يقبل فيه قول قائل لا برهان له به ، فهذا هو الحق الذي لا يصح غيره ان شاء الله .

(وقال الذهبي) في ميزان الاعتدال - في ترجمة ابي نعيم احد الاعلام : صدوق تكلم فيه ابن منده بلا حجة كما تكلم هو في ابن منده (قال الذهبي) ولا اقبل قول كل منهما في الآخر ، بل هما عندي مقبولان. ثم قال : وكلام الاقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ، ولا سيما اذا لاح لك انه لعداوة أو لمذهب أو لحسد ما ينجو منه الا من عصم الله (قال) وما علمت ان عصراً من الاعصار سلم اهله من ذلك سوى الانبياء والصديقين ، فلو شئت لسردت من ذلك كراريس . اه

كتاب يهدي الى حقيقة الكفر والزندقة ، سماه « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » قال في خطبته : فهوّن ايها الاخ المشفق على نفسك ، لا يضيق به صدرك ، وفلّ من غربك قليلا ، واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ، واستحقر من لا يُحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لايعرف (١) »

ونقل الامام الغزالي ايضا في المستصفى ان عليا كرم الله وجهه استأذنه قضاته في البصرة في القضاء بشهادة أهل البصرة من الخوارج وغيرهم اوردها ، فامرهم بقبولها كما كان قبل الحرب ، لانهم حاربوا على تأويل ، وفي رد شهادتهم تعصب وتجديد خلاف اه فانظر كيف تسامح مع أهل التأويل من المبدعين وقبل شهادتهم وزكاهم وعدلهم ، فهل يصح بعد هذا النبز بالتفسيق أو التضليل ؟ حاشا وكلا ! وهذا لمن عرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال ، والله المستعان

***

(١٥) ماوصى به الائمة من اطراح اقوال العلماء بعضهم في بعض ، ومن التماس الحكمة اينما وجدت

روى الامام حافظ المغرب يوسف بن عبد البر في كتابه (جامع العلم وفضله) في باب حكم قول العلماء بعضهم في بعض عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : استمعوا علم العلماء ، ولا تصدقوا بعضهم على بعض. وعنه رضي الله عنه قال : خذوا العلم حيث وجدتم ، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض

(١) يشير رحمه الله الى ان ذلك صار وقفا على اخبار العلماء واعلام الجهابذة الحكماء ، ولقد صدق رحمه الله وشاهده الاستقراء من لدن عصره وقبله الى الآن

وقال غيره :

يلوم على أن رحت للعلم طالبا اجمع من عند الرواة فنونه
فيا لائمي دعني اغالي بقيمتي فقيمة كل الناس مايحسنونه

وقال ابو العباس الناشئ :

تأمل بعينيك هـذا الانا م فـكن بعض من صانه عقله
فحليـة كل فتى فضله وقيمـة كل امرئ نبله
فلا تتكل في طلاب العلا على نسب ثابت أصله
فما من فتى زانه قوله بشيء يخالفـه فعـله

ومما ينسب لعلي رضي عنه :

الناس من جهة التمثال أكفاء ابوهم آدم والأم حواء
وانما امهات الناس اوعيـة مستودعات وللاحساب آباء
فان يكن لهمُ من اصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء
وان اتيت بفخر من ذوي نسب فان نسبتنا جود وعلياء
ماالفضل إلا لأهل العلم انهم على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقيمة المرء ماقد كان يحسنه والجاهلون لاهل العلم اعداء
فقم بعلم ولاتبغ به بدلا فالناس موتى واهل العلم احياء

وقد ورد في هذا الباب مارواه الامام مسلم في مقدمة صحيحه عن عائشة رضي الله عنهـا قالت : امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ننزل الناس منازلهم : نسأله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولاتجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا ، ربنا انك رؤف رحيم) في جمادي الاولى سنة ١٣٣٠

قال العلامة المقبلي: واشدها عداوة ما كان من قبل المذهب لانه يزعمه دينا ، ويمرن عليه فيغر نفسه انه دين، وحظ الهوى في ذلك أوفى واوفر ، نسأل الله العافية وان يجعلنا ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

وروى الامام ابن عبد البر في كتاب (جامع العلم) في باب الحال التي ينال بها العلم ، عن علي كرم الله وجهه قال : العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من ايدي المشركين ، ولا يأنف احدكم ان يأخذ الحكمة ممن سمعها منه . وعنه كرم الله وجهه قال : الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في ايدي الشرط

وروى ابن عبد البر قبل هذا الباب عن ايوب قال : انك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره ، وعن علي رضي الله عنه قال : ان الناس ابناء ما يحسنون وقدر كل امرء ما يحسن، فتكلموا في العلم تتبين اقداركم.

(قال ابن عبد البر) : ان قول علي بن ابي طالب « قيمة كل امرئ ما يحسنه » لم يسبقه اليه احد (قال) وقالوا : ليس كلمة احض على طلب العلم منها (وقالوا) ولا كلمة اضر بالعلم والعلماء والمتعلمين من قول القائل (ماترك الاول للآخر شيئا) قال ابن عبد البر : قول علي رضي الله عنه « قيمة كل امرء مايحسن » من الكلام المعجب الخطير، وقد طار له الناس كل مطير ، ونظمه جماعة من الشعراء اعجابا به ، وكلفا بحسنه ، فمن ذلك ما يعزى الى الخليل بن احمد وهو قوله :

لا يكون السَّرِيّ مثلَ الدَّنِيّ * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
لا يكون الألدُّ ذو المقول المر (م) هَف عند القياس مثل العَيِيّ
قيمة المرء كل مايحسن المر (م) ء قضاء من الامام عليّ

الا لكونه مخالفاً للقسمين الاخيرين ، لكنه على ضربين (أحدهما) أن يطلب تركه وينهى عنه لكونه مخالفة خاصة مع تجرد النظر عن غير ذلك ، وهو ان كان محرماً سمي فعله معصية وإثما ، وسمي فاعله عاصياً وآثما ، وإلا لم يسم بذلك ، ودخل في حكم العفو حسبما هو مبين في غير هذا الموضع . ولا يسمى بحسب الفعل جائزاً ولا مباحا لان الجمع بين الجواز والنهي جمع بين متنافيين (والثاني) أن يطلب تركه وينهى عنه لكونه مخالفة لظاهر التشريع من جهة ضرب الحدود وتعيين الكيفيات والتزام الهيئات المعينة أو الازمنة المعينة مع الدوام ونحو ذلك .

وهذا هو الابتداع والبدعة ويسمى فاعله مبتدعا — فالبدعة إذن عبارة عن « طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه » وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة وانما يخصها بالعبادات . وأما على رأي من أدخل الاعمال العادية في معنى البدعة فيقول : « البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية » . ولا بد من بيان ألفاظ هذا الحد: فالطريقة والطريق والسبيل والسنن هي بمعنى واحد ، وهو ما رسم للسلوك عليه . وانما قيدت بالدين لانها فيه تخترع واليه يضيفها صاحبها ، وأيضا فلو كانت طريقة مخترعة في الدنيا على الخصوص لم تسم بدعة كاحداث الصنائع والبلدان التي لا عهد بها فيما تقدم .

ولما كانت الطرائق في الدين تنقسم ـ فمنها ما له أصل في الشريعة . ومنها ما ليس له أصل فيها . ـ خص منها ما هو المقصود بالحد وهو القسم المخترع ، أي طريقة ابتدعت على غير مثال تقدمها من الشارع ، اذ

الباب الاول من كتاب الاعتصام (*)

﴿ في تعريف البدع وبيان معناها وما اشتق منه لفظا ﴾

وأصل مادة « بدع » للاختراع على غير مثال سابق، ومنه قول الله تعالى « بديع السموات والارض » أي مخترعهما من غير مثال سابق متقدم ، وقوله تعالى « قل ما كنت بدعاً من الرسل » أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله الى العباد بل تقدمني كثير من الرسل ، ويقال : ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه اليها سابق . و : هذا امر بديع، يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن فكأنه لم يتقدمه ماهو مثله ولا ما يشبهه

ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة، فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع وهيئتها هي البدعة ، وقد يسمى العمل المعمول على ذلك الوجه بدعة . فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة ، وهو إطلاق أخص منه في اللغة حسبما يذكر بحول الله

ثبت في علم الاصول ان الاحكام المتعلقة بأفعال العباد وأقوالهم ثلاثة : حكم يقتضيه معنى الامر كان للايجاب أو الندب ، وحكم يقتضيه معنى النهي كان للكراهة أو التحريم . وحكم يقتضيه معنى التخيير وهو الاباحة . فأفعال العباد وأقوالهم لا تعدو هذه الاقسام الثلاثة : مطلوب فعله ، ومطلوب تركه ، ومأذون في فعله وتركه . والمطلوب تركه لم يطلب

*) الكتاب للامام ابي اسحاق الشاطبي الاندلسي صاحب كتاب (الموافقات) في أصول الشريعة وحكمها وهو يطبع الآن بمطبعة المنار على نفقة دار الكتب الخديوية التابعة لنظارة المعارف المصرية، فنبشر علماء الاسلام بذلك ، وننشر لهم هذا النموذج منه

باطل باجماع ، فليس اذاً ببدعة . ويلزم أن يكون له دليل شرعي ، وليس الا هذا النوع من الاستدلال ، وهو المأخوذ من جملة الشريعة

واذا ثبت جزئي في المصالح المرسلة ، ثبت مطلق المصالح المرسلة .

فعلى هذا لا ينبغي أن يسمى علم النحو أو غيره من علوم اللسان أو علم الاصول أو ما أشبه ذلك من العلوم الخادمة للشريعة بدعة أصلا .

ومن سماه بدعة فإما على المجاز كما سمى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيام الناس في ليالي رمضان بدعة ، وإما جهلا بمواقع السنة والبدعة . فلا يكون قول من قال ذلك معتدا به ولا معتمداً عليه .

وقوله في الحد « تضاهي الشرعية » يعني انها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك ، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة .

منها وضع الحدود كالناذر للصيام قائما لا يقعد ، ضاحياً لا يستظل . والاختصاص في الانقطاع للعبادة ، والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف من غير علة .

ومنها التزام الكيفيات والهيآت المعينة ، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد ، واتخاذ يوم ولادة النبي صلى الله عليه وسلم عيداً ، وما أشبه ذلك .

ومنها التزام العبادات المعينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة ، كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته (١)

(١) هذا هو الصواب ولا يغترن أحد بترغيب الخطباء الجاهلين في ذلك ، ولا بالحديث الذي يذكرونه على منابرهم وهو « اذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها ، فان الله ينزل فيها لغروب الشمس الى سماء الدنيا فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له! ألا مسترزق فأرزقه ! ألا مبتلى فأعافيه! ألا كذا =

البدعة انما خاصتها انها خارجة عما رسمه الشارع . وبهذا القيد انفصلت عن كل ما ظهر لبادي الرأي أنه مخترع مما هو متعلق بالدين ، كعلم النحو والتصريف ومفردات اللغة وأصول الدين ، وسائر العلوم الخادمة للشريعة. فانها وان لم توجد في الزمان الاول فأصولها موجودة في الشرع ، اذ الامر باعراب القرآن منقول وعلوم اللسان هادية للصواب في الكتاب والسنة فحقيقتها اذاً انها فقه التعبد بالالفاظ الشرعية الدالة على معانيها كيف تؤخذ وتؤدى

وأصول الفقه انما معناها استقراء كليات الادلة حتى تكون عند المجتهد نصب عين وعند الطالب سهلة الملتمس .

وكذلك أصول الدين وهو علم الكلام انما حاصله تقرير لادلة القرآن والسنة أوما ينشأ عنها في التوحيد وما يتعلق به، كما كان الفقه تقريراً لادلتها في الفروع العبادية . (فان قيل) . فان تصنيفها على ذلك الوجه مخترع .

(فالجواب) : ان له أصلا في الشرع ، ففي الحديث ما يدل عليه ، ولو سلم انه ليس في ذلك دليل على الخصوص فالشرع بجملته يدل على اعتباره ، وهو مستمد من قاعدة المصالح المرسلة ، وسيأتي بسطها بحول الله

فعلى القول باثباتها أصلا شرعيا لا إشكال في أن كل علم خادم للشريعة داخل تحت أدلته التي ليست بمأخوذة من جزئي واحد . فليست ببدعة البتة

وعلى القول بنفيها لا بد أن تكون تلك العلوم مبتدعات . واذا دخلت في علم البدع كانت قبيحة لان كل بدعة ضلالة من غير إشكال ، كما يأتي بيانه ان شاء الله

ويلزم من ذلك ان يكون كتب المصحف وجمع القرآن قبيحا ، وهو

وذلك ان أصل الدخول فيها يحث على الانقطاع الى العبادة والترغيب في ذلك، لان الله تعالى يقول: (وما خلقتُ الجنّ والانس إلا ليَعبدونِ) فكأن المبتدع رأى ان المقصود هـذا المعنى ، ولم يتبين له ان ما وضعه الشارع فيه من القوانين والحدود كافٍ ،فرأى من نفسه انه لا بدّ لما أطلق الامر فيه من قوانين منضبطة ، وأحوال مرتبطة ، مع ما يداخل النفوس من حب الظهور أو عدم مظنته ، فدخلت في هذا الضبط شائبة البدعة .

وأيضا فان النفوس قد تَمَلُّ وتسأم من الدوام على العبادات المرتبة ، فاذا جُـدّد لها أمر لا تعهده حصل لها نشاط آخر لا يكون لها مع البقاء على الامر الاول . ولذلك قالوا « لكل جديد لذة » بحكم هذا المعنى ، كمن قال : « كما تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ، فكذلك تحدث لهم مرغبات في الخير بقدر ما حدث لهم من الفتور »

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: فيوشك قائل أن يقول ما هم بمتبعيّ فيتبعوني وقد قرأت لك القرآن فلا يتبعني حتى أبتدع لهم غيره فإياكم وما ابتدع فان ما ابتدع ضلالة [١]

وقد تبين بهذا القيد أن البدع لا تدخل في العادات. فكل ما اخترع من الطرق في الدين مما يضاهي المشروع ولم يقصد به التعبد فقـد خرج عن هذه التسمية ، كالمغارم الملزمة على الاموال وغيرها على نسبة مخصوصة وقدر مخصوص مما يشبـه فرض الزكوات ولم يكن اليها ضرورة .

وكذلك اتخاذ المناخل وغسل اليد بالأُشنان وما أشبه ذلك من الامور التي لم تكن قبل ، فانهـا لا تسمى بدعاً على احدى الطريقتين

(١) كذا في الاصل فليراجع الحديث وليضبط

وثم أوجه تضاهيء بها البدعة الأمور المشروعة فلو كانت لاتضاهي الامور المشروعة لم تكن بدعة لانها تصير من باب الافعال العادية

وأيضاً فان صاحب البدعة انما يخترعها ليضاهي بها السنة حتى يكون ملبسا بها على الغير ، أو تكون هي مما تلتبس عليه بالسنة ، اذ الانسان لا يقصد الاستتباع بأمر لا يشابه المشروع ، لانه اذ ذاك لا يستجلب به في ذلك الابتداع نفعا ، ولا يدفع به ضررا ، ولا يجيبه غيره اليه . ولذلك تجد المبتدع ينتصر لبدعته بأمور تخيل التشريع ولو بدعوى الاقتداء بفلان المعروف منصبه في أهل الخير

فأنت ترى العرب الجاهلية في تغيير ملة ابراهيم عليه السلام كيف تأوّلوا فيما أحدثوه احتجاجا منهم ، كقولهم في أصل الإشراك (ما نعبدُهم إلا لِيُقرّبونا إلى الله زُلفى) وكترك الحُمْس الوقوف بعرفة لقولهم : لا نخرج من الحرم اعتدادا بحرمته . وطواف من طاف منهم بالبيت عرياناً قائلين : لا نطوف بثياب عصينا الله فيها . وما أشبه ذلك مما وجهوه ليصيروه بالتوجيه كالمشروع ، فما ظنك بمن عُدَّ أو عدَّ نفسه من خواص أهل الملة ؟ فهم أحرى بذلك ، وهم المخطئون وظنهم الاصابة . واذا تبين هذا ظهر أن مضاهاة الامور المشروعة ضرورية الاخذ في أجزاء الحد

وقوله « يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى » هو تمام معنى البدعة اذ هو المقصود بتشريعها

= ألا كذا ، حتى يطلع الفجر » فان هذا حديث واه أو موضوع رواه ابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة وقد قال فيه ابن معين والامام أحمد انه يضع الحديث . نقل ذلك محشي سنن ابن ماجه عن الزوائد . ووافقه الذهبي في الميزان في الامام أحمد ، وذكر عن ابن معين انه قال فيه : ليس حديثه بشيء . وقال النسائي « متروك »

يطلب بتركه [١] كالذي يحرم على نفسه الطعام الفلاني من جهة انه يضره في جسمه أو عقله أو دينه وما أشبه ذلك ، فلا مانع هنا من الترك . بل ان قلنا بطلب التداوي للمريض فان الترك هنا مطلوب ، وان قلنا بإباحة التداوي فالترك مباح . فهذا راجع الى العزم على الحمية من المضرات. وأصله قوله عليه السلام « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج — إلى ان قال — ومن لم يستطع فعليه بالصوم » [٢] الذي يكسر من شهوة الشباب حتى لا تطغى عليه الشهوة فيصير الى العنت .

وكذلك اذا ترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس فذلك من أوصاف المتقين ، وكتارك المتشابه حذرا من الوقوع في الحرام واستبراء للدين والعرض

وان كان الترك لغير ذلك . فاما أن يكون تدينا أو لا . فان لم يكن تديناً فالتارك عابث بتحريمه الفعل أو بعزيمته على الترك . ولا يسمى هذا الترك بدعة اذ لا يدخل تحت لفظ الحد إلا على الطريقة الثانية القائلة :

---

(١) لم يظهر لنا معنى الباء فالظاهر انها زائدة من الناسخ

(٢) تتمة الحديث بعد كلمة الصوم « فانه له وجاء » فقوله « الذي يكسر من شهوة الشباب » الخ من كلام المصنف يبين به علة كون الصوم وجاء . وهو إضعاف الشهوة على رأي الجمهور. وهو لا يظهر الا في الصوم الكثير مع التقشف والاكتفاء عند الفطر بقليل الطعام ، والا فان الصوم من اسباب الصحة وزيادة القوة ، حتى في المعيشة المعتدلة . وحينئذ يكون وجه الشبه بين الوجاء الذي هو دق عروق خصيي الفحل المضعف أو المزيل لشهوته وبين الصوم هو كون الصوم سبب التقوى كما قال الله تعالى في تعليل فرضيته « لعلكم تتقون » فمن اكثر من الصوم وترك ما يشتهي من الطعام والشراب المباحين لوجه الله تعالى استفيد فائدتين احداهما ملكة مراقبة الله تعالى الذي يترك طعامه وشرابه لأجله ، والثانية ملكة ترك الشهوات التي يحتاج اليها كل يوم فتقوى ارادته وعزيمته ، فيسهل عليه ترك سائر الشهوات ومنه غض بصره واحصان فرجه

وأما الحد على الطريقة الاخرى فقد تبين معناه الا قوله : يقصد بها ما يقصد بالطريقة الشرعية . ومعناه ان الشريعة انما جاءت لمصالح العباد في عاجلتهم وآجلتهم لتأتيهم في الدارين على أكمل وجوهها ، فهو الذي يقصده المبتدع ببدعته . لان البدعة إما أن تتعلق بالعادات أو العبادات ، فان تعلقت بالعبادات فانما أراد بها أن يأتي تعبده على أبلغ ما يكون في زعمه ليفوز بأتم المراتب في الآخرة في ظنه . وان تعلقت بالعادات فكذلك لانه انما وضعها لتأتي أمور دنياه على تمام المصلحة فيها . فمن يجعل المناخل في قسم البدع فظاهر ان التمتع عنده بلذة الدقيق المنخول أتم منه بغير المنخول

وكذلك البناآت المشيدة المحتفلة ، التمتع بها أبلغ منه بالحشوش والخرب . ومثله المصادرات في الاموال بالنسبة الى أولي الامر ، وقد أباحت الشريعة التوسع في التصرفات ، فيعد المبتدع هذا من ذلك .

وقد ظهر معنى البدعة وما هي في الشرع والحمد لله

فصل

وفي الحد أيضا معنى آخر مما ينظر فيه . وهو أن البدعة من حيث قيل فيها : انها طريقة في الدين مخترعة — الى آخره — يدخل في عموم لفظها البدعة التركية ، كما يدخل فيه البدعة غير التركية ، فقد يقع الابتداع بنفس الترك تحريما للمتروك أو غير تحريم ، فان الفعل مثلا قد يكون حلالا بالشرع فيحرمه الانسان على نفسه أو يقصد تركه قصدا

فهذا الترك اما أن يكون لأمر يعتبر مثله شرعا أو لا ، فان كان لأمر يعتبر فلا حرج فيه ، اذ معناه انه ترك ما يجوز تركه أو ما

النفسية . فهذا الضرب راجع الى المخالفة للامر . فان كان في واجب فمعصية ، وان كان في ندب فليس بمعصية اذا كان الترك جزئيا ، وان كان كليا فمعصية حسبما تبيّن في الأصول (والثاني) أن يتركها تدينا . فهذا الضرب من قبيل البدع حيث تديّن بضد ما شرع الله . ومثاله اهل الإباحة القائلين بإسقاط التكليف اذا بلغ السالك عندهم المبلغ الذي حدّوه :

فاذاً قوله في الحد « طريقة مخترعة تضاهي الشرعية » يشمل البدعة التركية كما يشمل غيرها، لان الطريقة الشرعية ايضا تنقسم الى ترك وغيره وسواء علينا قلنا إن الترك فعل أم قلنا انه نفي الفعل — على الطريقتين المذكورتين في أصول الفقه .

وكما يشمل الحدُّ الترك يشمل أيضا ضد ذلك ، وهو ثلاثة أقسام : قسم الاعتقاد ، وقسم القول ، وقسم الفعل . فالجميع اربعة اقسام . وبالجملة فكل ما يتعلق به الخطاب الشرعي يتعلق به الابتداع . اه

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

كتاب الهدى الى دين المصطفى

الجزء الاول منه لمؤلفه ... النجفي في مدينة (سر من رأى) بالعراق طبع بمطبعة العرفان طبعا نظيفا على ورق متوسط ص ٣٩٢ بقطع المنار ثمنه ٢٠ قرشا ويباع في مكتبة المنار بمصر

كثر دعاة النصرانية في هذه البلاد كما كثروا في كل بلد دخله النفوذ الغربي ، دخلوا القرى بدون اذن اهلها، وجاسوا خلال الديار رائدين الفتنة والتفريق، وقد كان المسلمون عامتهم وعلماؤهم لايحفلون بما يبثه هؤلاء الدعاة بين المسلمين لسخافته وبداهة بطلانه ، وليس في هذه البلاد من اثقله وزر آدم فيأتي هؤلاء الذئاب يحتمي منه في حظيرتهم ، ولا من ضاق صدره بتوحيد الله عز وجل فيجيء هؤلاء

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

ان البدعة تدخل في العادات. واما على الطريقة الأولى فلا يدخل . لكن هذا التارك يصير عاصيا بتركه أو باعتقاده التحريم فيما أحل الله

وأما ان كان الترك تدينا فهو الابتداع في الدين على كلتا الطريقتين، اذ قد فرضنا الفعل جائزا شرعا فصار الترك المقصود معارضة للشارع في شرع التحليل .[1] وفي مثله نزل قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) فنهى أولا عن تحريم الحلال. ثم جاءت الآية تشعر بأن ذلك اعتداء، وأن من اعتدى لا يحبه الله

وسيأتي للآية تقرير ان شاء الله . لأن بعض الصحابة همّ ان يحرم على نفسه النوم بالليل ، وآخر الاكل بالنهار ، وآخر إتيان النساء ، وبعضهم همّ بالاختصاء ، مبالغة في ترك شأن النساء . وفي امثال ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « من رغب عن سنتي فليس مني »

فاذاً كل من منع نفسه من تناول ما احل الله من غير عذر شرعي فهو خارج عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم . والعامل بغير السنة تدينا هو المبتدع بعينه

(فان قيل) فتارك المطلوبات الشرعية ندبا أو وجوبا هل يسمى مبتدعا أم لا ؟ (فالجواب) أن التارك للمطلوبات على ضربين : (أحدهما) ان يتركها لغير التدين إما كسلا أو تضييعا أو ما أشبه ذلك من الدواعي

(١) ان اهل الاستانة لا يأكلون لحم الحمام، فهو يعشش ويفرخ في مساجدهم وبيوتهم ولا يأكل احد منه شيئا ، بل يتحرجون من ذلك وينكرونه . والظاهر ان عامتهم يعتقدون ان أكله حرام ، أفلا يجب في هذه الحال على العلماء مقاومة هذه البدعة التركية بالقول والفعل

﴿ في التربية والتعليم ﴾

تأليف محمد امين. طبع بمطبعة التقدم بمصر على ورق جيد • ص ١١٤ بالقطع الصغير • ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

مواضيع الكتاب : بعد مقدمة بقلم أحمد بك لطفي السيد مدير الجريدة ، (١) الشكوى ٢ تشخيص العلة ٣ وصف الدواء ثم الاطوار الثلاثة ، في البيت والمدرسة والمجتمع ٤ التربية الحسية والعملية والاخلاقية ثم الخاتمة . والكتاب مجموعة مقالات نشرت في الجريدة ثم طبعت على حدتها غير مصدرة بالبسملة ولا الحمدلة ، على سنة من يتفصون من كل ما يربطهم بالامة الاسلامية من الشعائر والمقومات والمشخصات

مرشد المترجم الصغير (لطلبة الشهادة الابتدائية)

تأليف محمد السيد بك وكيل مدرسة المعلمين الناصرية وعوض ابراهيم بك وكيل المدرسة السعيدية • طبع بمطبعة المعارف طبعاً نظيفاً ص ١٤٠ بالقطع الوسط • ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المعارف ومكتبة المنار بمصر

وضعه مؤلفاه لطلبة الشهادة الابتدائية وتوخيا فيه تذليل عقبات الترجمة من العربية الى الانكليزية وبالعكس وتسهيلها على التلميذ بشرح المفردات التي يهتدي اليها بسهولة، وقد اطلع عليه المستر استيفنز معلم الانكليزية بمدرسة المعلمين الناصرية . والكتاب يفيد التلميذ علما بالشئون الاجتماعية بمواضيعه المفيدة

الاجوبة المسكتة

تأليف أحمد أفندي صابر من مستخدمي (نظارة الاوقاف) وقد طبع الطبعة الثانية بمطبعة الجمالية بمصر مع زيادات وتحسينات • ص ٢٥٢ بقطع رسالة التوحيد • ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر وهو غني عن التعريف

غاية الانسان

كتاب في الفلسفة الادبية مفيد . وضعه الفيلسوف جافينون وترجمه وسيلة محمد مترجمة « روح الاعتدال » وناهيك بها سلاسة وجودة • ص ١٦٠ بقطع سابقه • طبع بمطبعة المعارف طبعاً نظيفاً . ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المعارف ومكتبة المنار بمصر

المعددين ليجد له عندهم متسعاً في ثالثوهم ، ولا من حصر صدره بعصمة الانبياء الهداة حتى يتحكك بهؤلاء الكتبة ليثلجوا صدره ويجرؤه على المعاصي بقصة نوح مع ولديه أو ابراهيم مع امرأته او يهوذا مع كنته أو داود مع امرأة قائده أو سليمان مع اصنام نسائه أو ابن يعقوب مع امرأة ابيه أو يعقوب مع ملاك ربه أو لوط مع بنتيه الخ بل ان المسلمين ليسوا بمحتاجين مسيحهم الخيالي (وهو غير مسيح الله عليه السلام) الذي يدعي هؤلاء الصدوقيون انهم يعبدونه وينكرون سيرته الانجيلية ويرون عصمته عن السكر وعن غسل ارجل التلاميذ وعن طرد امه واخوته وإنكاره لهـا وعن البخل بهداية الكنعانية الى غير ذلك مما نراه في اناجيلهم .

لا خوف من هذه التعاليم على عامة المسلمين فضلا عن علمائهم، ولكن السكوت على باطلهم خيل اليهم انهم على حق فتفننوا في طرق دعوتهم حتى انهم ليصدرون بعض كراريسهم بالآيات القرآنية أو بخطب تضارع الخطب التي اصطلح بعض الخطباء الرسميين على تلاوتها يوم العيد وأيام الجمع الخ، كل ذلك ليدخلوا الى قلوب المسلمين فيفسدوا عليهم ما بقي لهم من دينهم ، ويحلوا الروابط التي تربطهم بأمتهم . ولذلك قام العلماء في جميع الاقطار يرسلون شهب ردودهم فتخمد انفاس شياطين التفريق.

واول من كتب في الرد عليهم في هذا العصر بعقل وبحث وروية الشيخ رحمة الله الهندي ثم تبعه قوم آخرون هم عيال عليه في هذا الباب . ثم رأينا مثالا له في هذه الآونة من رسائل الدكتور صدقي وكتاب النجفي ، وهو هذا المؤلف الذي هو نتيجة بحث علمي وتمحيص المسائل وتحقيقها

فحيا الله العلامة النجفي فقد دحض مزاعم دعاة النصرانية بكتابه هذا وقذف بحقه على باطلهم فاذا هو زاهق ولهم الويل مما يصفون . وضع كتابه هذا رداً على كتاب « مقالة في الاسلام » لسايل الانكليزي المترجم بالعربية وعلى الكتاب البذيء المسمى بالهداية الموضوع للرد على كتاب « اظهار الحق » وكتاب « السيف الحميدي » فهدم أركانها وقوض بنيانها بالادلة العقلية والنقلية ، بعبارة طلية جلية ، فيجدر بمن يعنى بالرد على هؤلاء المشاغبين ان يطلع على هذا الكتاب

(كشف الاستار عما لحقوق الدول من الاسرار)

الجزء الاول بقلم صبحي اباظه طبع بمطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٣١ ص ١٢٥ بقطع المنار ثمنه ٢٠ قرشا يطلب من مكتبة المنار بمصر

اسم الكتاب يدل على موضوعه وفيه فوائد جمة جاءت من طريق الاستطراد

محاسن الطبيعة وعجائب الكون

تأليف اللورد (افرى) ترجمة وديع البستاني. ص ٢٦٤ بالوسط طبع مطبعة المعارف وثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار ومكتبة المعارف

ابحاث الكتاب: تمهيد، عالم الحيوان، والنبات، والحقول والحراج، والماء، والبحر، ثم القبة الزرقاء. وهو يجول في هذه الابحاث جولة المفكر المتعقل المعتبر. واذا كان هذا الكتاب أسمى معاني واكثر دقة من سائر ما قرأنا من مؤلفات لورد افرى التي عربها وديع البستاني فان ترجمته أصح وأسلم وأقل غلطاً من جميعها أيضا

رواية جزيرة الذهب

مترجمة عن الالمانية بقلم ماري ابراهيم نجار، طبع الجزآن الاول والثاني منها بمطبعة جريدة الهدي في نيويورك على نفقتها فكانت ص ٢٥٤ بالقطع الوسط وموضوعها تحويل الافكار عن عبادة الذهب وتضحية كل شيء في سبيل الحصول عليه الى فكرة الانسانية الراقية. وما أجدر هذه المترجمة العاقلة الفاضلة، باختيار هذه القصص المفيدة النافعة.

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة تصدر في بيروت تبحث في الحقوق والاقتصاد والاجتماع. سنتها عشرة شهور شمسية تبتدئ من ايلول (سبتمبر) من كل سنة. الجزء منها ٣٢ ص. منشئها المحامي توفيق افندي الناطور المتخرج في مدرسة الحقوق في باريس، ومدير تحريرها الشيخ محمد منيب افندي الناطور من تلاميذ الازهر ومدرسة القضاء الشرعي

قيمة اشتراكها في البلاد العثمانية ريالان مجيديان وفي البلاد الاجنبية عشرة فرنكات

وان في سعة منشئها ومديرها وتوخيهما النفع لها ما يوجب الاقبال عليها لما يختاران نشره فيها من العلوم والفوائد التي أصبحت في هذا العصر حاجة من حاجات الامة، فنحن نرجو لها الرواج والنجاح، ونعده عنواناً لاستعداد الامة للارتقاء. وقد فتحت باباً لادبيات اللغة العربية فضمت الى فوائدها العلمية هذه الفائدة اللغوية ويمكن الاشتراك فيها بواسطة مجلة المنار ومكتبته

﴿ ارجوزة ابن المعتز ﴾

طبعت في المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٠ على نفقة ابن منصور في ٢٤ ص بقطع رسالة التوحيد على ورق جيد ثمنها قرش صحيح واحد وتطلب من المكاتب المصرية وموضوع الارجوزة تاريخ المعتضد بالله العباسي ، وما هو بالتاريخ الذي يعتد به

نشوء الاجتماع (الجزء الاول منه)

تأليف بنيامين كد وتعريب محمد زكي صالح في طنطا طبع بمطبعة الاخبار بمصر سنة ١٩١٣ على ورق جيد ٠ ص ١٣٥ بقطع «الاسلام والنصرانية» ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

مواضيعه بعد مقدمة المترجم التي المت بموضوع الكتاب وآراء العلماء والجرائد فيه هي: (١) الحاضر (٢) اسباب الارتقاء (٣) العقل لا يؤيد اسباب الارتقاء (٤) اجلى طبيعة في التاريخ الانساني (٥) وظيفة العقائد الدينية في نشوء الاجتماع .

والكتاب مفيد في موضوعه منبه للعقل موقظ للقوة المفكرة ٠ وارى ان استعير لتقريظه كلمة الاستاذ «ويسمن» الالماني التي كتبها في مقدمة الترجمة الالمانية وهي : «لا ارمي الى تحليل هذا الكتاب الفذ بل اقول انه جدير بالنظر والاعتبار ٠٠٠ الخ » والمرجو ان يظهر المعرب الجزء الثاني منه وان يعتني بترجمته وبتصحيحه ليسلم من مثل الاغلاط التي في الجزء الاول

(كتاب آداب العرب)

تأليف ابراهيم بك العرب ٠ طبعته نظارة المعارف على نفقتها في المطبعة الاميرية سنة ١٩١١ وقررت تدريسه في مدارسها الابتدائية وفي مدارس المعلمين والمعلمات ويطلب من مخزن المعارف

الكتاب مجموعة مواعظ منظومة على ألسن الحيوان والطير على نمط كتاب الصادح والباغم

(المطالعة الفصيحة لامهات اليوم والغد)

الجزء الاول منه تأليف الشيخ مهدي احمد خليل المدرس بمدرسة المعلمات في بولاق . الطبعة الاولى منه سنة ١٣٣١ ص ٢٠٥ بقطع رسالة التوحيد . ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

الكتاب ادبي اجتماعي لغوي كبير الفائدة ولذلك قررت نظارة المعارف تدريسه لجميع تلميذات مدارس البنات العالية والابتدائية والخصوصية

بعض أهل الفضيلة من أحرار الانكليز لعلهم يستعينون بهم على مقاصدهم، وايصال ما يشكون منه بحق من إنكليز مصر الى انكليز لندرة . حتى لا تكون الشؤون المصرية محجوبة عن محبي الانصاف، لا يعرفون منها الا ما يكتبه عميد انكلترة في مصر الى ناظر الخارجية في لندرة وبعض مراسلي الجرائد . والعمل بهذا الرأي إما أن ينفع وإما أن لا يضر . ولكن عارضه فيه أحداث الوطنية في جريدة اللواء وما أحدثوه بعد مصطفى كامل من الجرائد كدأبهم وعادتهم ، وقد بينا وجه ذلك عندهم في هذه الترجمة

(الجرائد والاحزاب بمصر)

ونقول ههنا إن السياسة في مصر لا مظهر لها الا الجرائد ، وقد تألفت الاحزاب لأجل الجرائد ومديري سياسة الجرائد ، ولم يستطع حزب من الأحزاب أن يجعل جريدة أكثر رواجا وقبولا من جريدة أخرى عند الرأي العام بمصر . وقد سبق القول بأن الجرائد العربية المؤثرة في الجمهور المصري كانت ثلاثة : الاهرام والمقطم والمؤيد ، وأن التنازع انما كان أولا بين الاهرام والمقطم . ثم كانت الاهرام تشايع المؤيد بعد ظهوره لاتفاقه معها في الميل الى السياسة الفرنسية التي تعد الاهرام هي الركن الأول لها ، ولأن مشايعته على المقطم كانت تعد من آيات صدق الخدمة الوطنية لمصر. ولما انقطع أمل المصريين من فرنسة صارت جريدة الاهرام في المرتبة الثانية بين الجرائد اليومية، بل كادت تموت من شدة ضعفها، لولا أن تداركها همة بشارة باشا تقلا القوية ومن ساعده على تحريرها من أذكياء الكتاب ، وأعانه على ذلك ثقة جمهور التجار والزراع بأخبارها التجارية . بذلك انتعشت بعد ان سقطت ، وارتفعت بعد ان انخفضت . وحفظت مكانتها بين الجرائد اليومية الكبرى ، فان لم تعد رأسا في سياسة خاصة، فهي رأس في الثروة والمباحث العامة . ولا يضاهيها في هذين الامرين الا المقطم. فهما الآن في مقدمة الجرائد المصرية في الثروة ، وسعة الاخبار العامة ، والقدرة على التصرف في الكلام عن الشؤون المصرية. على انهما لم تتألف لهما أحزاب ، وانما تلك كفاءة أصحابهما ومحرريهما ، والجمع بين حسن الادارة ، والبراعة في الكتابة

وقد تألف في مصر ثلاثة أحزاب سياسية حول ثلاث جرائد يومية ، هن أكبر جرائد مسلمي هذا القطر وأوسعها انتشارا ـ المؤيد واللواء والجريدة ـ ولم يكن لواحدة منهن دخل يوازي دخل المقطم والاهرام الا للمؤيد، فقد كان أوسع منهما انتشاراً وعلى مقربة منهما في المال، ولو أتيح للمؤيد مدير مالي يسير بادارته سيرة أصحاب تينك الجريدتين لكان أوسع الجرائد ثروة ، على أن الشيخ رحمه الله عاش به في سعة ورخاء ، كما

الشيخ علي يوسف

٣

{ فصل في بقية الكلام على سياسته المصرية }

بينا ان سياسة الشيخ في المؤيد كانت تدور في أول العهد على ثلاثة أقطاب (١) تأييد سلطة الامير ونفوذه (٢) مقاومة نفوذ الاحتلال الانكليزي (٣) الاعتماد في هذه المقاومة على نفوذ الدولة العثمانية وحقوقها الرسمية في مصر. وكذا على نفوذ فرنسة ومصالحها السياسية فيها، وانها بعد طول الاختبار وتغير الحوادث طرأ عليها بعض التغيير. ونزيد ذلك بياناً فنقول وان كررنا بعض المعاني:

انه بعد حادثة فشودة علم المترجم أن الاتكال أو الاعتماد على وعود أو عهود دولة أوربية لا يكون الا دون الاتكال على المواعيد العرقوبية، وانه بعد اختبار السياسة العثمانية بالغوص في اعماق الحوادث التي بينها وبين أوربة، وبلقاء كبار رجالها في الاستانة ومصر وأوربة، علم انه لا يتكل عليها في شيء، وان الذي يبني عمله على الرجاء فيها فانما يبني على شفا جرف، اذ لا يؤمن خذلانها له في كل عمل، فاكتفى من خدمة الدولة فيما يسمونه المسألة المصرية بالمحافظة على حقوقها الرسمية في مصر، وجعل فرماناتها الرسمية لامراء مصر ركن استقلالها الركين، الذي يصد به بعض ما يخشى من هجمات الاحتلال عليه. وأما فرنسة وسائر دول أوربة فقد علم كما يعلم كل خبير بصير انها دول تجارية تتجر بالامم والشعوب والدول، وأنها لا تراعي في تجارتها حقا ولا عدلا، ولا رحمة ولا فضلا، وانما رأس مالها القوة والحيلة والأثرة، فلا يقدر أن يستفيد منها، الا من جعل منفعته وسيلة الى منفعتها، وهيهات أن يتسنى للأدنى، أن يستخدم لمنافعه من هو أعلى منه قوة وعلما. وما كل من تنفعه تقدر أن تستخدمه، وناهيك بدول أوربة ومعارضة بعضها لبعض في سياستها أو مطامعها في بلادنا، فاذا أراد بعضها أن ينفعنا قليلا لينتفع منا كثيرا، عارضه في ذلك من يكره لنا هذه المنفعة ويراها عقبة في طريق مطامعه فينا

وكان الفقيد يعلم أيضاً ان شعوب أوربة خير من حكوماتها، وان فيهم كثيرا من الاحرار ومحبي الحق والخير لكل البشر، وان رأي الشعب العام له السلطان الاعلى على الحكومات، فلهذا كان يرى أخيرا أنه ينبغي أن يكون للمصريين صلة

وأما اللواء فقد بينا أن منشئه تربى في مدرسة المؤيد السياسية ، فكان تلميذا له ، الا أنه عقه وكفره ، وكان يحسب أنه يبذه أو يكون ناسخاً له، لانه يبالغ ويغلو في كل المقاصد التي صار المؤيد يسلك سبل الاعتدال فيها ، كمدح السياسة الحميدية ، وذم الحكومة المصرية ، ومقاومة الاحتلال ، بالذم والاحتجاج ، وذلك ان الناس كانوا قد ألفوا بعض المبالغة من المؤيد ، فاذا أرجعته عنها الحكمة والخبرة ، بعد عوامهم وشبانهم ذلك من تغيير الخطة ، ومن دأب الاحداث والعوام ، حب الاغراق والغلو في الكلام ، وناهيك بما يتعلق منه بالسياسة والحكام. وقد بذّ اللواء المؤيد في المبالغة بهذه المقاصد ، وانفرد دونه بدعوة مسلمي مصر الى تكوين رابطة جنسية وطنية، لكنها رابطة تنافي إخاء الاسلام ولا ترضي القبط وسائر طوائف النصرانية

صادف اللواء من مساعدة الاستانة ومساعدة بعض أمراء مصر وأغنيائها مالم تصادفه جريدة أخرى حتى كان يبذل له الذهب بالألوف، وهو على هذا كله لم يتسع انتشاره الا بعد سنين من انشائه ، ثم إنه غلب المؤيد على استمالة أكثر تلاميذ المدارس وكثير من العوام ، وصار المؤيد باعتداله على رضاء أكثر العوام عنه - جريدة الخواص .

لم يستطع اللواء أن يصل بكل ذلك الى أن يكون كجريدة الاهرام أو المقطم في ثباتهما وثروتهما ، وقد ألف صاحبه له الحزب الوطني الحديث(١) وألف شركة رأس مالها عشرون ألف جنيه لاجل إصدار لواء أو لوائين آخرين باللغتين الفرنسية والانكليزية . وانما كانت هذه الشركة صورية لاغرض منها الا بذل ذلك المال لمصطفى كامل يتصرف فيه كما يشاء - كما يفهم من قانونها - وقد فعل . أضاع هذا المال كما أضاع ما سبقه من الاعانات مع كل غلة اللواء ومطبعته في السرف والخيلة والمضاربات ، وطفق ينشد في اللواء شركاء يشترون سهاما أخرى من الشركة فلم يستجب لرقيته أحد، ولم يلبث مصطفى باشا كامل ان مرض وضاعف ثقل المرض عليه همّ الدين والعوز ، وفي أثناء مرضه ألف الحزب الوطني الحديث (١) وكل ذلك لم يغن شيئا . ومات (كما مات صاحب المؤيد بعده) مثقلا بالديون ، فقد تبين ان عليه عشرات الألوف من الجنيهات. وقد حجز الدائنون مطبعة اللواء ، وبيع أثاث زعيم الوطنية في محل رجل رومي يبيع الأثاث بالمزاد ، ثم مات اللواء بعد ان اضطر أصحابه الى استخدام بعض الكتاب من نصارى السوريين لتحريره وقد كان أعدى أعدائهم ، وبعد ان انشق الحزب

(١) أول من ألف حزبا سياسياً بمصر باسم الحزب الوطني حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني. والحزب الذي كان يذكره مصطفى كامل في حال صحته لم يكن حزبا مكونا بالفعل

يعيش الامراء والكبراء ، حتى تورط في شراء الدور وأراضي البناء ، في ابان اسراف الناس في التغالي بها ، فركبته الديون وجاءت سنوّ العسرة المالية فأتت على جميع مافي يده ، وكادت تذهب بالمؤيد نفسه ، لولا أن تداركه بتأسيس شركة مساهمة له ، فحالت دون موته ، لادون مرضه ، فقد مرض المؤيد امراضاً أشرفت به على الموت عدة مرار ، وصارت حركة ظهوره كحركة المذبوح أو حركة الاستمرار ، وهو لا يزال محتاجا الى تجديد الحياة ، وانما يكون ذلك بحسن الادارة والنظام ، وجعل التحرير على الوجه الذي بناه من قبل ، وهو مابه يظل المؤيد صاحب التأثير الاول في كل مايتعلق بمصالح المسلمين في مصر ، - وكذا في غيرها - ثم بالمصالح المصرية والعثمانية . فاذا قصر المؤيد في هذا الامر الذي لم يكن لولاه أمرا ذا بال ، يحكم عليه الرأي العام الاسلامي بالعدم والزوال ، ويطلب بلسان حاله جريدة تحل محله حتى ينهض بها من يؤهله الاستعداد ، من الشركات أو الافراد

وجملة مانريد الاعتبار به أن المؤيد قد جعله مشربه الاسلامي والمصري فوق جرائد القطر كلها ، بل جعله حاجة طبيعية ، من حاج البلاد المصرية فالاسلامية ، ولقي من المساعدة والاقبال مالا يلق غيره ، ومع هذا كله لم يستطع أن يكون في ثبات الاهرام والمقطم وفي مثل ثروتهما ، ولا في المحافظة على إشعار الجماهير بحاجتهم اليه ، وبانه لابد لهم في الحوادث الطارئة من رأيه ، وقد ألف صاحبه له حزبا سياسيا سماه (حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية) فلم يفده قوة تذكر ، ولا رد عنه غارة شن ، وانما كانت قوته المعنوية في هجومه ودفاعه سنان قلم الشيخ علي ، وحسن استعماله لأسنة الاقلام التي كانت تساعده ، ومنها ما كان أنفذ من سنانه في بعض الشؤون وأقتل . فلما مرض الشيخ مرض المؤيد ، ولما مات خشي الناس أن يموت كما مات حزبه ، ولكن الشركة المالية تداركت حياته المادية ، وعسى أن توفق لتدارك حياته المعنوية ، فان لم يتم هذا يفقد مسلمو مصر الانتفاع بقوتهم المعنوية ، ولا يبقى لهم قائد منهم في حياتهم السياسية والادبية ، ولا مدافع يؤثر صوته في مصالحهم الدينية ، فالشعب جريدة احداث جهال ، والجريدة ليست اسلامية المشرب ، والاهالي كذلك ، على انها ولدت سقطا كما قال أحد الأدباء . فالجريدة الاسلامية المصرية هي المؤيد ، فاذا مات يعسر وجود خلف له . وانني بهذه الحرية في النصيحة ، ربما أثير على نفسي حقدا تديما وعداوة جديدة ، ولا أبالي ذلك في سبيل مصلحة المسلمين ، على أنني لست على ثقة من قبولها والله الموفق

جريدة أو مجلة خاصة بشيء واحد مما تعم الحاجة اليه كالاقتصاد والزراعة أو الادب، دع الفلسفة بجملتها ، دون مذاهب الافراد فيها فقط

وجملة القول ان الجريدة لاترمي عن قوس عقيدة مسلمي مصر ، ولا تصلح للتأثير بالرأي العام المصري ولا فيه ، فهي لا تستطيع أن تخدمه كما يجب ، ولا أن تستخدمه كما تحب ، لان روحها غير اسلامي ، فلا هي لسان حال المسلمين ، ولا لسان الذين أسست بأموالهم منهم ، وهم لم يستمروا على الانفاق عليها الا لما يشعرون به من الغضاضة عليهم اذا ألغوها وأبطلوها ، ولا يرجى لها بهذا المشرب أن تبلغ شأو المقطم أو الاهرام من نفوس الناس ولا من الرواج والربح

فظهر بما شرحناه ان الاحزاب في مصر لاعمل لها ولا تأثير الا بالجرائد ، وان الجرائد بالرجال الذين يتولون سياستها وادارتها ، وانه لم توجد بمصر جريدة للمسلمين حسنة الادارة والنظام ـ اللهم الا الجريدة في الجملة أو في ضبط الاعمال المالية ـ وان جريدة المؤيد هي الجريدة الاسلامية السياسية التي أوجدتها الحوادث وكفاءة الشيخ علي يوسف في مكانة من الرأي العام الاسلامي يعرفها لها أهل الساسية في أوربة ، ويعدونها لسان حال مسلمي مصر وغير مصر أيضاً . وحذت جريدة اللواء حذوها ، ولم تبلغ شأوها ، لأن صاحب المؤيد كان في السياسة الاسلامية مستقلا ، وصاحب جريدة اللواء كان فيها مقلدا ، وانما كان حظه منها بقدر ما اقتبس من سياسة المؤيد . وكل ما خالف فيه المؤيد كان خطأ في جملته ، ان لم يكن خطأ في كل فروعه وجزئياته ، ولكن الغيرية لا تكون الا بالمخالفة في بعض الشؤون ، فصاحبا المؤيد واللواء هما أوجدا المؤيد واللواء ، وقد كان لسوء تصرفهما المالي دخل عظيم في اضعاف جريدتيهما ، حتى ماتت احداهما بعد موت صاحبها بعد ما اشرفت على الموت المالي في عهده ، ويخشى أن تموت الاخرى مثلها ، ان لم يعن بها أهل الغيرة والبصيرة عناية يراعى فيها ما بيناه في هذه الترجمة مرارا .

فيجب على مسلمي مصر أن يتدبروا هذا النقص العظيم، وأن يتذكروا ان شعبهم المستعد للعلم والادب والتربية السياسية والاقتصادية ، هو الذي جعل الاهرام والمقطم أغنى الجرائد في بلاده ، لان اصحابهما عرفوا كيف يخاطبونه بحسب استعداده ، وهو قد ساعد المؤيد واللواء ما لم يساعدهما ، فيجب على من يخدمه أن يخاطبه بلسان استعداده . وأن يتذكروا ان (مصر) و(الوطن) الجريدتين القبطيتين، تليان في الثروة

وأنشأ بسعي محمد بك فريد رئيسه جريدة لتكون لسان حاله سماها العلم (بالتحريك) ناط رياسة تحريرها بالشيخ عبد العزيز شاويش ، فكانت دون اللواء واحط منه في كل شيء الا الغلو والاسراف ، في الكذب والارجاف ، والطعن في الشعوب والافراد. لذلك اضطرت الحكومة الى إلغائها بعد ان حوكم رئيس تحريرها (شاويش) غير مرة ، وحكم عليه بالسجن وسجن .

في أثناء هذه الحوادث كان المتحمسون من رجال الحزب الوطني وآخرون ممن يودون استمالة محبي الرجل من التلاميذ يجمعون المال لنصب تمثال له ، يخلدون به ذكره، ولو راعوا الآداب الاسلامية لحافظوا بهذا المال على جريدة اللواء ، وانتقوا لها محررين من العقلاء الادباء ، فان هذا هو الذي يحفظ ذكره كما حفظ الاهرام اسمي سليم تقلا وبشاره تقلا . فما من يوم الا ويقرأ الاهرام ألوف من الناس يرون هذين الاسمين ويتذكرون مؤسسي هذه الجريدة المرتقية . وفي مصر عدة تماثيل لا يخطر اصحابها لاحد على بال حتى عند رؤيتها ماثلة بالشوارع .

وأما (الجريدة) فالعبرة بها أعظم فقد أنشأها جماعة من سروات البلاد أصحاب الثروة والمكانة الاجتماعية ، وحصلوا لها رأس مال عظيم ، ووضعوا لها قبل انشائها قانونا من أدق القوانين ، وأسسوا لها مطبعة من أرقى المطابع ، وجعلوا ادارتها ومطبعتها في قصر من أحسن القصور ، واختاروا لها مديرا من أذكى الكتاب واعلمهم بالسياسة والقوانين واختار هو من المحررين من سبق لهم التمرن على الكتابة حتى في إدارة الاهرام وادارة المقتطف والمقطم . وألف اولئك السروات المؤسسون لها حزبا سياسيا يكفلها سموه (حزب الامة) فهي قد ولدت بالغة راشدة فلم تكن كالمؤيد واللواء طفلا ينمو في إدارته رويدا رويدا - ولكنها على كل هذه المزايا لم تستطع ان تجد لها مقعدا ولا موقفا من المكان الفسيح الذي وجده قبلها المؤيد أو اللواء من قلب الرأي العامّ المصري ، ولم تستطع ان تنال من جيبه بعض ماينال المقطم أو الاهرام، بل كانت تحتاج كل سنة الى إمداد اولئك السروات لها بمالهم ، على انها ليست في الحقيقة لسان حالهم ، وسبب ذلك كله ان الروح الذي نفخ في هذه الجريدة لتحيا به ليس إسلاميا ، وانما هو فلسفة خاصة لاتكاد تجاوز دماغ مدير الجريدة وأدمغة بعض أصدقائه من المحامين وغيرهم (الذين هم حزب الجريدة المعنوي لا المالي) الا بتدرج بطيء جدا ، ثم انه لايرجى أن يعم ،وليس من الحكمة ولا مما يبيح الاقتصاد ان يكون له جريدة توقف عليه في مثل هذه البلاد التي لم تستعد لأن تعيش فيها

الجامعة الاسلامية والسياسة

(جمعية إسلامية . مدرسة جامعة بالمدينة المنورة . استغلال الحجرة النبوية)

تجدد الخوض في ذكر الجامعة الاسلامية بما ظهر أخيرا من عناية جمعية الاتحاد والترقي بالاستفادة من نفوذ الدولة الديني لما ظهر لها من تأثير الدين في السياسة ، وضرر ما كان من اعراضها عنه ، ومن اهتمام مسلمي الأرض كافة بحرب طرابلس وحرب البلقان ، وبذلهم المال لاعانة الدولة على الحرب بقدر الامكان ، ومطالبة مسلمي الهند لدولتهم البريطانية بمساعدتها ، واستيائهم من ميلها للبلقانيين . ففي أثناء الحرب ألفوا في الآستانة جمعية اسلامية خيرية تحت رياسة أو رعاية ولي عهد السلطنة . وكان أول من بذل المال لتأسيسها بعض وجهاء المصريين ، ويرجون أن يجمعوا لها مالا جمّا ، وان لم يعرف العالم الاسلامي اين يذهب هذا المال وكيف ينفق ؟

المدرسة الجامعة النبوية

وأذاعوا في الاقطار خبر تأسيس مدرسة جامعة في المدينة المنورة – ويعبر عنها الترك باسم « دار فنون » – ثم أرسلوا وفدا اليها في أثناء زيارة الحجاج لها للاحتفال بالشروع في تأسيس هذه المدرسة المنوّع افتتح باب الاعانات لها . ونحن ننتظر ان نرى نظام هذه المدرسة لنعلم هل موضوعها دار فنون جامعة لكل الفنون والعلوم العالية كما يفهم من هذه التسمية أم لا ، ولنعلم أي اللغات تكون لغة التعليم فيها ؟ هل هي العربية أم التركية ؟ ومن أين يأتون بالتلاميذ الذين تلقوا التعليم الابتدائي والثانوي ليدرسوا فيها الفنون والعلوم العالية ؟ وليس في المدينة ولا في الحجاز شيء من هذا التعليم! ولا نبحث عن المعلمين والكتب قبل أن نعرف لغة التعليم ، فان نظارة المعارف العثمانية تعتذر عما نطلبه من جعل التعليم في ولايات الدولة العربية بلغة اهلها ، وأظهر أعذارها عدم وجود الكتب والمعلمين . وقد أذاعت الجرائد من بضعة أشهر أن النظارة ألفت لجنة فيها لأجل اختيار الكتب العربية الصالحة . وعلمنا أنها طلبت نموذجا من كتب التعليم التي تقرأ في المدارس المصرية الأميرية فأرسل اليها . والى الآن لم نر لعمل اللجنة أثرا يذكر . واذا كانوا يريدون التعليم في المدينة باللغة التركية فان لنا في ذلك كلاما آخر .

نقول هذا ونحن لا نغفل فلا نصدق أن حكومتنا توجد في المدينة المنورة مدرسة جامعة . ونرى ذلك غير مستطاع ان كان مرادا ، ولا نظن أنه مراد . ولكنها قد

والثبات الاهرام والمقطم السوريتين . ولولا عصبيتهما القبطية لما كانتا دونهما تأثيرا في نفوس المسلمين . في النقص بل من العار على المسلمين أن لا يكون لهم جريدة أو جرائد مثل هذه أو أرقى منها في النظام والثروة ، بله التأثير والحظوة

ان لي أن أفاخر بكفاءة أصحاب المقطم والاهرام ومحرريهما و ببراعتهم ، لانهم من أبناء وطني الاول الذي هو وطن المولد والمنشأ . وأود ـ والله ـ أن أفخر بمثل عملهم من أبناء ديني ووطني الثاني الذي هو وطن العمل . ولا يسرني من مثل المقطم والاهرام في مصر الا ما ينفع المصريين ، لان أبناء وطني السوريين ليس لهم مصالح في مصر تنافي مصالح المصريين ، فهم غير محتاجين الى جرائد خالصة لهم من دون المصريين ، لاجل هذا يهمني أمر المؤيد ، و يسرني أن يكون أرقى الجرائد المصرية تحريرا ونظاما وافادة واستفادة ، لان المسلم أجدر بمعرفة حاجة الجمهور المسلم وبيانها والدفاع عنها ، من مثله في علمه وبيانه من غير المسلمين ، وأقدر على التأثير فيه بحمله على الخير أو صرفه عن الشر ، وعلى التأثير به بجعله مجنا يدفع به عنه ما يراه ضارا به . وقد رأيت غير واحد من المشتغلين بالعلم وبالسياسة من النصارى يتمنون لو ولدوا مسلمين ، لأجل أن يكونوا أقدر على خدمة وطنهم أو الشرق الاسلامي كله

وما أطلت الكلام على الجرائد في ترجمة الشيخ علي يوسف الا لأذكر إخواني مسلمي مصر بما أراهم غافلين عنه ، وهو أنه لم توجد لهم جريدة تصح ان تكون لسان حالهم بحق الا المؤيد ، وان الروح الذي كان به المؤيد هو المؤيد يجب ان يبقى له ، ويجب ان يكفل ، وان يكون لهيئة التحرير فيه مع الرئيس الكفؤ ، مراقب موثوق به ، مثل سعد باشا زغلول الذي كان ركنا من أركان تأسيس المؤيد . والا خسر مسلمو مصر خسارة يصعب عليهم الاستعاضة عنها في سنة أو سنين قليلة ، وربما حرموها الاجيال طويلة ، وقد ذكرناهم بما يوجب العبرة من تاريخ أعظم جرائدهم

هذا وان أية جريدة من جرائد المسلمين في مصر يتولى رياسة تحريرها كاتب خبير بمصالح المسلمين غيور عليها ، قادر على الدفاع عنها ، يمكن ان تحل محل المؤيد الاول وأن تكون أكمل منه فيه وأثبت ، ولكن لا يكون ذلك الا بعد ثقة الجمهور المسلم بها ، وهذه الثقة اذا استعادها المؤيد في سنة واحدة فلا تنالها جريدة جديدة الا بعد سنين كثيرة أو قليلة ، ومن ذا الذي ينفق على جريدة جديدة عدة سنين ، منتظرا طروء الحوادث التي تقنع الرأي العام بانها هي حاجته التي يطالبها لسان حاله واستعداده ؟

(للترجمة بقية)

تحامل أوربة عليها ، وأكتفي في هذا المقام بالمثل الذي يكرره الامام الغزالي في الاحياء : « كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة »

ومرادي من هذا انه يجب عليها أحد امرين : (الاول) ان تؤسس حكومة اسلامية ، خالية من التقاليد والقوانين الافرنجية ، الا ما كان من النظام ، الذي يتفق مع الشرع ولا يختلف باختلاف الأقوام ، وتعطي مقام الخلافة حقه من إحياء دعوة الاسلام ، وإقامة الحدود وحرية أهل الاديان ، ولا يعجزها حينئذ ان ترضي غير المسلمين من رعاياها الذين ليس لهم أهواء سياسية ، ولا ضلع مع الدول الاجنبية ، بل يكون ارضاؤهم أسهل عليها منه الآن ان شاء الله . ولو كان لي رجاء في إصغائها الى هذا الرأي ، أو جعله محل النظر والبحث ، لبينت ذلك بالتفصيل ، ولأوردت ما أعلمه من المشكلات والعقبات التي تعترض في طريق تنفيذه من داخلية وخارجية مع بيان المخرج منها ، ثم ما يترتب عليه من تجديد حياة الدولة وكونه هو المنجي لها من الخطر ، وان تراءى لكثير من الناس انه هو المسرع بالخطر ، ظنا منهم أن أوربة تعجل بالاجهاز على الدولة اذا علمت بانها شرعت بنهضة إسلامية ، لعلمها بانها هذه هي حياتها الحقيقية ، ولكن حياتها بهذا هو ما يصرح به بعض أحرار الأوربيين (١) وان خوف منه بالتمويه والايهام اكثر السياسيين

(الثاني) ان تدع كل ما عدا الامور الرسمية المعهودة لديها من أمور الدين الى الجمعيات الدينية الحرة ، والافراد الذين يدفعهم استعدادهم الى هذه الخدمة ، ولها ان تساعد ما يستحق المساعدة من هذه الاعمال بالحماية . وكذا بالاعانات المالية من أوقاف المسلمين الخيرية ، (اذا كانت تريد بقاء الاوقاف العامة في يدها ولم تجب طلاب الاصلاح الى جعل أوقاف كل ولاية في أيدي أهلها) مع ابقائهم بمعزل عن السياسة وأهلها . ولولا ان هذا هو رأيي لما اشترطت على رجال الدولة وجمعية الاتحاد ، إذ عرضت عليهم مشروع الدعوة والارشاد ، ان يكون في يد جماعة حرة لا علاقة لها بالسياسة ، وان لا تخصص لها اعانة من خزينة الدولة ، بل تكون نفقاتها مما تجمعه هي من الاعانات بأنواعها ، ومما تعطاه من أوقاف المسلمين الخيرية . (فستذكرون

(١) قال لورد كرومر لبعض من لقيه من العثمانيين المشتغلين بالسياسة : ان الدولة العثمانية لا تصلح بالقوانين التي تقتبسها منا (أي الأوربيين) ونحن ما صلحت لنا هذه القوانين الا بعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير فيها ونبدل بحسب اختلاف الاحوال ، وان عندكم شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولاحوالكم الاجتماعية فالواجب على الدولة ان تعمل بها وتترك قوانين أوربة فتقيم العدل وتحفظ الأمن وتستغل بلادها الخصبة . وعندي انها لا تصلح بغير هذا

تبني بناء فخما تسميه مدرسة جامعة ، وتجلب اليه بعض الطلاب من بلاد مختلفة ، فيعطون دروسا ابتدائية أو فوق الابتدائية ، حسب استعداد من يحضر ، ثم تستندي أكف أغنياء الحجاج وغيرهم لأجل ترقية المدرسة كما تستنديها الآن لاجل تأسيسها باعاناتهم

وأما كون المراد من هذه المدرسة بث فكرة الجامعة الاسلامية في نفوس المسلمين ـ كما قالت الجرائد في هذه الاقطار وفي غيرها ـ فالظاهر ان السياسة الاتحادية الاخيرة تود إذاعة هذا المعنى عنها ، وبعض الذين يتولون إنشاء المدرسة الآن على اقناع زوّار المدينة المنورة وغيرهم بأن جمعية الاتحاد والترقي تخدم الدولة والاسلام ، وانه يجب ان تساعد على ذلك بما يستطاع من النفوذ والمال ، وقد علم هذا من حال من اختارتهم الجمعية للشروع في العمل ، ومن الاحتفال الذي كان في المدينة المنورة ، ومن حال المندوب الذي بقي هنالك بعد الاحتفال (وهو الأمير شكيب أرسلان أحد أدباء طائفة الدرزو في جبل لبنان) الذي كتب العشرات بل المئات من المقالات في إطراء الجمعية والطعن في طلاب الاصلاح من العرب للبلاد العربية أما الشيخ عبد العزيز شاويش رئيس لجنة ذلك الاحتفال في المدينة المنورة ورفيقه عبد القادر أفندي المغربي فهما من غلاة أنصارها الذين ثبتوا على خدمتها في الاقبال والادبار ، على اختلاف المظاهر والاطوار ، ومن كان هذا شأنه معها فيما رجعت عنه من سياستها القديمة ، فكيف لا يكون كذلك في سياستها الجديدة ؟

أما أنا فاني لو توجد مدرسة جامعة في المدينة المنورة ، أو مدرسة ما مهما كانت درجتها ، ومهما كان الغرض من انشائها ، فاذا لم تكن كما نحب اليوم ، فانا نرجو أن تكون كما نحب غدا . ولهذا لم أكتب كلمة تحذير منها في المقالات التي أنحيت بها على أعمال الجمعية ، أيام كان الخلاف بينها وبين قومنا العرب على أشده ، حتى اني عدت ـ كما كنت في عهد عبد الحميد ـ لا آمن على نفسي ان أحج بيت الله الحرام ، أو أزور حرم رسوله عليه الصلاة والسلام ، وكانت تمثل لي هذه المدرسة ـ عند سماع خبر العزم عليها ـ كمسجد الضرار . وقد دخل قومنا معها الآن في طور جديد تمنينا فيه بكل ما نطلب من الاصلاح ، والله المسؤل ان تصدق الأماني وتحصل الآمال

وأما رأيي الذي أنصح به للدولة ، فهو أن تصدي رجالها السياسيين لتحريك أوتار الجامعة الاسلامية يضر الدولة كثيرا ولا ينفعها الا قليلا ، ويوشك ان تكون هذه الاقوال التي قيلت في هذه المسألة ـ على قلة تأثيرها ـ من أسباب ما نراه من شدة

وآثار السلف التي تدحض هذه الشبهات ، وأن يبينوا للناس ان كل بدعة حدثت في الاسلام قد موهت بمثل هذا التمويه ، وادعى محدثوها أنهم يخدمون بها الدين ، كما بينه الامام الشاطبي في كتاب الاعتصام

واني انقل هنا أثرا واحدا من آثار السلف الصالح في التوقي من احداث شيء في مسجد الرسول (ص) او مدينته حذرا من لعنته . نقل الشاطبي في بيان كون المبتدع ملعونا ما يأتي :

« قال ابو مصعب صاحب مالك : قدم علينا ابن مهدي ـ يعني المدينة ـ فصلى ووضع رداءه بين يدي الصف ، فلما سلم الامام رمقه الناس بأبصارهم ورمقوا مالكا ـ وكان قد صلى خلف الامام ـ فلما سلم قال : من هاهنا من الحرس ؟ فجاءه نفسان ، فقال : خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه . فحبس . فقيل له : انه ابن مهدي (١) فوجه اليه وقال له : أما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك في الصف وشغلت المصلين بالنظر اليه ، وأحدثت في مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من أحدث في مسجدنا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » فبكى ابن مهدي ، وآلى على نفسه أن لا يفعل ذلك أبدا في مسجد النبي (ص) ولا في غيره .

(قال الشاطبي) وهذا غاية في التوقي والتحفظ في ترك احداث مالم يكن خوفا من تلك اللعنة ، فما ظنك بما سوى وضع الثوب؟ اهـ (ونقول) فما ظنك ببدعة وحدث في حجرة الرسول (ص) يتبعها الكذب عليه ، وأكل أموال الناس باسمه ، والزيادة في الدين الذي جاء به ، ولو لم يكن في ذلك من الزيادة في الدين إلا إحداث قربة جديدة وعبادة مخترعة هي التقرب الى الله تعالى والى رسوله (ص) بكتابة اسماء الناس في دفتر هنالك لكفى ، فان قالوا اننا لا نعده قربة ولا سببا للثواب . قلنا اذا هو غش واحتيال، لأجل سلب الاموال، فان من يعلم ان كتابة اسمه لا تقربه الى الله ورسوله، لا يدفع المال لأجلها ... هذا ولولا الاخلاص في النصيحة لله ولرسوله وللدولة لما كتبت هذا قبل إحداث هذا الحدث المقترح ، والله عليم خبير

---

(١) هو عبد الرحمن بن مهدي الشهير بالصلاح والعلم والعمل ، كان يختم القرآن كل ليلة ويتهجد بنصفه . لهذا كان قولهم للامام مالك « هذا ابن مهدي » سبباً لمبادرته الى اخراجه من الحبس لعلمه أن كلمة حق واحدة تؤثر في نفسه ما لا يؤثر الحبس الطويل في نفس غيره .

ما أقول لكم وأفوّض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد)

استغلال الحجرة النبوية

بلغنا والعهدة على الرواة أن بعض المنافقين الذين يتقربون الى (جمية الاتحاد والترقي) باسم الدين ، واستنباط الوسائل منه الى استخراج المال من جيوب المسلمين ، قد زينوا لها أن تتخذ دفترا تضعه في حجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام . وتذيع في العالم الاسلامي كله أن من أراد أن يكتب اسمه في هذا الدفتر ، الذي وضع لدى قبر الرسول الاعظم ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فليبذل قطعة من النقود الذهبية ، (كالجنيه الانكليزي أو الليرة العثمانية) ونحن ننصح للدولة أو الجمعية بأن ترد هذا الاقتراح ولا تنفذه ، مهما زينه المنافقون ووسعوا دائرة الاماني فيه ، وأوهموها ان السواد الاعظم من المسلمين يقبلونه ، ظانين أنه بجعلهم معروفين عند نبيهم (ص) محبوبين لديه ، مقبولين عنده ، وانه يمكن لمن يدعوهم الى البذل أن يقول لهم : انه (ص) ينظر في هذا الدفتر كل يوم ، ويقرأ هذه الاسماء ويدعو لأصحابها بخير

هذه بدعة قبيحة لا نظن ان رجال الاتحاد يقبلون فيها قول المنافقين ، أو يحتاجون الى نصح الناصحين ، وهي على كونها حدثا وبدعة في مسجد الرسول (ص) وعبثا بالدين ، تخل بتعظيمه وتكريم مقامه (ص) وقد لعن من أحدث حدثا في مسجده (وسيأتي الحديث فيه) وكذا في مدينته وما حولها : روى الشيخان في صحيحيهما وغيرهما عن علي كرم الله وجهه أنه قال : ما كتبنا عن رسول الله (ص) الا القرآن وما في هذه الصحيفة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة حرم ما بين عَيْر الى ثور (١) فمن احدث فيها حدثاً او آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل » الحديث

لا يعجز اصحاب الجرأة من المنافقين ان يقولوا ان استغلال حجرة المصطفى وقبره (ص) بمثل هذا الدفتر لا يعد حدثاً ولا بدعة ، لانه وسيلة الى مساعدة الدولة على خدمة الدين (مثلا) ويمكن ان يتقى فيه الكذب في الدين وايهام الباطل والكذب على الرسول (ص) حتى لا يكون توسلا باسمه (ص) الى أكل أموال الناس بالباطل . ولكن أنصار السنة أنهض حجة وأقوم قيلا ، فلا يعجزهم أن يظهروا الدلائل

(١) عير وثور جبلان جعلهما «ص» حدين للمدينة . وثور جبل بمكة أيضا وقد اشتبه بعض شراح الحديث في هذا الذي في المدينة ، ورجح بعضهم رواية «ما بين عير وأحد» وان كانت الاولى أصح سندا . وقال بعضهم ثور الذي يحد المدينة وراء احد الى الشمال وهو مدور ولونه الى الحمرة . فالظاهر انه جبل صغير ظنه بعض الناس جزءا من احد

اعلان من ادارة مجلة المنار بمصر

(المراسلات)

(١) ينبغي ان تكون جميع المراسلات المتعلقه بالادارة من طلب كتب او اشتراك او اجزاء مفقودة او تغيير عنوان او طبع مطبوعات بعنوان (ادارة مجلة المنار بمصر) وما كان منها خصوصيا أو مايختص بالتحرير والاستفتاء يجب بأن يكتب باسم (السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار بمصر) وتخاطب المكتبة بعنوانها الموضح بالبند الثاني

واذا كانت المراسلة مشتملة على عدة مواضيع فليكتب كل موضوع على حدة بورقة خاصة لان ذلك ادعى لانجاز العمل وتلبية الطلب

(الحوالات)

(٢) جميع الحوالات من بدل اشتراك أو ثمن كتب أو أجزاء من ادارة المنار أو أجرة طبع أو تجليد يجب أن ترسل باسم « السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار بمصر » وأما الكتب التي تطلب من مكتبة المنار فترسل حوالاتها باسم (عبد الفتاح أفندي قتلان مدير مكتبة المنار بشارع عبد العزيز بمصر)

(الاشتراك)

يكون بواسطة الوكلاء أو مكاتب البوستة أو بخارة الادارة رأسا

وقيمة الاشتراك ثمانون قرشا

وفي الخارج تسعون قرشا مصريا أو ثلاثة وعشرون فرنكاو ٥٩ سنتيما أو تسع روابل روسية، أو اثنان وعشرون كرونا و ٢١ هلرا أو احد عشر فلورينا و ١٨ سنتا او ثمانية عشر ماركا و ٩٠ فننا . او تسعة عشر شلينا او اربعة دولارات و ٤٩ سنتا و نصف سنت . او اربعة بسوس و ٦١ سنتافوس

وعلى طالب الاشتراك أن يرسل القيمة مع الطلب حوالة باسم السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار بمصر على البوستة أو أحد المصارف (البنوك) او احد تجار القاهرة أو يدفعها لوكيل المنار في بلده ان كان هناك وكيل وكذلك الذين يطلبون مطبوعاتنا والاجزاء المفقودة

(المسؤلية)

(٤) ان ادارة المنار غير مسئولة عن المراسلات اذا فقدت من البريد الا اذا كانت مسجلة على حساب المرسل اليه وقيمة التسجيل لجميع أعداد المنار في السنة ٠ قروش لمصر والسودان و٣ فرنكات و ١١ سنتيم أو شلنان و ٥ بنسات ونصف للخارج لكل مراسلة ٥ مليمات لمصر والسودان وقرش صحيح (صاغ) أو ٢٦ سنتيما أو بنسان

﴿ انتقاد أجوبة المنار لمن سأل عن حكم الحج ﴾

كتب الينا غير واحد من البحرين أن الذي سألنا عن حكم الحج واسرار المناسك لم يكن يريد الحج هو وأصحابه ، وما أسئلتهم تلك الا مظهر ما في نفوسهم من الاعتراض على الدين وعدم الاذعان لأحكامه ، وانه ما كان ينبغي ان يجابوا الا أن يقال لهم: هذا ديننا فان كنتم من أهله فأقيموا أركانه وأدوا فرائضه ، وإلا فالزموا شأنكم .

هذا معنى ما كتب الينا ، وصرحوا بأن سبب سوء اعتقادهم في السائل ومن على شاكلته أنهم قد تعلموا في مدرسه دعاة النصرانية (المبشرين) فأزاغوا عقائدهم

أما نحن فنقول ان الاسئلة التي أرسلت الينا تدل على أن السائل قد عرضت له شبهات في هذه العبادة (الحج) فهو إما حريص على دينه يسأل العلماء ليأخذ عنهم ما يدفعها بها ليكون على بصيرة من دينه ، وإما معجب بنفسه يختبر علماء المسلمين ليرى ماعندهم ، حتى اذا عجزوا عن بيان حكم هذه المناسك عذر نفسه ، واطمأن بما عنده . والواجب علينا ان نغلب حسن الظن ما وجدنا له منفذا ، وان نجيب طالب العلم مهما كان قصده ، فان كان مؤمنا ازداد ببيان حكمه الدين ايمانا ، وان كان شاكا أو زائغا يوشك ان يعود الى الرشد ، ويطمئن بما ظهر له من الحق . ولا ينبغي لنا ان نتهم أحدا في دينه بالشبهة ، ولا أن ندع من نشككهم دعاة النصرانية في الحق وشأنهم ، بل ينبغي لنا ان نجذبهم الينا ، اذا هم أعرضوا عنا وركنوا سوء لنا ، فاذا تركنا الحق الباطل يصول بشبهاته على أحداث المسلمين ، فوشك يخرجهم كلهم من الدين .

واذا كان بعض أهل البحرين يدركون مبلغ افساد دعاة النصرانية في بلدهم ، فلماذا لا يحذرون الغافلين من ارسال أولادهم الى مدارسهم ، ويغنونهم عنها بمدرسة اسلامية ينشئونها لهم ، يعلمونهم فيها من علوم المعاش ما يعلمهم هؤلاء المفسدون ، ويزيدون عليهم تعليم عقائد الاسلام وأحكامه وحكمه وآدابه وتاريخه بدلا من النصرانية وشؤون أهلها ؟ الا يعلمون أنهم بترك معارضة هؤلاء المخادعين لدينهم آثمون كلهم ؟ وان هذا الاثم لا يزول الا بانشاء مدرسة ينقذون فيها أولادهم من مدرسة دعاة النصرانية التي ستلقي العداوة بينهم وبين أولادهم ، وتقطع صلتهم بهم في الدنيا والآخرة؟؟

وعسى أن يعتبر بهذا من يدعون في حضرموت وغيرها من أطراف جزيرة العرب الى جعل بلادهم للانكليز أو تحت حمايتهم ، ويفطنوا لما في ذلك من الخطر على دينهم

(الجزء الثاني)   صفر ١٣٣٢   (المجلد السابع عشر)

﴿ قيمة الاشتراك ﴾

ثمن سنة ٨٠ قرشا صاغا في مصر والسودان و٤ ريالات في المملكة العثمانية و٢٣ فرنكا و٥٦ ... في الخارج و١٩ شلنا في الهند و٩ روبلات في روسيا ويجب الدفع سلفا

المنار
١٣١٥

﴿ تنبيه ﴾

يجب أن يكون وصول الأدية عموما باسم الادارة الخاص ومرقوما عليه رقم مشترك المجلة والمسلم

الاشتراك في المجلة يكون دائما من أول سنتها « المحرم » ونصفها « رجب »

﴿ مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران ﴾

(المنشئ)
السيد محمد رشيد رضا

(مدير الادارة والمطبعة)
السيد صالح مخلص رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

﴿ فهرس ﴾

ونصف بنس للخارج . ولكل طرد زنته ٥ كيلو عشرة قروش الى آسية الوسطى و ٨ قروش الى أوربة و ١٢ قرش الى الهند الشرقية الانكليزية وبغداد والبصرة والمحمرة ومسقط والكويت وعدن ومكاتب البوسطة الانكليزية في الشرق

فهرس المجلد الخامس عشر

تأخر اصدار هذا الفهرس سنة مما جعل المشتركين يلحون بطلبه من كافة انحاء العالم ولم يصدر مع هذا العدد لسبب اضطرار رئيس المرتبين والطباع للانقطاع عن العمل ستة ايام وسيصدر مع العدد الثاني صالح مخلص رضا

﴿ التذكرة الالهامية ﴾

قد امتازت هذه (المفكرة) على جميع المفكرات العربية لاحتوائها على التواريخ العربية والتركية والافرنجية والقبطية وما فيها من الفوائد التاريخية والادبية وتطلب من مكتبة المنار بمصر وثمنها ٣ قروش

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ صفر ١٣٣٢ هـ ق ٧ الشتاء الثاني ١٢٩٢ هـ ش ٢٦ يناير ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٣٠) وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ، قَالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ:
إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي
مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٣٢) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ
ٱلنَّارِ ، وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٣) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ
فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٣٤) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي
ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ: يَٰوَيْلَتَىٰ ! أَعَجَزْتُ أَنْ

وكون الحاسد يبغي ان قدر ، مالم يزعه الدين أو يمنعه القدر ، وهو لا يبغي ولا يقتل الا وهو يظن ان ذلك خير له وأنفع ، وأنوه بقدره وأرفع ، ومثل هذا الظن لا يزول من الناس ، الا اذا أحاط كل فرد من أفرادهم علما بكل شؤون المعاش والمعاد ، وارتباط المنافع الشخصية بمنافع الاجتماع ، وأقاموا الدين القيم كلهم على الوجه الذي أراده الله ، وكل ذلك محال لأن طبيعة البشر تأباه . فهم يخلقون متفاوتين في الاستعداد للعلم ، وما يرد على أنفسهم من صور المعلومات بأنواعها يختلف ، وما يتحد منه يختلف تأثيره الذي يترتب عليه العمل . فالاختلاف في العلم والرأي والشعور والوجدان طبيعي فيهم ، ومن لوازمه النافعة اشتغال كل فريق منهم بنوع من أنواع الاعمال ، وبذلك يظهرون اسرار الله وحكمه في الكائنات ، وينتفعون بما سخره لهم من أنواع المخلوقات ، ومن لوازمه الضارة التخاصم والتقاتل . لاجل هذا صاروا محتاجين الى الحكام والشرائع . وكان من عدل الشريعة ان تبنى أحكام قتل الافراد وقتال الشعوب على قواعد درء المفاسد واقامة المصالح . (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) - فهذه الآيات في هذا الموضع مبينة لحكم ماقبلها ، وما بعدها من الاخبار والاحكام . وقال ابن جرير وقال وتبعه بعض المفسرين ان هذه الآيات متعلقة بقوله تعالى (١٢ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم) الآية . وقال بعضهم انها متعلقة بقوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله) الآية . وما قلناه أكمل، وأعم وأشمل . قال تعالى

﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ الاصل لمعنى مادة (ت ل و) التبع . فالتلو (بالكسر) ولد الناقة والشاة اذا فطم وصار يتبعها ، وكل ما يتبع غيره في شيء يقال هو تلوه . ويقال : مازلت أتلوه حتى أتليته . أي غلبته فسبقته وجعلته تلوي . وتلا فلان . اشترى تلوا . أي بغلا صغيرا أو جحشا . والتلاوة (بالضم) والتلية (بالفتح) بقية الشيء لانه يتلو ماقبله . يقال ذهبت تلية الشباب . والتلاوة بالكسر القراءة ، ولم تكد تستعمل الا في قراءة كلام الله تعالى . وذكر في لسان العرب تلاوة القرآن ، وقال أن بعضهم عمّ به كل كلام . ولعل قراءة القرآن سميت تلاوة

أَكُونَ مِثْلَ هَذَا ٱلْغُرَابِ، فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي، فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ (٣٥) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا. وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ

جاءت هذه القصة في سياق الكلام على أهل الكتاب، وشأنهم مع النبي (ص) والقرآن، بين قصة بني اسرائيل الذين عصوا ربهم فيما كلفهم من قتال الجبارين، وبين ماشرعه الله من جزاء الذين يخرجون على أئمة العدل، ويهددون الأمن، ويفسدون في الأرض، وما يتلوه من عقاب السرقة.

فمناسبة هذه الآيات للسياق في جملته، أنها بيان لكون الحسد الذي صرف اليهود عن الإيمان بالنبي (ص) وحملهم على عداوته عريق في الآدميين وأثر من آثار من سلفهم، كان لهؤلاء القوم منه النصيب الوافر، ويتضمن تسلية النبي (ص) والمؤمنين، وازالة استغرابهم اعراض هذا الشعب عن الاسلام، على وضوح برهانه، وكثرة آياته.

وأما مناسبتها لما قبلها وما بعدها مباشرة فهو بيان حكمة الله في شرع القتال والقود، على ماشدد فيه من تحريم قتل النفس. ذلك انه لما كان القتال بين الأمم، وقتل الحكومات للأفراد، أو تعذيبهم بقطع الأطراف — كل ذلك قبيحا في نفسه، كان من مقتضى رحمة الله تعالى وحكمته، انه لا يباح الا لدرء ما هو أقبح منه وأضر. وكان من كمال الدين أن يبين لنا حكمة ذلك، فجاءت هذه القصة في هذا المقام تبين لنا ان اعتداء بعض البشر على بعض حتى بالقتل هو أصيل فيهم، وقع بين أبناء أبيهم آدم في أول العهد بتعددهم، لأنه أثر من آثار ماجبلوا عليه من كون أعمالهم باختيارهم، حسب ارادتهم التابعة لعلمهم أو ظنهم، وكون علومهم وظنونهم من كسبهم، وكونها لاتبلغ درجة الإحاطة بمصالحهم ومنافعهم، وكذا ماجبلوا عليه من حب الكمال، وما يتبعه من حسد الناقص لمن يفوقه في الفضائل والأعمال،

فهو ما يقدسه الكاهن من الخبز والخمر فيتحول في اعتقادهم الى لحم المسيح ودمه حقيقة لا مجازا. والقربان في الاصل مصدر قرب منه واليه قربا وقربانا ، فلهذا يستوي فيه المفرد وغيره • والأقرب ان كل واحد منهما قرب قربانا ، ويجوز ان يكونا قد قربا قربانا واحدا كانا شريكين فيه ، ﴿ فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر ﴾ أي فتقبل الله من احدهما قربانه أو تقريبه القربان اتقواه وإخلاصه فيه وطيب نفسه به ، ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والاخلاص • والتقبل أخص من القبول لانه ترق فيه الى الاثابة عليه والعناية بالمقبول • ولم يبين لنا الله تعالى كيف علما انه تقبل من احدهما دون الآخر ، ويحتمل أن يكون ذلك بوحي من الله لأبيهما آدم عليه السلام ، بناء على قول الجمهور انهما ابنا آدم لصلبه وفاقا لسفر التكوين ، أو لنبي زمانهما على قول الحسن انهما كانا من بني اسرائيل ، وهو قول ضعيف خلاف الظاهر المتبادر • وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما ان احدهما كان صاحب حرث وزرع والآخر صاحب غنم ، وان هذا قرب اكرم غنمه واسمنها واحسنها طيبة به نفسه ، وصاحب الزرع قرب شرما عنده وارداه غير طيبة به نفسه • وروي عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تجيء النار فتأكله ، ولا تأكل غير المقبول ، وهذه أخبار اسرائيلية اختلفت الروايات فيها عن مفسري السلف ، بعضها يوافق ماعند اليهود في سفر التكوين و بعضها يخالفه • وليس فيها شيء مرفوع الى النبي (ص) يعول عليه

﴿ قال لأقتلنك ﴾ أي ان من لم يتقبل منه توعد أخاه وأقسم ليقتلنه فأجابه أحسن جواب وأنفعه : ﴿ قال إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ أي لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الاعمال القبول المقرون بالرضا والاثابة الا من المتصفين بالتقوى ، فهذا الجواب يتضمن بيان سبب القبول وعدمه مع الاعتذار، كأنه قال اني لم أذنب اليك ذنبا تقتلني به ، فان كان الله تعالى لم يتقبل منك، فارجع الى نفسك فحاسبها على السبب، فإنما يتقبل الله من المتقين ، أي الذين يتقون الشرك الاكبر والاصغر وهو الرياء ، والشحّ واتباع الاهواء ، فاحمل نفسك على تقوى الله والاخلاص له في العمل ، ثم تقرب اليه بالطيبات يتقبل منك ، فالله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا

لانه مثاني كلما قرئ منه شيء يتبع بقراءة غيره أو باعادته، أو لأن شأنه ان يقرأ ليتبع بالاهتداء والعمل به. وعبر القرآن بالتلاوة عن قراءة كتاب الله وآياته للانبياء السابقين لهذا المعنى أيضا . وفسروا قوله تعالى « يتلونه حق تلاوته » بيتبعونه حق اتباعه . والنبأ الخبر الصحيح الذي له شأن من الفائدة والجدارة بالاهتمام .

ومعنى الجملة واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر النـاس ذلك النبأ العظيم — نبأ ابني آدم — تلاوة متلبسة بالحق مظهرة له ، بأن تذكره كما وقع ، مبينا ما فيـه من الحكمة والكشف عن غريزة البشر . وهو ما جبلوا عليـه من التباين والاختلاف الذي يفضي الى التحاسد والبغي والقتل ، ليعلموا حكمة الله فيما شرعه في الدنيا من عقاب الباغين من الافراد والجماعات والشعوب والقبائل ، وكون هذا البغي من اليهود على رسول الله والمؤمنين ليس من أمر دينهم، وإنما هو من حسدهم و بغيهم، فهم في هذا كابني آدم اذا حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات .

والجمهور على ان هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه، وعن الحسن انهما من بني اسرائيل . وفي سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم، اسم أحدهما قاين أو قايين وهو البكر ، ويقول علماء التفسير والتاريخ منا قابيل . وهو القاتل . واسم الثاني هابيل بالاتفاق . وقد ذكروا في ذلك روايات غريبة لا يمكن ان يعرف مثلها الا بوحي من الله ، وهي لم ترو عن أحد من رسل الله . ومنها ان آدم رثى هابيل بشعر عربي . فنعرض عن هذه الروايات التي لا تصح ولا تفيد . ووصف ما قصه الله تعالى بالحق يشعر بأن ما يلوكه الناس في ذلك مما سواه باطل . ﴿ اذ قربا قربانا ﴾ أي اتل عليهم نبأهما أي وقت تقريبهما القربان ؛ وما تبعه من البغي والعدوان . و القربان ما يتقرب به الى الله تعالى من الذبائح وغيرها . وغلب عندنا في ذبائح النسك كالأضاحي . وكانت القرابين عند اليهود أنواعا (منها) المحرقات للتكفير عن الخطايا وهي ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب . والذبائح عن الخطايا قسمان: عن الخطايا العامة والخطايا الخاصة. (ومنها) ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى (ومنهـا) التقدمات من الدقيق والزيت واللبان. (ومنها) تقدمة الترديد من باكورة الارض . واما القربان عند النصارى

الأخ البارّ بالتذكير بعذاب الآخرة ، فقال ﴿ إني أريد ان تبوء بإثمي وإثمك ﴾ أي اني أريد بما ذكرت من اتقاء مقابلة الجناية بمثلها ان ترجع أنت ان فعلتها متلبسا باثمي وإثمك . أي إثم قتلك إياي، وإثمك الخاص بك الذي كان من شؤمه عدم قبول قربانك ، وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس (رض) وفيه وجه آخر وهو انه مبني على كون القاتل يحمل في الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام، لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق للعباد لا يغفر الله تعالى منها شيئا حتى يأخذ لكل ذي حق حقه ، وانما القصاص في الآخرة بالحسنات والسيئات ، فيعطى المظلوم من حسنات الظالم مايساوي حقه إن كان له حسنات توازي ذلك ، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره مايوازي ذلك ان كان له آثام وأوزار ، وما نقص من هذا أو ذاك ، يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار . وفي ذكر المتكلم اثمه واثم أخيه تواضع وهضم لنفسه باضافة الاثم اليها على الوجه الثاني ، وتذكير المخاطب بأنه ليس له حسنات توازي هذا الظلم الذي عزم عليه ، ولذلك رتب عليه قوله :

﴿ فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار في الآخرة لأنك تكون ظالما ، والنار جزاء كل ظالم ، فتكون من أهلها حتما ـ ترقى في صرفه عن عزمه به من التبرؤ اليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التقبل عند الله تعالى وهو التقوى ـ الى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها ـ الى تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى رب العالمين الذي لايرضيه ممن وهبهم العقل والاختيار الا ان يتحروا إقامة سننه في تربية العالم وابلاغ كل حي يقبل الكمال الى كماله ـ الى تذكيره بأن المعتدي يحمل اثم نفسه وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى في القصاص والجزاء ـ الى تذكيره بعذاب النار ، وكونها مثوى الظالمين الفجار . فماذا كان من تأثير هذه المواعظ، في نفس ذلك الحاسد الظالم ؟ بين الله ذلك بقوله :

﴿ فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴾ فسروا طوعت بشجعت وهو مأثور عن ابن عباس ومجاهد ، وبوسعت وسهلت وزينت ، ونحو ذلك من الالفاظ التي رويت عن مفسري السلف وعلماء اللغة، وكل منها يشير الى حاصل المعنى في الجملة ،

﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فليتعظ بهذا أهل الغرور بأعمالهم ، ولا سيما النفقات التي يراءون بها الناس ، و يبتغون بها الصيت والثناء .

ثم انه بعد بيان هذه الحقيقة من حق الله والتقرب اليه ، بين له حقيقة أخرى وهي ما يجب للناس ولا سيما الاخوة بعضهم على بعض من احترام الدماء وحفظ الانفس فقال :

﴿ لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك ﴾ أي بين له حاله وما تقتضيه من عدم مقابلته على جنايته بمثلها ، مؤكداً ذلك بالقسم و بجملة النفي الاسمية المقرون خبرها بالباء ، وهو انه إن بسط يده أي مدها ليقتله بها ، لا يجزيه بالسيئة سيئة مثلها ، وان هذه الجناية لا تأتي منه ولا تتفق مع صفاته وشمائله ذلك بأنه لم يعبر عن نفسه بصيغة الفعل المضارع المنفي كما عبر بالماضي المثبت عن عمل أخيه ، ـ وهو المتبادر في مقابلة الشيء بضده ـ بل قال « ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك » أي لست بالذي يتصف بهذه الصفة المنكرة المنافية لتقوى الله تعالى ، ولا شك ان نفي الصفة أبلغ من نفي الفعل ، الذي هو عبارة عن الوعد بالترك ، لأنه عبارة عن وعد مؤكد ببيان سببه . ثم أكده تأكيداً آخر ببيان علته وهو قوله ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ أن يراني باسطاً يدي الى الإجرام وسفك الدم بغير حق ، فان ذلك يسخطه ويكون سبب عقابه ، لأنه رب العالمين الذي يغذيهم بنعمه ، ويربيهم بفضله وإحسانه ، فالاعتداء على أرواحهم أعظم مفسد لهذه التربية ومعارض لها في بلوغ غاية استعدادها ، ومن يخاف الله لا يعتدي هذا الاعتداء . وهذا الجواب من الأخ التقي يتضمن أبلغ الموعظة وألطف الاستعطاف لأخيه العازم على الجناية ، ولا يقال : انه كان يجوز له الدفاع عن نفسه ولو بقتل الصائل عليه ـ حتى يحتاج الى الجواب بأن شرع آدم لم يكن يبيح ذلك ، فان هذا من الرجم بالغيب ، لأن الدفاع قد يكون بما دون القتل ، وليس في الكلام تصريح بعدم الدفاع البتة ، وانما فيه التصريح بعدم الاقدام على القتل ، وقد قال نبينا (ص) « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار ـ قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال ـ انه كان حريصاً على قتل صاحبه » رواه احمد والشيخان وغيرهم .

ولما كان مثل هذا التأمين والوعظ البليغ لا يؤثر في كل نفس ، تفنى عليه هذا

كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم، ولما كان هـذا النوع من الخلق (أي الانسان) موكولا الى كسبه واختياره في عامة أعماله، لم يعرف القاتل الاول كيف يواري جثة أخيه المقتول التي يسوءه ان يراها بارزة. - فالسوءة ما يسوء ظهوره، ورؤية جسد الميت ولاسيما المقتول يسوء كل من ينظر اليها ويوحشه. - وأما سائر أنواع الحيوان فتلهم عمل ما تحتاج اليه إلهاما في الاكثر، وقلما يتعلم بعضها من بعض شيئا. وقد علمنا الله تعالى ان القاتل الاول تعلم دفن أخيه من الغراب، ويدلنا ذلك على أن الانسان في نشأته الأولى كان في منتهى السذاجة، وانه لاستعداده الذي يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شيء علما واختبارا ويرتقي بالتدريج.

ذلك بأن الله تعالى بعث غرابا الى المكان الذي هو فيه فبحث في الارض، أي حفر برجليه فيها يفتش عن شيء، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام. والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث في الارض لأنه قال « يبحث » ولم يقل بحث. والمضارع يفيد الاستمرار. فلما أطال البحث أحدث حفرة في الارض، فلما رأى القاتل الحفرة — وهو متحير في أمر مواراة سوءة أخيه — زالت الحيرة واهتدى الى ما يطلب. وهو دفن أخيه في حفرة من الارض. - هذا هو المتبادر من الآية. وقال أبو مسلم: ان من عادة الغراب دفن الاشياء، فجاء غراب فدفن شيئا فتعلم منه ذلك. وهذا قريب أيضا. ولكن جمهور المفسرين قالوا ان الله بعث غرابين لا واحدا، وانهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها. وما جاء هذا الا من الروايات، التي مصدرها الاسرائيليات، على ان مسألة الغراب والدفن لا ذكر لها في التوراة. وفي هذه الروايات زيادات كثيرة لا فائدة لها ولا صحة. واللام في قوله تعالى « ليريه » للتعليل اذا كان الضمير راجعا الى الله تعالى، أي انه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن. وللصيرورة والعاقبة اذا كان الضمير عائدا الى الغراب.

ولما رأى القاتل الغراب يبحث في الارض، وتعلم منه سنة الدفن، وظهر له من ضعفه وجهله ما كان غافلا عنه، ﴿ قال يا ويلتا: أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي؟ فأصبح من النادمين ﴾ قال جمهور المفسرين: ان « يا ويلتا » كلمة

ولم أر أحدا شرح بلاغة هذه الكلمة في هذا الموضع ببعض ما أجدها من التأثير في نفسي . وانها لبمكان من البلاغة يحيط بالقلب و يضغط عليه من كل جانب ٠ق ، والقرآن المجيد ، إنني أكتب الآن، وقلبي يشغلني عن الكتابة بما أجد لها فيه من الأثر والانفعال . ان هذه الكلمة تدل على تدريج وتكرار في حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعي الى القتل كتذليل الفرس والبعير الصعب ، فهي تمثل لمن يفهمها ولد آدم الذي زين له حسده لأخيه قتله ، وهو بين إقدام وإحجام ، يفكر في كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة ، فيجد في كل منها صارفا له عن الجريمة ، يدعم ويؤيد ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيئة فيكر الحسد من نفسه الأمّارة ، على كل صارف في نفسه اللوّامة ، فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد كلا منها ويجذبه الى الطاعة ، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة ، هو التطويع الذي عناه الله تعالى، فلما تم كل ذلك قتله . وهذا المعنى يدل عليه اللفظ ، ويؤيده ما يعرف من حال البشر في كل عصر ° الغرض من هذه بيان شؤون الناس بمقتضى استعدادهم فنحن نرى من أحوال الناس واختبار القضاة للجناة ، ان كل من تحدثه نفسه بقتل أخ له من ابيه القريب أو البعيد (آدم) يجد من نفسه صارفا أو عدة صوارف تنهاه عن ذلك ، فيتعارض المانع والمقتضي في نفسه زمنا طويلا أو قصيرا حتى تطوّع له نفسه القتل بترجيح المقتضي على المانع، فعند ذلك يقتل ان قدر . فالتطويع لابد فيه من التكرار كتذليل الحيوان الصعب ، وتعليم الصناعة أو العلم . وقد يكون التكرار لاجل اطاعة مانع أو صارف واحد ، وقد يكون لاطاعة عدة صوارف وموانع . وأقرب الالفاظ التي قيلت الى هذا المعنى كلمة التشجيع المأثورة ، فهي تدل على انه كان يهاب قتل أخيه ويجبن فطرته دونه ، فما زالت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه عليه حتى تجرأ وقتل عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر للعاقبة ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ أي من جنس الذين خسروا أنفسهم بافساد فطرتها ، وخسروا أقرب الناس اليهم وأبرهم بهم في الدنيا وهو الأخ الصالح التقي، وخسروا نعيم الآخرة اذ لم يعودوا أهلا لها لانها دار المتقين .

﴿ فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ﴾ لما

تتبع الشواهد والاقوال يرجح معي أن الاجل هو جلب الشيء الذي له عاقبة أو ثمرة وكسبه أو تهييجه . ويعدى باللام . وقد تكون العاقبة حسنة كقولهم : أجل لأهله . وغلب الفعل في الرديء والشر وان عدي باللام ، كقول توبة بن مضرس العبسي :

فان تك أمّ ابني زُميلة أثكلت فيارب أخرى قد أجلت لها ثكلا

ثم استعمل في التعليل مطلقا كما قال عدي بن زيد * أجلَ أن الله قد فضلكم * - البيت وهو بغير من . ومعنى العبارة انه بسبب ذلك الجرم والقتل الذي أجله أحد هذين الاخوين ظلما وعدوانا لا بسبب آخر كتبنا وفرضنا على بني اسرائيل كيت وكيت . فتقديم الجار والمجرور على « كتبنا » يفيد ان هذا التشديد في تشنيع القتل ، كان بسبب هذه الجناية الدالة على أن البشر عرضة للبغي الشديد الذي يفضي الى القتل بغير حق ، اذا لم يردعهم الوعيد الشديد ، أو خوف العقاب العتيد . ولعل تخصيص بني اسرائيل بالذكر هو الذي أخذ منه الحسن قوله : ان ولدي آدم هذين كانا من بني اسرائيل . والجمهور يقولون : ان هذا التخصيص للتعريض بما كان من شدة حسد اليهود للنبي (ص) وللعرب لانه بعث فيهم ، كما بين الله ذلك في كتابه من قبل ، وبما كان من إسرافهم في البغي ، ومنه قتلهم للانبياء عليهم السلام بغير حق .

وأما هذا الذي كتبه الله عليهم فهو ﴿ انه من قتل نفسا بغير نفس ﴾ أي بغير سبب القصاص الذي شرعه الله تعالى في قوله الآتي في هذه السورة (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس) أي من قتل نفسا يقتل بها جزاء وفاقا ﴿ أو فساد في الارض ﴾ أو غير سبب فساد في الارض ، بسلب الأمن والخروج على أئمة العدل ، وإهلاك الحرث والنسل ، كما تفعله العصابات المسلحة لقتل الانفس ونهب الأموال ، أو إفساد الأمر على ذي السلطان المقيم لحدود الله . وهو ماسيأتي حكمه قريبا في قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا) الآية ﴿ فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ لان الواحد يمثل النوع في جملته ، فمن استحل دمه بغير حق ، يستحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله ، فتكون نفسه ضارية بالبغي ، لاوازع لها من ذاتها ولا من الدين . ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ أي ومن

تحسر وتلهف ، وانها تقال عند حلول الدواهي والعظائم . وقال في لسان العرب : والويل حلول الشر ، والويلة الفضيحة والبلية . وقيل هو تفجع . واذا قال القائل: ياويلتاه ! فانما يعني وافضيحتاه ! وكذلك تفسير (ياويلتنا مالهذا الكتاب) اه وهذا هو المعنى الصحيح . والألف في الكلمة بدل ياء المتكلم اذ الأصل : ياويلتي. والنداء للويلة لافادة حلول سببها الذي تحل لأجله حتى كأنه دعاها اليه وقال: أقبلي فقد آن أوان مجيئك ، فهل بلغ من عجزي أن كنت دون الغراب علما وتصرفا ؟ والاستفهام للاقرار والتحسر . وأما الندم الذي ندمه فهو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطإ في فعل فعله اذا ظهر له ان فعله كان شرا له لا خيرا . وقد يكون الندم توبة ، اذا كان سببه الخوف من الله تعالى والتألم من تعدي حدوده ، وقصد به الرجوع اليه . وهذا هو المراد بحديث «الندم توبة» رواه احمد والبخاري في تاريخه والحاكم والبيهقي ، وعلم عليه في الجامع الصغير بالصحة . وأما الندم الطبيعي الذي أشرنا اليه فلا يعد وحده توبة ، والتوبة من احداث البدعة لا تنجي مبتدعها من سوء أثرها . وفي حديث ابن مسعود في الصحيحين مرفوعا « لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم كفل (نصيب) من دمها لانه أول من سن القتل »

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل ﴾ قال في اللسان - وقد ذكر الآية: وقول العرب فعلت ذلك من أجل كذا ، وأجلَ كذا (بفتح اللام) ومن أجلاك (وتكسر الهمزة فيهما) - قال الازهري : « والاصل في قولهم فعلته من أجلك : أجل عليهم أجلا ، أي جنى وجرّ » ثم قال : وأَجل عليهم شرا يأجله (بضم الجيم وكسرها) أجلا ، جناه وهيجه - وأورد شواهد من الشعر ، ثم قال - أبو زيد : أجلت عليهم آجل أجلا ، أي جررت جريرة ، قال أبو عمر ويقال : جلبت عليهم وجررت وأجلت بمعنى واحد ، أي جنيت . واجل لاهله يأجل ، كسب وجمع واحتال اه وزاد الراغب في مفرداته قيدا في تعريف الاجل فقال : الأجل الجناية التي يخاف منها آجلا ، فكل أجل جناية وليس كل جناية أجلا ، يقال : فعلت كذا من أجله. قال تعالى « من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل» أي من جرّائه . اه وأقول : لاحاجة الى القيد لأن من شأن كل جناية أن يخاف آجلها وتحذر عاقبتها . ومن

زيد فيه أن ولي الدم اذا عفا عن القاتل كان له من الاجر مثل اجر من احيا الناس جميعا . وقيل مثل هذا في القتل ، وهو ان اثم قتل النفس الواحدة مثل اثم قتل جميع الناس وجزاؤهما واحد. وقد بين في سورة النساء . وعن ابن عباس ان المراد بالنفس في الموضعين نفس النبي او الامام العادل، و إحياؤها نصره وشد عضده . وهو صحيح المعنى لان قتل المصلح او انقاذه ونصره يؤثر في الأمة كلها. ولكن اللفظ يأباه وما اراه يصح عن ابن عباس . وروي عنه غيره ، ومنه ان من حرم قتل نفس بدون حق حيي الناس جميعا منه. وقيل ان المعنى ان من قتل نفسا كان قتلها كقتل الناس جميعا عند المقتول و بالنسبة اليه ، ومن انقذها من القتل كان عند المنقذ كاحياء الناس جميعا . روى هذه الاقوال ابن جرير واختار منها ان وجه التشبيه في القتل هو عقاب الآخرة ، وفي الإحياء انه سلامة الناس ممن يحرّم على نفسه قتل النفس التي حرمها الله . وما قلناه أولا اوضح واجمع للمعاني .

ومن الغرائب ان هذه الحكمة العالية من جملة ما نسي بنو اسرائيل من أحكام دينهم ، اذ فقدت التوراة ثم كتبوا مابقي في حفظهم من أحكامها . فاما قصة ابني آدم فهي في الفصل الرابع من سفر التكوين ، وملخصها ان قايين لما قدم قربانا للرب من ثمرات الأرض ، وقدم هابيل قربانا من أبكار غنمه، ونظر الرب الى هابيل وقربانه دون اخيه ، اغتاظ قايين وقتل هابيل، فسأله الرب عنه: اين هو؟ فأجاب : لا أعلم وهل أنا حارس لأخي ؟ فلعنه الرب ؟ وطرده عن وجه الأرض! فندم واسترحم الرب وخاف أن يقتله كل من وجده !! (١٥ـ فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده (!!) فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن !!) وفي الفصل التاسع منه أن نوحا قال لبنيه (٦ سافك دم الانسان بالانسان يسفك دمه ، لأن الله على صورته عمل الانسان) وفي الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج ان من قتل انسانا عمدا يقتل ، ومن بغي على صاحبه ليقتله بغدر « فمن عند مذبحي تأخذه الموت » ومن ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو سرق إنسانا و باعه أو وجد في يده يقتل. فأسباب القتل عندهم كثيرة ،ولم تكن

كان سببا لحياة نفس واحدة بانقاذها من موت كانت مشرفة عليه ، فكأنما أحيا الناس جميعا ، لان الباعث له على انقاذ الواحدة ـ وهو الرحمة والشفقة ، ومعرفة قيمة الحياة الانسانية واحترامها ، والوقوف عند حدود الشريعة في حقوقها ، تندغم فيه جميع حقوق الناس عليه ، فهو دليل على أنه اذا استطاع أن ينقذهم كلهم من هلكة يراهم مشرفين على الوقوع فيها لا يني في ذلك ولا يدخر وسعا . ومن كان كذلك لا يقصر في حق من حقوق البشر عليه . ويلزم من ذلك أنه او كان جميع الناس أو أكثرهم مثل ذلك الذي قتل نفسا واحدة بغير حق ، لكانوا عرضة للهلاك بالقتل في كل وقت ، ولو كانوا مثل ذلك الذي أحيا نفسا واحدة احتراما لها ، وقياما بحقوقها ، لامتنع القتل بغير الحق من الأرض ، وعاش الناس متعاونين ، بل اخوانا متحابين متوادين . فالآية تعلمنا ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع ، واتقائه ضرر كل فرد ، لأن انتهاك حرمة الفرد ، انتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحق الفرد من حيث أنه عضو من النوع ، وما قرر له من حقوق المساواة في الشرع ، قيام بحق الجميع . وقد غفل عن هذا المعنى العالي من جعل التشبيه في الآية مشكلا يحتاج الى التخريج والتأويل .

وقد بينا من قبل أن القرآن كثيرا ما يهدينا الى وحدة الأمة ووجوب تكافلها بمثل اسناد عمل المتقدمين منها الى المتأخرين ، ووضع اسم الأمة أو ضميرها ، في مقام الحكاية أو الخطاب لبعض افرادها . ومن ذلك ما تقدم في تفسير (٤ : ٢٨ ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم . ولا تقتلوا أنفسكم) فقد قلنا هنالك ـ بعد ايراد عدة آيات في هذا المعنى بمثل هذا التعبير ، وبيان كونه يدل على وحدة الامة وتكافلها ـ مانصه : بل علمنا القرآن ان جناية الانسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم ، لا على المتصلين معه برابطة الامة الدينية أو الجنسية أو السياسية فقط بقوله عز وجل «من قتل نفسا بغير نفس» الآية

وروي ان وجه التشبيه هو القصاص ، فمن قتل نفسا واحدة كمن قتل كل الناس في كونه يقتل قصاصا بالواحدة وبالكثير ، اذ لا عقوبة فوق القتل . رواه ابن جرير عن ابن زيد عن أبيه . ولا يظهر هذا المعنى في الإحياء . والمروي عن ابن

من قرأ الآية وفهم ما فيها من تعليل تحريم القتل بغير حق ، وكون هذا الحق لا يعدو القصاص ومنع الافساد في الارض ، يتوجه ذهنه لاستبانة العقاب الذي يؤخذ به المفسدون حتى لا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم ، فبين الله ذلك العقاب بقوله:

(٣٦) إِنَّمَا جَزَٰؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ . ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٧) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ، فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

اختلف نقلة التفسير المأثور فيمن نزل فيهم هاتان الآيتان ، على ما هو ظاهر من اتصالها بما قبلها أتم الاتصال . روى أحمد والبخاري ومسلم واصحاب السنن عن أنس ان ناسا من عكل وعرينة قدموا على النبي (ص) وتكلموا بالاسلام ، فاستوخموا (١) المدينة فأمرلهم النبي (ص) بذود (٢) وراع ، وأمرهم ان يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا حتى اذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد اسلامهم ، وقتلوا راعي النبي (ص) واستاقوا الذود . فبلغ ذلك النبي (ص) فبعث الطلب في آثارهم ، فأمر بهم فسمروا أعينهم (٣) وقطعوا أيديهم ، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم . زاد البخاري ان قتادة الراوي للحديث عن أنس قال : بلغنا ان النبي (ص) بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة .

(١) استوخموا المدينة معناه وجدوها وخمة ، أي رديئة المناخ ، والوخم بالتحريك حصول التخمة ، وهي سوء الهضم وفساد الطعام في الجوف . وأصل هذه المادة قولهم : أرض وخمة (بفتح الاول وسكون الثاني وكسره) أي لا ينجع كلأها . وفي رواية اجتووها بدل استوخموها . أي كرهوا الاقامة فيها ولعله لما لهم من سوء النية ، فانه يقال اجتوى البلدة اذا كره الاقامة فيها وان كان في نعمة ، ويحتمل انهم احتالوا بدعوى الوخم وسوء الهضم اذ عللوا ذلك بأنهم أهل ضرع لا أهل ريف ولكن روي انهم كانوا مرضى (٢) الذود من الابل كالبضع وهو من ٢ الى ٩ واستعمل في الجمع مطلقا . وقيل هو خاص بالاناث (٣) سمرها كحلها بمسامير الحديد المحماة . وفي رواية فسملوا وهي بمعنى الاولى

هذه الشدة رادعة لهم عن القتل بغير حق حتى قتل الانبياء، فهل يكثر عليهم ما كانوا عزموا عليه من قتل النبي المصطفى غدرا ؟ لا ، لا . ولهذا قال تعالى فيهم :

﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرًا منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون ﴾ أي لم تغن عنهم بينات الرسل ولاهذبت نفوسهم، بل كان كثير منهم بعد ذلك الذي ذكر من التشديد عليهم في أمر القتل ومن مجيء الرسل بالبينات يسرفون في الأرض بالقتل وسائر ضروب البغي. أكد إثبات وصف الاسراف لكثير منهم تأكيدا بعد تأكيد ، لأن تشديد الشريعة وتكرار بينات الرسل كانت تقتضي عدم ذلك أو ندوره . والحكم على الكثير دون جميع الامة من دقة القرآن في الصدق وتحديد الحقائق. وهذا الرسوخ في الاسراف لا يمكن ان يعم افراد الامة ، والناس يطلقون وصف الكثير على الجميع في الغالب. والاسراف مجاوزة الحد في العمل، أي حد الحق والمصلحة ، ويعرف ذلك بالشرع في الامور الشرعية ، وبالعقل والعرف في غير ذلك وفي القوم الذين ليس لهم شرع . وكل مايتجاوز فيه الحد يفسد . والاصل في معنى الاسراف الافساد ، فهو من السرفة وهي (بالضم) الدودة التي تأكل الشجر والخشب . واذا كان الاسراف في فعل الخير يجعله شرا ، كالنفقة الواجبة والمستحبة التي تذهب بالمال كله ، فتفسد على صاحبها أمر معاشه. فما بالك بالاسراف في الشر ، وهو المبالغة وتجاوز ما اعتاده الاشرار فيه ؟ واما قوله تعالى في سورة بني اسرائيل (فلا يسرف في القتل) فهو نهي اولي المقتول أن يتجاوز حد القصاص الى قتل غير القاتل ، أو تعذيب القاتل والتمثيل به .

واكبر العبر في الآية ان قصة ابني آدم اقدم قصة تدلنا على أن الحسد كان مثار اول جناية في البشر ، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس امر اجتماعهم ، من اجتماع العشيرة في الدار ـ الى اجتماع القبيلة ، الى اجتماع الدولة فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين وهو لم يتعرض لمثلها لينالها ، فيبغي على أخيه ولو بما فيه شقاؤه هو . وأكبر الموانع لارتقاء المسلمين الآن هو الحسد والعياذ بالله تعالى من اهله لعنة الله عليهم ، لان الامم لا ترتقي الا بنهوض المصلحين بها ، وكلما قام فينا مصلح تصدى الحاسدون لاحباط عمله .

في تطبيق الآية على الخوارج ، بل قالوا انها نزلت فيهم .

والظاهر المتبادر بصرف النظر عن الروايات المتعارضة أنها عامة لكل من يفعل هذه الافعال في دار الاسلام اذا قدرنا عليهم وهم متلبسون بها بالفعل او الاستعداد. وقد قال الذين جعلوها خاصة بالمسلمين : ان أحكام الكفار في الحرب معروفة بالنصوص والعمل ، وليس فيها هذه الدرجات في العقاب . وجوابه ان هذا العقاب خاص بمن فعل تلك الافعال ، فلا يقتضي ذلك ان يتبع في حرب كل من حاربنا من الكفار . وقال بعضهم: ان استثناء من تابوا قبل القدرة عليهم دليل على ارادة المسلمين ، لان الكفار لا يشترط في توبتهم ان تكون قبل القدرة عليهم . ويجاب عن هذا بأن التوبة من هذا الافساد هي التي يشترط فيها ان تكون قبل القدرة عليهم ، لا التوبة من الكفر .

ومجموع الروايات في قصة العرنيين تفيد انهم جعلوا الاسلام خديعة للسلب والنهب ، وانهم سملوا أعين الرعاة ثم قتلوهم ومثلوا بهم ، وفي بعضها انهم اعتدوا على الاعراض أيضا وان النبي (ص) عاقبهم بمثل عقوبتهم عملا بقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) ان صح أن الآية نزلت بعد عقابهم . ولم يعف عنهم كعادته لئلا يتجرأ على مثل فعلتهم أمثالهم من اعراب المشركين وغيرهم ، فأراد بذلك القصاص وسد الذريعة ، وان الله تعالى انزل الآية بهذا التشديد في العقاب على مثل هذا الافساد ، لهذه الحكمة ، وهي سد ذريعة هذه المفسدة ، ولكنه حرم مع ذلك كله المثلة ، وهي تشويه الاعضاء . ولا مفسدة اشد وأقبح من سلب الامن على الانفس والاعراض والاموال الناطقة والصامتة . فرب عصبة من المفسدين تسلب الامان والاطمئنان من اهل ولاية كبيرة . ورب عصبة مفسدة تعاقب بهذه العقوبات المنصوصة في الآية تطهر الارض من أمثالها زمنا طويلا .

والتشديد في سد الذرائع ركن من اركان السياسة لا تزال جميع الدول تحافظ عليه ، حتى ان بعضهم يحكم الوهم فيه . ومن الأمر الإدّ ، ما اجترحته

وفي رواية لاحمد والبخارى وأبي داود قال قتادة فحدثني ابن سيرين أن ذلك كان قبل ان تنزل الحدود (أي في الآية التي نحن بصدد تفسيرها) وروى أبو داود والنسائي عن أبي الزناد أن رسول الله (ص) لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار، عاتبه الله في ذلك فانزل «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا» الآية • وفي القصة روايات أخرى مفصلة . ومنها انه أباح لهم إبل الصدقة كلها في غدوها ورواحها

وروى ابو داود والنسائي عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في المشركين منهم، من تاب قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل، وليست تحرر هذه الآية الرجل المسلم من الحد ان قتل أو أفسد في الارض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدروا عليه، لم يمنعه ذلك ان يقام فيه الحد الذي أصابه . (ومثله عند ابن جرير عن الحسن) وروى ابن جرير والطبراني في الكبير عن ابن عباس أيضا انه قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله (ص) عهد وميثاق، فنقضوا العهد، وأفسدوا في الارض، فخير الله نبيه فيهم، ان شاء ان يقتل وان شاء ان يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وفي بعض الروايات زيادة الا من أسلم قبل أن يؤخذ . وروى ابن جرير أيضا ما تقدم من كون الآية نزلت عتابا للنبي (ص) على سمل أعين العرنيين وقطع أيديهم وتركها بدون حسم فكانت الآية تحريما للمثلة عند هؤلاء . على انه ثبت انه كان (ص) ينهى عن المثلة قبل نزول المائدة . وروى عن آخرين انه (ص) كان أمر بسمل أعينهم وقطعهم كما فعلوا بالراعي المسلم – وفي بعض الروايات الرعاة بالجمع – فنزلت الآية فترك ذلك ولم يفعله .

وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال بعضهم انه خاص بمثل من نزلت فيهم من الكفار مطلقا ؟ او الذين غدروا من اليهود، أو الذين خدعوا النبي والمسلمين بإظهار الاسلام حتى اذا تمكنوا من الافساد بالقتل والسلب عادوا الى قومهم وأظهروا شركهم معهم • وذهب أكثر الفقهاء الى أنها خاصة بمن يفعلون هذه الافعال من المسلمين، وكأنهم اعتدوا بما أظهره العرنيون من الاسلام • ورووا عدة روايات

وسلب المال. لسان العرب : الحرب بالتحريك ان يسلب الرجل ماله ، حربه يحربه (بوزن طلب . وكذا بوزن تعب) اذا أخذ ماله، فهو محروب وحريب ، من قوم حربى وحرباء . ثم قال حريبة الرجل ماله الذي يعيش به . والحرب (بالتحريك) أخذ الحريبة، فهو ان يأخذ ماله ويتركه بلا شيء يعيش به،اه فأنت ترى ان الحرب والمحاربة، ليس مرادفا للقتل والمقاتلة . وإنما الاصل فيها الاعتداء والسلب وازالة الأمن . وقد يكون ذلك بقتل وقتال وبدونهما . وقد ذكر القتل والقتال في القرآن في أكثر من مئة آية . وأما المحاربة فلم تذكر الا في هذه وفي قوله تعالى في بيان علة بناء المنافقين لمسجد الضرار (وارصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل) قال رواة التفسير المأثور أي وترقبا وانتظارا للذي حارب الله ورسوله من قبل بناء هذا المسجد ، وهو أبو عامر الراهب ، فانه كان شديد العداوة للاسلام ووعد المنافقين بأن يذهب ويأتيهم بجنود من عند قيصر للايقاع بالنبي (ص) والمؤمنين . فمحاربة هذا الراهب من قبل كانت باثارة الفتن لا بالقتال والنزال. وأما لفظ « الحرب » فقد ذكر في أربعة مواضع من أربع سور . منها إعلام المصرّين على الربا بأنهم في حرب لله ورسوله بأكلهم أموال الناس بالباطل . والباقي بالمعنى المشهور ، وهو ضد السلم . وكان أهل البوادي - ولا يزالون - يغزو بعضهم بعضا لاجل السلب والنهب . وقد جعل الفقهاء كتاب المحاربة - ويقولون الحرابة أيضا - غير كتاب الجهاد والقتال . وجعلوا الاصل فيها هاتين الآيتين . وعرفوها بأنها اشهار السلاح وقطع السبيل ، واشترط بعضهم كالشافعي ان يكون ذلك من أهل الشوكة . (كالذين يؤلفون العصابات المسلحة للسلب والنهب وقتل من يعارضهم، أو لمقاومة السلطة ابتغاء الفتنة والفساد) واشترطوا فيها شروطا سنشير الى المهم منها

أما كون هذا النوع من العدوان محاربة لله ولرسوله فلأنه اعتداء على شريعة السلم والأمان ، والحق والعدل الذي أنزله الله على رسوله ، فمحاربة الله ورسوله هي عدم الاذعان لدينه وشرعه في حفظ الحقوق، كما قال تعالى في المصرّين على أكل الربا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) وليس معناه محاربة المسلمين ، كما قال بعض

انكلترة في مصر بهذا القصد ، اذ مر بقرية (دنشواي) منذ سنين قليلة افراد من جند الانكليز كانوا يصيدون الحمام عند بيدرها (١) فتخاصموا مع أصحاب الحمام وتضاربوا ، فعظم على الانكليز تجرؤ الفلاح المصري ، على ضرب الجندي الانكليزي ، فعقدوا المحكمة العرفية لمحاكمة أولئك الفلاحين برياسة بطرس باشا غالي ، فحكمت على بعض أولئك الفلاحين بأن يصلبوا و يعذبوا بالضرب بالسياط (الكرابيج) ذات العقد حتى تتناثر لحومهم ، وأن يبقوا مصلوبين بعد موتهم مدة طويلة ،وأن يكون ذلك على أعين أهليهم وأعين الناس . وقد أنكر هذه القسوة واستفظعها بعض أحرار الانكليز في بلادهم وشنعوا عليها في الجرائد وفي مجالس النواب . ومثل هذه الحادثة لا تعد من الخروج على ذي السلطان ، ولا من الفساد في الأرض . ولكن قصد الانكليز بالقسوة فيها أن لا يتجرأ أحد على مقاومة جندي انكليزي وان اعتدى . فاين هذا من عدل الاسلام . الذي ساوى خليفته عمر بن الخطاب بين ابن فاتح مصر وقائد جيشها وحاكمها العام (عمرو بن العاص) و بين غلام قبطي ، اذ تسابقا فسبق القبطي ابن الحاكم فصفعه هذا وقال أتسبقني وانا ابن الاكرمين ؟ فلما رفع الأمر الى عمر (رض) لم يرض الا ان يصفع القبطي ابن الفاتح الحاكم كما صفعه . وقال لعمرو كلمته الذهبية المشهورة : ياعمرو ! منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ ولكن المسلمين لما تركوا حكم الاسلام صاروا يطالبون من الانكليز وممن دون الانكليز ان يعلموهم العدل وقوانينه ! !

أما تفسير الآية فهو ما ترى :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الارض فسادا ﴾ أي ان جزاء الذين يفعلون ماذكر محصور فيما يذكر بعده من العقوبات على سبيل الترتيب والتوزيع على جناياتهم ومفاسدهم ، لكل منها ما يليق بها من العقوبة

والمحاربة مفاعلة من الحرب وهي ضد السلم. والسلم السلام أي السلامة من الأذى والضرر والآفات، والامن على النفس والمال والاصل في معنى كلمة الحرب التعدي

(١) دنشواي قرية من المنوفية . والبيدر محل دوس الحصيد واستخراج الحب منه . ويسمى جرنا .

اطلاق الفقهاء لفظ المحاربين فانما يعنون به المحاربين المفسدين . لان الوصفين متلازمان.

ولا تتحقق محاربة لله ورسوله ، بمحاربة الشرع ومقاومة تنفيذه ، وافساد النظام على اهله، الا في دار الاسلام ، وللكفار في دار الحرب احكام أخرى كما قال الفقهاء ، واحكامهم تذكر في كتاب الجهاد لا في كتاب المحاربة او الحرابة كما تقدم . وقد فطن لهذا المعنى بعضهم ولم يتضح له تمام الاتضاح فاشترط ان يكون المحاربون المفسدون من المسلمين كما تقدم . والصواب ان يكون إفسادهم في دار الاسلام، ولا فصل حينئذ فيهم بين ان يكونوا مسلمين او ذميين او معاهدين او حربيين ، كل من قدرنا عليه منهم نحكم بينهم بهذه الآية .

وقد اختلف الفقهاء في تعريف المحاربين فروى ابن جرير وغيره عن مالك ابن أنس انه قال : المحارب عندنا من حمل السلاح على المسلمين في مصر او خلاء ، فكان ذلك منه على غير ثائرة كانت بينهم ولا دخل ولا عداوة ، قطعا للسبيل والطريق والديار ، مخيفا لهم بسلاحه . وذكر ان من قتل منهم قتله الامام ، ليس لولي المقتول فيه عفو ولا قود

وقال ابن المنذر : اختلفت الرواية في مسألة اثبات المحاربة في المصر عن مالك فأثبتها مرة ونفاها أخرى نقول: والصواب الإثبات لأنه المعروف في كتب مذهبه . وانما اشترط انتفاء العداوة وغيرها من الاسباب ليتحقق كون ذلك محاربة للشرع ومقاومة للسلطة التي تنفذه . وفي حاشية المقنع من كتب الحنابلة تلخيص لمذاهب الفقهاء في ذلك هذا نصه :

«يشترط في المحاربين ثلاثة شروط (١) أن يكون معهم سلاح، فان لم يكن معهم سلاح فليسوا محاربين لانهم لا يمنعون من يقصدهم . ولا نعلم في هذا خلافا . فان عرضوا بالعصي والحجارة فهم محاربون وهو المذهب وبه قال الشافعي وابو ثور . وقال ابو حنيفة ليسوا محاربين (٢) ان يكون ذلك في الصحراء ، فان فعلوا ذلك في البنيان لم يكونوا محاربين في قول الخرقي، وجزم به في الوجيز ، وبه قال ابو حنيفة والثوري واسحق ، لان الواجب يسمى حد قطاع الطريق، وقطع الطريق انما هو في الصحراء ، ولان في المصر يلحق الغوث غالبا فتذهب شوكة المعتدين ويكونون

المفسرين. فمن لم يذعنوا للشرع فيما يخاطبهم به في دار الاسلام (١) يعدون محاربين لله ورسوله عليه السلام، فيجب على الامام، الذي يقيم العدل ويحفظ النظام، ان يقاتلهم على ذلك (كما فعل الصديق رضي الله عنه بمانعي الزكاة) حتى يفيئوا ويرجعوا الى أمر الله، ومن رجع منهم في أي وقت يقبل منه ويكف عنه. ولكن اذا امتنعوا على امام العدل المقيم للشرع، وعثوا إفسادا في الارض، كان جزاؤهم مابينه الله في هذه الآية. فقوله تعالى « ويسعون في الارض فسادا » متمم لما قبله، أي يسعون فيها سعي فساد، أو مفسدين في سعيهم لما صلح من أمور الناس، في نظام الاجتماع وأسباب المعاش.

والفساد ضد الصلاح، فكل مايخرج عن كيانه الذي يكون به صالحا نافعا يقال انه قد فسد. ومن عمل عملا كان سببا لفساد شيء من الاشياء يقال انه أفسده، فإزالة الامن على الانفس اوالاموال اوالاعراض، ومعارضة تنفيذ الشريعة العادلة واقامتها — كل ذلك افساد في الارض. روى عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ان الفساد هنا الزنا والسرقة وقتل الناس و هلاك الحرث والنسل. وكل هذه الاعمال من الفساد في لارض، واستشكل بعض الفقهاء قول مجاهد بأن هذه الذنوب والمفاسد لها عقوبات في الشرع غير ما في الآية، فللزنا والسرقة والقتل حدود، واهلاك الحرث والنسل يقدر بقدره و يضمنه الفاعل، و يعزره الحاكم بما يؤديه اليه اجتهاده. وفات هؤلاء المعترضين ان العقاب المنصوص في الآية خاص بالمحاربين من المفسدين الذين يكاثرون اولي الامر، ولا يذعنون لحكم الشرع، وتلك الحدود انما هي للسارقين والزناة افرادا، الخاضعين لحكم الشرع فعلا، وقد ذكر حكمهم في الكتاب العزيز بصيغة اسم الفاعل المفرد كقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما * الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة) وهم يستخفون بأفعالهم، ولا يجهرون بالفساد حتى ينتشر بسوء القدوة بهم، ولا يؤلفون له العصائب ليمنعوا انفسهم من الشرع بالقوة. فلهذا لا يصدق عليهم أنهم محاربون الله ورسوله ومفسدون، والحكم هنا منوط بالوصفين معا. واذا

(١) الشرع يخاطب المسلم بحقوق الله والناس، والذمي والمعاهد بحقوق الناس فقط.

عفا عنه ولي الدم أو رضي بالدية . والتصليب التكرار أو المبالغة في الصلب ، فيقال فيه ما قيل في التقتيل . ويمكن تكرار صلب الواحد على قول من قال : ان الصلب يكون بعد القتل لأجل العبرة ، فيصلب المجرم في النهار وتحفظ جثته ليلا ، ثم يصلب في النهار قال الشافعي يصلب بعد القتل ثلاثة أيام . والظاهر انهم يصلبون أحياء ليموتوا بالصلب كما قال الجمهور ، والا لم يكن الصلب عقوبة ثانية • وأصل معنى الصلب (بالتحريك) والصليب في اللغة الودك (الدهن) أو ودك العظام التي يعد صلب الظهر جذع شجرتها والصديد الذي يخرج من بدن الميت • قال في اللسان : والصلب مصدر صلبه يصلبه (بكسر اللام) صلبا ، واصله من الصليب وهو الودك أو الصديد ... والصلب هذه القتلة المعروفة مشتق من ذلك ، وقد صلبه يصلبه صلبا ، وصلّبه ، شدد للتكثير ... والصليب المصلوب اه ولهذا سمي الشكل الذي يشبه المصلوب صليبا .

واما تقطيع الأيدي ولأرجل من خلاف ، فمعناه اذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى . وفي هذا نوع ما من التكرار فصيغة التفعيل فيه أظهر مما قبله . وما قطع من يد أو رجل يحسم في الحال كما جرى عليه العمل . والحسم كي العضو المقطوع النار أو بالزيت وهو يغلي لكيلا ينزف الدم ويموت صاحبه . وفي معنى الحسم كل علاج يحصل به المراد ، وربما كان الافضل ما كان اسرع تأثيرا وأقل إيلاما وأسلم عاقبة ، عملا بحديث « ان الله كتب الاحسان على كل شيء . فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » رواه احمد ومسلم واصحاب السنن الاربعة عن شداد بن أوس

واما النفي من الأرض فيحتمل لفظ الآية فيه ان يكون عقوبة معطوفة على ما قبلها .وان يكون « أو » بمعنى « الا ان» أي جزاؤهم ماذكر قبل الا ان ينفوا من الأرض ، بالمطاردة ويخرجوا من دار الاسلام الى دار الحرب التي لا حكم ولا سلطان للاسلام فيها . وهذا قول ابن عباس رواه ابن جرير عنه وعن السدي • وعن الليث بن سعد ومالك بن أنس أنهم يطلبون حتى يؤخذوا أو يضطرهم الطلب الى دار الكفر والحرب اذا كانوا مرتدين • وأن المسلم لا يضطر الى الدخول في

مختلسين . والمختلس ليس بقاطع ولا حد عليه . وقال ابو بكر : حكمهم في المصر والصحراء واحد . وهو المذهب . وبه قال الاوزاعي والليث والشافعي وأبو ثور : لتناول الآية بعمومها كل محارب ، ولانه في المصر اعظم ضررا فكان اولى (٣) ان يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال قهرا ، فاما ان اخذوه مختفين فهم سراق ، وان اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذلك ان خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئا ، لأنهم لا يرجعون الى منعة وقوة . وان خرجوا على عدد يسير فقهروهم فهم قطاع طريق » اه

قال بعض المفسرين المستقلين بالفهم : ان اكثر الشروط التي اشترطها الفقهاء في هذا الباب لا يوجد لها أصل في الكتاب ولا في السنة . ونحن نقول : ان الآية تدل دلالة صريحة على ان هذا العقاب خاص بمن يفسدون في الأرض ، بالسلب والنهب أو القتل ، أو اهلاك الحرث والنسل ، ومثل ذلك أو منه الاعتداء على الاعراض ، اذا كانوا محاربين لله ورسوله ، بقوة يمتنعون بها من الإذعان والخضوع لشرعه ، ولا يتأتى ذلك الا حيث يقام شرعه العادل من دار الاسلام . فمن اشترط حملهم السلاح أخذ شرطه من كون القوة التي يتم بها ذلك الامران انما هي قوة السلاح . وهو لو قيل له انه يوجد أو سيوجد مواد تفعل في الافساد والاعدام وتخريب الدور ، وكذا في الحماية والمقاومة اشد مما يفعل السلاح (كالديناميت المعروف الآن) ألا تراه في حكم السلاح ؟ يقول بلى : ومن اشترط خارج المصر ، راعى الاغلب ، أو اخذ من حال زمنه ان المصر لا يكون فيه ذلك . وما اشترط احد شرطا غير صحيح ، أو غير مطرد الا وله وجه انتزعه منه .

أما ذلك الجزاء الذي يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين بالقوة فهو ﴿ أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ التقتيل هو التكثير أو التكرار أو المبالغة في القتل ، فأما معنى التكرار او التكثير فلا يظهر الا باعتبار الافراد ، كأنه يقول : كلما ظفرتم بمن يستحق القتل منهم فاقتلوه . واما المبالغة فتظهر بكون القتل حتما لا هوادة فيه ولا عفو من ولي الدم ، وقد صرح بعض الفقهاء بأن المحاربين المفسدين اذا قدرنا على القاتل منهم نقتله وان

لأنه كالسارق ، والجمع بين القتل والصلب ، لمن جمع بين القتل والسلب ، والنفي لمن أخاف السبيل ولم يقتل ولا أخذ مالا . وقد روي هذا عن ابن عباس و بعض علماء التابعين . وأنت ترى أن الآية لاتدل عليه ولاتنفيه ، فهو اجتهاد حسن في كيفية العمل بها، ولكنه غير كاف لأن المفسدين في الأرض بالقوة أعمالا أخرى اشرنا الى أمهاتها آنفا . فاذا قامت عصبة مسلحة من الاشقياء بخطف العذارى أو المحصنات لأجل الفجور بهن ، أو بخطف الأولاد لأجل بيعهم أو فديتهم ، فلا شك انها تعد من المحار بين المفسدين، فما حكم الله فيهم ؟

ان الآية حددت لعقاب المفسدين بقوة العصبية أربعة انواع من العقوبة وتركت لأولي الأمر الاجتهاد في تقديرها بقدر جرائمهم، فلاهي خيرت الامام بأن يحكم بما شاء منها على من شاء بحسب هواه ، ولاهي فصلت وجعلت لكل مفسدة عقوبة معينة منها . والحكمة في عدم تعيين الآية وتفصيلها لذلك هي ان هذه المفاسد كثيرة وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، وضررها يختلف كذلك . والفروع تكثر فيها حتى ان تفصيلها لا يمكن الا في صحف كثيرة . ومن خصائص القرآن أنه كتاب هداية روحية ، ليس لأحكام المعاملات الدنيوية منه الا الحظ القليل ، اذ وكل أكثرها الى أولي الامر من المؤمنين ، و بين - بايجازه المعجز - الضروري منها بعبارة يؤخذ من كل آية منها ما يملأ عدة صحف ، كهذه الآية وآيات المواريث . والقاعدة في الاسلام أن مالا نص فيه بخصوصه يستنبط أولو الأمر حكمه من النصوص والقواعد العامة في دفع المفاسد وحفظ المصالح . والعلماء المستقلون من أولي الامر ، فلهذا بينوا ما وصل اليه اجتهادهم ، ليسهلوا على الحكام من أولي الامر فهم النصوص ، ويمهدوا لهم طرق الاجتهاد . ولهذا اختلفت الاقوال . ولو كان مسلمو هذا العصر كسلمي السلف لفعل أئمتهم كما كان يفعل عمر بن الخطاب في خلافته من جمع أولي الامر (أهل الحل والعقد من العلماء وكبراء الصحابة) للتشاور في كل مالا نص فيه ولا سنة متبعة . ولاستشاروهم في تقدير هذه العقوبات بقدر تأثير المفاسد وضررها . وانفذوا ما يتقرر بعد الشورى في كل ما حدث من فروع هذه المفاسد . (راجع تفسير « ٤ : ٨٥ اطيعوا الله

دار الكفر . والمعنى على القول الاول المختار أن ينفى المحاربون من بلدهم أو قطرهم الذي أفسدوا فيه الى غيره من بلاد الاسلام — أي اذا كانوا مسلمين ، فاذا كانوا كفارا جاز نفيهم الى بعض بلاد الاسلام والى بلاد الكفر ، لأن لفظ الأرض في الآية يحتمل ان يكون التعريف فيها لبلاد الاسلام، وان يكون لما وقع فيه الفساد منها . وحكمة نفيهم الى غير تلك الأرض فيها فوائد وراء كون النفي عقابا ، وهي ان بقاءهم في الأرض التي أفسدوا فيها يذكرهم ويذكر أهلها دائما بما كان منهم ، وهي ذكرى سيئة قد تعقب ما لاخير فيه . وروى ابن جرير هذا التفسير للنفي عن سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز . وقيل: ينفى الى بلد آخر فيسجن فيه الى ان تظهر توبته ، وهو رواية ابن القاسم عن مالك . وقيل : ان النفي هو السجن وهو مذهب أبي حنيفة ، وهو أغرب الاقوال . والحبس عقوبة غير عقوبة النفي والاخراج من الأرض يحتاج الى دليل . والمقام مقام بيان حدود الله لا التعزير المفوض الى أولي الامر . وقد ورد ذكر العقوبتين في بيان الله لنبيه ما كان يكيد له المشركون بمكة ، وذلك قوله تعالى في سورة الانفال ٨: ٣٠ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) روى أصحاب التفسير المأثور ان عمه أبا طالب سأله : هل تدري ما ائتمروا بك ؟ قال (ص) «يريدون ان يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني»

هذه أربع عقوبات للمحاربين المفسدين في الأرض ، اختلف علماء السلف في كيفية تنفيذها فقال بعضهم: هي للتخيير ، فللامام ان يحكم على من شاء من المحاربين المفسدين عند التمكن منهم بما شاء منها ، وقال الجمهور : انها للتفصيل لا للتخيير ، جعل الله لهذا الافساد درجات من العقاب لأن افسادهم متفاوت ، منه القتل ومنه السلب ومنه هتك الاعراض ، ومنه اهلاك الحرث والنسل — أي قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشي والدواب — ومنهم من يجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد. فليس الإمام مخيرا في معاقبة من شاء منهم بما شاء منها ، بل عليه ان يعاقب كلا بقدر جرمه ودرجة إفساده ، ثم اختلفوا في تقدير هذه العقوبات بقدر الجرائم اختلافا كثيرا ، وجاؤا فيه بفروع كثيرة ترجع الى الرأي والاجتهاد في التقدير ومراعاة ماورد من الحدود على بعض هذه الاعمال ، كقتل القاتل ، وقطع آخذ المال

مالك اذا قطع الطريق فرآه الامام جلدا ذا رأي قتله ، وان كان جلدا لا رأي له قطعه ، ولم يعتبر فعله . اه أي ان مالكا يعتبر حال قاطع الطريق في العقاب لا عمله وحده . والجلد القوي صاحب الثبات ، فاذا اجتمعت القوة مع الرأي والتدبير كان الفساد أقوى والعاقبة شراً . وذكر الشوكاني في نيل الاوطار اقوالا كثيرة للعلماء في ذلك منها اقوال ائمة الزيدية فليراجعها من شاء

قال تعالى ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم الآخرة عذاب عظيم ﴾ أي ذلك الذي ذكر من العقاب خزي لاولئك المحاربين المفسدين ، أي ذل وفضيحة لهم في الدنيا ، ليكونوا عبرة لغيرهم من المفسدين . وقال « لهم خزي » ولم يقل « خزي لهم » ليفيد انه خاص بهم دون الافراد الذين يعملون مثل عملهم من غير ان يكونوا محاربين ومعتزين بالقوة والعصبية . ثم ان عذابهم في الآخرة يكون عظيما بقدر تأثير افسادهم في تدنيس أرواحهم وتدسية أنفسهم ، ويا له من تأثير !

﴿ الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم ﴾ استثنى الله تعالى من المحاربين المفسدين في الأرض – الذين حكم عليهم بأشد الجزاء في الدنيا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة – من يتوبون منهم قبل القـدرة عليهم ، وتمكن أولي الأمر من عقابهم ، فان توبتهم وهم في قوتهم ومنعتهم ، جديرة بأن تـكون توبة نصوحا منشؤها العلم بقبح عملهم والعزم على عدم العودة اليه ، لا الخوف من عقاب الدنيا . وهب انه الخوف من عقاب الدنيا : أليسوا قد تركوا الافساد ومحاربة شرع الله ورسوله ، وصاروا كسائر الناس ؟ بلى ! واذاً لا يجمع لهم بين أشد عقاب الشرع في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة ، ولذلك بين الله تعالى انهم يصيرون بهذه التوبة أهلا لمغفرة الله ورحمتـه فقال ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ أي فاعلموا انه تعالى يغفر لهم ماسلف ، ويرحمهم برفع العقاب عنهم . وهل الذي يرتفع عنهم عقاب الآخرة فقط ، كما قالوا في توبة السارق ؟ (وسيأتي حده وحكمه بعد ثلاث آيات) أم يرتفع عنهم حق الله كله من عقاب الدنيا والآخرة ولا يبقى عليهم الا حقوق العباد ؟ فلمن سلب التائب أموالهم أيام افساده ان يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحداً ان يطالبوه بدمه ، ولهم الخيار كغيرهم بين القصاص والدية والعفو . أم

وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم » ص١٨١ – ٢٢١ ج ٥)

وعلم بهذا الذي قررناه ان كل قول قاله علماء السلف له وجه ، وان رد بعضهم قول بعض . فمن قال ان الامام مخير فوجهه ما يدل عليه العطف بأو ، لا يعني بالتخيير ان له الحكم بالهوى والشهوة ، بل بالاجتهاد ومراعاة ما تدرأ به المفسدة ، وتقوم المصلحة ، ولا ينافي ذلك المشاورة في الامر ، كيف وهي القاعدة الاساسية للحكم ؟ ومن وضع كل عقوبة بازاء عمل من اعمال المفسدين فانما بين رأيه واجتهاده في الحكم الذي يدرأ المفسدة وتقوم به المصلحة، كما يبينون فهمهم واجتهادهم في غير ذلك من المسائل ، ولا يوجبون بل لا يجيزون لاحد من حاكم أو غيره ان يتخذ فهمهم أو رأيهم دينا يتبع ، وانما هو إعانة للباحث والناظر على العلم ، فان المستقل في طلب العلم اذا نظر في مسألة لم يعرف لغيره رأيا فيها ، يكون مجال نظره أضيق من مجال من عرف أقوال الناس وآراءهم ، وكم من عالم مجتهد قال في مسألة قولا ثم رجع عنه بعد وقوفه على قول غيره من العلماء ، إما الى رأيهم وإما الى رأي جديد ؟ وعلى هذه القاعدة كان للشافعي مذهب قديم ومذهب جديد . فلا يغرنك قول بعض العلماء المستقلين إن أكثر ما قالوه ليس له أصل من كتاب ولا سنة (١)

اذا علمت هذا فهاك اشهر أقوال الفقهاء في المسألة . قال صاحب (المقنع) من كتب الحنابلة في باب قطاع الطريق : واذا قدر عليهم فمن كان منهم قد قتل من يكافئه واخذ المال قتل حتما وصلب حتى يشتهر ، وقال أبو بكر (من فقهائهم) يصلب قدر ما يقع عليه اسم الصلب . وعن أحمد انه يقطع مع ذلك . وان قتل من يكافئه فهل يقتل؟ على روايتين » الخ ما ذكره وهو كالتفصيل الذي عزوناه الى ابن عباس مع تفصيل وذكر روايات مختلفة في المذهب . وقال محشيه ما نصه :

« قوله واذا قدر عليهم الخ هذا هو المذهب وروي نحوه عن ابن عباس . وبه قال قتادة وابو مجلز وحماد والليث والشافعي . وذهبت طائفة الى ان الامام مخير فيهم بين القتل والصلب والقطع والنفي ، لأن « أو » تقتضي التخيير . وبه قال سعيد ابن المسيب وعطاء والحسن والضحاك والنخعي وابو الزناد وأبو ثور وداود . وقال

(١) هو صديق حسن خان رحمه الله تعالى قال هذا في تفسيره فتح البيان

﴿ خلاصة الآيتين وقتال البغاة وطاعة الأئمة ﴾

قد علم من التفصيل السابق أن هاتين الآيتين خاصاتان بعقاب المحاربين المفسدين في الارض، أي الذين يعملون في بلاد الاسلام أعمالا مخلة بالامن على الانفس والاموال والاعراض ، معتصمين في ذلك بقوتهم ، غير مذعنين للشريعة باختيارهم. فيجب على الائمة (الحكام) ان يطاردوهم و يتتبعوهم، فاذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات ، بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامة وسد ذريعة الفساد . ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما في هذه الآية وانما حكمه حكم سائر الناس

وقد قلنا ان بعض العلماء قال: ان الآية نزلت في الخوارج. وأوردوا في هذا المقام ماورد من الاحاديث المنبئة بصفات الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في عهد خلافته ، ولا يصح ذلك القول بحال من الاحوال ، وقد قاتل أمير المؤمنين الخوارج برأي من معه من علماء الصحابة ، ولم يعاملوهم بعقوبات آية المحاربين المفسدين ، اذ لم يكن غرضهم الافساد في الارض ، ولا تخريب العمران و إزالة الامن . وانما هم قوم خرجوا على الامام العادل بعد البيعة ، زاعمين انه زل عن صراط الحق، وتجاوز تحكيم الشرع الى الرأي .

وقد اختلف علماء المسلمين في مسألة الخروج على أئمة الجور وحكم من يخرج، لاختلاف ظواهر النصوص التي وردت في الطاعة والجماعة والصبر وتغيير المنكر ومقاومة الظلم والبغي . ولم أر قولا لاحد جمع به بين كل ماورد من الآيات والاحاديث في هذا الباب ، ووضع كلا منها في الموضع الذي يقتضيه سبب وروده مراعيا اختلاف الحالات في ذلك ، مبينا مفهومات الالفاظ بحسب ما كانت تستعمل به في زمن التنزيل دون ما بعده . مثال هذا لفظ « الجماعة » انما كان يراد به جماعة المسلمين التي تقيم أمر الاسلام باقامة كتابه وسنة نبيه (ص) ولكن صارت كل دولة أو امارة من دول المسلمين تحمل كلمة الجماعة على نفسها ، وان هدمت السنة ، وأقامت البدعة ، وعطلت الحدود ، وأباحت الفجور . ومثال اختلاف الاحوال تعدد الدول،

تسقط عنهم حقوق الله كلها وحقوق العباد كلها أيضا ؟ احتمالات آخرها أضعفها ، وأوسطها اقواها ، وقد ثبت عن الصحابة اسقاط الحد عمن تاب ولكن لم يرد أن أحدا تقاضى التائب حقا ولم يسمع له الامام . واذا جاز اسقاط الحد مطلقا عن التائب فلا يجوز اسقاط المال عنه بحال . بل يتجه ان يقال. ان توبته لا تصح الا اذا أعاد الاموال المسلوبة الى أربابها . فاذا رأى أولو الامر اسقاط حق مالي عن المفسدين للمصلحة العامة وجب ان يضمنوه من بيت المال .

وقد اختلف علماء السلف. في هؤلاء التائبين. فقيل انهم المحاربون المفسدون من الكفار ، اذا تابوا عن الكفر والحرب والفساد ودخلوا في الاسلام قبل القدرة عليهم . فهم الذين يسقط عنهم كل حق كان قبل الاسلام ، لانه يجبُّ ما قبله مطلقا . رواه ابن جرير عن ابن عباس وعكرمة والحسن البصري ومجاهد وقتادة .

وقيل انها في المحاربين من المسلمين. وروى ابن جرير ان حارثة بن بدر كان محاربا في عهد امير المؤمنين علي كرم الله وجهه فطلب من الحسن بن علي ثم من ابن جعفر (عليهم الرضوان) ان يستأمن له عليا فأبيا عليه . فأتى سعيد بن قيس فقبله (قال الراوي) فلما صلى علي الغداة أتاه سعيد بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين ماجزاء الذين يحاربون الله ورسوله ؟ فقرأ علي الآيتين ، فقال سعيد : وان كان حارثة بن بدر ؟ قال : وان كان حارثة بن بدر . قال فهذا حارثة بن بدر جاء تائبا فهو آمن ؟ قال نعم . قال فجاء به فبايعه وقبل ذلك منه وكتب له أمانا . ولكن ليس في الرواية مايدل على اسقاط حقوق الناس . وقد اشترط بعضهم في التائب أن يستأمن الامام فيؤمنه ، كما فعل حارثة . وقال بعضهم لا يشترط ذلك بل يجب على الامام أن يقبل كل تائب . ورووا في ذلك واقعة محارب جاء ابا موسى تائبا ، وكان عامل عثمان على الكوفة فقبل منه - وواقعة علي الاسدي الذي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم ثم سمع رجلا يقرأ (ياعبادي الذي اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) الآية ، فاستعادها فاعادها القارىء ، فغمد سيفه وجاء المدينة تائبا بعد أن عجزت الحكومة والناس عنه ، فأخذ بيده أبو هريرة وجاء به والي المدينة مروان بن الحكم وقال له : لاسبيل لكم عليه ولا قتل . فترك من ذلك كله

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الموالد بدعة أم سنة ﴾

(س ١) من صاحب الامضاء في فليمبن (سومطرة)

من فليمبغ الى القاهرة في ٢٥ المحرم عام ١٣٣٢

جناب الاستاذ مرشد الامة ورشيدها سيدي محمد رشيد رضا ادام المولى وجوده • السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • وبعد أرجو من فضلكم اجابة السؤال الآتي على صفحات المنار • ما قول سيدي في قراءة القصص المسماة بالموالد هل هي سنة أم بدعة ؟ ومن اول من فعل ذلك ؟ واي الموالد المتداولة بين أيدينا احرى بالقراءة واحسن ؟ فان كثيرين من رجال المناصب يزعمون ان مولد الديبعي هو امثل الموالد وافضلها وان روح النبي صلى الله عليه وسلم تحضر عند قراءته خلافا للموالد الاخرى. ارجو ان تتفضل بازالة الاشكال والجواب على هذا السؤال ولكم الفضل اولا وآخرا ودمتم والسلام　　(طالب الدعا منكم السيد عقيل بن عبدالله بن عقيل الحبشي)

﴿ ج ﴾ هذه الموالد بدعة بلا نزاع ، وأول من ابتدع الاجتماع لقراءة قصة المولد النبوي احد ملوك الشراكسة بمصر . وقد شرحنا ما في هذه الاحتفالات التي يسمونها الموالد بمصر في مجلد السنة الاولى من المنار ثم في غيره من المجلدات • ولم نطلع على قصة من قصص المولد النبوي الشريف الا ورأينا فيها كثيرا من الاخبار الموضوعة • حتى جمع صديقنا عالم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي من كتب الصحاح والسنن اصح وامثل ما ورد في ذلك و(شذرة من السيرة النبوية) وقد طبع في مطبعتنا وصار محبو السنة ومبغضو البدعة يستغنون به عن تلك القصص المشحونة بالموضوعات والاكاذيب التي يؤثرها الجهال زعما منهم انها اكثر تعظيما للنبي (ص) وقد اغناه الله تعالى بفضله العظيم عليه عن تعظيم غيره له بالكذب في سيرته • ولم نطلع على مولد الديبعي • فان كان هو المحدث المشهور فالمرجو ان يكون ما كتبه خاليا من الموضوعات ، وان لم يخل من الضعاف التي يتسامحون بها في ذكر المناقب .

فأيها تجب طاعته والوفاء ببيعته ؟ واذا قاتل أحدها الآخر فأيها يعد الباغي الذي يجب على سائر المسلمين قتاله حتى يفيء الى أمر الله ؟ كل قوم يطبقون النصوص على أهوائهم مهما كانت ظاهرة .

ومن المسائل المجمع عليها قولا واعتقادا : أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، « وانما الطاعة في المعروف » وان الخروج على الحاكم المسلم اذا ارتد عن الاسلام واجب . وان إباحة المجمع على تحريمه كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع مالم يأذن به الله كفر وردة . وانه اذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع وحكومة جائرة تعطله وجب على كل مسلم نصر الاولى ما استطاع . وانه اذا بغت طائفة من المسلمين على أخرى وجردت عليها السيف وتعذر الصلح بينهما فالواجب على المسلمين قتال الباغية المعتدية حتى تفيء الى أمر الله . وما ورد في الصبر على أئمة الجور الا اذا كفروا معارض بنصوص أخرى ، والمراد به اتقاء الفتنة ، وتفريق الكلمة المجتمعة ، وأقواها في حديث « وان لا ننازع الامر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا » قال النووي المراد بالكفر هنا المعصية ـ ومثله كثير ـ وظاهر الحديث ان منازعة الامام الحق في إمامته لنزعها منه لا يجب الا اذا كفر كفرا ظاهرا وكذا عماله وولاته. وأما الظلم والمعاصي فيجب إرجاعه عنها مع بقاء امامته وطاعته في المعروف دون المنكر. ومن هذا الباب خروج الامام الحسين سبط الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على امام الجور والبغي ، الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمكر ، يزيد بن معاوية خذله الله وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب . الذين لا يزالون يستحبون عبادة الملوك الظالمين ، على مجاهدتهم لإقامة العدل والدين وقد صار رأي الامم الغالب في هذا العصر وجوب الخروج على الملوك المستبدين المفسدين . وقد خرجت الامة العثمانية على سلطانها عبد الحميد خان وسلبت السلطة منه وخلعته بفتوى من شيخ الاسلام . وتحرير هذه المسائل لا يمكن الا بمصنف خاص . والسلام على من اتبع الهدى . ورجح الحق على الهوى .

التصوف الاسلامي الصحيح

(فصل من كتاب مدارج السالكين ، بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين »)

للامام العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى

في مشاهد الخلق في المعصية وهي ثلاثة عشر مشهدا (١) : مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة - ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة - ومشهد الجبر - ومشهد القدر - ومشهد الحكمة - ومشهد التوفيق والخذلان - ومشهد التوحيد - ومشهد الاسماء والصفات - ومشهد الايمان وتعدد شواهده - ومشهد الرحمة - ومشهد العجز والضعف - ومشهد الذل والافتقار - ومشهد المحبة والعبودية . فالاربعة الاول للمنحرفين ، والثمانية البواقي لاهل الاستقامة . واعلاها المشهد العاشر . وهذا الفصل من أجل فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد ، وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر ، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه ، الا ما ذكرناه في كتابنا المسمى بسفر الهجرتين ، في طريق السعادتين

﴿ فصل ﴾

فأما (مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة) فمشهد الجهال ، الذين لا فرق بينهم و بين سائر الحيوان الا في اعتدال القامة ونطق اللسان ، ليس همهم الا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت اليها . فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانيه ، لم تترق عنها الى درجة الانسانية ، فضلا عن درجة الملائكة . فهؤلاء حالهم اخس من ان تذكر ، وهم في

(١) المعنى المراد من لفظ المشهد هو مايغلب على اعتقاد الانسان أو وجدانه وشعوره في معصيته أو معصية غيره ، ومثله كل عامل في عمله ، ويعبر بعض الناس الآن عن مثل هذا المعنى بالملاحظة . فيقال على عرفهم : إن العامي الجاهل لا يلاحظ في المعصية الا إرضاء شهوته . ولكن الطبيب الجاهل يلاحظ معنى آخر مع قصد الشهوة وهو ان هذا العمل من الوظائف الطبيعية لبعض اعضاء الجسم . وعلى ذلك فقس

﴿ قراءة البخاري لطلب النصر في الحرب ﴾

(س٢) من علي أفندي مهيب (بديوان عموم التلغرافات) بمصر (ناظر)
حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته . و بعد فقد قرأت في الجرائد في الايام الاولى للحرب الحاضرة بين الدولة العلية ودول البلقان ان صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر كلف حضرات العلماء بقراءة البخاري امام القبلة طلباً للنصر من الله سبحانه . فهل ورد شيء عن قراءة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم اثناء الحرب طلبا للنصر ؟ ولماذا لم يقرأ كلام الله سبحانه بالاولى اذا كانت التلاوة تغني عن العمل ؟ أرجو الافادة على صفحات المنار الاغر ولحضرتكم جزيل الشكر

(ج) جاءنا هذا السؤال في أثناء الحرب الاخيرة فوضعناه بين الاسئلة الكثيرة ولم يتفق وقوعه بيدنا الا الآن . وموضوعه يتكرر عند الحرب وغير الحرب من المصائب كالوباء والقحط . والجواب إنه لا يعقل أن يكون قد ورد في الكتاب أو السنة أمر أو ترغيب بقراءة أحاديث الرسول (ص) لطلب النصر أو رفع المصائب ولا أن يكون ذلك معروفاً في الصدر الاول . فان الاحاديث لم تكن مدونة في زمن الخلفاء الراشدين (رض) وانما دونت في زمن التابعين ، وأول من أمر بجمعها ونشرها عمر بن عبد العزيز (رض) ولم يكن التابعون ولا تابعو التابعين يقرءونها لتكون قراءتها سبباً للنصر . وانما فعل ذلك المتأخرون ولا أدري في أي زمن أحدثوا ذلك ، وما أظن ان أحداً من أهل العلم يقول ان هذا سنة أو مأمور به شرعاً ، ولعل أقوى ما يمكن أن يقولوه في سببه : اننا نجتمع للدعاء ونقرأ قبل الدعاء طائفة من أحاديث الرسول (ص) لما يرجى من تأثيرها في حضور القلب ، والخشوع للرب ، الذي يرجى أن يكون سببا لاستجابة الدعاء . وعلى هذا يتجه السؤال الثاني وهو « لماذا لا يقرأ كلام الله سبحانه »

وما أظن ان حدا من أهل العلم يقول ان قراءة الحديث أو القرآن في المساجد بنية نصر المحاربين سبب لنصر المحاربين في ميدان القتال ، وقد بين الله تعالى أسباب النصر في كتابه وأمر بها وأهمها اعداد ما يستطاع من القوة في كل زمن والثبات وذكر المحاربين لله تعالى في قلوبهم عند لقاء العدو ، كذكر وعده باحدى الحسنيين وثوابه للشهداء ، و بألسنتهم كالتكبير فانه يعلي الهمة و يقوي الامل والرجاء . وقد بينا ذلك بالتفصيل غير مرة . وقد ظهر المشركون على المسلمين في أحد وحنين والنبي (ص) معهم وأنزل الله تعالى في أحد (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) فراجع تفسيرها في المنار أو في الجزء الخامس من التفسير، ان شئت زيادة الايضاح والتفصيل .

والتحصينات النبوية التي في السنة والتي في القرآن (١) .

وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام عند الانسان وفي داره أوأنها تحاربه . وهو كما اعتمدوه . وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة . فكان تأويلها مطابقا لاقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أحد بقرا تنحر ، فكان ما اصيب من المؤمنين بنحر الكفار ، فان البقر أنفع الحيوان الارض وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع والذل (بكسر الذال) فانها ذاول مذللة منقادة غير أبية ، والجواميس كبارهم ورؤساؤهم (٢) ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكا نقره ثلاث نقرات ، فكان طعن أبي لؤلؤة له . والديك رجل أعجمي شرير .

ومن الناس من طبعه طبع خنزير يمر بالطيبات فلايلوى عليها ، فاذا قام الانسان عن رجيعه قمه . وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوي ، فلايحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه ، فاذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها فجعلها فاكهته ونقله

(ومنهم) من هو على طبيعة الطاوس ليس له الا التطوس والتزين بالريش وما وراء ذلك شيء (ومنهم) من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان وأغلظه كبدا

(ومنهم) من هو على طبيعة الدب أبكم خبيث ، وعلى طبيعة القرد (٣)

وأحمد طبائع الحيوانات طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسا وأكرمها طبعا ، وكذلك الغنم ، وكل من ألف ضربا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه ، فان تغذى بلحمه كان الشبه أقوى . فان الغاذي شبيه بالمتغذي (٤) . ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير لما يورث آكله (٥) من شبه

---

(١) حذفنا من هذا الموضع بحثا وجيزا في عقاب من ثبت انه يؤذي بعينه ، وانه ان قتل بالعين لا يقتل بالسيف لان الجزاء من جنس العمل

(٢) أي كبار الناس النافعين ورؤساؤهم . أي تعتبر رؤيتها في المنام بذلك

(٣) أي في إفساد كل ما تصل اليه يده (٤) وفي نسخة « المغتذي »

(٥) وفي نسخة « أكلها »

أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على اخلاقها وطباعها

(فمنهم) من نفسه كلبية لو صادف جيفة تشبع ألف كلب اوقع عليها وحماها من سائر الكلاب ، ونبح كل كلب يدنو منها ، فلا تقربها الكلاب الا على كره منه وغلبة ، ولا يسمح لكلب بشيء منها ، وهمه شبع بطنه من أي طعام اتفق : ميتة او مذكى ، خبيث او طيب . ولا يستحي من قبيح ، ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ان اطعمته بصبص بذنبه ودار حولك ، وان منعته هرك ونبحك .

(ومنهم) من نفسه حمارية لم تخلق الا للكد والعلف ، كلما زيد في علفه زيد في كده ، ابكم الحيوان واقله بصيرة . ولهذا مثل الله سبحانه وتعالى به من حمله كتابه فلم يعرفه معرفة ولا فقها ولا عملا ، ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وأخلد الى الارض واتبع هواه . وفي هذين المثلين اسرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها .

(ومنهم) من نفسه سبعية غضبية همته العدوان على الناس وقهرهم بما وصلت اليه قدرته ، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه .

(ومنهم) من نفسه فارية ، فاسق بطبعه ، مفسد لما جاوره ، تسبيحه بلسان الحال : سبحان من خلقه للفساد

(ومنهم) من نفسه على نفوس ذوات السموم والحمات ، كالحية والعقرب وغيرهما ، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه فيدخل الرجل القبر ، والجمل القدر ، والعين وحدها لم تفعل شيئا وانما النفس الخبيثة السمية تكيفت بكيفية غضبية مع شدة حسد واعجاب ، وقابلت المعين على غرة منه وغفلة ، وهو اعزل من سلاحه ، فلدغته ، كالحية التي تنظر الى موضع مكشوف من بدن الانسان فتنهشه ، فإما عطب وإما اذى . ولهذا لا يتوقف اذى العائن على الرؤية والمشاهدة ، بل اذا وصف له الشيء الغائب عنه وصل اليه اذاه . والذنب لجهل المعين وغفلته وغرته عن حمل سلاحه كل وقت . فالعائن لا يؤثر في شاكي السلاح ، كالحية اذا قابلت درعا سابغا على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف ، فحق على من أراد حفظ نفسه وحمايتها أن لا يزال متدرعا متحصنا ، لابسا اداة الحرب ، مواظبا على أوراد التعوذات

لموافقتها المشيئة والقدر . ويقولون : كما أن موافقة الامر طاعة ، فموافقة المشيئة طاعة . كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلا على أمره بها ورضاه .

وهؤلاء شر من القدرية النفاة ، وأشد عداوة لله ، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه ، حتى ان من هؤلاء من يعتذر عن ابليس ويتوجع له ويقيم عذره بجهده ، وينسب ربه تعالى الى ظلمه بلسان الحال والمقال ، ويقول : ما ذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه ؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وارادته منه ؟ ثم كيف يمكنه السجود وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه ؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله الا محسنا ؟ ولكن :

اذا كان المحب قليل حظ　　فما حسناته الا ذنوب

وهؤلاء أعداء الله حقا ، وأولياء ابليس واحباؤه واخوانه . واذا ناح منهم نائح على ابليس رأيت من البكاء والحنين امرا عجيبا ، ورأيت من تظلم الاقدار ، واتهام الجبار ، ما يبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم ، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه . فهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخ الاسلام ابن تيمية في تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم　　الى النار طرا فرقة القدرية

﴿ فصل ﴾

(المشهد الرابع مشهد القدرية النفاة)

ويشهدون أن هذه الجنايات والذنوب هم الذين أحدثوها ، وأنها واقعة بمشيئتهم دون مشيئة الله تعالى ، وأن الله لم يقدّر ذلك عليهم ولم يكتبه ولا شاءه ولا خلق افعالهم ، وأنه لا يقدر أن يهدي احدا ولا يضله الا بمجرد البيان ، لا أنه يلهمه الهدى والضلال ، والفجور والتقوى ، فيجعل ذلك في قلبه . ويشهدون انه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه ، وأنه يشاء ما لا يكون ، وان العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله . فالمعاصي والذنوب خلقهم وموجب مشيئتهم ، لا أنها خلق الله

نفوسها بها والله أعلم . والمقصود أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة

﴿ فصل ﴾

(المشهد الثاني مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة)

كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء الذين يشهدون ان ذلك من لوازم الخلقة والطبيعة الانسانية ، وأن تركيب الانسان من الطبائع الاربع وامتزاجها واختلاطها كما يقتضي بغي بعضها على بعض وخروجه عن الاعتدال بحسب اختلاف هذه الاخلاط ، فكذلك تركيبه من البدن والنفس والطبيعة والاخلاط الحيوانية يتقاضاه اثر هذه الخلقة ورسوم تلك الطبيعة ، ولا تنقهر الا بقاهر إما من نفسه واما من خارج عنه . وأكثر النوع الانساني ليس له قاهر من نفسه ، فاحتياجه الى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وايالة ينتظم بها أمره ضرو ربة (١) كحاجته الى مصالحه من الطعام والشراب واللباس . وعند هؤلاء ان العاقل متى كان له وازع من نفسه قاهر لم يحتج الى أمر غيره ونهيه وضبطه (٢) . فمشهد هؤلاء من حركات النفس الاختيارية الموجبة الجنايات ، كمشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية الموجبة للتغيرات (٣) وليس لهم مشهد وراء ذلك •

﴿ فصل ﴾

(المشهد الثالث مشهد أصحاب الجبر)

وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم ، وانها واقعة بغير قدرتهم ، بل لا يشهدون أنها أفعالهم البتة . ويقولون : ان أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر ، وان الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه ، وانه آلة محضة ، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح وحركات الاشجار وهؤلاء اذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه ، وقد يغلون في ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعات خيرها وشرها ،

(١) كان الظاهر أي يقال « ضروري » لانه خبر قوله فاحتياجه
(٢) كذا (٣) وفي نسخة التغيرات

والذنوب والجرائم وترتب آثارها من الآيات والحكم، وانواع التعرفات الى خلقه وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته وحكمته وعزته، وتمام ملكه وكمال قدرته، واحاطة علمه، ما يشهده أولو البصائر عيانا ببصائر قلوبهم، فيقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك!) ان هي الا حكمتك الباهرة وآياتك الظاهرة

ولله في كل تحريكة وتسكينة ابدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدلّ على انه واحد

فكم من آية في الارض بينة دالة على الله وعلى صدق رسله وعلى ان لقاءه حق، كان سببها معاصي بني آدم وذنوبهم، كآيته في اغراق قوم نوح، وعلو الماء على رؤوس الجبال، حتى اغرق جميع اهل الارض، ونجى اولياءه واهل معرفته وتوحيده. فكم في ذلك من آية وعبرة. ودلالة باقية على ممر الدهور؟ وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود. وكم له من آية في فرعون وقومه من حين بعث موسى اليهم؟ بل قبل مبعثه الى حين إغراقهم، اولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب. وفي التوراة ان الله تعالى قال لموسى: اذهب الى فرعون فاني سأقسي قلبه وامنعه عن(١) الايمان لاظهر آياتي وعجائبي بمصر. وكذلك فعل سبحانه فاظهر من آياته وعجائبه بسبب ذنوب فرعون وقومه ما اظهر. وكذلك اظهاره سبحانه ما اظهر من جعل النار بردا وسلاما على ابراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم، وإلقائهم له في النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال ابراهيم ما نال من كمال الخلة.

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفى عند الله والوجاهة عنده بسبب صبرهم على اذى قومهم وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم. وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والاولياء والاصفياء من بني آدم، بسبب صبرهم على أذى بني آدم من أهل المعاصي والظلم ومجاهدتهم في الله، وتحملهم لأجله من اعدائه ماهو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات. ــ الى غير ذلك من المصالح والحكم التي وجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم، وكان من سببها تقدير ما يبغضه الله ويسخطه، وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب اليه وآثر عنده

(١) وفي نسخة «من»

ولا تتعلق بمشيئته . وهم لذلك مبخوسو الحظ جدا من الاستعانة بالله والتوكل عليه والاعتصام به ، وسؤاله ان يهديهم ، وان يثبت قلوبهم وان لا يزيغها ، وأن يوفقهم لمرضاته ويجنبهم معصيته . اذ هذا كله واقع بهم وعين أفعالهم لا يدخل تحت مشيئة الرب.

والشيطان قد رضي منهم بهذا القدر ، فلا يؤزّهم إلى المعاصي ذلك الأزّ ، ولا يزعجهم اليها ذلك الإزعاج . وله في ذلك غرضان مهمان (أحدهما) ان يقرر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة ، وأنكم تاركون الذنوب (١) والكبائر التي يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الامر مفوض اليكم واقع بكم ، وأنكم العاصمون لانفسكم المانعون لها من المعصية (الغرض الثاني) أنه يصطاد على أيديهم الجهال ، فاذا رأوهم أهل عبادة وزهادة وتورع عن المعاصي وتعظيم لها قالوا : هؤلاء هم اهل الحق . والبدعة آثر عنده واحب اليه من المعصية ، فاذا ظفر بها منهم ، واصطاد الجهال على ايديهم ، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها في اعينهم وقلوبهم ولا يكشف هذه الحقائق الا ارباب البصائر .

﴿ فصل ﴾

(المشهد الخامس وهو احد مشاهد اهل الاستقامة : مشهد الحكمة)

وهو مشهد حكمة الله في تقديره على عبده مايبغضه سبحانه ويكرهه ، ويلوم ويعاقب عليه ، وانه لو شاء لعصمه منه ، ولحال بينه وبينه ، وانه سبحانه لا يعصى قسرا ، وانه لا يكون في العالم شيء الا بمشيئته (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

وهؤلاء يشهدون ان الله سبحانه لم يخلق شيئا عبثا ولا سدى ، وانه له الحكمة البالغة في كل ماقدره وقضاه من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الاحاطة بكنهها ، وتكل الالسن عن التعبير عنها ، فمصدر قضائه وقدره لما يبغضه ويسخطه اسمه الحكيم الذي بهرت حكمته الالباب ، وقد قال تعالى للملائكة لما قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فاجابهم سبحانه بقوله (اني اعلم ما لا تعلمون) فلله سبحانه في ظهور المعاصي

(١) وفي نسخة « تاركو الذنوب »

الملائكة إبليس وماجرى له ، وهاروت وماروت ، وضعت رءوسها بين يدي الرب خضوعا لعظمته ، واستكانة لعزته ، وخشية من ابعاده وطرده ، وتذللا لهيبته ، وافتقارا الى عصمته ورحمته ، وعلمت بذلك منته عليهم ، واحسانه اليهم ، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته .

وكذلك أولياؤه المتقون ، اذا شاهدوا أحوال اعدائه ومقته لهم ، وغضبه عليهم ، وخذلانه لهم ، ازدادوا له خضوعا وذلاً ، وافتقارا وانكسارا ، وبه استعانة ، واليه إنابة ، وعليه توكلا ، وفيه رغبة ، ومنه رهبة ، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه الا اليه ، وأنهم لا يعيذهم من بأسه الا هو ، ولا ينجيهم من سخطه الا مرضاته ، فالفضل بيده أولا وآخرا

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه . والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه فيطلعه على عجائب من حكمته لا تبلغها العبارة ، ولا تنالها الصفة . وأما حظ العبد في نفسه ومايخصه من شهود هذه الحكمة فبحسب استعداده وقوة بصيرته ، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته ، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية ، وكل مؤمن له من ذلك شرب معلوم ، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه (١)

(١) بقي من بيان حكمة الله تعالى في تقدير الكفر والمعاصي كلمة ضرورية لا يتم بدونها . وهي معنى ذلك التقدير ، وكونه لا دلالة فيه ولا اقتضاء للجبر والاكراه على الفعل . وذلك انه تعالى خلق الناس مختارين في أفعالهم ، يعملونها بارادتهم ، حسب علمهم أو ظنهم بأن فعل كذا أو تركه خير لهم . فكل عمل من أعمالهم حلقة من سلسلة الاسباب والمسببات قبله حلقة الاختيار ، وهذا الترتيب هو التقدير ، فالقدر جعل المسببات على قدر الاسباب ، وانتظام الجميع في سلسلة واحدة . وضده الخلق الأنف الذي هو مذهب القدرية . ومعناه ان الله تعالى يخلق كل شيء يقع في الكون ابتداء واستئنافا لا يكون شيء من الحوادث مبنيا على تقدير ونظام سابق ، تكون فيه الاسباب على قدر المسببات ، والنتائج اثراً لترتيب المقدمات . فكل مخلوق له علم وارادة واختيار يطيع او يعصي باختياره الذي هو من قدر الله ، ولا يخلق الله كل عمل يصدر منه خلقا مستأنفا كما يزعم منكرو القدر العميان . وله في هذا التقدير حكم كثيرة أشار المصنف الى طائفة منها ، والله عليم حكيم

من فوته بتقدير عدم المعصية . فحصول هذا المحبوب العظيم ، احب اليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط ، فان فواته وعدمه وان كان محبوبا له لكن حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض احب اليه ، وفوات هذا المحبوب ، اكره اليه من فوات ذلك المكروه المسخوط ، وكمال حكمته تقتضي حصول أحب الامرين اليه بفوات ادنى المحبوبين ، وان لا يعطل هـذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه . وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا ، كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها ، والملزومات بدون لوازمها ، مما تمنعه حكمة الله وكمال قدرته وربوبيته .

ويكفي من هذا مثال واحد وهو أنه لولا المعصية من أبي البشر بأكله من الشجرة لما ترتب على ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى ، من امتحان خلقه وتكليفهم ، وارسال رسله ، وانزال كتبه ، واظهار آياته وعجائبه ، وتنويعها وتصريفها ، واكرام أوليائه ، واهانة أعدائه ، وظهور عدله وفضله وعزته وانتقامه ، وعفوه ومغفرته ، وصفحه وحلمه ، وظهور من يعبده ويحبه ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان . فلو قدر أن آدم لم يأكل من الشجرة ولم يخرج من الجنة هو وأولاده ، لم يكن شيء من تلك ، ولا ظهر من القوة الى الفعل ما كان كامنا في قلب ابليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة ، ولم يتميز خبيث الخلق من طيبه ، ولم تتم المملكة حيث لم يكن هناك إكرام وثواب ، وعقوبة واهانة ، ودار سعادة وفضل ، ودار شقاوة وعدل .

وكم في تسليط أوليائه على اعدائه ، وتسليط اعدائه على أوليائه ، والجمع بينهما في دار واحدة ، وابتلاء بعضهم ببعض ، من حكمة بالغة ، ونعمة سابغة ؟ وكم في طيها من حصول محبوب للرب ، وحمد له من أهل سمواته وارضه ، وخضوع له وتذلل ، وتعبد وخشية وافتقار اليه ، وانكسار بين يديه ؟ أن لا يجعلهم من أعدائه ، إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم ، واعراضه عنهم ، ومقته لهم ، وما أعد لهم من العذاب . وكل ذلك بمشيئته وإرادته ، وتصرفه في مملكته ، فاولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون ، على أشد وجل وأعظم مخافة وأتم انكسار . فاذا رأت

فهذا علامة توحيد الآلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل اليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الالهية توحيدُ الربوبية (١) فان أول مايتعلق القلب(٢) بتوحيد الربوبية ثم يرتقي الى توحيد الالهية، كما يدعو سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد الى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ويقررهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ: الله. فأنى يؤفكون؟) أي فمن أين يصرفون عن شهادة ان لا اله الا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون انه لارب غيره ولا خالق سواه(٣) وكذلك قوله تعالى (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله. قل أفلا تذكرون؟) فتعلمون أنه اذا كان وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده الهـهم ومعبودهم، فكما لارب لهم غيره، فهكذا لا إلـه لهم سواه (قل: من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ * قل: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟) - الآيات. وهكذا قوله في سورة النمل (قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أمّا يشركون؟ أمّن خلق السموات والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم ان تنبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون) الى آخر الآيات. يحتج عليهم بأن من فعل هذا وحده، فهو الالـه وحده، فان كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وان لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه الـها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل، فلابد من الجواب بلا، فاذا لم يكن معه الـه فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم ان إلهية ماسواه باطلة، كما أن ربوبية ماسواه باطلة باقراركم وشهادتكم. ومن قال: المعنى هل مع الله الـه آخر؟ من غير أن

(١) وبعبارة اخرى توحيد الربوبية، باب يدخل منه الى توحيد الالهية.
(٢) وفي نسخة «العبد» (٣) وفي نسخة «وانه لاخالق سواه»

﴿ فصل ﴾

(المشهد السادس مشهد التوحيد)

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا تتحرك ذرة الا بإذنه ، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته ، وانه ما من قلب الا وهو بين أصابعه ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء ان يزيغه ازاغه . فالقلوب بيده وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف اراد، وأنه هوالذي آتى نفوس المؤمنين تقواها ، وهوالذي هداها وزكاها ، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له » يهدي من يشاء بفضله ورحمته ، و يضل من يشاء بعدله وحكمته . هذا فضله وعطاؤه ومافضل الكريم بممنون (١) وهذا عدله وقضاؤه(لا يسئل عمّا يفعل وهم يسئلون)

قال ابن عباس : الايمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده . وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام (إياك نعبد و إياك نستعين) علما وحالا، فيثبت قدم العبد في توحيده(٢) الربوبية ، ثم يرقى منه صاعدا الى توحيد الالهية ، فانه اذا تيقن أن الضر والنفع والعطاء والمنع ، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء ، كل ذلك بيد الله لا بيدغيره، وأنه الذي يقلب القلوب و يصرفها كيف يشاء ، وانه لا موفّق الا من وفقه وأعانه ، ولا مخذول الا من خذله وأهانه وتخلى عنه ، وان اصح القلوب وأسلمها وأقومها ، وأرقها وأصفاها ، وأشدها وألينها ، من اتخذه وحده إلها ومعبودا ، فكان أحب اليه من كل ماسواه ، واخوف عنده من كل ماسواه ، وأرجى له من كل ماسواه ، فتتقدم محبتُه في قلبه جميع المحاب ، فتنساق المحابُّ تبعا لها كما ينساق الجيش تبعا للسلطان ، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات ، فتنساق المخاوف كلها تبعا لخوفه ، و يتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء ، فينساق كل رجاء تبعا لرجائه .

{١} وفي نسخة بزيادة « اي مقطوع » وهو تفسير لممنون {٢} وفي نسخة « توحيد » بدون هاء

والخذلان هو أن يخلي بينك و بين نفسك . فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له . فهو دائر بين توفيقه وخذلانه ، فان وفقه فبفضله ورحمته ، وإن خذله فبعدله وحكمته ، وهو المحمود على هذا وهذا ، له أتم حمد وأكمله ، ولم يمنع العبد شيئا هو له ، وإنما منعه ماهو مجرد فضله وعطائه ، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله . فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه ، علم ضرورته وحاجته الى التوفيق كل نفس وكل لحظة وطرفة عين ، وان ايمانه وتوحيده بيده تعالى (١) ، او تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده ، ولخرّت سماء ايمانه على الارض ، وان الممسك له من يمسك السماء ان تقع على الأرض الا باذنه . فهجّيرى قلبه (٢) ودأب لسانه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، يامصرّف القلوب صرّف قلبي الى طاعتك » ودعواه « ياحي ياقيومُ يا بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام ، لا إله الا أنت برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ولا إلى احد من خلقك، » ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطر ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ويلقي نفسه بين يديه ، طريحا ببابه مستسلما له ، ناكس الرأس بين يديه خاضعا ذليلا مستكينا ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

والتوفيق ارادة الله من نفسه ان يفعل بعبده مايصلح به العبد، بأن يجعله قادرا على فعل مايرضيه ، مريدا له ، محبا له ، مؤثرا له على غيره ، ويبغض اليه مايسخطه ويكرّهه اليه . وهذا مجرد فعله ، والعبد محل له ، قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ، وكرّه اليكم الكفر والفسوقَ والعصيان . أولئك

{ ١ } وفي النسخة الثانية « وتوحيده ممسك بيد غيره بيده تعالى » {٢} هِجيرى الانسان (بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة والقصر) دأبه الذي يلازمه ولايتركه . ويسميها الناس في بعض البلاد في هذا العصر « لازمة » فالذي يكثر في كلامه من كلمة « مثلا » يقولون : لازمته مثلا

يكون المعنى « فعل » فقوله ضعيف أوجههن (أحدهما) أنهم كانوا يقولون : مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك (الثاني) أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل افحامهم واقامة الحجة عليهم الا بهذا التقدير، أي فاذا كنتم تقولون : انه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله ، فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئا وهو عاجز؟ وهذا كقوله (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) وقوله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟) وقوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق؟) وقوله (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون) وقوله (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون) وهو كثير في القرآن وبه تتم الحجة كما تبين .

والمقصود أن العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه الا هو، ولا سبيل الى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول الى مرضاته الا بتوفيقه، فموارد الامور كلها منه ومصادرها اليه، وأزمة التوفيق جميعها بيديه ، فلا مستعان للعباد الا به ، ولا متكل الا عليه(١) كما قال شعيب خطيب الانبياء (وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)

﴿ فصل ﴾

(المشهد السابع مشهد التوفيق والخذلان)

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه ، ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد الى شهوده وانتفاعه به . وقد أجمع العارفون بالله أن التوفيق هو ان لا يكلك الله الى نفسك(٢)

---

(١) أي ان الذي يدرك حقيقة معنى القدر يعلم ان ما آتاه الله تعالى إياه من هدايات الحواس والعقل والوجدان ، وما يصل اليه علمه المكتسب بها والضروري الذي هو أقوى منه ، كل ذلك لا يكفي لتصريف ارادته واختياره دائما فيما هو خير له ، فانه مهما اتسع علمه واختياره يختار لنفسه أحيانا كثيرة ما هو شر له في دينه ودنياه وعاجل امره وآجله، فاذا فقه هذا علم علم شهود انه لا يستغني طرفة عين عن توفيق الله وعنايته . (٢) هذا تفسير باللازم وأما الملزوم فكون الاسباب المكسوبة وغير المكسوبة موافقة للمصلحة الصحيحة

يؤتيه من يشاء .

وقد فسرت القدرية الجبرية التوفيق بانه خلق الطاعة ، والخذلان (بأنه) خلق المعصية . ولكن بنوا ذلك على اصولهم الفاسدة من انكار الأسباب والحكم ، وردوا الامر الى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة . وقابلهم القدرية النفاة ، ففسروا التوفيق بالبيان العام ، والهدي العام ، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها وتهيئة أسبابها . وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة وتمكن من الايمان . فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين ، إذ الاقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين (١) ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم ، والكفار بخذلان امتنع به الايمان منهم، ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما . والتزموا لهذا الاصل لوازم قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء ولم يجدوا بدا من التزامها ، فظهر فساد مذهبهم ، وتناقض أقوالهم (٢) ، لمن أحاط به علما وتصوره حق تصوره ، وعلم أنه من أبطل مذهب (؟) في العالم وارداه .

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . فلم يرضو بطريق هؤلاء ولا طريق هؤلاء ، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم ، فأثبتوا القضاء والقدر وعموم مشيئة الله للكائنات وأثبتوا الاسباب والحكم والغايات والمصالح ، ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء ، أو أن يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته ، أو أن يكون شيء من أفعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته . ومن قال ذلك فلم يعرف ربه ، ولم يثبت له كمال الربوبية . ونزهوه مع ذلك عن العبث وفعل القبيح وأن يخلق شيئا سدى ، وان تخلو أفعاله عن حكم بالغة لأجلها أوجدها ، واسباب بها سببها ، وغايات جعلت طرقا ووسائل اليها . وان له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة . وتلك الحكمة صفة له قائمة به ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة .

فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين ، الا من حق تتضمنه مقالاتهم ،

{١} وفي نسخة « بين الفريقين » (٢)وفي نسخة « قولهم »

هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له ، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله ، لا يمنعه أهله ، ولا يضعه عند غير أهله . وذكر هذا عقيب قوله (واعلموا أن فيكم رسولَ اللهِ لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم) ثم جاء به (١) بحرف الاستدراك فقال (ولكنَّ اللهَ حبب اليكم الإيمان) يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للايمان وارادته وتزيينه في قلوبكم منكم ، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك فآثرتموه ورضيتموه ، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي ، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر ، فالذي حبب اليكم الايمان أعلم بمصالح عباده منكم ، وأنتم فلولا توفيقه لكم (٢) لما أذعنت نفوسكم للايمان ، فلم يكن الايمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ، ولا تقدمتم به اليها ، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه ، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك ، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون ، ولا تظنوا ان نفوسكم تريد بكم الرشد والصلاح ، كما اردتم الايمان ، فلولا أني حببته اليكم وزينته في قلوبكم ، وكرهت اليكم ضده ، لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم ،

وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل ملك أرسل الى أهل بلد من بلاده رسولا وكتب معه (٣) كتابا يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب، ومجتاحهم ومخرب البلد ومهلك من فيها ، وأرسل اليهم اموالا ومراكب وزادا وعدة وأدلة ، وقال . ارتحلوا اليّ مع هؤلاء الادلة، وقد ارسلت اليكم جميع ما تحتاجون اليه . ثم قال لجماعة من مماليكه : اذهبوا الى فلان فخذوا بيده واحملوه (٤) ولا تذروه يقعد ، واذهبوا الى فلان كذلك والى فلان ، وذروا من عداهم فانهم لا يصلحون ان يساكنوني في بلدي . فذهب خواص مماليكه الى من أمروا بحملهم فلم يتركوهم يقرون ، بل حملوهم حملا وساقوهم سوقا الى الملك ، فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم ، واسر من اسر . فهل يعد الملك ظالما لهؤلاء أم عادلا فيهم ؟ نعم خص أولئك باحسانه وعنايته وحرمها من عداهم ، اذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله واكرامه ، بل ذلك فضله

(١) سقط من النسخة الثانية لفظ « به » (٢) سقط من النسخة الثانية لفظ «لكم» (٣) وفي نسخة « له » (٤) وفي نسخة « فاحملوه »

ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه ، وان من نسبه الى ذلك فما قدره حق قدره ، ولا عظمه حق تعظيمه ، كما قال تعالى في حق منكري النبوة وارسال الرسل وانزال الكتب (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب (وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين كالأبرار والفجار ، والمؤمنين والكفار (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) فأخبر ان هذا حكم سيئ لايليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته ، وقال سبحانه (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون ؟ * فتعالى الله الملك الحق لا إله الا هو رب العرش الكريم) عن هذا الظن والحسبان، الذي تأباه اسماؤه وصفاته .

ونظائر هذا في القرآن كثير، ينفي عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته، اذ ذلك (١) مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها، فاسمه الحميد المجيد يمنع ترك الانسان سدى مهملا معطلا، لايؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب ، وكذلك اسمه الحكيم، يأبى ذلك ، وكذلك اسمه الملك ، واسمه الحيّ يمنع أن يكون معطلا من الفعل بل حقيقة الحياة الفعل، فكل حي فعّال، وكونه سبحانه خالقا قيوما من موجبات حياته ومقتضياتها ، واسمه السميع البصير يوجب مسموعا ومرئيا ، واسمه الخالق يقتضي مخلوقا ، وكذلك الرزاق . واسمه الملك يقتضي مملكة وتصرفا وتدبيرا واعطاءً ومنعا وإحسانا وعدلا وثوابا وعقابا . واسم البر المحسن المعطي المنان ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها .

اذا عرف هذا فمن اسمائه سبحانه الغفار التواب العفوّ (٢) فلابد لهذه الاسماء من متعلقات ، ولابد من جناية تغفر ، وتوبة تقبل ، وجرائم يعفى عنها . ولا بد لاسمه الحكيم من متعلق يظهر فيه حكمه (٣) اذ اقتضاء هذه الاسماء لآثارها

(١) ونسخة « ذاك » (٢) وفي نسخة بواو العطف في هذه الاسماء الثلاثة الاخيرة. وهنا محل الشاهد(٣) وفي نسخة « حكمة »

فانهم يوافقونهم عليه ويجمعون حق كل منهما الى حق الاخرى ، ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل ، فهم شهداء الله على الطوائف أمناء عليهم ، حكام بينهم ، حاكمون عليهم ، ولا يحكم عليهم احد منهم ، يكشفون أحوال الطوائف ، ولا يكشفهم الامن كشف له عن معرفة ماجاء به الرسول (١) وعرف الفرق بينه وبين غيره ولم يلتبس عليه ، وهؤلاء افراد العالم ونخبته وخلاصته ، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، بل ممن هو على بينة من ربه و بصيرة في إيمانه ، ومعرفة بما عند الناس ، والله الموفق .

﴿ فصل ﴾

المشهد الثامن مشهد الاسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد وهو أعلى مما قبله وأوسع . والمطلع (٢) على هذا المشهد معرفة تعلق الوجود خلقا وامرا بالاسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها، وان كان العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها . وهذا من أجل المعارف وأشرفها ، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة ، فان أسماءه أوصاف مدح وكمال، وكل صفة لها مقتضى وفعل : إما لازم وإما متعد ، ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه وهذا . في خلقه وأمره وثوابه وعقابه ، كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها . ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، وتعطيل الاوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الافعال ، وتعطيل الافعال عن المفعولات ، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله ، وأفعاله عن صفاته ، وصفاته عن أسمائه ، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته .

واذا كانت أوصافه صفات كمال ، وأفعاله حكما ومصالح ، واسماؤه حسنى ، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه . ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وانه نسبه الى ما لا يليق به ، ويتنزه عنه (٣) وان

(١) وفي نسخة الرسل (٢) المطلع بفتح اللام . وخبره معرفة تعلق الوجود
(٣) وفي نسخة: بل يتنزه عنه

عن اسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء ونحو ذلك •

وهذه طريقة الكمل من السائرين الى الله ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) والدعاء بها يتناول دعاء المسئلة ودعاء الثناء ودعاء التعبد . وهو سبحانه يدعو عباده الى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، و يثنوا عليه بها ، و يأخذوا بحظهم من عبوديتها ، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته . فهو عليم يحب كل عليم ، وجواد يحب كل جواد ، وتر يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، عفو يحب العفو وأهله ، حيي يحب الحياء وأهله ، بر يحب الأبرار ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم ، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح خلق من يغفر له و يتوب عليه و يعفو عنه ، وقدر عليه مايقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له ، فتوسطه كتوسط الاسباب المكروهة المفضية الى المحبوب .

فربما كان مكروه النفوس الى محبوبها سببا ما مثله سبب

والاسباب مع مسبباتها أربعة أنواع : محبوب يفضي الى محبوب ، ومكروه يفضي الى محبوب . وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة الى مايحبه و يكرهه . والثالث مكروه يفضي الى مكروه . والرابع محبوب يفضي الى مكروه . وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه ، اذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره ـ الذي خلق ماخلق وقضى ماقضى لأجل حصولها ـ لاتكون الا محبوبة للرب مرضية له ، والاسباب الموصلة اليها منقسمة الى محبوب له ومكروه له . فالطاعات والتوحيد أسباب محبوبة له موصلة الى الاحسان والثواب المحبوب له أيضا ، والشرك والمعاصي أسباب مسخوطة له ، موصلة الى العدل المحبوب له ، وان كان الفضل أحب اليه من العدل . فاجتماع العدل والفضل أحب اليه من انفراد أحدهما ، لما فيهما من كمال الملك والحمد ، وتنوع الثناء وكمال القدرة .

فان قيل : كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه . قيل هذا سؤال باطل لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والذي يقدّر الذهن وجوده شيء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب ، وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم

كاقتضاء اسم الخالق الرازق المعطي المانع المخلوق والمرزوق والمعطى والممنوع .
وهذه الاسماء كلها حسنى ، والرب تعالى يحب ذاته واوصافه واسماءه . فهو عفو يحبّ العفو ، ويحب المغفرة ويحب التوبة ، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب اليه أعظم فرح يخطر بالبال . وكان تقديرما يغفره ويعفو عن فاعله ويحلم عنه ويتوب عليه ويسامحه من موجب اسمائه وصفاته . وحصول مايحبه ويرضاه من ذلك ، ومايحمدُ به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه ، ماهو من موجبات كماله ومقتضى حمده . وهو سبحانه الحميد المجيد ، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما ومن آثارهما مغفرة الزلات ، واقالة العثرات ، والعفو عن السيئات ، والمسامحة على الجنايات ، هذا (١) مع كمال القدرة على استيفاء الحق ، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها ، فحلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته ، كما قال المسيح صلى الله عليه وسلم (إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك ، لست كمن يغفر عجزا ، ويسامح جهلا بقدر الحق ، بل أنت عليم بحقك ، قادر على استيفائه ، حكيم في الأخذ به .

فمن تأمل سريان آثار الاسماء والصفات في العالم وفي الامر تبين له ان مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الاسماء والصفات والافعال ، وغاياتها أيضا مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته ، فله في كل ماقضاه وقدره الحكمة البالغة ، والآيات الباهرة ، والتعرفات الى عباده باسمائه وصفاته ، واستدعاء محبتهم له وذكرهم له وشكرهم له ، وتعبدهم له باسمائه الحسنى ، اذ كل اسم فله تعبد مختص به علما ومعرفة وحالا ، وا كمل الناس عبودية المتعبد بجميع الاسماء والصفات التي يطلع عليها البشر ، فلا يحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير ، عن التعبد باسمه الحكيم الرحيم ، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي من عبودية اسمه المانع ، أو عبودية اسمه الرحيم والعفوّ والغفور عن اسمه المنتقم ، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والاحسان

(١) سقط لفظ «هذا» من النسخة الثانية

ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله) وقال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر والصحيح انها في الدنيا وفي البرزخ فان من أعرض عن ذكره الذي أنزله فله من ضيق الصدر ونكد العيش وكثرة الخوف وشدة الحرص والتعب على الدنيا والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها ، والآلام التي في خلال ذلك ـ ما لا يشعر به القلب لسكرته وانغماسه في السكر . فهو لا يصحو ساعة الا أحس وشعر بهذا الألم فبادر الى ازالته بسكر ثان، فهو هكذا مدة حياته . وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟ فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الكبرى ، وقلوب الابرار في نعيم قبل النعيم الاكبر (ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) هذا في دورهم الثلاث ليس مختصا بالدار الآخرة ، وان كان تمامه وكماله وظهوره انما هو في الدار الآخرة (١) وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى (وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك) وقال تعالى (ويقولون : متى هذا الوعد ان كنتم صادقين؟ * قل: عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ،ولكن يمنع من (٢) الاحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات ، وطرح ذلك عن القلب وعدم التفكر فيه . والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه ويقطع التفاته عنه، ويجعل اقباله على غيره لئلا يشعر به جملة ، فلو زال عنه ذلك الالتفات لصاح من شدة الألم فما الظن بعذاب القلوب وآلامها ؟

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارا محبوبة لذيذة طيبة لذتها فوق لذة المعصية باضعاف مضاعفة لا نسبة لها اليها، وجعل للسيئات والمعاصي آلاما وآثارا مكروهة، وحزازات تربي على لذة تناولها باضعاف مضاعفة .قال ابن عباس : ان للحسنة نورا في القلب ، وضياء في الوجه ، وقوة في البدن ، وزيادة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . وان للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القلب ، ووهنا في البدن ،

(١) ما رأيت أحدا سبقني الى تقرير هذا المعنى والاستدلال عليه بالقرآن مثل المصنف
(٢) وفي نسخة بسقوط «من»

بلا علم ، بل قد يكون مبغوضا للرب تعالى لمنافاته حكمته ، فاذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له كان نسبة له الى ما لا يليق به ويتعالى عنه . فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل فانه مزلة اقدام ، ومضلة افهام ، ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف . وهذا المشهد أجل من ان يحيط به كتاب ، أو يستوعبه خطاب ، وانما أشرنا منه الى أدنى اشارة تطلع على ماوراءها والله الموفق (١) .

﴿ فصل ﴾

المشهد التاسع مشهد زيادة الايمان وتعدد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد وأخصها بأهل المعرفة . ولعل سامعه يبادر الى انكاره ويقول : كيف يشهد زيادة الايمان من الذنوب والمعاصي ؟ ولا سيما ذنوب (٢) العبد ومعاصيه ، وهل ذلك إلا منقص للايمان ؟ فانه باجماع السلف يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف الى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره ، والى ترتب آثارها عليها . وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة ، وبرهان من براهين صدق الرسل وصحة ما جاءوا به . فان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم ، ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد ، وأخبروهم عن الله عز وجل انه يحب كذا وكذا (٣) وانه يبغض كيت وكيت ، ويعاقب عليه بكيت وكيت ، وانه اذا أطيع بما أمر به شكر عليه بالإمداد ، والزيادة والنعم في القلوب والابدان والاموال ، ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها ، وانه اذا خولف أمره ونهيه ترتب عليه من النقص والفساد والضعف والذل والمهانة والحقارة وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب ، كما قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (قل : ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) وقال تعالى (وأن استغفروا ربكم

(١) وفي نسخة زيادة «المعين» (٢) وفي نسخة «من ذنوب» (٣) وفي نسخة زيادة «فيثيب عليه»

ومتى انفتح هذا الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم واحوال الامم، وماجريات الخلق، بل انتفع بما جريات اهل زمانه وما يشاهده من احوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقوله (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا اله الا هو العزيز الحكيم) فكلما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة وجدب ونقص في نفسك وفي غيرك فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وان اجراه على يد ظالم فالمسلط له اعدل العادلين، كما قال تعالى لمن افسد في الارض (بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار) الآية. فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، فان تداركها من سقي بالادوية المقاومة لها ... والا قهرت القوة الايمانية وكان الهلاك، كما قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما ان الحمى بريد الموت فشهود العبد نقص حاله اذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه بجفولها منه، وانسداد الابواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه وهوانه على اهل بيته واولاده وزوجته واخوانه (١) وتطلبه ذلك حتى يعلم من اين أتي، ووقوعه على السبب الموجب لذلك مما يقوي ايمانه. فان اقلع وباشر الاسباب التي تفضي به الى ضد هذه الحال، ورأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والامن بعد الخوف، والقوة في قلبه، بعد ضعفه ووهنه ــ ازداد ايمانا مع ايمانه، فتقوى شواهد الايمان في قلبه، وبراهينه وادلته في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين (يكفر الله عنهم اسوأ الذي عملوا ويجزيهم اجرهم باحسن الذي كانوا يعملون) وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه واعطاه حقه صار من اطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه

(١) هذه الآثار التي تترتب على الذنب لا يشهدها كلها الا المؤمن الذي يعيش بين المؤمنين الصادقين. واما الجاحدون والمنافقون والفاسقون المصرون، فلا تتغير قلوب بعضهم على بعض لاجل المعصية، ولا يشعرون بهوانهم على اهل بيوتهم، الا قليلا وفي بعض المعاصي دون بعض. فالذين اعتادوا شرب الخمر في بيوتهم، وغير بيوتهم يعدونها هم واهلوهم كشرب الماء. وللمعاصي آثار أخرى في الاخلاق وفي الصحة لا يغفل عن قبحها وشؤمها الا من هو اجهل من الانعام

ونقصا في الرزق ، و بغضة في قلوب الخلق • وهذا يعرفه صاحب البصيرة و يشهده من نفسه ومن غيره، فما حصل للعبد حال مكروهة قط الا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر . قال الله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير) وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه (أوَلَمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقال (ما أصابكَ من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والمراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله . ولهذا قال « ما اصابك » ولم يقل : ما أصبت. فكل نقص و بلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب ، فليس في العالم شر قط الا الذنوب وموجباتها

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والابدان والاموال امر مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته مما يقوي ايمانه بما جاءت به الرسل ، و بالثواب والعقاب، فان هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة دالة على ماهو اعظم منها لمن كانت له بصيرة . كما قال بعض الناس : اذا صدر مني ذنب ولم ابادره ولم اتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيء، فاذا اصابني اوفوقه اودونه كما حسبت ،يكون هجيراي «اشهد ان لا إله إلا الله، واشهد ان محمدا رسول الله» و يكون ذلك من شواهد الايمان وادلته، فان الصادق مني اخبرك انك اذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا و كذا، فجعلت كلما فعلت شيئا من ذلك حصل لك ماقال من المكروه، لم تزدد الا علما بصدقه و بصيرة فيه، وليس هذا لكل احد ، بل اكثر الناس يرين الذنوب على قلبه فلا يشهد شيئا من ذلك ولا يشعر به البتة . وانما يكون هذا لقلب فيه نور الايمان ،واهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يشاهد هذا وهذا، ويرى حال مصباح ايمانه مع قوة تلك الاهوية والرياح، فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح وتقلب السفينة وتكفئها، ولاسيما اذا انكسرت به و بقي على لوح تلعب به الرياح ، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب ، اذا أريد به الخير ،وان أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر .

عليهم بل هو نصيب من ظفر به منهم .

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقا ، ويعرف ربه ، وهذا احد التأويلات للكلام المشهور « من عرف نفسه عرف ربه » وليس هذا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما هو اثر اسرائيلي بغير هذا اللفظ ايضا « يا انسان اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاث تأويلات (احدها) ان من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة ، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز ، ومن عرفها بالجهل ، عرف ربه بالعلم ، فان الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق والحمد والثناء والمجد والغنى ، والعبد فقير ناقص محتاج ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ، ازدادت معرفته لربه باوصاف كماله .

(التأويل الثاني) ان من نظر الى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والارادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف ان من اعطاه ذلك وخلقه فيه اولى به ، فمعطي الكمال أحق بالكمال ، فكيف يكون العبد حيا متكلما سميعا بصيرا مريدًا عالما يفعل باختياره ، ومن خلقه وأوجده لايكون أولى بذلك منه ؟ . فهذا من أعظم المحال ، بل من جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ، ومن جعله حيا عليما سميعا بصيرا فاعلا قادرا ، أولى أن يكون كذلك . فالتأويل الاول من باب الضد . وهذا من باب الاولوية .

(والتأويل الثالث) ان هذا من باب النفي . أي كما انك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الاشياء اليك، فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها ، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟ . والمقصود أن في هذا المشهد يعرف العبد أنه عاجز ضعيف ، فيزول عنه رعونات الدعاوي والاضافات الى نفسه ، ويعلم انه ليس له من الامر شيء وليس بيده شيء ، ان هو الا محض الفقر والعجز والضعف .

(للبحث بقية)

ونفع به من شاء من خلقه ، والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

المشهد العاشر مشهد الرحمة

فان العبد اذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة ، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب ، حتى لو قدر عليه لاهلكه ، وربما دعا الله عليه ان يهلكه ويأخذه غضبا منه لله وحرصا على ان لا يعصي ، فلا يجد في قلبه رحمة المذنبين الخاطئين ولا يراهم الا بعين الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم الا بلسان الطعن فيهم والعيب لهم والذم ، فاذا جرت عليه المقادير وخلي ونفسه استغاث بالله والتجأ اليه ، وتملل بين يديه تملل السليم ، ودعاه دعاء المضطر ، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة ، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولينا ، مع قيامه بحدود الله ، وتبدل دعاؤه عليهم دعاءً لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره ـ يسأل الله فيه ان يغفر لهم ، فما انفعه له من مشهد ! وما اعظم جدواه عليه ! والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

فيورثه ذلك (المشهد الحادي عشر)

وهو مشهد العجز والضعف ، وانه اعجز شيء عن حفظ نفسه واضعفه ، وانه لا قوة له ولا قدرة ولا حول الا بربه ، فيشهد قلبه كريشة ملقاة بارض فلاة تقلبها الرياح يمينا وشمالا ، ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح ، وتتلاعب بها الامواج ، ترفعها تارة وتخفضها تارة أخرى ، تجري عليه احكام القدر وهو كالآلة طريحا بين يدي وليه ملقى ببابه ، واضعا خده على ثرى اعتابه ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ليس له من نفسه الا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما ، فالهلاك ادنى اليه من شراك نعله ، كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع لا يردهم عنها الا الراعي ، فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها اعضاءً . هكذا حال العبد ملقى بين الله و بين اعدائه من شياطين الانس والجن ، فان حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا اليه سبيلا ، إن تخلى عنه ووكله الى نفسه طرفة عين لم ينقسم

شغل يرتزق منه ! فأجيبهم عنه بأسف عظيم : ان والدي منذ نعومة اظفاري وضعني بمدارس المبشرين، ولم يعلم ان الدارس فيها يخرج محبـا للكسل والبطالة واللهو والسياحة والتسول ، واكره شيء عليه السعي وراء شغل يرتزق منه : ويفضـل الخمول على السعي ، والفاقة على الغنى ، لرسوخ ما علموه اياه في عقله كتعاليمهم لتلاميذهم الصغار «فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه» وكذلك «لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون » وكذلك « انظروا الى طيور السماء انها لاتزرع ولا تحصد ولاتجمع الى مخازن ، وأبوكم السماوي يقوتها » وكذلك فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لـكم انه يعسر ان يدخل غني الى ملـكوت السموات ? واقول لـكم ايضا ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني الى ملـكوت السموات ٠٠٠ فاجاب بطرس حينئذ وقال له هانحن تركنا كل شيء وتبعناك ، فاذًا يكون لنا ٠٠٠ وكل من ترك بيوتاً أواخوة أو اخوات أو أبا أو أما أو امراة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمي ياخذ مئة ضعف ويرث الحيوة الابدية » وغير ذلك كثير مما هو على هذا النمط

أما لو وضعني بمدارس المسلمين ، لـكنت لـكم من الشاكرين ، لان نصحكم يكون تذكيرا لي بما درسته فيها من آيات القرآن المجيد ، والحديث الشريف، كقوله تعالى {فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله} وكقوله تعالى (هو الذي جعل لـكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وكقوله تعالى (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لـكم جنات ويجعل لـكم انهارا)وقول النبي صـلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا» وقوله صـلى الله عليه وسلم « اعمل عمل امرئ يظن انه لن يموت أبدا ، واحذر حذر امرئ يخشى ان يموت غدا » (١) وقوله صلى الله عليه وسلم «ما اكل احد قط خيرا من ان يأكل من عمل يده »(٢) وكذلك أيضا « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا مع اصحابه ذات يوم فنظروا الى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله. فقال صلى الله عليه وسلم « لاتقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم و يكفيهم فهو في سبيل الله »(٣) واحسرتاه ! ليته وضعني بمدارس تعلم القرآن المجيد، والحديث الشريف، أي تعلم الحـكمة ، والهمة

---

(١) المنار : رواه البيهقي عن عبـد الله بن عمرو (٢) رواه البخاري عن المقدام
(٣) رواه الطبراني عن كعب بن عجرة

الرد المتين

على مفتريات المبشرين (*)

لقد اطلعنا على المجلة المدعوة « الشرق والغرب » التي يطبعها المبشرون بمصر وقرأنا العدد الاول الذي صدر في ١ كانون الثاني سنة ١٩١٤ والعدد الثاني الذي صدر في ١٥ من الشهر المذكور واذا فيهما على زعم أولئك المبشرين تفنيد لما كتبناه في كتابنا الذي سميناه « العقائد الوثنية في الديانة النصرانية » وجميع ماقالوه ينحصر في خمسة امور

(الاول منها) تطاولهم واستباحتهم لكلام البذاء والتطاول وهذا ليس له عندنا جواب فليفرحوا وليتنعموا به

(الامر الثاني) ادعاؤهم أننا اعتمدنا في كتابنا على اقوال علماء نصارى اوروبيين ملحدين . وهذا نجاوبهم عليه بان لهم الخيار بما يصفونهم به . أما نحن فنقول بحقهم انهم علماء مستقلون قالوا الحق الذي وصل اليه علمهم بشأن ديانة المبشرين غير مبالين بمن لا يرضاه منهم

(الامر الثالث) عدم تصديقهم باطلاعنا على الكتب التي ذكرناها في أول الكتاب . وهذا ايضا لهم الخيار فيه صدقوا أم لم يصدقوا . ونقول لهم ولمن هم على شاكلتهم: ها هي ذي مكتبتنا حاضرة لكل من يروم الاطلاع عليها ، ونزيدهم -وربنا شهيد- انه عندنا عدة كتب غير التي ذكرناها لم تنقل منها كلمة واحدة ، لشدة اعتراضاتها على الديانة النصرانية . وجميعها تأليف علماء مسيحيين أوروبيين . وان احبوا فاننا مستعدون لذكر اسمائها ، واسماء المدن التي طبعت فيها مع اسماء الطابعين

(الامر الرابع) قولهم مانصه بالحرف « فاذا استزادنا حضرته من نقد بقية مافي كتابه فربما عدنا اليه في فرصة اخرى . ولكن ليسمح لنا الآن بهذه النصيحة وهي ان لا يحشر نفسه بين العلماء الباحثين ، بل ليدع ذلك لرجال العلم وليبحث له عن شغل يرتزق منه والله يهدي سواء السبيل »

اما من جهة نقدهم لبقية مافي كتابنا فاننا نشكره لهم سلفا ، فاننا لم نأت بكلمة واحدة من عندنا ، ولا بكلمة واحدة من كلام علماء المسلمين رضي الله عنهم ، بل جميع ماذكرناه مأخوذ من كتب علماء الغرب المسيحيين خاصة ، واما امرهم ايانا بان لا نحشر نفسنا بين العلماء الباحثين بل لندع ذلك لرجال العلم ، وأن نبحث عن

(*) لصاحب الامضاء من متخرجي الكلية الامريكانية ببيروت

ولنا على الاعداد التي ذكرناها من الانجيل سؤالات عديدة نود الاستفسار عنها من حضرة المبشرين الذين انتقدوا اطلاق لقب « أخت هارون » على مريم ولكن خوفا من ان يتوهم أحد المسيحيين الشرقيين بأننا نقصد الحط من المعتقدات النصرانية كما توهموه لما قلنا عن البلغاريين وحلفائهم أنهم كفار ظالمون لاستباحتهم سفك دماء نساء وبنات وأولاد المسلمين ودفنهم جرحى العساكر العثمانية تحت التراب وهم احياء يقاسون ألم الجراح وألم الموت خنقا ، واحراقهم النساء المسلمات ، وغير ذلك من الاعمال الوحشية التي لم يرو التاريخ صدور مثلها حتى ولا من القبائل المتوحشة في افريقية . لذلك نكتفي بهذين السؤالين مؤملين من حضرتهم افادتنا عنهما وهما :

(١) انهم يقولون عن مريم العذراء عليها السلام انها لم تلد أحدا غير المسيح عليه السلام ، والأناجيل تقول انه كان لها اولاد ، فهل نصدق كلامهم ونضرب بكلام الانجيل عرض الحائط ام نصدق كلام الانجيل ونكذب كلامهم .

(٢) يظهر من كلام الانجيل انها اي أمه لم تكن مؤمنة به ولا صادقة ارادة مرسله كتلاميذه . ولولا ذلك لما تبرأ منها هي ومن معها من اخوته واشار نحو الحاضرين بانهم هم اخوته واخواته وأمه . فلو كانت مؤمنة به لما فعل هذا لان فيه اهانة عظيمة لها ، كما هو المتبادر من عبارة الانجيل لكل من يقرؤه . ومعلوم اننا نحن لا نؤمن بهذه القصة التي سموها انجيلا ، بل نؤمن بان امه كانت مؤمنة تقية ، وانه كان برا بها كما حكى الله عنه في قوله (وبرا بوالدتي)

وقد أرسلنا اليهم كتاب تاريخ الفحشاء هدية كي يتسلوا به الى ان نختصر بعض فصول كتابنا الذي سميناه « مقام عيسى المسيح عليه السلام في النصرانية والاسلام » لتنشر في المنار الاغر أدام الله شمس صدقه منيرة سماء العدل والمدنية

واما اعتراضهم على مسئلة تحديد تعدد الزوجات ، واقوال الصوفي المتنصر وغير ذلك مما ذكروه بمجلتهم فسنرد عليه في الفصول الآتية ان شاء الله تعالى

(محمد طاهر التنير)

(المنار) نشرنا هذه النبذة ويتلوها الفصل الاول من الكتاب الذي أشار اليه الكاتب ، وقد تصرفنا في العبارة بعض التصرف فان في الاصل شدة في العبارة لاحاجة اليها . وسنعلق على الفصل الآتي كلاما نبين فيه الغرض من نشر أمثال هذه المقالات

والرحمة، ولا كان وضعي بمدارس تعلم الكسل والخمول والبلادة وحب التسول والفاقة وبغض المجد وكره الغنى

(الأمر الخامس) اعتراضهم على بعض علماء المسلمين الكرام وتصريحهم باسم الامير صاحب التآليف المشهورة المبنية على آيات القرآن المجيد والحديث الشريف ، ويكفيهم رداً على اعتراضهم وتحاملهم ماأبدوه من العداوة والبغضاء للحق وأهله

أما اعتراضهم على آيات القرآن المجيد كقولهم مانصه بالحرف «ولا نحن نطالب من إخواننا المسلمين ان يبينوا لنا كيف يصح القول بأن هامان كان وزير فرعون ، وان مريم العذراء كانت أخت موسى وهرون ، على مايستفاد من القرآن ، ولا غير ذلك من المشاكل التي يستحيل التوفيق بينها وبين التاريخ »

على رسلكم يا أيها المبشرون الزاعمون انكم لاتقولون الا الحق المبين : فما معنى ذكر مثل هذه المسائل وما مدخلها مع تفنيدكم لكتابنا ؟ اما آن لكم ان تتركوا المغالطات والسفسطات والتمويهات وتمقتوها ؟ اما آن لكم أن تتركوا التشدق بما يعود عليكم بالخيبة والخذلان ؟ والله لو كان قصدكم الاستفهام حقيقة لما كنا نتأثر باعتراضاتكم وتشدقاتكم ، ولكن نعلم أن قصدكم بها اغواء عباد الله تعالى وتشكيك عوام المسلمين في دينهم . ومع ذلك نقول لكم يامرحبا! سلوا عما تشاؤن من المشاكل التي تظنون استحالة التوفيق بينها وبين التاريخ الذي كتبته أيدي الصادقين .

ونقول لكم مع اننا نعلم أنكم قصدتم بالتجاهل الاغواء وتشكيك عباد الله تعالى: ان المقصود من أخوة مريم العذراء هو أخوة تشبيه لا أخوية ولادة من أب وأم . وهذا التشبيه كثير ومشهور في اللغات الشرقية . ولقد جاء مثله في انجيل متى ففي الفصل الثاني عشر من عدد ٤٦ الى ٥٠ « وفيما يكلم الجموع اذا أمه واخوته قد وقفوا خارجا طالبين ان يكلموه فأجاب وقال للقائل له : من هي امي و من هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو التلاميذ وقال ها امي واخوتي ، لأن من يصنع مشيئة ابي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي» وجاء مثله في انجيل مرقص { راجع الفصل الثالث من عدد ٣٢ الى ٣٤ }

وهكذا أخوة مريم لهرون عليهما السلام أي كاخوة المسيح عليه السلام لمن أشار اليهم بيده . وكما يشبهون الصالح بأحد المشهورين بالتقوى والعفاف في الايام الخالية كذلك يشبهون الشرير المشهور بالخيانة في القرون الماضية كقولهم « أخو الحارث بن ظالم » وهكذا

في التوراة والانجيل كي لا يقدر احد منهم على نسبة الكلام الينا كما فعلوا بنسبة كلام العلماء الاوروبيين الذين استشهدنا بكلامهم في كتابنا (العقائد الوثنية) الينا ، مع اننا ذكرنا اسماءهم بالعربية والافرنجية ، ولننظر الآن ما ذا يقول أولئك القوم الذين ألفوا تلك الكتب السافلة ضد دين الاسلام المبين .

﴿ الجد الاول من جدود الزنا ﴾

عقد الفصل ال ٣٨ من سفر التكوين من اوله الى آخره لبيان زنا القديس (يهوذا) بكنته (ثامار) وحملها منه . وانها وضعت ولدين ذكرين سماهما (فارص) و (زارح) والمبشرون المؤلفون لتلك الكتب والرسائل يقولون : ان فاديهم ومخلصهم وخالقهم « يسوع المسيح » من سلالة (فارص) المباركة وبما ان هذه القصة الشريفة لها علاقة مهمة مع هذا الرب المختار الولادة من الزنا نأتي عليها باختصار ، ومن يحب الزيادة فليقرأ الفصل المذكور يرفيه ما ملخصه أن يهوذا نزل عند رجل عدلامي اسمه (حيرة) فرأى ابنة رجل كنعاني اسمه (شوع) وأخذها ودخل عليها وولدت له ثلاثة اولاد ذكور اسم الكبير (عير) والثاني (اونان) والثالث (شيلة) ولما كبر عير اخذ له زوجة من بنات الكنعانيين اسمها (ثامار) فعمل الشر بعيني الرب فأهلكه وأمر يهوذا ابنه (اونان) بأن يأخذ زوجة اخيه ويقيم له نسلا فتزوجها اونان . وبما ان النسل الذي يأتيه منها يعد نسل اخيه لا نسله صار اذا ضاجعها يفسد على الارض (اي يعزل ماءه) لئلا تحمل منه فأماته رب التوراة وأبقى اباه القديس لانه لما زنى بها لم يفسد على الارض ولما مات أمرها يهوذا بأن تقعد أرملة ببيت ابيها وانه متى كبر ابنه شيلة يعطيها اياه زوجا لها وقال في نفسه ربما يعمل كما عمل اخواه فيميته الرب مثلهما . فذهبت الى بيت ابيها ومضت الايام وكبر (شيلة) ولم يعطه لها . وبلغها ان حماها المذكور (القديس يهوذا) ذاهب الى(تمنة) مع صاحبه العدلامي ليقص صوف غنمه فخلعت ثياب ترملها وغطت وجهها وجلست على طريق (تمنة) فلما رآها ظنها هذا القديس زانية وراودها عن نفسها فقالت له : ماذا تعطيني ؟ فقال لها اعطيك جدي معز أبعثه لك . فقالت له أعطني رهنا فأعطاها عصابته وخاتمه وعصاه وزنى بها . ولما وصل الى تمنة ارسل لها الجدي مع صديقه العدلامي ليفتك الرهن . فلم يجدها فرجع واخبر يهوذا . فقال له لتذهب بما معها كي لا يلحقنا عار . فحبلت منه ووضعت ولدين ذكرين سمتهما «فارص» و «زارح» ويسوع المسيح من نسل فارص المبارك

مقام

﴿ عيسى (يسوع) المسيح عليه السلام ﴾

« في النصرانية والاسلام »

الفصل الاول في نسبه

﴿ تنبيه مهم ﴾

ان اهانة الناس واحتقار أديانهم لمن أقبح الاعمال واعظمها كرها ومقتا عند المسلمين كافة ، ولا يتأتى عنها الا العداوة والبغضاء ، على مخالفتها للشريعة الغراء ، قال الله تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ) وكل من يتدبر الحقائق بعين الصدق والانصاف يرى ان جميع ما كتبه علماء المسلمين (رض) قديما وحديثا بشأن النصرانية لم يكن سوى ردّ على المفتريات التي رمى الظالمون بها دين الاسلام المبين، بغيا وعدوانا حيناً بعد حين ، وهذا الافتراء الذي اتخذه المبشرون وغيرهم من قسيسي الفرق النصرانية مهنة لهم في هذه الايام هو الذي اضطرنا الى كتابة هذه الكتب وهي (العقائد الوثنية ، في الديانة النصرانية ومقام عيسى عليه السلام، في النصرانية والاسلام) و (آداب الاسلام وتعليم التوراة والانجيل) و (اخلاق عيسى المسيح عليه السلام في الاناجيل وفي القرآن المجيد) ولم يطبع منها سوى (كتاب العقائد الوثنية) وان شاء الله تعالى سنطبع البقية باقرب وقت بعد ما ننشر اكثر نصوصها باختصار في المنار الاغر .

وقد بينا الحقائق ولله الحمد بطريقة تُرضي حتى أشد الناس عداوة لدين الاسلام المبين ، اذ لا خير يُرجى من كتابة ما يغضب الناس ولا سيما في الامور الدينية التي هي أعز شيء عند الانسان ، مهما كان دينه . قال الله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) فالحمد لله على نعم تعاليم القرآن المجيد ، الذي لولاه لكنا مثل أولئك المبشرين ومن ينحو نحوهم ، الذين ألفوا تلك الكتب السافلة المشحونة بالباطل والتطاول والافتراء وغير ذلك مما هو من اخلاقهم وخصالهم .

وانا نلفت نظر القارئ الفاضل الى امر ذي بال وهو اقتصارنا على ما جاء

هل كان من يهوذا او من العدلامي ؟ نقوله هنا أيضا . لان كلا الجاسوسين باتا عند هذه الزانية فكيف يعرف ممن علقت ؟

{الشاهد الثالث} في سفر الملوك الثاني {١١ : ٢ـ٥} نقلنا هذه الاعداد عن التوراة المطبوعة بمطبعة اليسوعيين بمدينة بيروت . واسم هذا السفر في توراة الابروسطانت (سفر صموئيل الثاني) : « وكان عند المساء ان داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى عن السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة جدا ، فارسل داود وسأل عن المرأة فقيل له هذه بتشابع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي ، فارسل داود رسلا وأخذها فدخلت عليه فدخل بها ، وتطهرت من نجاستها ورجعت الى بيتها ، وحملت المرأة فارسلت واخبرت داود وقالت اني حامل » انتهى فوضعت ولدا ومات ثم زنى بها ثانية (على زعمهم) فحبلت ووضعت سليمان وهو الاصل الثالث من الثالوث الزنائي

وبما اننا قصدنا الاختصار بقدر الامكان لذلك لم نكتب ماجاء في تفاسيرهم على التوراة والانجيل وان كان موجودا في كتابنا ، لان على المنار الاغر خدمات عظيمة فلا نضيع من صفحاته اكثر من هذا القدر

فهذا ماعندهم وهذا مايدعون الناس الى الايمان والاهتداء به ، واما ماعندنا وندعو اليه أهل الفضل والعقل بعد تبرئة انبياء الله من الفسق والفجور فهو :

اعتقاد المسلمين

طهارة نسب عيسى المسيح عليه السلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابرهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك مافي بطني محررا فتقبل مني انك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها انثى ، والله اعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالانثى ، وإني سميتها مريم وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا)

وقال الله تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر ابراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام

ولنا على هذه القصة عدة أسئلة وملاحظات مهمة ذكرناها في كتابنا (مقام عيسى المسيح عليه السلام. في النصرانية والاسلام) نذكر منها هنا مسألتين فقط لأن قصدنا الاختصار كي لا نضيع كثيرا من صفحات المنار الأغر لأن عليه أداء خدمات اسلامية مهمة .

(أولاهما) تقول التوراة انه ظنها زانية لأنها كانت مغطية وجهها. وهذا باطل عقلا ويكفي لرده واظهار بطلانه ماجاء في التوراة والانجيل (منها) في قول سفر التكوين (٢٤ : ٦٤ و٦٥ ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحق فنزلت عن الجمل وقالت للعبد من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا ؟ فقال العبد هو سيدي . فأخذت البرقع وتغطت) وجاء في الرسالة الاولى الى أهل كورنثوس (١١ : ٦ « لان المرأة ان لم تتغط فليقص شعرها أو يحلق وان كان عيبا على المرأة ان يقص شعرها أو يحلق فلتتغط) فالحجاب علم المخدرات الطاهرات ، وسيمة الخيرات الطيبات، كما ان التبرج والابتذال من علامات الفواجر الزانيات

(ثانيتها) تخبرنا التوراة عن ذهاب يهوذا مع صاحبه العدلامي ، وانه كان معه لما راودها عن نفسها ، وانه أرسل الجدي الوديع معه، وأنه لم يجدها وغير ذلك ، لكنها لم تذكر هل زنى بها هذا العدلامي أيضا أم لا ؟ ويدل العقل والعادة بين الفساق في هذه الامور التي يشتركون فيها وارسال الاجرة أي الجدي اليها معه على انه زنى بها مع يهوذا . واذا صح هذا فمن المحال معرفة ممن كان الحمل وربما حملت من كل واحد بولد ، ولا يبعد حينئذ ان يكون زارح ابن يهوذا ، وفارص ابن العدلامي . وكيفما كان فان هذا الجد الاعلى للمسيح قد خلق من ماء الزنا

(الجد الثاني)

جاء في سفر يشوع بن نون مانصه (٢ : ١) «فأرسل يشوع بن نون رجلين من شطين جاسوسين تحت الخفاء قائلا امضيا انظرا الارض واريحا . فانطلقا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب وباتا عندها » وجاء في هذا السفر ذاته (٦ : ١٧) ولتكن المدينة بكل مافيها مبسلة للرب ، ولكن راحاب الزانية تحيا هي وجميع من معها في بيتها » انتهى

وهذه راحاب الزانية زنى بها سلمون وهو من سلالة فارص الذي هو الاصل الاول من اصول الزنا المقدس. فحبلت ووضعت (بوعز) الذي من سلالته جاء «حمل الله الوديع »وما قلناه بخصوص عدم معرفة الحمل ممن كان عند ذكرنا الجد الاول ،

وبما أنه إله على حسب اعتقادهم - والعياذ بالله تعالى - فمن ذا الذي صيره لعنة ؟ هذا ما نود ايضاحه منهم ! وأغرب من ذلك اعتقادهم أن الإله ذو ثلاثة أقانيم (اي اشخاص) وهي الآب والابن والروح القدس، وان هذه الاقانيم الثلاثة هي إله واحد. فكيف صار الابن الذي هو ثلث إلههم « لعنة » دون الثنين الآخرين، اي الآب والروح القدس ؟ وما داموا يقولون بأن الثلاثة واحد حقيقة فلا بد من دخولهم جميعا تحت اللعن بهذا الاتحاد ! ! فتدبر هذا وسلهم : من اللاعن ؟ ومن هو يا ترى ؟

(ستأتي البقية)　　عبد الوهاب وولده محمد طاهر

(المنار) قد غلا دعاة النصرانية في العام الماضي وفي هذا العام في الطعن بالاسلام قولا وكتابة ، فلم يكتفوا بصحفهم الدورية ، ولا بالكتب التي نشروها من قبل ، بل هم يلفقون رسائل جديدة بمعنى ما تقدمها في الطعن والقدح والتمويه ولكن تختلف اسماؤها واساليبها . وأكثروا المحافل والمجتمعات في القاهرة وسائر البلاد والقرى لاجل الدعوة الى النصرانية . ومن العجائب أنهم كانوا من قبل أصحاب صبر وأناة فخانهم الصبر في هذه السنة حتى صاروا يهينون من يرد عليهم في المجتمعات إهانة شديدة . وقد خدعوا افرادا من فقراء العامة بالمال وادرار الرزق فأظهروا التنصر، ثم بدا لهم وندموا ، فصار من يريد الرجوع الى حظيرة الاسلام يهدد بالايذاء ، حتى اخبرنا بعضهم انه لا يمكنه الا ان يفر من القاهرة الى بلد آخر يظهر اسلامه فيه

لاجل هذا العدوان وجب علينا ان لا نقف عند حد رد مطاعنهم التي يكررونها كما كنا نفعل من قبل ، وان نبين لاخواننا المسلمين حقيقة دينهم والمقابلة بينها وبين ديننا ، وبيان أننا نحن نعظم المسيح ونكرمه بالحق ، فلا نحتاج الى من يدعونا الى الايمان به إيمانا يجمع النقائض ككونه واحدا وثلاثة ، ومقدسا ولعنة ، برأه الله مما قالوا . وهذا مما يجب علينا شرعا كالصلاة وغيرها من الفرائض . ولهذا نشرنا هذه الرسالة بعد تصحيحها . نعم انهم هددونا بالسلطة الانكليزية ، واغروا المعتمد الانكليزي بنا عسى ان يأمر الحكومة المصرية باقفال المنار ومقاومة (مدرسة دار الدعوة والارشاد) ومنع نظارة الاوقاف أن تساعدها بشيء من أوقاف المسلمين بعد أن صارت الاوقاف تحت سيطرته ، ليتسنى لهم ان يقولوا : ان جميع المسلمين في مصر عجزوا عن الرد عليهم ، وليكتفوا مؤنة من يرد عليهم في المستقبل اذا نجحت مدرسة دار الدعوة والارشاد (فاعتبروا يا أولي الابصار)

{ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب، وآتيناه أجره في الدنيا وأنه الآخرة لمن الصالحين}

الله أكبر ! فلينظر المبشرون والاب لويس شيخو ـ الذي الف رسالة منذ بضع سنين وسماها (خرافات القرآن) وقد ترجمها المبشر المدعو « زويمر » (١) ونشرها في مجلته « العالم الاسلامي » ـ الى اعتقاد المسلمين بطهارة نسب عيسى المسيح عليه السلام . فانهم اذا نظروه من جهة القرآن المجيد يرونه من سلالة طيبة زكية حماها الحي القيوم من التلطخ بأقذار وادران الزنا والسفاح . فلينظروا أي الوصفين أحب اليهم بحق هذه الذات الشريفة وليتمسكوا به . وايم الله اننا ما كنا نحب كتابة ما ذكرناه على هذا الموضوع غير أن ضرورة الحال تمنعنا

اعتقاد المبشرين

أن المسيح إلههم صار لعنة

والعياذ بالله تعالى

قال مقدسهم بولس في رسالته الى أهل غلاطية الاصحاح الثالث العدد (٣ : ١٣) «المسيح افتدانا من لعنة الناموس اذ صار لعنة لاجلنا لانه مكتوب : ملعون كل من علق على خشبة »

يعلم الناس ان النصارى يعتقدون أن المسيح هو إلههم وربهم وخالقهم ومخلصهم، وكتابهم المقدس يلقنهم أنه « صار لعنة » واللعنة غاية المبالغة في الشتم والازدراء وليس بعدها زيادة لمستزيد ، واي شيء يمكن ان يؤتى به ويكون اشد قبحا من قول مقدسهم إنه « صار لعنة » اي انه نفس اللعنة ؛ فما هذا الحب الذي قادهم الى القول بألوهيته من جهة ثم قادهم الى القول بأنه « صار لعنة » من جهة أخرى؟ ! . دع اعتقادهم بأنه من سلالة زناء مثلث كما بيناه سابقا ، فهم والحالة هذه اسوأ حالا من اشد اعدائه ، لأن مقام العداوة لا يطلب الا اقبح الاوصاف ، ومقام المحبة لا يطلب الا احسنها واكملها ، فهم يدعون محبته عليه السلام ويعتقدون انه خالقهم ورازقهم وفاديهم ومخلصهم ، ثم يصفونه بهذا الوصف . . . فما بالهم لايتدبرون ما يعتقدون! .

(١) هو زويمر الذي جرأ دعاه النصرانية في مصر وبلاد العرب على الغلو في الطعن في الاسلام واهانة المسلمين وتهييج العداوة بينهم وبين النصارى

خط حديدي من بغداد الى طهران . وفي مقابل ذلك جعلت حصة روسيا ارمينيا الكبرى . وهي تتناول الاراضي الواقعة الى شمال الخط البغدادي والى جنوبه بجملتها بين انقره وبغداد .

« على أن ثمت عقبة كان لا مندوحة عن تذليلها . فان الاستئثار بتلك البقاع الواسعة كان لا بد من تمويهه بحجة من الحجج ووسيلة من الوسائل فكانت هذه الوسيلة الاشغال العمومية والمشروعات النافعة الواجب اجراؤها . بيد أن روسيا لم يخطر لها أن تبذل أموالها الخاصة في هذا السبيل بل لجأت الى فرنسا . أوليست هي على الدوام مستعدة لبذل أموالها استعداد تركيا للتخلي عن أراضيها ؟ وعلى هذه الصورة تم الاتفاق على أن فرنسا تتولى انشاء مينائي يني بولي وهركاه (على البحر الاسود) والخطوط الحديدية (سمسون سيواس ـ دياربكر ، وديار بكر ـ ارضروم ـ طرابزون) مع العلم بقلة ايراداتها المتوقعة ، لانها لازمة لروسيا أبدا لموقفها السياسي والاقتصادي والحربي أيضاً ، وإن كان لا فائدة لنا نحن منه على الاطلاق . وانما اعطينا في مقابل ذلك البقعة السورية في جنوبي غربي خط بغداد ، مع حق انشاء مينائي حيفا ويافا وتمديد خط رياق الحديدي الى القدس ، ثم الاتفاق على اقتسام النقل بين خط دمشق ـ حماه والخط الحجازي ، وكلاهما متصل بالسواحل السورية : الاول في بيروت والثاني في حيفا . وكلها امتيازات لا نفع لنا منها مادامت حكومتنا متغاضية عن معاهدنا الكاثوليكية في الشرق ، ضاربة بما لنا من الحق في حماية الاراضي المقدسة وحماية المارونيين عرض الحائط ، ومهدت للايطاليين قطع السبيل علينا بما ينشئونه لانفسهم في رودس واضاليا وطبرق وسراقوسه

« لا يتوهمن متوهم ان الدولة العثمانية بذلت كل ما تملك للآخذين على أنفسهم صيانة كيانها . كلا ! فهي لاتزال باقية لها الاراضي الواقعة على ضفتي المضايق . وما زالت في عهدتها حماية البوسفور والدردنل (! !) وانه لشرف عظيم (!!) وفخر باق وإن كان يلقي على كاهل صاحبه مسؤوليات عظمى . ثم انهم لايزالون مالكين ادرنه والاستانة وبروسه وأزمير واصقاعا مترامية الاطراف خصبة التربة تكفي ايراداتها ـ في مايقولون ـ لدفع فوائد ديونها المتراكمة (!!)

« بهذا الثمن نجت الدولة العثمانية من الطور الثاني ، واعني به طور التقسيم أو طور التجزئة . بقي الطور الثالث واعني الحاجة الى المال . ومعلوم اننا نحن معاشر الفرنسيس لا نبرح أبداً من بال أحد متى بلغت المسائل هذا الطور واعني طور الدفع . اذن الى

مطامع الدول فينا (*)

« وضعت الحرب أوزارها، واخمدت المدافع انفاسها، واعيدت السيوف الى اغمادها، وعادت الدول المتناجزة بالامس عن ميادين القتال الى ردهات المجالس فعقدت بعضها مع بعض معاهدات تضمن صيانة السلام الى حين . ثم خلت كل واحدة الى نفسها تناقشها الحساب، وتبحث في مانالها من الغنم . فكانت الهمة الاولى منصرفة الى اقتسام الاراضي المكتسبة . ثم الى النظر في ما اثرته النفقات الحربية في ميزانياتها، وما تقتضيه سد تلك الثغور من الاموال الطائلة ، وهي لا سبيل اليها الا بعقد القروض

« ولو انحصر الامر في الدول الخارجة من ميدان القتال لهان الخطب، ولكن ثمت دولاً أخرى أبت الا أن يكون لها من الغنيمة نصيب

« تنازلت تركيا لايطاليا عن ولاياتها الافريقية . ثم تخلت لحكومات البلقان عن ولاياتها الاوربية غير ولاية أدرنه . ثم تقاسمت الدول مابقي بشكل مناطق نفوذ كل واحدة بحسب ما توحيه اليها مطامعها في العلانية والجهر

« ورضيت انكلترا نصيباً لها سواحل خليج العجم من الاوقيانس الهندي الى البحر الاحمر . وأصبحت سلطتها مبسوطة على البلاد العربية من البصرة الى السويس ومن الخليج العجمي الى ترعة السويس . وأصبحت في يدها الطريقان البحريتان الموصلتان من املاكها الشرقية الى املاكها الغربية . واتصلت امبراطوريتها الاسيوية (الهند) بملكها الافريقي (مصر)

***

« أما ايطاليا ولية أمر طرابلس الغرب والواضعة يدها على جزيرة رودس وما جاورها من جزر البحر المتوسط فانها فازت بهذه البقعة الآهلة باليونانيين والاروام، والقائمة بين خط بغداد والارخبيل، ومعها ميناء اضاليا وخط حديدي يمتد الى الداخلية، ويتصل بالخطوط الالمانية ، خط بغداد وخط أزمير

« وأما ألمانيا فكان نصيبها هذا الخط البغدادي الكبير بجملته لامسيطر عليها فيه ولا مهيمن ، وهو الذي طمحت اليه ، ومن ورائه مابين النهرين وكل البلاد الواقعة بين اسكودار والبصرة من البوسفور الى الخليج العجمي

« وان اتفاق بوتسدام مهد للالمانيين السبيل الى بلاد ايران اذ خولهم حق تمديد

(*) بقلم المسيو فلورنش وزير خارجية فرنسا سابقا وترجمة جريدة الاهرام

خطة المجافاة والمشاكسة لا يسعها الا اقامة الحجة في عاصمة السلطنة . وليست وزارتنا الحربية والخارجية في فرنسا بعيدتين عن وزارة المالية فجدير بوزيريهما ان يجتمعا بزميلهما ويكاشفاه بان في الحياة مواقف لا يجوز فيها تضحية الوطنية في سبيل مصالح بعض الافراد ، وان بعض القروض يجب مجانبة قبولها في بورصة باريز

« أما أنا فاني لا ابذل فلسا واحداً من مالي للذين يساومون في تربة الوطن وفي موارده الطبيعية تزلفا لبعض العظماء ، ولا اعتبر من يجود باموال الامة على هذه الصورة مؤتمناً أميناً

« رب قائل يقول ليس في الامر شيء مما تخشاه ، وكل ماهنالك تفاهم بتبيين مناطق نفوذ كل دولة . نعم . ولكن لتحدث غداً فتنة أو ثورة أو مذبحة – وليس ذلك بالامر النادر حدوثه في آسيا الصغرى – اذن لانلبث أن نرى العمارة الايطالية في اضاليا ، والانكليز في الكويت ، والالمان في مرسين ، والفرنسويين في بيروت ، والروسيين في طرابزون . ومتى وطئت اقدامهم الارض فهيهات ان تتزحزح عنها . وان لدينا في موقف ايطاليا اليوم في جزر بحر ايجه خير شاهد ، فالامر اذن ليس ينحصر في تبيين مناطق النفوذ ، بل هو يتجاوزه الى تقسيم الاملاك العثمانية الاسيوية والسلام » . (الاهرام)

ثم علقت الاهرام عليه بما يلي :

هذا هو كلام ذلك الوزير وهو لا يقول لنا شيئا لا نعرفه ولكنه يقوله لنا ونردده على أنفسنا لنتعظ ونتخذ الحيطة ونعمل بقول الشاعر :

ماحك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

(المنار) صدقت الاهرام إن هذا السياسي الكبير لا يقول لنا شيئا لا نعرفه ، أي لا يعرفه أهل البصيرة منا ، ولكنهم – واحسرتاه ! – قليلون فينا والجمهور مغرور بما يرى حينا بعد حين من إغماض الذال قبل الخمود ، كلما أومض إماضة حسبوا انهم في عالم الحياة النورانية داخلون ، واذا أظلم عليهم عادوا في ظلمتهم يعمهون ، واذا صاح بهم المنذرون ، : ياقومنا فروا الى النجاة فانكم الى الذبح تساقون . وسوس لهم الموسوسون ، : ان هؤلاء قوم غاشون ، وعن حظيرة الاخلاص للاتحاد خارجون ، وبألسنة أعدائنا الافرنج ينطقون ، اما ترون وميض انوار التجديد ، يلوح لأعينكم من بعيد ، فابذلوا لهؤلاء المجددين كل ماتملكون من المال ، تنالون جميع الآمال !!

فرنسا اتجهت الابصار للمطالبة بسد الفراغ الذي سببته هفوات وجنون بل جنايات الآخرين حتى يتهيأ لارباب الجشع والطمع ممن ذكر ان يستتبعوا تحقيق مطامعهم . اما مايطالبوننا به هذه المرة فثماني مئة مليون فرنك

« ولقد غامرت الامة الفرنسوية الى هذا الحين بمبالغ طائلة من توفيرات ابنائها في المشروعات العثمانية فلا ينكر عليها حق السعي في استرداد ذلك المال . ولكن هذا لا يجب ان يتخذ ذريعة لتضحية مصالح البلاد في سبيل منافع بعض الماليين ، فبعد نكبات الجيوش العثمانية اتفقت الصحافة وأجمع الرأي العام في فرنسا والعالم كله على إلقاء تبعة تلك الانكسارات على عاتق جمعية الاتحاد والترقي . فان الاتحاديين هم المسؤولون عن سوء انتظام الجيش وسوء الادارة وضياع أموال الحكومة . وان هؤلاء الاتحاديين هم أنفسهم المتقلدون الاحكام اليوم وفي أيديهم التصرف بالاموال العمومية . وهم أنفسهم الذين يتطلبون اليوم الاموال الفرنسوية في حين ان لاستعمالها في فرنسا وجهة أولى وأنفع ، ولكن ما ثم من يعترف ، فان قلم المراقبة في وزارة الداخلية كان قد ألغي فأعاده المتمولون على شكل أضمن لمصلحتهم

« ومن أهم مايتهمون به جمعية الاتحاد والترقي نزعاتها الالمانية وهي تكاد تكون تحرشاً بنا . ثم يتهمونها بأنها ألقت بين يدي الضباط الالمانيين تنظيم جنديتها حتى ألقى بعضهم على الجبرال فندرغولتز تبعة انكسارات العثمانيين في قرق كليسه ولوله برغاس

« فلما استعاد الاتحاديون السلطة كان أول عمل قاموا به انتداب بعثة ألمانية جديدة لتنظيم الجيش العثماني . ورضي العاهل الالماني بايفاد ثلاثة وأربعين رجلا من ضباط جيشه الى الاستانة ، ولكنه اشترط أن تكون لهم مع تحمل المسؤلية السلطة الفعلية ، وان تكون القيادة العليا لزعيم البعثة ، وان يكون الضباط العثمانيون في الجيش خاضعين للضباط الالمانيين . ولما كان الخط البغدادي الذي يجتاز آسيا الصغرى من أدناها الى أقصاها ـ من خليج العجم الى البوسفور ـ وكل الخطوط الحديدية الاخرى فروعه ، هو الواسطة الوحيدة لتعبئة الجيش وحشده ، فان الجيش العثماني بقيادة الضباط الالمانيين سيكون بمنزلة احدى فرق الجيش الالماني ، فالثماني مئة مليون فرنك التي تطالبنا الحكومة العثمانية بها اليوم ستنفق في تسليح وتجهيز وتنظيم وتدريب جيش يكون في طليعة الجيوش المهاجمة لنا في أول حرب تخوض غمراتها . وتكون أموالنا نحن الفرنسويين قد تحولت الى حديد ورصاص يخترق صدور ابنائنا .

« ولقد بلغ من حرج الموقف ان الحكومة الروسية مع عدم رغبتها في انتهاج

الواحد خمسة قروش عثمانية

(مجلة الناشئة) مجلة شهرية تبحث في الناشئة وشؤونها يحررها طلاب المدرسة العلمية الوطنية في دمشق ، قيمة الاشتراك السنوي ١٥ قرشا ولتلاميذ المدرسة ١٠ قروش . ويضاف الى ذلك اجرة البريد للخارج . وصفحاتها ٣٢ بالقطع الصغير . فنحث على مطالعتها تنشيطا لمحرريها واطلاعا على سير العلم في نابتة الامة

(لسان العرب) مجلة تاريخية اجتماعية ادبية مصورة لمنشئها أحمد عزت الاعظمي صفحاتها ٥٦ مطبوعة على ورق جيد ، قيمة اشتراكها السنوي ثلاثة ريالات مجيدية في الممالك الاجنبية وللطلبة بنصف القيمة وعنوانها « الاستانة . شارع ابو السعود . صندوق البريد عدد ١٤٩ » وهذه المجلة مكانة في نفسي وارجو أن اوفق الى قراءة ما لدي من اعدادها فاعود الى تقريظها بالتفصيل الذي يليق بها

(مجلة كمال) مجلة ادبية وكاهية شهرية (سنتها عشرة أشهر) مطبوعة على ورق لطيف طبعا لطيفا صفحاتها ٩٦ بقطع المنار . يصدرها في بيروت كمال افندي عباس . قيمة اشتراكها في البلاد العثمانية ريالان مجيديان وفي مصر والبلاد الاجنبية عشرة فرنكات

(المرآة) جريدة اسبوعية مصورة سنتها خمسون عددا ، صفحاتها ٢٨ وهي في شكل مجلة من المجلات ذات الصفحات الكبيرة يصدرها في بيروت خليل افندي زينية المعروف لدي كتاب وقراء العربية ، قيمة اشتراكها السنوي في بيروت ٨٠ قرشا سوريا وفي لبنان وسائر الولايات العثمانية ٢٠ فرنكا وفي الخارج ٢٥ فرنكا

باب الاخبار والآراء

لا بابوية في الاسلام * ولا تباع شفاعة خير الانام

ذكرنا في الجزء الماضي ان بعض المنافقين زين للاتحاديين ان يستغلوا حجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم بوضع دفاتر فيها يكتب فيها اسماء الناس الذين يبذلون لهم الذهب الاحمر لتكتب اسماؤهم في تلك الدفاتر ، وبينا قباحة هذه البدعة المشتملة على عدة جرائم منكرة ، وبينا ان سلف الامة الصالح ما كانوا يتسامحون في إحداث بدعة من العادات المباحة في مسجد الرسول (ص) لئلا يدخل محدث ذلك والراضي به في عموم قوله (ص) « من أحدث في مسجدنا هذا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وهو الحديث الذي احتج به الامام مالك على ابن مهدي العالم الزاهد لما

بينا في المجلد الماضي وفيما قبله ماوصلنا اليه من الخطر القريب ، و بينا ان الأوربيين لايقبلون ان يأخذوا بلادنا الا بالفتح السلمي المعبر عنه بمناطق الاقتصاد والنفوذ ، وبينا طريقة النجاة ولكن لمن لايسمع ولا يبصر ، وها نحن أولاء نرى غير الرسميين من ساسة الافرنج يصرحون بذهاب ملكنا تصريحا ، والرسميين منهم يصرحون بالعمل ويعرضون بالقول تعريضا وحسبنا ان نصحنا وأدينا الأمانة ، وان عرضنا انفسنا للأذى والاهانة .

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

﴿ تاريخ حرب البلقان الأولى ﴾

« بين الدولة العلية و لاتحاد البلقاني »

عني يوسف افندي البستاني أحد محرري الجريدة اليوم ، بتتبع حوادث هذه الحرب من أول العهد بشبوب نارها ، الى ان خمدت ووضعت أوزارها ، وقرأ ماكتبه أشهر كتاب الافرنج في الجرائد الاوربية ، وما ألفوه من الكتب في ذلك . وما كانت تنشره الجرائد العربية لمراسليها في الآستانة وغيرها . واتخذ ذلك مادة لوضع تاريخ لهذه الحرب كتبه بمداد الروية والاعتدال ، فجاء تاريخا مفيدا جامعا لما فيه العبرة النافعة ، والموعظة الصادعة ، بعيدا عن لغو القول وهرائه . وبلغت صفحاته ٣٢٧ ماعدا صفحات المقدمة والصور والرسوم (وفيه ٥٠ رسما وخريطتان) وقد كتب في الحرب عدة مصنفات عربية لم تعد شيئا مذكورا مع هذا الكتاب فينبغي ان يكون معول قراءة العربية عليه دونها . وهو يطلب من مكتبة المنار بمصر وثمن النسخة منه خمسة عشر قرشا خلا أجرة البريد

﴿ بيلكي مجموعه سي ﴾

مجلة علمية شهرية تركية تصدر في الآستانة العلية صفحاتها ٩٦ قيمة اشتراكها في الممالك العثمانية عن سنة واحدة نصف ليرة عثمانية وفي روسية خمس روابل ونصف و١٥ فرنكا في سائر الممالك وهي مطبوعة طبعا جيدا على ورق نظيف وثمن العدد

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

﴿ جمعية خدام الكعبة في الهند ﴾

جاءنا من هذه الجمعية رسالة وجيزة ملخصها ان الدولة العثمانية اصبحت على خطر مما يبيت لها الاعداء، وان اكبر أماني المسلمين ان تكون غنية قوية، وان مؤسسي الجمعية احسوا بما سيصيب الحرمين الشريفين من المصائب الحاضرة فأسسوا هذه الجمعية لا يقصدون منها « الا مساعدة الدولة العثمانية في المحافظة على الحرمين الشريفين و بذل المال والنفس في سبيل حمايتهما من الغوائل » ومن ذلك تعليم العرب الذين يقطعون السبل على الحجاج . كل هذا حسن . ولكن جاء بعده ان الجمعية تريد إنشاء جريدة باللغتين العربية والاوردية . قال الكاتب « حتى تنشر افكارنا في جميع البلاد الاسلامية وننبه المسلمين الى ما يجب عليهم نحو دينهم ودولتهم الوحيدة » الخ وهذا هو الامر الذي لم نفهمه :

جمعية خدام الكعبة انشئت لخدمة الحرمين الشريفين فكيف يجوز لها صرف المال الذي تجمعه للحرمين الشريفين في انشاء جريدة سياسية . وما هي هذه الافكار التي يريد رئيس تحرير الجريدة ان يبثها في العالم الاسلامي ؟ هل هي افكاره ام افكار الذين يتبرعون بالمال لخدمة الحرمين الشريفين ؟ ومن اين وقف على افكارهم ؟ وهل دفعوا المال لاجل نشر الافكار السياسية أم لاجل خدمة الحرمين ؟

قد بينا رأينا من قبل في هذه الجمعية وفيما يجب ان تكون عليه فلا نعيده . ونقول الآن انه لا يجوز لها بحسب قانونها الذي نشرناه وبحسب ما اقترحناه من تعديله ان تنفق شيئاً من مالها على انشاء الجرائد ، فهذه الفكرة الجديدة قد ازالت ثقتنا بالجمعية الا ان يرجعوا عنها .

أما مساعدة الدولة العثمانية بالمال والنفس فهو عمل نشكره لكل من قام به في الهند وغيرها فمن شاء فليؤلف له جمعية مستقلة ولينشئ له ما شاء من الجرائد بما شاء من اللغات . واما خدمة الكعبة والحرمين الشريفين فيجب ان يكون بمعزل عن السياسة واهلها . وهو عمل تخدمه جميع الجرائد الاسلامية في جميع الاقطار وتنشر لجمعيته ما شاءت من غير أجرة فلا يحتاج الى جريدة خاصة .

ان مساعدة الدولة بالمال والنفس وبث فكرة الجامعة الاسلامية يوشك ان تقاومه حكومة تلك البلاد وتبطله وتصادر جريدته ، فاذا كان ملصقا بجمعية خدام الكعبة يوشك ان يكون شؤما عليها وسببا لزوالها . لاجل هذا نحب ان تكون بمعزل عن السياسة . وما دمنا نرى هذا الرأي فاننا ننصح لكل مسلم أن يقاوم هذه الفكرة الجديدة التي عزمت عليها جمعية خدام الكعبة، لتكون جمعية خيرية محضة ، والسلام على من اتبع الهدى ، ورجح الحق والمصلحة على الهوى .

صلى على ثوبه . وبنينا على ذلك اننا لا نظن ان جمعية الاتحاد والترقي تقبل هذا الاقتراح ، ولا ان الحكومة تنفذه

ثم بلغنا بعد ذلك ان موضوع المشروع ان تسمى تلك الدفاتر دفاتر المستشفعين. أي ان كتابة الاسماء في تلك الدفاتر طريق أو سبب لشفاعة النبي (ص) فهي اذا عبارة عن بيع شفاعة المصطفى (ص) لمن يريد ان يشتري ، وان أقل ثمن لها ليرة عثمانية!!!

الشفاعة لا تملك فتباع ، ومن يدعي ان كتابة اسم أحد ووضعه في الحجرة النبوية يكون سببا لشفاعة الرسول (ص) له فهو مفتر على الله ورسوله ، لأن هذا أمر لا يعلم الا بوحي من الله ، ولو أنزل الله تعالى فيه شيئا يدل عليه بالنص أو الفحوى لكان أجدر الناس بمعرفته والعمل به الصحابة (رض) ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .

لهذا ننصح الذين لا يعرفون أصول الدين وفروعه من رجال الدولة الاتحاديين أن يجتنبوا هذه البدعة ، فليست هذه المسألة كغيرها من الامور التي تجرءوا عليها. وليتذكروا ان مسألة بيع البابوات للغفران هي التي احدثت الانقلاب الديني العظيم الذي آل الى سلب السلطة السياسية من البابوات ، بعد حروب شابت من هولها الولدان . على ان بيع الغفران له وجه ما في دين النصارى اذ يحتجون عليه بقول اناجيلهم ان ما يحلونه او يعقدونه في الارض يكون كذلك في السماء . وبيع الشفاعة بدعة في الاسلام ليس لها وجه ولا شبهة . بل تدل الحجج الكثيرة على بطلانه وقرنه بالشرك بالله تعالى لانه قول على الله بغير علم ، وشرع لم يأذن به الله ، وزيادة في الدين الذي اكمله ، وداخل في عموم الاحداث والبدع التي نهى وحذر الشارع منها ولعن محدثها . والآيات والاحاديث في هذا كثيرة . تدعمها الآيات الناطقة بأن يوم القيامة لا يملك فيه احد لاحد شيئا لا شفاعة ولا غيرها «والامر يومئذ لله» وحده فلا يشفع احد عنده الا باذنه ولا يأذن الا لمن رضي له قولا (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) واجمع المسلمون على انه ليس لاحد ان يجزم بمستقبل احد في الآخرة الا بنص من الشارع . فليس لاحد من رجال الحكومة العثمانية ولا غيرهم أن يدعي ان النبي (ص) يشفع له او لاحد معين ، فمن لا يملك الشفاعة لنفسه ، كيف يبيعها لغيره ؟ فان كانوا في شك من نصحنا لدينا ولهم في هذه المسألة فليعرضوها على علماء الفاتح وعلماء السليمانية في عاصمتهم ويطلبوا منهم إبداء رأيهم فيها بالحرية التامة . وربما نعود الى بيان ذلك بالتفصيل ، ودلائل السنة والتنزيل ، «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»

مسألة تحرير المرأة أو تهتكها

ان الاستانة ومصر فرسا رهان في تهتك النساء وفي تجريء المتفرنجين على ذلك ، وقد نشر بعض الشبان في الجرائد المصرية دعوة الى جمعية تسعى لهلك ما بقي من آثار الحشمة التي يسمونها حجابا و إبطال ذلك بالفعل ، وعقدوا اجتماعا في ادارة (الجريدة) التي هي لسان حالهم واقنعوا بعض النساء بحضوره حاسرات فهجم بعض الشبان عليهن لمعانقتهن وتقبيلهن فنعهم آخرون . وقد اختلفت الروايات علينا في تفصيل ما كان في هذا الاجتماع فلا نجزم بشيء منه ولا فائدة في شرحه .

قام هؤلاء الشبان بهذه الدعوة في وقت جاءتنا فيه البرقيات الاوروبية ببيان ضرب من ضروب فضائح اختلاط النساء بالرجال ما كان يذاع مثله من قبل . وهو انه قد افتض عدة من العذاري اللواتي يتلقين العلوم العالية في مدارس المانية الجامعة . هذا وان الالمانيين اشد عناية من السكسونيين – دع اللاتينيين – في التربية الدينية والصيانة المنزلية . وان كثيرا من الدعاة الى تهتك النساء الذي يعبرون عنه بتحرير المرأة ، لا يبغون الا ان يمهدوا السبيل لانفسهم للتمتع بالحسان من ثيبات وابكار ، وقليل منهم يريد الظهور بلباس المصلح المدني وهو عاجز عن كل اصلاح فلا يرى اهون عليه من اللغط بالكلام في هذه المسألة ، لانه لا يتوقف على علم ولا عمل ، فما على اللاغط الا أن يبرز ما كتب غيره من قبل في قالب جديد ، ويزيد عليه من لغو الكلام ما يشاء ان يزيد .

يقول لي أهل الصيانة مالك لا ترد على مايكتب هؤلاء المفسدون ، فمنك نطلب، وإياك نرجو ، أن تتبع عوارهم، وتقلم أظفارهم ، وإني أرى ان الذين قاموا في وجوههم صائحين متهكمين قد كالوا لهم الصاع صاعين أو عدة آصع ، وليس عندهم شبهات قوية تحتاج الى علم واسع وحجج قيمية . بل لا يكاد يفهم مرادهم من كلامهم، ولا أراهم يبينون مايريدون . فليست المرأة مستعبدة فيكون طلبهم تحريرها طلب حق لها شرعي أو عقلي، وليست محجوبة في مصر حجابا مانعا لها من التصرف والرياضة ولا التبرج المذموم أو غير المذموم بل هي تفعل ماتشاء . الا ان القاعدة العامة في نساء الاغنياء والمتوسطين في المدن انهن لا يحضرن أندية الرجال ومجامعهم العامة ، وأما المجالس الخاصة والمحاكم ومحال التجارة فيحضرها كثير منهن . وانهن لايخلون بالرجال الاجانب في البيوت الا شذوذا . فالظاهر أن هؤلاء المتفرنجين يطلبون الآن إبطال هاتين العادتين دفعة واحدة . ولا يشك ذو عقل ان ذلك مما يستشري به الفساد ، وتتفاقم به فوضى الاعراض ، وليس له حسنة تمحو سيئة من سيئاته ، على ان دفع

﴿ مفاسد المتفرنجين ، في أمر الاجتماع والدين ﴾

يهاجم الاسلام والمسلمين جيش خارجي من دعاة النصرانية ، وجيش آخر داخلي من دعاة التقاليد الافرنجية . والثاني أنكى من الأول وأضر ، وأدهى وأمر ، لأن جل أفراده من المارقين الذين يعدهم المسلمون منهم وما هم منهم ، ولسبعون عدوا خارج الدار ، أهون من عدو واحد في الدار . فقد تمر السنون ودعاة النصرانية تبح أصواتهم من الصياح بالخطاب والجدل ولا يقع في شركهم في القطر الكبير الا واحد أو آحاد يلجئهم الفقر الى ان يكونوا من خرافهم ، لانهم يجدون من المرعى عندهم مالا يجدون عند غيرهم . وقد ورد في الحديث « كاد الفقر ان يكون كفرا » وقلما تجد واحدا من هؤلاء الخراف يأنس مرعى له خارج دمنتهم الا ويتفلت منها

وأما هؤلاء المنافقون المتفرنجون فانهم يغشون المسلمين بأنهم منهم ، ينفعهم ماينفعهم ويضرهم مايضرهم ، وانهم إنما يدعونهم الى الترقي عما هم عليه الى مدنية أعلى وحضارة أسمى ، وهي أن يكونوا مثل الافرنج في عزهم وثروتهم وزخرفهم ، ويحسبون لصغر عقولهم ، وقصر نظرهم ، ان مايفوقنا به الافرنج من الثروة وأسباب القوة ، قد جاءهم من رقص نسائهم مع رجالهم ، ومن اختلاطهن بهم في مجامعهم ومحافلهم ، ـ أو من عدم مبالاة كثير منهم بالدين ، وان كان الاكثرون يتعصبون له ويبذلون له الملايين . ـ أو من عاداتهم في طعامهم وشرابهم وأزيائهم ، وفسقهم وفجورهم ، واجتماعهم وافتراقهم ، فطفقوا يقلدونهم في شر ما عندهم ، ويدعون المسلمين الى تقليدهم في أمثال هذه الظواهر ، على ان منها ماهو من سيئات مدنيتهم وقبائحها التي ينكرها عليهم حكماؤهم وعقلاؤهم ، ومنها ماهو مناسب لطبيعة بلادهم وأحوالهم دوننا ، ومنها مالا نفع فيه ولا ضر لذاته ولكنه يضرنا من حيث هو تقليد لهم يضعف روابطنا القومية ، ومشخصاتنا الاجتماعية ، ويحقر أمتنا في أنفسنا ويعظم أممهم فيها ، فيكون تمهيدا لقبول سيادتهم علينا بغير امتعاض ، دع ما يتوقف عليه البقاء من الجهاد .

وقد قوي هجوم هؤلاء المتفرنجين في فاتحة هذا العام فكان أشد مما كان عليه في العام الماضي ، فكان شأنهم معنا كشأن دعاة النصرانية سواء . ومنبت هذه الفتن ومطلع رؤوس شياطينها الآستانة ومصر ، وقد اشتركت المدينتان في مسألة الدعوة الى تهتك النساء باسم تحرير المرأة ، وامتازت الآستانة بالغلو في عصبية الجنسية ، وقطع ما امر الله بهان يوصل من الوشائج الدينية ، بمثل كتاب (قوم جديد) و (ترجمة القرآن) بالتركية وغير ذلك .

لا نعني بأشد ما نحتاج الى أنواع مثله من مزايا الافرنج وفضائلهم لان في تحصيله مشقة، بل نعني بحا كانهم في مظاهر الزينة واللذة ، وطالما أهلكت اللذة والزينة الامم القوية ، فكيف يكون فعلها بالامم الضعيفة ؟ ان مسلمي الهند من أشد أهل الارض مبالغة في حجب النساء ولم يمنع ذلك الطبقة العصرية منهم ان تكون أرقى من مثلها في الآستانة ومصر . ولكن من كان له هوى في شيء لا يلتفت الى ما يخالف هواه، وان كان مؤيدا بأقوى الحجج ومبينا بأوضح الشواهد والامثال . فالمصريون والترك يريدون بالتفرنج ان يكونوا مثل الافرنج ، هو الذي يبعدهم عن ان يكونوا مثلهم ، بما يجعلهم عالة عليهم ، ويذهب بما بقي من استقلالهم السياسي ، لانه منوط باستقلالهم الاجتماعي والخلقي ،

ان السواد الاعظم من الشعب التركي والشعب المصري يمقت هذا التفرنج ، ولكن ليس للسواد الاعظم زعماء يستعملون قوته المعنوية في المحافظة على مقومات الامة ومشخصاتها مع اقتباس ما يقويها من الفنون والصناعات العصرية . وأما المتفرنجون فهم على قلتهم يمتزون بالافرنج أنفسهم ، وناهيك بنفوذهم و سلطانهم ، وكون جل رجال الحكومة من سبك معاملهم . ولا حظ لهؤلاء الافرنج الا جعل جميع ممالك الشرق مزارع ومناجم لهم، وأهلها فعلة لخدمتهم، وسوقا لانواع سلعهم . ولله درهم ! فان أرقى ما وصلوا اليه من العمل والعلم هو ما جعلهم يتصرفون في الامم والشعوب كما يتصرفون في الحيوان والنبات والجماد

هذا ما أحببت أذكر به الكارهين لهذا الغلو والاستعجال ، بالجمع بين النساء والرجال ، وهو لا يغير شيئا من هذه الاحوال ، وانما الذي يمكن ان يغيرها هو العمل الذي أشرنا اليه دون سواه .

العصبية الجديدة

ان روح التعليم الأوربي والسياسة الاوربية أحدث في أمم الشرق كلها نزعة جنسية. وقد كان المسلمون أبعد الناس عن هذه النزعة فلذلك كانوا ضعافا فيها، وكان العرب أبعدهم بعدا عنها وضعفا فيها ، ولذلك كتبت في مقالات (العرب والترك) التي نشرتها في الآستانة ثم في المنار إن تكون عصبية جنسية للعرب لا يمكن ان يكون الا من عمل الآستانة

ان في الترك من غلاة العصبية الجنسية من يعز نظيرهم في غيرهم، واتفق ان كان زعماء جمعية الاتحاد والترقي من هؤلاء الغلاة . ولما صار اليهم أمر الدولة ، اندفعوا اندفاعا شديدا في تقوية العصبية التركية، ومحاولة تتريك جميع الشعوب العثمانية ، فهيجوا بذلك عصبية هذه الشعوب حتى نجمت قرون الفتن، وسفكت الدولة دماء غزيرة في

المفاسد مقدم عقلا ونقلا على جلب المصالح ، واين هي في مسألتنا ·

إن نساءنا في حاجة الى علم وأدب تثقف بهما عقولهن ، وتصلح بهما عاداتهن ، ويقدرن بهما على تدبير المنازل وتربية الاولاد ، ويكن عونا للرجال على تجديد حياة الامة الاجتماعية بمقوماتها ومشخصاتها من الدين واللغة والعادات الحسنة · ولا يتم هذا الا بتأليف جمعية من أهل البصيرة والرأي تنشئ المدارس الداخلية للتعليم والتربية الدينية والمدنية بالعمل · وجمعية أخرى للنساء المتعلمات المهذبات غير المفتونات بالتفرنج للبحث في إصلاح البيوت الموقت. والمتفرنجون لا يطلبون هذا وانما يودون ان ينسلخ جميع نساء المدن مما بقي من عاداتهن ويقلدن نساء الافرنج في الاختلاط بالرجال غير المحارم في البيوت والجامع والأندية والملاعب والملاهي والمتنزهات ، وما يتبع ذلك من العادات في الزي والمعيشة ·

ولو فرضنا ان جميع ماينسلخن منه بهذه الصفة قبيح أو ضار من بعض الوجوه ، وجميع مايدخلن فيه حسن في ذاته ونافع لاهله ، لما صدنا ذلك عن إنكار هذا التحول والانقلاب ، لما يترتب على التغيرات القومية من المضار وضعف مقومات الامة ومشخصاتها ، وتراخي روابطها وانفصام عرى جامعتها · وناهيك به اذا كان تقليداً لأمة أخرى تراها أرقى منها . فكيف اذا كان مايطلب من نسائنا التحول اليه إما قبيح ضار لذاته أو ضار بامتنا دون الافرنج

ان الضرر في تفرنج نسائنا أنواع : ديني وسياسي واجتماعي واقتصادي ، ولا يمكن شرح هذا في عجالة كهذه . ولكن التفرنج فتنة ، ولكل جديد لذة ، ونحن نرى ان مايطلبه المتفرنجون لنسائهم من هتك الحجاب الرقيق الحائل دون تمام التمتع ، وهو ماذكرناه من بقايا العادات ـ قريب غير بعيد ، فقد بدأ به بعضهم ولا أحد يقاوم سريان التقليد فيه · بأن الذين يسافرون بنسائهم الى أوربة يلبس نساؤهم مايلبس نساء الافرنج ويأكلن مع الرجال ويجالسن معهم في الملاهي والملاعب · ومنهم الذين يأمرون نساءهم بلقاء أصدقائهم ومجالستهم ومؤاكلتهم ، يكون هذا بينهم بالمبادلة . وكل هذا لم يرض بعض الشبان لانه تدريج وهم يطلبون الطفرة . ومن تتبع عورات أولئك الهاتكين لأحسن مابقي من عادات نسائهم لرأى وسمع من الفضائح مايستحيا من نشره وتدوينه . وانا ليحزننا ان نرى هذه العدوى قد سرت الى بعض البيوت الطاهرة أيضا

وجملة القول ان متفرنجي مصر والآستانة يستعجلون بتغيير عادات النساء وأزيائهن والجمع بينهن وبين الرجال تقليدا للافرنج ، على انه ليس لهم ولا لنسائهم من علم الافرنج وتربيتهم وآدابهم وأخلاقهم الموروثة مايجعل المقلد التابع كامامه المقلد المتبوع ، فنحن

بلاد الارنؤوط وبلاد العرب ، وانتهت سياسة الشدة والقوة بحرب البلقان التي خذلت بها الدولة ، وورث البلقانيون جميع ولاياتها الاوربية الا (ادرنه) فبقيت لها ، وبلاد الارنؤوط فانها استقلت بنفسها . فاضطر الاتحاديون الى سياسة المداراة وتعزيز الجنسية التركية في نفسها بالمدارس ونشر الكتب والرسائل والصحف ، مع ترك سائر الشعوب العثمانية تخبط بجهلها اذا لم ترض الاصطباغ بالجنسية التركية في مدارس الدولة الرسمية ، والمدارس الاهلية التركية ، التي يجمعون لها الاعانات بنفوذ الدولة والخلافة من العثمانيين ومن مسلمي الممالك الاجنبية

يرى هؤلاء العاملون انه ليس في طريقهم عقبة تحول دون بلوغ المقصد بالسرعة التي يبغون من وراء هذا العمل الا حاجة الترك الى اللغة العربية لاجل الدين . ويرون أن هذا الدين ولغته مما يعيق تكوين أمة تركية ودولة تركية محضة على الطراز الافرنجي الفرنسي ، فاجتهدوا في ازالة هذا المانع بمزيلين (أحدهما) ترجمة القرآن بالتركية ودعوة الترك الى الاستغناء عن القرآن العربي بما سموه القرآن التركي ، واذا استغنوا عن القرآن يستغنون بالاولى عن غيره من كتب الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم والفنون العربية (الثاني) نشر الكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية أعلى وأسمى في النفوس من رابطة الدين تمهيداً لنسخ الثانية بالاولى ، بمعونة الكتب الكثيرة التي تطعن في الاسلام ككتاب تاريخ الاسلام الذي ألفه أعداء الاسلام من الايطاليين وترجمه الدكتور عبد الله بك جودت بالتركية ، فكان له تأثير شديد عند طلبة المدارس العالية ولاسيما مدرستي الطب والحربية ، الذين لايكادون يعرفون من الاسلام شيئا

وقد نشروا في الآستانة كتابا تركيا اسمه (قوم جديد) كان أفصح معبر عن رأي هؤلاء المتفرنجين من الترك ، ومما جاء فيه الانكار الشديد على وضع اسماء الخلفاء الراشدين وسبطي الرسول (رضوان الله عليهم) في ألواح معلقة في قباب المساجد التركية مع ان أولئك الرجال من العرب ، فالكتاب ينكر عليهم ذلك ويقول للترك أليس عندكم من الخلفاء والرجال العظام من الترك من هم خير من اولئك العرب . انزعوا هذه الاسماء وضعوا مكانها اسماء عظام الترك مثل طلعت بك وفتحي بك وانور بك « صلوات الله عليهم » (؟؟) ويقول إن كل من يساعد رجال الدولة على الاعمال العسكرية يكون أفضل من الائمة المجتهدين ومن شيخ الاولياء العارفين الشيخ عبد القادر الكيلاني الخ وهذا قليل من كثير ، والامر لله العلي الكبير .

(تنبيه) : سقط في الآية لفظ « في » في ص ١٠٧ السطر السادس فليصلح

(الجزء الثالث)   ربيع الاول ١٣٣٢   (المجلد السابع عشر)

(قيمة الاشتراك)
عن سنة ٨٠ قرشا صاغا في مصر والسودان و ٤ ريالات في المملكة العثمانية و٢٣ فرنكا و٩٥ سنتيما في الخارج و ١٩ شلنا في الهند و٩ روابل في روسيا ويجب الدفع سلفا

المنار ١٣١٥

(تنبيه)
يجب أن يكون وصل الاشتراك مختوما بختم الادارة الخاص وموقعا عليه بتوقيع منشىء المجلة والمستلم

الاشتراك في المجلة يكون دائما من أول سنتها « المحرم » ومنتصفها « رجب »

(مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران)

(لمنشئها)
السيد محمد رشيد رضا

(مدير الادارة والمطبعة)
السيد صالح مخلص رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

(فهرس)

منتخب سلم ورمزك :

الدكتور شخاشيري

طبيب وجراح

عيادته بفم الخليج بمصر نمرة التلفون ١٣٤١

يقبل عيادة المرضى من الساعة الثالثة الى الساعة السادسة مساء من كل يوم من الاسبوع وفي يوم الاحد من الساعة ١١ صباحاً الى الساعة واحده بعد الظهر

زيت لطيف

المشهود له بانه يثبت الشعر تثبيتا عظيما بعد ان كان يتساقط و يمنع تقصيفه و يطوله بنسبة ينتج منها انه اذا استمر على استعماله مدة مناسبة يطول طولا محسوسا فضلا عن منعه (الاكلان) الذي يحصل بجلد الرأس أحيانا ؛ ومن فوائده انه يمنع تشقق الشعر و يقوي البصيلات و يزيل شيب الاحداث ؛ وانه الاختراع الوحيد في بابه

و يباع زيت لطيف في جميع مخازن الادويه والاجزخانات الشهيرة بالقطر المصري وفي مكتبة المنار بدار عبد العزيز بمصر ومع كل زجاجة وصف الاستعمال

و يطلب من صاحبه بمصر صندوق البوستة نمرة ١١٧٩ والتليفون نمرة ٣٩٧٤ أو من مخازن نجيب غناجه بمصر والاسكندرية والمنصورة

(الثمن المحدد ١٢ قرش صاغ)

اعلان

تعلن مطبعة المنار انها مستعدة لطبع الكتب والجرائد وجميع أشغال المحامين والجوابات والظروف وبطائق الزيارة « كارت فيزيت » والملاحق وسائر المطبوعات بالعربية والافرنجية مع الاتقان والنظافة واعتدال الاجرة . والمخابرة تكون بهذا العنوان (السيد صالح مخلص رضا الحسيني مدير مطبعة ومجلة المنار)

قبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ ربيع الانور ١٣٣٢ هـ ق ٥ الشتاء الثالث ١٢٩٢ هـ ش ٢٥ فبراير ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٣٨) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٠) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ

ذكر الرازي ان وجه الاتصال والتناسب بين هذه الآيات وما قبلها يرجع الى سياق الكلام على أهل الكتاب لأن ما بعده جاء على سبيل الاستطراد ، وقد جاء في ذلك السياق ان اليهود قد هموا ببسط أيديهم الى الرسول و بعض المؤمنين

والقربة . وروى ابن الانباري ان نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الوسيلة فقال الحاجة . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم اما سمعت عنترة وهو يقول:

ان الرجال لهم اليك وسيلة أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

ولم يرو ابن جرير هذا ، واستدل بالبيت على تفسير الوسيلة بالقربة . وارادة القربة من البيت أظهر من ارادة الحاجة. على انه لا ينافيه، كما لا ينافيه تفسيرها بالمحبة . فان طلب الحاجة من الله ومحبة الله مما يتقرب به اليه. وتفسير الوسيلة بما فسرناها به أعم، وهو المطابق للغة . قال في لسان العرب: الوسيلة في الاصل ما يتوصل به الى الشيء و يتقرب به اليه. وذلك بعد ان فسر الوسيلة بالمنزلة عند الملك و بالقربة . وقال: ووسل فلان الى الله وسيلة، اذا عمل عملا تقرب به اليه ، والواسل الراغب، قال لبيد:

أرى الناس لايدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي رأي الى الله واسل

ثم ذكر من معانيها الوصلة والقربى . وانما يؤخذ عن أهل اللغة أصل المعنى ويرجح به بعض التفسير المأثور على بعض . وللوسيلة معنى في الحديث غير معناها هنا

روى أحمد والبخاري وأصحاب السنن الاربعة من حديث جابر ان النبي (ص) قال « من قال حين يسمع النداء (أي الأذان) : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا (١) الذي وعدته: الا حلت له شفاعتي يوم القيامة » وروى احمد ومسلم وأصحاب السنن الا ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر انه سمع النبي (ص) يقول « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول، ثم صلوا عليّ ، فانه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لاتنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وتفسير النبي (ص) للوسيلة يؤيده قول نقلة اللغة ان من معانيها المنزلة عند الملك . فيظهر ان هذه الوسيلة الخاصة هي أعلى منازل الجنة . فمن دعا الله تعالى أن يجعلها للنبي (ص) كافأه النبي (ص) بالشفاعة وهي دعاء أيضا . والجزاء من جنس العمل . فالوسيلة في الحديث اسم لمنزلة في

---

(١) منصوب على الظرفية أي أقمه مقاما محمودا. وقيل ضمن ابعثه معنى اعطه. ولعل الحكمة في التنكير موافقة لفظ الآية . ورواه النسائي وابن حبان وغيرهما بالتعريف

بالسوء وقصد الاغتيال ، لما كانوا عليه من العتوّ على الانبياء وشدة الايذاء لهم ، وانهم كانوا هم والنصارى مغرورين بدينهم ، يزعمون انهم ابناء الله واحباؤه ، فأرشد الله المؤمنين الى الحق وأمرهم بأن يتقوه و يبتغوا اليه وحده الوسيلة بالعمل الصالح، ولا يكونوا كأهل الكتاب في افتتانهم وغرورهم . هذا معنى ما قاله . والوجه في التناسب عندي ان يبنى على اسلوب القرآن ، الذي امتاز به على سائر الكلام ، من حيث كونه مثاني للهداية ، والموعظة والعبرة ، لا تبلى جدته ، ولا تمل قراءته ، والركن الاول لهذا الاسلوب أن يكون الكلام في كل موضوع مختصرا مفيدا تتخلله اسماء الله وصفاته والتذكير بوحدانيته ، ووجوب تقواه والاخلاص له والتوجه اليه وحده ، و بالدار الآخرة والجزاء فيها على الاعمال . فبناء على هذا الاساوب قفى الله تعالى على قصة ابني آدم وما ناسبها من بيان حدود الذين يبغون على الناس و يفسدون في الارض، — بالامر بالتقوى أي اتقاء الحسد والبغي والفساد الذي هو سبب الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة — و با بتغاء الوسيلة اليه تعالى والجهاد في سبيله رجاء الفلاح والفوز بالسعادة — و بوعيد الكفار الذين لا يتقون الله ولا يتوسلون اليه بما يرضيه، فقال

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة ﴾ اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه ، وسخطه وعقابه أثر لازم لمخالفة سننه في الأنفس والآفاق ، ومخالفة دينه وشرعه الذي يعرج بالأرواح الى سماء الكمال . والوسيلة اليه هي ما يتوسل به اي ما يرجى ان يتوصل به الى مرضاته والقرب منه، واستحقاق المثوبة في دار كرامته . ولا يعرف ذلك على الوجه الصحيح الا بتعريفه تعالى، وقد تفضل علينا بهذا التعريف بوحيه الى رسوله (ص) قال الراغب : الوسيلة التوصل الى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة ، لتضمنها معنى الرغبة ... وحقيقة الوسيلة الى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة . اه وروي تفسير الوسيلة بالقربة عن حذيفة وصححه الحاكم عنه . ورواه ابن جرير عن عطاء ومجاهد والحسن وعبدالله ابن كثير . وروى هو وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية انه قال : تقربوا اليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وروى عن ابن زيد تفسيرها بالمحبة قال : أي تحببوا الى الله ، وقرأ (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة) وعن السدي انها المسألة

بهم . وقد حقق شيخ الاسلام احمد بن تيمية الموضوع بجميع فروعه . فكان ما كتبه في ذلك مصنفا حافلا سمي (التوسل والوسيلة) وقد طبعناه مرتين . ومما جاء فيه قوله . بعد بيان معنى الوسيلة في القرآن والحديث بنحو ما تقدم:

« وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الاقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الانبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح

« وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة * فاما المعنيان الاولان الصحيحان باتفاق العلماء فاحدهما هو أصل الايمان والاسلام وهو التوسل بالايمان به وبطاعته، والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم. فهذان جائزان باجماع المسلمين. ومن هذا قول عمر بن الخطاب : اللهم انا كنا اذا اجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . أي بدعائه وشفاعته* وقوله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) أي القربة اليه بطاعته: وطاعة رسوله طاعته، قال تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله) * فهذا التوسل الاول هو أصل الدين. وهذا لاينكره أحد من المسلمين * وأما التوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر، فانه توسل بدعائه لابذاته، ولهذا عدلوا عن التوسل به الى التوسل بعمه العباس، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسل به الى التوسل بالعباس، علم ان ما يفعل في حياته قد تعذر بموته، بخلاف التوسل الذي هو الايمان به والطاعة له فانه مشروع دائما

« فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (احدها) التوسل بطاعته فهذا فرض لايتم الايمان الا به (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته (والثالث) التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته. فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه لافي حياته ولا بعد مماته، لاعند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الادعية المشهورة بينهم * وانما ينقل شيء من ذلك في احاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عن من ليس قوله حجة، كما سنذكر ذلك ان شاء تعالى .

الجنة معينة ، وفي القرآن اسم لكل مايتوصل به الى مرضاة الله من علم وعمل

﴿ وجاهدوا في سبيله ﴾ أي جاهدوا أنفسكم بكفها عن الاهواء ، وحملها على التزام الحق في جميع الاحوال ، وجاهدوا أعداء الاسلام ، الذين يقاومون دعوته وهدايته للناس • فالجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب ، وسبيل الله هي طريق الحق والخير والفضيلة ، فكل جهد يحمله الانسان في الدفاع عن الحق والخير والفضيلة ، أو في تقريرها وحمل الناس عليها ، فهو جهاد في سبيل الله ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي اتقوا مايجب تركه ، وابتغوا مايجب فعله ، من أسباب مرضاة الله وقربه ، واحتملوا الجهد والمشقة في سبيله ، رجاء الفوز والفلاح ، والسعادة في المعاش والمعاد .

﴿ فصل في التوسل والوسيلة عند عامة المتأخرين ﴾

بينا معنى الوسيلة في الآية وما قاله رواة التفسير المأثور عن السلف فيها . ولم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أو عامتهم ان الوسيلة الى الله تعالى تبتغي بغير ما شرعه الله للناس من الايمان والعمل ومنه الدعاء . الا كلمة رويت عن الامام مالك لم تصح عنه بل صح عنه ماينافيها . وقد حدث في القرون الوسطى التوسل بأشخاص الانبياء والصالحين المتقين ، أي تسميتهم وسائل الى الله تعالى ، والاقسام على الله بهم ، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو في حال البعد عنها . وشاع هذا وكثر حتى صار كثير من الناس يدعون أصحاب القبور في حاجاتهم مع الله تعالى ، أو يدعونهم من دون الله تعالى . « والدعاء هو العبادة » كما قال النبي (ص) رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير . والله تعالى يقول (فلا تدعوا مع الله أحدا) ويقول (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) ويقول (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير) ولكن بعض المصنفين زعم أنهم يسمعون ، ويستجيبون للداعي . والناس يأخذون بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى لعموم الجهل ، ومن المشتغلين بالعلم من يتأول لهم بأن هذا من التوسل

« والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور . وهومذهب ابي حنيفة ، واحد القولين في مذهب الشافعي واحمد. وقدحكي اجماع الصحابة على ذلك وقيل هي مكروهة كراهة تنزيه -والاول اصح - حتى قال عبد الله ابن مسعود وعبد الله ابن عباس وعبدالله ابن عمر : لأن احلف بالله كاذبا احب الي من أن احلف بغيرالله صادقا : وذلك لأن الحلف بغيرالله شرك، والشرك أعظم من الكذب . وانما نعرف النزاع في الحلف بالانبياء، فعن أحمد في الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان (احداهما) لاينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعي (والثانية) ينعقد اليمين به ، واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه . وابن المنذر وافق هؤلاء. وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وعدى ابن عقيل هذا الحكم الى سائر الانبياء . وايجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وان كان نبيا قول ضعيف في الغاية، مخالف للاصول والنصوص، فالإقسام به على الله- والسؤال به بمعنى الاقسام - هو من هذا الجنس ،

« والذي قاله أبوحنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء - من انه لايجوز أن يسئل الله تعالى بمخلوق ، لابحق الانبياء ولاغير ذلك - يتضمن شيئين كما تقدم (أحدهما) الاقسام على الله سبحانه وتعالى به، وهذا منهي عنه عند جماهير العلماء كما تقدم، كما ينهى ان يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء * (والثاني) السؤال به ، فهذا يجوزه طائفة من الناس ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود في دعاء كثير من الناس . لكن ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله ضعيف ، بل موضوع .وليس عنه حديث ثابت قد يظن ان لهم فيه حجة الا حديث الاعمى(١) الذي علمه ان يقول : اسألك واتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة *

« وحديث الاعمى لاحجة لهم فيه فانه صريح في انه انما توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته، وهو طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء ، وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم ان يقول « اللهم شفعه فيّ » ولهذا رد الله عليه بصره

---

(١) قد اطال الشيخ الكلام على حديث الاعمى فبين طرقه وعللها وبين ان ما سلم سنده منها يدل على ان الاعمى توسل بدعاء النبي (ص) لا بشخصه

«وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه انه لا يجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا: لا يسئل بمخلوق ، ولا يقول أحد: أسألك بحق انبيائك . قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة . وقد ذكر هذا غير واحد من اصحاب ابي حنيفة * قال بشر بن الوليد : حدثنا ابو يوسف قال قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد ان يدعو الله الا به ، وأكره (١) ان يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك . وهو قول ابي يوسف قال ابو يوسف : بمعقد العز من عرشه ، هو الله فلا اكره هذا ، واكره ان يقول بحق فلان ، أو بحق انبيائك ورسلك ، و بحق البيت الحرام والمشعر الحرام. قال القدوري: المسئلة بحقه لا تجوز ، لانه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقا *

« وهذا الذي قاله ابو حنيفة واصحابه من ان الله لا يسئل بمخلوق له معنيان (احدهما) هو موافق لسائر الائمة الذي يمنعون ان يقسم احد بالمخلوق ، فانه اذا منع ان يقسم على مخلوق بمخلوق ، فلأن يمنع ان يقسم على الخالق بمخلوق اولى واحرى . وهذا بخلاف اقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى ، والشمس وضحاها ، والنازعات غرقا ، والصافات صفا . فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته و وحدانيته ما يحسن معه اقسامه ، بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من حلف بغير الله فقد اشرك » وقد صححه الترمذي وغيره ، وفي لفظ « فقد كفر » وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه في الصحيحين انه قال «من كان حالفا فليحلف بالله » وقال « لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم » وفي الصحيحين عنه انه قال «من حلف باللات والعزى فليقل لا اله الا الله» وقد اتفق المسلمون على انه من حلف بالمخلوقات المحترمة أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين وإيمان السدق وسراويل الفتوة وغير ذلك لا ينعقد يمينه ولا كفارة في الحلف بذلك

---

(١) اذا اطلقت الكراهة عندهم يراد بها كراهة التحريم

يارب ياكريم» وكره أيضا ان يقول : ياحنان يامنان! فانه ليس بمأثور عنه . فاذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء اذ لم يكن مشروعا عنده فكيف يجوز عنده ان يسئل الله بمخلوق نبيا كان اوغيره ـ وهو يعلم ان الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق لا نبي ولا غيره بل قال عمر « اللهم انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » — وكذلك ثبت في الصحيح عن ابن عمر وأنس وغيرهما انهم كانوا اذا اجدبوا انما يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستسقائه، لم ينقل عن احد منهم انه كان في حياته صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى بمخلوق لا به ولا بغيره ، لا في الاستسقاء ولا غيره . وحديث الأعمى سنتكلم عليه ان شاء الله تعالى ، فلو كان السؤال به معروفا عند الصحابة لقالوا لعمر ان السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس، فلم نعدل عن الامر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل أفضل الخلق ، الى ان نتوسل ببعض أقاربه؟ وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الافضل، وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على اعلاهما، ونحن مضطرون غاية الاضطرار، في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب . والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين فتوسلوا بيزيد بن الاسود الجرشي كما توسل عمر بالعباس

« وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم انه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح، قالوا وإن كان من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أفضل اقتداء بعمر . ولم يقل أحد من أهل العلم انه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي

«وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره (١) بعد موتهم، أو نقل ذلك عن امام من أئمة المسلمين غير مالك كالشافعي وأحمد وغيرهما ، فقد كذب عليهم . ولكن بعض الجهال ينقل هذا و يستند الى حكاية مكذوبة عن

(١) في الاصل «أوغيره» ولعل الصواب أو غيره اي من الانبياء

لما دعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال به لم يكن حالهم كحاله

« ودعا امير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والانصار وقوله « اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » يدل على ان التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته ، اذ لو كان هذا مشروعا لم يعدل عمر والمهاجرون والانصار عن السؤال بالرسول الى السؤال بالعباس . وساغ النزاع في السؤال بالانبياء والصالحين دون الاقسام بهم لان بين السؤال والاقسام فرقا ، فان السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الاجابة ، والمقسم اعلا من هذا ، فانه طالب مؤكد طلبه بالقسم ، والمقسم لا يقسم الا على من يرى انه يبر قسمه . فابرار القسم خاص ببعض العباد . واما اجابة السائلين فعام ، فان الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وان كان كافرا « وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه الله بها احدى خصال ثلاث ، إما ان يعجل له دعوته : واما ان يدخر له من الخير مثلها ، وإما ان يصرف عنه من الشر مثلها » قالوا يارسول الله اذاً نكثر ، قال « الله اكثر » (١)

(ثم قال)

وهذا التوسل بالانبياء بمعنى السؤال بهم ـ وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم انه لا يجوز ـ ليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك فضلا ان يجعل هذا من مسائل السب ، فمن نقل عن مذهب مالك انه جوز التوسل به بمعنى الاقسام به أو السؤال به فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه ، فضلا عن ان يقول مالك ان هذا سب للرسول أو تنقص به ، بل المعروف عن مالك انه كره للداعي ان يقول : ياسيدي سيدي ! وقال : قل كما قالت الانبياء « يارب

---

(١) قد اطال الشيخ قدس الله روحه في بيان الفرق بين السؤال والقسم وذكرنا بعض كلامه في تفسير (واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) من جزء التفسير الرابع (ص ٣٣٤) ج ٤

يمكن أن نعلم هل كان مقبولا أم غير مقبول ؟ فان ذلك من أمر الآخرة الغيبي « ولامر يومئذ لله » وحده ، ومنه امر الشفاعة (قل لله الشفاعة جميعا . ـ من ذا الذي يشفع عنده لا باذنه ؟ ـ ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) فسنة الفطرة في الدنيا مضت بأن الانسان لا يشبع اذا أكل عنه والده أو استاذه أو أحد الصالحين ، ولا يشفى من مرضه إذا ترك الدواء وشربه غيره عنه ، ولا تؤثر في نفسه أو تظهر في أعماله أخلاق غيره ، فاذا كان النبي أو الولي الذي يتكل عليه جوادا سخيا شجاعا أمينا ، لايبذل هو المال بذلك السخاء ، ولا النفس بتلك الشجاعة ، ولا يؤدي الحقوق الى أهلها بتلك لامانة ، لان أعماله تصدر عن أخلاقه لاعن أخلاق الرسول أو الولي الذي يتكل عليه . فان كان من سنة الفطرة في الدنيا أن لا تعيش بأخلاق غيرك و بعلمه وعمله ـ وهي دار الكسب والتعاون . فكيف ينفعك إيمان غيرك وصلاحه (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) ؟؟

﴿ ان الذين كفروا لو ان لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب اليم ﴾ هذا كلام مستأنف يؤكد مضمون ماقبله من كون مدار الفوز والفلاح في الآخرة على تقوى الله والتوسل اليه بالايمان والعلم الصحيح ، وتزكية النفس بالعمل الصالح والجهاد في سبيله ، وهو شأن المؤمنين الصادقين . فهو يقول ان مدار النجاة والفلاح على ما في نفس الانسان لاعلى ما هو خارج عنه ، كما يتوهم الكفار في امر الفدية . فلو أن للذين كفروا جميع ما في الارض ومثله معه ، و بذلوا ذلك كله دفعة واحدة ليكون فداء لهم يفتدون به من العذاب الذي يصيبهم يوم القيامة لا يتقبله الله تعالى منهم ولا ينقذهم به من العذاب ، لان سنته الحكيمة قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة انما يكون من نفس الانسان لامن الاشياء التي تكون خارجها (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) ولهم عذاب شديد الألم قد استحقوه بكفرهم ، وما استتبعه من سيئات أعمالهم ، اتكالا منهم على الفدية والشفعاء . وهذا فرق جوهري واضح بين الاسلام وغيره من الاديان ، فالاسلام دين الفطرة ، وسنة الله تعالى فيها ان سعادة الانسان البدنية والنفسية في الدنيا والآخرة من نفسه لامن غيره ، فالنصارى يعتقدون ان خلاصهم

مالك، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة، ولكن من الناس من يحرف نقلها ، واصلها ضعيف كما سنبينه ان شاء الله تعالى » اه المراد منه ومن أراد ان يحيط بهذه المسألة علما تفصيليا فليقرأ كتاب (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) كله ·

وأما القول الجلي الجامع فهو ان الوسيلة ما تتقرب به الى الله تعالى، وترجو أن تصل به الى مرضاته، وهو ما شرعه لك لتزكية نفسك، اذ جعل مدار الفلاح على تزكيتها • والتوسل هو ابتغاء الوسيلة المأمور به هنا ، أي العمل بالمشروع لتزكية النفس ، وقد دل كتاب الله في جملته وتفصيله على ان مدار النجاة والفلاح على الايمان والعمل الصالح (وأن ليس للانسان الا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى • - يوم تجزى كل نفس بما تسعى • - هل تجزون الا ما كنتم تعملون) نعم دلت السنة على ان دعاء المؤمن لغيره قد ينفعه ، ولكن ثبت في الصحيح ان النبي (ص) دعا الله وسأله ان لا يجعل بأس أمته بينها فلم يعطه ذلك ، وثبت أيضا انه (ص) كان حريصا على ايمان عمه أبي طالب وان الله أنزل عليه في ذلك (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وثبت أيضا ان لكل نبي مرسل دعوة واحدة مستجابة قطعا ، فما عداها بين الرجاء والخوف ، ولذلك خبأ (ص) دعوته ليشفع بها يوم القيامة • فتعلم بأمثال هذه الاحاديث الصحيحة التي أشرنا اليها ، والآيات التي ذكرنا بعضها ، أن دعاء غيرك لك لا يطرد نفعه مهما كان الداعي صالحا ، فهل يكون شخص غيرك وسيلة وقربة لك الى الله وان لم يدع لك ؟ هذا شيء لا يدل عليه كتاب ولا سنة ، ولا هو بالذي يدل عليه العقل ، ان جاز ان يحكم العقل في قربات الشرع . فالعمدة في تقرب الانسان الى الله وابتغاء مرضاته وحسن جزائه هو ايمانه وعمله لنفسه . فاذا أنت لم تعمل لنفسك ما شرعه الله لك وجعله سبب فلاحك، ولم يدع لك غيرك بذلك، فكيف تكون قد ابتغيت الى الله الوسيلة ؟ وهل تسميتك بعض عباد الله المكرمين وسيلة أو طلبك منه بعد موته ان يشفع لك - أي يدعو لك - يعد امتثالا منك لأمر الله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) ؟ كلا ! الطلب من الميت غير مشروع ؟ واذا فرض انه مشروع ومسموع، فلا

الخارجي وهو الخوف من العقاب والنكال ، فقال عز من قائل :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ أي والسارق والسارقة مما يتلى عليكم حكمهما ، ويبين لكم حدهما ، كما بين لكم حد المفسدين في الارض مثلهما ، فاقطعوا أيديهما ، أو التقدير : وكل من السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، كما كما تقطعون أيدي المحارِبين اذا سلبا المال مثلهما والمراد قطع يد كل منهما ، أي اذا سرق الذكر تقطع يده ، واذا سرقت الانثى تقطع يدها ، وانما جمع اليد ولم يقل يديهما لان فصحاء العرب يستثقلون اضافة المثنى الى ضمير التثنية ، أي الجمع بين تثنيتين . ومثله قوله تعالى (إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما) والوصف هنا متضمن لمعنى الشرط فقرن خبره بالفاء على الاظهر . وقد صرح بأن هذا الحد على الرجال والنساء كما صرح بذلك في حد الزنا لان كلا من الذنبين يقع من كل منهما ، وأراد الله زجر كل منهما بتلاوة القرآن ، وان كانت الاحكام الشرعية مشتركة بينهما عند الاطلاق ، وتغليب وصف الذكورة وضمائرها في الكلام ، الا ما خص الشرع به الرجال ، كالامامة والقتال ، والمتبادر من إطلاق اليد انها الكف الى الرسغ ، ولهذا قال في آية الوضوء « وأيديكم الى المرافق » وانما تقع السرقة بالكف مباشرة ، والساعد والعضد يحملان الكف كما يحملهما معها البدن ، فلا يقال ان اليد لا تعمل الا بهما . ولهذا المعنى — وهو ايقاع العذاب على العضو المباشر للجريمة — قالوا ان اليمنى هي التي تقطع ، لان التناول يكون بها . الا ما شذ .

﴿ جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ هذا تعليل للحد ، اي اقطعوا ايديهما جزاء لهما بعملهما وكسبهما السيء ، ونكالا وعبرة لغيرهما . فالنكال مأخوذ من النكل وهو (بالكسر) قيد الدابة . ونكل عن الشيء عجز أو امتنع لمانع صرفه عنه . فالنكال هنا ما ينكل الناس ويمنعهم ان يسرقوا . ولعمر الحق ان قطع اليد الذي يفضح صاحبه طول حياته ويسمه بميسم الذل والعار هو أجدر العقوبات بمنع السرقة ، وتأمين الناس على أموالهم ، وكذا على أرواحهم ، لأن الارواح كثيرا ما تتبع الاموال ، اذا قاوم أهلها السراق عند العلم بهم ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فهو غالب على أمره ، حكيم في صنعه وفي شرعه ، فهو يضع الحدود والعقوبات بحسب الحكمة التي توافق المصلحة .

ونجاتهم وسعادتهم بكون المسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم ، وأكثرهم يضمون إلى المسيح الرسل والقديسين ، ويرون ان الله يحل ما يحلونه و يعقد مايعقدونه ، وانهم شفعاء لهم عنده . وأما المسلمون فيعتقدون ان العمدة في النجاة والفلاح تزكية النفس بالايمان والفضائل والاعمال الصالحة ، فبذلك تصلح نفوسهم وتكون أهلا لرضوان الله تعالى . وان من دسّى نفسه بالشرك والفسق ، والفساد في الارض ، لا يكون أهلا لمرضاة الله ودار كرامته ، فلا يقبل منه فداء ولا تنفعه شفاعة الشافعين

﴿ يريدون ان يخرجوا من النار هم وما بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ يريد الذين كفروا ان يخرجوا من النار دار العذاب والشقاء بعد دخولهم فيها ، وما هم بخارجين منها البتة ، كما يدل عليه تأكيد النفي بالباء . ثم أكد مضمون ذلك باثبات العذاب المقيم لهم ، والمقيم هو الثابت الذي لا يظعن . والآية استئناف بياني ، اذ من شأن من سمع الآية التي قبلها ان تستشرف نفسه للسؤال عن حال أولئك الكفار الذين لا يتقبل منهم فداء مهما جل وعظم ، فجاءت هذه الآية بالجواب.

(٤١) وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٢) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤٣) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

المحاربون المفسدون في الارض يأكلون أموال الناس بالباطل جهرة ، وينتزعونها منهم عنوة ، واللصوص يأكلونها كذلك ولكنهم يأخذونها خفية ، فلما بين الله تعالى عقاب أولئك ، وأمر بالتقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيل الله — وهي الاعمال التي يكمل بها الايمان ، وتتهذب بها النفوس حتى تنفر من الحرام — بين عقاب هؤلاء أيضا ، جمعا بين الوازع النفسي وهو الايمان والصلاح ، والوازع

ووردت أحاديث في ان الثمر المعلق والكثر (وهو بالتحريك جمار النخل) لا قطع فيها ، وأما الثمر بعد احرازه فكغيره من المال . وقيل لا قطع فيه . واشترط الجمهور في القطع ان يسرق الشيء من حرز مثله فان لم يكن محرزا محفوظا فلا قطع . وتفصيل ذلك في كتب الحديث وشروحها •

وتثبت السرقة بالاقرار و بالبينة ، وتسقط بالعفو قبل الرفع الى الامام • وكذا بعده عند بعض العلماء ، وهو مخالف للاحاديث الصريحة . وورد النهي عن اقامة الحد في الغزو . وتفصيل ذلك في محله . وأما التوبة فقد بين الله حكمها في قوله :

﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم ﴾ أي فمن تاب من السراق ورجع عن السرقة وغيرها من المعاصي رجوع ندم وعزم على الاستقامة ، من بعد ظلمه لنفسه بامتهانها وسفهها ، وللناس بالاعتدا على أموالهم ، وأصلح نفسه وزكاها بالصدقة ، المضادة للسرقة ، و بغير ذلك من أعمال البر ، فان الله تعالى يقبل توبته ويرجع اليه بالرضاء والاثابة ، ويغفر له ويرحمه ، فان ذلك من مقتضى اسمه الغفور واسمه الرحيم •

وهل يسقط الحد عن التائب ؟ قال الجمهور : لا يسقط عنه مطلقا . وقال بعض السلف : بل يسقط عنه واذا قيست السرقة على الحرابة والافساد فالقول بسقوط الحد ظاهر ، ان تاب قبل رفع أمره الى الحاكم ، ولكن لا يسقط حق المسروق منه ، بل لا تصح التوبة الا باعادة المال المسروق اليه بعينه ان بقي ، والا دفع قيمته ان قدر . ولا يظهر لنا وجه لما قاله بعض الفقهاء من عدم الجمع بين الحد وغرامة المال المسروق . فان الحد حق الله تعالى لمصلحة عباده عامة ، والمال حق من سرق منه خاصة .

﴿ ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وهو على كل شيء قدير ﴾ جعل الله تعالى هذه الآية ذيلا لهذا السياق ، بين فيه ماينبغي ان يحضر القلوب بعد تلك العبر والاحكام ، فقال ماحاصل المراد منه : ألم تعلم أيها السامع لهذا الخطاب ان الله تعالى له ملك السموات والارض ، يدبر الامر فيهما بالحكمة والعدل والرحمة والفضل ، فكان من متعلقات اسمه العزيز الحكيم أن وضع هذا العقاب لكل من يسرق مايعد به سارقا من ذكر أو أنثى ، كما وضع

وقد اختلف العلماء في القدر الذي يوجب الحد من السرقة، فروي عن الحسن البصري وداود الظاهري انه يثبت القطع بالقليل والكثير عملا باطلاق الآية وحديث « لعن الله السارق ، يسرق البيضة فتقطع يده و يسرق الجمل فتقطع يده » رواه الشيخان من طريق الاعمش عن أبي هريرة ، وعليه الخوارج . وذهب جمهور السلف والخلف ـ ومنهم الخلفاء الاربعة ـ الى ان القطع لا يكون الا في سرقة ربع دينار (أي ربع مثقال من الذهب) أو ثلاثة دراهم من الفضة . والشافعي جعل ربع الدينار هو الاصل في تقويم الاشياء المسروقة لانه الاصل في جواهر الارض كلها ، وروي عن مالك ان كلا من الذهب والفضة أصل معتبر في نفسه . وفي رواية أخرى ـ قيل انها المشهورة عنه ـ ان التقويم بدراهم الفضة لا بربع الدينار . وقال بعض العلماء : ان العروض تقوّم بما كان غالبا في نقود أهل البلد ، فيختلف باختلاف البلاد . والاصل في هذا المذهب وفي هذا الخلاف في التقدير حديث عائشة « كان رسول الله (ص) يقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدا » رواه احمد والشيخان وأصحاب السنن الا ابن ماجه وفي رواية مرفوعا « لا تقطع يد السارق الا في ربع دينار فصاعدا » رواه احمد ومسلم وابن ماجه . وفي رواية أخرى للنسائي مرفوعا « لا تقطع اليد فيما دون ثمن المجن » قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار . ويؤيده حديث ابن عمر في الصحيحين والسنن الثلاث « ان النبي (ص) قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم » وفي رواية قيمته ثلاثة دراهم . وأجابوا عن حديث أبي هريرة بأن الاعمش راويه فسر البيضة ببيضة الحديد التي تلبس للحرب وهي كالمجن (الترس) وقد يكون ثمنها أكثر من ثمنه . ومذهب الحنفية ان النصاب الموجب للقطع عشرة دراهم فأكثر ، ولا قطع في أقل منها . واحتجوا برواية عند البيهقي والطحاوي والنسائي عن ابن عباس وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في تقدير ثمن المجن بعشرة دراهم . ورجحوها على حديث الصحيحين والسنن بادخالها في عموم درء الحدود بالشبهات. ولكن في اسنادها محمد بن اسحق وقد عنعن ولا يحتج بحديثه معنعنا ، فكيف يعارض حديث الصحيحين بل الجماعة كلهم ؟ وهنالك مذاهب أخرى كثيرة في قدر النصاب لا نذكرها لضعف أدلتها بل بعضها لا يعرف له دليل

الله تعالى أن يعذب التائبين الصالحين ، والنبيين والصديقين ، ولو بتخليدهم في النار ، و يرحم المفسدين الظالمين ، ولو بتخليدهم في الجنة . ووجه الدلالة عندهم انه تعالى ناط التعذيب والرحمة بالمشيئة ، ورتبه على كونه مالك الملك ، والمالك يتصرف في ملكه كما يشاء . وما حسن لهم هذا القول واستنباط مثل هذا الدليل له الا توجه ذكائهم وفهمهم الى الرد على من نقلوا عنهم من المعتزلة انه يجب عليه تعالى ان يفعل ما هو الاصلح لعباده . فان كان قد قال هـذا القول بنصه أحد فهو مخطئ وقليل الأدب ، لأنه يوهم أن هنالك سلطانا فوق سلطان الله سبحانه يوجب عليه ، وان كان لا يريد ذلك . ولـكن الأشاعرة لا يستطيعون ان ينـكروا ولا أن يتأوّلوا ما ثبت في الكتاب والسنة من ان الله تعالى يوجب على نفسه ما يشاء ، فلا يكون ذلك نافيا لـكونه صاحب الملك والتدبير ، ولا اتقييد مشيئته بسلطة سواه . ولا هم ينكرون ان مشيئته لا تكون الا على حسب علمه وحكمته ، وانه لا يمكن ان تكون معطلة لصفة من صفاته . واذا لاوجه للقول بأن مقتضى الملك ان يكون كل عمل يعمله المالك حسنا من حيث انه المالك ، اذ الامر في الشرع والعقل والعرف ليس كذلك ، فالذي يملك عدة عبيد فيظلم المحسن منهم بالضرب والإهانة بغير ذنب منه ، ويحسن الى الفاسق المسيء المفسد في داره وملـكه ، يعد ظالما مذموما شرعا وعقلا ولغة وعرفا . واما كون كل ما يفعله الله تعالى فهو حق وحسن فليس سببه انه المالك وكون المالك يحسن منه كل تصرف في ملـكه من حيث انه المالك ، بل لأنه تعالى منزه عن الظلم والنقص ، متصف بالحكمة والعدل ، والرحمة والفضل ، فتقديسه وتنزيهه وكماله يتجلى في اسمائه الحسـنى كـلها لا في اسم الملك والمالك والمريد فحسب .

ذلك العقاب للمحاربين المفسدين ، ومن مقتضى اسمه الغفور الرحيم ان يغفر لمن تاب من هؤلاء وهؤلاء ويرحمه ، اذا صدق في التوبة وأصلح عمله ، فهو بمقتضى أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، يعذب من يشاء تعذيبه من الجناة تربية له ، وتأمينا لعباده من شره ، ويرحم من يشاء من التائبين والمصلحين برحمته وفضله ، ترغيبا لعباده في تزكية أنفسهم ، واصلاح ذات بينهم ، وهو على كل شيء من التعذيب والرحمة قدير ، لا يعجزه شيء في تدبير ملكه .

يجوز ان يكون الخطاب لكل من يسمع القرآن أو يقرؤه . ويجوز ان يكون موجها الى الرسول (ص) والاستفهام فيه للتقرير ، أي إنك تعلم هـذا فتذكره وذكر به . وجعله ابن جرير لأهل الكتاب الذين كانوا في المدينة وجوارها ومن على شاكلتهم، الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لان السياق الذي انتهى ببيان حد السرقة كان في محاجتهم ، ومنها إبطال دعواهم انهم أبناء الله وأحباؤه بأنهم بشر من جملة خلقه ، وانه هو رب العباد ومالكهم المتصرف في أمرهم بالعدل والحكمة ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء كما تقدم ، فكأن ابن جرير يرى أن ما ذكر من وضع الله الحدود والعقوبات في الدنيا ، وبيان ما أعده من الخزي والعذاب للعصاة في الآخرة ، ينتظم في سلك الدلائل على ابطال دعوى قولهم انهم أبناء الله وأحباؤه ، واثبات كونهم بشرا من جملة خلقه يعذب من شاء منهم بالشرع وبالفعل كما يعذب غيرهم ، كما يرحم من يشاء . كما تشهد بذلك شريعتهم ذات العقوبات القاسية ، وما وقع عليهم أفرادا وجميعا من عذاب الدنيا بالحرب والسبي والامراض .

وقد تقدم هنا ذكر العذاب على ذكر الرحمة خلافا لما تكرر في القرآن حتى في مثل هذا التركيب من تقديم الرحمة أو المغفرة على العذاب ، ومنه الآية التي رد الله فيها على أهل الكتاب زعمهم انهم أبناء الله وأحباؤه ، اذ قال (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وحكمة هذا التقديم هنا ترتيب الآية على ما قبلها من بيان عقاب السارق أولا ، وبيان توبته ثانيا . فهي لا تنافي كون الرحمة المطلقة سابقة ومقدمة على العذاب المطلق .

واستدل الرازي وأمثاله بالآية على مذهب الاشاعرة القائلين بأنه يحسن من

هو أساس الاسلام ، وأساس دين البهائية وثني مادي ، وهم يعبدون والد زعيمهم عباس افندي الملقب (بعبدالبهاء) وما هذا اللقب الاعنوان القول بألوهية البهاء . ولهم شريعة ملفقة من الأديان المختلفة ، وفلسفتها هي عين فلسفة سلفهم من فرق الباطنية ، الذين حاربوا الاسلام بالدسائس التي اخترعتها لهم جمعيات المجوس السرية ، لافساد أمر المسلمين وازالة ملكهم انتقاما للمجوسية التي أبطلها الاسلام . الا وان مرزا حسين الملقب بالبهاء هو وولده الداهية عباس افندي قد جعلا دينهما الجديد تنقيحا لما دعا إليه الأبله الثرثار مرزا محمد علي الذي اشتهر بلقب (الباب) وانما مهد السبيل لدعوته في بلاد الفرس بدعة الشيخية ، الذين هم اكبر المفسدين في الشيعة الامامية ، وسننشر في المنار شيئا من فلسفتهم الخيالية ، التي انتزعوها من أباطيل الباطنية ، وزفوها في معرض الاساليب الصوفية .

وجملة القول ان دين البهائية دين مخترع ، افتراه الباب المخدوع ، ونقحه بهادي الزمان الباقعة عباس افندي . وهو أضر على الاسلام من كل دين في الأرض ، لان أهله يسلكون في الدعوة اليه مسالك سلفهم الطالح في مخادعة عوام المسلمين وابهامهم أنهم يصلحون لهم دينهم ، واحتجاجهم بالشبهات التي يحرفون بها القرآن والاحاديث بالتأويلات البعيدة ، فهم أكبر فتنة على المسلمين في هذا العصر ولا سيما على الشيعة ، لان الغلو في التشيع سلم للباطنية ، ولهذا كان يقول بعض العلماء يقول : ائتني برافضي كبير اخرج لك منه باطنيا صغيرا ، وائتني باطني كبير اخرج لك زنديقا كبيرا

فمن عرف دين البهائية من المسلمين ومدحه واستحسنه وشهد بكونه حقا أو اصلاحا للاسلام ، وكونه هو أو زعيمه معصوما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كان بذلك مرتدا عن الاسلام ، وان زعم انه مسلم ، فهو زنديق منافق كسائر الباطنية اذا كانوا ضعفاء بين المسلمين فالبهائية كسلفهم من الباطنية يتوسلون بدعوى الاسلام بين المسلمين ليقبل كلامهم في دعوتهم الى باطلهم وتحريف معاني القرآن للاستدلال عليها ، وإبطال ما يفهمه المسلمون منها فاذا كان صاحب البيان قد قال مانقله عنه السائل معتقدا له فالامر ظاهر ، وان كان قد كتبه عن جهل بحقيقة القوم فكان الواجب عليه بعد ان نبهته جريدة عكاظ وغيرها ان يرجع الى الحق ويصرح ببطلان دين البهائية وتحذير المسلمين من خداع دعاته (ويسمونهم مبلغين) وأما ماذكره السائل عنه من الاعتذار عن تقديس دين وثني مادي وتقديس داعيته واحد مخترعيه ـ بان مدحه له كمدحه لفولتير ـ فهو غريب ، فان مدحه لفولتير لمن

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لإجابة أسئلة المشتركين خاصة، إذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ دعاة البهائية ومجلة البيان المصرية ﴾

(س ٣) من صاحب الامضاء في القاهرة

حضرة العالم الفاضل صاحب المنار الاغر

نشرت مجلة البيان التي تصدر في مصر مقالا عن البهائيين وزعيمهم عباس افندي جاء فيه ما يأتي : - « ذلكم هو مولانا عباس افندي الملقب بعبد البهاء بطل الاصلاح الديني وسيد المصلحين الدينيين، والمصدر الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « البهائية هي كمال حي » - « هي الكاثوليكية الصادقة » . وما دعوتها في الحقيقة الا دعوة اصلاح ورقي للاسلام » - ان أنصارها استخرجوا أسمى تعاليم القرآن فنقوها مما علق بها مما ليس من الدين الصحيح في شيء » - « ان نعيم الآخرة وهم وخيال »

هذا بعض ما جاء في تلك المجلة وما نشره صاحبها المسلم الأزهري عقب مقابلته لزعيم البهائيين في الاسكندرية

وقد رد على (البيان) الاستاذ صاحب (عكاظ) في عدة مقالات وتبعه كاتب في جريدة الشعب ثم تبعتهما جريدة الافكار وكلهم كان يطلب الى صاحب (البيان) تكذيب ما نشره في هذا الموضوع والرجوع الى الحق، ولكنه كان يقول لهم إني كتبت واكتب عن البهائيين وزعيمهم كما كتبنا عن فولتير وسبنسر ونيتشه، وكما كتب الأوربيون ويكتبون عن العظماء والفلاسفة والنابغين

فما رأي العالم الجليل صاحب المنار في ما نشره « البيان » في موضوع البهائيين وزعيمهم ؟ وما رأيه في رد عكاظ اولا والشعب والافكار ثانيا ؟ (ف - صحفي قديم)

(ج) بينا في المنار مرارا ان البهائية قد انتحلوا دينا جديدا في هذا العصر، وان دينهم أبعد عن الاسلام من دين اليهود . لأن أساس دين اليهود التوحيد الذي

الاسلامي اذا خالف هواه ورأيه بعض أحكامه ، فيتخذ ذلك وسيلة للطعن فيه . أما المسلم فانه يبحث عن الحقائق مع الادب فان عرضت له شبهة على حكم إسلامي ثابت يزداد بحثا ليزداد علما ، ولكنه ينسب القصور الى نفسه لا الى دينه ، ويجعل هذا قاعدة للبحث ، الى ان يتبين له الحق .

* *

﴿ اسئلة من صاحب الامضاء في (العطف) من ٥ ـ ١١ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الاستاذ الأوحد منشيء المنار المنير ، السيد محمد رشيد رضا ، شاد الله به منار الدين

السلام عليكم ورحمة الله . اما بعد فاني سائل فضيلتكم عن أمور أشكلت علي مؤملا اسعافي باجوبتها لما اني لا ارى لذلك ممن اعرف اهلا سواكم

(١) لماذا حمل الاستاذ الامام اخذ الكتب في القيامة بالايمان وبالشمائل من وراء الظهور على اخذها بنشاط وسرور أو بضد ذلك مع إمكان الحمل على الظاهر الذي تمتنع مخالفته بلا دليل ؟ واستبعاد تصوير وراء الظهر بما صوره به لا يوجب رفض الظاهر فلم لا يقال يأخذ الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره حقيقة ، ولا يزاد على ذلك ؟ ويجعل النشاط والسرور سبباً للأخذ باليمين وضد ذلك سبباً للاخذ بالشمال من وراء الظهر ؟

(٢) هل يحل التداوي بالخمر اذا ظن نفعها بخبر طبيب أخذاً من آية (ما جعل الله عليكم في الدين من حرج) ومن القاعدة المتفق عليها : الضرورات تبيح المحظورات . واذا جوزتم فما ترون في حديث « إنها داء وليست بدواء » أو كما ورد

(٣) هل الخمر نجسة وما دليل نجاستها ان قلتم بها ؟ فاني لم ار دليلا شافياً بعد شدة البحث

(٤) ما جواب مجوزي سماع الملاهي عن حديث تحريم سماع المعازف الذي في البخاري

(٥) ما درجة حديث النهي عن تعليم النساء الكتابة وهل له معارض ؟ وما رأيكم في هذا التعليم ؟ والحديث المشار اليه ذكره في فتح البيان عن البيهقي والحاكم وابن مردويه وسكت عليه ، فهل ذكر الحاكم له يفيد صحته

كان باطلا فهو تأييد للباطل بالباطل ، وان كان يراه حقا ويرى ان ما قاله في عباس افندي ودينه حق أيضا ، يكون قد ارتد عن الاسلام ودخل في دين البهائية . والا فان من قال حقا وقال باطلا ، لا يكون قوله الحق مرة عذرا له اذا قال الباطل بعده . والذين مدحوا مثل فولتير من كتاب الافرنج كانوا مثله مارقين من النصرانية ، فهل يرضى صاحب البيان ان يكون مدحه لعباس كمدحهم لفولتير ؟ وليس ما نقله السائل عن البيان قول مؤرخ يحكي شيئا وقع لا رأي له فيه ، حتى يقال « ان حاكي الكفر ليس بكافر » بل ذلك مدح لهذا الدين الجديد وتفضيل له على غيره يتضمن دعوة المسلمين اليه . فاذا لم يكن هذا مراده فليصرح كتابة ببراءته من البهائية والتحذير من كفرهم بالاسلام . على ان فيما نقله السائل عنه ما هو كفر في نفسه بالاجماع ، كانكار حقية نعيم الآخرة ، وتسميته وهما وخيالا ، بناء على ان هذا من مذهبهم. وجملة القول ان من شأن المسلم ان لا ينشر شيئا يعد كفرا في دينه ، وان لا ينقله عن غيره مقرا له ومستحسنا . فكيف ينوه بمدح دين جديد يراد به نسخ الاسلام وابطاله من الارض ويصفه بانه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه ؟ وقد قرأنا بعض ما نشر في عكاظ ردا على البيان فرأيناه مبنيا على اساس الصواب ولم نر ما كتب في جريدة الشعب لاننا لانكاد نقرأها بل قلما نراها – وكذا جريدة الافكار – والحق ظاهر في نفسه

* *

(البحث في تعدد الزوجات والطلاق والحجاب)

(س ٤) من صاحب الامضاء في مصر

فضيلة الاستاذ العالم العلامة منشئ المنار الأغر

بعد الاحترام نرجو من سيادتكم اجابتنا على السؤال الآتي في ناركم الأغر :

هل يعد البحث في تعدد الزوجات والطلاق والحجاب من الوجهة العمرانية وتبيان اضرارها في الناس من الوجهة الاقتصادية اهانة للدين الاسلامي

عبد الحميد حمدي بشبرا مصر

(ج) حاشا لله ان يعد البحث في هذه المسائل اهانة للدين الاسلامي مطلقا . بل كثيرا ما يكون البحث فيها كاشفا عن حكم الاسلام وفضائله ، ومبينا وجه كونه دين الفطرة الجامع بين مصالح الروح والجسد . ولكن غير المسلم قد يهين الدين

بها اذا مرت شمالا . فقول العرب اخذ فلان كذا بيمينه او بشماله ، قلما يريدون الا الكناية ، فهو من الكنايات المشهورة بينهم ، لأن ارادة الحقيقه قلما تكون لها فائدة . واما قول العلماء ان الاصل في الكلام الحقيقة ولا يصار الى المجاز أو الكناية الا بدليل وقرينة ، فلا يريدون به ان كل ما امكن أن يراد به الحقيقة يحمل عليها مطلقاً ، فان من الكلام ما يجزم سامعه عند سماعه انه مجاز أو كناية مع إمكان ارادة المعنى الحقيقي . ثم ان تحديد الحقيقة في كل مواد الكلم والتمييز بينها و بين المجاز والكناية ليس من السهولة بحيث ينال من طرف الثمام ، ولعسره انكر بعض النقاد المجاز من اصله وعد الجماهير كثيراً من المجازات حقائق ، وخلطت معاجم اللغة الحقيقة بالمجاز ولم يعن بالتزييل بينهما الا افراد من الجهابذة كالزمخشري في أساس البلاغة ، وليس هذا المقام بالذي يتسع لبيان ذلك

﴿ التداوي بالخمر ﴾

التداوي بالخمر لمن ظن نفعها شيء . والاضطرار الى شربها شيء آخر . فاما الاضطرار فانما يعرض لبعض الافراد في بعض الاحوال ، وهو يبيح المحرم من طعام وشراب بنص قوله تعالى (وقد بين لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه) و بنفي الحرج والعسر وغير ذلك من الادلة . وقد مثل الفقهاء له في شرب الخمر بمن غص بلقمة فكاد يختنق ولم يجد ما يسيغها به سوى الخمر . ومثله من دنق من البرد وكاد يهلك ولم يوجد ما يدفع به الهلاك برداً سوى جرعة أو كوب من خمر ، ومثله أو أولى منه من اصابته نوبة ألم في قلبه كادت تقضي عليه وقد علم أو اخبره الطبيب بانه لا يجد ما يدفع عنه الخطر سوى شرب مقدار معين من الخمر القوية كالنوع الحديث الافرنجي الذي يسمونه (كونياك) فاننا نسمع من الاطباء انه يتعين في بعض الاحيان لعلاج ما يعرض من مرض القلب ودفع الخطر وقد ثبت ذلك بالتجربة . وهذا النوع من العلاج لا يكاد يكون شرباً للخمر وانما يؤخذ منه نقط قليلة لا تسكر . واما التداوي المعتاد بالخمر لمن يظن نفعها ولو باخبار الطبيب كتقوية المعدة او الدم ونحو ذلك مما نسمعه من كثير من الناس فهذا هو الذي كان الناس يفعلونه قبل الاسلام ونهى عنه النبي (ص) ونص الحديث الذي اشار اليه السائل «انه ليس بدواء ولكنه داء» رواه احمد ومسلم وابو داود والترمذي . وسببه ان طارق بن سويد الجعفي سأل النبي عن الخمر وكان يصنعها فنهاه عنها ، فقال إنما اصنعها للدواء. فقاله ، وقوله

(٦) ما درجة حديث جابر في خلق النور المحمدي قبل الاشياء فقد انكر الشيخ عبد العزيز شاويش صحته مع ذكره في كتب جمة كشرح الهمزية لابن حجر لكن لم ار من صححه بعد شدة بحث في كثير من كتب السنة

(٧) لم شرطتم على المفتي ذكر دليل الحكم للعامي مع ان كثيراً من الادلة يصعب جداً تفهيمه اياها فالتكليف به حرج شديد ؟ واذا وسع العامي أن يثق برواية المفتي فلم لا يسعه أن يثق بانه اخذ فتواه من دليل صحيح ؟ فانا اذا نظرنا الى احتمال خطأ العالم في اخذ الحكم أو فتواه بما لا يعلم لزم أن ننظر الى احتمال كذبه في الرواية أو في تفهيم مرويه ، ولا اخالكم ترتابون في صعوبة تفهيم العامي بعض الادلة لعلمكم بان مأخذ الحكم قد يتركب من حديثين أو احاديث أو من سنة وقرآن، ويحتاج تقريره الى فطنة والمام بجملة علوم

هذه ياسيدي الاستاذ مسائل اشتدت حاجتنا الى معرفة الحق فيها جداً فلجأنا اليكم والامل تحقيق طلبنا ملء الفؤاد لا برحتم عضد الحق

خادم العلم الشريف
م . ز - بالعطف

﴿ اخذ الكتب بالايمان والشمائل ﴾

حمل الاستاذ الامام الآية في سورة الانشقاق على الكناية لانه الابلغ الذي يظهر به معنى الوعد والوعيد الذي وردت الآية في سياقه . والكناية لا تنافي الحقيقة ، فيجوز أن يكون المراد هو ما فسر به الآية مع كون الاخذ بالايمان وبالشمائل ممدودة الى ما وراء الظهر يقع بالفعل . ولكن ارادة الحقيقة وحدها خبر مجرد ليس فيه ما في الكناية من الموعظة وبيان حسن حال من أخذ كتابه بيمينه من قبل وجهه، وسوء حال من يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره. وحمل كلام الله على ابلغ الوجوه العربية واظهرها انطباقاً على مقاصد القرآن هو الاولى بل المتعين، وقد انزل الله القرآن هدى وموعظة وعبرة وذكرى كما هو مبين في عدة آيات. نعم لا يجوز ان يتكلف المفسر في كلام الله تعالى معاني لا يسيغها الاسلوب العربي البليغ للهروب من معنى متبادر لا يوافق ذوقه أو رأيه . وقد عهد في الاستعمال العربي البليغ التعبير باليمين وبالاخذ باليمين عن اليمن والنشاط والعناية ؛ وبالتعبير بالشمال عن ضد ذلك من الشؤم والكراهة . وسمت العرب اليد اليمين اليمنى، والشمال الشؤمى. وكانوا يتيمنون بالطير اذا مرت يميناً ويتشاءمون

المفتي : ما مذهب الاستاذ ؟ يعني كاتب هذا قيل له شافعي . فقال لي : ما المعتمد عند الشافعية في المسألة ؟ قلت المعتمد ان الخمر نجسة . قال انتهى الامر . قلت لا ، اننا نبحث في الدليل على نجاسة الخمر لا في نص المذهب . فان كان لديك دليل فاذكره لنا . فلم يات بشيء . ثم سكت الشيوخ وسكتنا .

﴿ سماع المعازف ﴾

قد شرحنا في الجزئين الأول والثاني من المجلد التاسع هذه المسألة فذكرنا ادلة مجوزي السماع وادلة حاظريه . وأقوى أدلة الحاظرين حديث البخاري الذي أشار اليه السائل . اذ لم يصح في الباب سواه . بل قال ابن حزم : لا يصح في الباب حديث أبدا وكل ما فيه فموضوع . وبينا أجوبة المجوزين عن هذا الحديث (فمنها) انه منقطع الاسناد فيما بين البخاري (ومنها) ان في اسناده صدقة ابن خالد وقد قال فيه يحيي بن معين انه ليس بشيء ، والامام احمد انه ليس بمستقيم (ومنها) انه مضطرب المتن والسند بما بيناه هنالك (ومنها) ان كلمة المعازف التي هي محل الاستدلال ليست عند أبي داود . (ومنها) ان لفظة يستحلون ليست نصا في التحريم فقد ذكر القاضي ابو بكر بن العربي لها معنيين أحدهما ان المعنى : يعتقدون ان ذلك حلال والثاني ان يكون مجازا عن الاسترسال والاكثار من ذلك {ومنها} ان لفظة المعازف مختلف في مدلولها والاختلاف يوجب الاحتمال المسقط للاستدلال {ومنها} ان المعازف المنصوص عليها فيه هي ما كانت مقترنة بشرب الخمر كما يستفاد من بعض روايات الحديث (ومنها) ان المراد بالحديث يستحلون مجموع ما ذكر فيه لا كل واحد منها . وحينئذ يستثنون المعازف بدليل كون الدف والغناء منهما جمعا بين الادلة . إذ ثبت في الاحاديث المتفق عليها سماع النبي (ص) واجازته لهما . واذا أراد السائل أن يقف على تفصيل هذه الوجوه والاجوبة عنها وملخص ما قاله المجوزون والمحرمون في المسألة فليرجع الى المجلد التاسع من المنار .

والذي ظهر لي من مجموع ما ورد في هذا الباب ومن كلام العلماء المختلفين في المسألة ان سماع الغناء وآلات اللهو ليست محرمة لذاتها مطلقا ، ولكن الاكثار منها مكروه ولو لم تبعث على معصية ، فاذا كانت مغرية بالفسق كما يقع كثيرا حرمت لسد الذريعة . ولما كثر اللهو والفسق من المفتونين بالمعازف وصارت أغانيهم كلها غرامية خلافا لما كان عليه الناس في القرون الاولى وصارت بذلك من دواعي السكر والعشق المؤدي للفسق – اكثر علماء الدين من ذمها والتنفير منها والجزم بتحريمها – كما حرموا

«ولكنه داء» هو الحق وعليه اجماع الاطباء ، فان المادة المسكرة من الخمر سم تتولد منه امراض كثيرة يموت بها في كل عام الوف كثيرة ، والسموم قد تدخل في تركيب الادوية ، ولكن الذين يشربون الخمر ولو بقصد التداوي بها لا يلبثون أن يؤثر في اعصابهم سمها ، فتصير مطلوبة عندهم لذاتها ،أي لا لمجرد التداوي بها ، فيتضررون بسمها ، فلا يغترن مسلم بأمر احد من الاطباء بالتداوي بها لمثل ما يصفونها له عادة والله الموفق

﴿ نجاسة الخمر ﴾

ذهب جمهور الفقهاء الى نجاسة الخمر . وروي عن ربيعة شيخ الامام مالك القول بطهارتها ، فاما نجاستها المعنوية فلا شك فيها ، واما النجاسة الحسية فلا تصدق على الخمر لغة لانها ليست قذرة والنجس ما كان شديد القذارة ، ولا قام عليها دليل من الكتاب ولا من السنة . وقد شرحنا ذلك في المجلد الرابع من المنار (ص ٥٠٠ و ٨٢١ و ٨٦٦) فليرجع اليه السائل ان شاء. وقد جمعتنا الايام بعد كتابة ما كتبناه في ذلك المجلد بجماعة من اكابر علماء الأزهر في قطار خاص من قطارات سكة الحديد كان يحملنا الى بلدة (ديروط) بدعوة قطب باشا قرشي (رحمه الله) للاحتفال بتأسيسه مسجداً ومدرسة فيها ، فدار الكلام بيننا في هذه المسألة ، فقال احد علماء المالكية انه يريد أن يكتب رسالة يثبت فيها نجاسة الخمر بالدليل فتكون رداً على المنار، قلت له اذا جئت بدليل صحيح يقبله المنار وينشره في الاقطار ، والا رد عليك ما تكتب، ويمكنك أن تذكر الآن ما عندك من الدليل ، قال «الاجماع » قلت لم ينقله احد بل نقلوا عن الامام ربيعة التصريح بطهارتها ، قال « آية المائدة» قلت : إن لفظ « رجس » محمول فيها على الخمر والميسر والانصاب والازلام ، ولم يقل احد من من المسلمين بنجاسة الميسر والانصاب والازلام ، فتعين ان يكون الرجس هو المستقبح عقلا وشرعاً لضرره ، والرجس يكون حسياً وهو ما يدرك باحد الحواس، ويكون معنوياً وهو ما يعرف بالعقل والشرع مجتمعين أو منفردين ، قال تعالى (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) وقال(وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) وقال (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) ولا يمكن ارادة النجاسة الحسية بشيء من ذلك . . . ولما لم يستطع الاستاذ المالكي أن يقيم دليلا ، سال احد الحاضرين مفتي الديار المصرية — وكان يسمع المناظرة —عن رأيه في المسألة . فقال

الوهاب متروك، وقد تابعه محمد بن ابراهيم الشامي عن شعيب بن اسحق ، وابراهيم رماه ابن حبان بالوضع وان حبان هو الذي روى حديثه هذا فى كتاب الضعفاء ، وقال الدارقطني فيه : كذاب . واخرج ابن حبان في الضعفاء أيضاً عن ابن عباس مرفوعا « لا تعلموا نساءكم الكتابة » ، فى سنده جعفر بن نصر وهو متهم بالكذب كما قال الذهبي . وهذه الروايات الواهية او الموضوعة معارضة بروايات صحيحة في مشروعية تعليم النساء الكتابة . منها حديث الشفاء التي علمت حفصة أم المؤمنين الكتابة، وقال لها النبي (ص) مرة مازحا « الا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة » رواه احمد وابو داود بسند رجاله رجال الصحيح ، الا ابراهيم بن مهدي البغدادي المصيصي وهو ثقة كما قال ابن القيم، ورواه النسائي والحاكم وصححه ، وغيرهم . وقد صرح كثير من العلماء أن حديث الشفاء يدل على جواز تعليم وتعلم النساء الكتابة، وفي الأدب المفرد للبخاري ان عائشة بنت طلحة كانت في حجر عائشة أم المؤمنين تكاتب الرجال . كانوا يكتبون اليها من الامصار ويهدونها لمكانها من أم المؤمنين فتأمرها أم المؤمنين بأن تجيبهم على كتبهم وتثيبهم على هداياهم وعلى هذا جرى المسلمون فكان فيهم كثير من الكاتبات العالمات بالحديث والأدب والفنون . وهن يدخلن في عموم خطاب الشرع في جميع احكامه الا ماخصص . ومن مقاصد الشرع اخراج الامة من الامية وتعليمها الكتاب والحكمة كما هو منصوص في كتاب الله تعالى

حديث جابر في اول الخلق

تجدون الكلام على هذا الحديث وما فى معناه من كون نبينا (ص) كان نبياً وآدم بين الماء والطين وغيره في ص ٨٦٠ - ٨٦٩ من مجلد المنار الثامن . ولا عبرة بكلام مثل الشيخ عبد العزيز جاويش في انكار حديث ولا في اثباته فانه ليس من علم الحديث في شيء ، وهو جريء على القول فى الدين بالهوى والرأي حتى انه انكر بعض احاديث الصحيحين بغير علم ، فهو ينكر مالا يوافق عقله ورأيه

ذكر المفتي الدليل

ليتكم ذكرتم في السؤال عبارتنا التي استنبطتم السؤال منها فاننا لا نتذكر مسألة الشرطية ولا نتذكرها ، وانما نذكر اننا كتبنا مرارا انه ينبغي للمعلم والمفتي في الدين أن يبين للناس نصوص الكتاب والسنة في المسائل ليعرفوا اصل دينهم، ومن اين أخذ الحكم الذي لقنوه أو أفتوا به . وهذا هو الواجب الذي أخذ على اهل الكتاب العهد أن يبينوه

ابداء المرأة لما ظهر من زينتها وكشف وجهها وكفيها خوف الفتنة ، حتى منعوا النساء الصلاة في المساجد . وقالوا بمثل ذلك في الامرد الجميل الصورة . . وحديث البخاري أي المسئول عنه اخبار بالغيب عن حال هؤلاء الفساق ، فلم يبعد عن الفهم من قال انه في تقبيح حال هؤلاء الفساق في جملة أفعالهم . فرواية البخاري « ليكونن من امتي قوم يستحلون الحر (١) والحرير والخمر والمعازف » ورواية بعض السنن « ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات » وفي لفظ « روح عليهم القيان وتغدو بالمعازف » فالحديث مروي بالمعنى ولذلك اختلفت ألفاظه . ولا شك ان ما يؤخذ من تعدد الفاظه يدل على استقباح النبي (ص) لمجموع فعل هؤلاء الفساق ، ومنه عزف المغنيات لهم على شربهم وفسقهم . فهو مثل حديث « صنفان من اهل النار لم ارهما بعد : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » رواه احمد ومسلم في صحيحه من حديث ابي هريرة . فاما الرجال الذين يضربون الناس بسياط كأذناب البقر فهم اعوان الحكام الذين ابتدعوا السياط التي تسمي الكرابيج وصاروا يعذبون الناس بها واما النساء الموصوفات بما ذكر فهن مشاهدات في زماننا . ولم يفهم المراد من وصفهن بما ذكر كثير من العلماء قبل وجودهن . وانت ترى من وصفهن انهن يضعن على رؤوسهن شيئاً مرتفعاً شبه سنام البخت من الابل . وهذا بحد ذاته مباح بالاجماع ، ولكنه مع سائر تلك النعوت يمثل حال طائفة من الفواسق الفواتن اللواتي يضللن كثيراً من الناس

﴿ تعليم النساء الكتابة ﴾

لم يصح في النهي عن تعليم النساء الكتابة شيء وليس كل ما يرويه الحاكم صحيحا بل صحح في مستدرك على الصحيحين أحاديث جزموا بان بعضها ضعيف وبعضها موضوع . ومنها هذا الحديث الذي يشير اليه السائل « لاتسكنوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة » رواه في المستدرك من طريق عبد الوهاب بن الضحاك عن عائشة ، وهو كذاب كما قال ابو حاتم ، متروك كما قال النسائي ، منكر الحديث كما قال الدارقطني وقال الحافظ بن حجر في الاطراف بعد ذكر تصحيح الحاكم له : بل عبد

(١) الحر بالكسر الفرج والمراد الزنا ، وفي لفظ الخز بمعجمتين . وهو نوع من الديباج وهذا من الاضطراب في متن الحديث

الواسعة ، فاذا هم استنكروا شيئا لا يذيعونه في جمهور قومهم ، ونتيجة هذا أن ما ينشره المنار لا تأثير له في عامة النصارى حتى يقال ان المجلات كالجرائد يجب ان يراعى فيها شعور جميع الملل التي تقيم في الوطن التي تصدر فيه او تنطق باللغة التي تكتب بها . فهو اذا من كتب الاسلام الدينية ، فلا وجه لمطالبتنا بأن نراعي شعورهم فيه ، ولا لدعوى ان ما ينشر مخالفا لعقائدهم او ردا عليها يوجب التفرقة والعداوة .

(٣) إن دعاة النصرانية هم المعتدون على المسلمين بالطعن في دينهم بما ينشرون من الكتب والرسائل والصحف ، وبما يعقدون من المجامع لدعوة المسلمين الى دينهم وفي مدارسهم ومستشفياتهم ، فصار من الواجب علينا شرعا أن ندافع عن ديننا ، وننفر عوامنا عن قبول دعوتهم . فالفرق بيننا وبينهم انهم مهاجمون ونحن مدافعون ، وانهم يكتبون مطاعنهم لينشروها في المسلمين ، كما يبثون مطاعنهم القولية فيهم ، ونحن لا ننشر مطاعننا بين النصارى ولا نشافههم بها ، ولا يكاد يطلع عليها الا عدد قليل من محبي الوقوف على الشؤون العامة . فمن ينتقد ما نكتبه بدعوى انه يوجب العداوة والتفرقة بين عامة الفريقين مخطىء ، وانما يكون مصيبا اذا قال ذلك فيما يكتبه اهل ملته ودينه ، لانهم ينشرونه بين المسلمين فيعرفونهم من النصارى ، ولا نغفل عن هذا او يتغافل عنه الا الغالي في التعصب .

(٤) قال بعض اخواننا إن الطاعنين في الاسلام من النصارى كلهم من الاجانب كالامريكانيين والانكليز لا من ابناء وطننا . فلا ينبغي ان نسيء الى ابناء وطننا بردنا عليهم . ونقول (اولا) ان هذا القول غير صحيح ، فكتاب (الضلالة) المسمى بضد اسمه تأليف رجل من متعصبي القبط وهو اقذر هذه الكتب وأعظمها أذى في الطعن في نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الحياة المجتهدين مؤلفه سوري ، بل اقول ان اكثر تلك الكتب والرسائل والصحف الطاعنة في الاسلام يكتبها أجراء المبشرين من الوطنيين او يترجمونها اذ لا يكاد يوجد في أولئك الاجانب من يحسن الكتابة العربية ، وانما ينشرها الاجانب لان لديهم أموالا كثيرة مرصدة لذلك من اهل بلادهم الذين يقول لنا ابناء وطننا انهم هم البرآء من التعصب الديني دون اهل الشرق !! ولان لهم من الامتيازات والنفوذ السياسي ما يحميهم من سلطة الحكومة . ونحن نبرئ جمهور الوطنيين من ذنب أولئك الاجراء ولا نعده مانعا من الاتفاق بيننا وبينهم (وثانيا) اذا فرضنا ان هذا العدوان من الاجانب خاصة ، فهل من العدل ان تطالبنا نصارى بلادنا بأن لا نرد عليهم ، ولا نحذر عوامنا ونحول بينهم وبين افسادهم لعقائدهم ، لان دفاعنا عن ديننا يجرح عواطفهم الدينية ؟؟ أليس منتهى التعصب والسعي للعداوة والتفرق ان تطالب ابن وطنك بان يترك الدفاع عن دينه ، وتعليم اهله ما يصونهم عن الارتداد عنه ، أو عن فساد العقيدة الذي قلما تنتج دعوة المبشرين

للناس ولا يكتموه ، فاذا تعسر أو تعذر على بعضهم فهم الآية أو الحديث بعد بيانه بقدر الاستطاعة خرج المفتي من تبعة الكتمان . واما المسائل التي لا نص فيها بعينها ويتعذر على السائل فهم مأخذها ، كبعض مسائل المواريث التي يدخلها العول مثلا ، فلا بأس ببيان الحكم فيها بدون ذكر مأخذه . واما تعويد الناس اخذ مسائل الدين بدون وصلها أصلها من الكتاب والسنة فهو قطع لحبل الله ورسوله بين المؤمنين ، وهو الذي فتح للباطنية وغيرهم من المضلين ، باب اضلال المسلمين . اذ صارت العامة تقبل كل ما يقال لها انه من الدين . — فهذا سبب ما رأيتموه وسميتموه اشتراطاً ، ولولا ضيق الوقت لراجعنا ما تشيرون اليه من مظانه واجبنا عنه بعينه ، والخطب سهل ان شاء الله تعالى .

باب الانتقاد على المنار

﴿ نقد عبارة في المنار ، والمناظرات بين دعاة النصرانية وعلماء الاسلام ﴾

ارسل الينا طاهر افندي التنير من بيروت نبذتين في الرد على دعاة النصرانية الذين فتح لهم الدستور باب الجرأة على توزيع رسائل الطعن في الاسلام في سورية حتى قاربوا ان يجهروا فيها كما يجهرون في مصر ، وقد رأينا في كل من النبذتين شذوذا في التعبير فحذفنا ونقحنا وتصرفنا في العبارة بحذف بعض المعاني الشعرية التي تؤثر تأثيرا رديئا بلا فائدة . وقد ظهر لنا بعد ذلك انه بقي في الكلام ما ينتقد على الكاتب ، وكذا على الناشر ، لانه يؤلم القارئ من النصارى ، اذ كاشفنا بعض اصدقائنا السوريين بما انتقدوه ، وقالوا ان مثل هذا لا يعهد من المنار ، فهو يرد على المبشرين من سنين طويلة ولم نتقد عليه كلمة واحدة تعد جارحة أو بعيدة عن الأدب ، ثم انه قد عرف بأنه داعية وفاق ومودة ، فلا ينبغي له ان ينشر لمن لا يراعون مشربه هذا ما ينافيه . فرأينا ان نكتب كلمات في هذا الموضوع تزيل اللبس ، وتكون هي القول الفصل ، وهي :

(١) اننا نحمد الله تعالى ان جعلنا من دعاة الوفاق والمودة ، ومن محبي الأدب والنزاهة ، وانه ليسوءنا ويحزننا ان نقع في سهو او غلط ينافي ذلك ويعارضه ، واذا عثرنا نسارع الى التوبة والندم ، ونتلافى ما يمكن تلافيه بما تحمله الطاقة ، وتناله الاستطاعة .

(٢) ان المنار لا يشترك فيه النصارى كما يشترك المسلمون في صحفهم الدينية — دع السياسية التي تسمى عامة — فلا يوجد في مشتركيه عشرة نفر من النصارى ، لأجل هذا لا يخطر في بالنا عند كتابة كل شيء او نشره ان نراعي فيه موقعه من نفوسهم ، وتأثيره في جمهورهم ، والادب مطلوب عندنا لذاته . وانما يطلع عليه عدد قليل من اهل العلم والادب كاصحاب الصحف التي يبادلها المنار ، وهؤلاء من الاحرار اصحاب الصدور

هذا الباب، واني حبا في النزاهة والادب، وكراهة للشعريات في المناظرة والجدل، عملا بقوله تعالى (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن) قد نفحتها ، فاذا كان قد بقي فيها كلمة شاذة ككلمة الثالوث الزناني في سياق قصة ولادة سليمان عليه السلام ، فانما ذلك من السهو الذي يظهر بما نبين من سببه ،وهو ان الكاتب جعل عنوان مقالته (الثالوث الزناني المقدس) وصدر الكلام في كل قصة من القصص الثلاث التي نقلها من التوراة بقوله (الاقنوم الاول من الثالوث الزناني المقدس) الخ وكان يختمها بمثل هذه الكلمة ، ويكررها في أثناء العبارة ؛ فرجما (شطبنا) كل هذه الكلمات لان فيها امتهانا لاصطلاحات محترمة ، وغرضنا من تحذير عوام المسلمين من الاستجابة للمبشرين لا يتوقف على ذلك ، ولا هو مما نرضاه آدابنا ، وجعلنا مكان كلمة الاقنوم كلمة الجد ، وحذفنا لفظ الثالوث من العناوين ومن تضاعيف الكلام ، واتفق اننا لم نقرأ تلك الاوراق في وقت واحد لكثرة الشواغل وضيق وقتنا عنها، ولذلك جعلنا في القصة الثالثة لفظ (التناهد) بدل (الجد) و بقي في آخرها كلمة « الثالوث الزناني » على انني اتذكر جيدا انني حذفت هذه العبارة التي كانت في العنوان الاول وتكررت في الكلام . فلا أدرى أكان ترميجها (شطبها) غير ظاهر فجمعت حروفها ،ام كنت قد نسيتها لانني قرأت تلك الورقة التي هي فيها وحدها . ولهذا ولت فيها التناهد الثالث بدل الجد الثالث . وقد ظهر بهذا الذي شرحنه ان هذه الكلمة قد بقيت في المقالة كالعضو الاثري . وان اللام فيها لام العهد الذكري. اي الثالوث الذي تقدم ذكره . وانني لما ذكرت لي ما صدفت حتى راجعت و رأيتها بعيني . وقد امتعضت امتعاضا شديدا ظهر علي وسئلت عن سببه . فان من خلقي وغريزتي أن اتألم مما يقع مني مخالفا لمشربي ورأيي، ولو سهوا او نسيانا . ولا أبالي بما ينتقده الناس اذا كنت اعتقد انه حق وصواب وغير خارج عن حدود الآداب . ومثل هذا الغلط والسهو يقع كثيرا وفي هذا الجزء من المنار غلط في آية من القرآن غفلنا عنها . لاجل هذا قلت لمن نبهني ولغيره : اني أحب ان أتلافى هذا الخطأ بما يرضي المتألمين، منه وادع لاهل الانصاف من النصارى اقتراح مايرونه و يرضونه من اعتذار او انتقاد لما كتب، او حذف الكراسة من المنار وطبع كراسة بدلها خالية من كل كلمة جارحة . وانما اقبل في هذا قول المعتدلين الرأى من التعصب كاسكندر بك عمون وسامي افندي الجريديني من فضلاء المحامين السوريين . على ان هذه الكتابة يصح ان تعد ترضية للمنصفين ودليلا على اننا لم ننشر تلك العبارة عمدا . واما المتعصبون فلا يرضيهم منا الا خروجنا من ديننا . فلا زالوا ساخطين وقد سعوا مع بعض المبشرين من قبل لاقناع الوكالة البريطانية بالغاء المنار ومنع اصداره ظنا منهم بان الجو يخلو لهم ولغيرهم من اعداء الاسلام فلا يجرأ احد على الرد عليهم .

(٧) ان سبب نشر هذه المقالة والمعنى الذي اردنا ان يفهمه المسلمون منها هو ان

غيره، وأن يرضى بأن يكذب قرآنه ويشتم رسوله، إكراماً لخاطرك، ومراعاة لعواطفك؟

(٥) ان القاعدة الصحيحة المعقولة للاتفاق هي قاعدة المنار الذهبية التي دعا اليها المختلفين في المذاهب والاجناس من المسلمين، والمختلفين في الاديان والاجناس من العثمانيين . وهي « نتعاون على ما نشترك فيه . ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه » وقد شرحناها غير مرة ولكن كثيرا من الناس لا يحبون الوفاق ، ومنهم اعوان المبشرين من الوطنيين ، وبعض الكتاب والصحافيين ، كالشيخ يوسف الخازن من نصارى السوريين . الذي وضع قاعدة للخلاف، ضد القاعدة التي وضعتها للوفاق ، وصرح بها في ملا . من أدباء نصارى السوريين كنت اكلمهم في وجوب السعي الى الوفاق والوحدة . فسخر من هذه الدعوة ، وقال : اذا كان الخلاف بين مسلم ونصراني فأنا مع النصراني على المسلم كيفما كان - أي في الحق والباطل، واذا كان بين كاثوليكي وغير كاثوليكي فأنا مع الكاثوليكي مطلقا ، واذا كان بين كاثوليكي ماروني وكاثوليكي غير ماروني فأنا مع الماروني مطلقا قال وكل الناس كذلك . فمثل هذا لا يعذر المسلمين في كلمة يخالفون فيها النصارى ولا بقولهم ولو في كتبهم وصحفهم الخاصة بهم انّا على الحق والطاعن في ديننا على الباطل. ولذلك اقام النكير على المنار مرة لانه ذكر اسم المبشرين في سياق الكلام على ما افسد بلادنا من سعي فساق الافرنج كمواخير البغاء وحانات الخمر وبيوت القمار . ونحن نرى المبشرين اشد إفسادا في بلادنا من غيرهم لان صاحب الحانة يحمل المسلم او يساعده على مخالفة الاسلام في امر واحد وهو السكر ، والمبشر يحمله على ترك دينه كله ، وزد على ذلك ان المبشرين هم الذين يوقدون نار العداوة بين المسلمين والنصارى ويفسدون المسلمين انفسهم بتشكيكهم في الدين الذي هو اساس الفضيلة والتقوى والوحدة والاتفاق . فمثل الشيخ يوسف الخازن من متعصبي النصارى السوريين ، وبعض اصحاب الجرائد من متعصبي القبط، اشد سعيا في التفريق بين المسلمين والنصارى من المبشرين الاجانب، لانهم يبحثون عن كلمة يقولها مسلم في الدفاع عن دينه فيجردونها عن سببها والحامل عليها من الاعذار ويزفونها الى قومهم في صورة مشوهة وإضافات باطلة . وما بلغ المكروه الا من نقل

(٤) ان مجالنا في الرد على النصارى اضيق من مجالهم لاننا نؤمن بنبيهم المسيح ونعظمه ونعظم حواريه ، ونعد الطعن فيه كفرا وردة عن الاسلام (لا نفرق بين احد من رسله) وهم يطعنون بلا قيد ولا حد . فغاية ما يمكن ان يكتبه المسلم هو النقل من كتبهم الدينية او كتب احرار الاوربيين بشرط اظهار البراءة من كل مالا يليق بكرامة المسيح اوغيره من انبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، والتصريح بأن نقل ما ذكر من باب (ناقل الكفر ليس بكافر) وانا لا احب لنفسي سلوك هذه الطريقة . وهي التي اضطر اليها بعض من كتب في المنار ، وكتابة التنير من

فصل (*)

فحينئذ يطلع منه على (المشهد الثاني عشر)

وهو مشهد الذل والانكسار ، والخضوع والافتقار للرب جل جلاله ، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة وافتقارا تاما الى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وانما تدرك بالحصول ، فيحصل فيه كسرة خاصة لا يشبهها شيء ، بحيث يرى نفسه كالاناء المرضوض تحت الارجل الذي لا شيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغب في مثله ، وانه لا يصلح للانتفاع الا بجبر جديد من صانعه وقيّمه ، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه اليه من الخير ، ويرى انه لا يستحق قليلا منه ولا كثيرا ، فأيّ خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه اقتضت ذكره به وسياقته اليه ، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها ولو ساوت طاعات الثقلين من أقل ما ينبغي لربه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فان الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله ، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب الى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم

وأحب القلوب الى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه لا يرفع رأسه اليه حياء وخجلا من الله . قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء . فهذا سجود القلب ، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . واذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ،

(*) تابع لما نشر في ص ١١٣ من المجلد السابع عشر

إيماننا بالمسيح والانبياء اصح من إيمان المبشرين، وتكريمنا لهم خير من تكريمهم، فهم قد جمعوا فيما قالوه في المسيح عليه السلام بين الضدين فأطروه حتى اتخذوه ربا وإلها، ونقلوا في نسبه لامه وأبيه الناموسي (لا الحقيقي) انه من نسل سليمان بن داود من سبط يهوذا وقد ثبت في العهد العتيق عندهم (لا عندنا) ان بعض اجداده في هذا النسب (الذي سرده متى ولوقا في انجيليهما) من اولاد الزنا . وثبت عن مقدسهم بولس أنه صار لعنة لاجلهم. ونحن المسلمين نقول انه عليه السلام اهل لكل كرامة وفضيلة، وانه من روح الله وآية منه، ولكن ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ونقول انه طاهر من نسب طاهر، فنحن ننقل ما نقلدا عن العهدين العتيق والجديد مما لا يسعهم إنكاره لاقامة الحجة عليهم، وإعلام لعامة اهل ديننا بانا لسنا في حاجة الى من يدعونا الى الايمان به عليه السلام، بل نحن أحق بأن ندعو هؤلاء الدعاة الى تبرئته من اللعنة ومن دس النسب، كما نبرئ سائر الانبياء عليهم السلام مما لا يليق بهم، ونحثو التراب في فم من يزعم اننا نقول كلمة فيهم تشعر بتنقصهم . قال الابوصيري رحمه الله في لاميته

وأبيك ما أعطى يهوذا اخاتنا ... ربا بجحمة ولا منديلا
لو روا بغير الحق ألسنة بنا ... قالوه في ليا وفي راحيلا
ودعوا سليمان النبي بكافر ... واستهونوا افكا عليه مقولا

﴿ ٨ - صفوة الكلام وفصل الخطاب ﴾

ان المسلمين مدافعون لا معتدون، وهذا الدفاع فرض ديني عليهم، والمنار الذي يرد عليهم يوزع على المسلمين أيضا ليحذرهم من الارتداد عن دينهم أو يحول دون شكهم فيه، والمشتركون فيه من غير المسلمين يعدون على اصابع اليد، فما يكتبون يثير سخط الرأي العام الاسلامي، ولذلك طفق المسلمون يؤلفون الجمعيات في مصر لمقاومتهم وما يكتبه المسلمون على كونه دفاعا لا يكاد يشعر العالم النصراني لانه يوزع على المسلمين دونهم، الا اذا بحث عنه بعض المتعصبين من اصحاب الصحف او غيرهم . والمعلول يدوم بدوام علته. فنحن لا نترك الرد عليهم ما داموا يدعوننا الى دينهم قولا وكتابة ويتعرضون في خطبهم وكتبهم وصحفهم لديننا، فان تركوا تركنا، وان استمروا استمررنا، ونلتزم الأدب في العبارات بقدر فهمنا واجتهادنا. فمن كان ساعيا في منع ذلك باخلاص وحب للوفاق فليبدأ باسكات المبشرين عن ذكر كتابنا ونبينا واصول ديننا وفروعه، ويبقى لهم مجال واسع في الدعوة الى دينهم بذكر محاسنه وما عندهم من الدلائل عليه، ومن لم يرضه منا الا ان نسكت لهم عن الطعن في ديننا والتنفير عنه والتحريف لنصوصه فلا زال ساخطا غاضبا حقدا الى ما شاء من لوازم تعصبه. ولعل سوء تأثير هؤلاء المبشرين سيضطر الحكومة والمحتلين الى وضع حد لهذا الامر إما بقانون أو بغير قانون، ولا نظن أن الانكليز يجبروننا على السكوت ويدعونهم يبغون كما يريدون

﴿ فصل ﴾

فاذا استبصر في هذا المشهد ، وتمكن من قلبه ، و باشره وذاق طعمه وحلاوته ، ترقى منه الى (المشد الثالث عشر) وهو الغاية التي شمر اليها السالكون ، وامها القاصدون ، ولحظ اليها العاملون

وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق الى لقائه والابتهاج به ، والفرح والسرور به، فتقرّ به عينه ، و يسكن اليه قلبه، وتطمئن اليه جوارحه ، و يستولي ذكره على لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية ، وارادات التقرب اليه والى مرضاته ، مكان ارادة معاصيه ومساخطه ، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات ، مكان حركاتها بالمعاصي ، قد امتلأ قلبه من محبته ، ولهج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته ، فان هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه .

ويحكى عن بعض العارفين قال : دخلت على الله من ابواب الطاعات كلها فما دخلت من باب الا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول ، حتى جئت باب الذل والافتقار فاذا هو اقرب باب اليه واوسعه ، ولا مزاحم فيه ولا معوق ، فما هو الا ان وضعت قدمي في عتبته فاذا هو قد اخذ بيدي وأدخلني عليه . وكان شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول : من اراد السعادة الابدية ، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين : لا طريق أقرب الى الله من العبودية ، ولا حجاب اغلظ من الدعوى ، ولا ينفع مع الاعجاب والكبر عمل واجتهاد ، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة ، يعني بعد فعل الفرائض .

والقصد ان هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله ، وترميه على طريق المحبة ، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق ، وان كانت طرق سائر الاعمال والطاعات تفتح للعبد ابوابا من المحبة ، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا وتفريطا وذنبا وخطيئة ، نوع آخر وفتح آخر

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس . هم في واد وهو في واد . وهي تسمى طريق الطير ، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة فيصبح وقد قطع الركب ،

ناظرا بقلبه الى ربه ووليه نظر الذليل الى العزيز الرحيم ، فلا يرى الا متملقا لربه خاضعا له ، ذليلا مستعطفا له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذي لاغنى له عنه ، ولا بد له منه ، فليس له هم غير استرضائه واستعطافه ، لانه لاحياة له ولا فلاح الا في قربه ورضاه عنه ، ومحبته له ، يقول : كيف أغضب من حياتي في رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويربيه أحسن التربية ، ويرقيه في درجات الكمال أتم ترقية ، وهو القيم بمصالحه كلها ، فبعثه أبوه في حاجة له فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكتفه وشده وثاقا ، ثم ذهب به الى بلاد الاعداء فسامه سوء العذاب ، وعامله بضد ما يكون أبوه يعامله به ، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه اليه الفينة بعد الفينة ، فيهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ، وتذكر ما كان عليه ، وكل ما كان فيه . فبينا هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ، ويريد نحره في آخر الامر ، اذ حانت منه التفاتة الى نحو ديار أبيه ، فرأى أباه منه قريبا ، فسعى اليه ، وألقى نفسه عليه بين يديه ، يستغيث يا أبتاه ياأبتاه ياأبتاه ! أنظر الى ولدك وما هو فيه ، ودموعه تستبق على خديه قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه في طلبه ، حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ممسك له . فهل تقول ان والده يسلمه مع هذه الحال الى عدوه ويخلي بينه وبينه ؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها ؟ اذ فر اليه ، وهرب من عدوه اليه ، وألقى نفسه طريحا ببابه ، يمرغ خده في ثرى أعتابه ، باكيا بين يديه يقول : يارب ! يارب ! ارحم من لاراحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك ، ولا مغيث له سواك ، مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرجيك ، لاملجأ له ولا منجا له منك الا اليك ، أنت معاذه ، وبك ملاذه

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لايجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

﴿ نموذج آخر من الكتاب ﴾

في بعض منازل السير الى الله تعالى

فما تقدم هو نظر الصوفية في المعصية، واختلاف مشاهد أصناف الناس فيها بين من يعتبر ويندم ويزداد بعدها صلاحا ، ومن يرى انه مجبور ومعذور بالقدر ، ومن يرى انه مؤد لحق الطبيعة ووظائف الاعضاء الخ ولذلك جاء كله في مباحث التوبة . واما هذا النموذج فهو من نظرهم في سير السالكين الى الله تعالى أي الى معرفته العليا وما لهم من المنازل في طريقهم

﴿ فصل ﴾

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام وهو نوعان : اعتصام بالله ، واعتصام بحبل الله . قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال (واعتصموا بالله هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير)والاعتصام افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحمية، والاعتصام الاحتماء ، ومنه سميت القلاع العواصم ، لمنعها وحمايتها . ومدار السعادة الدنيوية والاخروية على الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة الا لمن تمسك بهاتين العصمتين .

فاما الاعتصام بحبله فانه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به يعصم من الهلكة، فان السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج الى هداية الطريق والسلامة فيها ، فلا يصل الى مقصده الا بعد حصول هذين الأمرين له ، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وان يهديه الى الطريق ، والعدة والقوة والسلاح بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها ، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل ، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه ، ولهذا اختلف عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم الى هذا المعنى ، فقال ابن عباس : تمسكوا بدين الله . وقال ابن مسعود : هو الجماعة . وقال : عليكم بالجماعة فانها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة ، خير مما تحبون في الفرقة . وقال مجاهد وعطاء : بعهد الله . وقال قتادة والسدي وكثير

بينا هو يحدثك واذا به قد سبق الطرف وفات السعاة . فالله المستعان وهو خير الغافرين . وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له وفرحه بتوبة عبده ، فانه سبحانه يحب التوابين و يفرح بتوبتهم أعظم فرح واكمله ، فكلما طالع العبد منته سبحانه عليه قبل الذنب وفي حال مواقعته و بعده ، و بره به وحلمه عنه واحسانه اليه . هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق الى لقائه ، فان القلوب مجبولة على حب من احسن اليها ، واي احسان أعظم من احسان من يبارزه العبد بالمعاصي ، وهو يمده بنعمه و يعامله بألطافه ، و يسبل عليه ستره ، و يحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له ادنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم ، و يردهم عنه و يحول بينهم و بينه ، وهو في ذلك كله بعينه يراه و يطلع عليه ، فالسماء تستأذن ربها ان تحصبه ، والارض تستأذنه ان تخسف به ، والبحر يستأذنه ان يغرقه ، كما في مسند الإمام احمد عن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه ان يغرق ابن آدم ، والملائكة تستأذنه ان تعاجله وتهلكه (١) والرب تعالى يقول: دعوا عبدي فأنا أعلم به اذ أنشأته من الارض ، ان كان عبدكم فشأنكم به ، وان كان عبدي فمني الى عبدي ، وعزتي وجلالي إن أتاني ليلا قبلته ، وأن أتاني نهارا قبلته ، وان تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ، وان تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، وان مشى الي هرولت اليه ، وان استغفرني غفرت له ، وان استقالني أقلته ، وان تاب الي تبت عليه . من اعظم مني جودا وكرما وانا الجواد الكريم ؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم ، وانا أكلأهم في مضاجعهم ، وأحرسهم على فرشهم ، من اقبل الي تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن اراد مرادي ردت مايريد . أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، واهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا اقنطهم من رحمتي ، ان تابوا الي فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فانا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لاطهرهم من المعايب»

---

(١) لعل المراد ان الانسان عرضة للهلاك في البر والبحر بجهله وخطاياه ، لولا عناية الله به وتسخيره هذه المخلوقات له . والكلام عن لسان الحال ، قد يكون أفصح من لسان المقال

﴿ فصل ﴾

وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه ، والامتناع به ، والاحتماء به ، وسؤاله ان يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه ، فان ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد ، والله يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن عبده المؤمن اذا اعتصم به كل سبب يفضي الى العطب ، ويحميه منه ، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن ، وشر نفسه . ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها ، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه ، فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها ، ويدفع عنه قدَره بقدره ، وارادته بارادته ، ويعيذه به منه .

فصل

وأما صاحب المنازل فقال ﴿ الاعتصام بالله الترقي عن كل موهوم ﴾ الموهوم عنده ما سوى الله تعالى . والترقي عنه الصعود من شهود نفعه وضره ، وعطائه ومنعه وتأثيره ، الى الله تعالى . وهذه إشارة الى الفناء ، ومراده الصعود عن شهود ماسوى الله الى الله . والكمال في ذلك الصعود عن ارادة ماسوى الله الى ارادته . والاتحادي يفسره بالصعود عن وجود ماسواه الى وجوده ، بحيث لايرى لغيره وجودا البتة ، ويرى وجود كل موجود هو وجوده ، فلا وجود لغيره الا في الوهم الكاذب عنده .

قال ﴿ وهو على ثلاث درجات : اعتصام العامة بالخبر استسلاما وإذعانا بتصديق الوعد والوعيد ، وتعظيم الأمر والنهي ، وتأسيس المعاملة على اليقين والانصاف ﴾ يعني أن العامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله استسلاما من غير منازعة ، بل ايمانا واستسلاما ، وانقادوا الى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما ، والتصديق بالوعد والوعيد ، وأسسوا معاملتهم على اليقين ، لا على الشك والتردد (١) وسلوك طريقة الاحتياط كما قال القائل :

زعم المنجم والطبيب كلاهما   لاتبعث الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولي فالخسار عليكما

(١) وفي نسخة : لا على شك والترديد . ولعله وتردد

من أهل التفسير : هو القرآن . قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه » وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن « هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تختلف به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تشبع منه العلماء » وقال مقاتل : بامر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى . وفي الموطإ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن ابيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وان تناصحوا من ولاه الله امركم . ويسخط لكم قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » رواه مسلم في الصحيح

قال صاحب المنازل : « الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقبا لأمره » ويريد بمراقبة الامر القيام بالطاعة لاجل أن الله أمر بها وأحبها ، لا لمجرد العادة أو لعلة باعثة سوى امتثال الامر ، كما قال طلق بن حبيب في التقوى : هي العمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله . وهذا هو الايمان والاحتساب المشار اليه في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله « من صام رمضان إيمانا واحتسابا – ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا – غفر له » فالصيام والقيام هو الطاعة ، والايمان مراقبة الامر (١) واخلاص الباعث هو ان يكون الايمان الآمر (٢) لا شيء سواه . والاحتساب رجاء ثواب الله ، فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل والله أعلم

---

(١) ضبط في نسختنا الآمر بصيغة اسم الفاعل وفي نسخة أخرى الامر بصيغة المصدر وهي الموافقة لقول صاحب المنازل وللمعنى ، فاخترناها (٢) لم يوضع لهذه في نسختنا علامة المد ، وفي نسخة لآمر ، والصواب مااخترناه . أي ان هذه هي التي يجب ان تكون اسم فاعل معرف والاولى هي المصدر .

(الثاني) إسبال الخُلُق على الخلق بسطا • وهذا حقيقة التصوف فانه كما قال ابو بكر الكتاني :التصوف خُلُق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. فان حسن الخُلُق وتزكية النفس بمكارم الاخلاق ، يدل على سعة قلب صاحبه ، وكرم نفسه وسجيته . وفي هذا الوصف يكف الاذى ويحمل الاذى، ويوجد الراحة، ويدير خده الايسر لمن لطم الايمن ، ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه ، ويمشي ميلين مع من سخره ميلا (١) وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه واغراضها .

وأما رفض العلائق عزما ، فهو العزم التام على رفض العلائق وتركها في ظاهره وباطنه ، والاصل هو قطع علائق الباطن، فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر ، فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر ، ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء • قيل للامام أحمد : أيكون الرجل زاهدا ومعه الف دينار ؟ قال : نعم على شريطة ألاّ يفرح اذا زادت ولا يحزن اذا نقصت . ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال . وقيل لسفيان الثوري : أيكون ذو المال زاهدا ؟ قال: نعم إن كان اذا زيد في ماله شكر ، وان نقص شكر وصبر . وانما يحمد قطع العلائق الظاهرة في موضعين: حيث يخاف منها ضررا في دينه ، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة، والكمال من ذلك قطع العلائق التي تصير

---

(١) قوله : وفي هذا الوصف الخ يريد به تزكية النفس ، وهو غير حسن الخلق فان التزكية تهذيب فهي مبدأ ، وحسن الخلق غاية . وفي طور التزكية والتهذيب يحسن ماذكره من العمل بوصايا الانجيل ، كقوله : من لطمك على خدك الايمن فأدر له الايسر . الخ ودين المسيح كله تمهيد لدين محمد عليهما السلام ، بل هما دين واحد جاء القسم الاول منه تمهيدا للثاني ، كما اخبر المسيح اصحابه بأنه لا يستطيع ان يقول لهم كل شيء ، وبشرّهم بأنه سيأتي بعده البارقليط الذي يقول كل شيء من حقائق الدين. وهو محمد (ص) بدليل انه لم يجئ بعده نبي غيره ، وانه هو الذي بين كل شيء . وفصل بين السائرين الى الله تعالى بالتزكية والتهذيب وبين الواصلين اليه ، وبين فضيلتي العدل والاحسان وغير ذلك

هذه طريق أهل الريب والشك ، يقومون بالامر والنهي احتياطا ، وهذه الطريق لا تنجي من عذاب الله ولا يحصل لصاحبها السعادة ولا توصله الى المأمن .

وأما الانصاف الذي أسسوا معاملتهم عليه ، فهو الانصاف في معاملتهم لله ولخلقه وأما الانصاف في معاملة الله ، فأن يعطي العبودية حقها ، وأن لا ينازع ربه صفات الهيته التي لا تليق بالعبد ولا تنبغي له ، من العظمة والكبرياء والجبرية . ومن انصافه اربه ان لا يشكر سواه على نعمه وينساه ، ولا يستعين بها على معاصيه ، ولا يحمد على رزقه غيره ، ولا يعبد سواه ، كما في الاثر الإلهي «اني والجن والانس في نبإ عظيم : أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي» وفي أثر آخر «ابن آدم ما انصفتني ، خيري اليك نازل ، وشرك الي صاعد ، أتحبب اليك بالنعم ، وأنا عنك غني ، وتتبغض الي بالمعاصي وأنت فقير الي ، ولا يزال الملك الكريم يعرج الي منك بعمل قبيح » وفي أثر آخر « يا ابن آدم ! ما من يوم جديد ، الا يأتيك من عندي رزق جديد ، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح ، تأكل رزقي وتعصيني ، وتدعوني فاستجيب لك ، وتسألني فأعطيك ، وأنا أدعوك الى جنتي فتأبى ذلك ، وما هذا من الانصاف » وأما الانصاف في حق العبيد فأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به . ولعمر الله هذا الذي ذكر أنه اعتصام العامة هو اعتصام خاصة الخاصة (١) في الحقيقة ، ولكن الشيخ ممن رفع له علم الفناء فشمر اليه ، فلا تأخذه فيه لومة لائم ، ولا يرى مقاما أجل منه .

﴿ فصل ﴾

قال (واعتصام الخاصة بالانقطاع ، وهو صون الارادة قبضا ، واسبال الخُلُق عن الخلق بسطا ، ورفض العلائق عزما ، وهو التمسك بالعروة الوثقى) يريد انقطاع النفس عن اغراضها من هذه الوجوه الثلاثة ، فيصون إرادته ويقبضها عما سوى الله سبحانه ، وهذا شبيه بحال أبي يزيد فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له : ما تريد؟ فقال : أريد أن لا أريد

(١) وفي نسخة الخاصة

ما يكون الرب من عبده في جوف الليل الآخير » وفي الحديث أيضا « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وفي الحديث الصحيح لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر فقال « يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، انكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا ، ان الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » فعبر الشيخ عن طلب القرب منه ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقرعيون عابديه وأوليائه الا به ، بالاستحذاء . وحقيقته موافاة العبد الى حضرته وقدامه وبين يديه ، عكس حال من نبذه وراءه ظهريا ، واعرض عنه ونأى بجانبه ، بمنزلة من ولى المطاع ظهره ، ومال بشقه عنه ·

وهذا الامر لا يدرك معناه الا بوجوده وذوقه ، وأحسن ما يعبر عنه بالعبارة النبوية المحمدية ، وأقرب عبارات القوم انه التقريب برفع الوسائط التي بارتفاعها يحصل للعبد حقيقة التعظيم · فلذلك قال : الاستحذاء له تعظيما · ومن اراد فهم هذا كما ينبغي فعليه بفهم اسمه تعالى الباطن وفهم اسمه القريب ، مع امتلاء القلب بحبه ، ولهج اللسان بذكره · ومن هاهنا يؤخذ العبد الى الفناء الذي كان مشمرا اليه ، عاملا عليه ،

فان كان مشمرا الى الفناء المتوسط وهو الفناء عن شهود السوى ، لم يبق في قلبه شهود لغيره البتة ، بل تضمحل الرسوم وتفنى الإشارات ، ويفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل · وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء طوعا ورغبة لا كرها ، لأن هذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب ، وهو منتهى سفر الطالبين لمقام الفناء

وان كان هذا مشمرا للفناء العالي ، وهو الفنا ، عن أرادة السوى ، لم يبق في قلبه مراد يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني ، بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو مراد العبد · وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح . وهو الاتحاد في المراد لا في المريد ولا في الارادة · فتدبر هذا الفرقان في هذا الموضع الذي طالما زلت فيه اقدام السالكين ، وضلت فيه افهام الواجدين ·

وفي هذا الباب (١) حقيقة يفنى من لم يكن ارادة وإيثارا ومحبة وتعظيما وخوفا

(١) وفي نسخة « المقام »

كلاليب على الصراط تمنعه من العبور ، وهي كلاليب الشهوات والشبهات ، ولا يضره ما تعلق به بعدها .

﴿ فصل ﴾

قال (واعتصام خاصة الخاصة بالاتصال ، وهو شهود الحق تفريدا ، بعد الاستحذاء له تعظيما ،والاشتغال به قربا) لما كان ذلك الانقطاع، موصلا الى هذا الاتصال ، كان ذلك للمتوسطين ، وهذا عنده لأهل الوصول • ويعني بشهود الحق تفريدا ، أن يشهد الحق سبحانه وحده منفردا ولا شيء معه، وذلك لفناء الشاهد في الشهود ، والحوالة في ذلك عند القوم على الكشف . وقد تقدم ان هذا ليس بكمال ، وان الكمال ان يفني بمراده عن مراد نفسه . واما فناؤه بشهوده عن شهود ماسواه ، فدون هذا الفناء في الرتبة كما تقدم .

وأما قوله بعد الاستحذاء له تعظيما . فالشيخ قدس الله روحه لكثرة لهجه بالاستعارات عبر عن معنى لطيف عظيم بلفظه الاستحذاء التي هي استفعال من المحاذاة ، وهي المقابلة التي لا يبقى فيها جزء من المحاذي خارجا عما حاذاه . بل قد واجهه وقابله بكليته وجميع اجزائه . (١) ومراده بذلك القرب وارتفاع الوسائط المانعة منه ، ولا ريب ان العبد يقرب من ربه ، والرب يقرب من عبده ، فاما قرب العبد فكقوله تعالى (واسجد واقترب) وقوله في الاثر الالهي « من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا » وكقوله « وما تقرب الي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى احبه ، واذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ،ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي » وفي الحديث الصحيح « أقرب

(١) هذا التفسير للاستحذاء لم نجده في معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس وشرحه بل المعرف فيها ان معنى استحذى فلان فلانا ، طلب منه أن يلبسه حذاء · كاستطعمه واستكساه · واظن أن الاستخذاء في كلام الهروي بالخاء المعجمة وهو الخضوع والانكسار لله تعالى . وانما تكلف المصنف له هذا التفسير لأنه وجد نسخ المنازل تذكره الاستحذاء بالمهملة

وحقيقة. قال موسى (أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين) لما قال له قومه (أتتخذنا هزوا) أي المستهزئين (١) وقال يوسف الصديق (وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ اليهن وأكن من الجاهلين) أي من مرتكبي ما حرمت عليهم. وقال تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) قال قتادة: اجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كل ما عصي الله به فهو جهالة. وقال غيره: أجمع الصحابة ان كل من عصى الله فهو جاهل. وقال الشاعر

ألا لايجهلن احد علينا فنجهل فوق جهـل الجاهلينا

وسمي عدم مراعاة العلم جهلا، اما لانه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل، واما لجهله بسوء ماتجني عواقب فعله. فالفرار المذكور هو الفرار من الجهلين - من الجهل بالعلم الى تحصيله اعتقادا ومعرفة وبصيرة، ومن جهل العمل الى السعي النافع والعمل الصالح قصدا وسعيا.

قوله « ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما » أي يفر من اجابة داعي الكسل الى داعي العمل والتشمير، بالجد والاجتهاد. والجد هو هاهنا صدق العمل واخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون، وهو تحت السين وسوف وعسى ولعل. فهي أضر شيء على العبد. وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات. والفرق بين الجد والعزم ان العزم صدق الارادة واستجماعها، والجد صدق العمل وبذل الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد فقال (خذوا ما آتيناكم بقوة) وقال (وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة) وقال (يا يحيى خذ الـكتاب بقوة) أي بجد واجتهاد وعزم، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

وقوله « ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء » يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والاحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه، وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق باسباب مصالحه ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه، يهرب من ضيق صدره بذلك كله الى سعة فضاء الثقة

{١} تفسير للجاهلين

ورجاء وتوكلا ، ويبقى من لم يزل . وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة ، ويحصل (١) له الاستحذاء المذكور مقرونا بغاية الحب وغاية التعظيم . وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء في المحبة طوعا واختيارا لا كرها، بل ينجذب اليه انجذاب قلب المحب وروحه الذي قد ملأت المحبة قلبه ، بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها، الى محبوبه الذي هو اكمل محبوب واجله واحقه بالحب . وهذا الفناء اوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والاجلال والقرب ، ومحو ما سوى مراد المحبوب من القلب ، بحيث لم يبق في القلب الا المحبوب ومراده . وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله والله المستعان .

واما قوله: والاشتغال بقربا . أي يشغله قرب الحق عن كل ما سواه ، وهذا حقيقة القرب . ألا ترى ان القريب من السلطان جدا المقبل عليه المكلم له لا يشتغل بشيء سواه البتة ؟ فعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به . والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

ومن منازل اياك نعبد واياك نستعين (منزلة الفرار) قال الله تعالى (ففروا الى الله) وحقيقة الفرار الهرب من شيء الى شيء ، وهو نوعان : فرار السعداء وفرار الاشقياء . ففرار السعدا الفرار الى الله عز وجل ، وفرار الاشقياء الفرار منه لا اليه . واما الفرار منه اليه ففرار اوليائه قال ابن عباس في قوله تعالى (ففروا الى الله) فروا منه اليه ، واعملوا بطاعته . وقال سهل بن عبد الله : فروا مما سوى الله الى الله . وقال آخرون : اهربوا من عذاب (٢) الله الى ثوابه بالايمان والطاعة .

وقال صاحب المنازل (هو الهرب مما لم يكن الى من لم يزل ، وهو على ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ، ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما ، ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء) يريد بما لم يكن « الخلق » وبما لم يزل «الحق» وقوله: فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ـ الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا

(١) وفي نسخة « ويحمل » (٢) نسخة « عقاب »

منه ، لكن لا يطلب ما طلب شكا ، وانما طلبه طمأنينة .

فالمراتب ثلاث : علم يقين يحصل عن الخبر ، ثم يتحلى(١) حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر حتى يصير العلم به عين يقين ، ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين ، فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين ، فاذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف ، وبرّزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوها عيانا ، كان ذلك عين يقين ، كما قال تعالى (لترونّ الجحيم * ثم لترونّها عين اليقين) فاذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فذلك حق اليقين . وسنزيد ذلك ايضاحا ان شاء الله تعالى اذا انتهينا اليه .

واما قوله « ومن الرسوم الى الاصول » يريد بالرسوم ظواهر العلم والعمل ، وبالاصول حقائق الايمان ومعاملات القلوب واذواق الايمان وارداته ، فيفر من إحكام العلم والعمل الى خشوع السر للعرفان ، فان أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الاعمال وظواهرها ، ولا يعتدون الا بأرواحها وحقائقها ، وما يثبته لهم التعرف الإلهي وهو نصيبهم من الامر . والتعرف الإلهي لا يقتضي مفارقة الامر كما يظن قطاع الطريق وزنادقة الصوفية ، بل يستخرج منهم حقائق الامر واسرار العبودية وروح المعاملة ، فحظهم من الامر حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه تصريحا وإيماء وتنبيها واشارة . وحظ غيرهم منه حظ التالي له حفظا بلا فهم ولا معرفة لمراده ، وهؤلاء احوج شيء الى الامر لانهم لم يصلوا الى تلك التعرفات والحقائق الا به ، فالمحافظة عليه لهم علما ومعرفة وعملا وحالا ضرورية لاعوض لهم عنه البتة .

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق من المنتسبين الى طريقة القوم ، فانهم لما علموا أن حقائق هذه الاوامر هي المطلوبة ارواحها ، لا صورها واشباحها ورسومها ، قالوا : نجمع هممنا على مقاصدها وحقائقها ، ولا حاجة لنا الى رسومها وظواهرها ، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره . وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الاعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وارواحها ، فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك وهممهم اعلى ، وانهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر ، فتركب من تقصير هؤلاء

(١) لعلها تجلى بتائين ، وفي نسخة أخرى « تجلي » بتاء ونون

بالله تبارك وتعالى ، وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه به ، وتوقع المرجو من لطفه وبره . ومن أحسن كلام العامة قولهم : لاهم مع الله . قال الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) قال الربيع بن خيثم : يجعل له مخرجا من كل ماضاق على الناس . وقال أبو العالية : مخرجا من كل شدة . وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ومضايق الدنيا والآخرة . فان الله يجعل المتقي من كل ماضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا . وقال الحسن : مخرجا مما نهاه عنه ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته ـ يكفيه كل ما أهمه . والحسب الكافي « حسبنا الله » كافينا الله . وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء لصادق التوكل عليه ، فان الله لا يخيب أمله فيه ألبتة . فانه سبحانه لا يخيب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل . وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة ، فانه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الايمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به

﴿ فصل ﴾

قال (وفرار الخاصة من الخبر الى الشهود ، ومن الرسوم الى الاصول ، ومن الحظوظ الى التجريد) يعني انهم لا يرضون ان يكون ايمانهم عن مجرد خبر حتى يترقوا منه الى مشاهدة المخبر عنه ، فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر ، الى عين اليقين بالشهود ، كما طلب ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه إذ قال (رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أولم تؤمن؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي) فطلب ابراهيم ان يكون اليقين عيانا ، والمعلوم مشاهدا . وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله « نحن احق بالشك من ابراهيم » حيث قال « رب أرني كيف تحيي الموتى » وهو صلى الله عليه وسلم لم يشك ولا ابراهيم حاشاهما من ذلك . وانما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة . هذا احد الأقوال في الحديث . وفيه قول ثان انه على وجه النفي ، اي لم يشك ابراهيم حيث قال ما قال ، ولم نشك نحن وهذا القول صحيح أيضا . اي لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن احق به

وبالجملة فصاحب هذا التجريد لا يقنع من الله بامر يسكن اليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسى على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني برتبة شريفة وان عظمت عنده او عند الناس ، فلا يستغني الا بالله ، ولا يفتقر الا الى الله ، ولا يفرح الا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن الا على ما فاته من الله ، ولا يخاف الا من سقوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه ، فكله بالله ، وكله لله ، وكله مع الله ، وسيره دائما الى الله ، قد رفع له علم فشمر اليه ، وتجرد له مطلوبه فعمل عليه ، تناديه الحظوظ : الي ! وهو يقول : انما اريد من اذا حصل لي حصل لي كل شي ، واذا فاتني فاتني كل شي ، فهو مع الله مجرد عن خلقه ، ومع خلقه مجرد عن نفسه ، ومع الامر مجرد عن حظه ــ اعني الحظ المزاحم للامر ، واما الحظ المعين على الامر ، فانه لا يحطه تناوله عن مرتبته ، ولا يسقطه من عين ربه .

وهذا ايضا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ فظنوا ان ارادة الحظ نقص في الارادة ، والتحقيق فيه ان الحظ نوعان : حظ يزاحم الامر ، وحظ يوازر الامر فينفذه . الاول هو المذموم والثاني ممدوح . وتناوله من تمام العبودية . فهذا لون وهذا لون .

(للنموذج بقية)

(المنار) : أرأيتم ايها المبشرون الذين تدعوننا الى النصرانية هذه المعارف العالية في الايمان ، والعلم بالله وبمزايا الانسان ، وهذه الفضيلة والكمال في الاسلام ؟ ــ هذا النموذج نقطة من بحر كلام علمائنا في منازل السالكين العارفين . أرأيتم من ارتقى في الدين الى الذروة العليا أيمكن اقناعه بأن النزول عنها الى الدرجات التي هي دونها ، خير له من البقاء على ارتقائه وكماله فيها ؟ ايرضى من هذا حظه من الدين والايمان ان يشغل خياله ولسانه باسم يسوع ، وصورة يسوع ، وتثليث يسوع ، وفداء يسوع . الذي لا يعقل ؟ اما والله لو كان يسوع وتلاميذ يسوع ويوحنا الذي عمد يسوع ومسح رأسه ودعا له بالبركة ، ومعهم موسى واسرائيل وكل انبياء ابنائه احياء وجاءهم محمد (عليهم الصلاة والسلام) بهذا القرآن لما وسعهم الا اتباعه ، وقد كانوا كلهم على الحق والتوحيد الذي نسختموه بالتثليث والفداء فاربعوا على ظلعكم ، وادعوا الى دينكم البراهمة والبوذيين وامثالهم الذين كان لهم ثالوث كثالوثكم ، فأولئك لا يبعد ان ينتقلوا من ثالوث الى ثالوث . واما صاحب التوحيد الذي هو اكمل واعلى معارف البشر ، فلا يترك التوحيد الى ما هو دونه

وعدوان هؤلاء تعطيل جملة الامر - هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته ، وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته ، فظنوا انهم يصلون الى حقيقته ، من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا الا الى الكفر والزندقة ، وجحدوا ما علم بالضرورة مجيء الرسل (١) به . فهؤلاء كفار زنادقة منافقون ، وأولئك مقصرون غير كاملين . والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الامر متوجه الى قلوبهم قبل جوارحهم ، وان على القلب عبودية في الامر كما على الجوارح ، وان تعطيل عبودية القلب بمنزله تعطيل عبودية الجوارح وان كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده (٢) بعبوديته ، فهؤلاء خواص اهل الايمان ، واهل العلم والعرفان .

﴿ فصل ﴾

قوله « ومن الحظوظ الى التجريد » يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها ، فانه لا يعرفها الا المعتنون بمعرفة الله ومراده وحقه على عبده ، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما . ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون اليه منها ، يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم . وبالجملة فالحظ ما سوى مراد الله الديني منك كائنا ما كان ، وهو ما يبرح حظ محرم الى مكروه الى مباح الى مستحب غيره احب الى الله منه ، ولا يتميز هذا الا في مقام الرسوخ في العلم بالله وامره ، وبالنفس وصفاتها واحوالها . فهنالك يتبين له الحظوظ من الحقوق ، ويفر من الحظ الى التجريد . واكثر الناس لا يصلح لهم هذا لانهم انما يعبدون الله على الحظوظ . وعلى مرادهم منه ، واما تجريد عبادته على مراده من عبده :-

فتلك منزلة لم يعطها احد   سوى نبي وصديق من البشر
والزهد زهدك فيها ليس زهدك في   ماقد أبيح لنا في محكم السور
والصدق صدقك في تجريدها وكذا(م) الاخلاص تخليصها ان كنت ذا بصر
كذا توكل ارباب البصائر في   تجريد أعمالهم من ذلك الكدر
كذاك توبتهم منها فهم ابدا   في توبة او يصيروا داخل الحفر

(١) وفي نسخة الرسول (٢) يريد بالملك القلب وبجنوده الاعضاء

ثم ان الدكتور هرغرونج ليس يعرف اللغة العربية فقط بل انه قبل ذهابه الى مدينة الاسلام المقدسة قضى عدة سنين يدرس التاريخ الاسلامي ، وكانت معرفته هذه للاسلام وسيلة استطاع بها ان يحافظ على تنكره مدة ثمانية اشهر قضاها في مكة، وبلغ منه انه خدع الكلاب الشاردة التي تفرق المسلم عن غير المسلم لانها تعرفه بقوة الشم فتهاجمه وتفضح امره

وقد وضع الدكتور المذكور بعد اقامته في مكة فصلا فيها وفي تاريخها وحياتها العمومية الحاضرة يعتبر الكتابة الوحيدة التامة عن هذه المدينة المحمية

وليس اهتمام هذا الدكتور بالاسلام اهتمام طالب علم فقط، فقد قضى سبع عشرة سنة في الهند الشرقية الهولندية مستشارا لحكومة هولندا في المسائل المتعلقة بادارة سكان الهند الشرقية الوطنيين ، واستطاع بدرسه الاسلام درسا عميقا واسعا ان يضع لهولندا السياسة التي تجري عليها مستعمراتها الاسلامية التي تحتوي على نحو من خمسة وثلاثين مليونا من اتباع النبي محمد

ومن مضي سبع سنين عاد الدكتور الى هولندا ليكون استاذ اللغتين العربية والملاوية في جامعة (ليدن) فقبل هذه الوظيفة على شرط ان يبقى مستشارا عموميا للحكومة في المسائل الاسلامية

وزيادة على ذلك انه ساح في اكثر البلدان الاسلامية، وكان في خلال ربع قرن مضى يراقب الحركات النامية التي احدثت تغيير ديني وسياسي في العالم الاسلامي كله، ولذلك كانت صورته التي صور بها حالة الاسلام الحاضرة ، والطريقة التي جرى عليها في تتبع نشوءه في المستقبل، اصرين خارجين عن مألوف الذين يعتبرون ان الاسلام لا يزال بربريا في شكله الشرقي، بل انه يرى ان الحواجز بين الشرق والغرب تتهدم بالتدريج تهدما يؤدي الى امتزاجهما السريع في خلال سنين تأتي

وقد القى هذا الدكتور محاضرة بالامس في جامعة كولومبيا في الاسلام هذا ما قاله فيها : —

﴿ محاضرة الدكتور هرغرنج في الاسلام ﴾

ان المدنية الاسلامية كانت في خلال الف سنة مضت ترتفع الى الدرجة الحاضرة النهائية ، فمن مضي الف سنة اعتقد المسلمون ان احوالهم الدينية راضية عام الرضي، وكان المعتقد الديني عندهم مسألة مقررة ، وكان السواد الاعظم من المسلمين

الاسلام يقاوم نفوذ النصرانية (*)

الاسلام في المستقبل سيكون نظير الدين الاسرائيلي يطبق نفسه على حاجات العصر الحديث ولا يدع النصرانية تغلبه وتسلبه ابناءه

(مقدمة للمترجم)

ان نشوء الاسلام في المستقبل سيعيد تاريخ الدين اليهودي الحديث بدرجة مشابهة، فالمبشرون بالانجيل الذين لا يزالون يتوقعون انضمام كل الاديان الى النصرانية لا تحقق احلامهم فيما يتعلق بالاسلام، لان الدين الاسلامي سيظل دينا قويا نشيطا نظير الدين اليهودي، ويطبق نفسه نظير الدين اليهودي على حاجات العصر المتغيرة

هذا هو رأي الدكتور (كرستيان سنوك هرغرنج) الهولندي الذي قضى ربع قرن يدرس القضايا الاسلامية وشريعة الاسلام وفلسفته

ومما يقال عن هذا الاستاذ . انه اكثر من خيالي ونبي متغرض. فهو اعلم علماء عصره في الاسلام ـ لانه لا يعرف تاريخ الاسلام وشريعته وفلسفته معرفة دقيقة فقط ، ولكنه قضى ربع قرن يدرس الاسلام من وجه علاقته بالمؤسسات الدينية والسياسية الاخرى

وقد ارسلته جامعة ليدن في هولندا على سبيل المبادلة الى الولايات المتحدة للمرة الاولى ليلقي في امهات كلياتها العالية اربع محاضرات في نتائج درسه الاسلام، وقد فصل في هذه المحاضرات زياراته لمكة (مدينة الاسلام المقدسة) وانه قضى ثمانية اشهر ضمن تلك المدينة المسورة وكان فيها عضوا من بطانة رجل مسلم، فاتم هناك الفرائض الدينية التي كان يقوم بها يوميا مئات الف من حجاج مكة، وتعهد الجوامع هناك، وسمع المحاضرات التي لم يكن يسمعها في الزمن الماضي غير المسلمين . وكم من قصة رويت عن نصارى اضلوا الطريق ويهود مغامرين قتلوا في مكة لاتهامهم بانهم تجرءوا على الدخول الى المدينة الاسلامية المقدسة ؟ واذا لم تصدق هذه الاخبار فقد ثبت ان كثيرين من غير المسلمين طردوا من المدينة باهانة عند ما ظهر انهم غير مسلمين

(*) ألقى الدكتور (كرستيان سنوك هرغرنج) الهولندي في أمريكة محاضرة في حال المسلمين الدينية والاجتماعية ومستقبلهم ، فترجمتها بالعربية جريدة الهدى السورية التي تصدر في (نيويورك) ووضعت لها هذا العنوان، وصدرتها بمقدمة في ملخص سيرة الدكتور . فنقلناها عنها مع تصحيح بعض الالفاظ لما فيها من العبر للمسلمين

الهند الشرقية الهولندية ـ حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقا تمام الالتصاق بالمؤسسات الاسلامية ـ لا يقدر المرسل النصراني الذي ان يربح تابعين لدينه، نعم يوجد كثيرون من المدعوين مسلمين ولا سيما سكان داخلية البلاد الذين لم يتغلغل اليهم دين من الاديان، وقد ابتعدوا خطوة واحدة عن حالتهم الوثنية القطرية، ولم يعد يصعب تنصيرهم. وفي بعض جهات جاوه حيث انتشرت الديانة الهندية سابقا لم يجد المرسلون النصارى صعوبة في تنصير قبائل برمتها

ولكن اكثر دعاة النصارى الدينيين في البلاد الاسلامية المحضة ـ حيث الاسلام تقليد قديم لادين يتدين به ـ يرون صعوبة كبرى في تنصير المسلمين، وقد تحولوا عن التبشير بالمسيح الى التهذيب والاعانة، وما داموا جارين على هذه الطريقة فالمسلمون مستعدون لقبول ما يقدمونه لهم

مثلا ان الذي تقدمه كلية روبرت الامريكية في الاستانة يقبله كل مسلم. وقد كان للكلية المذكورة فضل كبير في نشر المعرفة والطرائق التي يعتبرها المسلمون منتهى التقدم ولكن الكلية المشار اليها لم تحول مسلما واحدا عن معتقده

وقد حدثت مؤخرا احد زملائي الفرنساويين الذي قضى عدة سنين في الجزائر والمعرفي بتعصب المسلمين في شمالي افريقيا سألته عن العمل التبشيري الذي تقوم به الجمعيات الكاثوليكية الدينية المتعددة فقال: انه عمل ناجح ولكن لا ذكر البتة للدين فيه.

هذا وان هولندا تحكم على خمسة وثلاثين مليونا من المسلمين ولم تعد تفكر قط في هدايتهم وتنصيرهم. وكل ما ادركناه هو حاجتنا الى تعليم هؤلاء الناس الذين وكلت أمورهم الينا بطيات الحوادث التاريخية. وادركنا ان افضل شيء لنفوسهم هو تطبيق دينهم الخاص ومؤسساتهم الخاصة على حاجات العصر الحاضر

ولا اعتقد ابداً ان الدين الاسلامي يسقط امام النصرانية، لان المسلم يحتاط اشد الاحتياط لمقاومة النفوذ النصراني، فهو يعرف النصرانية التي ليست عنده شيئاً جديداً غير مألوف، فقد عرف اصلها وطريقة نشوءها وهو يعتبرها ديناً فسد بالتدريج، واخيراً نسخه وحي النبي محمد خاتم الانبياء الموحى اليهم. وبالتالي انه يعتبر النصرانية شيئاً مضى، ويرى تدينه بها خطوة الى الوراء. ومهما كان التغيير الذي يقع على الاسلام في ربع القرن الجاري او نصفه فانه لا يكون تغييراً يتناول التدين بالنصرانية، اذ لا تدعو الضرورة في الاسلام الى هذا الاصلاح

يقولون بعصمة الدين الاسلامي ويقبلون حقيقته المكشوفة بدون ريب، نظير اجماع النصارى على عصمة الكنيسة الكاثوليكية . وكانت الاسلام شرائع تتعلق بالحياة في كل اطوارها من شخصية وعمومية وفردية واجتماعية وعلى الجملة ان الاسلام كله قام على استقلال المسلمين السياسي، فقد كانوا في دائرتهم الخصوصية احرارا مستقلين اعتبروا العالم كله ملكا لهم، فالذي لم يكن لهم كان عليهم ان يفتحوه، وبذلك كان حكم السيف ممكنا اذا لم يكن محتملا ، ولكن ثبتت استحالته في الالف سنة التي مضت . ففي خلال القرن الماضي تعرى الاسلام من استقلاله السياسي باعتداء الدول الاوروبية التدريجي عليه، ونتج عن ذلك ان الاسلام اضطر ان يعدل آراءه واعماله، وتأكد للمسلمين انه يجب عليهم ان يحسبوا حسابا لما تفعله الامم الاخرى وتحصل عليه

وقد نجمت عن هذه الحالة مسألتان ـ الاولى منهما هي: هل يستطيع الاسلام الذي يرشد حياة تابعيه وأفكارهم ان يجاري هذا التغيير عند ما يفقد استقلاله السياسي الذي قام عليه ؟

ان الذين درسوا القضايا الاسلامية استنتجوا ان القضايا الروحية ، متصلة تمام الاتصال بالقضايا المادية في الدين الاسلامي، بحيث ان سقوط الاستقلال السياسي يستلزم سقوط الاسلام نفسه ، ولكني لا أوافقهم على هذا القول

اما المسألة الثانية فهي اهم من الاولى وهي : هل اذا كان الاسلام قادرا على احتمال ذلك التغيير - كما اعتقد انه قادر - يقدر ان يطبق نفسه على قضايا الحياة الحديثة بطريقة يستطيع بها تابعوه بان يكونوا في مقدمة الصفوف في ارتقاء العالم ومدنيته ؟

هاتان هما المسألتان مع كل القضايا الاخرى المتفرعة عنهما ما اريد البحث فيه على مسامع الامريكيين رجاء ان اوقف الغربيين على الانقلاب العظيم الجاري في العالم الشرقي ومجاري هذا الانقلاب

فشل محاولة تنصير المسلمين

والامر الجوهري في هذا الشأن هو الوجه المنظور فيه الى قضية مستقبل الاسلام، فاذا نظرتم اليها بعيني المرسل النصراني الديني فلا بد انكم تستنتجون انه لا يرجى شيء كثير من نشوء الاسلام، لان الاسلام قبل صيرورته كفؤا يجب عليه ان يتخذ النصرانية اولا . ولكن هذا هو اسوأ رأي يعول عليه، وأنا مسرور بقولي انه ليس رأيا شاملا، فالمسلمون لا يفهمون ان يتنصروا ، وقد احتاطوا اعظم احتياط لهذا الامر الذي ادركه كل المبشرين النصارى المتنورين في الاراضي الاسلامية ، ففي

الاولى في الاسلام . وهؤلاء الشبان من أهل العلم في العالم، فقد درسوا العلوم الغربية بفروعها نظير خيرة طلبتنا الغربيين، وهم لايقومون بكل الفرائض المطلوبة من المسلم الحقيقي ، لانهم مثلنا في طرائق اللباس والمأكل والمعيشة

ولكن مجرى عقلهم لايزال اسلاميا ، فقد كان بين تلاميذي طلاب مسلمون، وعندما كنت اتناول مباحثهم التي يكتبونها كنت أرى فيها مظاهر فكر اسلامي في شكل يخلتف كل الاختلاف عما يكتبه طلبتي الآخرون، بل كنت دائما أعرف الطالب المسلم من مباحثه .

ثم انك ترى موقف المسلمين المتنورين تجاه شريعتهم وعقيدتهم القديمتين نفس موقف المتنورين بين الاسرائيليين في العصر الحاضر، وكلما عشت بين المسلمين ازددت اعتقادا ان الاسلام سيجري في نشوئه على الطريقة التي سلكها الدين الاسرائيلي في تاريخه الحديث .

نعم ان الضغط الشديد الذي وقع على الدين الاسرائيلي لم يقع على الاسلام . فتفرق الاسرائيليين بين امم الارض اضطرهم الى ان يطبقوا حياتهم على شرائع غير شرائعهم، وكذلك اضطر المسلمون الى ان ينقحوا الطائفة الكبرى من شرائعهم المسيطرة على حياة الفرد اليومية من جراء اتساع الاراضي التي احتلوها بالفتح، والمحايط المتعددة التي اضطروا الى العمل بموجبها

الاسلام واليهودية

وبين الاسلام والدين الاسرائيلي تشابه عميق يزداد ظهورا في مخالطة المتنورين الاسرائيليين والمسلمين، فالتوحيد هو قاعدة الدينين، ولبس الله تجاه خدامه في هذين الدينين الا مشترع يرى كل قسم من حياة الرجل يحتاج الى شريعة. ومن أجل ذلك صار درس الشريعة فيهما عاملا مهما. ولكن الوجه الخيالي في الدينين المذكورين انحط انحطاطا عظيما ، وأخذ يقتصر على القائمين ضمن جدران المدارس ، ولم تبق له علاقة قوية بحاجات الحياة الفعلية

وقد صار تفسير الشريعة في الدين الاسرائيلي منوطا بالحاخامين ، وماعدا بعض مراسيم دينية خارجية ترى أكثر المتنورين الاسرائيليين مكتفين بحفظ العقائد الاولية من دينهم ، أما عامة القوم فانهم يضيفون اليها طائفة من الخرافات القديمة

وترى الاسلام تاليا تلو الدين الاسرائيلي. نخذ القرآن مثلا وانظر الى التغيير الذي حدث في خلال ثلاثة عشر قرنا مضت على تأسيس الاسلام، فالمسلم العربي المولد لايقدر

اضعاف الاسلام بالتربية والتعليم

ولا يخفى ان كل من عاش في اراضي الاسلام لا ينكر انه حدث في النصف الاخير من القرن الماضي تغيير عظيم ، فقد اشتدت حاجة المسلمين الى كل ما هو ضروري للاشتراك في الحياة الحديثة التي تبعت دخول الغزاة الغربيين الى الشرق ، ولم يعد المسلمون المتنورون اليوم يكتفون بالتربية الاسلامية القديمة، فهم يطلبون اطباء حديثين وكيمياء حديثة ، واحدث شيء في علم الحياة . وصاروا يطلبون دروساً اجتماعية في مدارسهم، واللغات الحديثة والفن الحديث، ولا يبالون من يقدم لهم هذه الاشياء اذا قدمت لهم في غير صبغة دينية

مرّ زمان كان فيه المسلم يعرف اخاه المسلم بالف طريقة مختلفة - كأخلاقه وطريقة معيشته ولباسه وا كله ، ولكن كل هذه المميزات اخذت تزول بالتدريج، بل ان الميزة الوحيدة التي كان بها المسلم يقدر ان يعرف اخاه في الدين سيزيلها التهذيب والتعليم ببقية معروفة من العقيدة الدينية

وقد زالت عادات اسلامية قديمة كثيرة ، واصبح كثير منها آخذا الآن بالزوال، فزي اللباس الشائع الذي دخل من الغرب الى الشرق يجعل تأدية الصلوات الخمس الواجبة يومياً امراً مستحيلا ، فلم يعد المسلم الشرقي يقدر اليوم ان يصلي خمس مرات في اليوم بين شروق الشمس وغروبها (!) وهو مضطر ان يشتغل ثماني ساعات في اليوم. بل انه لا يقدر ان يحافظ على مركزه في الصناعة المنظمة التي يضطر الى مزاولتها بالتدريج ويصوم سحابة النهار في شهر رمضان

وقد كانت هذه الامور قديماً شرائع لا بد من العمل بها . اما الآن فانها تصير اشياء لا يقدر ان يمارسها غير حجاج مكة والائمة المتصوفين، بل حدث تراخ في كل شيء، فقد ساد الاسلام في وقت من الاوقات ، وتناولت سيادته التجارة ايضا ، ولكن حفت به المشاكل بالتدريج. نعم ان ضمان الحياة لا يزال عند المسلمين شكلا من اشكال المقامرة ، ولكن الربا في استثمار المال صار ممكنا باعتباره قسما من المقاولة الاصلية

درجة تأثير الافكار الاوربية في المسلمين

تغلغلت الافكار الاوروبية في كل جهة من الاراضي الاسلامية ، ولكن لم يجد فيها الشعور الاوروبي مركزا وهذا اجرأ على القول بان المسلمين سيستمرون على دينهم مهما اتخذوا من التهذيب والمدنية الغربيين . ففي كل المدارس الاوربية الكبرى تجد كثيرين من الطلبة المسلمين، وهم من فئة المتنورين الذين بواسطتهم تحدث التغييرات

طويل، فكل ما يطلب منه ان يعترف بالله أنه كلي القوة ، ومن ثم يتدرج الى تعلم الفرائض الاسلامية الدينية ، وعندما يصير مسلما يتغير مركزه الاجتماعي، ولكن اذا تنصر فانه يبقى دون غيره، ويظل المرسل الديني غريبا معلما متنحيا عنه

الاسلام بمكة ومبلغ علم الخطيب به

ولكني باظهاري لكم هذه الصورة عن الاسلام والحوادث التي تدير مجراه لا اقول انه لا يوجد فيه كثير من التقاليد القديمة التي لا تصدق. ففي خلال الثمانية الاشهر التي قضيتها في مكة كنت احسبني مقيما في مدينة في القرن الثاني عشر او الثالث عشر . فهناك درست الشريعة الاسلامية بكل فروعها وكل اسرار الاسلام في الاشهر الثمانية التي كانت فيها المدينة غاصة بحجاجها البالغ عددهم مائتي الف

ولا توجد تجارة في مكة غير نهب الحجاج فان سكانها الوطنيين يسلبونهم كل ما يكون معهم من مال بالبيع المغبون

ولا شيء ادل على البداوة القديمة من مكة ، فهي تمثل الاسلام في العصور القديمة فلا بيوت هناك . اما وسائل النور والحرارة والماء التي اعتدناها في العصر الحاضر فهي هناك كما كانت في العصور المظلمة. ولكن الذي لم يذهب الى مكة ولا أقام في بيت اسلامي فيها ودرس في جوامعها لا يقدر ان يفهم الاسلام ، او يجد صعوبة شديدة في معرفة نشوء بلاد اسلامية

وقد كثر التحدث حينا بعد آخر عن مكة، أنها ستفتح للعالم بالقوة ،ولكني لا ارى شيئا يدل على ان انكلترا ستحاول فتح مكة، لانها اذا اقدمت على هذا الامر جلبت لنفسها اضطرابات كثيرة في الهند. ولذلك ستظل مكة عدة سنين مركز التقليد الاسلامي

وعلى الجملة اني اقول ان نشوء الاسلام في القرن الجاري لا يكون شيئا باعثا على الدهشة، بل سيكون طبقا للحركة العمومية التي تقرب بين الامم والاديان، دون زوال الاحترام للتقاليد الموروثة عن السلف ، ولا بد للاسلام من الاتصال بالعالم الغربي وسيفعل ذلك، ولكن نقصه العظيم او النقطة التي يحتاج فيها اشد الاحتياج الى اتخاذ الافكار والمبادئ الاوربية هي موقفه تجاه نسائه، وقد اخذ يتساهل في موقفه نحوهن تساهلا بطيئا تدريجيا، فالاسلام لا يمكن ان يرتقي ارتقاء حقيقيا الا اذا حرر نساءه الراسفات في سلاسل التقاليد القديمة التي لا تنطبق على روح العصر الحديثة ، التي هي روح الترقي الحقيقي ؟ اهـ

(المنار) : سنبين رأينا في هذه المحاضرة في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

ان يفهم آيات القرآن الا بعد درس طويل

ولا يخفى أن أكثر المسلمين يعتبرون القرآن كتابا مغلقا، فقد كان في وقت من الأوقات قوة اصلاحية في العالم، وكان يقرأه كل مؤمن ورع ، أما اليوم فان الائمة والعلمانيين يقرأونه بتجويد دون أن يتدبروا معناه ، حتى أن الكلمات التي يجودونها حجة عليهم في اشياء يصنعونها كل يوم حتى خلال التجويد

وسيقع أيضا تغيير على الشرائع والمؤسسات الاسلامية فيحل درسها بالتدريج محل ممارستها ، بالرغم من التقليد المقدس الذي ينطق بان المعرفة بدون عمل لا فائدة منها . وزد على ذلك ان الناشئة الاسلامية الناهضة لا تريد أن تكد ذهنها في درس الشريعة الاسلامية ، كما هي تتعب رئاتها بتجويد الآيات القرآنية ، فان هذا الأمر سيقتصر على فئة خاصة من المسلمين، كما هي الحال عند الاسرائيليين في الوقت الحاضر

ولكن ترك العادات القديمة والاعتراف بعدم اتفاق الشريعة القديمة مع حاجات الحياة الحديثة لم يفهم منهما ان الاسرائيليين تركوا دينهم ، وكذلك لا يفهم منهما ان الاسلام سينحط . نعم ان بين المسلمين المتنورين اليوم تعصبا قليلا، ولكن في صدورهم ميلا قويا الى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه على الحاجات الحديثة . بل ان المسلمين المتنورين اليوم لم يعودوا يذكرون الجهاد، ولكنهم يلفتون الانظار الى اغاء التساهل واتساع المعرفة التي تتغلغل في كل جهة من جهات العالم الاسلامي

وهاهنا أمر آخر هو أن المسلم المتنور يشعر نظير الاسرائيلي المتنور بالرابطة الروحية التي تربطه الى اخوته في الدين وهو لا يريد ان يقطع هذه الرابطة . نعم ان السواد الاعظم من المسلمين ـ ولا سيما حيث النفوذ الاوربي لا يزال خفيفا ـ هم الآن حيث كانوا من مضي خمسمائة سنة . وكذلك توجد فئة بين الاسرائيليين لا تزال تمارس شريعة لم تصدم بالحياة الحديثة بعد وقد كان تطبيق التقليد المقدس على حاجات المحيط المتغير ظاهراً باجلى مظاهره في الدين الاسرائيلي . ولكن التشابه في نشوء الدينين الاسرائيلي والاسلامي يحمل الواحد على أن يتوقع للاسلام نفس ما وقع في الدين الاسرائيلي

ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الاسلام، لانه توجد بواعث خارجية تنميه ، فالاسلام قوي ولم يضعف لاسيما في القرن الماضي، وقلت فيه الانشقاقات الداخلية . وزد على ذلك أن الاسلام يربح أكثر من النصرانية تابعين له من الوثنيين . فالذي يصير مسلما لا يطلب منه شيء كثير، اذ لا يوجد تقديس ولا طقس ديني ولا تعليم

قوله تعالى « ولله الاسماء الحسنى » يعني الربوبية الثانية في الذات الظاهرة قال سيدهم في شرح الخطبة : ان الربوبية لها ستة مقامات (احدها) رتبة الذات البحت التي لا اسم لها ولا رسم { الثانية } رتبة الذات الظاهرة التي هي مظهرة تلك الذات البحت (والثالثة) رتبة الذات في مقام يعبر عنها بهو (والرابعة) رتبة يعبر عنها بالله (والخامسة) رتبة يعبر عنها بسائر الاسماء (والسادسة) هي الرتبة الربوبية، السارية في العبودية . وخمسها شيخه وكثرها الخان الكرماني بغير حساب . قال في الارشاد : من ميكويم انخدائيكه سابق مى پرستند باطل بوده بلكه ميكويم او حق بوده وعبادتش درست بوده ولكن امروز چون شعور شمازيادشده بايدبدانيدكه ان خدانبوده بلكه بنده بوده واينكه امروز ميكويم اين خدا است وبعد از اين شعورها زياد ميشودميد انيدكه اين خدا نيست بلكه بنده ايست از بندكان خدا وخدا ديكر يست .

وقال الشيخ أحمد في شرح الزيادة في تفسير الدعاء : أنت الله عماد السموات - يعني الحسن ابن علي - وقالوا أنت الله قوام الارضين - يعني الحسين بن علي - وقالو : ان الضمائر له في القرآن من الغيبة والخطاب والتكلم راجعة الى النبي والامام والركن الرابع في مرتبة المعاني . وقال الشيخ أحمد : كما ان له الاسماء الحسنى كذلك له الاسماء السوءى، لكن امرنا بدعوته بالحسنى دون السوءى! وقال ان معنى قولك « الله عالم قادر بصير » الله الله الله . لاتحادها في المفاهيم اللغوية كاتحادها في المصداق الوجودي

(وفي مرتبة معرفة الافعال) قالوا الافعل لله تعالى، ولا انتسب اليه الفعل، ولا يطلق على الذات اسم الخالق والفاعل وأمثالهما ؛ لانها يجب ان تكون مقارنة للفعل والذات لا يقارن شيئا. واستدلوا بقوله: ان الارادة لاتكون الا والمراد معها . ولا يفهمون ان معية المراد مع الارادة حادثة هي لامع المريد الذي هو القديم تعالى

(وفي مرتبة العدل) قالوا لاخصوصية للعدل في حق معرفته من الاصول دون سائر الصفات . ولذلك جعلوا أصول دينهم أربعة {احدها} معرفة الله (والثانية) معرفة النبي (والثالثة) معرفة الامام (والرابعة) معرفة الركن . وعليه بنى الارشاد الخان الكرماني

(وفي معرفة النبوة) قالوا لكل نوع من الموجودات نبي من نوعهم ؛ فللجماد نبي من الجمادات، وللنبات هكذا، وللحيوان ايضا . وقالوا ان الصفات المقررة في انبياء بني آدم مقررة لها من كونها طاهرة مطهرة ، عاقلة عالمة ، قابلة للوحي والالهام ، معصومة فياضة على ما تحتها من امتها . ولها أئمة من بعدها حافظة لشرائعها ونقباء ونجباء ؛ صرح به الشيخ احمد في جوامعه ، والخان في ارشاده، وزاد أشياء أخرى

اعتقاد الشيخية (*)

على ما نقل من كلامهم في كتبهم المعروفة الكاشفة عن اعتقاداتهم في مراتب اصول العقائد

(ففي مرتبة معرفة الذات) قالوا « إن الذات ذاتان » ذات غيبية باطنية لا اسم لها ولا رسم لها ، ولا تسمى ولا توصف ، ولا تكليف على العباد بمعرفتها وتوحيدها وعبادتها . وذات ظاهرة تسمى وتوصف ، وفي هذا القسم من الذات قالوا : ان المعرفة فرع ادراك المعروف ، والعبادة فرع ادراك المعبود ، فيجب أن يكون المعبود في صقع العارف والعابد ، حتى يعبد بجسمه جسم المعبود ، وبنفسه نفس المعبود ، وبعقله عقل المعبود ، وبفؤاده فؤاد المعبود . فهناك ذات ظاهرة معرفتها تسمى بمعرفة البيان ، وهي المتعلقة بها المعرفة والعبادة ، وهي في مقام النبوة نبي ، وفي مقام الامامة إمام ، وفي مقام الركنية ركن رابع . ولذا قالوا : ان الخطاب في « إياك نعبد وإياك نستعين » الى النبي والامام

والركن الرابع صرح به الشيخ أحمد بن صقر المشهور بزين الدين واغر الاحسائي في رسالته الخطابية المطبوعة في جوامعه ، والسيد كاظم الرشتي في شرح الخطبة ، والحاج كريم خان في موارد من ارشاده المعروف المطبوع في عصره

وهذه المقالة دعتهم الى مصاحبتهم لصور مشايخهم ، وجعلها في محال سجودهم ، وقد اشتهروا بذلك بحيث لا يتمكنون من انكاره

(وفي مرتبة معرفة الصفات) قالوا : ان الاسماء والصفات للذات الظاهرة النبي والامام والركن الرابع . وهي معرفتهم بالمعاني . وقالوا : ان الصفات كلها حادثة ، فالله عالم بالاشياء بعلم حادث ، وقادر بقدرة حادثة ، وهكذا . وقالوا : ان الصفات متحدة في المفهوم كما هي متحدة في المصداق . وقالوا : نسبة الخلق والرزق اليه تعالى كفر . قال الخان الكرماني في ارشاده بالفارسية : پس هركه بگويد ذات خداي تعالى خالق اشياء است باجماع مسلمانان ازضرورت دين بيرون رفته . وصرح بتمام ذلك ابن صقر في شرح العرشية ، والرسالة العلمية ، وشرح الزيارة ، والسيد الرشتي في شرح الخطبة

(وفي مرتبة معرفة الاسماء) قالوا ان الذات لا اسم لها ولا رسم لها . ويقولون في

(*) هم اتباع الشيخ احمد الاحسائي وهم كريم خان القاجار والسيد كاظم الرشتي ، وهم من غلاة الشيعة ابتدعوا فيها فلسفة جديدة خيالية ، كانت المنشأ لما هو شر منها وهو فتنة البابية والبهائية والاصل لذلك كله ضلالات قدماء الباطنية

قرة العين القزوينية راقصة بالغنج والدلال، انكحت وزوجت قد فر من الميدان(؟)

وقال الخان ايضا في ارشاده : ان بعث الانبياء والرسل ونصب الحجج وانزال الكتب كلها لاثبات الركن الرابع ، وهو بمنزلة اصل الكعبة في مسجد الامامة في حرم النبوة في عالم ارض التوحيد · فعلى الاسلام السلام بعد هذه المقالة

وقالوا بكفر من انكر الركن الرابع، وانهم ناصبين (؟) وطهارتهم للتقية. وايضا قال في اول المجلد الرابع من ارشاده ماهذا لفظه: من چكونه بادست قاصر ونفس ضعيف ابن مطلب وابكر دن ابن خلق منكوس بكذارم كه هزار وده سال است كه در جاهليت غيبت كرفتارند. وتاريخ كتابه في ست وستين فيكون من اول ولادة الحجة داخلا في الجاهلية الى ان بلغ قلمه موضعه من الكتاب · وقال كتابي هذا — يعني الارشاد — مطابق لما هو مسطور في اللوح المحفوظ حرفا بحرف ، والسواد مطابق للاصل · وقال قراءة كتابي هذا واجبة وقراءة القرآن مستحبة . وقال من قرأ خمسة اوراق من كتابي فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان ، وما اتى به الانبياء من عند الله . ولا تقتصر عباداته عن عبادة السيد ميرزا على محمد ابن السيد رضا الشيرازي في بيانه النازل اليه من السماء بزعمهم : ان لو اجتمعت الجن والانس على ان يأتوا بحرف من حروف البيان اذا لا يأتون بحرف منه ابدا

(وفي مرتبة الوحي) قالوا ان الوحي عبارة عن توجه خيال النبي (ص) الى نفسه ، ونفسه الى عقله ، وانزال عقله المعاني الى نفسه ، ونفسه الى خياله ، والعقل هو جبريل النازل عليه · صرح به الخان في ارشاده في المقصد الثالث في النبوة . وقال هناك ان النبي مهما كان متوجها الى مسئلة علمية كان غافلا عن سائر المسائل ، فيتدرج له العلم شيئاً بعد شيء في الدنيا والبرزخ . وقال كثيرا ما يسأل عن الائمة من الاحكام الشرعية (١) ولم يكن لهم جواب حتى يلقى اليهم من عقلهم ، فيقصر زمان الالقاء ويطول

فان قيل فكيف يرمون هؤلاء بالغلو في حقهم (ع) مع هذه المقالة ؟ يقال ان التناقض في كلامهم غير معدود ولا محدود ، ويقولون بجواز اجتماع النقيضين لاسيما في ذات الواجب ، ويستدلون بوجود ملك نصفه من النار ونصفه من الثلج . وهذا معروف منهم

{ وفي مرتبة العصمة } قالوا يجوز الكبائر والصغائر عليهم عمدا وسهوا قبل

(١) لعل الاصل او المراد: كثيرا ما يسئل الائمة عن الاحكام الشرعية .

فقال : ان محمدا تنزل وتطور في كل مقام في صورة كل نوع فينبئ فيها و يبلغها ، فانهم قد يظهرون في صور الجمادات والنباتات والحيوانات وصور بني آدم سعيدهم وشقيهم. وبه قال الشيخ احمد في موارد من كتبه . منها ما ذكر في شرح الزيارة في تفسير « واجسادكم في الاجساد » وقال ان الائمة قد يظهرون في احسن صورة لاوليائهم ، وفي اوحش صورة لأعدائهم . ثم ذكر حديث جابر بن عبد الله في قول طلحة، وقال في الاستشهاد لهذا الحديث : حيث ظهر امير المؤمنين (ع) في صورة قبيحة هي صورة مروان بن الحكم ورمى طلحة بسهم وقتله للاتفاق على ان طلحة قتل برمي مروان ، لكن طلحة لما عاين الموت وكشف عنه غطاؤه رأى عليا (ع) في صورة مروان بن الحكم، انتهى. وصرح به الخان في ارشاده . والعجب من هذه المقالة بانه كيف عرف طلحة ورأى عليا في صورة مروان ، ولم يعرفه الحسن بن علي حيث قال في مجلس معاوية لمروان : أنت الذي وقفت بين الصفين ورميت طلحة وقتلته؟؟

(وفي مرتبة الختمية) قالوا ان للخاتم (ص) اسمين (يعني ظهورين) اسم سماوي وهو احمد ، واسم ارضي وهو محمد . وقد ظهر باسمه الارضي منذ بعث في رأس كل مائة لترويج ظاهر شريعته ، حتى مضت عليه وعلى شريعته ستة مائة ستة مائة فكانت اثني عشر مائة (١) وانتهت الدورة الاولى لترويج ظاهر الشريعة، وأتت الدورة الثانية لترويج باطن الشريعة . وانقضت دورة ظاهر الشريعة ، فظهرت تلك الحقيقة المحمدية باسمها السماوي وهو احمد في الشيخ احمد لترويج باطن الشريعة . وهذه المقالة عين ما قاله السيد كاظم الرشتي في شرح قصيدة عبد الباقي ، مذكورة في عشرين ورقا (٢) من أواخر الكتاب . وللخان في هذا الميدان جولان ، حيث شبه الايمان بالانسان . وقال انه كان نطفة في زمن آدم (ع) ثم صار علقة في زمن نوح (ع) ومضغة في زمن ابراهيم (ع) وعظاما في زمن موسى (ع) ونفخ فيه الروح في زمن عيسى (ع) وتولد في زمن محمد (ص) فارتضع من ثدي ولاية الائمة (ع) ولما كان أوان فطامه غاب عنه المرتضعة (٣) فودعوه(٤) لدى المربيات وهم الفقهاء، وصار مراهقا في زمن شيخنا ، وأخذناه من الاماء المربيات لنعلمه الآداب والسنن . وجال في المقام، واطال في الكلام ، ولعب بذنبه والسبال ، حتى آل الحال الى مقالة

(١) المنار : الصواب في اللفظ ست مئة ست مئة فكانت اثنتي عشرة مئة (٢) الصواب ورقة (٣) لعله غابت عنه المرضعة اي بغيبة الامام الثاني عشر الوهمية (٤) يريد اودعوه من الوديعة

(وفي مرتبة تكليف الناس في زمان الغيبة) قالوا : لا بد في كل زمان من امام زمان غير الائمة الاثنى عشر ، ولهم في هذا المقام متناقضات شتى ، فتارة يعبرون بالشيعة ، وتارة بالنقباء والنجباء ، وتارة بالركن الرابع ، وتارة يفرقون بينهم . وجعلوا معرفة الركن الرابع اصلا من اصول الدين ، ونسبوا منكره الى الناصبية ، وتناقضوا في القول ، فقالوا : هذا الركن من الايمان كان مخفيا حتى أظهره الشيخ أحمد ثم السيد كاظم ثم كريم خان ، فمن لم يعرفهم ولم يحبهم مات ميتة جاهلية ، وميتة كفر ونفاق ، ثم تعرقت كلماتهم من بعدهم على أشخاص كثيرين فتفرقوا أيادي سبا ، كلما دخلت أمة لعنت أخرى ، الا ان اكثرهم اجتمعوا على محمد خان حسب ما وصى اليه ابوه ، وقالوا في صفات الركن الرابع ما لا يقصر عن صفات الرسل والائمة ، قال رحيم خان اخو محمد خان في منظومته : قدرتشان قدرت يزدان بود . وقال لهم السلطنة على العالم والقدرة الالهية على التصرف فيما يشاؤن ، وأمثال ذلك .

ويقولون صريحا بوجود الباب للامام ، وان كانوا ينفونه عن السيد ميرزا علي محمد الشيرازي ، فالنزاع في الموضوع دون الحكم ، ومحصل كلامهم ان التصديق في مراتب التوحيد لا يكمل الا بالتصديق بالنبوة ، والتصديق بالنبوة ومعرفتها لا يكمل الا بالتصديق بالامامة ومعرفتها ، والتصديق بالامامة ومعرفتها لا يكمل الا بالتصديق بالركن الرابع ومعرفته ، فالعلة الغائية من المعرفة في معرفة أصول الدين والعقائد معرفة الركن الأخير . على ان الدين والايمان مركب من اربعة اركان ، ولا يتم معرفة الاول الا بالثاني ، ولا يتم هو الا بالثالث ، ولا يتم هو الا بالرابع ، فمعرفته اصل ومعرفة المثلث الاول من باب المقدمة ، كما يفهم عن عبارات الخان في ارشاده . ولذا قالوا ان معرفة الركن الرابع ومحبته وموالاته من ضروريات الدين ، ومن انكرها انكر اصلا من اصوله ، وقد عبر الشيخ في كتبه عن هذا الاصل بالشيعة الخاص ، وبعض آخر منهم بالنائب الخاص في زمن الغيبة الكبرى ، في مقابلة الامامية من قولهم ان الاحكام الشرعية والحوادث الواقعة في زمن الغيبة الكبرى واجعة الى النائب العام ، وهو الفقيه الجامع للشرائط ، حتى آل الامر بالخان فعبر عنها بالركن الرابع ، وزاد في الطنبور نغمات أخر لا فائدة في ذكرها

والعجب كل العجب من الفتنة الحادثة بعده فان ابنه محمد رحيم خان قال بوحدة الناطق أي الركنية الشخصية ، وقال بان الركن الرابع للدين في كل عصر من الاعصار شخص واحد يجب لكل مكلف في ذلك العصر متابعته في الاحكام الصادرة عنه ،

البعثة وبعدها . صرح بالسهو شيخهم في (جوامع الكلم) وقال يغيب عنهم الملك المسدد · وقال الخان في الارشاد: پس اگر خداوند مصلحت داند دربقاء دين ان پيغمبر كه از دنيا ميرود البته قائم مقامي از براي ان پيغمبر قرار دهد كه اقلاً در حفظ شريعت معصوم بوده باشد اگرچه درجاهاي ديگر معصوم نباشد · وان كان في مبحث العصمة اثبتها لهم وقد قسمها بعصمة عقلية ، وعصمة نفسية ووجودية ، وقسمها الشيخ في شرح الزيارة بعصمة ذاتية ـ وقال بها لنبينا والائمة ـ وعصمة عرضية ـ وقال بها في سائر الانبياء ـ ولا يفهم مراده · وقال الخان بعصمة الركن الرابع الذي يسميه إمام الزمان حيث يقول في ارشاده غير مرة : پس امام غائب بكارمر دم نميخوردر ومردم امام حي حاضر معصوم ميخواهند

(وفي مرتبة الاذعان بالمعراج) قالوا بما هو لفظ الشيخ في رسالته المسماة بالقطيفية: قال انه تعالى لما اراد العروج القى في كل كرة ما منها فألقى ترابه في التراب ، وماءه في الماء ، وهواءه في الهواء ، وناره في النار · وكل قبضة (؟) في تلك السماء ، ثم لما رجع اخذ من كل كرة ما ألقى فيها . وصرح عليه في جميع كتبه · ومن بيانه تشبيه المعراج باكل الغذاء وتحليله واخراج ثفله ، الى ان يحصل الروح البخاري في القلب ، ثم يصعد الى الدماغ ، وقد صعدها الخان في معراج الغذاء المأكول الى ان جعلها نفسا وعقلا وفؤادا

(وفي مرتبة الامامة) قالوا ان امام الزمان غير الائمة الاثنى عشر : ولابد في كل زمان عن امام غيرهم ، وهذا صريح كلماتهم · وقال الخان في ارشاده: پس چنانچه بخداى ناديده اكتفا نميتوانيد نمود بامام غائب هم اكتفا نميتوانيد نمود · وقال في موضع آخر: سار غائب چگونه تربيت شاگرد متيواند نمود .

(وفي مرتبة المعاد) قالوا ان الجسم جسمان ، والجسد جسدان ، جسد عنصري دنياوي وهو مخلوق من عناصر هذه الدنيا التي تحت فلك القمر ، وهذه تفنى ويلحق كل شيء الى أصله ، ويعود اليه عود ممازجة واستهلاك ، فيعود ماؤه الى الماء وهواءه الى الهواء ، وناره الى النار ، وترابه الى التراب · ولايرجع ولايعود لانه كالثوب يلقى من الشخص · والثاني جسد أصلي من عناصر (هورقليا) وهو كامن في هذا المحسوس ، وهو مركب الروح ، فيقوم للحساب ، وهو الجسد الذي يتألم ويتنعم وهو الباقي ، وبه يدخل الجنة والنار · وقالوا : السؤال عن الروح والجسد الهورقليائي . يعنون البرزخي . وقالوا ان الصراط والميزان والوسيلة كلها مؤولة معنوية غير جسمانية

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

﴿ نشوء فكرة الله ﴾

« كراسة تحتوي على خلاصة كتاب لجرانت ألين الكاتب الانكليزي المشهور عن نشوء الاعتقاد بالله وترقي الانسان من الوثنية الى التوحيد الحاضر مع بيان أصول المسيحية ونشوئها »

لخص هذه الكراسة من ذلك الكتاب وطبعها ونشرها (سلامه افندي موسى) وهو شاب قبطي الجنس مادي الاعتقاد، يعنى باقناع الناس بأن الأديان أوضاع مخترعة ينبغي لهم تركها والعمل بقواعد الانتخاب الطبيعي واصول الاشتراكية ومنها ـ على رأيه تبعا لبعض غلاة المادية من الافرنج ـ أن يعجل الاقوياء باهلاك الضعفاء، ومنعهم من الزواج ومن كل ما يطيل أيام حياتهم على الارض، كمعالجة المرضى والصدقة على البائسين . وما نشر هذه الكراسة الا في سبيل مذهبه . وهذه الحملات التي يحملها الملاحدة على الدين تؤثر في النصرانية دون الاسلام، لأن النصرانية الحاضرة وثنية متسلسلة من وثنية قدماء المصريين والهنود وغيرهم . وانا ننقل فصولا من هذه الرسالة بحروفها تثبت ما قلناه، ثم نعقب عليها بما نراه، قال الكاتب :

﴿ ١ ـ المسيحية كمقياس ديني ﴾

اذا اخذنا المسيحية كنموذج للاديان واعتبرنا نشوءها نجد ان كل ما فيها من العقائد والمراسم مأخوذ من الاديان السابقة لها التي كانت فاشية عند ظهورها . فالـه المسيحية ـ المسيح ـ كان انسانا كما كانت كل الآلهة القديمة عند اول ظهورها. وقد اعتبره المسيحيون الاولون ابنا لاإله (كذا) تنزيها له عن الانسانية كما فعل اليونانيون مع اسكندر المقدوني . ونجد في المسيحية ما يسمى (بالثالوث الاقدس) وهو عبارة عن ادماج ثلاثة آلهة وهم الآب والابن والروح القدس في إله واحد، على مثال ما كان يعتقد المصريون في الثالوث الالهي المكون من اوزيريس وايسيس وهوريس . والمسيحيون يعتقدون ان أم المسيح عذراء . ولا بد ان هذا الاعتقاد قد تسلسل من

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء ـ ما عدا الاول منها ـ شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

وارجاع أموره التكليفية اليه ، ومعرفته وموالاته ومحبته ، بناء على ان هذه المعرفة بهذه الصفة من ضروريات الدين . وخالفه في هذه المقالة تلميذ الخان السيد ميرزا محمد باقر الهمداني . وقال بكثرة الناطق أي الركنية النوعية ، وقال ان الركن الرابع في كل عصر يمكن أن يكون متعددا متمسكا بالتوقيع الصادر عن الامام القائم المنتظر (ع) وأما الحوادث الواقعة فارجعوا الى رواة احاديثنا ، وكون محل الرجوع رواة يدل على تعدد الركن لا التشخص ، ولكل منهما كتب متعددة ممهدة لاثبات مدعاه . ولذا صارت الشيخية بعد الخان المعهود طائفتين ، وبقي الامر كذلك الى زماننا هذا والاصبهانيون منهم من الطائفة الهمدانية . وأما الطائفة الاولى أي تبعة الكرماني (فهم) متفرقون في سائر البلاد والاغلب منهم ساكنون في طهران وكرمان . وكلهم متفقون في جواز التقليد من الميت ، والعمل بكل خبر ولو كان ضعيفا . ولذا يعدون من الاخباريين مع إعمالهم نبذة من قواعد أصول الفقه في مباني فتاويهم انتهى

« المنار »

ما أفسد دين الشيخ أحمد الاحسائي وأصحابه وأثار في أدمغتهم هذه الخيالات الا التشيع بما أثروه عن فرق الباطنية ، وما رأوه من اقرار الناس لبعض زعماء الباطنية بالامامة ولبعضهم بالألوهيـة ، وعلمهم بأن أهل زمنهم أجدر من المتقدمين بالتقليد ، للاعراض عن القرآن والسنة والجهل بهما وبلغتهما ولما كان قبل من التمهيد . والظـاهر ان كلا من الاحسائي والرشتي والـكرماني كان يطمع أن يكون في شيعة العراق والفرس ، كامام بل إلـه الاسماعيلية في الهند ، ولـكن كان منتهى شوط أباطيلهم التمهيد للباب ثم للبهاء ، اللذين كانا دونهم في الفلسفة والفصاحـة والذكاء ، وما سبب رواج كفر الباطنية وشركهم المخترع ـ على اختلاف فرقهم من اسماعيلية ودروز ونصيرية وبكداشية وبابية وبهائية ـ الا الغلو فى تعظيم آل البيت (وكذا غيرهم من العلماء والصالحين) والتقليد فى الدين فهذان السببان هما اللذان أعدا الاذهان ، لقبول هذا الـكفر والطغيان ، ولما كانت فرقة الشيعة الامامية أشد غلوا من سائر فرق المسلمين فى تعظيم آل البيت جعلها واضعوا هذه الاضاليل مباءة لها ، وسلماً لمقاصدهم منها .

من هنا نشأت عادة أخرى وهي أن يأكل المتدين خبزا أو يشرب نبيذا باعتقاد انه يأكل من لحم الاله ودمه ٠ لان روح الاله قد تجسدت في محاصيل الغلال والكروم . والخبز والنبيذ هو ما يأخذه المسيحي من قسيسه باعتقاد انه يأكل ويشرب من لحم المسيح ودمه ٠

(١٦ ـ ضحية الافتداء)

للضحية ـ كما قلنا ـ اعتباران عند المتوحشين (١) انها تقدم كطعام للروح أو للاله (٢) انها تقدم كانها هي الاله ذاته

وهناك نوع ثالث من الضحايا يقدم باعتبار انه يفدي القبيلة أو الامة من خطاياها وقد صلب المسيح لكي يفدي الناس من خطاياهم أي لكي يكفر عن ذنوبهم

والاصل في هذه الضحية هو الاعتقاد بامكان نقل المرض من شخص الى شخص أو الى شيء آخر . مثال ذلك ان ملكا في (بتشوانالاند) أصيب مرة بمرض ما فأحضر ثورا وتليت عليه الرقيات واغرق بعد ذلك في النهر ٠ ومنطق هذا العمل عندهم ان المرض قد انتقل الى الثور وذهب معه بعيدا عن الملك، ولايزال عندنا نحن المصريين آثار باقية من هذا الاعتقاد في رقياتنا حيث تزيل الرقية المرض وتلقيه بعيدا عن المريض بالقائها بعض اشياء كانت تحرقها في النار وقت الرقية

وقد نشأ من اعتقاد امكان نقل المرض اعتقاد امكان نقل الخطيئة ٠ مثال ذلك ان بعض قبائل افريقيا يقتل كل سنة شخصين رجلا وامرأة ـ لكي يكفرا عن خطايا القبيلة. يعتقدون ان خطيئات القبيلة قد انتقلت الى هذين الشخصين وانهم بقتلهما يغسلون القبيلة من ادران خطاياها ، ويبررونها امام آلهتها، كما كان يقتل الاثينيون شخصا عند وفود وباء ما على بلدهم اعتقادا بأن الوباء يموت بموته وينجي الامة منه، وكما تذري الراقية قطعة الشب التي احرقتها في النار وقت الرقية اعتقادا بأنها حملت المرض معها وذهبت بعيدا عن المريض

(١٧ ـ العالم قبل المسيح)

كان العالم الذي انتشرت فيه المسيحية تابعا للدولة الرومانية عند بدء انتشار هذه الديانة ٠ وقد كانت هذه الدولة تشمل كل ممالك البحر المتوسط، ودرجت اللغة الرومانية على ألسن التجار فقربت بين هذه الامم وصبغتهم بالصبغة الرومانية ٠ وقد بعثت التجارة على المهاجرة والنزوح الى المواني فكانت الاسكندرية ورومية

الاعتقاد المصري القديم الذي كان قائما على اعتقاد البكارة في ايسيس ام هوريس. وكذلك ترى اذا بحثت عن الاصل في مراسم المسيحية كالصليب والقبر والكنيسة والهيكل انها مأخوذة من الاديان المصرية القديمة. كما ان نظام القربان والكهنوت مأخوذة منها ايضا.

(١٥ ـ الضحية والدم)

قد رأينا فيما سبق ان للضحية باعثين الاول هو الاعتقاد بانها تقدم كطعام للروح او الاله. والثاني هو الاعتقاد بان الاله ذاته يتجسد فيها وتدفن اجزاؤها في الحقول لكي تنمي الزروع.

الى هنا لم نتكلم عن اكل الناس الاحياء للضحية. فقد رأينا الضحية تجزأ وتدفن في الحقول باعتبار انها إله ورأينا القربان ايضا يوضع للميت اعتبارا بانه سيجوع ويأكله. وسنتكلم الآن عن اصل عادة اكل الناس للضحايا.

من الشائع بين عوام مصر ان من اكل قلب ذئب صار قويا مثل الذئب ويعتقدون في الهند ان من يأكل نمرا يصير شجاعا جريئا كالنمر. لهذا لما نشأت عادة ذبح الآلهة المتجسدة في الضحية ورد على خواطر المضحين ان يأكلوا هم ايضا قطعة من جسم الاله حتى يصيروا مثله في صفاته، على نحو مايفعل آكل الذئب والنمر. فصاروا يضعون جزءا من الضحية المؤلهة في الارض ويأكلون جزءا آخر منها. وهذا صيد العصفورين بحجر واحد: مباركة الحقل وتقوية الجسم. كذا تفعل قبائل الغوند. وكذا ايضا كان يفعل المكسيكيون. فانهم كانوا اذا ارادوا التضحية قبضوا على اسير من أسرى حروبهم وعاملوه معاملة الملوك مدة عام يقتلونه باحتفال عظيم في نهايته ويأكلونه. وبمضي الزمن ارتقى الانسان من التضحية البشرية الى التضحية الحيوانية الحاضرة في اعياده. وفي طريقة الذبح عند العرب والعبرانيين الآن بقايا اثرية من عوائد التضحية القديمة فانهم يذبحون الآن « باسم الله » ويتطلبون اراقة الدماء من المذبوح، والدم هو في العادة الجزء الذى يشتهيه الاله لانه ـ بخلاف اللحم — يجف فيظن الرائي ان الاله قد شربه.

قلنا ان الانسان كان يشرب دم الذبيحة او يأكل لحمها اعتقادا بانه يأكل ويشرب من لحم الاله ودمه. وقد قلنا انه كان يعتقد بأن روح الضحية روح للاله تحل من الذبيحة عند الذبح وتنتشر في المحاصيل كالكروم والغلال.

(٣) قول المسيح «انا خبز الحياة» . «خذوا كلوا من دمي»(١) وقد وصفوه بانه قمحي الوجه وان شعره كلون النبيذ .

(٤) انه دخل أورشليم بهيئة ملك مثل ضحايا أتيس وادونيس . لان الاعتقاد كان فاشيا بان هذين الالهين يتجسدان في الضحية التي تقدم لهما فيجب اذن اكرامهما ما داما على قيد الحياة . وقد جاء في الانجيل انهم وهم يقتلون المسيح ركعوا، وهذا يماثل ما كان يفعله كهنة أتيس بالضحايا .

(٥) ولما دخل المسيح أورشليم كان ممتطياً حمارا وقد نثرت أغصان الاشجار على الارض، وهو عين ما كانوا يفعلونه مع ضحية ايتس وما زال في «أحد الزعف»(٢) الذي يسبق العيد الكبير عند النصارى بقية من بقايا أعياد آلهة الغلال .

(٦) لما قتل المسيح بكت عليه النساء مثلما كان يحدث في ضحايا أتيس لانهم كانوا يعتقدون بأن الاله يتجسد فيها وبالتالي يبكون عليه لانهم قتلوه .

(٧) بعثه بعد ثلاثة أيام . مثل أتيس وادونيس بالضبط

فالمسيح قتل لغرضين : انه ضحية مؤلهة ولكي يفدي الشعب من خطاياه (وقد عرفنا اصل ومعنى الفداء)

أما الثالوث فقد جاء للمسيحية من مصر ونشأ اولا عند الاقباط لان أديانهم الوثنية السابقة كانت تحتم هذا الاعتقاد .

أما الصليب فقد أتى ايضاً من مصر وتراه للآن على الجملان . وقد اختلط الموضوع على بطريرك مصري مرة فقال في احد كتبه عن المسيح انه « جمل الله» أي انه ظن الصليب والمسيح شيئاً واحدا لان الجمل كان يرسم عليه الصليب .

(١٩ – بقايا اثرية في المسيحية)

ما زال المسيحيون للآن يعبدون الموتى . وقد كانت الكنائس عند اول تشييدها قبورا ليس الا . ومركز القديس الآن بين النصارى وقيمته عندهم كمركز رئيس القبيلة المتوفى بين قبيلته بالضبط . لان النصراني يحترم القديس ويتهيبه ويتقرب منه كأنه يعبده عبادة ولو أنكر ذلك . وقد كانت القرون الوسطى العصر الذهبي

(١) المنار : العبارة متصبة لم تؤد معنى ما في الاناجيل وهو انه سمى الخبز جسده وأمرهم بأكله وسمى الخمر دمه وأمرهم بشربها

(٢) أي يوم الاحد الذي يضفرون فيه سعف النخل باشكال مخصوصة

وانطاكية (١) ملأى بالسوريين والرومانيين والاسبانيين وغيرهم من الجاليات التي هجرت مواطنها الاصلية واستعمرت هذه المواني للارتزاق. وقد أدى هذا الى انتشار الاديان في اصقاع الامبراطورية، وخروجها من اوطانها الاصلية، فكانت الآلهة المصرية تعبد في انجلترا ورومية بسبب النزلاء المصريين كما كان يعبد الاله (يهوه) في الاسكندرية ومرسيليا بواسطة اليهود . وقد كانت بعض هذه الآلهة تتحد في الصفات فيعبدها الناس وان كانت أجنبية عنهم الا انها تتفق في صفاتها مع احد آلهتهم . او كانت الظروف تقتضي عبادة الآلهة الغريبة كما حدث مع البطالسة ، فانهم حينما تولوا حكم مصر عبدوا الالهة المصرية مع انهم كانوا يونانيين وقبيل ظهور المسيحية كانت الاديان الوثنية قد ضعفت امام الفلاسفة وحصل بذلك اشتياق في النفوس للتوحيد اليهودي ولو لم يكن (يهوه) إله اليهود وطنيا متعصبا في الوهيته يكاد لا يعترف بامة حقيقة بالجنة غير اليهود لعمت عبادته . لهذا تحول الناس الى العبادة المسيحية لانها في الحقيقة عبادة للآلهة كلها . لان المسيحية اشتقت مناسكها وسننها ومراسمها من آلهة مصر وسوريا وورومية وفرنسا وانجلترا وغيرها، فكانت كل الامم تعرف شيئا عنها و تعتقد بصحة بعض سننها وأساطيرها. ومما زاد في الاقبال عليها سهولة طريقة التدين بها وصعوبته عند اليهود

(١٨ – نمو المسيحية)

انا نشك في ان المسيح كان انساناً موجودا على اننا اذا صدقنا رواية وجوده كشخص ما، فانا نعتقد ذلك باعتبار انه وجد وقتل كضحية مؤلهة . وهي الضحية التي قلنا انها كانت تقدم لآلهة الغلال والنبيذ . فقد كان السوريون المجاورون لليهود يعبدون (أتيس) إله الغلال، وكان من عادتهم أن يقدموا له ضحية سنوية. ولعل الاشاعة التي فشت بعد ظهور المسيحية عن ذبح اليهود للاطفال قد نشأت عن هذه التضحية، وعندنا سبعة اشياء ترجح ان المسيح كان ضحية مؤلهة . وهي :

(١) اذا فحصت عظات بولس في رسائله الى الكورنثيين تجده يصف المسيح كأنه يصف احد آلهة الغلال تماماً.

(٢) اكل تلاميذ المسيح وكل المسيحيين الآن الخبز والنبيذ باعتبار انهما من جسد المسيح ودمه وهذا ما كان يفعله تماماً عبدة (أدونيس وأتيس) آلهي الغلال لان الإله يتجسد في المحصولات .

(١) المنار : انطاكية ليست فرضة (ميناء) وكذلك رومية

والسنن انه لعن الذين يتخذون القبور مساجد او يوقدون عليها السرج، ونهى ان يتخذ قبره وثنا او يتخذ عيدا . ومن الظلم أيضاً ذكر الاسلام في سياق الكلام عن الدم والاضاحي الوثنية . فان اضحية الاسلام لا شائبة فيها للوثنية والفداء ، وانما هي نفقة وتوسعة على العيال والفقراء ، والله تعالى يقول (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) كما انه ينفي عقيدة الفدية نفيا صريحا . فاذا كان الاسلام وهو الدين الوحيد الذي حفظت أصوله ينتقدون عليه ويعدون منه ما جاء لهدمه وابطاله ونهى عنه اشد النهي، فكيف يعتد بما ينسبونه الى اليهودية والنصرانية ولم تحفظ أصولهما حتى يمكن الرجوع اليها ؟

الحق ان أصل الدين فطري في البشر، انطوى عليه وجدانهم، وصدقته عقولهم، عند ما صاروا يبحثون ويستدلون ، والماديون يتوهمون ان فطرتهم وعقولهم لا تؤمن بغير ما يدركونه بحواسهم ، وهذا غفلة منهم عن أنفسهم ، وعن فرضهم وجود الاثير فرضاً تلجئهم اليه الضرورة. وقد بينا من قبل كيفية طروء الوثنية على الناس، وحقيقة النشوء والارتقاء في الاديان وكيف قاومها الانبياء بالدين الحق ولا محل لاعادته هنا .

﴿ اعتناقي الاسلام ﴾

تأليف (المهتدي) عبد الكريم يوسف (جوصو) الفرنسي طبع في المطبعة التونسية على ورق جيد بحرف كبير ص ١٠٧ « بقطع الاسلام والنصرانية » يباع في المكتبة العلمية (عدد ٢٩ بشارع الكنيسة بتونس)

ما زال الله يزيدنا بصيرة ويقينا بدين الاسلام خاتم الاديان بما يهدي اليه من أرباب الارادة القوية والفكر المستقل، فمن اسلام عبد الكريم يوسف (جوصو) الفرنسي، الى اسلام اللورد هدلي الانكليزي ، الى امثالهما من اخواننا الذين لحقوا بنا في الاسلام دين الحق والتوحيد والتنزيه ، والايمان بجميع الانبياء المصلحين .

ولا بد من تعميم الدين الحق { دين الاسلام } في جميع اقطار المعمورة . (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

واليك صورة اهداء كتاب اخينا عبد الكريم قال حفظه الله

الحمد لله الواحد الاحد ، الفرد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا احد ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الذي جاء بالحق ليظهره على الدين كله. مرغما انف من عاند وحقد وحسد، فدعا لسبيل ربه بالحكمة والموعظة

لعبادة الموتى والارواح . فانهم كانوا لا يبنون كنيسة الا اذا أحضروا لها شهيدا أو قديسا دفنوه في هيكلها وقد تفانوا في هذا العمل حتى ان البندقيين نقلوا جثة مرقس الرسول من الاسكندرية الى البندقية لكي يضعوها في الكنيسة المسماة باسمه هناك .

ودين الاسلام التوحيدي العظيم لم يتمالك عن تقديس الموتى واعتبارهم . فالمسلمون ما زالوا للآن يتمسحون بقبور الاولياء و يتبركون بها و يبنون لهم — للاولياء — المساجد على قبورهم .

نريد بذلك ان الانسان الذي تشبع بالتوحيد ما زال يحن الى ميوله الوحشية وتبعثه غريزة التدين الاصلية الى العبادة الاولى : عبادة الجثث والارواح .

وترى للان عند المسلمين اثرا من آثار العبادات القديمة في مشهد قتل الحسين حيث يمثلون قتل الحسين ويسيرون به في الشوارع باكين ومترحمين عليه كما كان يفعل السوريون في البكاء على ادونيس سنوياً . اه

* *

(المنار) : ما أضل (جرانت ألين) الكاتب الانكليزي مؤلف الكتاب ، وأضل أمثاله من احرار الكتاب ، وحجبهم عن الدين الحق ، وأوهمهم انه من خرافات الخلق ، الا ما رأوه من مظاهر الوثنية بين الاقوام ، مع جهلهم بحقيقة الاسلام ، وظنهم ان النصرانية هي أرقى الاديان ، مع شهادة التاريخ بأن جميع أصولها مأخوذة من تقاليد عبدة الاوثان ، كتأليه البشر والتثليث والفداء ، وتقديس كثير من الاشياء . ولو فهموا القرآن حق فهمه ، وعرفوا سيرة نبيه لعرفوا الدين الحق . فان الاسلام وحده هو الدين الذي حفظ أصله كما هو ، فهو الذي يجب ان يتخذ مقياسا وميزانا لا النصرانية ، التي لا يزال الكثيرون من العلماء والمؤرخين يشكون ـ كالمؤلف ـ في وجود من تنسب اليه (وهو عيسى بن مريم عليهما السلام)

اذا كانوا يحكمون على الاديان بمسائل يستنبطونها من التقاليد التي اخترعت بعد دعاة تلك الاديان فكيف يكون حكمهم صحيحا ؟ ألم تر أيها القارئ كيف عدوا على الاسلام تقديس كثير من المسلمين للموتى وتمسحهم بقبور الصالحين وبناء المساجد عليها ، وتمثيل الشيعة منهم لقتل الحسين بن علي (عليهما السلام) كما كان يفعل الوثنيون الاولون ، اذ كان تقديس الموتى ركناً من أركان الوثنية ؟

يعدون هذا على الاسلام، وأصول الاسلام تنفيه وتحرمه وتعد بعضه كفرا وشركا وبعضه معصية، وقد اجمعوا على انه بدعة، وثبت عن النبي (ص) في الصحيحين

بعد ذلك مكثت نحو عشرين سنة ابحث عن الدين الحق لأكون من شيعته ، اذ لا غنى لمخلوق عن عبادة خالقه ·

فاتفق لي في اواخر هذه المدة ان جبت بعض الاقطار الاسلامية، فأثر جمال حياة اهلها تأثيرا عظيما على قريحتي الفنية، واستهوتني محاسنها الى ان اندفعت للبحث في شؤونهم اجمالا وتفصيلا، واذ ذاك اخذ دين الاسلام يستميلني شيئا فشيئا ، الى ان تجلى اليقين امام عيني، وعلمت ان الدين عند الله الاسلام ·

وها انا ابين للواقفين على هذا الكتاب خلاصة ابحاثي من اولها الى آخرها تفنيدا لمزاعم الواهمين · » اه

ثم كتب له ملحقا في المباحث الآتية وهي (تسامح الاسلام) و (انتشار الاسلام) و (في الخلق) نقلا عن كتاب الاسلام الذي الفه الكونت هنري دي كاستري · ثم (القرآن) نقلا من « البحث في اصل اللغات » تأليف جان جاك روسو ومن «حياة محمد» تأليف بولانفير · ومن « الاسلام» تأليف هنري دي كاستري·

وبعد ذلك مبحث (في المرأة) من مختصر « في حقوق المسلمات » تأليف رحمين حلو · ومن « مختصر الانكليزي في الاسلام » تأليف ريفي · يتلوه مبحث (قضاء الكنيسة الكاثوليكية على المرأة) ثم (في تعدد الزوجات) من كتاب « الاسلام على حفض القرآن » تأليف قرسين دي تاسي·

(الاسلام) مجلة دينية علمية اخلاقية سياسية فارسية تصدر في طهران في كل شهر عربي مرة صفحاتها ٤٨ بالقطع الصغير . رئيس تحريرها حسين كمال السلطان · قيمة اشتراكها ١٢ قرانا في إيران ويضاف اجرة البريد للخارج. وثمن العدد الواحد قران واحد عنوانها « طهران خيابان حربة مركز توزيع كل جرائد داخلية وخارجية »

(العرفان) مجلة شهرية شهيرة تصدر في صيدا سنتها عشرة أشهر تبحث في العلم والادب والاجتماع وتعنى عناية خاصة بشؤون الشيعة ، وكانت حجبت عن قرائها زمنا ثم عادت الى خدمتها وهي ذات أربعين صفحة بقطع المنار ، وقيمة اشتراكها في البلاد العثمانية ريال مجيدي وفي الخارج ستة فرنكات

(المنهل) مجلة ادبية تاريخية اجتماعية مصورة عند الاقتضاء · تصدر مرة في الشهر في القدس الشريف لمنشئها محمد موسى المغربي · صفحاتها ٤٠ قيمة اشتراكها ريال ونصف ريال مجيدي في البلاد العثمانية وفي الخارج عشرة فرنكات

الحسنة ، وجادل الناس بالتي هي احسن ، فنهم من تجبر ونفر ، ومنهم من انقاد واذعن واقر ، وتلك سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وعلى كافة الانبياء والمرسلين ، وجميع الآل والاصحاب ومن تبعهم وتلاهم الى يوم الدين .

اما بعد فان المنازل تستهوي ألباب قاطنيها بما يتاح لهم تحت اديمها من افانين السعادة . والسعادة ــ لازلت لها قرينا ــ نوعان : سعادة ارواح وسعادة اشباح ، بينهما من التفاوت كما بين النار والنور ، والظل والحرور .

وقد صادفت اثناء اقامتي بالقطر التونسي سعادة لنفسي ، وراحة لفكري ، من نصب وكفاح مارسته عقدين من السنين ، اعني حين قر قراري ، وسكنت نفسي ، وانقاد ضميري ، لاتباع دين الهدى وشريعة الاسلام ، فصار هذا القطر حينئذ وطنا للنفس تحن اليه ، وترفرف بأجنحتها عليه ، ومن كان حر الضمير يصدع بالحق لا يخشى لوما ولا تثريبا .

لذلك اردت أن ابدي للناس عند منجز هذا التأليف ما المؤدي من الود والميل نحو قطر يجدر لي ان ادعوه « قطر السعادة » فوطدت العزم على اهداء الكتاب لأميره الاعظم ، وملاذه الافخم ، صاحب السؤدد والفخار ، سيدنا محمد الناصر باشا باي ، صاحب المملكة التونسية ، لا زال رفيع العماد ، طويل النجاد آمين

عبد الكريم جوصو

وهذه مقدمته

« تقولت علي بعض الصحف الفرنسوية عند ما اعتنقت دين الاسلام اني أريد تمهيد السبيل للتزوج بأربع نساء ، وامتلاك ما اشاء من الجواري ! سبحانك اللهم هذا رجم بالغيب ، وقذف بالبهتان ، بل اني اسلمت لله رب العالمين ، مخلصا له الدين ، وما أنا اول المهتدين

وجدت الاسلام دينا سمحا سهل المأخذ ، بين العقيدة ، واضح البرهان ، مجردا من الغموض ، لا يفتقر أتباعه في عبادة خالقهم الى واسطة ، فارتضيته لنفسي والحمد لله

لقد كنت بادئ بدء اردت ان اقلد اسلافي الكاثوليكيين ، ولكن الفكر ابى ان يعتقد شيئا لا دليل عليه ، وكيف يقام البرهان على صحة العقائد الكاثوليكية وقساوستها ورهبانها وكرادينالاتها عاجزون عنها .

الاتفاق الذي عقدته جمعية الاتحاد والترقي مع رئيس المؤتمر العربي ، واعطته العهد والميثاق لتنفيذه كله . وهو مؤلف من اثنتي عشرة مادة . ولهذا مكث رئيس المؤتمر بضعة اشهر في باريس ينتظر تنفيذه ، وكانت الاستانة تجذبه اليها وحزب اللامركزية يجذبه عنها ، حتى اختار الحزب أخيرا أن يعود الى مصر ، وان يمر بالاستانة مختبرا اذا شاء . فشاء وجاء الاستانة ، وراجع رجال الحكومة في أمر تنفيذ الاصلاح الموعود به ، فقالوا إننا على عهدنا ، وقد بدأنا من التنفيذ بانشاء مدرستين سلطانيتين باللغة العربية احداهما في دمشق والاخرى في بيروت ، وبتقرير جعل عسكر كل ولاية في منطقتها العسكرية ، وبجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم ودواوين الولايات العربية ، وباختيار الموظفين لهذه الولايات من العارفين باللغة العربية . واما ما يتعلق بالنافعة والاوقاف والمعارف فهو يتوقف على وضع القوانين له ونحن شارعون في ذلك بتنقيح قانون الولايات ووضع قوانين أخرى ، ثم ان تنفيذ بعض ذلك يتوقف على وجود المال ولا مال الآن . واما المناصب والوظائف في مجلس الاعيان ومصالح الحكومة العليا فهلم ساعدنا على اختيار الاكفاء لها لنعينهم بالتدريج .

هذا ملخص ما نتذكره من معنى أجوبة الحكومة للسيد الزهراوي بعد مراجعات متعددة ، ووعود مبهمة ، كان فيها بين اليأس والرجاء مدة طويلة ، حتى عزم على مغادرة الاستانة . ثم شرعت الحكومة في تنفيذ مالا يتوقف على القوانين ولا المال من المطالب بالمشاورة معه ، ومنها تعيين ستة اعضاء من العرب في مجلس الاعيان احدهم السيد الزهراوي نفسه ، إذ اقتضت الحال ان يكون في الاستانة مراقبا لتنفيذ سائر ما وعدت به الحكومة من الاصلاح ، ومنها تعيين الشيخ اسماعيل الحافظ من علماء طرابلس الشام عضوا في مجلس المعارف الاعلى ، وهو في الذروة العليا من نابغي العرب علما وعملا واخلاقا وعقلا ورأيا واستقامة . ومنها تعيين عبد الوهاب افندي الانكليزي (لقبا لا نسبا) وشكري افندي العسلي مفتشين في بعض الولايات ، وهما من اشهر نابغي العرب من سلك الحكومة الملكي المستحقين للمناصب العالية . ومنها تعيين اناس آخرين في (الدوائر) العالية في العاصمة .

وكان رجال الاستانة قبل هذا قد أرضوا بعض رجال جمعية بيروت الاصلاحية بالوعود الجميلة فسكنت حركتها بالتدريج ، واستمالوا السيد طالب بك النقيب زعيم البصرة ، فأعلن في الجرائد الرضاء عن الحكومة والاتفاق معها وتبرع للاسطول العثماني وجمع له مالا كثيرا

﴿ الاصلاح اللامركزي وطلابه في البلاد العربية ﴾

تألف حزب اللامركزية بمصر لمطالبة الدولة بتغيير شكل ادارتها في المملكة كلها - وان كان جميع مؤسسيه من العرب السوريين - لأنهم يريدون الحياة للدولة كلها لا لبلادهم فقط ، ولو طلبوا الادارة اللامركزية لبلادهم وحدها لما كان ذلك أنفع لهم ولا أرجى لقبول طلبهم ، اذ رضاء الدولة بجعل ادارة بعض ولاياتها مركزية وبعضها غير مركزية بعيد عن العقل والتصور . وتألفت في أثناء ذلك الجمعية الاصلاحية ببيروت لطلب اصلاح معين لولاية بيروت خاصة . وتلتها جمعية في البصرة لطلب الاصلاح لولاية البصرة خاصة . وما حفز العرب في هذه المواضع واهاب بهم الى طلب الاصلاح والدولة تئن من أثقال الحرب البلقانية التي غابت فيها على امرها، الا خوفهم أن يكون بقاء الخلل السابق سببا لانحلال الدولة وتقسيم الدول لها بالفتح السلمي الاقتصادي او الاحتلال العسكري .

ولما رفعت هذه الجماعات اصواتها بطلب الاصلاح رددت صداه جماعات المهاجرين السوريين في امريكة الشمالية والجنوبية وفي أوربة ، واقترح بعض من في باريس منهم تأليف مؤتمر عربي بباريس لاعلان مقاومة كل احتلال اجنبي في البلاد وللبحث في حقوق العرب في الدولة العثمانية والمطالبة بها . وعهدوا الى حزب اللامركزية ادارة هذا المؤتمر ، فاختار الحزب للقيام بذلك كلا من السيد عبد الحميد الزهراوي واسكندر بك عمون ورشح الاول لرياسة المؤتمر على ان يكون بانتخاب اعضاء المؤتمر ، وكذلك كان . وكان من امر انعقاد المؤتمر ونجاحه واهتمام حكومة الاستانة به ما هو مشهور .

شعر أركان الحكومة الاتحادية بوجود العرب وعنوا بمبادلة الاحتفالات بينهم وبين من في الاستانة من العرب واكثرهم طلبة المدارس الاميرية . وسعوا لاستقدام الوفود من سورية ، واحتفلوا واحتفوا بمن ذهب منهم الى الاستانة ، وادبوا لهم المآدب ، واحبوا التأليف بين طلاب الاصلاح ومن عارضهم وشنع عليهم تزلفاً للحكومة ، ولكن لم يتم لهم هذا . وكانت هذه المظاهرات التي اهتم بها اهل الاستانة تذكر بالسخرية في غيرها ، ويعدها العرب في مصر وسورية والعراق وفي البلاد الاجنبية خداعا وتخديرا .

وأما الامر الذي كان محل النظر ، وموضع الامل عند بعض العرب ، فهو

فذلك لا ينفي بقاء اتفاق أهل الرأي منهما مع حزب اللامركزية في المطالب الاصلاحية العامة ، وان لم يساعده على ذلك جميع افرادهما في الشكل الاول ، فقد يساعده كثير منهم في شكل آخر . والحق الواقع ان الحزب الآن اقوى ناصرا واكثر عددا مما كان عليه من قبل ، خلافا لما يتوهمه البعيد عنه ، فقد تشعبت شعبه وكثرت فروعه في الولايات ، ورسخت مقاصده في النفوس ، وقد قويت الآمال فيه ، وانحصر رجاء الولايات في سعيه ، وان صلة السيد الزهراوي به لم تزد رجاء الولايات فيه الا قوة وثباتا ، وان كان أهل الرأي من شعبه ولجانه فيها متفقين مع اخوانهم الذين في مصر على كون ما منت به الحكومة على العرب لا يعد شيئا مذكورا في جانب مطالب الحزب ، ولا ينبغي ان يزيده الا جدا واجتهادا في السعي .

وأما المعترضون فمنهم المخلص الذي لا علم له بدخائل الامور وحقائقها ، ومنهم المخلص المطلع الذي يريد بالاعتراض حفز الهمم ، والحث على الاسراع في العمل ، ومنهم من لا حظ له من المطالبة بالاصلاح الا التلذذ بمقاومة الدولة العثمانية والتهويش عليها ، وهو لا يرجو لها ولا منها صلاحا ، ولا يحب لها بقاءا . فهو نصير المتألبين عليها ، وظهير المقاومين لها ، وعدو الراضين منها ، كيفما كانوا ، وبأيه شكل ظهروا ، ومراده ان تستولى الدول الاوربية عليها ولا يرضيه ما دون هذا . ومنهم من لا يسهل معرفة قصده ولا حقيقة مراده . فاما فالمخلصون في طلب الاصلاح فلا يلبثون أن يرجعوا عن انكارهم ، وغير المخلصون لا علاج لهم .

وأغرب ما رأى الحزب من المعارضة والمقاومة وأبعده عن المعقول ما كان من احد كتاب نصارى السوريين الذين انتموا للحزب . فقد حضر كثيرا من جلسات اللجنة العليا بطريق الاستثناء ، كان يلقي فيها دلوه بين الدلاء ، فينفرد بالمعارضة ، ويلح بطلب جعل المصالح والمنافع قسمة بين المسلمين والنصارى ، وقد اتفق الفريقان على انكار هذا الرأي وضرر هذه القسمة ، وكونها تكون مثار النزاع والتخاصم والعداوة والبغضاء ، ويجزم أهل العلم والرأي من النصارى بأن ضرر هذه القسمة عليهم اشد ، وان السكوت عن كل ما يتعلق بالدين والمذاهب خير لهم وانفع . ولكن هذا الكاتب الذي كان ينكر ذكر الدين في امور السياسة وشؤون الدنيا بث فكره هذا بما نشره في بعض جرائد مصر وأمريكة ، ونفر نصارى المهاجرين في أمريكة من الحزب ، ونهاهم عن مساعدته باسم المسيحية وحقوق المسيحيين وهضم المسلمين لها ، حتى انه كتب في جريدة الهدى الامريكية التي تعنى بنشر ما يكتبه ان صاحب المنار أنكر على مسلمي بيروت اتفاقهم مع نصاراها على جعل نصف أعضاء المجالس المحلية

ثم ان حزب اللامركزية رأى من الصواب ان يحفظ صلته بالسيد الزهراوي كما حفظ هو صلته بالحزب بعد قيامه بما عهد اليه خير قيام . حتى انه لم يحل ولم يرحل ، ولم يحلّ ولم يعقد ، الا باستشارة الحزب ، ولان زعماء الحزب يثقون كل الثقة بصدقه في القول وباخلاصه في العمل لمصلحة الامة ، فهو بهذا خير من يوقفهم على أعمال حكومة العاصمة فيكونون على بصيرة منها ، فلا يبنون عملهم وسعيهم على الظنون والاوهام ، فقرر الحزب باتفاق الآراء إقرار السيد الزهراوي على قبول منصب الاعيان والثقة به ، اي في التوسط لدي الحكومة بمطالب الاصلاح . فعل الحزب هذا وهو غير موقن ولا مرجح لانجاز الحكومة ما وعدت به السيد الزهراوي ، كما انه غير موقن بأنها لا تنجزها ، فكانت الحكمة في عدم قطع الصلة بالحكومة ، ومطالبتها بالبرهان والحجة ، على كون الحزب لا يألو جهدا في السعي الى الاصلاح من طريق الامة ، فهو يسلك الطريقين الى مقصده ، فاذا لم يصل من احدهما وصل من الآخر .

اتفق ان الحزب لم ينشر شيئا جديدا بعد بيانه العام الذي نشره يوم المظاهرة البرقية السلمية ، بطلب البلاد كلها للادارة اللامركزية ، لانه لم تجدد شيء جديد يدعو الى النشر ، فظن البعداء عن مركز الحزب والذين ليس لهم صلة مكاتبة به ، ان الحزب قد سكن وسكت او انحل كجمعية بيروت وجمعية البصرة . وأنه رضي من الحكومة بما قالت وما فعلت ، وطفقت الجرائد العربية في امريكة تطعن في الحزب وفي طلاب الاصلاح كافة ، وزعماء بيروت منهم خاصة .

***

يدخل الكلام بهذا الموضوع في اربع مسائل : الجماعات الاصلاحية ، والمعترضون عليها الآن ، وما يعترضون به ، والحالة الحاضرة . ولنا في كل مسألة منها قول وجيز .

اما الجماعات الاصلاحية فثلاث كما تقدم: جماعة حزب اللامركزية وهي تعمل للملكة كلها وان كان العاملون فيها عربا وتأثير عملها الاول في البلاد العربية . ومتى وجد الاصلاح في البلاد العربية يوجد في غيرها حتما اما سابقا واما لاحقا ـ وجماعة بيروت وجماعة البصرة ، ومطالب كل منهما موضعية ، ولكن زعماءهما متفقون مع حزب اللامركزية في مطالبه العامة كلها ، اذ النسبة بينه وبينهما كالنسبة بين الخاص والعام . فاذا سكتت الجماعتان اليوم عن مطالبهما الخاصة لأسباب اقتضت ذلك ،

على اختياره للمؤتمر ، ثم ان حسن سلوكه في المؤتمر ، وثباته بعد اتمام عمله فيه على السعي الى الاصلاح مع الارتباط بالحزب وتقيده بقراراته ، وانقطاعه عن كل عمل لأجله ، على كونه ينفق من مال نفسه – وناهيك بسعة النفقات في أوربة – كل ذلك كان من الاسباب الجديدة لرضاء الحزب بقبوله لمنصب عضوية الاعيان والتوسط لدي الحكومة في الاصلاح ، واما السبب الأول فهو كفاءته الشخصية في صدقه واخلاصه وتاريخه الحميد النقي ، كما أشرنا الى ذلك من قبل .

***

بقيت المسألة الرابعة ، وهي بيان حالة الحزب الحاضرة . والقول الوجيز فيها ان الحزب – وان لم يسمع له صوت عال من عدة أشهر – قد أصبح أقوى مما كان، منذ أسس الى الآن ، فقد كثرت فروعه في الولايات وانتظمت ، وقويت الثقة به وثبتت ، وانحصرت آمال طلاب الاصلاح فيه أو كربت ، ويصح ان يقال ان طوره الأول كان طور تمهيد للعمل بإعداد الافكار ، ثم بتأليف اللجان ، وقد انتهى الآن بطور القيام بالاعمال ، وان قيامه بالعمل، واضطلاعه بالسعي ، هو خير خدمة للدولة قبل الامة ، لما أثبته الماضي لرجاله من الروية وحسن النية ، فكانت المصلحة في أن يديرهو الحركة ، لئلا تفضي الى الفوضى ، أو يتغلب عليها الغلاة المتطرفون ، الذين ظهرت في مدة سكونه اصواتهم بنغمة الثورة ، وبتوزيع منشورات أقلقت الحكومة وعقلاء الامة . ويقال انه يريد ان يبدأ عمله بجمع مؤتمره السنوي وتجديد انتخاب أعضاء اللجنة العليا ، وعرض المشروعات الجديدة للعمل عليها ، ومنها تحويله الى جمعية ، اذ لم تصدق عليه الحكومة . فقد اقترح هذا كثيرون . وعسى ان تكفيه الحكومة هذا الامر ، فتبادر الى الاصلاح من تلقاء نفسها والله الموفق .

الشيخ علي يوسف

٤

﴿ أخلاقه وسجاياه ﴾ المنار لايعنى بترجمة أحد ترجمة تاريخية محضة وإنما يعنى من تراجم الناس ببيان الاخلاق الحسنة والاعمال النافعة ، التي تكون مثالا حسنا ، وقدوة صالحة ، لأن غاية المنار اصلاحية فهو يعنى بكل ما يتوسل به

من المسلمين والنصف الآخر من غيرهم . وهي دعوى غير صحيحة ، فان المنار أنكر من لائحة جمعية بيروت الاصلاحية اكثر ما اعطته للمفتشين والمراقبين من الاجانب ولم ينكر مسألة المناصفة في المجالس بل عدها دليلا على اخلاص المسلمين وصدقهم الاتفاق مع النصارى لأنهم تنازلوا لهم عن بعض حقوقهم .

وأما الانتقاد والطعن الذي صوب اليهم فهو ان الترك ارضوهم ببعض المناصب والوظائف ، فظهر أن طلب الاصلاح كان شبكة لصيد المنافع ، و يحتجون على هذا بأن المؤتمر العربي قد قرر ان لا يقبل احد من المنتمين الى لجان الاصلاح العربية اي منصب في الحكومة العثمانية اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها — الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها . وخص باشد الانتقاد السيد الزهراوي وعميدي المسلمين والنصارى في جمعية بيروت الاصلاحية ـ محمد افندي بيهم ونخله بك سرسق اذ قبلوا ان يكونوا أعضاء في مجلس الاعيان ، قبل تنفيذ الاصلاح في البلاد العربية

ولهؤلاء الثلاثة ثلاثة اجوبة يردون بها تلك المطاعن (احدها) ان الحكومة قد شرعت في تنفيذ الاصلاح ولا يعقل أن لا يقبل العرب طلاب الاصلاح منصبا ولا عملا فيها الا بعد تنفيذ الاصلاح كله بأيدي الترك ومقاومي الاصلاح من العرب ، كأننا نقول : إننا بعد ان يصلح لنا هؤلاء بلادنا نقبل المناصب والوظائف فيها ! (الثاني) ان عضوية الاعيان لا تعد وظيفة او منصبا في الحكومة ، لان عمل الاعيان كعمل المبعوثين (النواب) : وضع القوانين ومراقبة الحكومة في تنفيذها ، فهو سيطرة على الحكومة لا خدمة لها (الثالث) ان اللجان الاصلاحية التي ننتمي اليها قد وافقت على ان نكون في مجلس الاعيان . وأما الذين قبلوا المناصب في غير مجلس الاعيان فيمكن لمن كان منتميا الى بعض لجان الاصلاح ان يجيب بالجواب الاول . وهو جواب ضعيف اذا لم يعززه الثالث .

سواء على حزب اللامركزية اقتنع المنتقدون والطاعنون بهذه الاجوبة أم لم يقتنعوا ، فان لجنة الحزب العليا لم تدخل في باب المناصب والوظائف ، وقد دعي رئيسه (رفيق بك العظم) الى الاستانة مرارا قبل ذهاب الزهراوي اليها و بعده ـ وكان ولا يزال مرشحا لمنصب الوزارة — فلم يجب الدعوة ، والسيد الزهراوي ـ وان حضر تأسيس الحزب — لم يحب ان يدخل في لجنته الادارية ولا في الانتخاب لها ، لانه جاء مصر زائرا لا مقيما . ولكن مكانته العالية من نفوس لجنة الحزب العليا ومن نفوس سائر طلاب الاصلاح في سورية وغيرها هي التي حملت اللجنة

ملحق

﴿ لمجلة المنار الاسلامي في مصر ﴾

سنة ١٣٣٢

الى الاصلاح ، ويرغب الناس في الفضائل ومحاسن الاعمال ، واذ ذكرنا مايقابل ذلك فانما نذكره لان العبرة لاتتم الا به ، ولا يجمل ذكر المساوي هو الاصل في الموعظة، وقد كان ماذكرناه من ترجمة هذا الرجل دائراً على هذا القطب ،وأحببنا أن نختمها بهذه الكلمات التي تذكر الناسي وتنبه الغافل لما هو المقصود بالذات .

فنقول أن هذا الرجل نبه بعد خمول ، وارتفع بهمته وأخلاقه الى الطبقة العليا في أمته ، فصار من بطانة أمير البلاد وأهل ثقته . وصاحب التأثير الاول في أفكار المصريين ، والرأي المحترم في جميع الاقطار الاسلامية ، وكم من متعلم نال الدرجات العلى في العلوم والفنون العربية والافرنجية يتمنى أن يصل الى ماوصل اليه الشيخ علي يوسف بما دون درجات علمه وهو لا يستطيع الى ذلك سبيلا ، لأن من أبطأت به سجاياه وأخلاقه لاتسرع به علومه وفنونه ، فأحب أن تتذكر نابتتنا أن الرجل قد ارتقى بالعزيمة. وقوة الارادة والصبر والثبات وعلو الهمة،والاخلاص للملة والامة. فمن استطاع ان يتخلق بهذه الاخلاق فليقصد بها ماشاء من مراتب الكمال ، ومقامات الرجال . وليحذر المعتبر بسير رجال عصره من الوقوع في مثل الخطأ الذي ارتكبه هذا النابغة وأمثاله من النوابغ(كقاسم بك أمين) وهو محاولة استعجال الثروة الواسعة التي تليق بمقامهم الاجتماعي بسلوك الطرق التي ربما تؤدي الى ضد مرادهم ، والشيخ رحمه الله عصمته تربيته الدينية ان يفتتن بما افتتن به كثير من كبرائنا المتفرجين من المقامرة ، وانما تورط في شراء الدور والقصور وعرصات الارض المعدة للبناء في تلك المدة التي خرج فيها التغلي بالاثمان عن الحد الطبيعي الذي وصلت اليه درجة العمران في البلاد . ولما عادت (سنة ردّ الفعل) باثمان المباني وعرصاتها الى مادون الثمن المعتدل لها ، بعد ذلك الافراط فيها ،غرق الرجل مع من غرق في طوفانها ، ولولا ذلك لما قصرت ثروته بما يليق بمقامه الاجتماعي ، على ما كان من تقصيره في ادارة المؤيد المالية . وما ذكرنا هذا على كونه معروفا مشهورا الا ليكمل الاعتبار بسيرة فقيدنا النافعة طردا وعكسا ، ونسأل الله تعالى ان يتغمده برحمته ، بمنه وفضله وكرمه .

(تنبيه)وقع في السطر ٢٢ من ص١٦٨ من هذا الجزء كلمة سب خطأ وصوابها(سبب)

(ع م) لانه من اسمعيل . وبيانه في نبوة اشعيا ٤١ : ٢ بحسب العبراني ﴿ من أنهض من المشرق الصدق يدعوه لقدمه وفي عدد ٢٥ منه قدانهضته من الشمال فاتى من مشرق الشمس يدعو باسمي ﴾ فاولا قام النبي من مكة ديار بني اسمعيل الى المدينة مهاجرا ثم قام من المدينة المنورة الى مكة فاتحا ودخلها من اعلاها شرقا ، والمدينة شمال مكة ومكة شمال حويلة وحويلة ﴿خولان﴾ شمال اليمن على تخوم الحجاز كما سبق البيان . وفي نبوة اشعيا ٤٢ : ١ هوذا عبدي الذي اعضده مختاري - ثم قال في عدد ٦ منه - فامسك بيدك والعبراني «وامسكت بيدك» وترجمة الكاثوليك واخذت بيدك أي امسكت بيدك بيانا لما في التكوين في اسمعيل ١٦ : ١٢ « يده في الكل » ثم بعد قوله وامسكت بيدك في نبوة اشعيا باب ٤٢ ذكر في عدد ١١ ذكر ديار قيدار وتحميدهم للرب من رؤس الجبال اشارة للحج الاسلامي وفي عدد ١٢ خروج الرب كرجل حروب ﴾ كناية عن اعانة الرب وعنايته للمسلمين في جهادهم وتأييدهم من الرب. وقيدار ابن اسمعيل تكوين ٢٥ : ١٣) ﴿ تنبيه اول ﴾ في خروج اسمعيل الى الحجاز بحث لان وقت فطام اسحق كان عمر اسمعيل ١٧ سنة كما في شرح الاسرائيلية القرايين. فكيف يقال في اسمعيل عند ما كان مع امه : طرحت الولد قومي احملي الغلام ؟ وسنه قدر سن يوسف بن يعقوب لما كان يرعى (١٧سنة) كما في التكوين ٣٧ : ٢ فالاسرائيلية اختصروا في القصة فوقع فيها الارتباك . وسننشر كتابا انشاء الله تعالى ونكملها من التاريخ والكتاب (تنبيه ثان) بعد ولادة اسمعيل لابراهيم من هاجر بحسب العبراني قال الرب لابراهيم ﴿ يكون اسمك ابراهيم لاني جعلتك ابا لجمهور امم ﴾ اشارة الى نسل اسمعيل ولنسل اسحق الذي سيأتي قال الرب له (واجعلك امما) وامره بالختان وجعله عهدا ابديا وعاهده أيضا على اعطائه ارض كنعان بالشام، ثم بشره بانه سيعطيه ابنا ايضا من سارة فقال ابراهيم في قلبه . هل يولد لابن مئة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟ وقال ابراهيم لله : ليت اسمعيل يعيش امامك. فقال الله له : حقا سارة تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق وأقيم عهدي معه لنسله من بعده ، أما اسمعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا باركته وأثمرته وأكثرته - الى قوله - وعهدي أقيم مع اسحق) كل ذلك في التكوين باب ١٧ وترجمة النصارى هنا خلاف العبراني الذي اعترفوا بالنقل عنه (والاصل ماذكرنا) وفي شرح الاسرائيلية الربانيين العهد لاسحق الختان وبنو اسمعيل مع اسحق اه لان اسمعيل ختن قبل ميلاد اسحق . وأيضاً العهد لاسحق بأرض كنعان بالشام كما في سفر الخروج ٦ : ٣ ومزمور ١٠٥ : ٩ الذي عاهد به ابراهيم

السفر الجميل في ابناء الخليل

(لأحمد افندي ترجمان)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

في اسمعيل ثم في اسحق ثم دخول المسلمين الى الشام وفوائد (في اسمعيل) في التكوين بحسب الاصل العبراني ١٦ : ١٢ آدم برى، يده في الكل ويد الكل فيه وامام جميع اخوته يسكن . وقال قبله لأم اسمعيل : لان الرب سمع لمذلتك . وكلمة « بري » مثلها بالمضارع في نبوة هوشع ١٣ : ١٥ يثمر كما في قاموس الاسرائيلية والمراد بقوله « يده في الكل ويد الكل فيه » النبي (عم) لانه من اسمعيل، وقوله « امام جميع اخوته يسكن » فمحل نزول اسمعيل وسكنه ومعه أولاده وبيان أسمائهم في التكوين ٢٥ : ١٣ وهذه أسماء بني اسمعيل — نبايوت بكر اسمعيل وقيدار . الى آخره اثنا عشر — ١٨ وسكنوا من حويلة الى شور الى قوله « امام جميع اخوته نزل » اي اسمعيل. وحويلة الثاني عشر من بني يقطان تكوين ١٠ : ٢٩ ويقطان بن عابر تكوين باب ١٠ وابراهيم أبو اسمعيل من عابر تكوين باب ١١ وفي تاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس مجلد أول في سكنى بني يقطان « حويلة الثاني عشر من أبناء يقطان استوطنت ذريته في بلاد خولان شمال اليمن على تخوم الحجاز حيث امتدت بعد ذلك ذرية اسمعيل كما جاء في التكوين فصل ٢٥ عدد ١٨ » اه أما فاران ففي كتاب تحفة الاريب قال « فاران اسم رجل من ملوك العمالقة الذين اقتسموا الارض فكان الحجاز وتخومه لفاران » وقال ياقوت « فاران جبال الحجاز . وفاران قرية من نواحي صغد من أعمال سمرقند ، وفاران والطور كورتان من كور مصر القبلية »

ولما هاجر النبي (عم) من مكة ونزل المدينة وأهلها الاوس والخزرج وأصلهم من بني يقطان أسلموا وأيضاً أسلم بنو يقطان الذين هم في اليمن وغيرهم . ولما قام المسلمون للفتح ـ بنو عدنان من بني اسمعيل وبنو يقطان وغيرهم ـ قومة واحدة انتصروا على الفرس والرومان واخذوا البلاد ، وفي تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي بك زيدان صاحب الهلال بمصر قال : كان اليهود بالشام يدلون العرب على عوارات المدن ضد الروم ويدخلونهم اليها فصارت يد بني عابر يدا واحدة . وقوله في اسمعيل في التكوين ١٦ : ١٢ يده في الكل ويد الكل فيه . قلنا ان المراد به النبي

رسولا كما في نبوة اشعيا ٤٩ : ٥ جابلي من البطن عبدا له لارجاع يعقوب ، أي بني يعقوب اه ولا عبرة بقول النصارى « رمزى وحرفي » لان التحريف ممنوع كما في نبوة ارميا ٢٣ : ٣٦ — كلمة كل انسان تكون وحيه اذ قد حرفتم كلام الاءله الحي — { الثاني } من نبوة ميخا ٥ : ٢ — انت يا بيت لحم — يخرج لي الذي يكون حاكما على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ ايام الازل، اي مخارجه في مجيئه الاول منذ (١) القدم بالنسبة لمجيئه الثاني وحكمه الذي ابتدأ النبوة فيه ولذلك قال: لذلك يسلمهم الى حين تلد الوالدة) اي يتركهم للضيق مثل الوالدة لما تلد وهذا في مجيئه الاول لعنادهم ثم في مجيئه الثاني بينه بقوله (ثم ترجع بقية اخوته الى بني اسرائيل ٤ ويقف ويرعى بقدرة الرب بعظمة اسم الرب إلهه ويسكنون لانه الآن يتعاظم الى اقاصي الارض ٥ ويكون هذا سلاما .) اي ترجع بقية اخوته الذين في الخارج على الموجودين بالشام ويرعاهم جميعا بقدرة الرب ويسكنون ويكون سلام لان بتعاظمه الى اقاصي الأرض يسهل رجوع الذين في الخارج الى الارض المقدسة بالشام ، وهذا معنى مافى نبوة اشعيا ٤٩ : ٦ لتكون خلاصي الى اقصي الارض ، اي لخلاص بني اسرائيل (ثالث) من نبوة هوشع ٣ : ٤ لان بني اسرائيل سيقعدون اياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس — الى قوله — وبعد ذلك يعود والعبراني يرجع بنو اسرائيل ويطلبون الرب إلههم والى داود ملكهم — الى قوله في آخر الايام) والمراد بداود ملكهم المسيح لانه من داود وداود من يعقوب. المعنى ان بني اسرائيل يقعدون اياما كثيرة حيارى بلا رئيس وبعد ذلك يرجعون عن العناد ويطلبون الرب إلههم ويرجعون الى داود ملكهم ويلزم من رجوعهم اليه عنادهم ابتداء معه فالنصارى تركوا « الى » في قوله الى داود ملكهم فقالوا وداود ملكهم تحريفا بالنقصان اه

(ملحق) نقول لاهل الكتاب لاتستغربوا أن للمسيح مجيئين حسب نص نبوات الانبياء المقدسة عندكم والله على كل شيء قدير بأن يحفظ المسيح من الاعداء ويأتي به حسب ماتقتضيه حكمته ، ومثل ذلك ايليا رفعه الله الى السماء كما في ملوك ثانى ٢ : ١١ — فصعد ايليا في العاصفة الى السماء) وفي نبوة ملاخي من قول الرب ٤ : ٥ (هانذا أرسل اليكم ايليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف) العبراني هنا « الياهو » وفي حاشية الكاتوليك على نبوة ملاخي قالت التقليد الراهن والمتفق

---

(١) منذ القدم يطلق على الزمن الماضي القدم قدم وازل كما في مزمور ٤٤ : ١ — في أيامهم في أيام القدم وفي نبوة أشعيا ٦٤ : ٤ ومنذ الازل لم يسمعوا)

وقسمه لاسحق ١٠ فثبته ليعقوب الى قوله قائلا أعطي لك أرض كنعان) فجعل الرب لبني اسمعيل اليد في الكل وجعل لبني اسحق أرض كنعان بالشام. (ملحق) ان الله تعالى بارك اسمعيل لاجل ابراهيم كما في التكوين باب١٧ وبارك اسحق أيضاً لاجل ابراهيم كما في التكوين باب٢٦ وفي نبوة أشعيا من قول الرب ٤١ : ٨ - ابراهيم خليلي) فالكل لاجل ابراهيم، وسمع الرب ذل هاجر فجعل اسمعيل ابنها يده في الكل، تكوين ١٦ : ١٢ والله سبحانه وتعالى لايخلف وعده وهو على كل قدير اه وفي سفر أيوب ٢٢ : ٢١ تعرف به وأسلم) اي تعرف بالرب وأسلم له، والعبراني «وشلام» وأيوب كان قبل موسى كما في حاشية الكاثوليك وقبل ابراهيم كما في مرشد الطالبين للبروتستان فالأصل « الاسلام » اه

(في اسحق) بركة الرب لاسحق في الارض المقدسة كما في التكوين باب٢٦ تنتقل من بعده الى يعقوب ثم الى داود ثم الى المسيح في اخوته. وبيانه في دعاء اسحق ليعقوب بالوحي الالهي كما في التكوين ٢٧ : ٢٨ فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الارض وكثرة حنطة ونبيذ ٢٩ ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو امك. لاعنك ملعون ومباركك مبارك) فقول اسحق ليعقوب يستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . هذا تم لداود في ارض الشام لان يعقوب لم يخضع له شعوب بل لداود الذي هو من يعقوب ، وسلطنته في بلاد الشام وبيانه من قول داود في مزمور ١٨ : ٤٧ الاله المنتقم لي والذي يخضع الشعوب تحتي . والعبراني (يخضع شعوب تحتي) ثم قول اسحق ليعقوب: كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو أمك لاعنك ملعون ومباركك مبارك) وهذا المراد به المسيح لانه من داود وداود من يعقوب فهو نفس يعقوب ايضا وفي نبوة اشعيا خطابا لشعب اسرائيل ٥١ : ٢ انظروا الى ابراهيم ابيكم والى سارة التي ولدتكم لأني دعوته وهو واحد وباركته واكثرته) فالمسيح في مجيئه الثاني يكون كبيرا لاخوته بني اسمعيل من ابيه ابراهيم ويخضع له بنو امه وهم بنو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم من سارة . والسجود بمعنى الخضوع والخضوع يسبقه العناد ابتداء والخضوع انتهاء. وفي شرح الاسرائلية الربانيين في قول اسحق ليعقوب (كن سيدا لاخوتك) قالوا كبير على بني اسمعيل وبني قطورا يعني من ابراهيم وفي قوله (وليسجد لك بنو امك) قالوا بنو يعقوب اه لان يعقوب بن اسحق بن ابراهيم من زوجته سارة ، ولا يقال في قول اسحق ليعقوب (كن سيدا لأخوتك وليسجد لك بنو امك) المراد به داود ايضا لان داود لم يكن

رئيسا على بني اسمعيل وفي نبوة اشعيا في المسيح باب ٤٩ بحسب العبراني انه سمى المسيح فيها اسرائيل واسرائيل هو يعقوب، وفيها ان للمسيح مجيئين: الاول لم يقبل اليهود منه، ومجيئه الثاني يكون في وقت رضاه ويجمعهم ويقيم الارض، وهي بيان لقول اسحق في امر المسيح مع بني اسرائيل بني امه ساره جدة يعقوب، وقول اسحق ليعقوب بعد قوله له كن سيدا لاخوانك وليسجد لك بنو امك - والمراد المسيح كما توضح - قال لاعنك ملعون ومباركك مبارك) فلاعن المسيح ملعون ومباركه مبارك حسب قول اسحق، فلا يتأتى للنصارى اذا كانوا تابعين للمسيح - كما يقولون - ان يسموا المسيح لعنة كما في رسالة بولس الى اهل غلاطية ٣ : ١٣ او يسموا المسيح ملعونا كما في مرشد الطالبين للبروتستان صحيفة ٤٤٢ طبعة سادسة سنة ١٩٠٩ لان لاعن المسيح ملعون ومباركه مبارك حسب قول اسحق. وكيف يسمون المسيح ملعونا ولاعنه ملعون؟ وسيدنا اسحق من الانبياء العظام والمسيح مؤيد لنبوات الانبياء والناموس اي الشريعة كما في انجيل متى ٥ : ١٧ فبنو اسمعيل اخوة المسيح لابيه ابراهيم على هدى ونور من ربهم لايمانهم بالرب وبأنبيائه واعترافهم بالمسيح (ع م) بانه من الانبياء العظام وهم ينتظرون نزوله كما اخبرهم نبيهم (ع م) في الحديث (١) الشريف الصحيح . يكون المسيح في مجيئه الثاني كبيرا لهم فلذلك تقدموا في قول اسحق ليعقوب والمراد المسيح بقوله كن سيدا لاخوتك أي كبيرا لهم . ولعناد بني اسرائيل وانكارهم المسيح وهم بنو امه سارة جدة يعقوب والدة ابيه وصفهم اسحق بقوله (وليسجد لك بنو امك) اشارة لخضوعهم اليه انتهاء ويلزم من الخضوع العناد ابتداء ثم الخضوع انتهاء، ثم قول اسحق (لاعنك ملعون ومباركك مبارك) فقوله مباركك مبارك يراد به بنو اسماعيل ومن معهم من المسلمين لانهم يباركون المسيح كما في القرآن الشريف يحكي قول المسيح عن الرب { وجعلني مباركا اينما كنت } ولا

---

(١) قوله في الحديث الشريف أما ماورد في القرآن الشريف في قوله تعالى للمسيح (اني متوفيك ورافعك) الاية المراد بالتوفي النوم ومنه قوله تعالى (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى) فجعل النوم وفاة وكان سيدنا عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف فمعنى الاية (منيمك ورافعك) اه من الخازن وفي الزمور ٣٧ خطاب للمسيح عدد ٣٤ (انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الارض. ومثله مزمور ٩١ وفي القرآن الشريف أيضا في المسيح (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أي قبل موت المسيح لان سياق الكلام فيه وهذا في مجيئه الثاني وحكمه حين ترجع اليهود الى الله تعالى وتؤمن لمسيح ثم ينتقل الى كرامة الله تعالى . ومجيئه في آخر الزمان كما في قوله تعالى في المسيح (وانه لعلم للساعة) أي نزوله قرب الساعة، ومثله في نبوة هوشع ٣: ٥ في آخر الايام

عليه عند عموم اليهود والمسيحيين ان ايليا النبي يجيء بشخصه في منتهى العالم لمقاومة الدجال وقد صرح بذلك السيد المسيح نفسه (مت ١٧: ١١ ومرقس ١٩ : ١) اه وقولهم « في منتهى العالم » نص النبوة قبل مجيء « يوم الرب » وفي شرح الاسرائيلية الربانيين قال : قبل مجيء اليوم العظيم اه فاذا كنتم يا أهل الكتاب مصدقين بكتابكم يلزم أن تصدقوا بمجيئه خصوصاً نبوات الانبياء لا ان تصدقوا البعض وتنكروا البعض الآخر (تنبيهات) (الاول) في ترجمة المسيحيين لداود مزمور ٢٢ : ١٦ (ثقبوا يدي ورجلي) الاصل العبراني كاسد يدي ورجلي وفي حاشية كتاب البروتستانت أو كأسد. فقد اعترفوا . وقول داود في مزمور ٢٢: ١٦ (كأسد يدي ورجلي) بناء على قول يعقوب في يهوذا ابنه كما في التكوين ٤٩: ٩ يهوذا شبل أسد الى قوله كأسد) والمراد بيهوذا داود لانه من يهوذا وسلطنته بالشام (الثاني) في نبوة أشعيا باب ٥٣ عدد ٨ ـ انه ضرب من أجل ذنب شعبي) والاصل العبراني « لهم ضربة » يعني الشعب ولفظها العبراني « لامو » فتركوا « لهم » وقالوا ضرب ، وفي عدد ١٠ منه ـ ان جعل نفسه ذبيحة اثم كلمة ذبيحة زادوها . والاصل العبراني فحسب نفسه آثما ، وفاتهم قوله بعدها « يرى نسلا » والمراد الشعب لا المسيح وفي عدد ٦ ـ وضع عليه اثم جميعنا ـ والمراد الشعب وبيانه في مراثي النبي أرميا ٥: ٧ آباؤنا أخطأوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم) فمراثي أرميا هي بيان لنبوة أشعيا باب ٥٣ وقد اعترف الكاتوليك والبروتستانت كما في كتبهم انهم يترجمون من الاصل العبراني وهنا خالفوا ونسبوه للاصل العبراني (الثالث) نبوة زكريا باب ١٢ وباب ١٣ تمت في يهوذا وأخيه يوناثان من المكابين من بيت هرون (وعبارتهم في سفر المكابين الاول وهو من الاسفار القانونية عند الكاتوليك والاورتدكس ، والبروتستانت تعتبره تاريخا لليهود (الرابع) في نبوة أشعيا ٧: ١٤ ـ ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل) الاصل العبراني الفتاة حبلى والكلمة العبرانية مثلها حرفيا في هاجر لما كانت حاملة باسمعيل كما في التكوين ١٦: ١١ ـ ها أنت (حبلى) وفي قاموس البروتستانت للكتاب (عمانوئيل) اسم ولد فى أيام أشعيا الخ (الخامس) فى نبوة أشعيا ٩: ٦ لانه يولد لنا ولد ونعطى ابناً الى قوله مشيرا إلهاً الخ وترجمة الكاتوليك لانه قد ولد لنا ولد أعطي لنا ابن الى قوله مشيرا إلهاً الخ مثل العبراني في شرح الاسرائيلية الربانيين هو حزقيا أي ملك يهوذا اه ويطلق عند الاسرائيلية على القضاة والرؤساء آلهة كما في سفر الخروج في العبد الذي يعتق ٢١: ٦ يقدمه سيده الى الله والعبراني الى الآلهة . وترجمة الكاتوليك يقدمه مولاه الى الآلهة) وفي حاشيتهم أي القضاة

وفي سفر الخروج ٧: ١ فقال الرب لموسى ـ أنا جعلتك إلهاً لفرعون والعبراني جعلتك آلهة لفرعون ﴾ فيطلق الجمع ويراد به المفرد من باب التعظيم ومثله فى صموئيل أول ٢٨: ١٣ (السادس) في انجيل يوحنا من قول المسيح لليهود ٧: ٣٤ ستطلبونني ولا تجدونني ـ) وفي انجيل يوحنا ١٢: ٣٤ ـ نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقي الى الابد ـ ٣٥ فقال لهم يسوع النور معكم ـ فسيروا مادام لكم النور ـ) والناموس نور كما في مزمور ١٩: ٧ ناموس الرب كامل الى قوله ينير العينين، ومثله في مزمور ١١٩: ١٠٥ سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي) والمسيح مؤيد للناموس والانبياء كما في انجيل متى ٥: ١٧

(فصل فى ميلاد المسيح) من قول يعقوب بالوحي في يهوذا ابنه كما في التكوين ٤٩: ١٠ لايزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه الخ معنى المشترع معطي الشريعة ومحققها فالمراد بيهوذا داود لانه من يهوذا وسلطنته بالشام والمشترع من بين رجليه أي مبين الشريعة وهو المسيح لانه ولد من أنثى من نسل داود من بين رجليها ، والكلمة مثلها في التثنية ٢٨: ٥٧ بمشيمتها الخارجة من بين رجليها، كما في القاموس العبراني، والمشيمة غشاء المولود ، وبيانه في نبوة أرميا ٣١: ٢٢ لان الرب قد خلق شيئاً حديثاً اي جديدا في الارض انثى تحيط برجل ٢٣ هكذا قال رب الجنود ـ سيقولون بعد هذه الكلمة أو القول في أرض يهوذا ومدنها عند ما أرد سبيهم يباركك الرب يا مسكن البر يا أيها الجبل المقدس ٢٤ فيسكن فيه « والعبراني ويسكن » فيه يهوذا وكل مدنه معاً) أي عند مايرد الرب سبيهم ويسكنون يولد المسيح من غير أب بخلق الله تعالى لذلك ـ كما توضح ـ فكما خلق الرب حواء من آدم من ضلع من أضلاعه كما في التكوين ٢: ٢١ و٢٢ و٢٣ خلق المسيح من أمه كما توضح من قول يعقوب ونبوة أرميا، وقول الاسرائيلية في شروحهم على نبوة أرميا هذه (ان المراد بالانثى أورشليم أو الارض، والرجل الشعب. لم يذكر في الكتاب أنثى ويراد بها أورشليم أو الارض وانما ورد انثى ويراد بها أمنا حواء كما في التكوين ١: ٢٧ ـ ذكر وأنثى خلقهم) أي آدم وحواء وأم المسيح مثل أمها حواء وانما اليهود أخفوا نبوة أرميا هذه عن النصارى وأبدلوها بشكل آخر وترجموا في السبعينية اليونانية بما يأتي وجعلوا باب ٣١ عبرانية لنبوة أرميا باب ٣٨ سبعينية وقالوا في السبعينية بدل قوله خلق الرب شيئا جديدا في الارض أنثى تحيط برجل الخ قالوا الرب خلق خلاصاً لغرس جديد ان الناس سيدورون في الخلاص لانه هكذا يقول الرب الخ والترجمة السبعينية موجودة ومطبوعة باليوناني وبالانكليزي

يقولون في المسيح انه لعنة او ملعون بل ينكرون ذلك اشد الانكار والهداية من الله تعالى وبناء على ما توضح فالمسلمون على هدى ونور من ربهم والمسيح مع اسحق وبقية الانبياء مؤيداً لهم كما في انجيل متي ٥ : ١٧ { تنبيه } في الامثال ٨ : ٣٠ كنت عند صانعا والعبراني مربيا (ملخص) من نبوات الانبياء بالوحي الالهي المبينة لقول اسحق في امر المسيح مع بني اسرائيل في قول اسحق وليسجد لك بنو امك

(الاول) من نبوة اشعيا في المسيح باب ٤٩ باتفاقهم مضمونها ان المسيح يرسله الرب الى بني اسرائيل بان يرجعو الى الرب فلم يقبلوا منه فيخفيه الرب في كنانته كناية عن حفظه ، وقال له (انت عبدي اسرائيل الذي به اتمجد) واسرائيل هو يعقوب اشارة لقول اسحق ليعقوب والمراد المسيح (وليسجد لك بنو امك) والخضوع يلزم منه العناد ابتداء ثم الخضوع اليه انتهاء. وفي نبوة اشعيا هذه مجيئه الاول يكون في وقت دولة اليهود بفلسطين وتسلط الكهنة على الشعب كما في عدد ٧ منها { هكذا قال الرب لمحتقر النفس لمكروه الامة لعبد المتسلطين } وقد انتهت دولتهم وتشتتوا فتم بين مجيئه الاول، ولمجيئه الثاني قال(ينظر ملوك فيقومون رؤساء فيسجدون) أي لما ينظرونه يقومون اجلالا له وتعظيما(ويجيبه الرب في وقت رضاء فيعينه في خلاصهم من الامم ويقيم الارض اي بهم وهذا يتم في مجيئه الثاني. فالمسيحيون ترجموا عدد ٦ من باب ٤٩ من نبوة اشعيا هـذه بخلاف الاصل والاصل العبراني وهو اصل النبوة يحكي قول المسيح عن الرب قال(""سهل"" او "" يسير "" ان تكون لي عبدا لتقيم اسباط يعقوب ورد محصوري اسرائيل واجعلك نورا لامم لتكون خلاصي الى اقصى الارض) فقالوا بدل ذلك قال { قليل ان تكون لي عبدا لتقيم — او لاقامة — اسباط يعقوب ورد محفوظي اسرائيل فقد جعلتك نورا اللامم لتكون خلاصي الى اقصي الارض) بناء على قول بولس كما في اعمال الرسل ١٣ : ٤٧ — قد اقمتك نورا للامم لتكون انت خلاصا الى اقصى الارض) وقصدهم جعل الامم بدل بني اسرائيل وهذا خلاف الاصل وتحريف للنبوة عن اصلها وموضوعها كأن الرب الذي ارسل المسيح(ع م) لم يعرف ما يستحقه المسيح من الوظيفة وقد فاتهم ما ذكر في عدد ٨ منه في وقت رضاء أجبتك وفي يوم خلاص اعنتك وحفظتك ـ الى قوله ـ لتقيم الارض أي الشعب في الارض ومعنى نورا لامم اي موصيا في مجيئه الثاني كما في نبوة اشعيا ٥٥ : ٤ (هوذا جعلته شارعا) والعبراني شاهدا للشعوب رئيسا وموصيا) وفي الامثال ٦ : ٢٣ (لان الوصية مصباح) اي نور يعني يوصي بتوحيد الرب واطاعته واما مجيئه الاول كان

وأقلب كرسي الممالك ٢٣ ـ في ذلك اليوم ـ آخذك يازربابل عبدي ـ وأجعلك كخاتم) والمراد به المسيح في مجيئه الثاني وحكمه لانه من زربابل، والخاتم الذي يوضع في اليد كناية عن السلطنة أنظر نبوة أرميا ٢٢:٢٤

في نبوة دنيال باب ٩ مضمونه مقضي على الشعب سبعين (١) اسبوعا وبعدها البر الابدي وقال في شرح الاسرائيلية وحاشية الكاثوليك كل اسبوع بسبع سنين تكون المدة ٤٩٠ سنة تحسب المدة من حرب الرومان لليهود سنة ١٣٢ بعد الميلاد وبهذه الحرب تشتتوا وآخر المدة سنة ٦١٢ ميلادية وفيها هاجر النبي (ص) الى المدينة وصار رئيسا عليها وبعد ١٤ سنة دخل المسلمون الشام، فالاربعة عشر السنة في نظير اخذ دولة فارس للشام من الروم ١٤ سنة من سنة ٦١٤ لغاية سنة ٦٢٨ ثم دخل المسلمون المدينة المقدسة سنة ٦٣٦ كما في تواريخ المسيحيين وفي نبوة دانيال باب ٧ رأى في الرؤيا أربع حيوانات وأوحي اليه انها اربع دول تقوم على الارض اي الارض المقدسة وبعدهم تكون الارض للقديسين الى الابد، وقد اعترف اهل الكتاب ان الدول الاربع الكلدان والفرس واليونان والرومان اه فقد انتهوا وحل المسلمون الارض المقدسة وهم فيها للآن وبعنه تعالى الى الابد، وبمثله في نبوة زكريا ١ : ١٨ وآهم بهيئة قرون اربعة في ارض يهوذا أي الارض المقدسة وانتهى امرهم، وفي انجيل يوحنا من قول المسيح ١٦ : ١٣ ـ روح الحق فهو يرشدكم ـ لانه لايتكلم من نفسه بل بكل ما يسمع يتكلم به ـ ١٤ ذاك يمجدني) والذي يسمع يكون له صفة السمع والصفة تقوم بذات ولا تقوم بصفة، وروح الحق انسان كما في رسالة يوحنا الاولى ٤ : ١ ايها الاحبة لا تصدقوا كل روح ـ كل روح يعترف بيسوع المسيح ـ فهو من الله ٣ وكل روح لا يعترف بيسوع ـ فليس من الله ٦ ـ من هذا نعرف روح الحق ـ) والنبي (ص) يؤمن بالمسيح ويعظمه ويتكلم بما يوحى اليه) (يا اخت هرون) في الحديث الشريف كانوا يسمون بأسماء انبيائهم والصالحين قبلهم اه من ابن كثير وقد سمي المسيح داوداً كما في نبوة حزقيال ٣٧ : ٢٤ « فصل » المسيح كان على التوحيد كما في انجيل يوحنا من قول المسيح يخاطب الرب ١٧ : ٣ وهذه هي الحياة الابدية أن يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي ارسلته، وترجمة الكاثوليك والذي ارسلته يسوع المسيح ـ أي يعرفون ان الاله الحقيقي واحد والذي أرسله هو المسيح مثل قول اشهد أن لا إله الا الله وان محمداً رسول الله

(١) قوله سبعين أسبوعاً سبق بيان هذه النبوة تفصيلا في كتاب البرهان الصريح في بشائر النبي والمسيح وفي الكتاب أسبوع بسبع سنين وأسبوع سنة وبينا المتشابه الخ وأطلق على ابراهيم واسحق مسحاء كما في مزمور ١٠٥ : ١٥ (تنبيه) سامرة العبراني شمرون موضعين منها في سفر يشوع ١٢ : ٢٠ شمرون بل سامرة جملة بلاد .

عن اليوناني (تنبيه) في الترجمة السبعينية التي كان عليها النصارى أولا ثم من بعد أزمنة قالوا ترجمنا العهد القديم من الاصل العبراني كما في كتبهم وقالوا كتاب الاناجيل أخذوا من السبعينية أنظر المجلد الثالث من كتاب الكاثوليك ومرشد الطالبين للبروتستان وفي كتاب ذخيرة الالباب في بيان الكتاب للكاثوليك طبع بيروت قال في الترجمة السبعينية لم يترجم فيها الا الاسفار الخمسة الاولى أما بقية العهد العتيق فقد ترجم في أعصار مختلفة، ثم ذكر ان الترجمة السبعينية دخلها أغلاط الى أن قال ان ايرنيموس الذي كان يعرف العبرانية ترجم العهد العتيق من العبرانية وايرنيموس الذي تعلم العبرانية كان في اواخر القرن الرابع، وفي مرشد الطالبين للبروتستان ان ايرنيموس ترجم في أوائل القرن الخامس، والتوراة عند اليهود تطلق على الاسفار الخمسة الاولي و قية العهد القديم وان كان عندهم مقدساً لا يطلقون عليه توراة، والنصارى يطلقون التوراة على كل العهد القديم (في الاناجيل) في قاموس الكتاب للبروتستان قال في الاناجيل أنها كانت مستعملة في الكنائس قبل سنة ٢٠٠ مايتين وربما قبل سنة ١٥٠ اي بعد الميلاد فقوله « ربما » شك منهم وفي مقتطف مارس سنة ١٩١٢ تقريظ رسالة في الاناجيل للاب انطون رباط اليسوعي قال عليها ان الادلة التاريخية التي أوردها يرتقي بعضها الى أواسط القرن الثاني وكانت كما هي عليه الآن منذ أواخر القرن الثالث اه والحواريون ماتو قبل أواسط القرن الثاني أي قبل سنة ١٥٠ فعلى ذلك الاناجيل ليست من تصنيف الحواريين أتباع المسيح وانما هي روايات فيها وفيها، فالذي يوافق منها نبوات الانبياء حرفيا في الموضوع بدون زيادة أو نقصان أو تغيير حسب الاصل العبراني الذي اعتمدوه أخيرا يصح قبوله لان المسيح مع الانبياء اه

(فصل في دخول المسلمين الى الشام) النصوص كثيرة انما نذكر منها ما يأتي في نبوة حجي بحسب العبراني من قول الرب ٢: ٦ـ بعد قليل فازلزل السموات والارض ـ ٧ وازلزل كل الامم ويأتون احسن كل الامم او افخر كل الامم فاملأ هذا البيت مجدا ٩ـ وفي هذا المكان اعطي السلام ـ) فقد اتت أمة الاسلام وهي احسن كل الامم لانها على التوحيد وتعظيم الرب والايمان بانبيائه واحترامهم، واعطت السلام والامان وبنت بيت الرب في المدينة المقدسة بعد ما كان البيت خرابا وامتلأ البيت مجدا لعبادة الرب فيه ، اما ترجمة النصاري هنا في قولها « و يأتي مشتهى كل الامم » خلاف الاصل العبراني والعبراني بالجمع « ويأتون » وفي عدد ٢٠ منه وصارت كلمة الرب ثانية ـ كلم زربابل والي يهوذا قائلا « اني ازلزل السموات والارض ٢٢

(الجزء الرابع) ربيع الآخر ١٣٣٢ (المجلد السابع عشر)

(قيمة الاشتراك)
عن سنة ٨٠ قرشا صاغا في مصر والسودان و٤ ريالات في المملكة العثمانية و٢٣ فرنكا و٩٥ سنتيما في الخارج و١٩ شلنا في الهند و٩ روابل في روسيا ويجب الدفع سلفا

المنار
١٣١٥

(تنبيه)
يجب أن يكون وصل الاشتراك مختوما بختم الادارة الخاص وموقعا عليه بتوقيع منشئ المجلة والمستلم

الاشتراك في المجلة يكون دائما من أول سنتها « المحرم » ومنتصفها « رجب »

(مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران)

(منشئها) السيد محمد رشيد رضا
(مدير الادارة والمطبعة) السيد صالح مخلص رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

(فهرس)

المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب
قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق
مصر ٣٠ ربيع الآخر ١٣٣٢ هـ ق ٨ الربيع الاول ١٢٩٢ هـ ش ٢٧ مارث ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٤١) يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا، سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ: إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤٢) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ

أثمان مطبوعات المنار عدا أجرة التجليد

البريد (مليم)	الثمن (مليم)	الثمن (صـ)	
٤		٣	تفسير سورة الفاتحة
٤	٥	١	» سورة والعصر
٣٠		١٢	» القرآن الحكيم ثمن كل جزء منه
٨		٥	المصلح والمقلد
٦		٥	أم القرى (طبع المنار)
٦		٣	الانقلاب العثماني
٥٠		٢٤	شرح عقيدة السفاريني
٦		٦	رسالة التوحيد ورق جيد
٨		٥	الاسلام والنصرانية
٨		٤	الدين في نظر العقل
٢٠		٥	دين الله في كتب أنبيائه
٣٠		١٥	أنجيل برنابا
١٢		٢	الصلب والفداء ص١٦٨
٨		٤	شبهات النصارى
١٠		٣	نظرة في كتب العهد الجديد
٤		١	المسلمون والقبط
٦		٣	انتقاد مؤلفات زيدان بك
١٦		٥	التوسل والوسيلة
	٥		ذكرى الهجرة
١٦		٨	سيرة خديجة
٥٠		٢٥	العلم الشامخ مع الذيل

البريد (مليم)	الثمن (مليم)	الثمن (صـ)	
٤٠		٢٠	التربية الاستقلالية
٣٠		٢٠	تاريخ الاستاذ الامام (المنشآت)
٣٠		١٠	تاريخ الاستاذ الامام (التأبين والمراثي)
٥٠		٦٠	ثمن مجموعة السنة الاولى وكل الـ ٤ـ١٤ من المنار
٥٠		٢٠٠	ثمن المجموعة الثانية » »
٥٠		١٠٠	» الثالثة » »
٥٠		٨٠	» الخامسة عشرة
٥٠		٨٠	» السادسة »
٣٠		٢٠	دلائل الاعجاز . طبعة ثانية
٣٠		٢٠	اسرار البلاغة » أولى
٤		٢	اغاثة اللهفان
٤		٢	الجرح والتعديل (للقاسمي)
		٣	تاريخ الجهمية والمعتزلة له
٦		٤	اصلاح المحاكم الشرعية
٢		١	فتاوى في القضا الاسلامى
٦		٥	اعمال مجلس ادارة الازهر
٢	٥	٠٠	خلاف الامة
٢	٥	٠٠	الصوفية والفقراء
		٨	تحفة المحقق بشرح المنطق

ثمن كل جزء من المنار (ان وجد) للمشترك ٨ قروش و١٠ لغير المشترك

يضاف خمسة قروش لكل جزء من اجزاء التفسير أو التاريخ ولكل نسخة من انجيل برنابا وأسرار البلاغة اذا كان المطلوب من الورق الجيد .

اجرة التجليد الافرنجي بالكعب الجلد خمسة قروش لكل كتاب يكون ثمنه من عشرة قروش فصاعدا واربعة قروش لما دون ذلك والتجليد الممتاز عشرة قروش لكل مجلد

صلى الله عليه وسلم « اللهم اني اول من احيا امرك اذ أماتوه » وامر به فرجم ، فأنزل الله (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ـ الى قوله ـ ان أوتيتم هذا فخذوه) يقول : ائتوا محمدا فان امركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وان افتاكم بالرجم ، فاحذروا. فأنزل الله عز وجل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون — ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون — ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال هي في الكفار كلها *

هذا أصح ما ورد في سبب نزول الآيات . وهاك تفسيرها :

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ الخطاب بوصف الرسول تشريف للنبي (ص) ولم يرد الا في هذا الموضع وفي موضع آخر من هذه السورة وسيأتي . ومثله « يا أيها النبي » وورد في بضع سور . وفي هذا التشريف والتكريم تعليم وتأديب للمؤمنين ، يتضمن النهي عن مخاطبته باسمه ، والامر بأن يخاطبوه بوصفه ، وكذلك كان يدعوه أصحابه : يارسول الله . وجهل هذا الادب بعض الأعراب لما كانوا عليه من سذاجة البادية وخشونتها ، فكانوا ينادونه باسمه « يامحمد » حتى أنزل الله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) فلم يعد الى دعائه باسمه أحد . ولكن المفسرين يغفلون عن هذا فيكرر كثير منهم كلمة « يامحمد » عند تفسيرهم لخطاب الله لرسوله بمثل « إنا أعطيناك الكوثر » وما أشبهه من الخطاب ، وأخذه عنهم قراء التفسير فيكادون يقولونه في تفسير كل خطاب ، وان لم يذكر النداء في الكتاب .

والحزن ضد السرور وهو ضرب من آلام النفس يجده الانسان عند فوت ما يحب . ويستعمل الفعل الثلاثي منه متعديا بعلى كحزن فلان على ولده ، ومتعديا بنفسه كحزنه الامر ، وهذه لغة قريش . وتميم تعديه بالهمزة فتقول أحزنه موت ولده. والحزن مذموم طبعا وشرعا مهما كان سببه ، ولهذا نهى الله تعالى عنه في هذه الآية وفي آيات أخرى ، وجعل التجرد منه ومن مقابله وهو فرح البطر والخفة بالاشياء المحبوبة غاية الكمال الايمان في قوله (لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وأما الفرح والسرور بالحق والفضل دون أعراض الدنيا لذاتها فهو محمود (قل بفضل الله و برحمته

لِلسُّحْتِ ، فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٦) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

أخرج احمد والبخاري ومسلم عن ابن عمر قال : ان اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا : تسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتم ان فيها الرجم (فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) فجاؤا بالتوراة وجاؤا بقارئ لهم ــ وفي رواية احمد زيادة : أعور يقال له ابن صوريا ــ فقرأ حتى اذا أتى الى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك ، فرفع يده فاذا هي تلوح (أي آية الرجم) فقالوا : يا محمد ان فيها الرجم ولكنا كنا نتكاتمه بيننا . وأمر بهما رسول الله (ص) فرجما . فلقد رأيته يجنأ عليها (أي ينحني) يقيها الحجارة بنفسه . ولفظ مسلم : نسود وجوههما (وهو بمعنى التسخيم هنا والتحميم في رواية أخرى ، فالاول من السخام وهو سواد القدر ، والثاني من الحمة وهي الفحمة) ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، أي نركبهما ونجعل وجوههما الى مؤخر الدابة ــ وهو المراد من الخزي أي الفضيحة وفيها ان الذي أمر القارئ أن يرفع يده هو عبد الله بن سلام .

واخرج احمد ومسلم وابو داود والنسائي والنحاس في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن البراء بن عازب . قال : مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محمما مجلودا ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال : انشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا انك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا اذا اخذنا الشريف تركناه ، واذا اخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال النبي

وإنما انتقلوا سراعا من حيز الإخفاء له والكتمان ، الى حيز المصارحة والاعلان ، كالذي ينتقل في البيت من مكان الى مكان .

وقد بين الله حقيقة حالهم هذه بقوله ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا • سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ اختلف القراء والمفسرون في الوقف هنا : هل يتم عند قوله تعالى «قلوبهم» ام قوله «هادوا» ؟ أما تقدير الكلام على الأول فهو : لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين الذين ادعوا الايمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم . وما بعده جملة مستقلة تقديرها : ومن الذين هادوا (أي اليهود) قوم سماعون للكذب الخ . وأما التقدير على الثاني فهو : لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود . وقوله تعالى « سماعون للكذب » جملة حذف منها المبتدأ . أي هم سماعون للكذب الخ والاول أظهر . وقد قال بعض المفسرين : ان المراد بالمنافقين هنا منافقو اليهود ، فيكون الكلام هنا في اليهود عامة ـ الذين ظهروا الاسلام نفاقا والذين ظلوا على دينهم ، ويدخل في عموم الاول المنافقون من غير اليهود على قاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . واختلف في قوله « سماعون للكذب » هل هو وصف للفريقين ام لاحدهما ؟ أي بناء على ان قوله : سماعون الخ جملة مستأنفة

واللام في قوله « للكذب » فيها وجهان (احدهما) انها للتقوية والمعنى انهم يسمعون الكذب كثيرا سماع قبول أو يقبلونه . والمراد بالكذب مايقوله رؤساؤهم في النبي (ص) وفي احكام الدين التي يتلاعبون فيها باهوائهم (وثانيها) انها للتعليل . والمعنى انهم كثيرو الاستماع لكلام الرسول (ص) لاجل الكذب عليه بالتحريف واستنباط الشبهات ، فهم عيون وجواسيس بين المسلمين يبلغون رؤساءهم وسائر أعداء الاسلام كل مايقفون عليه ، لاجل ان يكون ما يفترون عليه من الكذب مقبولا ، لانه مبني على وقائع ومسائل واقعة يزيدون في روايتها وينقصون ، ويحرفون منها مايحرفون ، ومن يكذب عليك وهو لا يعرف من أمرك شيئا لا يستطيع ان يجعل كذبه مرجو القبول كمن يعرف بل يظهر اختلاقه لاول وهلة . ولهذا نرى الذين يفترون الكذب على الاسلام في هذا الزمان يقرأون بعض كتب المسلمين ليبنوا أكاذيبهم على مسائل معروفة يحرفون الكلم فيها عن

فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) كما أن حزن الرحمة والرأفة عند موت الولد وغيره من الصفات الفطرية الشريفة، لا ماتكلفه المرء من لوازمه .

فان قيل: ان الحزن ألم طبيعي يعرض للانسان عند فوت مايحبه وليس أمرا اختياريا فكيف نهى الله تعالى عنه ؟ قلنا : ان النهي عن الحزن يراد به النهي عن لوازمه التي يفعلها كثير من الناس مختارين فتكون محركة لذلك الألم ومجددة له . ومبعدة أمد السلوى ـ والامر بضدها من تكلف الأعمال التي تشغل النفس وتصرفها عن التذكر والتفكر فيما حزنت لاجله احتسابا ورضاء من الله تعالى ، وهذه الافعال تكون بدنية نفسية وتكون نفسية او بدنية فقط . وفسروه هنا بقولهم أي لايهمك ولاتبال بهؤلاء المنافقين الذين يسارعون في الكفر أي في إظهاره بالتحيز الى أعداء المؤمنين من أهله ، عند ما تسنح لهم الفرصة ، ويجدون قوة يعتصمون بها من التبعة . فان الله يكفيك شرهم ، وينصرك عليهم وعلى من يتشيعون لهم .

وللناس في المصائب عادات رديئة ، واعمال سخيفة ضارة ، تدل على ضعف البشر ، والسخط على القدر ، ومعظم العقلاء والحكماء يذمونه وينهون عنه كما نهى عنه الدين، وقد قلت في مرثية نظمتها في ايام طلب العلم ، ناهيا ذاما ما اعتيد من شعائر الحزن :

أطبيعة ذا الحزن ليس يشذ عن ... ناموسه فرد من الافراد
ام ذلك مما اودعته شرائع الـ ... أديان من هدي لنا ورشاد
ام ذلك العقل السليم قضى على ... كل الشعوب بهذه الاصفاد
كلا فليس الامر ضربة لازب ... لكنه ضرب من المعتاد
فاخلع جلابيب العوائد ان تكن ... ليست بحكم العقل ذات سداد

يقال:سارع الى الشيء (سارعوا الى مغفرة من ربكم) وسارع في الشيء (أولئك يسارعون في الخيرات) فالمسارع الى الشيء هوالذي يسرع اليه من خارجه لاجل ان يصل اليه . والمسارع في الشيء هو الذي يسرع في أعماله وهو داخل فيه. وهؤلاء الذين نزلت فيهم الآية لم يكونوا مؤمنين فيكون ما عملوا من أعمال الكفار انتقالا بسرعة من الأيمان الى الكفر ، بل كانوا داخلين في ظرف الكفر محيطا بهم سرادقه،

معادن الارض . فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم درجة فسادهم ، وعلمت انهم يقبلون الكذب دون الحق ، وان إظهار بعضهم للايمان ورؤيتهم لحسن حال المؤمنين وصلاحهم لم تؤثر في أنفسهم ، ورأيت كيف طوعت للآخرين أنفسهم التحريف والكتمان لاحكام كتابهم ، اتباعا لاهوائهم ، ومرضاة لاغنيائهم ، فلا تحزنك بعد هذا مسارعتهم في الكفر ، ولا تطمع في جذبهم الى الايمان . فانك لا تملك لاحد هداية ولا نفعا وانما عليك البلاغ والبيان ، ولا تخف عاقبة نفاقهم فانما العاقبة للمتقين من أهل الايمان ، ولهم الخزي والهوان . ولذلك قال :

﴿ أولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم ﴾ اي أولئك الذين بلغت منهم الفتنة هذا الحد لم تتعلق ارادة الله تعالى بتطهير قلوبهم من الكفر والنفاق ، لأن ارادته تعالى انما تتعلق بما اقتضته حكمته البالغة ، وسننه العادلة ، ومن سننه في قلوب البشر وانفسهم أنها اذا جرت على الباطل والشر ، ونشأت على الكيد والمكر ، واعتادت اتخاذ دينها ، شبكة لشهواتها واهوائها ، ومردت على الكذب والنفاق ، وألفت عصبية الخلاف والشقاق ، وصار ذلك من ملكاتها الثابتة ، واخلاقها الموروثة الثابتة ، تحيط بها خطيئتها ، وتطبق عليها ظلمتها ، حتى لا يبقى لنور الحق منفذا ينفذ منه اليها ، فتفقد قابلية الاستدلال والاستبصار ، والاستعداد للنظر والاعتبار ، التي جعلها الله اسباب الاتعاظ والاهتداء ، بحسب سنته الحكيمة في توفيق الاقدار للأقدار ، وهؤلاء الزعماء واعوانهم من اليهود قد صبوا في قوالب تلك الصفات الرديئة صبا ، فلا تقبل طباعهم سواها قطعا . فهذا هو سبب عدم تعلق ارادة الله تعالى بأن يطهر قلوبهم مما طبع عليها ، لان ارادته تطهير قلوبهم وهم متصفون بما ذكرنا إبطال للقدر ، وتبديل لما اقتضته الحكمة من السنن ، وكان امر الله قدرا مقدورا ، لا امرا أنفا ، ولن تجد لسنته تبديلا . ثم بين تعالى عاقبة هؤلاء المخذولين وجزاءهم فقال :

﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فاما العذاب في الآخرة فامره معلوم ، وكنهه مجهول . وأما خزي الدنيا فهو ما يلحقهم من الذل والفضيحة

مواضعه كما سيأتي في وصف هؤلاء ، كالذي افتروه في قصة زيد وزينب وفي غيرها من الوقائع والأخبار . ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى «سماعون لقوم آخرين لم يأتوك» أي لأجل قوم آخرين من رؤسائهم وذوي الكيد فيهم - أو من أعدائك مطلقا - لم يأتوك ليسمعوا منك بآذانهم إما كبرا وتمردا ، وإما خوفا على أنفسهم لأنهم معلنون للعداوة .

اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابو الشيخ عن جابر بن عبد الله في قوله « ومن الذين هادوا سماعون للكذب» قال يهود المدينه «سماعون لقوم آخرين لم يأتوك» قال يهود فدك «يحرفون الكلم» قال يهود فدك ، يقولون ليهود المدينة « ان أوتيتم هذا» الجلد « فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا» الرجم .

وأما قوله تعالى ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ فمعناه يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه في مواضعه ، إما تحريفا لفظيا بابدال كلمة بكلمة أو باخفائه وكتمانه أو الزيادة فيه والنقص منه ، إما تحريفا معنويا بحمل اللفظ على غير ما وضع له

﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أي يقولون لمن ارسلوهم الى الرسول (ص) ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم وارادوا ان يحابوهما بعدم رجمهما : ان أعطيتم من قبل محمد رخصة الجلد عوضا عن الرجم فخذوه وارضوا به ، وان لم تعطوه بان حكم بأنهما يرجمان فاحذروا قبول ذلك والرضاء به . وقد تقدم أنه جاؤه فسألهم عن حد الزناة في التوراة ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، وجاؤا بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام ! ارفع يدك فرفع فاذا آية الرجم . فاعترفوا بصدق النبي (ص) وظهر كذبهم وعبثهم بكتاب شريعتهم .

قال الله تعالى في بيان حال هؤلاء العابثين بدينهم وفي أمثالهم ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ﴾ أي ومن تعلقت ارادة الله تعالى بأن يختبر في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله ، كما يفتن الذهب بالنار فيظهر مقدار ما فيه من الغش والزغل ، فلن تملك أيها الرسول له من الله شيئا من الهداية والرشد ، كما انك لا تستطيع ان تحول النحاس الى الذهب . لان سنة الله تعالى لا تتبدل في معادن الناس ولا في

أعم من الرشوة . ومن فسره بالرشوة مطلقة أو مقيدة فقد اراد به أنه المراد من الآية باعتبار نزولها في أحبار اليهود ورؤسائهم لا المعنى اللغوي العام وقيل : السحت الحرام مطلقا ، أو الربا ، أو الحرام الذي فيه عار ودناءة كالرشوة . واختلف علماء العربية في معناه الاصلي الذي اختير هذا اللفظ لاجله . فقال الزجاج هو من سحته وأسحته بمعنى استأصله بالهلاك ، ومنه قوله تعالى (قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) فعلى هذا يكون المراد بالسحت ما يسحت الدين والشرف لقبحه وضرره ، أو لسوء عاقبته وأثره . وقال الفراء : اصل السحت شدة الجوع ، يقال رجل مسحوت المعدة اذا كان أكولا لا يكاد يرى الا جائعا . وعلى هذا يكون المراد به الحرام أو الكسب الدنيء الذي يحمل عليه الشره . قرأ ابن عامر ونافع وعاصم وحمزة السحت بضم السين وفتح الحاء والباقون بضمهما معا . لسان العرب : السحْت والسحُت كل حرام قبيح الذكر ، وقيل ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبيح الذكر ، كثمن الكلب والخمر والخنزير . وسحت الشيء يسحته (كفتح يفتح) قشره قليلا قليلا ، وسحتّ الشحم عن اللحم قشرته عنه مثل سحفته . . . وقال اللحياني سحت رأسه سحتا وأسحته استأصله حلقا . وأسحت ماله استأصله وافسده . ـ الى أن قال ـ والسحت (بالفتح) شدة الأكل والشرب ، ورجل سحت (بالضم) وسحيت ومسحوت : رغيب واسع الجوف لا يشبع . اه المراد من اللسان وعلم منه ان اصل معنى السحت ازالة القشر عن العود بالتدريج وما في معناه كحلق الشعر، ومن العرب من لا يقول : اسحت الشيء . الا اذا استأصله بالقشر . ويمكن ارجاع معنى عدم الشبع الى هذا المعنى كأن المعدة لسرعة هضمها تستأصل الطعام . وسمي الكسب الخسيس والحرام سحتا لانه يستأصل المروءة او الدين ، والرشوة تستأصل الثروة . وتفسد أمر المعاملة ، وتستبدل الظلم بالعفة . وكان احبار اليهود ورؤساؤهم في عصر التنزيل كذا بين أكالين للسحت من الرشوة وغيرها من الخسائس ، كدأب سائر الامم في عهد فسادها وانحطاطها ، وقد صارت حالهم لآن احسن من حال كثير من الذين يعيبونهم بما كان من سلفهم .

وهو ان الخيبة، عند ما ينكشف نفاقهم، ويظهر للناس كذبهم، ويعلو الحق على باطلهم . وقد صدق وعيد الله تعالى بهذا الخزي على يهود الحجاز كلهم، كما يصدق في كل زمان على من يفسدون كفسادهم، فيفشو فيهم الكذب والنفاق، ويغلب عليهم فساد الاخلاق، ولا يغني عنهم، الانتساب الى نبي لم يتبعوه، ولا تنفعهم دعوى الايمان بكتاب لم يقيموه . فان الوعيد في الآية لم يوجه الى أولئك اليهود لذواتهم واعيانهم، فذواتهم كسائر الذوات، ولا لنسبهم وأرومتهم، فنسبهم أشرف الانساب . وإنما هو وعيد على فساد القلوب الذي نشأ عنه فساد الاعمال، فما بال الفاسدين المفسدين، من المسلمين الجغرافيين او السياسيين، لا يعتبرون بما كان من خزي اليهود بخروجهم عن سنة انبيائهم، وبما حل من وعيد الله بهم، على ما كان من حرص الرسول (ص) على هداهم، وهم يرون في كل زمن مصداقه باعينهم، أفلا يقيمون القرآن بالاعتبار بنذره، والحذر ما حذر منه ؟

ثم قال في وصفهم ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ أعاد وصفهم بكثرة سماع الكذب لتأكيد ماقبله، والتمهيد لما بعده - كما قالوا - : والاعادة للتأكيد وتقرير المعنى وافادة اهتمام المتكلم به مما ينبعث عن الغريزة، ويعرف التأثير والتأثر به من الطبيعة، ولعله عام في جميع لغات البشر . واذا قلنا ان اللام في الآية الاولى للتعليل، وفي هذه الآية للتقوية، ينتفي التكرار، اذ المعنى هناك: يسمعون كلام الرسول والمؤمنين لاجل ان يجدوا مجالا للكذب ينفرون الناس به من الاسلام، والمعنى هنا انهم يسمع بعضهم الكذب من بعض سماع قبول، فهم يكذب بعضهم على بعض كما يكذبون على غيرهم، ويقبل بعضهم الكذب من بعض. فأمرهم كله مبني على الكذب، الذي هو شر الرذائل وأضر المفاسد . وهكذا شأن الامم الذليلة المهينة، تلوذ بالكذب في كل أمر، وترى أنها تدرأ به عن نفسها ما تتوقع من ضرر،

وكذلك يفشو فيها اكل السحت، لانها تعيش بالمحاباة، وتألف الدناءة، وتؤثر الباطل على الحق . فسر ابن مسعود السحت بالرشوة فى الدين، وابن عباس بالرشوة في الحكم، وعلي بالرشوة مطلقا، قيل له : الرشوة في الحكم ؟ قال: ذلك الكفر . وقال عمر : بابان من السحت يأكلهما الناس - الرشا في الحكم ومهر الزانية. فأفاد أن السحت

من زعم أنها عامة في جميع الكفار ، وقد نسخ من عمومها التخيير في الحكم بين الذميين. وقال بعضهم ان التخيير منسوخ بقوله تعالى في هذا السياق « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » ونقول لا يعقل ان تنزل آيات في سياق واحد كما هو الظاهر في هذه الآيات فيكون بعضها ناسخا لبعض . وانما تلك الآية امر للنبي (ص) بان يحكم بينهم بما أنزل الله من القسط . وسيأتي بيان ذلك

﴿وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا﴾ أي وان اخترت الاعراض عنهم ، فاعرضت ولم تحكم بينهم ، فلن يستطيعوا ان يضروك شيئا من الضرر ، وان ساءتهم الخيبة ، وفاتهم ما يرجون من خفة الحكم وسهولته . ولعل هذا تعليل للتخيير

﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين﴾ أي وان اخترت الحكم فاحكم بينهم بالقسط أي العدل لا بما يبغون . وقد شرحنا معناه اللغوي وبينا ما عظم الله من أمره في القيام به والشهادة به في تفسير الآية ١٣٤ من سورة النساء (ص ٤٥٥ ج ٥ تفسير) والآية التاسعة من هذه السورة . والمقسطون هم المقيمون للقسط بالحكم به أو الشهادة أو غير ذلك وفصلنا القول في الحكم بالعدل في تفسير (٤ : ٥٧ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) فيراجع في المنار أو (ص١٧٤ و١٧٩ ج ٥ تفسير)

﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك؟ وما أولئك بالمؤمنين﴾ هذا تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من اغرب أحوال هؤلاء القوم . وهو انهم اصحاب شريعة يرغبون عنها ويتحاكمون الى نبي جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به . اي وكيف يحكمونك في قضية كقضية الزانيين او قضية الدية والحال ان عندهم التوراة التي هي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم ؟ اي اذا فكرت في هذا رأيته من عجيب امرهم، وسببه انهم ليسوا بالمؤمنين إيمانا صحيحا بالتوراة ولا بك، وانما هم ممن جاء فيهم (افرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم) فان المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه الى غيره الا اذا آمن بان ما رغب اليه شرع من الله أيضا أيد به الاول ، او نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف

ومن عجائب غفلة البشر عن انفسهم ان يعيبك احدهم بنقيصة ينسبها الى أحد أجدادك الغابرين، على علم منه بأنك عار عنها ، أو متصف بالمحمدة التي هي ضدها ، وهو متصف بنقيصة جدك التي يعيبك بها !! فان كثيرًا ممن يعدهم المسلمون من احبارهم ورؤساء الدين فيهم ، وكثيرًا من حكامهم الشرعيين والسياسيين يكذبون كثيرا ويقبلون الكذب ويأكلون السحت ، حتى أنهم يأخذون الرشوة من طلبة العلم ليشهدوا لهم زورا بأنهم صاروا من العلماء الاعلام ، ويعطونهم ما يسمونه « شهادة العالمية » كما يمنحهم حكامهم الرتب العلمية . وقد تجرأ بعض طلبة الازهر مرة على شيخنا الاستاذ الامام فعرض عليه ثلاثين جنيها ليساعده في امتحان شهادة العالمية لعلمه بأنه غير مستعد للامتحان ولا أهل للشهادة ، فلم يملك الاستاذ نفسه من الانفعال ان ضربه ضربا موجعا ، وقال : اتطلب مني في هذه السن ان اغش المسلمين بك لتفسد عليهم دينهم بجهلك ، بهذه الجنيهات الحقيرة في نظري العظيمة في نظرك؟ وأنا الذي لم أتدنس في عمري حتى ولا بقبول الهدية ممن أنقذتهم من الموت ؟ . ولو كنت ممن يتساهل في هذا لكنت من اوسع الناس ثروة . أو ما هذا مؤداه

﴿ فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ أي فان جاؤك متحاكمين اليك فأنت مخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم الى رؤسائهم . وقد اختلف العلماء في هذا التخيير هو خاص بتلك الواقعة التي نزلت فيها الآية ـ وهي حد الزنا هل هو الجلد أو الرجم . أو دية القتيل ، اذ كان بنو النضير يأخذون دية كاملة على قتلاهم لقوتهم وشرفهم ، وبنو قريظة يأخذون نصف دية لضعفهم ، وقد تحاكموا الى النبي (ص) فجعل الدية سواء ـ أم هو خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة وغيرهم اذ كان اولئك اليهود معاهدين ، ام الآية عامة في جميع القضايا من جميع الكفار ، عملا بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟ المرجح المختار من الاقوال في الآية ان التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة . وعلى هذا لا يجب على حكام المسلمين ان يحكموا بين الاجانب الذين هم في بلادهم وان تحاكموا اليهم ، بل هم مخيرون . يرجحون في كل وقت ما يرون فيه المصلحة . وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم اذا تحاكموا الينا . وليس في الآية نسخ كما قال بعض

تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ظهر لهم ان إخبار القرآن بذلك كان من من معجزاته الدالة على انه من عند الله ، اذ ظهر لهم ان اليهود قد فقدوا التوراة التي كتبها موسى ثم لم يجدوها ، وانما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظوه منها ممزوجا بما ليس منها ، والتوراة التي في ايديهم تثبت ذلك ، كما بيناه في غير هذا الموضع . ومنه تفسير اول سورة آل عمران وسيعاد ذكره ايضا

(٤٤) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٥) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ـ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٥٠) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

هذه الآيات من سياق التي قبلها والتي بعدها ، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبني اسرائيل فاعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد ، وبيان مثل ذلك في الانجيل واهله ، ثم الانتقال من ذلك الى ما سيأتي من ذكر انزال

أحوال عباده . وهؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدعون الايمان بها واتباعها لانه لم يوافق هواهم . وجاؤك يطلبون حكمك رجاء ان يوافق هواهم ، ثم يتولون ويعرضون عنه اذا لم يوافق هواهم . فما هم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك ، ولا بمن انزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن ، وقد يقولون انهم مؤمنون ، وقد يظنون ايضا أنهم مؤمنون ، غافلين عن كون الايمان يقينا في القلب، يتبعه الاذعان بالفعل، ويترجم عنه اللسان بالقول . ولكن اللسان قد يكذب عن علم وعن جهل، فمن أيقن أذعن ، ومن أذعن عمل ، لان الايمان الإذعاني هو صاحب السلطان الاعلى على الارادة ، والارادة هي المصرفة للجوارح في الاعمال .

أما حكم الرجم في التوراة التي بين أيدينا اليوم فهو خاص ببعض الزناة . قال في الفصل ٢٢ سفر التثنية بعد بيان ان من تزوج عذراء فوجدها ثيبا ترجم عند باب بيت أبيها : (٢٢ اذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان ، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة ، فتنزع الشر من اسرائيل ٢٣ اذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها فأخرجوهما كليهما الى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ـ الفتاة من أجل انها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل انه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك) ثم ذكر أحكاما أخرى في الزنا ، منها قتل أحد الزانيين ومنها دفع غرامة والتزوج بالمزني بها

ومما يجب التنبيه له هنا ان دعاة النصرانية يحتجون بهذه الآية وما في معناها على كون التوراة التي في ايديهم وايدي اليهود هي ما انزله الله تعالى على موسى لم يعرض لها تغيير ولا تحريف . وذلك انهم كأولئك اليهود الذين يأخذون من القرآن ما يوافق اهواءهم ويردون ما يخالفها جدلا . والمؤمنون يؤمنون بالكتاب كله، فالكتاب بين لنا أن عندهم التوراة اي الشريعة، وان فيها حكم الله في القضية التي تحاكموا فيها الى النبي (ص) وقد صدق الله تعالى وهو اصدق القائلين . وبين لنا أيضا أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه ، وانهم نسوا حظا مما ذكروا به ، وانما أوتوا نصيبا من الكتاب اذ نسوا نصيبا آخر واضاعوه . وقد صدق الله تعالى في ذلك أيضا . ولما خرجت امة القرآن بالقرآن من الامية وعرفوا

من الحبر الذي يكتب به . وقال الراغب الحبر (بالكسر) الأثر المستحسن . ثم قال والحبر العالم وجمعه أحبار لما يبقى من اثر علومهم .اه واطلق لقب حبر الامة في الاسلام على ابن عباس رضي الله عنهما ، كما اطلق لفظ الرباني على علي المرتضى عليه الرضوان. والذي يسبق الى فهمي عندذكر الربانيين والاحبار ، ان الربانيين عند بني اسرائيل كالاولياء العارفين عندنا ، والاحبار عندهم كعلماء الظاهر عندنا . وقال ابن جرير الربانيون جمع رباني وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم. واما الاحبار فانهم جمع حبر وهو العالم المحكم للشيء .. وما قلناه اظهر ، وهو الى اللغة أقرب . والتوراة مؤنثة اللفظ ومعناها الشريعة .

واما قوله تعالى ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ فمعناه انهم يحكمون بها بسبب ما أودعوه من الكتاب وائتمنوا عليه وطلب منهم حفظه . أي طلب منهم الانبياء موسى ومن بعده اي يحفظوه ولا يضيعوا منه شيئا . وناهيك بالعهد الذي اخذه موسى بأمر الله على شيوخ بني اسرائيل بعد ان كتب التوراة — ان يحفظوها ولا يتحولوا عنها .وقد تقدم في تفسير الميثاق من اواخر سورة النساء واوائل هذه السورة. وانهم نقضوا ميثاق الله ولم يوفوا به ، وقد قال الله فيهم انهم استحفظوا ، ولم يقل انهم حفظوا ، ولكنه قال ﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾ اي كان سلفهم الصالحون رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به ، كما فعل عبد الله بن سلام في مسألة الرجم، او شهداء على انه هو شرع الله تعالى ، لا كما فعل خلفهم من كتمان بعض احكامه ، اتباعا للهوى ، او خوفا من اشرافهم ان اقاموا عليهم حدوده ، وطمعا في برهم اذا حابوهم فيها . واعظم من ذلك كتمانهم صفة خاتم المرسلين والبشارة به ، وروي عن ابن عباس ان المراد : وكانوا على حكم النبي الموافق لحكم التوراة في حد الزنا شهداء . ولعله اراد — إن صحت الرواية عنه — ان هذا مما يدخل في عموم صفات أحبار اليهود الصالحين . تعريضا بجمهور الخلف الصالحين .

ولذلك شهد عبد الله بن سلام وهو من بقية خيارهم وكذا غيره بأن حكم التوراة رجم الزاني تصديقا وتأييدا لما قاله النبي (ص)

ثم قال تعالى تعقيبا على ما قصه من سيرة سلف بني اسرائيل الصالح ، بعد

القرآن ومزيته وحكمة ذلك. ومنه يعلم ان العبرة بالاهتداء بالدين وانه لا ينفع أهله الانتماء اليه اذا لم يقيموه ، اذ لا يستفيدون من هدايته ونوره ، الا باقامته والعمل به . وان ايثار أهل الكتاب أهواءهم على هداية دينهم ، هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به . قال تعالى

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ أي انا نحن أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى في العقائد والاحكام خرج به بنو اسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم ، وعلى نور أبصروا به طريق الاستقلال في امر دينهم ودنياهم ﴿ يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا ﴾ أنزلناها قانونا للاحكام يحكم بها النبيون - موسى ومن بعده من انبياء بني اسرائيل - طائفة من الزمان ، انتهت ببعثة عيسى ابن مريم عليه السلام . وهم الذين اسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين على ملة ابرهيم عليهم الصلاة والسلام ، فالاسلام دين الجميع ، وكل ما استحدثه اليهود والنصارى من اسباب التفرق في الدين ، فهو باطل وضلال مبين . وانما يحكمون الذين هادوا أي اليهود خاصة ، لانها شريعة خاصة بهم لا عامة ، ولذلك قال آخرهم عيسى : لم ارسل الا الى خراف اسرائيل الضالة . ولم يكن لداود وسليمان وعيسى من دونها شريعة . ﴿ والربانيون والاحبار ﴾ أي ويحكم بها الربانيون والاحبار في الازمنة أو الامكنة التي لم يكن فيها أنبياء . والربانيون هم المنسوبون الى الرب - إما بمعنى الخالق المدبر لامر الملك ، لانهم يعنون بالعلم الالهي والتهذيب الروحاني - وإما بمعنى مصدر ربه يربه أي رباه ، لأنهم يربون انفسهم ثم غيرهم بالعلم والعرفان ، وأحاسن الآداب والاخلاق ، وهم كبار كهنتهم من اللاويين الصالحين . ويروى عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال : أنا رباني هذه الأمة . وقد سبق بيان معنى الكلمة في تفسير آل عمران . والاحبار جمع حبر (بفتح الحاء وكسرها) وهو العالم . ومادة حبر في اللغة تدل على الجمال والزينة التي تسر الناس ، وشعر محبر مزين بنكت البلاغة والفصاحة . وثوب محبر ، موشى بالنقوش او الوشي الجميل . ومنه برد حبرة (بالكسر) وحبير ، وهو ثوب ذو خطوط بيض وسود أو حمر . فيحتمل ان يكون إطلاق لفظ الحبر على العالم مأخوذا من هذا المعنى ، ويحتمل ان يكون

الاستطاعة ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ أي فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص بأن عفا عن الجاني فهذا التصدق كفارة له يكفر الله بها ذنوبه ويعفو عنه كما عفا عن أخيه . ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ اي وكل من كان بصدد الحكم في شيء من هذه الجنايات ونحوها فأعرض عما أنزل الله من القصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس ، وحكم بهواه أو بحكم غير حكم الله فهو من الظالمين حتما . اذ الخروج عن القصاص لايكون الا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر ، وهضم حق المفضل عليه وظلمه .

أما مصداق هذا القصاص من التوراة التي في الأيدي فهو في الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج ، ففيه بعد عدة ذنوب توجب القتل مانصه : (٢٣ وان حصلت أذية تعطي نفسا بنفس ٢٤ وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل ٢٥ وكيا بكي وجرحا بجرح ورضا برض) يوضحه قوله في الفصل ٢٤ من سفر اللاويين (١٧ واذا أمات أحد انسانا فانه يقتل ١٨ ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس ١٩ واذا أحدث انسان في قريبه عيبا فكما فعل كذلك يفعل به ٢٠ كسر بكسر وعين بعين وسن بسن ، كما أحدث عيبا في الانسان كذلك يحدث فيه) فصرح بعموم القصاص بالمثل فدخل فيه الأذن والأنف . واما العفو فلا أذكر له نقلا عن التوراة ، وانما جاء في وعظ المسيح على الجبل من انجيل متى انه ذكر مسألة العين بالعين والسن بالسن ، ووصى أن لا يقاوم الشر بالشر ، وهو أمر بالعفو ، ولكن الذين يدعون اتباعه في هذا العصر هم اشد اهل الارض انتقاما و مقاومة للشر بأضعافه الا قليلا من الافراد ، الذين اخفاهم الزمان في زوايا بعض البلاد .

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ﴾ أي وبعثنا عيسى بن مريم بعد أولئك النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعا أثرهم جاريا على سننهم ، مصدقا للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله أو بحاله . ولفظ قفى مأخوذ من القفا وهو مؤخر العنق . يقال : قفاه وقفا إثره يقفوه واقتفاه ، اذا اتبعه

بيان سوء سيرة الخلف الذين خلفوا بعدهم ، مخاطبا رؤساء اليهود الذين كانوا في زمن التنزيل ، لايخافون الله في الكتمان والتبديل

﴿ فلاتخشوا الناس واخشون ﴾ اي اذا كان الامر كما ذكر ـ وهوما لاتنكرونه كما تنكرون غيره مما قصه الله على رسوله من سيرة سلفكم ـ فلاتخشوا الناس فتكتموا ما عندكم من الكتاب خوفا من بعضهم ورجاء في بعض ، واخشوني وحدي ، وأوفوا بعهدي ، فان الأمر كله لي ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ﴾ اي لاتتركوا بيانها والعمل والاهتداء والحكم بها في مقابلة منفعة دنيوية لايمكن ان تكون الا قليلة بالنسبة الى المنافع العاجلة والآجلة المترتبة على الاهتداء بآيات الله تعالى . وتقدم تفسير مثل هذه الجملة في سورة البقرة

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ أي وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله من أحكام الحق والعدل ، فلم يحكم بها لمخالفتها لهواه أو لمنفعته الدنيوية ، فأولئك هم الكافرون بهذه الآيات ، لأن الايمان الصحيح يستلزم الإذعان ، والاذعان يستلزم العمل ، وينافي الاستقباح والترك . وهذه الجملة مقررة لما قبلها ، ومؤكدة لقوله تعالى في هذا السياق (وما أولئك بالمؤمنين) ثم جاء بمثل من هذه الاحكام فقال

﴿ وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن ﴾ أي وفرضنا على بني اسرائيل من العقوبات في التوراة ان النفس تؤخذ أو تقتل بالنفس اذا قتلت عمدا بغير حق ، وقدر الجمهور مقتولة أو مقتصة بها ، والعين تفقأ بالعين ، والانف يجدع بالانف ، والاذن تصلم بالاذن ، والسن تقلع بالسن . أي ان هذه الاعضاء والجوارح المتماثلة هي كالنفس في كون جزاء المتعدي على شيء منها مثل ما فعل ، لانه هو العدل . وقد قرأ الكسائي العين والانف والاذن والسن بالرفع ، أي وكذلك العين بالعين الخ ـ ولهم في اعرابها عدة وجوه . وقرأها الجمهور بالنصب ، عطفا على النفس . ﴿ والجروح قصاص ﴾ قرأ الكسائي الجروح بالرفع أيضا ، والجمهور بالنصب ، أي ذوات قصاص ، تعتبر في جزائها المساواة بقدر

بما أنزله الله فيه من الاحكام ، أي امرناهم بالعمل به ، فهو مثل قوله في أهل التوراة « وكتبنا عليهم فيها » كذا وكذا . وقرأ حمزة « وليحكم » بكسر اللام ، أي ولأجل ان يحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه . وجوزوا ان يكون قوله « وهدى وموعظة » مفعولا لأجله وعطف « وليحكم » عليه مع اظهار اللام لاختلاف الفاعل .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي فأولئك هم الخارجون من حظيرة الدين الذين لا يعدون منه في شيء ، أو الخارجون من الطاعة له ، المتجاوزون لاحكامه وآدابه

ومن مباحث اللفظ في الآيات ان قوله « فأولئك هم » الخ راجع الى « من » بحسب معناها فانها من صيغ العموم . وأما فعل « يحكم » فهو راجع الى لفظها وهو مفرد . ومثل هذا كثير ، يراعى اللفظ في الاول لقربه ويراعى المعنى فيما بعده

﴿ بحث في عدم الحكم بما أنزل الله وكونه كفرا وظلما وفسقا ﴾

الكفر والظلم والفسق كلمات تتوارد في القرآن على حقيقة واحدة ، وترد بمعاني مختلفة ، كما بيناه في تفسير (والكافرون هم الظالمون) من سورة البقرة . وقد اصطلح علماء الاصول والفروع على التعبير بلفظ الكفر عن الخروج من الملة وما ينافي دين الله الحق ، دون لفظي الظلم والفسق . ولا يسع احدا منهم إنكار إطلاق القرآن لفظ الكفر على ما ليس كفرا في عرفهم ، ولكنهم يقولون « كفر دون كفر » ولا إطلاقه لفظي الظلم والفسق على ما هو كفر في عرفهم ، وما كل ظلم أو فسق يعد كفرا عندهم . بل لا يطلقون لفظ الكفر على شيء مما يسمونه ظلما او فسقا . لأجل هذا كان الحكم القاطع بالكفر على من لم يحكم بما انزل الله محلا للبحث والتأويل عند من يوفق بين عرفه ونصوص القرآن .

واذا رجعنا الى المأثور في تفسير الآيات نراهم نقلوا عن ابن عباس (رض) اقوالا منها قوله : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . ومنها أن الآيات الثلاث في اليهود خاصة ليس في أهل الاسلام منها شيء . وروي عن الشعبي ان الاولى والثانية في اليهود والثالثة في النصارى . وهذا هو الظاهر ، ولكنه لا ينفي ان

وسار وراء حسا او معنى . وتقفاه به تقفية جعله يقفوه او يقفو أثره ، قال تعالى (وقفينا من بعده بالرسل) قال في الاساس : وقفيته زيداً به وقفيته به على أثره اذا أتبعته اياه . وهو قفية آبائه وقفي أشياخه ، تلوهم اه اي يتلوهم ويسير على طريقتهم . وعيسى عليه السلام من انبياء بني اسرائيل وشريعته هي التوراة ، ولكن النصارى نسخوها وتركوا العمل بها اتباعا لبولس على انهم ينقلون عنه في اناجيلهم انه ما جاء لينقض الناموس (اي شريعة التوراة) وانما جاء ليتمه ، اي ليزيد عليها ما شاء الله ان يزيد من الاحكام والآداب والمواعظ الروحية ولذلك قال تعالى ﴿ وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾ اي اعطيناه الانجيل مشتملا على هدى من الضلال في العقائد والاعمال كالتوحيد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والاباطيل ، ونور يبصر به طالب الحق طريقه الموصل اليه من الدلائل والامثال ، والفضائل والآداب ، ومصدقا للتوراة التي تقدمته ، اي مشتملا على النص بتصديق التوراة ، وهذا غير تصديق المسيح لها بقوله وعمله . وصفه بمثل ما وصف به التوراة ، وبكونه مصدقا لها . ثم زاد في وصفه عطفا على تلك الاحوال فجعله نفسه هدى من وجه آخر وموعظة للمتقين ، ولعله لما تفرد به من المسائل الروحية ، والمواعظ الادبية ، وزلزل بذلك الجمود الاسرائيلي المادي ، وزعزعة ذلك الغرور الذي كان الكتبة والفريسيون من اليهود مفتونين به وخص هذا النوع بالمتقين لانهم هم الذين ينتفعون به اذ لا يفوتهم شيء من الكتاب لحرصهم عليه ، وعنايتهم به . والحكمة في هذا النوع من الهدى والموعظة فقه اسرار الشريعة ومعرفة حكمتها والمقصد منها ، والعلم أن وراء تلك التوراة وهذا الانجيل هداية أتم وأكمل ، ودينا اعم واشمل ، وهو الذي يجيء به النبي الاخير (البارقليط) الاعظم ، ولولا زلزال الانجيل في جملته لتلك التقاليد وزعزعته لذلك الغرور ، وانس الناس بما حفظ من تعاليمه عدة قرون ، لما انتشر الاسلام بين اهل الكتاب في سورية ومصر وبين النهرين تلك السرعة .

﴿ وليحكم أهل الانجيل بما انزل الله فيه ﴾ قرأ الجمهور « وليحكم » بصيغة الامر ، وهو حكاية حذف منها لفظ القول - ومثله كثير في القرآن - أي وقلنا ليحكم أهل الانجيل

وتفضيل غيره عليه ، وهذا هو المتبادر من السياق في الاولى بمعونة سبب النزول كما رأيت في تصويرنا للمعنى .

واذا تأملت الآيات أدنى تأمل تظهر لك نكتة التعبير بوصف الكفر في الاولى و بوصف الظلم في الثانية و بوصف الفسوق في الثالثة، فالالفاظ وردت بمعانيها في أصل اللغة موافقة لاصطلاح العلماء ففي الآية الاولى كان الكلام في التشريع وانزال الكتاب مشتملا على الهدى والنور والتزام الانبياء وحكماء العلماء العمل والحكم به والوصية بحفظه . وختم الكلام ببيان ان كل معرض عن الحكم به لعدم الاذعان له ، رغبة عن هدايته ونوره ، مؤثرا لغيره عليه ، فهو الكافر به . وهذا واضح لايدخل فيه من لم يتفق له الحكم به أو من ترك الحكم به عن جهالة ثم تاب الى الله ، وهذا هو العاصي بترك الحكم الذي يتحامى أهل السنة القول بتكفيره ، والسياق يدل على ما ذكرنا من التأويل

وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن الايمان وترجمان الدين ، بل في عقاب المعتدين على الانفس أو الاعضاء بالعدل والمساواة ، فمن لم يحكم بذلك فهو الظالم في حكمه كما هو ظاهر . وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الانجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في اقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته لا بحسب ظواهر الالفاظ فقط ، فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا بها فهم الفاسقون بالمعصية، والخروج من محيط تأديب الشريعة .

وقد استحدث كثير من المسلمين من الشرائع والاحكام نحو ما استحدث الذين من قبلهم . وتركوا بالحكم بها بعض ما انزل الله عليهم . فالذين يتركون ما انزل الله في كتابه من الاحكام من غير تأويل يعتقدون صحته فانه يصدق عليهم ما قاله الله تعالى في الآيات الثلاث او في بعضها ، كل بحسب حاله . فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة او القذف او الزنا غير مذعن له لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من اوضاع البشر عليه فهو كافر قطعا . ومن لم يحكم به لعلة أخرى فهو ظالم ان كان في ذلك إضاعة الحق او ترك العدل والمساواة فيه ، والا فهو فاسق فقط ، اذ لفظ الفسق أعم هذه الالفاظ ، فكل كافر وكل ظالم فاسق ولا

ينال هذا الوعيد كل من كان مثلهم، واعرض عن كتابه إعراضهم عن كتبهم، والقرآن عبرة يعبر به العقل من فهم الشيء الى مثله . وقد ذكرت هذه الآيات عند حذيفة بن اليمان فقال رجل : ان هذا في بني اسرائيل قال حذيفة : نعم الاخوة لكم بنو اسرائيل ان كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة . كلا والله لتسلكن طريقهم قدر الشراك (أي سير النعل) عزاه في الدر المنثور الى عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه . (قال) واخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : نعم القوم انتم ان كان ما كان من حلو فهو لكم وما كان من مر فهو لأهل الكتاب . كأنه يرى ان ذلك في المسلمين . واخرج عبد بن حميد عن حكيم بن جبير انه سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى « ومن لم يحكم . . . ومن لم يحكم . . . ومن لم يحكم . . . قال فقلت زعم قوم انها نزلت على بني اسرائيل ولم تنزل علينا . قال اقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال : لا بل نزلت علينا . ثم لقيت مقسما مولى ابن عباس فسألته عن هؤلاء الآيات التي في المائدة ، قلت زعم قوم انها نزلت على بني اسرائيل ولم تنزل علينا ، قال انه نزل على بني اسرائيل ونزل علينا ، وما نزل علينا وعليهم فهو لنا ولهم . ثم دخلت على علي بن الحسين فسألته – وذكر انه ذكر له ما قاله سعيد ومقسم – قال : قالَ صدق ولكنه كفر ليس ككفر الشرك وظلم ليس كظلم الشرك وفسق ليس كفسق الشرك فلقيت سعيد بن جبير فأخبرته بما قال . فقال سعيد بن جبير لابنه كيف رأيته ؟ قال لقد وجدت له فضلا عظيما عليك وعلى مقسم . والمراد ان عدم الحكم بما انزل الله أو تركه الى غيره وهو المراد لا يعد كفرا بمعنى الخروج من الدين ، بل بمعنى اكبر المعاصي

وأقول ان قول من قال ان هذه الآيات أو خواتم الآيات نزلت على بني اسرائيل يراد به انها نزلت في شأنهم لا انها من كتابهم ، اذ لا شيء يدل على انها محكية ، وإلا فهو خطأ . والاوليان منها في سياق الكلام على اليهود والثالثة في سياق الكلام على النصارى لا يجوز فيها غير ذلك . وعبارتها عامة لا دليل فيها على الخصوصية . ولا مانع يمنع من إرادة الكفر الاكبر في الاولى ، وكذا الاخريان ، اذا كان الاعراض عن الحكم بما أنزل الله ناشئا عن استقباحه وعدم الإذعان له

« ومن لم يحكم بما أنزل الله » الخ ليس في أهل الاسلام منها شيء هي في الكفار وذهب بعضهم الى أن الآية الأولى التي فيها الحكم بالكفر للمسلمين والثانية التي فيها الحكم بالظلم لليهود والثالثة التي فيها الحكم بالفسق للنصارى وهو ظاهر السياق ٠ وذهب آخرون الى العموم فيها كلها ويؤيده قول حذيفة لمن قال إنها كلها في بني اسرائيل : نعم الاخوة لكم بنو إسرائيل ان كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة كلا والله لتسلكن سبيلهم قدّ الشراك : رواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصححه . وأول هذا الفريق الآية بتأويلين

فذهب بعضهم الى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوي للتغليظ لا معناه الشرعي الذي هو الخروج من الملة واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن ابن عباس (رض) أنه قال في الكفر الواقع في احدى الآيات الثلاث: إنه ليس بالكفر الذي تذهبون اليه إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ، كفر دون كفر .

وذهب بعضهم الى ان الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة وهو ان من لم يحكم بما أنزل الله منكرا له أو راغبا عنه لاعتقاده بأنه ظلم مع علمه بأنه حكم الله أو نحو ذلك مما لا يجامع الايمان والاذعان ٠ ولعمري أن الشبهة في الامراء الواضعين للقوانين أشد والجواب عنهم أعسر ، وهذا التأويل في حقهم لا يظهر ، وان العقل ليعسر عليه ان يتصور أن مؤمنا مذعنا لدين الله يعتقد ان كتابه يفرض عليه حكما ثم هو يغيره باختياره ويستبدل به حكما آخر بارادته اعراضا عنه وتفضيلا لغيره عليه ويعتد مع ذلك بايمانه واسلامه . والظاهر ان الواجب على المسلمين في مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم ان يلزموه بابطال ما وضعه مخالفا لحكم الله ولا يكتفوا بعدم مساعدته عليه ومشايعته فيه فان لم يقدروا فالدار لا تعتبر دار اسلام فيما يظهر ، وللاحكام فيها حكم آخر ، وههنا يجيء سؤال السائل . وقبل الجواب عنه لا بد من ذكر مسألة يشتبه الصواب فيها على كثير من المسلمين وهي

اذا غلب العدوّ على بعض بلاد المسلمين وامتنعت عليهم الهجرة فهل الصواب ان يتركوا له جميع الاحكام ولا يتولوا له عملا أم لا ؟ يظن بعض الناس ان العمل للكافر لا يحل بحال والظاهر لنا ان المسلم الذي يعتقد انه لا ينبغي ان يحكم المسلم إلا المسلم ، وان جميع الاحكام يجب ان تكون موافقة لشريعته وقائمة على أصولها العادلة ينبغي له أن يسعى في كل مكان باقامة ما يستطيع اقامته من هذه الاحكام ، وان يحول دون تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الامكان . وبهذا القصد يجوز له أو يجب عليه

عكس . وحكم الله العام المطلق الشامل لما ورد فيه النص ولغيره مما يعلم بالاجتهاد والاستدلال هو العدل، فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله- كما قال أحد الاعلام-

ولكن متى وجد النص القطعي الثبوت والدلالة لايجوز العدول عنه الى غيره الا اذا عارضه نص آخر اقتضى ترجيحه عليه كنص رفع الحرج في باب الضرورات. وقد كان مولوي نور الدين مفتي بنجاب من الهند سأل شيخنا الاستاذ الامام رحمه الله تعالى عن أسئلة منها مسألة الحكم بالقوانين الانكليزية فحولها الي الاستاذ لأجيب عنها كما كان يفعل في أمثالها أحيانا . وهذا نص جوابي عن مسألة الحكم بالقوانين الانكليزية في الهند ، وهو الفتوى اا ٧٧ من فتاوى المجلد السابع من المنار

﴿ الحكم بالقوانين الانكليزية في الهند ﴾

(س ٧٧) ومنه : أيجوز للمسلم المستخدم عند الانكليز الحكم بالقوانين الانكليزية وفيها الحكم بغير ما أنزل الله

(ج) أن هذا السؤال يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر كحكم المؤلفين للقوانين وواضعيها لحكوماتهم وحكم الحاكمين بها والفرق بين دار الحرب ودار الاسلام فيها . وانا نرى كثيرين من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الاهلية الذين يحكمون بالقانون كفار أخذاً بظاهر قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» ويستلزم الحكم بتكفير القاضي الحاكم بالقانون تكفير الامراء والسلاطين الواضعين للقوانين فانهم وان لم يكونوا ألفوها بمعارفهم فانها وضعت باذنهم وهم الذين يولون الحكام ليحكموا بها. ويقول الحاكم من هؤلاء: أحكم باسم الامير فلان، لانني نائب عنه باذنه ، ويطلقون على الامير لفظ (الشارع)

أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين بل لم يقل به أحد قط فان ظاهرها يتناول من لم يحكم بما انزل الله مطلقا سواء حكم بغير ماأنزل الله تعالى أم لا. وهذا لايكفره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفرون الفساق بالمعاصي ومنها الحكم بغير ماأنزل الله . واختلف أهل السنة في الآية فذهب بعضهم الى أنها خاصة باليهود وهو مارواه سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : انما أنزل الله ومن لم يحكم بماأنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون في اليهود خاصة : وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال انثلاث الآيات التي في المائدة

الاحكام هناك الى الرأي والاجتهاد في تحري العدل والمصلحة وأجزنا للمسلم ان يكون حاكما عند الحربي في بلاده لاجل مصلحة المسلمين فالذي يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه لاجل منفعة المسلمين ومصلحتهم . فان كان ذلك القانون ضارا بالمسلمين ظالما لهم فليس له ان يحكم به ولا أن يتولى العمل لواضعه إعانة له

وجملة القول أن دار الحرب ليست محلا لاقامة احكام الاسلام ، ولذلك تجب الهجرة منها الا لعذر أو مصلحة للمسلمين ، يؤمن معها من الفتنة في الدين . وعلى من أقام ان يخدم المسلمين بقدر طاقته ، ويقوي أحكام الاسلام بقدر استطاعته ، ولا وسيلة لتقوية نفوذ الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين مثل تقلد أعمال الحكومة ، ولاسيما اذا كانت الحكومة متساهلة قريبة من العدل بين جميع الامم والملل كالحكومة الانكليزية . والمعروف أن قوانين هذه الدولة أقرب الى الشريعة الاسلامية من غيرها ، لانها تفوض أكثر الامور الى اجتهاد القضاة ، فمن كان أهلا للقضاء في الاسلام وتولى القضاء في الهند بصحة قصد وحسن نية يتيسر له ان يخدم المسلمين خدمة جليلة . والظاهر ان ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة القضاء وغيره من أعمال الحكومة تأثما من العمل بقوانينها يضيع على المسلمين معظم مصالحهم في دينهم ودنياهم . وما نكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين الا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة . ولنا العبرة فى ذلك بما يجري عليه الاوربيون في بلاد المسلمين ، اذ يتوسلون بكل وسيلة الى تقلد الاحكام ، ومتى تقلدوها حافظوا على مصالح أبناء ملتهم وجنسهم ، حتى كان من أمرهم في بعض البلاد ان صاروا أصحاب السيادة الحقيقية فيها ، وصار حكامها الاولون آلات في أيديهم

والظاهر مع هذا كله ان قبول المسلم للعمل في الحكومة الانكليزية في الهند (ومثلها ماهو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، ان لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين . ذلك ان نعده من باب الضرورة التي نفذ بها حكم الامام الذي فقد أكثر شروط الامامة ، والقاضي الذي فقد أهم شروط القضاء ، ونحو ذلك . فجميع حكام المسلمين في أرض الاسلام اليوم حكام ضرورة . وعلم مما تقدم ان من تقلد العمل للحربي لاجل ان يعيش براتبه فهو ليس من أهل هذه الرخصة ، فضلا عن ان يكون من أصحاب العزيمة . والله أعلم

{ تنبيه } دار الحرب بلاد غير المسلمين وان لم يحاربوا . وكانت القاعدة ان كل من لم تعاهده على السلم يعد محاربا

ان يقبل العمل في دار الحرب الا اذا علم أن عمله يضر المسلمين ولا ينفعهم، بل يكون نفعه محصورا في غيرهم ، ومعينا للمتغلب على الاجهاز عليهم واذا هو تولى لهم العمل وكاف الحكم بقوانينهم فماذا يفعل وهو مأمور بأن يحكم بما أنزل الله ؟

أقول ان الاحكام المنزلة من الله تعالى منها ما يتعلق بالدين نفسه كأحكام العبادات وما في معناها كالنكاح والطلاق وهي لاتحل مخالفتها بحال ، ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا كالعقوبات والحدود والمعاملات المدنية والمنزل من الله تعالى في هذه قليل وأكثرها موكول الى الاجتهاد . وأهم المنزل وآكده الحدود في العقوبات ، وسائر العقوبات تعزير مفوض الى اجتهاد الحاكم، والربا في الاحكام المدنية . وقد ورد في السنة النهي عن اقامة الحدود في أرض العدو، وأجاز بعض الائمة الربا فيها بل مذهب أبي حنيفة أن جميع العقود الفاسدة جائزة في دار الحرب واستدل له بمناحبة (مراهنة) أبي بكر (رض) لابيّ ابن خلف على أن الروم يغلبون الفرس في بضع سنين وإجازة النبي (ص) ذلك ، وصرحوا بعدم اقامة الحدود فيها ، روي ذلك عن عمرو أبي الدرداء وحذيفة وغيرهم وبه قال أبو حنيفة . قال في أعلام الموقعين : «وقد نص أحمد واسحق بن راهويه والاوزاعي وغيرهم من علماء الاسلام على ان الحدود لا تقام في أرض العدو، وذكرها أبو القاسم الخرقي في مختصره فقال لايقام الحد على مسلم في أرض العدو . وقد أتي بسر بن أرطاة برجل من الغزاة قد سرق مجنة فقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاتقطع الايدي في الغزو لقطعتك » : رواه أبو داود وقال أبو محمد المقدسي وهو اجماع الصحابة . روى سعيد بن منصور في سننه باسناده عن الاحوص بن حكيم عن أبيه ان عمر كتب الى الناس ان لا يجلدوا أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلا لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار . وعن أبي الدرداء مثل ذلك » ثم ذكر ترك سعد إقامة حد السكر على أبي محجن في وقعة القادسية وذكر أنه قد يحتج به من يقول لاحد على مسلم في دار الحرب كما يقول أبو حنيفة ، ولكنه علله تعليلا آخر ليس هذا محل ذكره . وانظر تعليل عمر تجده يصح في بلاد الحرب

فعلم مما تقدم أن الاحكام القضائية التي أنزلها الله تعالى قليلة جدا وقد علمت ماقيل في اقامتها في دار الحرب لاسيما عند الحنفية . فاذا كانت الحدود لا تقام هناك فقد عادت أحكام العقوبات كلها الى التعزير الذي يفوض الى اجتهاد الحاكم. والاحكام المدنية أولى بذلك لأنها اجتهادية أيضا، والنصوص القطعية فيها عن الشارع قليلة جدا . واذا رجعت

قاله جمع من متأخري اليمن . وقال المحقق الطمداوى في فتاويه : والذي نختاره تبعا للائمة المحققين أنه ان لم يكن له مال كما سبق لها الفسخ وإنه كان ظاهر المذهب خلافه لقوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج)ولقوله(ص)« بعثت بالحنيفية السمحة » ولان مدار الفسخ على الاضرار ولاشك أن الضرر موجود فيها اذا لم يمكن الحصول الى النفقة منه وإن كان موسرا اذ سر الفسخ هو تضرر المرأة وهو موجود لاسيما مع اعسارها فيكون تعذر وصولها الى النفقة حكمه حكم الاعسار اه

وقال السيد عبد الله بن عمر الحضرمي أنه يجوز فسخ النكاح من زوجها حضر أوغاب بتسعة شروط الى ان قال : ولوغاب الزوج وجهل يساره وإعساره بانقطاع خبره ولم يكن له مال بمرحلتين فلها الفسخ بشرطه كما جزم به في النهاية وزكريا والمزجد والسمباطي وابن زياد وابن قاسم والكروي وكثيرون . وقال ابن حجر في التحفة والفسخ وهو متجه مدركا لانقلا اه بل اختار كثيرون وافتى به بن عجيل وابن الصباغ والروياني انه لو تعذر تحصيل النفقة من الزوج في ثلاثة ايام جاز لها الفسخ حضر الزوج أم غاب ، وقواه ابن الصلاح ورجحه ابن زياد والطمبداوي والمزجد وصاحب المهذب والكافي وغيرهم فيما اذا غاب وتعذرت النفقة منه ولو بنحو شكاية. قال ابن قاسم وهذا أولى من غيبة ماله وحده والمجوز للفسخ . أما الفسخ بتضررها بطول الغيبة وشهوة الوقاع فلايجوز اتفاقا وأن خافت الزنا والله سبحانه وتعالى أعلم

امر برقمه مفتي الشافعية بمكة المحمية الراجي غفران المساوي

عبد الله ابن السيد محمد صالح الزواوي

كان الله لهما آمين

الختم

صورة ما كتبه بعض كبار علماء الشافعية بالازهر على هذه الفتوى

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

أفاد العلامة السيد مصطفى الذهبي في المسائل الفقهية أن أصل مذهب الامام الشافعي أنه لافسخ مادام الزوج موسرا ، أي لم يعلم اعساره وان انقطع خبره وتعذر استيفاء النفقة منه ، وأن الذي جرى عليه ابن الصلاح وشيخ الاسلام وكثير من المحققين انه اذا تعذر استيفاء النفقة منه من كل الوجوه لانقطاع خبره او تعززه أي تواريه بحيث لايتمكن الحاكم من جبره ، ولم يوجد لكل منهما مال فسخت الزوجة بالحاكم ، قالوا لأن سر الفسخ بالاعسار هو التضرر ، والتضرر موجود هنا ولو مع

﴿ استفتاء في فسخ نكاح المعسر ﴾

ماقولكم في امرأة فقيرة غاب عنها زوجها من مدة سنين وترك عندها ولدا ولم يترك لها شيئا لنفقتها ونفقة ولده ولم يرسل لهما سوى شيء يسير لايقوم بنفقة الولد وكتبت له عدة كتب طلبت منه النفقة الكاملة لها ولولدها اوالطلاق فتعنت ولم يجوب عليها (؟) ثم التمست من شيخه شيخ الجاوى فكتب له ولم (يجب) فهل لها طلب فسخ النكاح عند الحاكم الشافعي ام لا ؟ وهل لو رفعت أمرها اليه وتحقق وثبت عنده جميع مادعته المرأة بالبينة الكاملة وفسخ نكاحها يكون فسخه واقعا موقعه ولها بعد تمام العدة من الفسخ المذكور التزوج أم لا ؟ أفتونا مأجورين

﴿ جواب مفتي الشافعية بمكة المكرمة ﴾

باسمه سبحانه وتعالى أبتدئ الجواب ، واستمد منه تعالى العون والهداية للصواب

في الحقيقة يقع كثير من بعض الرجال الظلم والتعدي والايذاء في حق النساء البائسات ، وذلك حرام وفاعله آثم مخالف لما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في حقهن ، ومن ذلك التزوج بهن ثم السفر وتركهن بلا نفقة ولامنفق ، فجزى الله امامنا الشافعي رضي الله عنه خيراحيث سوغ لهن فسخ النكاح عندتضررهن. ويسوغ للحاكم متى رفعن أمرهن اليه ان يفسخ نكاحهن، ثم بعدتمام العدة يتزوجن بمن شئن. وكذلك أمام دارالهجرة الامام مالك رضي الله عنه . فالمرأة المسئول عنها متى رفعت أمرها الى الحاكم وثبت لديه تضررها ودعواها فله حينئذ فسخ نكاحها من الزوج المذكور وفسخه سائغ وواقع موقعه ، ولها بعد تمام عدة الفسخ المذكور التزوج بمن يقوم بشأنها . قال في الأسنى متنا وشرحا : واختار القاضي الطبري وابن الصباغ وغيرهما جواز الفسخ لها اذا تعذر تحصيلها للنفقة في غيبته للضرورة ، وقال الروياني وابن اخته صاحب العدة أن المصلحة الفتوى به . وقال في فتح المعين : واختار جمع كثيرون من محققي المتأخرين في غائب تعذر تحصيل النفقة منه الفسخ ، وقواه ابن الصلاح . وقال في فتاويه: اذا تعذرت النفقة لعدم مال حاضر مع عدم امكانها اخذها منه حيث هو بكتاب حكمي وغيره لكونه لم يعرف موضعه او عرف ولكن تعذرت مطالبته عرف حاله في اليسار والاعسار أم لم يعرف فلها الفسخ بالحاكم والافتاء بالفسخ هو الصحيح اه ونقل شيخنا كلامه في الشرح الكبير ، وقال في آخره وأفتى بما

للعقيدة كالعسكر الذين يحرسون البلاد أو الحجاج مثلا . بل نقول اننا على سعة اختبارنا للعالم الاسلامي لا نعرف مكانا في الارض تبين فيه حقيقة الاسلام التي يمثلها القرآن وسنة الرسول المتبعة وسيرة السلف الصالح، من العقائد والاخلاق والآداب، والسياسة والادارة والقضاء ، تبيانا سالما من الشوائب والاوهام ، بحيث تتلقى بسهولة في ثمانية اشهر أو اعوام (وارجو ان يوفق لهذا من يتخرجون في مدرسة دار الدعوة والارشاد) .

(٢) اعترف هذا الدكتور الهولندي بأنه ادعى الاسلام نفاقا او خداعا للمسلمين ليسبر غورهم وغور دينهم من حيث تأثيره في حياتهم المدنية والسياسية . وقد فعل مثل هذا غيره من أفراد الشعوب الاوربية اصحاب المستعمرات الاسلامية، كالفرنسيس والروس والانكليز . ولو كان للمسلمين حكومات منظمة ، وجمعيات اصلاحية عامة، لما تيسر لهؤلاء الجواسيس ما يتيسر لهم وأمر المسلمين فوضى . وانما نرى هؤلاء المستعمرين يراقبون كل غريب يدخل مستعمراتهم ولا سيما اذا كان مسلما . فلا يفوتهم من حركاته ولا اقواله شيء .

(٣) بين الدكتور ان الاسلام الديني ، كان قائما على اساس الاسلام السياسي ، وان المسلمين كانوا واثقين بدينهم راضين به اذ كانوا احرارا يرون ان العالم كله ملك لهم بالفعل او بالقوة ، عليهم ان يفتحوا منه ما لم يفتحوه . وهذا الذي ذكره عن المسلمين هو الذي عليه الافرنج الآن، فهم يرون ان العالم كله ملك لهم، ولذلك يتفقون فيما بينهم على اقتسام الممالك المستقلة ثم ينفذون ذلك .ولا مجال هنا للبحث في تفصيل هذا وبيان مآخذه . ولكننا ننبه عقلاء القراء الى الاعتبار بحالهم السابقة وحال الاوربيين الحاضرة ، ثم العبرة كل العبرة فيما رتبه هذا السياسي الكبير على هذا وهو .

(٤) بين ان الاوربيين قد سلبوا المسلمين ذلك الاستقلال والحرية بالتدريج ، فاضطر المسلمون الى تعديل افكارهم في الاسلام الديني ، بعد زوال الاساس الذي بني عليه وهو الاستقلال السياسي . ثم نقل ان بعض الساسة الاوربيين يرون ان سقوط الاسلام الديني يتبع سقوطه السياسي ، فيزول الاسلام من الارض ، وانه يخالفهم في ذلك ، ويرى ان الاسلام الديني لا يزول كما أنه لا يبقى كما كان في عهد استقلاله والثقة به ، وسنذكر ملخص رأيه فيه . والعبر لمن يعقل من المسلمين في هذا كثيرة ، ومن اهمها غرور المفتونين من المسلمين الذين يظنون أنهم يحفظون

اليسار ، فلا نظر لعدم تحقق الاعسار . وظاهر انه لا إمهال هنا لأن سبب الفسخ كما علمت هو محض الضرر من غير نظر لليسار والاعسار انتهى وان اردت بسط في المقام فراجع المسائل المذكورة صحيفة ٦٧ و٨٠ والله أعلم

كتبه كتبه كتبه

محمد ابراهيم القاياتي الشافعي سليمان العبد بالأزهر الشريف محمد النجدي

(المنار) ان ماعلل به أولئك الفقهاء جواز الفسخ صحيح وان رفع الحرج ونفي الضرر والضرار قطعي في الشريعة . ومن أشد الضرر والحرج والعنت عدم القيام بحق الزوجية الثابت بحديث « وان لزوجك عليك حقا » المتفق عليه . فلا عبرة بقول من قال انه لا يفسخ به وان خافت الزنا على نفسها . لانه مخالف لأدلة الشرع القطعية . وقد سبق لنا في المنار بيان فتوى المشيخة الاسلامية في الاستانة بالفسخ على الغائب والمعسر ، وصدور الارادة السنية بذلك

﴿ محاضرة الدكتور كريستيان سنوك هرغرنج الهولندي ﴾

(في الاسلام ومستقبل المسلمين)

وعدنا أن نعلق شيئاً على هذه المحاضرة التي نشرناها في الجزء الماضي ووفاء بالوعد نقول

(١) يظهر من كلام الدكتور انه اختبر المسلمين اختباراً واسعاً قلما يصل الى مثل غوره الاجنبي ، فهو قد اصاب في اكثر ما ذكره عنهم من رأي وخبر ، ولكنه ما عرف حقيقة الاسلام وكنهه ، وأنى له ان يعرف ذلك ومن اين يعرفه ؟ يقول انه درس الاسلام وعرف أصوله وفروعه من مكة المكرمة حيث أقام ثمانية اشهر يتلقى عن بعض العلماء ! سبحان الله ! إن اهل مكة اقل اهل الامصار الاسلامية عناية بالعلم الديني وغيره ، ومن يوجد فيها من المدرسين الغرباء ، فقلما يوجد فيهم أحد من المبرزين الاقوياء ، وان وجد فيهم من يتقن بعض العلوم الشرعية ، فهو لا يقرأ الدروس الا على طريقة متأخري المسلمين العقيمة ، طريقة المناقشة في عبارات بعض كتب المذاهب . فالثمانية الاشهر لا تكفيه لقراءة عقيدة كالسفية او السنوسية ، ونحوهما من كتب الكلام على مذهب الاشعرية ، ولا لقراءة باب الطهارة والصلاة من متوسطات كتب الشافعية أو الحنفية . وعلم الكلام الذي هو علم فلسفة العقائد الاسلامية يقول فيه الامام الغزالي انه ليس من علوم الدين وانما هو حارس

مثل اليهود في زوال الملك والرضا بحكم الاوربيين وسيادتهم ، مع المحافظة على شعور دينهم وبعض تقاليده مثلهم ، ومجاراة الافرنج في سائر الشؤون وان كان فيها ترك احكام الاسلام وآدابه . واستدل على ذلك بتحول افكار المسلمين عن الرضاء بالتربية الدينية القديمة الى لغات الاوربيين وعلومهم وتربيتهم .

(٩) يرى هذا الدكتور الهولندي ما يراه الفرنسيون وغيرهم ان ما يراد ادخاله على الاسلام من الآراء والافكار التي يريدها دعاة النصرانية يجب ان يبث في المسلمين باسم المدنية لا باسم الدين، فحينئذ تقبل . وهذا ما تجري عليه فرنسة في مستعمراتها الاسلامية . يعني ان المسلمين قد فتنوا باسم المدنية الاوربية ومظاهرها فهم يقبلون من بابها كل شيء ، - وان لم يوصل اليها - لا يميزون بين كفر وايمان ، ولا بين ضار ونافع. واما ثقتهم بدينهم ورؤيتهم دين النصرانية دونه فهما مما يحول دون قبولهم لشيء ما من دعاة النصرانية باسم النصرانية .

(١٠) ملخص المحاضرة أن اوربة ازالت استقلال الاسلام السياسي وانتزعت ملك المسلمين من ايديهم بالتدريج ، وانها شرعت في ازالة سائر مقوماتهم ومشخصاتهم القومية التي كانوا بها أمة واحدة ، دينية وغير دينية ، حتى اللغات والعادات واركان الدين — وان اهل الرأي فيها مختلفون في دين الاسلام نفسه هل يمكن ازالته من الارض بعد اسقاط الحكومات الاسلامية كلها ام لا . فبعضهم يرون امكان ذلك فيبذلون الملايين لدعاة النصرانية لتنصير المسلمين . وبعضهم يرى ان الاسلام لا يزول بالمرة ، ولكن ينبغي ان تزال ثقة المسلمين به ، وأن يحولوا باسم المدنية عن جميع مايربط بعضهم ببعض حتى اللباس، فبهذا يكونون فعلة وزراعا للسادة المالكين لبلادهم ، اذ لا يستغنون عنهم في استخراج خيرات الارض . وهذا ما يسعى اليه قوم آخرون .

ومن العجائب ان محاضرة كهذه تترجمها جريدة سورية بالعربية ، وتجعل عنوانها (مقاومة الاسلام لنفوذ النصرانية !!) كانه كبر عليها قول الخطيب ان المبشرين لا يستطيعون تنصير المسلمين ، فعدت هذا من مقاومة الاسلام للنصرانية ، وهكذا تقول بعض الجرائد القبطية هنا اذا قابل بعض المسلمين طعن المبشرين بجزء من الف جزء . فمتى يفهم المسلمون ومتى يعقلون ؟

(١١) نحن نسلم قول الكاتب وفاقا لكثير من احرار الافرنج : ان أوربة قد ازالت استقلال الاسلام السياسي، ولا يصدنا عن هذا التسليم ابقاء او بقاء خيال من الاستقلال ضعيف في بعض البلاد ، يدير بعضه النفوذ الاوربي ظاهرا وباطنا او

استقلالهم السياسي او يؤسسون لهم استقلالا جديدا مع ترك الدين ، فان هذا اذا جاز في غير الاسلام لا يجوز فيه ، لان جميع المقومات للامة جماعها الاسلام اسلامية

(٥) كما بين إزالة أوربة لاستقلال الاسلام السياسي بالاستيلاء على ممالكه الواسعة ، بين تصرفها في إزالة استقلال افراد المسلمين في انفسهم ، بما بينه من تغلغل الآراء الاوربية في افكارهم ، وزلزلتها لكثير من مقوماتهم ومشخصاتهم المالية التي يمتازون بها عن غيرهم ، وبها كانوا أمة واحدة ، وبين ان ازالة بعض المميزات العادية كاللباس ، له دخل في ازالة المميزات الدينية كالصلاة ، فقال ان اداء الصلوات الخمس صار متعذرا على المتفرنجين ، الذين يلبسون الزي الافرنجي (قال) وسيتبعه الصيام . فجزم بأنهم يتركونه ، وبأن الشرائع التي كانت مقدسة عامة ستكون خاصة بحجاج مكة والمتصوفة !

وطالما نبهنا المسلمين على ضرر هذا الانسلاخ من العادات والاخلاق بتقليد الافرنج . وقد فطنا لهذه المسألة في اثناء اشتغالنا بطلب العلم بطرابلس الشام ، فكتبنا في بحث الزي واللباس فصلا طويلا بينا فيه انه ليس للاسلام زي ديني خاص ، وان ضرر تغيير الزي سياسي اجتماعي ، وانما يمس الدين ويكون محرما شرعا لاسباب عارضة ككونه ضيقا يمنع من اداء الصلاة . ولكن جماهير المسلمين لايزالون بمعزل عن فهم امثال هذه التنبيهات والنصائح ، حتى انه ليسخر بها من يعدون انفسهم من الفلاسفة والسياسيين ، وانما هم من السفهاء المفتونين .

(٦) ذكر من اثر سلطان الاسلام في اهله ان الآراء الاوربية على شدة تغلغلها في انفس المسلمين وتحويلها لعاداتهم وافكارهم ، وتغييرها لشؤون حياتهم ، لم تقو على محو الشعور الديني من قلوبهم ، حتى انه كان يعرف تلاميذه المسلمين من غيرهم ، بمجرد قراءته لمنشآتهم ، لان روح الاسلام لا بد ان تجلى في عباراتها

(٧) يعلل الدكتور بهذا وغيره ما رآه ورواه من خذلان دعاة النصرانية (المبشرين) فيما يحاولون من تنصير المسلمين ، ويجزم بأن التغيير الذي ادخلته اوربة على الاسلام لاينتهي بتنصير المسلمين ، لأنهم يعرفون النصرانية ويعتقدون انها فسدت وان الاسلام أرقى منها . وهذا القول الذي قاله صحيح وان كان يجهله من لم يكن له مثل علمه واختباره . فنحن نعتقد ان أصل النصرانية صحيح ، وانه طرأ عليها التبديل والتغيير ، وان الله أكمل دينه بالاسلام ، على سنته في النشوء وترقي الاجتماع في الاقوام.

(٨) رأي الدكتور في مستقبل المسلمين الذي أطال في بيانه هو انهم يكونون

الباطنية وغلاة المتصوفة

(بدعهم وتأويلاتهم من فصول كتاب الاعتصام للامام الشاطبي)

فصل

(ومنها) بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات لا تعقل- يدعون فيها انها هي المقصود والمراد، لا ما يفهم العربي -مسندة عندهم الى اصل لا يعقل . وذلك انهم - فيما ذكر العلماء- قوم ارادوا إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً ، وإلقاء ذلك فيما بين الناس لينحل الدين في ايديهم ، فلم يمكنهم إلقاء ذلك صراحاً ، فيرد ذلك في وجوههم ، وتمتد اليهم ايدي الحكام - فصرفوا اعناقهم الى التحال على ما قصدوا بانواع من الحيل ، من جملتها صرف الهم من الظواهر إحالة على أن لها بواطن هي المقصودة، وان الظواهر غير مرادة . فقالوا : كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والامور الإلهية، فهي امثلة و رموز الى بواطن.

***

فمما زعموا في الشرعيات ان الجنابة مبادرة الداعي للمستجيب بافشاء سرّ اليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . ومعنى مجامعة البهيمة مفاتحة من لا عهد له ولم يؤد شيئاً من صدقة النجوى - وهي مائة وتسعة عشر درهما عندهم - قالوا : فلذلك اوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول به ، والا فالبهيمة متى يجب القتل عليها ؟

باطنا فقط ، ولا وجود بعض الامارات الصغيرة غير المنظمة التي يدور حولها النفوذ الاوربي ولا يجد له الآن منفذا للدخول في احشائها كقلب جزيرة العرب . ولو كان عدد العقلاء الذين يفهمون هذه الحقيقة ولا يغترون بخيال الاستقلال الرسمي او ظلاله مثلنا كثيرا ، لكان نهوض الاسلام من سقوطه السياسي والديني قريبا ، ولكن جمهور المسلمين الاكبر كالاطفال الذين يظنون ان الصور المتحركة التي يرونها في الملاعب تمثل الملوك والجيوش والوقائع هي من الاحياء التي تتحرك وتعمل بارادتها .

ولو عرف الدكتور الحاذق النبه حقيقة الاسلام كما عرف احوال المسلمين الاجتماعية ، ولو دقق نظره بعد ذلك في شؤون المسلمين فضل تدقيق ، وقاس حاضرهم الذي عرفه بماضيهم القريب المظلم ، وماضيهم البعيد المشرق ، _ لعلم ان في الاسلام قوة كامنة لم يكن لليهود مثلها ولا ما يقرب منها عند ما زال ملكهم ، ولا قبل ذلك ولا بعده . ولعلم ان هذه القوة لو وجدت من يحسن استخدامها والانتفاع بها لامكنه ان يملك بها الشرق كله ، او يكون سيده الاول ، ولكن من سوء حظ الشرق انه لم يوجد في هذه القرون الاخيرة عقل نير ادرك هذا بقوة اشعته ولا همة عالية ارادت ان تتصدى له ، الا عقل نابليون الكبير وهمته ولكن حالت الاقدار بينه وبينه .

ولو عقل الدكتور السياسي هذا وخبره لاقنع دولته بأن تكون هي الدولة التي تسود الشرق بالمسلمين ، ولو اقنعها لامكنها ذلك وان كان مسلمو بلادها اضعف من غيرهم في قوتي العلم والعمل ، وفي الجد التالد والطارف . أما لو فطنت لمثل هذا العمل فرنسة أو انكلترة لكانت كل منهما اقدر عليه من غيرها .

فاذا ظلت هذه الدول التي تملك عشرات الملايين من المسلمين ، محجوبة عن هذه الحقيقة بما ضربه التاريخ دونها من حجب السياسة والدين ، فليس من البعيد ان تفطن له دولة اليابان ، ان صح ما يظنه الاوربيون من انهم قطعوا طرق الحياة كلها على هذه البقايا من دول الاسلام

واما الاسلام الديني فهو لا يزداد الا قوة وجدة مهما حل بالاسلام السياسي ، وقد حفظ الدكتور منه شيئا وغاب عنه اشياء . فان كان بعض المتفرنجين قد تركوا الصلاة والصيام ، ويظن هو كما يظنون ان الجماهير سيتبعونهم في هذا الضلال ، افتتانا بزخرف الشهوات المدنية ، وما تعبث بعقولهم الآراء الاوربية ، فليعلم ان عدد المصلين يزيد ولا ينقص ، وان هؤلاء المتفرنجين المفتونين سيرجع بعضهم الى الهدى ، وينبذ المسلمون البعض الآخر نبذ النوى ، وأن الاسلام دين المستقبل « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » ؟ ؟

ولكن لا بد من نكتة مختصرة في الردّ عليهم .

فلا يخلو ان يكون ذلك عندهم ما من جهة دعوى بالضرورة وهو محال، لأن الضروري هو ما يشترك فيه العقلاء علما وادراكا ، وهذا ليس كذلك.

واما من جهة الامام المعصوم بسماعهم منه لتلك التأويلات. فنقول لمن زعم ذلك: ما الذي دعاك الى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم سوى المعجزة؟ وليس لا مامك معجزة ، فالقرآن يدل على أن المراد ظاهره ، لاما زعمت. فان قال : ظاهر القرآن رموز الى بواطن فهمها الامام المعصوم ولم يفهمها الناس فتعلمناها منه . قيل لهم : من أي جهة تعلمتموها منه ؟ أبمشاهدة قلبه بالعين ؟ أو بسماع منه ؟ ولا بد من الاستناد الى السماع بالاذن . فيقال : فلعل لفظه ظاهر له باطن لم تفهمه ، ولم يطلعك عليه ، فلا يوثق بما فهمت من ظاهر لفظه . فان قال : صرح بالمعنى. وقال : ما ذكرته ظاهر لا رمز فيه، او : والمراد ظاهره . قيل له : وبماذا عرفت قوله انه ظاهر لا رمز فيه، بل انه كما قال ؟ اذ يمكن أن يكون له باطن لم تفهمه ايضاً ، حتى لو حلف بالطلاق الظاهر انه لم يقصد الا الظاهر ، لاحتمل أن يكون في طلاقه رمز هو باطنه وليس مقتضى الظاهر . فان قال : ذلك يؤدي الى حسم باب التفهيم . قيل له : فانتم حسمتموه بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فان القرآن دائر على تقرير الوحدانية ، والجنة ، والنار ، والحشر ، والنشر ، والانبياء ، والوحي ، والملائكة ، مؤكداً ذلك كله بالقسم . وانتم تقولون : ان ظاهره غير مراد وان تحته رمزا . فان جاز ذلك عندكم بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم لمصلحة وسرّ له في الرمز، جاز بالنسبة الى معصومكم أن يظهر لكم خلاف ما يضمره لمصلحة وسرّ له فيه، وهذا لا محيص لهم عنه .

والاحتلام ان يسبق لسانه الى افشاء السر في غير محله، فعليه الغسل، أي تجديد المعاهدة . والطهر هو التبري من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الامام . والتيمم الاخذ من المأذون الى أن يسعد بمشاهدة الداعي والامام . والصيام هو الامساك عن كشف السر .

ولهم من هذا الافك كثير في الامور الالهية ، وامور التكليف ، وامور الآخرة ، وكله حوم على ابطال الشريعة جملة وتفصيلاً ، اذ هم ثنوية ودهرية وإباحية ، منكرون للنبوة والشرائع والحشر والنشر والجنة والنار والملائكة، ـ بل هم منكرون للربوبية . وهم المسمون بالباطنية .(١)

وربما تمسكوا بالحروف والاعداد بان الثقب في رأس الآدمي سبع، والكواكب السيارة سبع ، وايام الاسبوع سبع ، فهذا يدل على أن دور الأئمة سبعة ، وبه يتم . وان الطبائع اربع ، وفصول السنة اربع ، فدل على أن اصول الاربعة هي السابق والتالي الإلهان ـ عندهم ـ والناطق والاساس . ـ وهما الامامان ـ . والبروج اثنا عشر ، يدل على أن الحجج اثنا عشر ، وهم الدعاة ، الى انواع من هذا القبيل. وجميعها ليس فيه ما يقابل بالرد ، لأن كل طائفة من المبتدعة سوى هؤلاء ، ربما يتمسكون بشبهة تحتاج الى النظر فيها معهم . أما هؤلاء فقد خلعوا في الهذيان الربقة ، وصاروا عرضة للمز ، وضحكة للعالمين . وانما ينسبون هذه الاباطيل الى الامام المعصوم الذي زعموه ، وابطال الأئمة معلوم في كتب المتكلمين.

---

(١) انقسمت الباطنية الى عدة فرق يجمعهم القول بجعل ظواهر النصوص غير مرادة ، والذهاب في تأويلها مذاهب من التحكم لا تتفق مع اللغة في مجاز ولا كناية . والقول بامام معصوم ، وقد يسمونه باسم آخر ، ويجعلونه بعد ذلك إلها . وآخر فرقهم البابية البهائية

كامن ، والعلم مرفوع – كما اخبر عليه الصلاة والسلام – والجهل ظاهر ، ولم يبق من الدين الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، حتى جاء الله بالامام فاعاد الله به الدين – كما قال عليه الصلاة والسلام « بدئ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدئ فطوبى للغرباء » وقال : ان طائفته هم الغرباء ، زعما من غير برهان زائد على الدعوى . وقال في ذلك الكتاب : جاء الله بالهدى ، وطاعته صافية نقية ، لم ير مثلها قبل ولا بعد ، وان به قامت السموات ، والارض به تقوم ، ولا ضد له ، ولا مثل ، ولا ند . وكذب ، تعالى الله عن قوله . وهـذا كما نزّل احاديث الترمذي وابي داود في الفاطمي على نفسه وانه هو بلا شك .

واول اظهاره لذلك انه قام في اصحابه خطيبا فقال : الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضي لما يشاء ، لا رادّ لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على النبي المبشر بالمهدي ، يملأ الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا ، يبعثه الله اذا نسخ الحق بالباطل ، وازيل العدل بالجور ، مكانه بالمغرب الاقصى ، وزمانه آخر الازمان ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر جور الامراء ، وامتلأت الارض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل . يشير الى ما جاء في احاديث الفاطمي .

فلما فرغ بادر اليه من اصحابه عشرة . فقالوا : هذه الصفة لا توجد الا فيك ، فأنت المهدي . فبايعوه على ذلك . واحدث في دين الله احداثا كثيرة زيادة الى الاقرار بانه المهدي المعلوم ، والتخصيص بالعصمة . ثم وضع ذلك في الخطب ، وضرب في السكك ، بل كانت تلك الكلمة عندهم



قال ابو حامد الغزالي رحمه الله : ينبغي ان يعرف الانسان ان رتبة هذه الفرقة هي اخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال ، اذ لا تجد فرقة تنقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه التي هي الباطنية . اذ مذهبها إبطال النظر ، وتغيير الالفاظ عن موضوعها بدعوى الرمز . وكل ما يتصور أن تنطق به السنتهم فاما نظر أو نقل . أما النظر فقد ابطلوه . وأما النقل فقد جوزوا أن يراد باللفظ غير موضوعه . فلا يبقى لهم معتصم . والتوفيق بيد الله .



وذكر ابن العربي في العواصم مأخذاً آخر في الردّ عليهم اسهل من هذا - وقال انهم لا قبل لهم به - وهو أن يسلط عليهم في كل ما يدعونه السؤال «بكم» خاصة ، فكل من وجهت عليه منهم سقط في يده . وحكى في ذلك حكاية ظريفة يحسن موقعها ههنا . وتصور المذهب كاف في ظهور بطلانه ، الا أنه مع ظهور فساده وبعده عن الشرع قد اعتمده طوائف وبنوا عليه بدعا فاحشة (منها) مذهب المهدي المغربي . فانه عد نفسه الامام المنتظر ، وانه معصوم حتى ان من شك في عصمته أو في أنه المهدي المنتظر فهو كافر .

وقد زعم ذووه انه ألف في الامامة كتاباً ذكر فيه أن الله استخلف آدم ونوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم السلام، وان مدة الخلافة ثلاثون سنة ، وبعد ذلك فرق واهواء وشح مطاع، وهوى متبع ، واعجاب كل ذي رأي برأيه، فلم يزل الامر على ذلك، والباطل ظاهر والحق

بالموحدين ، فقتلوا منه في الذروة والغارب ، وضمنوا على انفسهم الدخول تحت طاعته، والوقوف على قدم الخدمة بين يديه، والمدافعة عنه بما استطاعوا، لكن على شرط ذكر المهدي وتخصيصه بالعصمة في الخطبة والمخاطبات، ونقش اسمه الخاص في السكك ، واعادة الدعاء بعد الصلاة ، والنداء عليها « بتاصاليت الاسلام » عند كمال الاذان و « بتقام تاصاليت » وهي اقامة الصلاة، وما اشبه ذلك من « سودرين » و « وقادرى » و « اصبح ولله الحمد » وغير ذلك .

وقد كان الرشيد استمر على العمل بما رسم ابوه من ترك ذلك كله ، فلما انتدب الموحدون الى الطاعة اشترطوا اعادته ماترك ، فاسعفوا فيه . فلما احتلوا منازلهم اياما ولم يعد شيء من تلك العوائد ، ساءت ظنونهم، وتوقعوا انقطاع ما هو عمدتهم في دينهم ، وبلغ ذلك الرشيد ، فجدد تأنيسهم باعادتها .

قال المؤرخ : فيا لله ! ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح لسماع تلك الامور ، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء لخليفتهم بالنصر والتأييد، وشملت الافراح فيهم الكبير والصغير. وهذا شأن صاحب البدعة، فلن يسر باعظم من انتشار بدعته واظهارها (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) وهذا كله دائر على القول بالامامة والعصمة الذي هو رأى الشيعة .

فصل

(ومنها) رأي قوم التغالي في تعظيم شيوخهم ، حتى ألحقوهم بما لا يستحقونه . فالمقتصد منهم يزعم انه لا ولي لله اعظم من فلان ، وربما

ثالثة الشهادة . فمن لم يؤمن بها أو شك فيها ، فهو كافر كسائر الكفار . وشرع القتل في مواضع لم يضعه الشرع فيها . وهي نحو من ثمانية عشر موضعا . كترك امتثال امر من يستمع امره ، وترك حضور مواعظه ثلاث مرات ، والمداهنة اذا ظهرت في احد قتل ، واشياء كثيرة .

وكان مذهبه البدعة الظاهرية ، ومع ذلك فابتدع اشياء ، كوجوه من التثويب ، اذ كانوا ينادون عند الصلاة «تا صاليت الاسلام» و « بقيام تا صاليت » و «سوردين» و « باردي » و « واصبح ولله الحمد » وغيره . فجرى العمل بجميعها في زمان الموحدين . وبقي اكثرها بعد ما انقرضت دولتهم . حتى اني ادركت بنفسي في جامع غرناطة الاعظم الرضا عن الامام المعصوم . المهدي المعلوم ، الى أن أزيلت وبقيت اشياء كثيرة غفل عنها أو اغفلت .

وقد كان السلطان ابو العلاء ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي منهم . ظهر له قبح ما هم عليه من هذه الابتداعات . فامر حين استقر بمراكش - خليفته بازالة جميع ما ابتدع من قبله ، وكتب بذلك رسالة الى الاقطار يأمر فيها بتغيير تلك السنة ، ويوصي بتقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وانه قد نبذ الباطل واظهر الحق ، وان لا مهدي الا عيسى ، وان ما ادعوه انه المهدي بدعة ازالها ، واسقط اسم من لا تثبت عصمته .

وذكر أن اباه المنصور هم بان يصدع بما به صدع ، وان يرفع الحرف الذي رفع ، فلم يساعده الاجل لذلك . ثم لما مات واستخلف ابنه ابو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد ، وفد اليه جماعة من اهل ذلك المذهب المتسمين

وقد حدثني بعض الشيوخ أهل العدالة والصدق في النقل انه قال : اقمت زمانا في بعض القرى البادية ، وفيها من هذه الطائفة المشار اليها كثير ـ قال ـ فخرجت يوما من منزلي لبعض شأني ، فرأيت رجلين منهم قاعدين ، فاتهمت انهما يتحدثان في بعض فروع طريقتهم ، فقربت منهما على استخفاء لأسمع من كلامهم ـ إذ من شأنهم الاستخفاء بأسرارهم ـ فتحدثا في شيخهم وعظم منزلته ، وانه لا أحد في الدنيا مثله ، وطربا لهذه المقابلة طربا عظيما ، ثم قال أحدهما للآخر : اتحب الحق ؟ هو النبي . قال : نعم هذا هو الحق . قال المخبر : فقمت من ذلك المكان فارًّا أن يصيبني معهم قارعة .

وهذا نمط الشيعة الامامية . ولولا الغلو في الدين والتكالب على نصر المذهب ، والتهالك في محبة المبتدع ، لما وسع ذلك عقل احد ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » الحديث. فهؤلاء غلوا كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام . حيث قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم . ـ فقال : الله تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق . ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل) وفي الحديث « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله » .

ومن تأمل هذه الاصناف وجد لها من البدع في فروع الشريعة كثيرا ، لأن البدعة اذا دخلت فى الاصل سهلت مداخلتها الفروع .

اغلقوا باب الولاية دون سائر الامة الا هذا المذكور. وهو باطل محض، وبدعة فاحشة، لأنه لا يمكن أن يبلغ المتأخرون ابداً مبالغ المتقدمين. فخير القرون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، وهكذا يكون الامر ابداً الى قيام الساعة. فاقوى ما كان اهل الاسلام في دينهم واعمالهم ويقينهم واحوالهم في اول الاسلام. ثم لا زال ينقص شيئاً فشيئا الى آخر الدنيا. لكن لا يذهب الحق جملة، بل لا بد من طائفة تقوم به وتعتقده. وتعمل بمقتضاه على حسبهم في ايمانهم. لا ما كان عليه الاولون من كل وجه، لانه لو أنفق احد من المتأخرين وزن احد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نصيفه. واذا كان ذلك في المال فكذلك في سائر شعب الايمان، بشهادة التجربة العادية.

ولما تقدم اول الكتاب انه لا يزال الدين في نقص فهو اصليٌّ لا شك فيه. وهو عند اهل السنة والجماعة. فكيف يعتقد بعد ذلك في انه ولي أهل الارض؟ وليس في الامة ولي غيره؟ لكن الجهل الغالب، والغلو في التعظيم، والتعصب للنحل، يؤدي الى مثله أو أعظم منه.

والمتوسط يزعم انه مساو للنبي صلى الله عليه وسلم، الا انه لا يأتيه الوحي. بلغني هذا عن طائفة من الغالين في شيخهم، الحاملين لطريقتهم في زعمهم، نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج في شيخهم على الاقتصاد منهم فيه. والغالي[1] يزعم فيه أشنع من هذا، كما ادعى اصحاب الحلاج في الحلاج.

(١) نص النسخة التي نطبع عنها «والقالي»

لان ترك النفس معناه ترك هواها باطلاق ، والوقوف على قدم العبودية . والآيات تدل على هذا المعنى ، كقوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى) وما اشبه ذلك . فلو رأى في النوم قائلا يقول : ان فلانا سرق فاقطعه ، أو عالم فاسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان زنى فحده ، وما أشبه ذلك ، لم يصح له العمل حتى يقوم له الشاهد في اليقظة ، والا كان عاملا بغير شريعة ، اذ ليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي .

ولا يقال : إن الرؤيا من اجزاء النبوة ، فلا ينبغي أن تهمل . وأيضاً إن المخبر في المنام قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قد قال « من رآني في النوم فقد رآني حقا ، فان الشيطان لا يتمثل بي » واذا كان ... فاخباره في النوم كاخباره في اليقظة .

لانا نقول : ان كانت الرؤيا من اجزاء النبوة فليست الينا من كمال الوحي ، بل جزء من اجزائه ، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه ، بل انما يقوم مقامه في بعض الوجوه ، وقد صرفت الى جهة البشارة والنذارة ، وفيها كاف (١)

وأيضا فان الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة من شرطها ان تكون صالحة من الرجل الصالح ، وحصول الشروط مما ينظر فيه ، فقد تتوفر ، وقد لا تتوفر .

وأيضا فهي منقسمة الى الحلم ، وهو من الشيطان ، والى حديث النفس ، وقد تكون سبب هيجان بعض اخلاط ، فمتى تتعين الصالحة حتى

(١) كذا ولعل في الكلام حذفا

فصل

واضعف هؤلاء احتجاجا قوم استندوا في أخذ الاعمال إلى المقامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها، فيقولون: رأينا فلانا الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا. ويتفق مثل هذا كثيرا للمتمرسين (١) برسم التصوف، وربما قال بعضهم: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال لي كذا وامرني بكذا، فيعمل بها ويترك بها معرضا عن الحدود الموضوعة في الشريعة، وهو خطأ، لأن الرؤيا من غير الانبياء لا يحكم بها شرعا على حال الا ان تعرض على ما في ايدينا من الاحكام الشرعية، فان سوغتها عمل بمقتضاها، والا وجب تركها والاعراض عنها، وانما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة. وأما استفادة الاحكام فلا. كما يحكى عن الكتاني رحمه الله قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت: ادع الله ان لا يميت قلبي. فقال «قل كل يوم اربعين مرة ياحي ياقيوم، لا اله الا انت» فهذا كلام حسن لا اشكال في صحته، وكون الذكر يحيي القلب صحيح شرعا. وفائدة الرؤيا التنبيه على الخير، وهو من ناحية البشارة. وانما يبقى الكلام في التحديد بالاربعين، واذا لم يوجد على اللزوم استقام.

وعن ابي يزيد البسطامي رحمه الله، قال: رأيت ربي في المنام، فقلت: كيف الطريق اليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال. وشأن هذا الكلام من الشرع موجود، فالعمل بمقتضاه صحيح، لانه كالتنبيه لموضع الدليل،

(١) تمرس بالشيء احتك به، وتمرس بدينه تلعب به وعبث كما يعبث البعير. والمراد بهم هنا المقلدون للصوفية في رسومهم الظاهرة دون اخلاقهم واعمالهم

بعد موته على حصول المرائي النومية ، لأن ذلك باطل بالاجماع . فمن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه ، وعند ذلك نقول : ان رؤياه غير صحيحة . اذ لو رآه حقاً لم يخبره بما يخالف الشرع .

لكن يبقى النظر في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من رآني في النوم فقد رآني » وفيه تأويلان : احدهما ما ذكره ابن رشد اذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في قضية ، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما تحكم بهذه الشهادة ؟ فانها باطلة . فاجاب بانه لا يحل له ان يترك العمل بتلك الشهادة ، لان ذلك إبطال لأحكام الشريعة بالرؤيا ، وذلك باطل لا يصح أن يعتقد ، اذ لا يعلم الغيب من ناحيتها الا الانبياء الذين رؤياهم وحي ، ومن سواهم انما رؤياهم جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة .

ثم قال : وليس معنى قوله « من رآني فقد رآني حقاً » ان كل من رأى في منامه انه رآه فقد رآه حقيقة . بدليل ان الرائي قد يراه مرات على صور مختلفة ، ويراه الرائي على صفة ، وغيره على صفة اخرى . ولا يجوز أن تختلف صور النبي صلى الله عليه ولا صفاته . وانما معنى الحديث « من رآني على صورتي التي خلقت عليها . فقد رآني ، اذ لا يتمثل الشيطان بي » اذ لم يقل : من رأى انه رآني ، فقد رآني . وإنما قال : من رآني فقد رآني . وانى لهذا الرائي الذي رأى انه رآه على صورته انه رآه عليها ؟ وان ظن انه رآه ، ما لم يعلم ان تلك الصورة صورته بعينها ، وهذا ما لا طريق لأحد الى معرفته .

فهذا ما نقل عن ابن رشد . وحاصله يرجع الى ان المرئي قد يكون

يحكم بها وتترك غير الصالحة ؟

ويلزم أيضاً على ذلك ان يكون تجديد وحي بحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو منهي عنه بالاجماع .

يحكى ان شريك بن عبد الله القاضي دخل على المهدي ، فلما رآه قال : عليّ بالسيف والنطع . قال : ولم يا امير المؤمنين ؟ قال : رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي وأنت معرض عني ، فقصصت رؤياي على من عبّرها ، فقال لي : يظهر لك طاعة ويضمر معصية . فقال له شريك: والله ما رؤياك برؤيا ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولا معبرك بيوسف الصديق عليه السلام ، فبالاحلام الكاذبة تضرب اعناق المؤمنين ؟ فاستحيي المهدي ، وقال : اخرج عني . ثم صرفه وابعده .

وحكى الغزالي عن بعض الأئمة انه افتى بوجوب قتل رجل يقول بخلق القرآن ، فروجع فيه، فاستدل بان رجلاً رأى في منامه ابليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها ، فقيل : هل دخلتها ؟ فقال : اغناني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن، فقام ذلك الرجل فقال : لو افتى ابليس بوجوب قتلي في اليقظة هل تقلدونه في فتواه ؟ فقالوا : لا ! فقال : قوله في المنام لا يزيد على قوله في اليقظة .

* *

وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرائي بالحكم. فلا بد من النظر فيها ايضاً ، لأنه اذا اخبر بحكم موافق لشريعته ، فالحكم بما استقر ، وان اخبر بمخالف ، فمحال ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته ، لان الدين لا يتوقف استقراره

يخدم ما نحن فيه ان شاء الله تعالى .

وذلك انه وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء ، يزعمون انهم سلكوا طريق الصوفية ، فيجتمعون في بعض الليالي ويأخذون في الذكر الجهوري على صوت واحد ، ثم في الغناء والرقص ، الى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء ، يترسمون برسم الشيوخ الهداة الى سلوك ذلك الطريق : هل هذا العمل صحيح في الشرع أم لا ؟

فوقع الجواب بان ذلك كله من البدع المحدثات ، المخالفة طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطريقة اصحابه والتابعين لهم باحسان ، فنفع الله بذلك من شاء من خلقه .

ثم ان الجواب وصل الى بعض البلدان ، فقامت القيامة على العاملين بتلك البدع ، وخافوا اندراس طريقتهم ، وانقطاع اكلهم بها ، فارادوا الانتصار لأنفسهم ، بعد أن راموا ذلك بالانتساب الى شيوخ الصوفية الذين ثبتت فضيلتهم ، واشتهرت في الانقطاع الى الله ، والعمل بالسنة طريقتهم ، فلم يستقر لهم الاستدلال ، لكونهم على ضد ما كان عليه القوم ، فانهم كانوا بنوا نحلتهم على ثلاثة اصول : الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الاخلاق والافعال ، واكل الحلال ، واخلاص النية في جميع الاعمال ، وهؤلاء قد خالفوهم في هذه الاصول ، فلا يمكنهم الدخول تحت ترجمتهم

وكان من قدر الله ان بعض الناس سأل بعض شيوخ الوقت في مسئلة تشبه هذه ، لكن حسّن ظاهرها بحيث يكاد باطنها يخفى على غير المتأمل . فاجاب عفا الله عنه على مقتضى ظاهرها من غير تعرض الى ما هم عليه من البدع والضلالات ، ولما سمع بعضهم بهذا الجواب ارسل

غير النبي صلى الله عليه وسلم، وان اعتقد الرائي انه هو

**

والتأويل الثاني يقوله علماء التعبير : ان الشيطان قد يأتي النائم في صورة ما من معارف الرائي وغيرهم. فيشير له الى رجل آخر : هذا فلان النبي ، وهذا الملك الفلاني ، أو من اشبه هؤلاء ممن لا يتمثل الشيطان به. فيوقع اللبس على الرائي بذلك وله علامة عندهم. واذا كان كذلك امكن ان يكلمه المشار اليه بالامر والنهي غير الموافقين للشرع ، فيظن الرائي انه من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون كذلك ، فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى .

وما احرى[1] هذا الضرب أن يكون الامر أو النهي فيه مخالفاً لكمال الاول ، حقيق بان يكون فيه موافقا ، وعند ذلك لا يبقى في المسألة اشكال . نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لإمكان اختلاط احد القسمين بالآخر . وعلى الجملة فلا يستدل بالرؤيا في الاحكام الا ضعيف المنة . نعم يأتي المرئي تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ،ولا يبنون عليها اصلاً ، وهو الاعتدال في اخذها، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله اعلم .

فصل

وقد رأينا أن نختم الكلام في الباب بفصل جمع جملة من الاستدلالات المتقدمة ، وغيرها في معناها ، وفيه من نكت هذا الكتاب جملة اخرى ، فهو مما يحتاج اليه بحسب الوقت والحال ، وان كان فيه طول ولكنه

(١) نص النسخة التي نطبع عنها « احرى » بالجيم وهو غلط

الوجه المذكور أم لا ؟

فاجاب بما محصوله : مجالس تلاوة القرآن وذكر الله هي رياض الجنة . ثم اتى بالشواهد على طلب ذكر الله . واما الانشادات الشعرية : فانما الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وفي القرآن في شعراء الاسلام (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) وذلك ان حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعبا لما سمعوا قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) الآيات . بكوا عند سماعها فنزل الاستثناء ، وقد أنشد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورقت نفسه الكريمة وذرفت عيناه لأبيات اخت النضر ، لما طبع عليه من الرأفة والرحمة .

واما التواجد عند السماع ، فهو في الاصل رقة النفس ، واضطراب القلب ، فيتأثر الظاهر بتأثر الباطن . قال الله تعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي اضطربت رغباً أورهباً . وعن اضطراب القلب يحصل اضطراب الجسم ، قال الله تعالى (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) الآية . وقال (ففروا الى الله) فانما التواجد رقة نفسية ، وهزة قلبيـة ، ونهضة روحانية . وهذا هو التواجد عن وجد ، ولا يسمع فيه نكير من الشرع . وذكر السلمي انه كان يستدل بهذه الآية على حركة الوجد في وقت السماع . وهي (وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا) الآية . وكان يقول : ان القلوب مربوطة بالملكوت ، حركتها انوار الاذكار ، وما يرد عليها من فنون السماع .

- ووراء هذا تواجد لا عن وجد ، فهو مناط الذم ، لمخالفة ما ظهر

به الى بلدة اخرى ، فاتي به فرحل الى غير بلده ، وشهر في شيعته ان بيده حجة لطريقتهم تقهر كل حجة ، وانه طالب للمناظرة فيها ، فدعي لذلك فلم يقم فيه ولا قعد ، غير أنه قال : ان هذه حجتي ، وألقى بالبطاقة التي بخط المجيب ، وكان هو ومجببه [1] واشياعه يطيرون بها فرحاً . فوصلت المسئلة الى غرناطة ، وطُلب من الجميع النظر فيها . فلم يسع احد له قوة على النظر فيها الاول [2] أن يظهر وجه الصواب فيها الذي يدان الله به لأنه من النصيحة التي هي الدين القويم ، والصراط المستقيم

ونص خلاصة السؤال : ما يقول الشيخ فلان في جماعة من المسلمين يجتمعون في رباط على ضفة البحر في الليالي الفاضلة ، يقرؤن جزءا من القرآن ، ويستمعون من كتب الوعظ والرقائق ما امكن في الوقت ، ويذكرون الله بانواع التهليل والتسبيح والتقديس ، ثم يقوم من بينهم قوال يذكر شيئاً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويأتي من السماع ما تتوق النفس اليه وتشتاق سماعه من صفات الصالحين ، وذكر آلاء الله ونعمائه ، ويشوقهم بذكر المنازل الحجازية ، والمعاهد النبوية ، فيتواجدون اشتياقاً لذلك ، ثم يأكلون ما حضر من الطعام ، ويحمدون الله تعالى ، ويرددون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبتهلون بالادعية الى الله في صلاح أمورهم ، ويدعون للمسلمين ولإمامهم ويفترقون .

فهل يجوز اجتماعهم على ما ذكر ؟ أم يمنعون وينكر عليهم ؟ ومن دعاهم من المحبين الى منزله بقصد التبرك ، هل يجيبون دعوته ويجتمعون على

---

(١) كذا ولعلها « ومحبه » أو « ومحبوه » (٢) لفظ الاول لا يظهر له معنى هنا والظاهر ان المقام مقام الاستثناء وان العبارة ربما دخل فيها التحريف والسقط

اليه متعامون ، أو اجتمعوا يذكر بعضهم بعضاً بالعمل بطاعة الله والبعد عن معصيته ـ وما اشبه ذلك مما كان يعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصحابه ، وعمل به الصحابة والتابعون ـ فهذه المجالس كلها مجالس ذكر وهي التي جاء فيها من الاجر ما جاء .

كما يحكى عن ابن ابي ليلى انه سئل عن القصص . فقال : ادركت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يجاسون ويحدث هذا بما سمع وهذا بما سمع ـ فاما أن يجلسوا خطيباً فلا ـ وكان كالذى نراه معمولاً به في المساجد من اجتماع الطلبة على معلم يقرئهم القرآن أو علما من العلوم الشرعية . أو تجتمع اليه العامة فيعلمهم امر دينهم ، ويذكرهم بأسه ، ويبين لهم سنة نبيهم ليعملوا بها ، ويبين لهم المحدثات التي هي ضلالة ليحذروا منها ، ويتجنبوا مواطنها والعمل بها .

فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهي التي حرَمها اللهُ اهلَ البدع من هؤلاء الفقراء الذين زعموا انهم سلكوا طريق التصوف ـ وقلّ ما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة في الصلاة الا على اللحن ، فضلاً عن غيرها ، ولا يعرف كيف يتعبد ، ولا كيف يستنجي أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة . وكيف يعلمون ذلك وهم قد حُرِموا مجالس الذكر التي تغشاها الرحمة ، وتنزل فيها السكينة ، وتحف بها الملائكة ؟ فبانطماس هذا النور عنهم ضلوا ، فاقتدوا بجهال امثالهم ، واخذوا يقرؤن الاحاديث النبوية والآيات القرآنية فينزلونها على آرائهم ، لا على ما قال اهل العلم فيها . فخرجوا عن الصراط المستقيم ، الى ان يجتمعوا ويقرأ احدهم شيئا من القرآن يكون حسن الصوت طيب النغمة جيد التلحين تشبه قراءته الغناء المذموم ، ثم يقولون

لما بطن . وقد يغرب [1] فيه الامر عند القصد لاستنهاض العزائم ، واعمال الحركة في يقظة القلب النائم « يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا » [2] ولكن شتان ما بينهما .

-واما من دعا طائفة الى منزله فتجاب دعوته ، وله في ذلك قصده ونيته . فهذا ما ظهر تقييده على مقتضى الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وانما الاعمال بالنيات . انتهى ما قيده .

فكان مما ظهر لي في هذا الجواب : ان ما ذكره في مجالس الذكر صحيح اذا كان على حسب ما اجتمع عليه السلف الصالح ، فانهم كانوا يجتمعون لتدارس القرآن فيما بينهم ، حتى يتعلم بعضهم من بعض ، ويأخذ بعضهم من بعض ، فهو مجلس من مجالس الذكر التي جاء في مثلها من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفت بهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » وهو الذي فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الاجتماع على تلاوة كلام الله .

وكذلك الاجتماع على الذكر فانه اجتماع على ذكر الله . ففي رواية اخرى انه قال « لا يقعد قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة » الحديث المذكور . لا الاجتماع للذكر على صوت واحد ، واذا اجتمع القوم على التذكر لنعم الله ، أو التذاكر في العلم ان كانوا علماء ، أو كان فيهم عالم فجلس

(١) لعله « يعزب » (٢) لعله أراد حديث « أتلوا القرآن وابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا » فاقتبسه بالمعنى ، وهو في سنن ابن ماجه من حديث سعد ابن ابي وقاص بسند جيد

هي التي يتلى [1] فيها القرآن ، والتي يُتعلم فيها العلم والدين ، والتي تعمر بالعلم والتذكير بالآخرة والجنة والنار . كمجالس سفيان الثوري والحسن وابن سيرين ، واضرابهم .

اما مجالس الذكر اللساني فقد صرح بها في حديث الملائكة السياحين ، لكن لم يذكر فيه جهراً بالكلمات ، ولا رفع اصوات، وكذلك غيره . لكن الاصل المشروع اعلان الفرائض واخفاء النوافل ، واتى بالآية وبقوله تعالى (اذ نادى ربه نداء خفيا) وبحديث « اربعوا على انفسكم » ـ قال ـ : وفقراء الوقت قد تخيروا بآيات ، وتميزوا باصوات ، هي الى الاعتداء ، اقرب منها الى الاقتداء، وطريقتهم الى اتخاذها مأكلة وصناعة، اقرب منها الى اعتدادها قربة وطاعة .

انتهى معناه على اختصار اكثر الشواهد . وهي دليل على ان فتواه المحتج بها ليس معناها ما رام هؤلاء المبتدعة . فانه سئل في هذه عن فقراء الوقت ، فاجاب بذمهم ، وان حديث النبي صلى الله عليه وسلم لا يتناول عملهم . وفي الاولى انما سئل عن قوم يجتمعون لقراءة القرآن ، أو لذكر الله . وهذا السؤال يصدق عن قوم يجتمعون مثلاً في المسجد فيذكرون الله ، كل واحد منهم في نفسه أو يتلو القرآن نفسه ، كما يصدق على مجالس المعلمين والمتعلمين ، وما اشبه ذلك مما تقدم التنبيه عليه، فلا يسعه وغيره من العلماء الا ان يذكر محاسن ذلك والثواب عليه ، فلما سئل عن اهل البدع في الذكر والتلاوة بيّن ما ينبغي أن يعتمد عليه الموفق ، ولا توفيق الا بالله العليّ العظيم . اه المراد منه

(١) في الاصل « يختلا » هكذا ، فصححها ناسخ الورق الذي نطبع عنه فجعلها « يختلى » وكلاهما غلط

تعالوا نذكر الله . فيرفعون اصواتهم يمشون ذلك الذكر مداولة ، طائفة في جهة ، وطائفة في جهة اخرى ، على صوت واحد يشبه الغناء ، ويزعمون ان هذا من مجالس الذكر المندوب اليها ، وكذبوا . فانه لو كان حقاً لكان السلف الصالح اولى بادراكه وفهمه والعمل به ، والا فأين في الكتاب أو في السنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهراً عالياً ؟ وقد قال تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين) والمعتدون في التفسير هم الرافعون اصواتهم بالدعاء

وعن ابي موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أربعوا على انفسكم ، انكم لا تدعون اصم ولا غائباً ، انكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم » وهذا الحديث من تمام تفسير الآية ، ولم يكونوا رضي الله عنهم يكبرون على صوت واحد ، ولكنه نهاهم عن رفع الصوت ليكونوا للآية ممتثلين . وقد جاء عن السلف أيضاً النهي عن الاجتماع على الذكر ، والدعاء بالهيئة التي يجتمع عليها هؤلاء المبتدعون . وجاء عنهم النهي عن المساجد المتخذة لذلك ، وهي الربط التي يسمونها بالصفة . ذكر من ذلك ابن وهب وابن وضاح وغيرهما ما فيه كفاية لمن وفقه الله .

فالحاصل من هؤلاء انهم حسنوا الظن بانهم فيما هم عليه مصيبون ، واساؤا الظن بالسلف الصالح اهل العمل الراجح الصريح ، واهل الدين الصحيح . ثم لما طالبهم لسان الحال بالحجة اخذوا كلام المجيب وهم لا يعلمون ، وقولوه ما لا يرضى به العلماء ، وقد بين ذلك في كلام آخر اذ سئل عن ذكر فقراء زماننا فاجاب بان مجالس الذكر المذكورة في الاحاديث انها

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال - يعني اذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله ، ولاحول (١) ولاقوة الا بالله، يقال له: هديت ووقيت (٢) وكفيت، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل هدي وكفي ووقي ؟ »

التوكل نصف الدين ، ونصفه الثاني الانابة ، فان الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والانابة هي العبادة ، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والابرار والفجار، والطير والوحش والبهائم ، فأهل السموات والارض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل ، وان تباين متعلق وكلهم . فاولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول مايرضيه منهم ، وفي اقامته في الخلق ، فيتوكلون عليه في الايمان ونصرة دينه، واعلاء كلمته ، وجهاد اعدائه ، وفي محابه وتنفيذ أوامره . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق او عافية أو نصر على عدو او زوجة أو ولد ، ونحو ذلك . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في حصول الاثم والفواحش . فان اصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا الا باستعانتهم بالله ، وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكلهم (٣) أقوى من توكل كثير من اصحاب الطاعات ، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله ان يسلمهم و يظفرهم بمطالبهم ، فافضل التوكل في الواجب (اعني واجب الحق وواجب الخلق و واجب النفس) ، واوسعه وانفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، أو في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الانبياء في اقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الارض ، وهذا توكل ورثتهم.

ثم الناس بعدُ في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك ، ومتوكل في حصول رغيف . ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله ، فان كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وان كان

---

(١) في نسختنا «ولاحول» وفي البغدادية سقط الواو (٢) وفيها « وكفيت ووقيت »
(٣) في الحجازية « توكلهم عليه »

فصل (*)

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين (منزلة التوكل)

قال الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ـ وقال ـ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ـ وقال ـ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ـ وقال عن اوليائه ـ ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير ـ وقال ـ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ـ وقال لرسوله ـ فتوكل على الله انك على الحق المبين ـ وقال ـ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ـ وقال ـ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده ـ وقال ـ فاذا عزمت فتوكل على الله، ان الله يحب المتوكلين ـ وقال عن انبيائه و رسله ـ ومالنا ألاّ نتوكل على الله ؟ (١) الآية ـ وقال عن اصحاب نبيه ـ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ـ وقال ـ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم، واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) والقرآن مملوء من ذلك

وفي الصحيحين في حديث السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون» وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل) وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، واليك انبت، وبك خاصمت. اللهم اعوذ بعزتك، لا اله الا انت ان تضلني، انت الحي الذي لا تموت، والجن والانس يموتون» وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعا «لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا» وفي السنن عن انس رضي الله عنه

---

*) نموذج من الجزء الثاني من كتاب (مدارج السالكين. بين منازل «اياك نعبد واياك نستعين») لابن القيم (١) زاد في البغدادية من الآية قوله تعالى «وقد هدانا سبلنا»

التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب ، — يريد حركة ذاته في الاسباب بالظاهر والباطن — وسكون الى المسبب وركون اليه ، ولا يضطرب قلبه معه ، ولا تسكن حركته عن الاسباب الموصلة الى رضاه . وقال ابو تراب النخشبي : هو طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى الكفاية . فان اعطي شكر ، وان منع صبر . فجعله مركبا من خمسة أمور : القيام بحركات العبودية ، وتعلق القلب بتدبير الرب ، وسكونه الى قضائه وقدره ، وطمأنينته بكفايته له ، وشكره اذا اعطى ، وصبره اذا منع . قال ابو يعقوب النهرجوري : التوكل على الله بكمال الحقيقة كما وقع لابراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام «اما اليك فلا» لانه غائب عن نفسه بالله (١) فلم ير مع الله غير الله .

واجمع القوم على ان التوكل لا ينافي القيام بالاسباب ، فلا يصح التوكل الا مع القيام بها . والا فهو بطالة وتوكل فاسد . قال سهل بن عبد الله : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الايمان ، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته . وهذا معنى قول ابي سعيد «هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا ضطراب» وقول سهل ابين وارفع . وقيل : التوكل قطع علائق القلب بغير الله . وسئل سهل عن التوكل فقال : قلب عاش مع الله بلا علاقة . (٢) وقيل : التوكل هجر العلائق ، ومواصلة الحقائق . وقيل : التوكل ان يستوي عندك الاكثار والاقلال . وهذا من موجباته وآثاره ، لا انه (٣) حقيقته . وقيل : هو ترك كل سبب يوصلك الى مسبب ، حتى يكون الحق هو المتولي لذلك . وهذا صحيح من وجه ، باطل من وجه ، فترك الاسباب المأمور بها قادح في التوكل ، وقد تولى الحق ايصال العبد بها . وأما ترك الاسباب المباحة ، فان تركها لما هو أرجح منها فممدوح ، والا فهو

---

(١) في البغدادية — لانه علق نفسه بالله — (٢) هاتان الفقرتان سقطتا من نسختنا وأثبتناهما من البغدادية (٣) وفيها — لا انه —

مسخوطا مبغوضا كان ماحصل له بتوكله مضرة عليه ، وان كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه، ان لم يستعن به على طاعة (١) والله أعلم .

فصل

فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه .

قال الامام احمد : التوكل عمل القلب . ومعنى ذلك انه عمل قلبي ليس بقول اللسان ، ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والادراكات . (ومن) الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو تعلم القلب بكفاية الرب للعبد. (ومنهم) من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب . فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الاقدار . قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد . (ومنهم) من يفسره بالرضاء . فيقول : هو الرضاء بالمقدور . قال بشر الحافي : يقول احدهم : توكلت على الله ، يكذب على الله ، لو توكل على الله رضي بما يفعل الله . وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلا ؟ فقال اذا رضي بالله وكيلا (ومنهم) من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة اليه والسكون اليه . قال ابن عطاء : التوكل ان لا يظهر فيك انزعاج الى الاسباب مع شدة فاقتك اليها ، ولاتزال (٢) على حقيقة السكون الى الحق مع وقوفك عليها . وقال ذو النون: هو ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، وانما يقوى العبد على التوكل اذا علم ان الحق سبحانه يعلم ويرى ماهو فيه. وقال بعضهم :التوكل التعلق بالله في كل حال. وقيل : التوكل ان ترد عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو الا الى من اليه الكفايات . وقيل : نفي الشكوك ، والتفويض الى مالك الملوك . وقال ذو النون : خلع الارباب، وقطع الاسباب — يريد قطعها من تعلق القلب بها ، لا من ملابسة الجوارح لها .

(ومنهم) من جعله مركبا من امرين او أمور . فقال ابو سعيد الخراز :

---

(١) في البغدادية طاعته (٢) في البغدادية ـ ولا تزول

يستقيم ايضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل الا من اهل الاثبات . فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم ؟ ولاهو فاعل باختياره ؟ ولا له ارادة ومشيئة ؟ ولا يقوم به صفة ؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم واعرف ، كان توكله اصح واقوى . والله سبحانه وتعالى أعلم •

فصل

(الدرجة الثانية اثبات في الاسباب والمسببات) فإن من نفاها فتوكله مدخول . وهذا عكس مايظهر في بدوات الرأي ان الاسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها كال (١) التوكل

فاعلم ان نفاة الاسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ، لان التوكل من اقوى الاسباب في حصول المتوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به ، فاذا اعتقد العبد ان توكله لم نصبه الله سببا ، ولاجعل دعاءه سببا لنيل شيء ، فان المتوكل فيه المدعو بحصوله ان كان قدر (٢) حصل توكل او لم يتوكل ، دعا او لم يدع . وان لم يقدر لم يحصل ، توكل ايضا او ترك التوكل . وصرح هؤلاء ان التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لهما الا ذلك ، ولو ترك العبد التوكل والدعاء مافاته (٣) شيء مما قدر له . ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطإ والنسيان عديم الفائدة ، اذهو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء في كتاب له (٤) لا يجوز الدعاء بهذا ، وإنما يجوزه تلاوة لادعاء . قال — لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه ، لأن الداعي بين الخوف والرجاء ، والشك في وقوع ذلك - شك في خبر الله ، فانظر الى ماقاد انكار الاسباب من العظائم ، وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء

---

(١) نص نسختنا - كلام التوكل - وكلام محرف عن كال بالقلب ، كما هو نص الحجازية ، والبغدادية « تمام التوكل » (٢) في البغدادية « قد قدر » (٣) نسختنا والحجازية « مافاته » والبغدادية « لما فاته » (٤) نص الحجازية « في كتاب لا » وسقط من البغدادية كلمة « له »

مذموم . وقيل : هو إلقاء النفس في العبودية ، واخراجها من الربوبية . يريد استرسالها مع الامر ، وبراءتها من حولها وقوتها ، وشهود ذلك بها ، بل بالرب وحده.

(ومنهم) من قال : التوكل هو التسليم لامر الرب وقضائه (ومنهم) من قال : هو التفويض اليه في كل حال .

(ومنهم) من جعل التوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية . قال ابو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات — التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالمتوكل يسكن الى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . فالتوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الاولياء ، والتفويض صفة الموحدين . التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خاصة الخاصة . التوكل صفة الانبياء ، والتسليم صفة ابراهيم الخليل ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين . هذا كله كلام الدقاق . ومعنى هذا التوكل اعتماد على الوكيل ، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه ، وارادة وشائبة منازعة ، فاذا سلم اليه زال عنه ذلك ، ورضي بما يفعله وكيله . وحال المفوض فوق هذا ، فانه طالب مريد ممن فوض اليه ، ملتمس منه ان يتولى أموره ، فهو رضاء واختيار ، وتسليم واعتماد ، فالتوكل يندرج في التسليم ، وهو والتسليم يندرجان في التفويض ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

فصل

وحقيقة الامر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل الا بها . وكل اشار الى واحد من هذه الامور ، او اثنين او اكثر . فأول ذلك معرفة بالرب وصفاته ، من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الامور الى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة اول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل . قال شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء (١) ولا

(١) في البغدادية « مالم يشأه »

فصل

الدرجة الثالثة (رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل) (١) فانه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ، بل حقيقة التوكل توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فان العبد متى التفت الى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، ونقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ، ومن هاهنا ظن من ظن ان التوكل لا يصح الا برفض الاسباب ، وهذا حق ، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح ، فالتوكل لا يتم الا برفض الاسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها ، فيكون منقطعا منها متصلا بها . والله سبحانه أعلم .

فصل

الدرجة الرابعة (اعتماد القلب على الله ، واستناده اليه ، وسكونه اليه) بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الاسباب ، ولا سكون اليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويلبسه السكون الى مسببها ، وعلى هذا (٢) انه لا يبالي باقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها واقبال ما يكره ، لان اعتماده على الله وسكونه اليه واستناده اليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها ، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به ، فرأى حصنا مفتوحا فأدخله ربه اليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن ، فاضطراب قلبه وخوفه منهم في هذه الحال لا معنى له . وكذلك من أعطاه ملك درهما فسرق منه ، فقال له الملك : عندي اضعافه لا تهتم متى جئت الي أعطيتك من خزائني اضعافه . فاذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن اليه ، وعلم ان خزائنه مليئة بذلك ــ لم يحزنه فوته . وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف

---

(١) نسختنا والحجازية « توحيد التوكل » وسقط من البغدادية كلمة « توحيد »

(٢) نسختنا والحجازية « الى مسببها وعلى هذا » وفي البغدادية « الى مسببها وعلامة هذا »

به و بطلبه ، ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم الى الآن يدعون به في مقامات الدعاء ، وهو من أفضل الدعوات .

وجواب هذا الوهم الباطل ان يقال : بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه ، وهو الواقع . وهو ان يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء ، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب ، وقضى الله بحصوله اذا فعل العبد سببه ، واذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب . وهذا كما قضى بحصول الولد اذا جامع الرجل من يحبلها ، فاذا لم يجامع لم يخلق منه الولد . وقضى بحصول الشبع اذا أكل ، والري اذا شرب ، واذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو . وقضى بحصول الحج والوصول الى مكة اذا سافر وركب الطريق ، فاذا حبس (١) في بيته لم يصل الى مكة (١) وقضى بدخول الجنة اذا أسلم وأتى بالاعمال الصالحة ، فاذا ترك الاسلام لم يدخلها أبدا (٢) وقضى بانضاج الطعام بايقاد النار تحته . وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الارض وإلقاء البذر فيها ، فما لم يأت (٣) بذلك لم يحصل الا الخيبة .

فوزان ما قاله منكرو الاسباب ان يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ، ويقول : ان كان قضي لي وسبق في الازل حصول الولد والشبع والري والحج ونحوها ، فلا بد ان يصل ، ان تحركت أو سكنت ، تزوجت أو تركت ، سافرت أو قعدت ، وان لم يكن قضي لي لم يحصل لي ايضا ، فعلت أو تركت . فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء ؟ وهل البهائم الا افقه منه ؟ فان البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة . فالتوكل من أعظم الاسباب التي يحصل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الاسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من تمام التوكل عدم الركون الى الاسباب ، وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها . فالاسباب محل حكمة الله وأمره ودينه ، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الاسباب الا على ساق التوكل ، ولا يقوم ساق التوكل الا على قدم العبودية . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) في البغدادية « فاذا جلس في بيته لم يصل الى مكة أبدا » (٢) حذف من البغدادية لفظ « أبدا » (٣) نص البغدادية فان لم « يأت »

افضل الوسائل

لانهاض السلطنة

﴿ فصل جليل ختم به كتاب تاريخ الحرب البلقانية للبستاني ﴾

خطر لنا عند الفراغ من تأليف هذا الكتاب ، أن نستطلع آراء نخبة من أكابر العلماء وفحول الكتاب ، عن أفضل وسيلة تنهض بالسلطنة بعد كبوتها ، وتزيد في يقظة الامة بعد غفوتها . فسألنا من أسعدنا الحظ بالوصول اليه قبيل صدور هذا المؤلف أن يصوغ لنا فكرته الاساسية في أسطر قليلة فتكرموا بتلبية الطلب ، أدامهم الله زهرا نضيرا في بستان العلم والادب . واليك آراءهم مرتبة حسب تواريخ ورودها

(رأي سياسي شهير)

كتب الي عالم كبير لم يشأ أن ينشر اسمه قال « ان الامر عويص جدا لان في السلطنة فواعل كثيرة متناقضة وبعضها خفي . ولقد سمعت مرة المرحوم نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية الاسبق يقول ان لورد دربي ألقى عليه سؤالا مثل سؤالك وطلب منه أن يرتأي رأيا أو يضع مشروعاً نافعاً للسلطنة العثمانية ، قال نوبار : فأخذت القلم وكتبت « أن ينشأ في السلطنة محكمة مختلطة مستقلة ترفع اليها الشكاوي من المأمورين فتحا كمهم وتنفذ الحكومة ماتحكم به عليهم »

فما أدق هذا الانتقاد ، وما أرق هذا التهكم ! ...

﴿ رأي القانوني الكبير ، والعالم الاجتماعي الشهير ﴾

سعادة فتحي باشا زغلول

أقرئك السلام وبعد فسؤالك هام ومطلبك أهم

الدولة العلية رعاك الله مجموع يحتاج في سياسته وانهاضه الى حكمة عالية وبصر بالأمور كبير ، فاذا غلب الرأي الهوى ، وبطل التفاضل بين العناصر ، وأقيم وزن العدل وتساوي الناس جميعاً في الحقوق وفي الواجبات ـ واذا خلصت نيات اهل الزعامة وصدقت عزائم ذوي الرئاسة ، ففضلوا مصالح الامة على المنافع الفردية ، وجدّ الكل في طلب الاصلاح ، فنشروا التعليم وعنوا بالأمور الاقتصادية ، فاستبقوا لأنفسهم مرافق

غيره ، وليس في قلبه التفات الى غيره ، كما قال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوي اليه الا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي الا الى ربه سبحانه .

﴿ فصل ﴾

الدرجة الخامسة (حسن الظن بالله عز وجل) فعلى قدر حسن ظنك بربك(١) ورجائك له يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن فقال : التوكل حسن الظن بالله . والتحقيق ان حسن الظن به يدعوه الى التوكل عليه ، اذ لا يتصور التوكل على من ساء (٢) ظنك به ، ولا التوكل على من لا ترجوه ، والله أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة السادسة (استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها اليه ، وقطع منازعاته) وبهذا فسره من قال : ان يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير . وهذا معنى قول بعضهم : التوكل اسقاط التدبير . يعني الاستسلام لتدبير الرب لك . وهذا في غير باب الامر والنهي . بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله . فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده وانقياده له ، وترك منازعات نفسه وارادتها مع سيده . والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ فصل ﴾

الدرجة السابعة (التفويض) وهو روح التوكل ولبه وحقيقته ، وهو إلقاء اموره كلها الى الله ، وانزالها به طلبا واختيارا ، لا كرها واضطرارا ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب أموره (٣) الى ابيه العالم بشفقته عليه ورحمته ، وتمام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتدبيره له ، فهو يرى ان تدبيره له خير من تدبيره لنفسه ، وقيامه بمصالحه وتوليه لها ، خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها ، فلا يجد له أصلح ولا أوفق من تفويضه اموره كلها الى ابيه ، وراحته من حمل كلفها (٤) وثقل حملها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علم من فوض اليه وقدرته وشفقته .

---

(١) في البغدادية « به » (٢) في البغدادية « على من تسيء » (٣) كذا في نسختنا وفي البغدادية ، وفي الحجازية قبل كلمة « أموره » خربوشة يوشك ان يكون اصلها « في » او « على » فتكون العبارة « المغلوب على اموره » وهي الصواب (٤) في البغدادية « كلها »

الغرض والرشوة . فاذا أرادت الدولة أن يسود فيها العدل فلتصرف كل جهدها في ملاشاة هاتين الآفتين، ولتحذر من أن تستعين بالاجانب في سن قوانينها وتوزيع العدل بين رعاياها ، ومن أن تطلب غير أبناء بلادها لاقامة العدل وسن القوانين. والا تعذر عليها أن تجد عدلا وطنيا متفقاً مع أخلاق أمتها وعاداتها . ومايقال في العدل يقال أيضاً في سائر فروع الادارة . واذا كانت الحكومة لا تجد مندوحة عن الاستعانة بالاجانب الاكفاء فلا تطلبهم من حكوماتهم ، بل تكلفهم وضع التقارير بعد اختبارهم لحالة البلاد، ثم تأخذ النافع والموافق لعادات الاهالي من تلك التقارير دون أن تجعل أصحابها موظفين رسميين

(رأي العالم الاجتماعي الشهير)

الدكتور شبلي الشميل

الدولة لا تنهض الا بثلاثة : رجال ومال ووقت ، والرجال بالعلم والتربية ، والمال بالموارد . فهل ذلك متوفر ، ولاسيما الوقت ، وحالنا في الاجتماع كما هي من قلة التكافؤ، مع ماهو عليه اليوم من شدة التنازع ؟ والجواب على ذلك يدل على المصير

(رأي الاستاذ الفاضل الشهير)

ابو شادي بك

رئيس تحرير جريدة المؤيد

رأيي أن الدولة لاتنهض من سقطتها ولا تعود الى سابق مجدها الا اذا توفر لديها ما يأتي

أولا تعميم التعليم في أنحاء البلاد وجعل الاولي منه اجباريا

ثانياً ازالة التنافر بين العناصر ولا يكون ذلك الا بمنح كل ولاية استقلالا اداريا داخلياً حتى يعلم كل فرد ان اجتهاده منصرف الى بلده والى نفسه .

ثالثاً ايجاد الاكفاء من الموظفين اذ بغير شك ان قوانين الدولة عادلة ولكن تنفيذها معدوم .

رابعاً اصلاح جباية الضرائب بحيث تكون الضرائب متسلطة على الاعيان لا على الحاصلات وتنظيم أوقات تحصيلها .

البلاد وكنوزها ، وذللوا السبل وأمنوا السابلة وقربوا المسافات، ثم ازدرعوا واحترفوا واتجروا فأحرفوا ، واذا احكموا نظام الجند وهذبوه ـ لاشك أن الدولة ناهضة من سقطتها ، وان الأمة ناشطة من عقالها ، وانها نائلة من الحضارة والمناعة مكانا عليا

(رأي العالم العامل الشهير ، والصحافي المحنك الخبير)

الدكتور فارس افندي نمر

صاحب المقتطف والمقطم

حضرة الفاضل ! ان كان المقصود من « السلطنة » في سؤالكم « الحكومة والامة » في حالتهما الحاضرة أي الدستورية فوسائط انهاضها متعددة منها مادي ومنها أدبي . ولكل واسطة منها قوة لايستغنى عنها ، وخصوصاً وسائط العلم والمال . على أن في الحكومة وفي الأمة رجالاً من ذوي العلم وذوي المال فلا يعوزهم ادراك ولا يسار ، ولكن الذي ينقصنا هو تربية الحكومة على الاخلاق القويمة ، والصفات المنظمة والمرقية لشؤون الهيئة الاجتماعية ، حتى نستطيع الاتحاد والتعاون على تدبير أمورنا وإنجاح أعمالنا ونحن جماعات ، كما يستطيع كثيرون منا اليوم تدبير أمورهم وانجاح أعمالهم وهم أفراد .

(رأي شيخ الادباء ، وكبير الشعراء)

(سعادة اسماعيل صبري باشا)

التوظيف ـ اذا أراد التركي أن يستبقي ما بقي له من ملكه فلا يفرقن بين التركي وسائر الاجناس التي تتألف منها الدولة العثمانية ، بل يجب عليه أن يفضل في التوظيف في كل بلد أهل الكفاءة من بنيها ، فلا يوظف التركي في بلد غير بلده الاصلي الا اذا كان يتعسر وجود أكفاء مثله من أبناء ذلك البلد ، فتتعود جميع العناصر التي تتألف منها الدولة حب الراية التي تظلهم ، والاراضي التي تقلهم ، فيقوم عندئذ وطن عثماني حقيقي يحبونه ويذبون عنه في اليوم العصيب .

التعليم ـ التعليم من أوجب الواجبات لنهوض الشعب العثماني مما هو فيه ، ولا يراد بالتعليم ان يصبح جميع الافراد من العلماء ، بل يكفي أن يكون هناك عدد وافر من المتعلمين يسيرون بالدولة الى مقام الشعوب الراقية ، وأن يتعلم باقي أفراد الامة ما يمكنهم من فهم قادتهم وأرباب الرأي فيهم .

العدل ــ العدل بسيط في معناه صعب في تنفيذه بين الافراد . وأكبر آفاته

مندوب سام يعاونه مجلس ادارة يؤلف من الفنيين في الامور المالية والادارية والقضائية والعسكرية ، ويؤخذ للمركز العام جزء معين من دخل كل منطقة ، وتلغى الضرائب العشرية ، وتقرر ضرائب ثابتة معينة على الاملاك ، وتوضع قوانين للشركات على اختلاف انواعها ، ويوحد القضاء فلا يكون من اختصاص رجال الدين الا الامور الشخصية . فتكون الدولة مؤلفة من ولايات متحدة اومناطق متحدة .

ذلك رأيي في انهاض السلطنة بسرعة

(رأي العالم المؤرخ)

جرجي بك زيدان

صاحب مجلة الهلال

العلة الحقيقية في حال الدولة العثمانية اليوم فقر المملكة واضطراب الحكومة . والحكومة الدستورية في أيدي الامة ، والامة العثمانية ضعيفة الاخلاق ، عريقة في الانقسام ، بسبب ما توالى عليها من أعصر الفساد .

أما المملكة ونعني الولايات الباقية منها في آسيا فليس فقرها اصليا فيها ، وكل ولاية منها كانت في بعض الازمان مملكة قائمة بنفسها ، فالعراق كانت وحدها مملكة البابليين والاشوريين ، وبها اعتز العباسيون في إبان دولتهم ، وكانت جبايتها ثلث جباية مملكتهم الواسعة الممتدة من حدود الهند الى شواطئ الاتلانتيكي . وسوريا كانت مؤلفة من عدة دول ثم اعتز بها السلوقيون اجيالا ، وكذلك آسيا الصغرى ، وظلت مدة هي اعظم أركان الدولة العثمانية .

فهذه الولايات اذا أحسنت سياستها وادارتها صارت غنية . وهذا لا يتم والامة كما تقدم . فالوسيلة المثلى للنهوض بالدولة العثمانية انما هي ترقية الشعب ، وهو لا يقدر ان يرقي نفسه رغم استعداده الطبيعي للرقي . وقد يقوم بذلك حاكم عادل عاقل ، انما يشترط أن يكون مستبدا ، وهذا لا يتيسر والحكومة دستورية . فلا بد من الاستعانة بالاجانب ، وأسلم الطرق أن تحالف الدولة العثمانية مع دولة تثق بصداقتها ، فتستعين برجالها على اصلاح حكومتها وترقية شعبها وصيانتها من مطامع الدول الاخرى ، بشرط أن لا يكون لهذه الدولة مطمع في الاستعمار . فاذا وفقت الى ذلك في أثناء اربعين سنة نهضت واسترجعت رونقها .

خامساً نزع السياسة من افكار الجيش
سادساً تعميم اللغة العربية في جميع الولايات وبين المسلمين بنوع اخص وذلك لان مظهر الدولة اسلامي والقرآن عربي

(رأي العالم الاسلامي الكبير)

السيد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

الدولة كائن حي، يُحفظ وجودها بالسنة التي تحفظ بها حياة سائر الاحياء ، وهي سلامة مزاجها في نفسها ووقايته مما يعدو عليه من الخارج

فأما سلامة مزاج دولتنا العثمانية في نفسه فانما يكون باقامة الشرع العادل في القضية ، والمساواة في الحقوق بين الرعية ، وبناء ادارة المملكة على أساس اللامركزية، وجعل السلطة العليا شق الأُبلمة بين العنصرين الكبيرين فيها – العرب والترك – بحيث يكونان منها كالعنصرين اللذين يتكون منهما الماء أو الهواء . واما وقايتها مما يعدو عليها من الخارج فهو الآن منوط بدول أوربة الكبرى فهن اصحاب المطامع فيها ومطامعهن متعارضة . وما دامت كذلك كانت الدولة آمنة على نفسها من اقتسامهن اياها بالقوة ، فيجب ان تتقي استيلاءهن على البلاد بقوة المال والسياسة ، أي بالفتح السلمي ، وان تقوي مزاج الامة بالمال والعلم واعدادها للدفاع عن نفسها . فاذا هي فرطت في مرافقها وأملاكها فباعتها للأوربيين ، وبقيت على تبذيرها ، وتوهمها أنها تستطيع ان تحمي نفسها منهن بقوتي الدولة البرية والبحرية الرسميتين ، ولم تجعل كل اعتمادها على الامة ، فالخطر عليها من الفتح السلمي ، أقرب واقوى من خطر الفتح الحربي .

(رأي الكاتب النحرير الشهير)

داود افندي بركات

رئيس تحرير الاهرام

رأيي في اصلاح السلطنة العثمانية ان تقسم مناطق، وان تكون كل منطقة مؤلفة من العناصر المتفقة في التقاليد والعادات واللغة ، فتعطى الاستقلال الاداري تبتّ من أموره كل ما لا يتناول منطقة أخرى أو اكثر من منطقة . و يعين لكل منطقة

حكومة الفرد بحكومة الامة ، فصلاح الحكومة قائم بصلاح الامة . ولا يكون ذلك في رأيي الا بنشر التعليم الحر بين طبقاتها، والفصل بين دنياها ودينها، والتأليف بين عناصرها وطوائفها ، حتى تصبح جميعها كتلة واحدة يحركها من أعلاها الى أسفلها عامل واحد ، هو عامل الوطنية، وتجمعها من أقصاها الى ادناها جامعة واحدة هي الجامعة العثمانية .

(رأي الكاتب الشهير)

فرح افندي انطون

صاحب مجلة الجامعة

ان سنة التطور (evolution) التي تحكم العالم المادي والعالم الاجتماعي أمر لا مفر منه . فما السبيل الى جعل التطور في السلطنة لها لا عليها ؟ لا أظن أن صديقي المؤلف يكلفني الجواب على هذا السؤال في بضعة أسطر . على ان كل ما يقوله الكاتب ويفكر فيه المفكر في هذا الشأن أمر معلوم ، فما تنقصنا الاقوال ولكن تنقصنا الافعال . فقد يقال « العدل والسواء وتوسيع سلطة الولايات وقطع دابر الرشوة بحسن اختيار الموظفين وشدة مراقبتهم واصلاح المحاكم وتنظيم البوليس وتقويته وانشاء الطرق الحديدية واستثمار الارض ظهرها و بطنها (الزراعة والمعادن) واحياء الصناعة والتجارة والمستشارون الاجانب وتنظيف الدوائر العليا والدنيا الخ الخ » وكلها اشياء جميلة . ولكني ارى امراً آخر مقدماً عليها وان وجد المال وقوة الارادة لانفاذها وهو ما أسميه « الانسلاخ » أعني به انسلاخ الرجل الشرقي القديم — وكلنا ذلك الرجل — من جلده القديم وروحه القديمة واتخاذه جلداً جديداً وروحاً جديدة . ومعنى هذا بكلام مجرد من الزخرف والخيال تغيير السياسة التي حكمت بها السلطنة وجعلها بوزيتيفست (positiviste) وهنا المشكلة العظمى . فانه يجب بناء أعمال الحكومة على هذه السياسة من غير أن يصدم هذا البناء معتقدات العناصر المختلفة وأوهامها ، أي سوق التطور في طريق هذه السياسة من غير ان يؤدي الى كسر في أعضائها . ورأس سياسة الوزيتيفست أن يفصل الدين عن السياسة الدنيوية عند جميع العناصر العثمانية . وبعد هذا الفصل يعكس الاتجاه الى موحدة الامة وبانية اساس مستقبلها أعني بها المدرسة الابتدائية الالزامية — واحدة لجميع ابناء الامة، وبمعزل عن المذاهب الدينية لتوحيد اغراض الامة واهوائها ما أمكن التوحيد ، وجعلها أمة واحدة لا أمماً مختلفة كما هي الآن .

(رأي الشاعر الكاتب الطائر الصيت)

خليل افندي مطران

أخي — سألتني عما أرتئيه لاصلاح الدولة العلية . فالذي أرتئيه انما هو أمر واحد يلخص في كلمة واحدة : التعليم

منذ عشرين سنة أرقب حوادث الدولة واستقري ما يجري فيها . فالذي بدا لي من شأنها في كل حال : ان الحكام كانوا لا يهتمون باصلاحها اعتماداً منهم على جهل الامة وعلى تسليمها لهم بسبب ذلك الجهل . وان المحكومين كانوا فاقدي الحيلة في التماس ما هو خير لهم وكانوا صابرين على مضض . وربما أومض لهم بارق الاصلاح في احدى المصادفات فتألموا منه تألمهم من الرمد المفاجئ .

فهؤلاء المحكومون ما لم يتعلموا لايقيمون لانفسهم وزناً ولا يفرقون بين حقٍّ لهم وحقٍّ عليهم . كما أن أولئك الحكام أيا كان جنسهم ودينهم يلبثون أبد الدهر متنكرين لامتهم جانين عليها ، الا حيث تضطرهم الى الاصلاح اضطراراً ، و أخذ منهم قسرا ما يأبونه عليها اختيارا .

وكل ذلك لا يتم شيء منه الا بالتعليم .

(رأي الكاتب الشهير)

محمد افندي مسعود

حياة الدولة في مستقبلها . ومستقبلها في حكومة كفيلة باسترجاع مجدها المضيع ، وهذه الحكومة لاتوجد ، الا متى عرف رجالها قدر انفسهم . فوضعوها فوق عبث الاحزاب .

(رأي الصحافي الخبير والكاتب الالمعي)

سامي افندي قصيري

المحرر في المقطم

لما كانت الدولة العثمانية فيما مضى دولة استبدادية قائمة على حكومة الفرد كانت تقوى بقوة ذلك الفرد وتضعف بضعفه وتسعد بسعده وتشقى بشقائه . أما الآن وقد أعلن فيها الحكم الدستوري مراعاة لاحوال الزمان والمكان وتبدلت

الرعية ، واصلاح المالية ، فهما اساس الملك وبهما قوام الدول . ذلك بان تشترك جميع عناصر المملكة على نسبة كل منها الى المجموع ، فيعهد في الوظائف الى ذوي الكفاءة ، وتؤدى الرواتب في مواقيتها ، وتوضع المكوس على ما تطيق الرعية ، وتستثمر المعادن ، وتقام اعمال الري والطرق الحديدية وغيرها على السواء في جميع اقطار البلاد ، وتستعمل الدولة في الاصلاح وتعميم التعليم العلماء الراسخين من الشرقيين والغربيين ، ويكون الانتخاب على ما يضمن لكل ملة العدد النسبي من الاعيان والنواب دون محاباة أو تفاضل . فمتى حصل ذلك توفرت الاموال واتحدت كلمة الجيش، وساد الامن واستوثقت الرعية من الوازع، وانتظمت الشورى وحصلت الالفة بين الامم المختلفة ، وانصرفهم القائمين بالامر الى استصلاح الزراعة وترقية الصناعة والعناية باسباب العمران، ونبذوا الشقاق وصدقوا في حب الوطن وتعاونوا على الامر مخلصين منزهين عن المطامع الشخصية بما يزيد هيبة الحكومة ويؤيد سلطانها

يتم ذلك باذن الله اذا امتنعت الدول عن تعكير الامر على العثمانيين ، وجرى هؤلاء نحو ما تقدم ربع قرن أو ما يزيد ، لتنال الناشئة ــ وعليها المعول في الاحتفاظ بعمل الاصلاح ــ من العلم والمدنية والمران على الاعمال ما يضمن للدولة كيانها وعظمتها ، وللعثمانيين اتحادهم واستقلالهم

﴿ رأى الكاتب البليغ ﴾

الاستاذ امين افندى البستاني

سألتني رأيي في الدولة ومصيرها : جاز بالدولة في هذا العام عبرة كبرى اذا لم تعتبر بها نالها ما هو اشر منها . وللدولة الآن بقية ملك هو ابعد مدى وامنع حمى واطيب بقعة من جل الممالك الاوروبية ، فهل لها أن تعدل في الباقي من هذا الملك وتمنعه حادثات الدهر ؟ الله اعلم . على أن الدولة لا تجهل اشراط الملك على المالك وما هو مبق له وما هو ذاهب به، حتى لقد اصبحت الدلالة على وجوه الاصلاح المنشود من مبتذلات الكلام، وملوكات الافواه والاقلام، فهل للدولة أن تعمل بما علمها الدهر على حين لم يبق لها من ناصر الا ما تسعى اليه من ترميم هذا الملك العزيز ، والا فقد قضى الله بما لا دافع له ولا مانع له، وحسبكم الاشارة ياأبناء هذه الدولة . فاعدلوا بين ضروب الرعية لان دولتكم مستمدة من جملتها لا من ابعاضها، وقدموا الكفؤ على غيره مهما كانت نبعته ومنبت اسلته، واستعملوا الاجنبي

(رأي الاستاذ القانوني الشهير)

عزيز خانكي بك

يجب ان تبدأ الدولة باعطاء ولاياتها الاستقلال الذاتي الداخلي ثم تجعل الصلة بينها وبين ولاياتها كالصلة بين ممالك المانيا والامبراطورية، أو كالصلة بين الولايات المتحدة الاميركية والجمهورية، ثم تتعاون جميع الولايات على تكوين قوة الدولة البرية والبحرية بمعنى أن كل ولاية تشترك بنسبة ثروتها

هذا من جهة سياسة الدولة من حيث مجموعها . أما رقي الولايات فلا أمل فيه الا بانشاء المحاكم، ووضع القوانين النظامية على الطريقة المصرية، واقامت المدارس، ومد السكك الحديدية ، وتوطيد اركان الامن العام، واجراء الاصلاحات العامة اللازمة لكل بلد مثل انشاء السكك الزراعية، وبناء القناطر للري، وتسهيل المواصلات البرية والبحرية، وتعميم بعض النظامات الغربية، مثل التلغرافات والتلفونات وتنظيم البريد داخل الولايات، وتشجيع الاهالي على انشاء الشركات للاستثمار بخيرات هذه الاقطار التي يقال انها كلها كنوز لا تنفد .

(رأي الاستاذ الفاضل الشهير)

اسكندر بك عمون

اصلح نظام للدولة على ما بين العناصر والولايات العثمانية من التباين في الحاجات والاخلاق، والعادات والتقاليد، وعلى ما بين اهليها من التفاوت في الحضارة، ان تجعل ممالك أو ولايات مستقلة في جميع شؤونها الخاصة استقلالا تاما حتى في قوانينها وفي شكل حكومتها، مع ارتباطها جميعاً في الشؤون العمومية على نحو نظام الولايات المتحدة الاميركانية أو الممالك الجرمانية، وتسمى حينئذ الولايات أو الممالك العثمانية المتحدة . ولهذا النظام مزية على كل نظام آخر وهي : انه النظام الوحيد الذي يمكنه أن يجمع بين الولايات والامارات العربية في جزيرة العرب وسائر الولايات الممتازة وغير الممتازة

(رأي الكاتب العالم)

نجيب بك البستاني

أحد مؤلفي وأصحاب دائرة المعارف البستانية

اهم ما يجب لاحياء امر الدولة العثمانية واعلاء شأنها انما هو العدل الصحيح في

﴿ عبد العزيز بك علي المصري ﴾

عبد العزيز بك المصري - أو عزيز بك كما تقول الترك - من ضباط اركان الحرب المشهورين في الجيش العثماني . وقائد برقه في قتال الجيش الايطالي . وقد قبض عليه في الاستانة منذ شهرين وسجن باسر ديوان الحرب العرفي ، ولم يعرف السبب الرسمي لذلك ، فحدث لذلك من التأثير السيء في مصر وسورية وغيرهما من البلاد العربية فوق ما كان ينتظر ، وصار ذلك شغل الجرائد العربية الشاغل ، وسرى هذا التأثير الى كثير من الجرائد الاوروبية . وتناقلت الجرائد عن الاستانة ان الذي وشى به هو الشيخ عبد العزيز شاويش الذي وظيفته التجسس على العرب .
وقد دعا شيخ الجامع الازهر اشهر علماء المصريين وفضلائهم الى عقد اجتماع للتشاور فيما يجب اتخاذه لانصاف هذا الرجل ، فاجتمع الوف من الناس في ٢٦ من هذا الشهر . وكان قد دعي الى الخطابة فيما يتعلق بهذا الموضوع رفيق بك العظم ومحمد افندي لطفي جمعه ومحمد ابو شادي بك وابراهيم بك الهلباوي - الثلاثة من المحامين - فخطب كل منهم فاجاد ، واثنوا على عبد العزيز بك المصري واطروا خدمته للدولة واقاموا الدلائل والبينات على استهجان القبض عليه وفندوا ما شاع وما تصور من اتهامه به . وخطب صاحب هذه المجلة خطبة ارتجالية وجيزة اقترحت عليه عند ما وصل وأخذ مجلسه من مكان الاحتفال ، واختار ناظم عقد اللجنة حسن باشا رضوان ان يكون الخطيب الثاني ، فأجبنا الطلب ، ثم اقترح علينا أن نكتب ملخص ما قلناه وننشره وهو هذا :

اقترح علي الآن أن اقول شيئاً في الموضوع الذي عقد لاجله هـذا الاجتماع ولم يكن اسمي في جدول الخطباء -وهم كثير- فانا اقول كلمة وجيزة حتى لا اضيع على الخطباء المستعدين وقتهم

سمعتم ما شرحه الخطيب الاول (رفيق بك) من خدمة عبد العزيز بك المصري للدولة والامة في إقامة الدستور وتأييده ، وفي مقاومة حرب العصابات المسلحة في مكدونية ، وفي اليمن وبرقة . وستسمعون من سائر الخطباء شرحا اوسع في الثناء على الرجل . وانني اظن كما تظنون أن الرجل بريء مما رماه به السعاة الواشون ، ولكنني ابني كلمتي على غير الاساس الذي بنى عليه رفيق بك كلامه ،

في تدبير ما انتم ضعاف عن تدبيره واسلكوا القصد في عملكم من غير سرف ولا تفريط وخذوا بالجديد الصالح واخلعوا القديم المبتذل ثم اعدوا للملك عدته من رجال ومال ، والله الواقي في هذا الباقي

﴿ رأي استاذنا الاجتماعي الكبير ﴾

احمد لطفي بك السيد

مدير الجريدة

(وصل في آخر ساعة لغياب حضرته عن القاهرة)

راجعت نفسي فوجدتني غير حاصل على المقدمات التفصيلية اللازمة لتكوين رأي صحيح في الوسائل العملية لاصلاح الدولة العلية . وان الذين يستطيعون معرفة هذه الوسائل هم رجال الدولة المشتغلون بسياستها و لواقفون بانفسهم على ما اجهله من المقدمات الضرورية لتكوين رأي صحيح غير أن لرقي الامم وهبوطها قوانين قد تكفي لتكوين رأي اجمالي ونظري في الاصلاح

مهما كانت الاسباب التي حملت اوروبا على اضطهاد الدولة العلية فلا شك في أن وقوعها في الضعف والهرم هو اهم تلك الاسباب ، وليس يوجد مانع طبيعي يمنع الدولة بعد أن مسها الهرم من استعادة شبابها بالاخذ بالتعليم الحديثة من حيث الحكم والتربية والتعليم وتدبير حالها الاقتصادية على وجه يكفل لها النظام والقوة . ولست اجد في هذا الحاضر ما يرجح كفة توقع الشر في المستقبل على كفة انتظار الخير . فاذا قام العنصر الحاكم باحترام اطماع العناصر المحكومة والنهضة بالامة عن الجمود الى التسلح بجميع الاسلحة الحديثة ان في التربية وان في الاقتصاد ، أمكن الحكم بهذه الدلائل على الاصلاح المنتظر . نعم ان لظروف الخارجية دخلا في اصلاح الدولة ولكن العثمانيين هم المسؤلون وحدهم عن اجراء هذا الاصلاح . عليهم عمل ما في قدرتهم والله يتولى امر ما لا يقدرون عليه

(المنار) هذه آراء أشهر حملة الاقلام وعلماء السياسة والقوانين من المصريين والسوريين ، وأكثرهم متفقون في الرأي فيما صرحوا به وما لم يصرحوا ، ولا تكاد ترى خلافا صريحا بينهم الا في مسألة استخدام الاجانب أو استعانة الدولة بهم ، أجازها أو أشار بها بعضهم تصريحا أو تلويحا وحذر منها بعض . أهملها الاكثرون . وصرح جماعة بمسألة اللامركزية أو الاستقلال الاداري للولايات أو الاقاليم . ولم يحفل هذا الجمهور بمسألة القوة الحربية ولا البحرية التي تمدها الدولة بتقاليدها الموروثة كل شيء . وقد انفردنا بابداء الرأي في مسألة الدفاع . فلتعتبر بهذه الآراء الامة وان لم تعتبر بها الدولة .

البلقاء ، وحمل برمحه على جيش الاعداء ، فكان لايحمل حملة الا انهزم الاعداء امامه. وكان سعد (رض) يرى ذلك ويتعجب ويقول : الكر كر البلقاء والحمل حمل أبي محجن(١) وابومحجن في القيد !. ولما انهزم العدو رجع ابو محجن الى قيده كما وعد امرأة سعد . واخبرت هي سعداً بما كان ، فاطلقه من قيده، وقال : لا احدّ اليوم رجلا نصر الله المسلمين على يديه . فقال ابو محجن : لقد كنت اشربها اذ يقام علي الحد فيطهرني ، واذ قد حايتني (٢) فوالله لا اشربها ابداً . وتاب من ذلك اليوم

ولدينا شاهد آخر من وقائع القادسية : زُهرة بن حَوِيّة هو الذي قتل الجالينوس قائد جيش المجوس، وقد اخذ سلبه بدون إذن القائد العام سعد بن أبي وقاص ، فانتزعه سعد منه وأراد أن يؤاخذه ، ولكنه كتب الى امير المؤمنين عمر ابن الخطاب يستأمره في ذلك . فكتب اليه عمر (رض): تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به ، وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه ؟ (٣)

انكر سيدنا عمر على سعد عمله،وامضى لزهرة سلبه ، لانه رأي أن عمله الماضي والحاجة الى عمله في المستقبل أرجح من هذه المخالفة وأن المصلحة تقتضي ذلك .

ان لنا فوق هذا كله اسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في خبر حاطب بن ابي بلتعة : نقض مشركو قريش عهد النبي (ص) فاراد أن يزحف عليهم لفتح مكة ، وكان لحاطب أهل ومال بمكة خاف عليهم لانه ليس لهم احد يحميهم ، فكتب الى اهل مكة يخبرهم بعزم النبي (ص) فعلم النبي (ص) بما كان (وارسل من اخذ الكتاب من امرأة كانت تحمله في عقاص شعرها) وسأل حاطباً عن ذلك فاعترف واعتذر بالخوف على اهله وولده وانه عمل ما لا يضر الله ولا رسوله . فقبل عذره . واراد عمر بن الخطاب الذي تضرب الامم بعدله المثل أن يقتله ، لان افشاء سر الحرب من اكبر الذنوب العسكرية فجعله عمر دليل النفاق ، واستأذن النبي (ص) بقتله فلم يأذن له ، وقال « انه شهد بدراً »

عد النبي (ص) شهود غزوة بدر من اقوى ايات الايمان، والصدق والاخلاص

(١) لفظ سعد (رض) « الضبر ضبر البلقاء ، والظفر ظفر ابي محجن » الخ والضبر بالضاد المعجمة كر الخيل وعدوها : والطفر الوثوب (٢) كلمته المأثورة « بهرجتني » ونحن ذكرنا المعنى المراد من هذه الكلمات ليفهمها جميع الحاضرين . وقد أشكل على بعض الناس ترك سعد اقامة الحد وحملوا سببه ، وهو ان الحدود لاتقام في الحرب ولا دار الحرب ، كما تراه في الفتوى الملحقة بالتفسير من هذا الجزء ، وسعد يعلم هذا وهو مما أوصى به عمر ، ولا يبعد ان لايعرفه مثل ابي محجن (٣) الفوق بالضم موضع الوتر من السهم، ويطلق على السهم بمعنى الحظ وبمعنى أعلى الفضائل .

فانا لا افرض انه بريء ، وانه يخشى أن يؤثر في اعضاء المحكمة التي تنظر في قضيته ما يدور حولها من السعايات والاوهام فتصدق بعضها وتبني عليه الحكم ، ولا اقول بوجوب عقابه اذا كان مذنباً أو طلب العفو عنه بعد الحكم، بل أقول قولا آخر فهاكموه:

يجوز أن يكون عبد العزيز المصري قد أتى بذنب، لأننا نحن المسلمين لا نقول بعصمة أحد من البشر غير الانبياء الذين يبلغون رسالات ربهم فيما يتوقف عليه امر التبليغ وحكمته ، كما يجوز أن يذنب كل واحد من الناس وليس فيهم انبياء مرسلون. نجوز هذا عقلا وان كان لدينا دلائل متعددة تؤيد البراءة الاصلية ، أظهرها أن الرجل بقي زمناً في الاستانة بعد عودته من برقة كانت توكل اليه الاعمال العسكرية التي لا توكل عادة الى المجرمين المستحقين للسجون، ولم يؤخذ بالتهمة المبهمة الا بعد استقالته من الخدمة ، ولم يكن له بعدها عمل صالح ولا سيء . وانما أخذ بسعاية واش مفسد . فلنفرض انه مذنب ، وان ذلك الواشي الخبيث صادق

أنتم تعلمون ان الامم لا تعز ولا ترتقي الا بالرجال القادرين على الخدمة العامة للأمة القائمين بها ، وهؤلاء الرجال قليلون، لذلك يجب ان يضن بهم وتقال عثراتهم . وعزيز المصري من هؤلاء الرجال بدليل ما قام به من الخدمة العامة للدولة والأمة، فاذا صدق ذلك الواشي النمام الخبيث — وما كان الا كذوباً — في زعمه انه قد اتى ذنباً يحاكم عليه ، أليس له من حسناته وخدمته العامة شفيع يقتضي أن تغفر الدولة ذنبه وتقيل عثرته ؟ وهل كان الذين يريدون الانتقام منه براء من الذنوب والعثرات؟ أم نقول لهم كما قال المسيح عليه الصلاة والسلام حين جيء بالمرأة الزانية لاجل رجمها ؟

كلا ان لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة، ولنا في سيرة اصحابه وأئمة العدل من خلفائه ما نهتدي به في مثل حادثة عزيز المصري .

كان ابو محجن الثقفي مدمن خمر في الجاهلية وقد اسلم ولقي النبي (ص) وروى عنه حديثاً . وكانت الخمرة قد احدثت له مرض الخمار فكان لا يستطيع تركها ، وكانوا يجلدونه اذا شرب فيري الم الجلد دون الم الخمار، وقد حضر حرب القادسية مع سعد بن ابي وقاص (رض) فحبسه سعد وقيده بتهمة الشرب، وقد التحم المسلمون مع المجوس في معركة شديدة ، وكان سعد مجروحاً لم يحضر المعركة بل قعد على سطح بيته ينظر ما يفعل المقاتلون . فلما رأى ابو محجن رحى الحرب دائرة وخاف على المسلمين ان يغلبوا ، رغب الى امرأة القائد العام أن تحله من قيده ليحضر المعركة، وعاهدها بان يعود الى قيده اذا هو سلم . ففعلت . فوثب على فرس لسعد يقال لها

هذا واني اختم كلمي بالشكر لكم ايها الفضلاء الذين تصدتم هذا المكان للسعي في انقاذ اخ لكم من الهلاك فان هذا خدمة للانسانية، ومحافظة على حقوق البشر في الحياة والحرية، وقد قال الله تعالى (ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً) قال بعض مفسري السلف احياؤها السعي في انقاذها من الموت . والسلام .

هذا وان لجنة الاجتماع لم تعمل بهذا الاقتراح لانها كانت قد وضعت صورة برقية باسم الصدر الاعظم تتضمن معنى شفاعة الامة المصرية بالرحل . فجاءها جواب من أنور باشا ناظر الحربية ، ملخصه ان المجلس الحربي مستقل تمام الاستقلال لا يطرأ عليه أقل تأثير !!

﴿ التعصب على المنار ﴾

هاج بعض غلاة التعصب على المسلمين هيجة شؤمى على المنار في هذا العام ، وجددوا السعي الى الوكالة البريطانية اولا وبالذات والى الحكومة المصرية ثانياً وبالتبع ، لتبطش بصاحب المنار فتلقيه في غيابة السجن ، أو تنفيه من ارض مصر ، واستعانوا على محاولتهم وسعايتهم ببعض القسيسين وغير القسيسين ، من الاجانب والوطنيين ، ونفثوا سموم تعصبهم في جرائد القبط وبعض الجرائد الافرنجية التي يحرر فيها بعض السوريين . وكان محضاء نار هذه الفتنة ، والمدبر الاول لهذه المكيدة ، يوسف الخزن اللبناني الذي يعيش من التحرير في جريدة الوطن القبطية ، وجريدة دوكير الفرنسية ، وهو هو الراسخ في بغض المسلمين الذي نقل عنه انه قال : اذا صافحه مسلم تضطرب اعصابه ، ولهذا لا تكاد تراه يبدأ مسلماً من معارفه بالمصافحة .

قد عرف القراء مما كتبناه في الجزء الماضي شيئاً من خبر هذه الهيجة التعصبية على المنار ، ولعل أدباء القراء ظنوا أن ما كتبناه في الجزء الماضي قد اطفأ بما يتجلى فيه من حسن نيتنا نيرانهم ، واستخرج بحججه وسماحته اضغانهم ، كلا انه لم يزدهم الا بغياً وعدواناً ، وسعاية ووشاية وزوراً وبهتاناً ، فنحن نثبت من تاريخنا ومما كتبناه في المنار من أول نشأته الى الآن ، اننا طلاب تسامح ووفاق ، وهم يريدون أن يتبدلوا الشيء بضده فيوهموا من يسمع كلامهم أننا دعاة عداوة وافتراق ، نحقر النصارى وندعو المسلمين الى بغضهم وعداوتهم لاجل دينهم !!

حسب الانسان أن يعلم من نفسه ومن نيته السعي للخير، والاخلاص في العمل، فان كان يبالي باطلاع الناس على عمله ، ومظاهر حسن قصده، لاجل الاسوة الحسنة،

في الاسلام، لان المسلمين كانوا وقتئذ في قلة عدد، وقلة مال، وقلة طعام، وقلة ركائب، كانوا في اشد الضعف، وكان المشركون في أوج قوتهم، فمن يبذل نفسه في سبيل الله في مثل تلك الحال، لا يبذلها الا بباعث الايمان وحافز الاخلاص، وتلك حسنة تتضاءل بازائها أي سيئة من السيئات

فلنفرض أن عبد العزيز المصري قد اجترح ذنباً عسكرياً كبيراً (كذنب حاطب أو ماليا كذنب زهرة بن حوية، أو شخصيا كذنب ابي محجن رضي الله عنهم)، وان ذلك الواشي الخبيث صادق فيما رماه به ـ وما كان الواشي النمام الخبيث الا كذوباً فاسقاً ـ اليس له من الجهاد في سبيل الحكومة الدستورية عند تكوينها ومن الدفاع عنها ايام كان الخطر محدقاً بها، ما يشبه حسنة حاطب في شهود غزوة بدر؟ وما كان حاطب ممتازاً فيها بشيء انفرد به دون سائر من حضرها، ولا كان في مقدمة الذين أبلوا فيها وأثخنوا؟ وأما عبد العزيز المصري فكان في مقدمة الضباط الذين أبلوا في فتح الاستانة وفي غيرها من الاعمال العسكرية التي ايدت الحكومة الحاضرة. فهو جدير بان يكتفى منه بالاعتذار، اذا فرضنا انه ارتكب بعض الاوزار، دع خدمته للدولة في عقد الصلح بينها وبين امام اليمن، بعد حرب استمرت عدة اجيال، سفكت فيها دماء مئات الالوف من الرجال، وضاعت بها القناطير المقنطرة من الاموال، ولم تستفد الدولة من ذلك فائدة ما، فكان ذلك الصلح من افضل الاعمال وانفعها للدولة ولأهل اليمن ـ ثم دع خدمته في قتال الجيش الايطالي في برقة

واذ كان هذا الاجتماع العظيم قد عقد لاجل التشاور في انصاف هذا الرجل، أو انقاذه من الخطر، قد جعل تحت رياسة الاستاذ الاكبر شيخ جامع الازهر، وشهده طائفة من اكبر علمائه، مع هذا الجمع العظيم من خواص البلاد ـ فالذي اراه وأقترحه هو أن ترسل برقية بامضاء الاستاذ الرئيس الى مولانا السلطان المعظم يخاطبه فيها بعنوان الخلافة، ويفتتحها بقوله تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾ ويطلب منه بان لا يؤاخذ عبد العزيز بك المصري بما عساه ينسبه اليه ديوان الحرب من ذنب أو تقصير، لاخلاصه وسابق خدمته للدولة، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة حاطب، وبامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امضاء سلب الجالنوس لزهرة بن حوية وبسعد بن ابي وقاص في مسألة ابي محجن (رضي الله عنهم اجمعين) ويظهر له رغبته ورغبة هذا الجمع الكبير من علماء مصر وفضلائها في ذلك. واكبر ظني أن هذا هو أرجى ما يرجى نفعه في الاستانة.

قولوا فينا ما شئتم ، وظنوا ما شئتم ، واعتقدوا ما شئتم ، وهيجوا من شئتم ، ولتدب عقارب سعايتكم الى من شئتم ، فنحن لا نبالي بكم ، ولا نأبه لرضاكم ولا لسخطكم ، فمن أخطأ الى مثلكم فهو الذي يحسن منه ان يصر ولا يعتذر ، اذ لا صارف لكم عن شيء من الشر ، الا مكانتكم من الضعف والعجز ، وها انتم اولاء قد اجمعتم كيدكم ، وبذلتم في سبيل ايذائنا جهدكم ، فما كنتم الا خائبين مخذولين « ان الله لا يصلح عمل المفسدين » نعم لو كان ساسة الانكليز كساسة القبط في عقولهم واخلاقهم ، وكان لورد كتشنر كيوسف الخازن في تعصبه وحنقه على المسلمين ، لأقفل المنار ، ونفي صاحبه من هذه الديار ، وتبعه اقفال الازهر بعد دار الدعوة والارشاد ، ولو رأيت من جمهور المشاركين لكم بلقب الدين ما رأيت منكم ، لقلت للمسلمين انه قد ظهر لي في السنة السابعة عشرة من دعوتي اياكم الى الاتفاق والتعاون مع هؤلاء الناس على ترقية البلاد ، انهم لا يمكن ان يتفقوا معكم ، ولا يرضيهم منكم الا خروجكم من دينكم ، أو اقامتكم فيه على خسف ، لا تدفعون عنه بحق ، ولا تقابلون محاولي إبطاله واخراجكم منه بالمثل ولا دون المثل ، ولكن من فضل الله على عباده ان مثل هؤلاء الغلاة قليل ، ولهذا لا نيأس من خطتنا ، ولا نرجع عن قاعدتنا. وهي (نتعاون على ما نشترك فيه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه)

﴿ المسألتان الشرقية والصهيونية ﴾

ما تبددت ثروة شريف باشا الكبير في مصر الا وكان بددها مكونا لثروات جديدة لم تكن ، ومددا لثروات أخرى ومزيدا فيها . ذهبت تلك الثروة الكبيرة ممن عجزوا عن حفظها بله تنميتها ، الى ايدي القادرين على ذلك . وكذلك تتبدد الدول فتتألف من الكبيرة منها دول متعددة ، وتنمى وتتسع دول أخرى — سنة الله في تغذي الاحياء بفرائسها ، من افراد الجنة (الميكروبات) والهوام ، الى جماعات البشر . أرقى انواع الحيوان .

ومن عجائب العبر ، في تفاوت همم البشر ، أن ترى كاتبا صغيرا في خدمة غني كبير يطمع ان يرث ثروته او ينشئ لنفسه مثلها ، وذلك الغني يائس من حفظ ثروته واستبقائها ، وان تعجب من تكون ممالك البلغار واليونان والصرب والجبل الاسود والالبان من املاك الدولة العثمانية في أوربة ، وتغذي الدول الكبرى بأملاكها في افريقية وفتح افواههن لابتلاع املاكها في آسية . فأعجب من ذلك كله تصدي جمعية من

والتعاون على الخدمة العامة ، فحسبه أن يعرف أهل الاخلاص وحسن النية منه ما يعرفه من نفسه .

ونحن ـ ولله الحمد والمنة ـ اصحاب تاريخ معروف، واثر في السعي الى الاصلاح والاتفاق مدون مطبوع ، يعرفه قراء العربية ، ولا يجهله خواص الامم الافرنجية ، وحسبك ما نوه به في العام الماضي أصحاب المجلة الفرنسية المصرية بمصر ، وجريدة فرنسا الاسلامية في باريس ، من حسن تأثير خدمة المنار في المسلمين بحملهم على التسامح والمدنية ، وما سموه « المدرسة العبدية » هو ما بثه المنار من مشرب شيخنا الاستاذ الامام من إثبات التسامح الاسلامي والدعوة اليه ، والتأليف بين قواعد الاسلام الثابتة، وبين المدنية الصحيحة. وما قالته هاتان الصحيفتان اخيرا هو صدى ما كتب في جريدة الطان من بضع سنين في سياق الكلام عن مسلمي تونس ، وما كتبه لورد كرومر عن حزب الشيخ محمد عبده في تقريره الذي ذكره فيه عقب وفاته. وهل لمشرب الشيخ محمد عبده وآرائه مظهر عرفت به في الاقطار ، غير مجلة المنار ؟ بل نقول ان هذا المشرب مما اتفق فيه رأينا مع رأي الاستاذ رحمه الله تعالى ولم يكن مما تلقيناه عنه ، ومالنا فيه من القول والسعي اكثر مما كان له، ومن الشواهد على ذلك ما كتبناه في فاتحة العدد الاول من المنار ، وفي اول نبذة فيه بعد الفاتحة ، ولم نكن يومئذ تلقينا عن الاستاذ درسا ، ولا بسطنا معه في هذه المسألة وامثالها قولا.

قلنا في بيان خطة الصحيفة وما أنشئت لاجله ما نصه « وتحاول اقناع أرباب النحل المتباينة ، والمذاهب المختلفة ، ان الله تعالى شرع الدين للتحابّ والتواد والبر والاحسان، وان المعارضة والمناهضة، والمناصبة والمواثبة ، تفضي الى خراب الاوطان وتقضي على هدي الاديان »

وبينت في النبذة التي بعد المقدمة ان لفظ الكفر لم يستعمل في الكتاب والسنة للاهانة ، بل لبيان حقيقة من الحقائق . وأنه يستعمل الآن في غير ما كان يستعمل من قبل ، ومنه ارادة السب والشتم ، فلا يجوز ان يوجه بهذا المعنى في الخطاب بنداء أو وصف الى من حرم الشرع إيذاءهم وجعل لهم حقوقا محترمة من الذميين والمعاهدين (الاجانب الذين بينهم وبين المسلمين عهود على ترك الحرب اي غير المحاربين) واستخرجت نصا من كتب الفقهاء على ذلك لا حاجة لاعادة ذكره هنا

بعد هـذا التمهيد اقول ليوسف الخازن واصحاب الجرائد القبطيـة من غلاة التعصب ومبغضي المسلمين كيفما كانوا ولجميع من هو مثلهم من وطني او اجنبي :

كتاب

مجمع البيان

في

تفسير القرآن

نزف لقراء العربية والأمة الاسلامية في أقطار الارض بشرى طالما تاقت اليها النفوس واشرأبت لها الاعناق ألا وهو طبع التفسير الشهير (مجمع البيان) لمؤلفه الشيخ الطبرسي من اكابر العلماء في القرن السادس ومع انه الف في ذاك القرن فهو موافق لروح هذا العصر كل الموافقة ولا نبالغ اذا قلنا أنه لم يؤلف في علم تفسير القرآن الكريم كتاب مثله وقد رتبه ترتيبا حسنا فانه ذكر اولا الآية القرآنية ثم القراءة فالحجة فاللغة فاسباب النزول فالاعراب فالمعنى وربما تكلم في السياق اذا اقتضاه المقام الى غير ذلك من النكات اللطيفة والوجوه البديعة خصوصا فلسفة اللغة مما لم يجتمع في تفسير قبله وبعده فيما نعلم .

وقد طبعنا نسخا زائدة من الملزمة الثالثة نرسلها مجانا لمن يطلبها من مطبعة العرفان في صيدا . وجعلنا اشتراك هذا التفسير الجليل

اربعة مجيديات

ما عدا التجليد وأجرة البريد وهو يحتاج الى ريال مجيدي في البلاد العثمانية أما في مصر والبلاد الاجنبية فقيمة اشتراكه بدون تجليد عشرون فرنكا خالص أجرة البريد .

ويبقى الاشتراك مفتوحا إلى ستة اشهر من تاريخ هذه النشرة وبعد ذلك يصبح ستة مجيديات (وثلاثون فرنكا في الخارج) وعند تمام الطبع ثمانية مجيديات (أربعون فرنكا)

وقد باشرنا طبعه على ورق متين وطبع جيد وتصحيح متقن ويتولى تصحيحه فئة من افاضل العلماء وسوف يكون له فهارس حسنة ما بين مختصرة ومطولة ان شاء الله .

ويقع التفسير باربع مجلدات وهي عبارة عن الفي صفحة كبيرة من ذلك يعلم انه ارخص كتاب ظهر لعالم الطبع وكلما زاد المشتركون اقبالا ازددنا اسراعا به اما قيمة الاشتراك فترسل لمطبعة العرفان باسم احمد عارف الزين وهي ترسل للمشترك وصلا بالقيمة وكل وصل لم يختم بختم مطبعة العرفان ويوقع بتوقيع صاحبها يعد لغوا والسلام

مطبعة العرفان * صيدا غرة رجب سنة ١٣٣٢ ٢٥ مايو {ايار} سنة ١٩١٤

يهود أوربة لتكوين دولة جديدة في البلاد المقدسة من هذه المملكة تتألف من مهاجرة فقراء اليهود المدزقين في جميع اطراف الارض بمساعدة هذه الجمعية ؟ فكيف تسموهمة جمعية أسسها رجل من اليهود الى تكوين دولة من اوزاع المهاجرين الفقراء في بلاد تتنازع على شبر الارض فيها اقوى الامم والدول ، وتسفل همة اصحاب هذه البلاد عن حفظها لا نفسهم ، دع سمو الهمة الى تأسيس ملك جديد ، في قطر قريب او بعيد . وهكذا تموت الناس وتحيا ، وهكذا تردى وترقى ، واسباب ذلك ظاهرة لا محل هنا لشرحها ، وكلها تدور حول العلم او الجهل ، وعلو الهمة او وطوءها ، وكبر المقاصد وصغرها . « والعلم ما يعرفك من انت ممن معك »

علم الصهيونيون ان الدول الكبرى لا يسمحن لواحدة منهن بامتلاك مهبط الوحي ومصدر الدين الموسوي والعيسوي وانه اذا زال ملك الترك من بلاد فلسطين فلا بد ان تكون مستقلة تحت حماية جميع الدول (وهذا رأي بعضهم في الحجاز ايضا) فطمعوا في ارضاء الدول بأن تحل اشكال التنازع بين الدول والمذاهب المسيحية بأن يكون اليهود هم اصحاب الملك في هذه المملكة ، بل طمعوا ايضا في ارضاء جمعية الاتحاد والترقي بذلك ، بل يقال انهم اقنعوها به فهي تساعدهم على التمهيد له لتقطع الطريق على العرب وتكثر خصومهم في بلادهم ، ولا محل هنا للبحث في اثبات هذا القول او نفيه ، وانما جئنا بهذه المقدمة كلها لاجل تذكير الذين اكثروا القول في المسألة الصهيونية من كتاب العرب بأنهم ما فتئوا يدورون حولها ولما يدخلوا فيها .

يجب على زعماء العرب اهل البلاد احد امرين . اما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد ان امكن — وهو ممكن قريب اذا دخلوا عليه من بابه ، وطلبوه بأسبابه — وإما جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونيين بكل طرق المقاومة ، وأولها تأليف الجمعيات والشركات ، وآخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة — وهوما تحدث به بعضهم على ان يكون اول ما يعمل ، وانما هو الكي — والكي آخر العلاج كما يقال .

﴿ السيدة نُعمى آل رضا ﴾

في النصف الثاني من ليلة الاحد سادسة ليالي شهر ربيع الانور وهبنا الله تعالى بنتاً سميناها نعمى ، والله نسأل ان يحقق معنى الاسم فى المسمى ، وقد فاتنا ان نذكر ذلك في الجزء الماضي .

(الجزآن الخامس والسادس) ١٣٣٢ (المجلد السابع عشر)

(قيمة الاشتراك)
عن سنة ٨٠ قرشا صاغا في مصر والسودان و٤ ريالات في المملكة العثمانية و٢٣ فرنكا و٩٠ سنتيما في الخارج و١٩ شلنا في الهند و٩ روابل في روسيه ويجب الدفع سلفا

المنار

١٣١٥

(تنبيه)
يجب أن يكون وصل الاشتراك مختوما بختم الادارة الخاص وموقعا عليه بتوقيع منشيء المجلة والمستلم
الاشتراك في المجلة يكون دائما من أول سنتها « المحرم » ومنتصفها « رجب »

(مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران)

(لمنشئها)
السيد محمد رشيد رضا



(مدير الادارة والمطبعة)
السيد صالح مخلص رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المنار ١٣١٥

قبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ جمادى الاولى ١٣٣٢ ق ٨ الربيع الثاني ١٢٩٢ هـ ش ٢٥ ابريل ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٥١) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

(٥٢) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِن تَوَلَّوْا

﴿ فهرس الجزء الخامس ﴾

فهرس الجزء السادس

المأثور قال : مؤتمنا عليه . وفي رواية أخرى قال : شهيدا على كل كتاب قبله .

لسان العرب : وقال ابن الانباري في قوله « ومهيمنا عليه » قال المهيمن (أي من اسماء الله) القائم على خلقه ، وأنشد :

ألا إن خير الناس بعد نبيه مهيمنه التاليه في العرف والنكر

(قال) معناه : القائم على الناس بعده . وقيل القائم بأمور الخلق . (قال) وفي المهيمن خمسة أقوال — قال ابن عباس : المهيمن المؤتمن . وقال الكسائي المهيمن الشهيد . وقال غيره : هو الرقيب ، يقال هيمن يهيمن هيمنة اذا كان رقيبا على الشيء . وقال ابو معشر : « ومهيمنا عليه » معناه وقبانا عليه . وقيل وقعا على الكتب . اه

والظاهر من مجموع الاقوال ان المهيمن على الشيء هو من يقوم بشؤونه ويكون له حق مراقبته والحكم في أمره بحق ، كما وصف بذلك أبو بكر (رض) في قيامه باعباء خلافة الرسول (ص) . والقيام بالامر يستلزم المراقبة والائتمان والشهادة عليه .

ومن الغرائب ان بعض المفسرين فهم من هيمنة القرآن على الكتب التي قبله أنه يشهد لها بالحفظ من التحريف والتبديل ! ! واللفظ لا يدل على هذا المعنى ، فاذا كان معنى المهيمن الشهيد فهل يصح أن يتحكموا في شهادته كما يشاؤن؟ أم الواجب عليهم الرجوع الى ماقاله في شأن هذه الكتب وأهلها ، لأنه هو نص شهادته لها ولهم ، أو عليها وعليهم ؟ والقرآن يفسر بعضه بعضا — وحسبهم انه قال في هذه السورة نفسها في كل من أهل التوراة والانجيل انهم نسوا حظا مما ذكروا به ، كما قال في سورة النساء قبلها انهم « أوتوا نصيبا من الكتاب » . وقال فيهما جميعا انهم كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه . وقال النبي (ص) « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا (آمنا بالله وما أنزل الينا) الآية » رواه البخاري في صحيحه ، وذكر ان سببه انه كان بعض أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها لبعض المسلمين بالعربية ، فنهاهم (ص) عن الاستماع اليهم وقبول كلامهم بهذا الحديث . يوضحه مارواه احمد والبزار — واللفظ له — من حديث جابر قال . نسخ عمر كتابا من التوراة بالعربية فجاء به الى النبي (ص) فجعل يقرأ — ووجه النبي (ص) يتغير — فقال له رجل من الانصار : ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله (ص)

فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٥٣) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

هذه الآيات تتمة السياق . بين الله تعالى شأنه إنزال التوراة ثم الانجيل على نبي اسرائيل، وما أودعه فيهما من هدى ونور، وما حتم عليهم من اقامتهما ، وما شدد عليهم من إثم ترك الحكم بهما . فناسب بعد ذلك ان يذكر إنزاله القرآن على خاتم النبيين والمرسلين ، ومكانه من الكتب التي قبله ، وكون حكمته تعالى اقتضت تعدد الشرائع ومناهج الهداية — فتلك مقدمات ووسيلة ، وهذا هو المقصد والنتيجة، قال:

﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ اي وأنزلنا اليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين، فكان هو الجدير بأن ينصرف اليه معنى الكتاب الإلهي عند الاطلاق ، وهو القرآن المجيد — هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص (التوراة) وعن كتاب عيسى باسمه الخاص (الانجيل) — ومثل هذا اطلاق لفظ النبي حتى في كتبهم — وقوله بالحق الخ معناه أنزلناه متلبسا بالحق مؤيدا به، مشتملا عليه مقررا له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقا لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والانجيل، أي ناطقا بتصديق كونها من عند الله ، وان الرسل الذين جاؤا بها لم يفتروها من عند أنفسهم ،

وأما قوله : ومهيمنا عليه — أي على جنس الكتاب الالهي — فمعناه أنه رقيب عليها وشهيد ، بما بينه من حقيقة حالها ، في أصل انزالها ، وما كان من شأن من خوطبوا بها ، من نسيان حظ عظيم منها واضاعته ، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله، والاعراض عن الحكم والعمل بها ، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها . روى ابن جرير عن ابن عباس انه قال : « ومهيمنا عليه » يعني أمينا عليه ، يحكم على ما كان قبله من الكتب . وفي رواية عنه عند الفريابي وسعيد بن منصور والبيهقي ورواة التفسير

جميع الرسل في أصل الدين وهو توحيد الله تعالى والوجهة له والاخلاص بالاحسان
والشرعة والشريعة في اللغة الطريق الى الماء أو مورد الماء من نهر ونحوه، وهذا هو المستعمل عند العرب حتى الآن. وهي من الشروع في الشيء. قال ابن جرير: وكل ماشرعت فيه من شيء فهو شريعة ومن ذلك قيل لشريعة الماء شريعة، لأنه يشرع منها الى الماء، ومنه سميت شرائع الاسلام شرائع لشروع أهله فيه، ومنه قيل للقوم اذا تساووا في الشيء: هم شرع، سواء. واما المنهاج فان اصله الطريق البين الواضح. يقال منه: هو طريق نهج ومنهج بين، كما قال الراجز:

من يك في شك فهذا فلج ماء رواء وطريق نهج اه

وقال بعضهم سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث ان من شرع فيها على الحقيقة روي وتطهر. والمراد الري المعنوي وطهارة النفس وتزكيتها. وقد جعل الله الماء سبب الحياة النباتية والحيوانية؛ وجعل الشريعة سبب الحياة الروحية الانسانية.

اخرج غير واحد من رواة التفسير المأثور عن قتادة في قوله تعالى «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» يقول سبيلا وسنة. والسنن مختلفة، للتوراة شريعة وللانجيل شريعة وللقرآن شريعة، يحل الله فيها مايشاء و يحرم مايشاء، كي يعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره التوحيد والاخلاص الذي جاءت به الرسل. وفي رواية عنه: الدين واحد والشريعة مختلفة. وروى ابن جرير من عدة طرق عن ابن عباس انه قال في تفسير «شرعة ومنهاجا» سنة وسبيلا •

وظاهر من قول قتادة ان الشريعة اخص من الدين ان لم تكن مباينة، وأنها الاحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل و ينسخ لاحقها سابقها، وأن الدين هو الاصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الانبياء. وهذا يوافق او يقارب عرف الامم حتى اليوم، لا يطلقون اسم الشريعة الا على الاحكام العملية، بل يخصونها بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه الى الحكام، دون مايدان الله تعالى به من احكام الحلال والحرام ولا تجد هذا الحرف في القرآن الا في هذه الآية ـ وفي قوله تعالى من سورة الشورى (٤٢ : ١٣ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي اوحينا اليك،

وقال رسول الله (ص) « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وانكم اما ان تكذبوا بحق أو تصدّقوا بباطل والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له الا اتباعي » وورد في هذا المعنى أحاديث أخرى ضعيفة . والمراد من النهي عن سؤالهم النهي عن سؤال الاهتداء ، وتلقي مايروونه بالقبول، لاجل العلم بالشرائع الماضية وأخبار الانبياء ، لزيادة العلم أو لتفصيل بعض ما أجمله القرآن . وسببه ماهو ظاهر من السياق، وهو أنهم نسيانهم بعض ما أنزل اليهم وتحريفهم لبعضه بطلت الثقة برواياتهم ، فالمصدق لها عرضة لتصديق الباطل ، والمكذب لها عرضة لتكذيب الحق ، اذ لا يتيسر لنا ان نميز فيما عندهم بين المحفوظ السالم من التحريف وغيره ، فالاحتياط أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . الا اذا رووا شيئا يصدقه القرآن أو يكذبه ، فانا نصدق ماصدقه ، ونكذب ما كذبه ، لانه مهيمن على تلك الكتب وشهيد عليها ، وشهادته حق، لانه نزل بالحق، وحفظه الله من التحريف والتبديل، بتوفيق المسلمين لحفظه في الصدور والسطور، من زمن النبي (ص) الى اليوم، وسيحفظه كذلك الى آخر الزمان (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ولا يعارض هذا قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر) لان ذلك ورد في السؤال عن أمر متواتر قطعي وهو أن الرسل كانوا رجالا يوحى اليهم .

﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ أي اذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله-وهو أنه قائم بأمر الدين بعدها، ورقيب وشهيد عليها، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله اليك من الاحكام والحدود ، دون ما أنزله اليهم ، لأن شرعك ناسخ لشرائعهم ﴿ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ أي ولا تتبع مايهوون-وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخف احتماله-مائلا بذلك عما جاءك من الحق الذي لا مرية فيه ولا ريب ، واو الى ماصح من شريعتهم بما نقصه عليك منها ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ فهذه الجملة استئناف بياني لتعليل الامر والنهي قبلها . أي لكل رسول أو كل أمة منكم أيها الناس جعلنا شريعة أوجبنا عليهم اقامة أحكامها ، وطريقا للهداية فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم واصلاحها ، لان الشرائع العملية ، وطرق التزكية الادبية ، تختلف باختلاف أحوال الاجتماع واستعداد البشر . وانما اتفق

كانت الآية عامة في الدين والشريعة لكان معناها ان ما شرعه الله لنا هو عين ما شرعه لنوح والنبيين من بعده ، ولم يكن معناها انا مخاطبون بالاحكام العملية التي شرعها الله لقوم نوح ومن بعده . وكون ما شرعه لنا هو عين ما شرعه لهم مناقض لقوله « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » وكيف يتصور عاقل ان يكون المراد من الآية ان كل ماشرعه الله لقوم نوح هو شرع لنا اذا لم يرد في شريعتنا ما ينسخه؟ وهو خبر لا فائدة فيه ، اذ لا علم لنا بما شرعه تعالى لقوم نوح ، وكلام الله منزه عن العبث ؟

وأما قوله تعالى في سورة الانعام (فبهداهم اقتده) فقد جاء بعد ذكر هدايته تعالى لطائفة من الانبياء والمرسلين، فلا يمكن ان يراد به العمل بشرائعهم العملية، لعدم إعلامه تعالى بها ، وعدم الثقة باعلام غيره ـ ان وجد ـ ولاختلافها ونسخ بعضها بعضاً. قال بعض المحققين: ولا يجوز أيضا ان يراد بذلك الاقتداء بهم في العقائد وأصول الدين ، لأن الاقتداء تقليد ، والعقائد لاتصح الا بالعلم اليقيني بالبرهان العقلي أو السمعي ، وقد أبطل الله التقليد في كتابه فلا يقبله من آحاد الناس، فكيف يأمر به خاتم المرسلين ، الذي هو في مقام عين اليقين ؟ ولأنه صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية كان عالما بالعقائد داعيا اليها ، ولا معنى لان يكون أمره بالاقتداء أمرا بالثبات عليها . والصواب ان المراد بالاقتداء هنا موافقة سنتهم وسيرتهم في دعوة أقوامهم الى الدين والصبر على أذاهم، ونحو ذلك من خلائقهم الحسنة التي بينها الله تعالى في سيرتهم كما قال (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)وقال تعالى(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) أي ولا تستعجل لقومك العذاب كما استعجل بعضهم . ولودلت هذه الآية على ان شرع من قبلنا شرع لنا لدل عليها قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أيضا . ولكنا مأمورين بأن نتبع من دون النبيين ، من الصديقين والشهداء والصالحين ، في جميع أحكام شرائعهم ، وجزئيات أعمالهم . كلا ان المراد بالهداية في هذا الباب هداية القلوب بما وفقها الله له من الاخلاص ونور البصيرة ، وحب الحق والخير وتحريهما في العلم والعمل ، والوقوف عند حدود الله تعالى . فهم بهذا كانوا مهتدين ، وهذا هداهم

وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ـ ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقوله منها (٤٢ : ٢١ ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) ـ وفي قوله من سورة الجاثية (٤٥ : ١٧ ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون) فاما شرع الدين فهو وضعه وانزاله من عند الله تعالى وليس لغيره ان يشرع . فآيتا الشورى تدلان على أن وضع الله تعالى للدين ومخاطبة الناس به يسمى شرعا بالمعنى المصدري ، وليس مما نحن فيه . وأما آية الجاثية فقد روى ابن جرير عن قتادة انه قال فيها : الشريعة الفرائض والحدود والامر والنهي . وهو نص فيما ذكرنا من قصر الشريعة على الاحكام العملية دون العقائد والحكم والعبر التي يشتملها الدين . والمشهور في عرف فقهائنا وعامتنا ان الدين والشرع او الشريعة بمعني واحد . ولكن مع ذلك ترى استعمال : علم الشرع ، وعلماء الشريعة ـ وكتب الشريعة ، ـ ألصق بالفقه وكتبه وعلمائه منها بعلم العقائد والاخلاق وعلمائها وكتبها . وتجد الفقهاء يقولون : يجوز هذا ديانة لا قضاء . ونحو ذلك . وتحرير القول ان الشريعة اسم للاحكام العملية وانها أخص من كلمة (الدين) وانما تدخل في مسمى الدين من حيث ان العامل بها يدين الله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه اليه مبتغيا مرضاته وثوابه .

والآية نص في ان شرع من قبلنا ليس شرعا لنا مطلقا ، سواء كانت اللام في قوله « لكل جعلنا » للاختصاص الحصري ام لا ، خلافا لمن قال به محتجين بقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك) الآية . وقوله (اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الآية ، وما في معناها . فاما الآية الاولى فقد بين ماشرعه تعالى فيها من التوصية وهو قوله تعالى (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فهذه وصية الله الى الامم على ألسنة جميع الرسل ، فهي لاتدل على اتحاد شرائعهم بل على حظر الاختلاف في الدين ، لان الدين نزل لازالة الخلاف الضار واصلاح الامة ، فالاختلاف فيه يجعل الاصلاح افسادا ، والدواء داء . ولذلك قال تعالى (وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) وقال (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) ولو

كموافقته لبعض القوانين الوضعية ، في كونها لا يصح أن تكون سببا لشرعها لنا ، كما لا يصح ان تكون مانعا - فانما كنا مخاطبين بهذه الاحكام بنزولها علينا ، لا بكونها شرعت لمن قبلنا ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب مخالفة اليهود - بعد نزول الكثير من الاحكام الشرعية عليه في المدينة - حتى في عمل البر الداخل في عموم شريعتنا وشريعتهم كصيام يوم عاشوراء اذ كان يصومه فلما قيل له في المدينة: ان أهل الكتاب يعظمونه - أو اليهود يصومونه - . قال «لئن بقيت الى قابل لأصومن التاسع» رواه مسلم وانما روي انه كان يحب موافقتهم اجتهادا قبل نزول الاحكام التفصيلية في مكة . وما قال من قال: ان شرع من قبلنا شرع لنا. الا لعدم التفرقة بين أصل الدين والملة وبين الشريعة ، لأن الجمهور يستعملون هذه الالفاظ استعمال المترادفات ، والتحقيق الفرق - كما قال قتادة - وعرفت تفصيله

يدل على ذلك ما ورد في (ملة ابراهيم) فان الله سمى الاسلام ملة ابراهيم وأمر النبي (ص) باتباع ملة ابراهيم، وامتن على العرب بأنه أمرهم بملة أبيهم ابراهيم، قال تعالى (٣ : ٩٥ قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقال (٤: ١٢٤ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا) وقال (٦ : ١٦١ قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم (١٦٢) دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان المشركين (١٦٣) قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٤) لاشريك له وبذلك أمرت وانا أول المسلمين) فهذا هو الاسلام وهو بيان لملة ابراهيم . يؤيد ذلك قوله (١٦ : ١٢٠ ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ١٢١ شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم (١٢٢) وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين (١٢٣) ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) فهذه هي ملة ابراهيم الحنيفية السمحة التي كان عليها سائر الانبياء من ذريته - ومن قبله أيضا - يؤيده قوله تعالى (٢: ١٣٠ ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين (١٣١) اذ قال له ربه أسلم

وصراطهم ، لا احكام الشرائع التي خوطب بها من عمل بها ومن لم يعمل ·

لعمري ان الحق في هذه المسألة واضح كالصبح بل هو أوضح . ولكن أكثر المصنفين المقلدين جروا على سنة سيئة . وهي ان يأخذوا أقوال العلماء الذين ينتسبون اليهم قضايا مسلمة ، ويلتمسون الدلائل لاثباتها وإبطال ماخالفها دليلا ومدلولا ولو بالتمحل والتأول والاحتمال ، فالادلة عندهم تابعة لامتبوعة ، فما وافق الاصل المسلم عندهم ولو بادي الرأي قبلوه ، وما خالفه أبطلوه اعرضوا عنه وتركوه ، أو حرفوه وتأولوه. والا فمن المعلوم من الدين بالضرورة ان الله قد أكمل الدين بديننا ، وختم النبيين بنبينا ، وأرسله للناس كافة ، وكان كل نبي يبعث الى قومه خاصة ، وأن جميع الشرائع قبله كانت موقتة ، وشريعته هي الشريعة الدائمة ، وحكمة ذلك معروفة بين العلماء، لم تكن محل خلاف بين المذاهب ولا بين الافراد ، وهي ان هذه الشريعة الكاملة السمحة صالحة لكل زمان وكل مكان ، وحكمة نسخ الشرائع الماضية عدم صلاحيتها لغير أهلها ، وعدم صلاحيتها للدوام في أهلها ، ويؤيد هذا جملة ما في الايدي من التوراة والانجيل ، فكل من اطلع عليهما يعلم علم اليقين انه لاطاقة للبشر في هذا العصر باقامتهما · فشدة أحكام التوراة في العبادات وأحكام المعاملات المدنية والقتال لا يمكن ان تعمل به أمة . ولشدة أحكام الانجيل في الزهد وترك الدنيا، والخضوع لكل حاكم وكل معتد ، لا يمكن ان تكون عليه أمة - فاذا كان الامر كذلك فهل يعقل أن تكون تلك الشرائع الخاصة الموقوتة - التي نسختها شريعتنا لإكمال الدين بما يناسب ارتقاء البشر - شريعة دائمة لنا يجب علينا العمل بها ، وان يعد هذا أصلا من أصولنا ؟؟ يا ضيعة الوقت الذي نصرفه في رد هذا القول ، بل ياضيعة الحبر والورق الذي يصرف في سبيله ، لولا انه صار ضروريا بتلك الشبهات التي فتن بها كثير من الاذكياء كالسعد التفتازاني وأضرابه

وجملة القول ان دين الله تعالى على ألسنة أنبيائه واحد في أصوله ومقاصده ، وهي توحيد الله وتنزيهه واثبات صفات الكمال له ، والاخلاص له في الاعمال ، والايمان باليوم الآخر، والاستعداد له بالعمل الصالح . وأما الشرائع فهي مختلفة . وشرع من قبلنا ليس شرعا لنا ، وموافقته لبعض الشرائع في بعض الاحكام

وفي طور تمييزه وغلبة الوجدانات النفسية عليه ما يصلح له — حتى اذا ما بلغ النوع سن الرشد ومستوى استقلال العقل ، بظهور ذلك في بعض الاقوام بالقوة وفي بعضها بالفعل، ختم له الشرائع والمناهج بالشريعة المحمدية المبنية على أصل الاجتهاد، وجعل امره في القضاء والسياسة والاجتماع ، شورى بين اولي الامر ، من اهل المكانة والعلم والرأي — « ليبلوكم » اي ليعاملكم بذلك معاملة المختبر لاستعدادكم « فيما آتاكم » أي اعطاكم من الشرائع والمناهج ، فتظهر حكمته في تمييزكم على غيركم ، من انواع الخلق في ارضكم ، وهو كونكم جامعين بين الحيوانية والملكية .

يظهر مثال ما حققناه في الشرائع والمناهج الاخيرة — اليهودية والنصرانية والاسلامية — فاليهودية شريعة مبنية على الشدة في تربية قوم ألفوا العبودية والذل، وفقدوا الاستقلال في الارادة والرأي ، فهي مادية جسدية شديدة ليس لاهلها فيها رأي ولا اجتهاد ، فالقائم بتنفيذها كالمربي للطفل العارم الشكس . والمسيحية يهودية من جهة وروحانية شديدة من جهة أخرى ، فهي تأمر اهلها بأن يسلموا أمورهم الجسدية والاجتماعية للمتغلبين من اهل السلطة والحكم، مهما كانوا عليه من الفساد والظلم ، وان يقبلوا كل ما يسامون به من الخسف والذل ، ويجعلوا عنايتهم كلها بالامور الروحية ، وتربية العواطف والوجدانات النفسية ، فهي تربية للنوع في طور التمييز عند ما كان كالغلام اليافع الذي تؤثر في نفسه الخطابيات والشعريات . واما الاسلامية فهي القائمة على اساس العقل والاستقلال ، المحققة لمعنى الانسانية بالجمع بين مصالح الروح والجسد ، وبهذا يصدق عليها قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) فهي مبنية على اساس الاستقلال البشري اللائق بسن الرشد ، وطور ارتقاء العقل ، ولذلك كانت الاحكام الدنيوية في كتابها قليلة ، وفرض فيها الاجتهاد ، لان الراشد يفوض اليه امر نفسه فلا يقيد الا بما يمكن ان يعقله من الاصول القطعية ، ومن مقومات أمته الملية ، التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان . ومن احب زيادة التفصيل في هذا البحث فليرجع الى تفسير قوله (٢ : ٢١٢ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين — الآية (ص ٢٧٦ ج ٢

قال أسلمت لرب العالمين (١٣٢) ووصى بها ابراهيم بنيه و يعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون (١٣٣) ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون) يؤيد هذا قوله تعالى حكاية عن يوسف (١٢: ٣٧ اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون (٣٨) واتبعت ملة آبائي ابراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون) فهذه الآيات يصدق بعضها بعضا و يؤيده ، وكلها برهان على ماحققناه . واما قوله تعالى في آخر سورة الحج (٢٢ : ٧٨ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا . ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير) فالظاهر ان قوله فيه « ملة ابراهيم » منصوب على الاختصاص ؛ اي الزموا ملة ابراهيم ، وهي التوحيد الخالص والاخلاص لله الذي هو معنى الاسلام . وعلم منه ان لفظ الملة يراد به اصل الدين وجوهره دون ما يتبع ذلك من الشرائع وتفاصيل الاحكام . ومنه قول العلماء : الكفر ملة واحدة . مع الجزم بأن شرائع الكفار مختلفة ومتعددة

قال تعالى ﴿ ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ﴾ اي ولو شاء تعالى ان يجعلكم ايها الناس أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد في سلوكها والعمل بها لفعل ، بأن خلقكم على استعداد واحد ، وألزمكم حالة واحدة في اخلاقكم واطوار معيشتكم ، بحيث تصلح لها شريعة واحدة في كل زمن . وحينئذ تكونون كسائر انواع الخلق التي يقف استعدادها عند حد معين كالطير او النمل او النحل .

﴿ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ اي ولكن لم يشأ ذلك بل جعلكم نوعا ممتازا يرتقي في اطوار الحياة بالتدريج وعلى سنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة في كل طور من اطوار حياته ، في جميع اقوامه وجماعاته ، وآتاكم من الشرائع والمناهج في الفهم والهداية في طور طفولية النوع وغلبة المادية عليه ما يصلح له ـ

وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس « من اليهود » : اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه . فأتوه فقالوا : يا محمد انك عرفت أنا احبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وانا ان اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وان بيننا و بين قومنا خصومة فنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك . فأبى ذلك : وانزل الله عز وجل فيهم « وان احكم بينهم بما انزل الله — الى قوله — لقوم يوقنون » اه يعني ان الحكمة في انزال هذه الآية اقرار النبي « ص » على ما فعل من عدم الحكم لهم وأمره بالثبات والدوام على ما جرى عليه من التزام حكم الله وعدم الانخداع لليهود ، وتسجيل هذه العبرة في كتاب الله . وروى ابن جرير عن ابن زيد أن فتنتهم ان يقولوا : فى التوراة كذا وكذا ، فيصدقوا . والاول اظهر

﴿ فان تولوا فاعلم أنما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ اي فان تولوا عن حكمك بعد تحاكمهم اليك فاعلم ان حكمة ذلك هي ان الله تعالى يريد ان يعذبهم ببعض ذنوبهم في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فاضطرابهم في دينهم واستثقالهم لاحكام التوراة ، وتحاكمهم اليك رجاء ان تتبع اهواءهم ، واعراضهم عن حكمك بالحق ، ومحاولتهم لمخادعتك وفتنتك عن بعض ما انزل الله اليك — كل هذه مقدمات من فساد الاخلاق وروابط الاجتماع لا بد ان تنتج وقوع عذاب بهم . قيل ان المراد بالعذاب هنا ما حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم، وانما يصح هذا اذا كان نزول الآية قبل ذلك ، وعلى هذا يكون نزول هذا السياق كله قبل نزول أوائل السورة في حجة الوداع . فان ثبت انه لم يصبهم عذاب في عصر النبي «ص» بعد نزولها فلا يبعد ان يكون المراد بالعذاب اجلاء عمر من أجلاهم منهم في خلافته . وقيل المراد عذاب الآخرة وانما ذكر بعض الذنوب لبيان ان بعضها يوبقهم ويهلكهم، فكيف يكون العقاب على جميعها ؟ وهو كما ترى . ثم قال

﴿ وان كثيرا من الناس لفاسقون ﴾ اي لا يرعك ايها الرسول ما تراه من فسوقهم من دينهم ، وعدم اهتدائهم الى دينك، فان كثيرا من الناس قد صار الفسوق والعصيان والتمرد من صفاتهم الثابتة التي لا تنفك عنهم .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ قرأ الجمهور يبغون بفعل الغيبة لأنه حكاية عن

تفسير) وتفسير « ولولا ان يكون الناس امة واحدة » في ص ٨٢٧ م ١٥ من المنار ، والى فصل (الدين الاسلامي او الاسلام) من رسالة التوحيد لشيخنا الاستاذ الامام .

ومن فقه ما حققناه علم ان حجة الله تعالى باكمال الله الدين بالقرآن وختمه النبوة بمحمد (ص) وجعل شريعته عامة دائمة ـ لا تظهر الا ببناء هذا الدين على اساس العقل ، و بناء هذه الشريعة على اساس الاجتهاد وطاعة اولي الامر ، الذين هم جماعة أهل الحل والعقد . فمن منع الاجتهاد فقد منع حجة الله تعالى وابطل مزية هذه الشريعة على غيرها ، وجعلها غير صالحة لكل الناس في كل زمان، فما اشد جناية هؤلاء الجهال على الاسلام ، على انهم يسمون انفسهم علماء الاسلام .

﴿ فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ اي فاذا كان الامر كذلك فالواجب عليكم جميعا ان تبتدروا الخيرات وتسارعوا اليها، لانها هي المقصودة بالذات من جميع الشرائع ومناهج الدين ، فما بالكم أيها الناس تنظرون من الدين والشرع الى ما به الخلاف والتفرق، دون حكمة الخلاف ومقصد الدين والشرع ، أليس هذا هو ترك الهدى ، واتباع سبل الهوى ؟ فاستباق الخيرات هو الذي ينفع في الدنيا والآخرة ، والى الله ـ دون غيره ـ ترجعون جميعا في الحياة الثانية ، فينبئكم عند الحساب بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه ، ويجزي المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته . فعليكم أن تجعلوا الشرائع سببا للتنافس في الخيرات ، لا سببا للعداوة بتنافس العصبيات .

﴿ وأن احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك ﴾ أي انزلنا اليك الكتاب فيه حكم الله، وانزلنا اليك فيه أن احكم بينهم بما انزل الله اليك فيه ، ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لبعضهم وقبول كلامه ولو لمصلحة في ذلك وراء الحكم، كتأليف قلوبهم وجذبهم الى الاسلام، فان الحق لا يتوسل اليه بالباطل . واحذرهم ان يفتنوك اي يستنزلوك باختبارهم اياك وينزلوك عن بعض ما انزل الله اليك لتحكم بغيره . اخرج ابن اسحق وابن جرير وابن ابي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال كعب بن اسد

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ حديث صحيفة علي كرم الله وجهه ﴾

(س ١٢) من صاحب الامضاء بمصر

سيدي الاستاذ الفاضل والعلامة الكبير صاحب المنار الأغر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فأرجوكم شرح حديث عليٍّ الذي نقلتموه في (ص٤٨٣م١٦) من المنار وقوله فيه (وما في هذه الصحيفة ـ العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر) فما الذي تعرفه عن هذه الصحيفة ؟ وأين هي ولماذا أهملها المسلمون ؟ وهل ما فيها متفق عليه في جميع المذاهب؟ وإن لم يكن متفقا عليه فلمَ ذلك ؟ ولماذا امر صلى الله عليه وسلم بكتابتها مع أنه نهى عن كتابة شيء عنه غير القرآنَ ؟ ومتى أمر بكتابتها ومن كتبها وأين ؟ وكيف لا يقتل المسلم بالكافر . فالرجاء الإجابة الشافية عن كل هذه الاسئلة كعادتكم حتى لا نحتاج لمزيد بيان بعد ذلك

(المخلص محمد توفيق صدقي)

(ج) الحديث رواه الجماعة أحمد والشيخان وأصحاب السنن بألفاظ متقاربة. أما البخاري فقد روى الحديث عن أبي جحيفة في كتاب العلم بلفظ قلت لعلي : هل عندكم كتاب؟ قال : لا الا كتاب الله ، أو فهم اعطيه رجل مسلم ، أو مافي هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الاسير ولا يقتل مسلم بكافر . ورواية الكشميهني «وان لا يقتل » الخ

وفي باب فكاك الاسير من كتاب الجهاد بلفظ : قلت لعلي هل عندكم شيء من الوحي الا ما في كتاب الله ؟ قال : لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما أعلمه ، الا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ، وما في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال العقل وفكاك الاسير وان لا يقتل مسلم بكافر .

وفي باب الديات بلفظ : سألت عليا رضي الله عنه : هل عندكم شيء مما ليس في

اليهود ، وقرأه ابن عامر « تبغون » على الالتفات لمخاطبتهم، والاستفهام للانكار والتعجيب المتضمن للتوبيخ ، اي ايتولون عن حكمك بالحق فيبغون حكم الجاهلية المبني على الهوى وترجيح القويّ على الضعيف ؟ روي ان هذا نزل في خصومة ما كان بين بني النضير و بني قريظة من جعل دية القريظي ضعفي دية النضيري لمكان القوة والضعف . ﴿ ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ اي لا أحد احسن حكما من حكم الله تعالى لقوم يوقنون بدينه ، ويذعنون لشرعه ، لان هذا الحكم يجمع الحسنيين ـ منتهى العدل والتزام الحق من الحاكم، ومنتهي القبول والاذعان من المحكوم له والمحكوم عليه . وهذا مما تفضل به الشريعة الالهية القوانين البشرية وقيل ان اللام هنا بمعنى عند او للبيان . اي ان حكمه تعالى احسن الاحكام عند الموقنين وفي نظرهم ، وان جهل ذلك غيرهم . ومضمون الآية ان ما ينبغي التعجب منه من منكراتهم انهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ، ويؤثرونه على حكم الله العادل ، والحال ان حكمه تعالى احسن الاحكام، لاهل الايمان والاسلام . لأن حكمه هو العدل، الذي يستقيم به أمر الخلق ، وأما حكم الجاهلية فهو تفضيل القوي على الضعيف ، الذي يمكن الظالمين الاقوياء ، من استذلال أو استئصال الضعفاء ، وهو شر الاحكام ، المخرب للعمران المفسد للنظام .

ومن العبرة في الآيات أنه يوجد بين المسلمين الجغرافيين (١) في هذا العصر ، من هم أشد فسادا في دينهم وأخلاقهم من أولئك الذين نزلت فيهم هذه الآيات ، ومن ذلك أنهم يرغبون عن حكم الله الى حكم غيره ، ويرون أن استقلال البشر بوضع الشرائع خير من شرع الله تعالى ، على أنهم لا يعرفون أصول شرع الله ولا قواعده ، بل يظنون انه محصور في هذه الكتب الفقهية ـ التي أكثر ما فيها من آراء أفراد من المجتهدين والمقلدين فهم ينتقدون كثيرا منها بعدم موافقتها لمصالح الناس تارة ولأهوائهم تارة أخرى . يحتجون بضرب من الجهل على ضرب آخر ـ

(١) المسلمون الجغرافيون الذين يعدون مسلمين في احصاء الجغرافية كما قلنا مرارا

وما في هذه الصحيفة ، فنشرها فاذا فيها اسنان الابل ، واذا فيها المدينة حرم من من عير الى كذا ، فمن احدث فيها حدثا فعليه لعنة الله ـ ... واذا فيه: ذمة المسلمين واحدة يسعى بها ادناهم فمن اخفر مسلما فعليه .... واذا فيها : من والى قوما بغير اذن مواليه فعليه ..... (الا انه قال) : لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

وروايات مسلم واصحاب السنن بمعنى روايات البخاري، وصرح مسلم بحدي المدينة وهما عير وثور (جبلان) قال الحافظ في فتح الباري في الكلام على حديث علي من طريق ابراهيم التيمي عن ابيه :

« وسبب قول علي هذا يظهر مما اخرجه احمد من طريق قتادة عن ابي حسان الاعرج أن عليا كان يأمر بالامر فيقال له « فعلناه » فيقول : صدق الله ورسوله . فقال له الاشتر : إن هذا الذي تقول اهو شيء عهده اليك رسول الله (ص) ؟ فقال ما عهد الي شيئا خاصة دون الناس الا شيئا سمعته منه فهو في صحيفة في قراب سيفي . فلم يزالوا به حتى اخرج الصحيفة فاذا فيها ـ فذكر الحديث ـ وزاد فيه « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم . ألا لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده (وقال فيه) ان ابراهيم حرم مكة واني أحرم المدينة ما بين حرتيها وحماها كله ، لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها ، ولا يقطع منها شجرة ، الا ان يعلف رجل بعيره ، ولا يحمل فيها السلاح لقتال » والباقي نحوه . وذكر في موضع آخر ان سبب سؤال علي زعم بعضهم ان النبي خصه بشيء دون الناس .

وقال في الكلام على حديثه في باب إثم من تبرأ من غير مواليه : وكان فيها ايضا ما مضى في الخمس من حديث محمد بن الحنفية ان اباه علي بن ابي طالب ارسله الى عثمان بصحيفة فيها فرائض الصدقة ، فان رواية طارق بن شهاب عن علي في نحو حديث الباب عند احمد انه كان في صحيفته فرائض الصدقة .

وقال الحافظ : ان الصحيفة كانت مشتملة على كل ما ورد . أي فكان يذكر كل راو منها شيئا ، إما لاقتضاء الحال ذكره دون غيره ، وإما لان بعضهم لم يحفظ كل مافيها او لم يسمعه . ولا شك انهم نقلوا ما نقلوه بالمعنى دون التزام اللفظ كله ، ولذلك وقع الخلاف في ألفاظهم . ولم ينقل الرواة أنه قرأها عليهم برمتها فحفظوها او كتبوها عنه ، بل تدل ألفاظهم على انه كان يذكر ما فيها او بعضه من حفظه ، ومن قرأها لهم كلها أو

القرآن ؟ — وقال ابن عيينة مرة : مما ليس عند الناس — فقال : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما عندنا الا ما في القرآن، الا فهما يعطى رجل في كتابه وما في هذه الصحيفة . قلت وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الاسير الخ

ورواه في باب حرم المدينة من كتاب الحج عن ابراهيم التيمي عن ابيه بلفظ : عن علي (رض) قال : ما عندنا شيء الا كتاب الله ، وهذه الصحيفة عن النبي (ص) « المدينة حرم ما بين عائر الى كذا من احدث فيها حدثا ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل (وقال) ذمة المسلمين واحدة ، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن تولى بغير اذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل منه صرف ولا عدل »

وفي باب ذمة المسلمين من كتاب الجزية بلفظ « خطبنا علي فقال: ما عندنا كتاب نقرأه الا كتاب الله وما في هذه الصحيفة . قالوا وما في هذه الصحيفة ؟ فقال فيها الجراحات واسنان الابل ، والمدينة حرام ما بين عير الى كذا ، فمن احدث فيها حدثا أوآوى فيها محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لايقبل منه صرف ولا عدل . ومن تولى غير مواليه فعليه مثل ذلك وذمة المسلمين واحدة ، فمن اخفر مسلما فعليه مثل ذلك .

وفي باب إثم من عاهد ثم غدر بلفظ : عن علي قال : ما كتبنا عن النبي (ص) الا القرآن وما في هذه الصحيفة . قال النبي (ص) « المدينة حرام ما بين عائر الى كذا ، فمن احدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه عدل ولا صرف . وذمة المسلمين واحدة يسعى بها ادناهم ، فمن اخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن والى قوما بغير اذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل »

وفي باب إثم من تبرأ من مواليه بلفظ : ما عندنا كتاب نقرؤه الا كتاب الله غير هذه الصحيفة (قال) فأخرجها فاذا فيها اشياء من الجراحات واسنان الابل (قال) وفيها المدينة حرام الخ (وذكر مسألة الولاء فمسألة الذمة بمثل ماتقدم)

وفي باب كراهة التعمق والتنازع والغلو في الدين من كتاب الاعتصام بلفظ : خطبنا عليّ على منبر من آجرّ فقال « والله ما عندنا من كتاب يقرأ الا كتاب الله

بعض الناس، فيمتنع التنافي بينهما حينئذ . وقد سبق للمنار البحث في ذلك كما يعلم السائل

واما الاخذ بالاحكام المروية عن تلك الصحيفة : هل هو متفق عليه أم لا ؟ فجوابه أن العلماء لم يتفقوا على العمل بها ، فنهم من لم يحرم المدنية كمكة ، ومنهم من يقول: يقتل المؤمن بالكافر كالحنفية . ومن خالف من العلماء شيئا مما في الصحيفة فله من الدليل المعارض له ما يراه مرجحا عليه ، كاحتجاجهم باقرار النبي (ص) لمن صاد النغر (طائر احمر المنقار كالعصفور) على جواز صيد المدنية ، على ان تلك واقعة حال مجهول تاريخها ، وكاحتجاجهم على قتل المؤمن بالكافر بان النبي (ص) قتل مسلما بمعاهد وقال « انا اكرم من وفى بذمته » رواه البيهقي من حديث عبد الرحمن البيلماني مرسلا وهو ضعيف . وبقوله في بعض روايات حديث الصحيفة وفي احاديث أخرى « لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده » قالوا معناه المناسب لعطفه على منع قتل المؤمن بالكافر ـ : ولا يقتل معاهد حال كونه في عهده لم ينقضه بكافر . وحينئذ يكون المراد بالكافر الحربي ، اي من كان محاربا للمسلمين بالفعل او بالقوة بان لم يكن بينه وبينهم عهد ولا ذمة . لان المعاهد والذمي لا يقتل بالحربي اجماعا ، وبعموم ادلة القصاص، وليس هذا محل تحرير هذا البحث، وانك تجد تحرير الادلة فيه من غير تعصب في (فتح البـاري) و (نيل الاوطار)

فمن صح عنده قتل المسلم بالكافر فله ان يعده من عجائب مبالغة الاسلام فى العدل والمساواة ، ومن صح عنده خلافه فلا يراه بدعا في اعمال الامم الفاتحة ، والزمن زمن الاحكام العرفية او العسكرية ، بل ترى الافرنج لا يقبلون ان يكونوا مساوين لأمم الشرق والجنوب في الدماء لا في البلاد التي يفتحونها فتحا حربيا ولا سلميا ولا في البلاد التي يكونون فيها نزلاء معاهدين كالضيوف . اما احكامهم العرفية فحسبك نموذجا منها ماجرى في (دنشواي) من هذه البلاد من تمزيق جلود بعض المصريين بالضرب المبرّح بالسياط ذات العقد ، ثم شنقهم وصلبهم على أعين الناس من رجال ونساء وأطفال من أهلهم وغير أهلهم ، لانهم تجرؤا على بعض عسكر الانكليز الذين صادوا حمامهم عن بيادرهم بالمقاومة والضرب المعتاد الذي لا يقصد به القتل ، ولا يقتل مثله . هذا وقد اشتهر الانكليز بأنهم أعدل الاوربيين وأقربهم الى الرحمة. وحجة الافرنج في تميز انفسهم على الشرقيين انهم ارقى منهم عدلا وفضيلة ، وهكذا كان المسلمون فوق جميع الامم عدلا وفضيلة بشهادة جميع مؤرخي الامم . وانما ذكرت السائل بمسألة الاحكام العرفية وبهذا الشاهد منها ، وبما يعاملنا به الافرنج

بعضها لم يكتبوها بل حدثوا بما حفظوا ومنه ما هو من لفظ الرسول (ص) ومنه ما هو اجمال للمعنى كقوله « العقل وفكاك الاسير » فان المراد بالعقل دية القتل وسميت عقلا لأن الاصل فيها ان تكون إبلا تعقل اي تربط بالعُقُل في فناء دار المقتول أو عصبته المستحقين لها . وقوله « اسنان الابل » في بعض الروايات معناه ما يشترط في اسنان إبل الدية او الصدقة . وفكاك الاسير ما يفك به من الاسر من فداء او مال. ففي الصحيفة بيان ذلك ، لا لفظ « العقل، وفكاك الاسير ، واسنان الابل» . وجملة القول اننا لا نعلم ان احدا كتب عن أمير المؤمنين ما كان في تلك الصحيفة بنصه ، ولا انه هو كتبها بأمر النبي (ص) لانه قال في رواية قتادة عن أبي حسان انه سمع شيئا فكتبه

واما كتابة الصحيفة مع ما ورد من النهي عن كتابة شيء عن النبي (ص) غير القرآن، فيقال فيه ان النهي عن الكتابة معارض بالامر بها كحديث « اكتبوا لابي شاه » وغيره ، والكتابة لاهل اليمن ، وكتاب الصدقات الذي كتبه ابو بكر (رض) الى انس لما وجهه الى البحرين أي عاملا على الصدقة . فانه قال فيه « ان هذه فريضة - وفي رواية فرائض - الصدقة التي فرض رسول الله (ص) على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله » الخ رواه الشافعي واحمد والبخاري وابو داود والنسائي وغيرهم وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب (رض) قال : كتب رسول الله (ص) كتاب الصدقة فلم يخرجه الى عماله حتى قبض فقرنه بسيفه . فعمل به ابو بكر حتى قبض ثم عمل به عمر حتى قبض» الخ هذا لفظ ابي داود ثم بينه بنحو حديث أنس مختصرا ولم يذكر الزهري البقر . وفي رواية عن يونس بن يزيد عن الزهري قال هذه نسخة كتاب رسول الله (ص) الذي كتبه في الصدقة وهو عند آل عمر بن الخطاب . قال ابن شهاب اقرأنيها سالم بن عبد الله ابن عمر فوعيتها على وجهها » ثم ذكر ان عمر بن عبد العزيز انتسخها . وقد تفرد بوصل هذا الحديث سفيان بن حسين وهو من رجال مسلم الا انه ضعيف فيما يرويه عن الزهري خاصة ، وتابعه سليمان بن كثير من رجال الصحيحين . وفي رواية ابي داود لحديث انس ان الكتاب كان عليه ختم رسول الله (ص) وغير ذلك مما ورد في الكتابة .

فمن الناس من يجعل الاذن ناسخا ومنهم من يجعل احد النصين مطلقا والآخر مقيدا كتقييد كون الكتابة عنه لتبليغ نصها والتعبد بلفظها عنه كالقرآن ، لئلا يشتبه

حركة عنيفة ، كما يسهل جدا دخول مكروبات الامراض ، فتحدث التهابات موضعية وغيرها قد تذهب بحياة المرأة أو تورثها العقم الدائم مع الآلام الشديدة ، ولا سيما عند مجيء الحيض في كل شهر . والرجل لا يخلو أيضا من الضرر ، فقد يدخل بعض السائل من الحيض في مجرى البول من القضيب فيحدث التهابا يشبه السيلان

وهـذا كله ينطبق على قوله عز وجل (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)

فاين هذا من نهي الحائض عن الصلاة وهي عماد الدين ؟ ومثلهـا في طهارة الارواح كمثل الماء في طهارة الاجسام ، على ان حركاتها من قيام وركوع وسجود لا تضر الحائض غالبا ، وان خيف منها الضرر فيمكن أن تؤتى بشكل خال من كل مضرة . وليكن أخذ ذلك من قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فان خفتم فرجالا أو ركبانا . فاذا امنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون)

الحيض لا يمكن اعتباره الا مرضا شهريا من اخف الامراض فلم تؤمر المرأة بالصلاة في أشد الامراض وأكثرها اذى لها ولغيرها وتنهى عنها في الحيض الذي لا ينهى عن القيام باكثر أعمالها اليومية ؟ فارأيكم دام فضلكم

المستفيد من علمكم والمستضيء بمناركم
الدكتور عبده ابراهيم

(ج) نقل الحفاظ إجماع المسلمين على ان الحائض لا يشرع لهـا الصلاة ولا الصيام ، وانها تقضي الصيام دون الصلاة . الا انهم نقلوا ان سمرة بن جندب من الصحابة (رض) كان يقول بمطالبة المرأة بقضاء الصلاة أيضا فأنكرت ذلك عليه ام المؤمنين ام سلمة (رض) ونقلوا أيضا مثل ذلك عن بعض الخوارج ولم يعدوا به ولا رأوه مخلا بالاجماع . وأما مخالفة سمرة فهي تخرق الاجماع ، وظاهر كلامهم انه رجع الى قول ام سلمة لأن امهات المؤمنين هن القدوة فيما يروينه من هـذه الاحكام المتعلقة بالنساء ، اذ لا يجوز ان يوجب الله على النساء قضاء الصلاة ولا يأمرهن به النبي (ص) بل لا يجوز منه السكوت عن ذلك أو إقرارهن عليه . وقد جعل العلماء حجة الاجماع على ذلك ما ورد فيه من الحديث

ويمكن ان يستنبط الدليل من القرآن على منع الحائض من الصلاة ، فانه تعالى قد اشترط الطهارة للصلاة ، والطهارة متعذرة على الحائض مع استمرار سببها وهو نزول الدم . أما الطهارة المشترطة للصلاة إجماعا فهي الوضوء من الحدث الاصغر والغسل من الحدث الاكبر ، واما المشترطة عند الاكثرين فقط فطهارة البدن

في بلادنا ، ليحاجّ به من يجادل في أمثال هذه المسائل من المخالفين أو متفرنجة المسلمين ، محجوبين بنظريات الحقوق عن سيرة العالم العملي . ومن لم يسدل على نظره هذا الحجاب يقول كما قال غوستاف لوبون الحكيم الفرنسي « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » وكذا سائر المسلمين كانوا في فتوحاتهم أعدل وأرحم من غيرهم وان كانوا دون العرب .

دليل منع الحائض من الصلاة وحكمته

(س ١٣) من صاحب الامضاء في (ههيا ـ شرقية)

سيدي الاستاذ الرشيد المرشد

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد قرأت مباحثكم الرائقة الحكيمة في موضوع الوضوء والطهارة في المنار فاعجبتني جدا ، واستفدت منها الشيء الكثير ، فجزاكم الله عني وعن الاسلام والمسلمين خير الجزاء . واني لمناسبة هذا المقام لسؤال عندي قديم ، أنهز هذه الفرصة لابديه ، عسى ان تتكرموا بالجواب على طريقتكم العصرية فأقول :

هل سقوط فريضة الصلاة عن المرأة وهي حائض أو في نفاس من الاشياء المجمع عليها بين جميع فرق المسلمين ، واذا كانت كذلك أو كانت صحيحة فلم لم تذكر في القرآن مع أنه تعالى نهى عن الجماع في الحيض فكان من باب أولى أن ينهى عن الصلاة في مثل هذه الحالة لو كان اراد سبحانه وتعالى ان يكون النهي لكل زمان ومكان ، كما ذكر مسوغات عدم الحج بقوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) ومسوغات عدم الصيام او بالاحرى ما يمنع الصيام بقوله تعالى (ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من ايام أخر)

لم تذكر موانع للصلاة مطلقا وانما ذكرت أعمال يؤتى بها قبل الشروع فيها ، فلا الخوف من الاعداء أو غيرهم في الحرب أو غيرها مسوغ لترك أو تأجيل الصلاة ، فكيف يكون دم الحيض وهو ذلك الدم الذي يتغذى منه الجنين في بطن امه مانعا من الصلاة ؟ فان صح ان يقال انه نجس ، يصح ان يقال ان جسم الطفل بل جسم كل انسان نجس ، لأن اصله من ذلك الدم

العلم الحديث لم يثبت ان في دم الحيض عناصر خبيثة في ذاتها بل اثبت ان الاتيان أثناء وجوده ضار جدا بالمرأة ، لأن أعضاءها التناسلية تكون في حالة احتقان ، والاوعية الدموية فيها تكون متمددة ، فيسهل حصول نزيف بسبب

معه الصلاة كما قلتم ، والفرق بينه و بين سائر الامراض التي تسقط معها الصلاة انه طبيعي دائم وسائر الامراض ليست كذلك ، وهي خلاف الاصل ومقتضي الطبيعة المعتدلة . واذا اسقطها الشرع عن المرأه تخفيفا عليها ، فان لها من العبادة المزكية للروح مالا يشترط فيه ما يشترط فيها وهو ذكر الله عز وجل بالقلب واللسان والتفكر في خلق السموات والأرض (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر)

حقيقة الاعجاز (*)

اما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن. وما حققناه بعد البحث. وانتهينا اليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر وإنضاج الرّوية . وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطراد اسلوبه . ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقارنة واكتناه الروح التاريخية في اوضاع الانسان وآثاره . وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يقصد اليها. والجهات التي يعمل عليها . وفي رد وجوه البلاغة الى أسرار الوضع اللغوي التي مرجعها الى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع وجمال التصوير وشدة الملاءمة . حتى يكون اصغر شيء فيه كأكبر شيء فيه ـ نقول : ان الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا أن هذا القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على اطلاقه . فهو امر لا تبلغ منه الفطرة الانسانية مبلغاً ، وليس الى ذلك مأتىً ولا جهة. وانما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع. وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغاً من ذوب تلك المواد كلها. وما نظنه الا الصورة الروحية للانسان. اذا كان الانسان في تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله ،

فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب. ومعجز في أثره الانساني، ومعجز في حقائقه. وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الانسانيه في شيء، فهي باقية ما بقيت.

---

*) فصل من الجزء الثاني من كتاب آداب لغة العرب لمصطفى صادق افندي الرافعي

والثوب والمكان . وقد صرح القرآن في آيتي الوضوء والتيمم بأن طهارة الجنب الغسل، والحائض ملحقة بالجنب لا ن حدثها كحدثه في تأثيره في الروح والجسد ، كلاهما يحدث في الجسد ضربا من الضعف والفتور يزيله تعميم البدن بالماء كما بيناه في حكمة الوضوء والغسل ، وكلاهما يضعف الروحانية . وقد ثبت في السنة والاجماع القولي والعملي المتواترين ان المراد بقوله تعالى في بيان طهارة الحيض (فاذا تطهرن) فاذا اغتسلن ، فطهارتهن الغسل بالكتاب والسنة والاجماع ، وهي متعذرة مع وجود سببها و إنما تجب بزواله ، فاذا تعذرت الطهارة تعذرت الصلاة شرعا لانها مشروطة بها . وتتعذر عليها الطهارة من الخبث كما تتعذر عليها الطهارة من الحدث ، فان الدم نجس شرعا وعرفا لأنه مستقذر جدا باتفاق الطباع السليمة من كل الامم . ولا يلزم من نجاسته نجاسة الجنين الذي يتغذى به ، كما لا يلزم ان يكون النبات الذي يتغذى بالعذرة والروث وغيرهما من الاقذار نجسا ، فالنجاسة في الشرع والعرف لاتبنى على قواعد الطب، فان جميع ادباء البشر بل جميع طبقاتهم تستقذر المطلخ بالدم ونعاف مجالسته ومواكلته ومصاحبته ، وان لم يضرهم ذلك الدم بافساد صحتهم عليهم، وخروج المني يوجب الغسل وهو طاهر عند بعض الأئمة . وصرح الفقهاء بان الدم وغيره لا يحكم بنجاسته في معدنه من البدن بل بعد خروجه. ومتى خرج دم الحيض صار قذرا ولم يعد غذاء للاجنة

وقد علم مما تقدم أن ماثبت في السنة العملية والاجماع من سقوط الصلاة عن الحائض له مأخذ ما من القرآن ، والقرآن لم يبين احكام الصلاة التفصيلية بل تركه لبيان النبي (ص) الذي خاطبه بقوله (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) اذ يشمل هذا بيان الذكر المنزل وتبليغه، و بيان المحمل منه، وما يستنبط من دقائق تعبيره وأساليبه - كاستنباط النبي (ص) تحريم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة من قوله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) بجعل الاسراف في لزوم الشيء ومتعلقاته كالاسراف فيه نفسه ، واستنباطه تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من تحريم الله الجمع بين الاختين ، لاتحاد العلة ، واطراد الحكمة .

ولم نذكر في سياق هذا الاستدلال ما عليه السواد الاعظم من المسلمين من تحريم قراءة القرآن على الجنب والحائض ، والقرآن ركن من أركان الصلاة لاتقام بدونه ، لانه وقع فيه خلاف ما . ولهذا مأخذ من القرآن وان لم يكن نصا فيه ، وهو قوله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون)

وجملة القول ان الصلاة أكمل العبادات اذا لم تصح مع الجنابة فلا تصح مع الحيض بالأولى ، وكلا السائلين فيهما من اسباب النسل . والحيض مرض قد تضر

وليس في الارض امة كانت تربيتها لغوية غير اهل هذه الجزيرة . فما كان فيهم كالبيان آنق منظراً وأبدع مظهرا، وأمدّ سبباً الى النفس، وأردّ عليها بالعاقبة . ولا كان لهم كذلك البيان ازكى في ارضهم فرعا . واقوم في سمائهم شرعا ، واوفر في انفسهم ريعا . وا كثر في سوقهم شراءاً وبيعا . وهذا موضع عجيب للتأمل ما ينفد عجبه على طرح النظر وإبعاده ، وإطالة الفكر وترداده . واي شيء في تاريخ الأمم اعجب من نشأة لغوية، تنتهي بمعجزة لغوية، ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمة مما تنطوي عليه هذه المعجزة ، وتأتي به على اكمل وجوهه واحسنها . وتخرج به للدهر خير امة كان عملها في الأمم صورة اخرى من تلك المعجزة ؟

هذا على انه — كما علمت — انشأهم على الكبر . ولم يجر معهم على المألوف من مذاهب تربية الأمم . ولا هو كان طباقاً لروح الأخلاق التاريخية فيهم التي تظهرها العادات على كل دين وتشريعة وسياسة . إذ كانت ميراث الدهر.وكانت مستقرة في كل عرق سار . وفي كل شبه نازع .وكانت روح المجموع لاتكون الا منها . ولا تعرف الا بها . ولا تظهر الا فيها . فما عدا ان سفه احلامهم . ونكس اصنامهم ، وازرى عليهم وعلى آبائهم الأولين وقام على رؤسهم بالتقريع والتأنيب.وهم اهل الحمية والحفاظ . واهل النفوس التي تصب كالمعاني في الالفاظ ، ثم ذهب بطريقة كانت لهم معروفة ، وعادات كانت لهم مألوفة . وارسلهم في طريق العمر الى الفناء ، فكأنما طلع بهم من اولها، وكأنهم بعد ذلك على آدابه نشأوا وهم اغفال واحداث، بل كأنهم سلالة اجيال كان القرآن في اوليتهم المتقادمة فكانوا هم الوارثين لا الموروثين ، والناشئين لا المنشئين . مصداقاً للحديث الشريف « خير القرون قرني ثم الذي يليه » . ولعمرك إن هذا لعجيب . وليس اعجب منه إلا ان اول جيل انسل من هؤلاء القوم كان هو الذي تناول مفتاح العالم فأداره . وقد خرج للغاية التي جاء بها القرآن، وكأنه دارمعها في الاصلاب دهرا طويلا .حتى احكمته الوراثة الزمنية ، ووردت عليه من الطباع ما لا يتهيأ الا في سلالة بعد سلالة وجيل بعد جيل . من قوم قد مروا منذ اولهم في ادوار الارتقاء ، على سنن واضح وطريق نهج . لم ينتقض لهم في

وقد اشرنا اليها في بعض الفصول المتقدمة،على انها ليست من غرضنا في هذا الباب. وانما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي، لاننا انما نكتب في تاريخ الآداب . ونحن في كل ما نضعه من هذا الكتاب إنما نسلك الجانب الضيق من الطريق. ونقتص الأثر الطامس، ونلتزم الخطة التي تحمل عليها النفس حملا. وقد كان فيما قدمناه بل فيما دونه مقنع لو آثرنا ما تستوطئه النفس . وعطفنا على ما تنازع اليه من السكون، كلما انتهت الى حجة واضحة او استبانت لائحة مسفرة، ولكننا نمضي ما اعتزمنا فاللهم عونك واللهم عونك .

هذا ولا بد لنا قبل الترسل في بيان ذلك الإعجاز ان نوطئ بنبذ من الكلام في الحالة اللغوية التي كان عليها العرب عند ما نزل القرآن فسنقلب من كتاب الدهر ثلاث عشرة صفحة تحتوي ثلاثة عشر قرناً لنتصل بذلك العهد . حتى نخبر عنه كأننا من اهله وكأنه رأي العين . وانما سبيل الصحة فيما نحن فيه أن يشهد عليه الشاهد ان العين والأذن إذ كان من شأنهما ان لاتثبت دعوى في حادثة دون ان يشهد عليها احدهما او كلاهما .

بلغ العرب في عهد القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل. فان كل ما وراءه انما كان ادواراً من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها على سنن الاجتماع . فكانوا قد اطالوا الشعر وافتنوا فيه وتوافى عليه من شعرائهم افراد معدودون. كان كل واحد منهم كأنه عصر من تاريخه. بما زاد في محاسنه وابتدع من اغراضه ومعانيه . وما نفض عليه من الصبغ والرونق . ثم كان لهم من تهذيب اللغة واجتماعهم على نمط من القرشية يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن ان يكون، واخذهم في هذا السمت ما جعل (الكلمة) نافذة في اكثرهم ، لا يصدها اختلاف من اللسان. ولا يعترضها تناكر في اللغة ، فقامت فيهم بذلك دولة الكلام، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن .

وكل من يبحث في تاريخ العرب وآدابهم وينفذ الى ذلك من حيث تنفذ به الفطنة وتتأتى حكمة الاشياء ، فانه يرى كل ما سبق على القرآن من امر الكلام العربي وتاريخه انما كان توطيداً له، وتهيئة لظهوره، وتناهياً اليه، ودُربة لاصلاحهم به،

الصلت وقس ابن ساعدة وغيرهما .

وما جاءهم القرآن بشيء لا يفهمونه ولا يثبتون معناه على مقدار ما يفهمون . ولا كان هذا القرآن كتاب سياسة ولا نظام دولة . ولو كان امراً من ذلك ماحفلوا به ولا استدعى هو منهم الإجابة، لأن لهم منزعا في الحرية لم تغلبهم عليه دولة من دول الأرض. ولا أفلح في ذلك من حاوله من ملوك هـذه الدول في الأكاسرة والقياصرة والتبابعة. بل خلقوا عرباً يشرقون ويغربون مع الشمس حيث أرادوا وحيث ارتادوا . وهم على ذلك لم يجمعهم ولم يخرجهم الى الدنيا ولم يقلبهم على تصاريف الأمور غير القرآن .

فلو ان هذا القرآن غير فصيح . او كانت فصاحته غير معجزة في اساليبها التي ألقيت اليهم، لما نال منهم على الدهر منالا ،ولخلا منه موضعه الذي هو فيه. ثم لكان سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص. وهو لم يخرج عن كونه في الجملة. كأنه موجود فيها بأكثر معانيه . قبل ان يوجد بألفاظه واساليبه . ثم لنقضوه كلمة كلمة وآية آية. دون ان تتخاذل ارواحهم . او تتراجع طباعهم . ولكان لهم وله شأن غير ما عرف . ولكن الله بالغ امره .

وقد اومأنا في بعض ماسلف الى ان هذا القرآن يكبر ان يكون حيا بروح عصره الذي أنزل فيه . فلا يستطيع من يقول باعجازه ان يقصره على زمن الجاهلية . او يتعلل في ذلك. وهو بعدُ من الإحكام والسمو وشرف الغاية وحسن المطابقة، بحيث تتعرف منه روح كل أمة قد فرعت الأمم واستولت على الأمد التاريخي ، ونالت ما لا ينال الا مع بسطة في العلم، وزيادة في المعرفة بوجوه العمل. وفضل من القوة. ومع كمال المنزلة في كل ذلك واشباهه من مقومات الأمة . فذلك ما علمت .

وان ههنا وجهاً آخر هو اعجب مما اومأنا اليه . على انه ضريبه في الحكمة وقسيمه. في الاعتبار. إذ هو متعلق بطبيعة الارض كما ان ذلك متعلق بطبيعة اهلها . فان من الثابت البين ان لهيئة الطبيعة جهة من التأثير في تهيئة الاخلاق. فترى في الجهات المقفرة اوالمخوفة . اوالتي يلقي منظرها في نفسك اهبة دون المحبة والفزع دون الاطمئنان . اقواماً كأنما نشؤا في المعابد وولدوا في الصوامع . فليس في اخلاقهم

اثناء ذلك طبع من طباع الاجتماع . ولا رذلت شيمة، ولا التوت طريقة، ولا سقطت مروءة . ولا ضل عقل، ولا غوت نفس . ولا عرض لهم بغي ولا افسدتهم عادة . واين هذا كله او بعضه من قوم كانوا بالامس عاكفين على الاوثان يأكل بعضهم بعضاً ، ولهم العادات المرذولة . والعقائد السخيفة . والطباع الممزوجة ـ الى غيرها مما يحمل عليه الافراط فيما زعموه فضيلة . كحمية الأنف واستقلال النفس . ومما كان من عكس ذلك كالتسليم للعادة والانقياد لطبيعة التاريخ . والمضي على ماوجدوا ثم الموت على ماولدوا؟

لا جرم ان في ذلك سرا من اسرار الفطرة . فلولا ان اكبر الأمر بينهم كان للفصاحة واساليبها بما استقام لهم من شأن الفطرة اللغوية وما بلغوا منها كما فصلناه في بابه . حتى صارت هذه الأساليب كأنها اعصاب نفسية في اذهانهم، تنبعث فيها الإرادة بأخلاق من معاني الكلام الذي يجري فيها . وتعتزم على اخلاقهم وطباعهم فتصرفهم في كل وجه . كأنها إرادة جبار معتزم لا يلوي ولا يستأني ولا يتئد .

ولولا ان القرآن الكريم قد ملك سر هذه الفصاحة وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده . ولا حيلة لهم معه . مما يشبه على التمام اساليب الاستهواء في علم النفس . فاستبد بإرادتهم . وغلب على طباعهم . وحال بينهم وبين ما نزعوا اليه من خلافه . حتى انعقدت قلوبهم عليه وهم يجهدون في نقضها . واستقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها . فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون الا اليه . لأنه اخذ عليهم بفصاحته وإحكام اساليبه جهات النفس العربية . والمكابرة في الأمور النفسية لاتتجاوز اطراف الألسنة . فإن اللسان وحده هو الذي يستطيع ان يتبرأ من الشعور ، إذ هو أداة مغلبة تتعاورها الألفاظ . والألفاظ كما يرمى بها في حق او باطل ، لاتمتنع على من ارادها لأحدهما او لهما جميعاً .

قلنا لولا ان ذلك على وجهه الذي عرفت لماصار امر القرآن الى اكثر مما ينتهي اليه امر كل كتاب في الأرض . بل لما كان له في اولئك العرب امر البتة . لأنهم قوم أميون قد تأثلت فيهم طباع هذه الأمية . وكان لهم الشيء الكثير من العادات والأخبار والتواريخ . وبينهم اهل الكتاب من اليهود والنصارى . ثم هم لم يعدموا الحكماء من خطبائهم وشعرائهم . ومن جنح الى التأله منهم . كأمية بن ابي

ولا يتقدمون في سد غيره قبل إحكامه واستفراغ قوتهم له . الى غير هذا مما هو معروف متظاهر عنهم .

ثم كان هواهم كله في الشعر لانه عبادة ارواحهم لطبيعة ارضهم . وهو الصلة المحفوظة بينهم وبين ماضيهم فجاء القرآن يسفه تلك الطباع منهم ، ويحول بينهم وبين ذلك الماضي . ويصرفهم الى العمل . ويذهب عنهم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، ويأتيهم بالبصائر من ربهم . ويهديهم بالعقل الى اسرار الطبيعة . ليعلموا انها مسخرة لهم فلا يسخروا انفسهم لها . وحرم عليهم التقديس ومافي حكمه . وبصرهم بما مسهم من طائف الشيطان وما نزغهم من امره خيالا او وهماً او شعراً او عبادة ، وجعل افضل الفضائل في الذي قام يدعوهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم أنه ابن يومه وابن عمله وابن عقله فلا هو مفاخر ولا واهم ولا شاعر، وتلك اخص فضائلهم الاصطلاحية . وخاطبه بهذه الآية الكريمة التي هي روح الثبات في امم العلم والعمل وهي قوله « وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون » . فكيف يمكن ان يكون هذا القرآن مع ذلك كله مما يطابق ارض العرب في طبيعتها وهي ما علمت . وكيف يتفق ان يكون كل ذلك من صنعة رجل قد نشأ فيهم واتصل بهم ، وذهبت عروقه بينهم واشجة ، وهو من صميمهم نسباً ووراثة، يعرفونه ويحققون جملة امره، ولم يخرج عنهم قط للعلم او الطلب، ولا طرا عليهم من غير ارضهم، ولا انكروا عليه امراً من لدن نشأته الى حد الكهولة والى ان دب الشيب في عذاريه، وهم مستيقنون انه ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه ؟

وما عهدنا رجلا من عظماء التاريخ قد اهاب بأمة طبيعية كالعرب ذات بأس وصرامة وحمية وحفاظ ، وذات خيال وتصور — يدعوها ان تخلع نفسها مما هي فيه؛ وان تضع اعناقها للحق الذي لم تألفه حقا، وان تعطيه مع ذلك محض ضمائرها وتسوغه تاريخها وعاداتها، وما هوا كبر من تاريخها وعاداتها . وهم لا يرونه في ذلك الا مسخوط الرأي ، ذاهب الوهم، بعيداً منهم ومن نفسه ومن الحقيقة جميعاً. ولا يرون من امره ذلك الا قلة وضرعاً وهواناً واستخفافاً، وان كانوا يعرفونه من قبل بحسن الخلق

الا الاستسلام للوهم والتخيل، والا الخوف من كل شيء تكون فيه روح الطبيعة، كما زعم العرب من البيات مع الغيلان وتزوج السعالى ومحاوبة الهواتف ، والروغان عن الجن الى الحن، واصطياد الشق ومحاربة النسناس وصحبة الرئيّ .وما كان لهم من خدع الكاهن وتدسيس العراف . ومن العيافة والتنجيم والزجر والطرق بالحصى [١] وغيرها من خرافاتهم . ثم الخوف من كل شيء تعرف فيه روح الطبيعة كالأوثان وسائر ما قدسته العادات والشعائر، وان كانوا في غير ذلك اهل جلد ونجدة ومضاء وبديهة وعارضة، لان هذه الصفات وامثالها تكتسب من طبيعة الخيال حدة وشدة، وانت واجد عكس ذلك فيمن تكون طبيعة ارضهم ساكنة مطمئنة لاتجتاح اهلها ولا ترميهم بالفزع ، فانهم لا يقرون على خوف وتوثب، ولا يكون في اخلاقهم الجنوح الى عبادة مايخيفهم . او تقديس مااتصلت به روح الطبيعة . ثم لايكونون الا اهل عمل بالحواس دون التخيل . قد غبر احدهم دهره عاملا فليس يبالي الا بالحاضر الذي تتعلق به روح العمل. دون الماضي الذي يجتمع عليه حرص أولئك لانه غيب الطبيعة التي يقدسونها . فكان من اخلاق العرب هو ما مشهور عنهم من التفاخر بالآباء والأجداد . والذهاب مع الوهم في كل مذهب وعدم المبالاة الا بما يلحقهم بآبائهم ويجعلهم في عداد الماضين ، ليكون لهم فيمن يخلفهم من الشأن والتقديس والتعظم بهم ما كان فيهم لمن تقدمهم . فيتقون سوء القالة وخبث الأحدوثة . وسائر ما يفسد عليهم هذا الشأن بكل ما وسعهم. لايألون في ذلك جهداً ولا يغمضون فيه ،

---

(١) للعرب مذاهب كثيرة من مثل ما وصفنا ولا محل لبسط القول فيها، ولكننا نقتصر على تعريف ماأتينا به تعريفا لفظيا ، فالغيلان إناث الجن والسعالي جمع سعلاة وهي سحرة الجن. ويقال ان الغيلان من السعالى. والهواتف جمع هاتف وهي الجن تهتف بهم وتنذرهم. والجن نوع من الجن والشق جنس من أجناسهم والنسناس جنس من الخلق يعد فيهم. والرئي جني يكون لبعض الناس فيخبره بالغيب. والكاهن من يتنبأ عما سيقع . والعراف من يستدل بالاسباب والحوادث ويتنبأ من ذلك. والعيافة التكهن بالطير أو غيرها. والزجر أن يزجر الطير ليتسعد أو يتشأم اذا أراد ان يهم بأمر. والطرق بالحصي وسيلة من وسائل التكهن . وفي كل ذلك شرح طويل واختلاف كثير.

اسبابه الفطرية في غير أولئك العرب، ولا رأيت تحقيقه في العرب، الا من ناحية القرآن وإعجازه بنظمه واساليبه، وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة، التي اقل ما توصف به انها السحر بل السحر بعضها (١)

---

(١) وذلك فيما نرى انما هو وجه الحكمة في نشأة هذا الدين عربياً واختصاص العرب بالقرآن دون غيرهم من الامم، وإفراد قريش بذلك دون غيرها من العرب. ومن يقرأ صدر التاريخ في الاسلام و يعتبر حوادثه و يتدبر آثار القرآن في قبائل العرب، ير أن شدة الايمان كانت عند شدة الفصاحة، وان خلوص الضمائر كان يتبع خلوص اللغة، وأن القائمين بهذا الدين والذين افاضوه وصرفوا اليه جمهور العرب وقاتلوهم عليه وجمعوا ألفتهم وقوموا أودهم انما كانوا اهل الفصاحة الخالصة، من قريش الى سرة البادية، وان الفتن انما استطارت في الجزيرة استطارة الحريق فيمن وراء هؤلاء الى اطراف اليمن، فكانوا قوماً مدخولين منقوصين، وما كان ضعف اعتقادهم الا في وزن الضعف من لغتهم. وقد اسلفنا في غير هذا الموضع أن غرابة الدين ما نزال نتبع غربة العربية. ولما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمرو بن العاص بعمان فأقبل منها الى المدينة يخترق بلاد العرب فأطافت به قريش وسألوه فقال لهم إن العساكر معسكرة من دبا « سوق بعمان » الى حيث انتهيت اليكم. فتفرقوا حلقاً، ومر عمر بن الخطاب بجماعة فسألهم فيم انتم؟ فلم يجيبوه. فقال: اظن قلتم ما اخوفنا على قريش من العرب. قالوا صدقت، قال: فلا تخافوا هذه المنزلة انا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش جحرا لدخلته العرب في آثاركم. اه

وحسبك من اثر القرآن في العرب الفصحاء وصوع فطرتهم وتصريفها ان احدهم كان اذا اتهم في بعض اخلاقه لم ينكر ذلك باشد من قوله: بئس حامل القرآن أنا اذن! ولما أعطي سالم مولى أبي حذيفة راية المسلمين يوم قتال مسيلمة الكذاب وكان من اشد الايام واعظمها نكاية قال لأصحابه: ما اعلمني لأي شيء أعطيتمونيها! قلتم صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات؟ قالوا اجل فانظر كيف تكون. قال بئس والله حامل القرآن أنا ان لم اثبت. فتأمل. وكان صاحب الراية قبله عبد الله بن حفص. وفي هذه الموقعة صاح أبو حذيفة وقد اضطرب المسلمون: ياأهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، ثم حمل على القوم فحازهم حتى انفذهم

ولو أن هذا المعنى من غرض كتابنا لبسطناه بسطاً، ولكن القول فيه يتسع بما يخرجنا الى تاريخ الاسلام وفلسفة آدابه ومعانيه الاجتماعية، وهي اغراض انما نلم بها إلماماً في هذا الكتاب كما عرفت.

وصفاء الذمة وتخشع السمت، ويعرفون انه لا يريد ملكا ولا يبغي دولة، ولا يتصنع لحدث من الاحداث السياسية، ولا يهتبل غرة ذاهلة، ولا يستعد لنهزة سانحة «وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » .

ثم هو على هذا كله من امره وامرهم لا يتأتى اليهم بالتمويه ، ولا يداخلهم بالنفاق ، ولا يتألفهم على باطلهم ، ولا ينزل في العقيدة على حكمهم ، ولا يداهن في خطابهم ، ولا يرفق بهم فيما يتخيلون وما يعبدون . ولا يحكم ذلك الامر من ناحية الدهاء والمخاتلة، فيقرهم على طباعهم وعاداتهم ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويمد لهم في الغي مدا، من امر ما اعجبهم ؛ ومن شأن ما استخفهم ؛ كما يصنع دهاة السياسة وقادة الامم، وكما صنع داهية اوربا نابليون الذي انتحل الكثلكة في حرب الفنديين، واسلم في مصر، وجهر بعصمة البابا في حرب ايطاليا، وقال مع ذلك: ولو كنت احكم شعبا يهوديا لأعدت هيكل سليمان ... ثم يكون مع هذا كله من فعله وفعلهم ان يثوب اليه الأمر ، ويستوثق على ما اراد ، وان تعطيه تلك الأمة عن يد وهي صاغرة للحق، وتبذل نصرها له بعد التخذيل عنه ؛ وتسكن اليه بعواطفها المستنفرة ؛ وتعطف عليه بقلوبها الجامحة . وهو الراغب عن سننهم، والمسفه لأحلامهم، والطاعن عليهم وعلى آبائهم، والمفارق لشرائعهم وعاداتهم . وهو الذي خرج من الأمة اولا ، ثم اخرج الأمة كلها من نفسه آخراً، كما اتفق للنبي صلى الله عليه وسلم .

ما عهدنا ذلك ، ولا عهدنا ان الأمم تخرج عن طبائعها النفسية وتستقيم لمن يلتوي لها مثل هذا الالتواء؛ وتدخل في امره وتثبت على طاعته ومحبته ، وهو اضعف ناصراً واقل عداداً . الا ان يغلبها على انفسها ويمتلك خيالها ويستبد بتصورها . وكيف له ان يغلب على النفس، بتنفيرها ويمتلك الخيال بالعنف عليه، ويستبد بالتصور وهو يسترذله؟. ومن اين له ذلك الا ان يأتي الفطرة التي هي اساس هذه كلها فيملكها؛ ثم يصوغها ثم يصرفها؟ فان الذي لا يدفع الطبع لا يدفع الرغبة، ومن لم يقد الأمة من رغائبها لم يقد في زمامه غير نفسه ، وان كان بعد ذلك من كان ؟

وهذا الذي وصفناه امر لو ذهبت تلتمسه في تاريخ الأرض كلها ما رأيت

﴿ الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ﴾

قد اضطربت في هذه المسألة الافهام ، وزلت فيها أقلام وأقدام ، وأوردوا فيه أبياتا ليهودي حقيقة أو حكاية يقول فيها اذا :قضى الله ان يكون يهوديا وأمره ان يرضى قضائه فما حيلته في ذلك . وأوردوا له أجوبة لم يرها الكثيرون مقنعة . ولذلك طلب الشعراني في بعض كتبه ممن ظفر بجواب أحسن مما أورده ان يلحقه بما ذكره منها . ولم نر لأحد من العلماء تحريرا لهذه المسألة كتحرير ابن القيم لها في (كتاب مدارج السالكين) واين نجد كابن القيم في المحققين المحررين ؟ قال قدس الله روحه في شرح كلام الهروي من الجزء الثاني :

قوله « وهو الرضاء عنه في كل ماقضى » هاهنا ثلاثة أمور : الرضاء بالله ربا ، (١) والرضاء عن الله ، والرضاء بقضاء الله . فالرضاء به فرض ، والرضاء عنه ـ وان كان من أجل الامور واشرف أنواع العبودية ـ فلم يطالب به العموم لعجزهم ومشقته عليهم ـ واوجبته طائفة كما اوجبوا الرضاء به ، واحتجوا بحجج (منها) انه اذا لم يكن راضيا عن ربه فهو ساخط عليه ـ اذ لا واسطة بين الرضاء والسخط ـ وسخط العبد على ربه مناف لرضائه به ربا . قالوا ـ وايضا فعدم رضائه عنه يستلزم سوء ظنه ومنازعته له في اختياره لعبده ، وان الرب تبارك وتعالى يختار شيئا ويرضاه ولا يختاره العبد ولا يرضاه ، وهذا مناف للعبودية . قالوا ـ وفي بعض الآثار الإلهية « من لم يرض قضاي ، ولم يصبر على بلاي ، فليتخذ له (٢) ربا سواي » ولا حجة في شيء من ذلك . اما قوله (٣) « لم يتخلص من السخط على ربه الا بالرضاء عنه اذ لا واسطة بين الرضاء والسخط » فكلام مدخول ، لان السخط بالمقضي لا يستلزم السخط على من قضاه ، كما أن كراهة المقضي و بغضه والنفرة عنه لا يستلزم تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره ، فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راض عمن قضاه وقدره ، بل يجتمع تسخطه والرضا بنفس القضا ـ كما سيأتي ان شاء الله ـ واما

(١) سقط من البغدادية كلمة « ربا » (٢) سقط من البغدادية كلمة « له » (٣) وفيها « انه لم »

وليت شعري ما هو امر المعجز في العقل ان لم يكن هذا من امره ؟ «ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير»

(المنار)

ان مسألة إعجاز القرآن قد صارت من المسائل المعلومة بالضرورة بعجز العرب والمستعربين عن الاتيان بمثله ، ووقوفهم حيارى منبهري الانفاس خاشعي الأبصار ناكسي الرؤس في نور شمسه . ولاعجازه وجوه كثيرة يعقل كل ذي علم و بصيرة منها مقدار مايتوجه اليه ذهنه ، مما استعد لادراكه عقله ، ومن الناس من لا يدرك من ذلك شيئا ، كالاطفال والعوام الذين لايدركون علل عجز ضعفاء البنائين الاميين بغير نظام ولا هندسة عن بناء هرم مثل هرم الجيزة في عظمته ، وما روعي فيه من دقائق الهندسة ، والاشارات العمرانية ، والتقاليد الدينية ، والمقاصد الخفية . وانما يفهم وجوه هذا العجز الرياضي والفلكي والعالم بتاريخ مصر وآثارها ، كل بقدر بحثه في فنه .

وقد كتب كثير من العلماء في بيان وجوه إعجاز القرآن ، وما أطالوا الا في شرح فصاحته و بلاغته ، وقد تعب مصنف هذا الكتاب (تاريخ آداب العرب) في تصفح ما كتبوا ، وتتبع ما صنفوا ، ولم يعجزه مع ذلك ان يكون مصداق المثل السائر «كم ترك الأول للآخر» ، فجعل ٢٨٨ صفحة من الجزء الثاني من كتابه في إعجاز القرآن ، وباقيه الى ص ٣٦٤ في البلاغة النبوية . واذا كان قد انفرد ببيان نكت ودقائق لم تعرف لغيره ، فقد جلى بعض ماسبقه اليه من النكت والوجوه من قبله ، بعبارة مؤثرة تما ألبسها من حلل الخيال ، حتى تحلت في أربع مثال . وثم مباحث مفيدة في هذا الباب ، تراها في الفصول الكثيرة من الكتاب ، وسترى الاشارة اليها في تقريظه من جزء آخر من المنار

بعد هذا كله نقول انه قد بقي من وجوه الاعجاز مالم يغص المؤلف بحره ، حتى يستخرج دره ، وقد أجملنا في (عقيدة الاسلام) التي كتبناها لطلاب المدارس الوسطى من هذه الوجوه ما يمكن شرحه في سفر أو أسفار . والتحقيق ان اعجاز القرآن بمعانيه من الهداية والعلم اعظم من إعجازه بفصاحة عبارته و بلاغة اسلوبه ، وهي التي كانت سبب بقاء الدين في العرب والعجم ، بعد ان قل من يذوق طعم تلك البلاغة .

قد دل العقل والشرع على أنها واقعة بقضاء الله وقدره فنحن نرضى بها . والطائفتان منحرفتان جائرتان عن قصد السبيل، أولئك اخرجوها عن قضاء الرب وقدره ، وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها . هؤلاء خالفوا الرب تعالى في رضائه وسخطه ، وخرجوا عن شرعه ودينه ، وأولئك انكروا تعلق قضائه وقدره بها .

واختلفت طرق اهل الاثبات للقدر والشرع في جواب الطائفتين ، فقالت طائفة : لم يقم دليل من الكتاب ولا السنة ولا الاجماع على جواز الرضا بكل قضا ، فضلا عن وجوبه واستحبابه ، فأين امر الله عباده او رسوله ان يرضوا بكل، ماقضاه الله وقدره ؟ وهذه طريقة كثير من اصحابنا وغيرهم ، وبه اجاب القاضي ابو يعلي وابن الباقلاني قال — فان قيل : أفترضون بقضاء الله وقدره ؟ قيل له : نرضى بقضاء الله الذي هو خلقه الذي امرنا ان نرضى به ، ولا نرضى من ذلك ما نهانا عنه ان نرضى به، ولا نتقدم بين يدي الله ، ولا نعترض على حكمه .

وقالت طائفة أخرى : يطلق الرضا بالقضا في الجملة دون تفاصيل المقضي المقدر . فنقول : نرضى بقضاء الله جملة ولا نسخطه ، ولا نطلق الرضا على كل واحد من تفاصيل المقضي — كما يقول المسلمون : كل شيء يبيد ويهلك ، ولا يقولون : حجج الله تبيد وتهلك ، ويقولون : الله رب كل شيء ، ولا يضيفون ربوبيته الى الاعيان المستخبثة المستقذرة بخصوصها .

وقالت طائفه أخرى : نرضي بها من جهة اضافتها الى الرب خلقا ومشيئته ، ونسخطها من جهة اضافتها الى العبد كسبا له وقيامه بها .

وقالت طائفة أخرى : بل نرضى بالقضاء ونسخط المقضي ، فالرضاء والسخط لم يتعلقا بشيء واحد . وهذه الاجوبة لا يتمشى شيء منها على اصول من يجعل محبة الرب تعالى ورضاه ومشيئته واحدة ـ كما هو احد قولي الاشعري واكثر اتباعه ـ فان هؤلاء يقولون : ان كل ما شاءه وقضاه فقد احبه ورضيه ، واذا كان الكون محبوبا له مرضيا فنحن نحب ما احبه ونرضى ما رضيه . وقولكم : ان الرضا بالقضا يطلق جملة ولا يطلق تفصيلا . فذلك لا يمنع دخوله في جملة المرضي به، فيعود الاشكال . وقولكم : نرضي بها من جهة كونها خلقا لله ، ونسخطها من جهة كونها

قولكم (١) « انه يستلزم سوء ظن العبد بربه ومنازعته له في اختياره » فليس كذلك، بل هو حسن الظن بربه في الحالتين ، وانه انما يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر ، كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه ، فينازع قدر الله بالله لله (٢) كما يستعيذ برضاه من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته ، ويستعيذ به منه .

فاما « كونه يختار لنفسه خلاف ما يختاره الرب » فهذا موضع تفصيل لا يسحب عليه ذيل النفي والاثبات . فاختيار الرب تعالى لعبده نوعان (احدهما) اختيار ديني شرعي ، فالواجب على العبد ان لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم) فاختيار العبد ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا (النوع الثاني) اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب ، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده ، فهذا لا يضره فراره منها الى القدر الذي يرفعها عنه ويدفعها ويكشفها ، وليس في ذلك منازعة للربوبية ـ وان كان فيه منازعة للقدر بالقدر ـ فهذا يكون تارة واجبا ، وتارة مستحبا ، وتارة يكون مباحا مستوي الطرفين ، وتارة يكون مكروها ، وتارة يكون حراما . واما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ، مثل قدر المعايب والذنوب ، فالعبد مأمور بسخطها ومنهي عن الرضاء بها.

وهذا هو التفصيل الواجب في الرضاء بالقضاء . وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابا عظيما ونجا منه اصحاب الفرق والتفصيل ، فان لفظ الرضا بالقضا لفظ محمود مأمور به ، وهو من مقامات الصديقين ، فصارت له حرمة اوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل ، وظنوا ان كل ما كان مخلوقا للرب تعالى فهو مرضي له ينبغي الرضاء به، ثم انقسموا فرقتين ، فقالت فرقة : اذا كان القضاء والرضاء متلازمين فمعلوم انا مأمورون ببغض المعاصي والكفر والظلم ، فلا تكون مقضية مقدرة . وفرقة قالت :

(١) في البغدادية هنا « قولهم » ونص نسختنا « قولكم » وفيها القولة السابقة « قوله » فيهما وكان الاولى ان تكون « قولهم » فيهما (٢) نص البغدادية « فينازع قدر الله بقدر بالله ولله »

متلازمين ، بل قد يشاء ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه ، (فالأول) كمشيئته لوجود ابليس وجنوده ، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه . (والثاني) كمحبته ايمان الكفار ، وطاعات الفجار ، وعدل الظالمين ، وتوبة الفاسقين ، ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه ، فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

فاذا تقرر هذا الأصل وان الفعل غير المفعول ، والقضاء غير المقضي ، وان الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضاء بكل ما خلقه وشاءه - زالت الشبهات ، وانحلت الاشكالات ، ولله الحمد ، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض بحيث يظن ابطال احدهما الآخر ، بل القدر ينصر الشرع والشرع يصدق القدر ، وكل منهما يحقق الآخر .

اذا عرف هذا فالرضا بالقضا الديني الشرعي واجب وهو اساس الاسلام ، وقاعدة الايمان ، فيجب على العبد ان يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض ، قال الله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فأقسم انهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ، ويرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه ، ويسلموا لحكمه تسليما . وهذا حقيقة الرضاء بحكمه . فالتحكيم في مقام الاسلام ، وانتفاء الحرج في مقام الايمان (١) والتسليم في مقام الاحسان . ومتى خالط القلب بشاشة الايمان ، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين ، وحيي بروح الوحي ، وتمهدت طبيعته ، وانقلبت النفس الامارة مطمئنة راضية وادعة ، وتلقى احكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم ، فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ورسوله .

والرضاء بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وارادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة امر لازم بمقتضى الطبيعة ، لأنه ملائم للعبد ، محبوب له ، فليس في الرضاء به عبودية ، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله ان توضع فيها ، وان لا يعصى المنعم بها ، ويرى التقصير في جميع ذلك .

(١) نص نسختنا والحجازية «والرضاء في مقام الايمان» فاعتمدنا نص البغدادية

كسبا للعبد، فكسب العبد ان كان امرا وجوديا فهو خلق لله فيرضى به، وان كان امرا عدميا فلا حقيقة له ترضي ولا تسخط. واما قولكم: نرضى بالقضاء دون المقضي. فهذا انما يصح على قول من جعل القضاء غير المقضي، والفعل غير المفعول، واما من لم يفرق بينهما فكيف يصح هذا على اصله ؟

وقد اورد القاضي ابو بكر على نفسه هذا السؤال فقال – فان قيل: القضاء عندكم هو المقضي اوغيره ؟ قيل: هو على ضربين، فالقضاء بمعنى الخلق هو المقضي، لان الخلق هو المخلوق، والقضاء الذي هو الالزام والاعلام والكتابة غير المقضي، لان الامر غير المأمور والخبر غير المخبر عنه. وهو الجواب لا يخلصه ايضا، لان الكلام ليس في الالزام والاعلام والكتابة، وانما الكلام في نفس الفعل المقدر المعلم به المكتوب: هل مقدره وكاتبه سبحانه راض به أم لا ؟ وهل العبد مأمور بالرضاء به نفسه ام لا ؟ هذا حرف المسئلة.

وقد انكر الله سبحانه وتعالى على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزما لمحبته ورضائه، فكيف بمن جعل ذلك شيئا واحدا ؟ قال الله تعالى (سيقول الذين اشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمنا من شيء. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن وان انتم إلا تخرصون – وقال تعالى – وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم – وقالوا: لو شاء الرحمن ماعبدناهم. مالهم بذلك من علم) فهم استدلوا على محبته ورضاه لشركهم بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل امره ونهيه. وفيه ابين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبته ورضاه، فالاشكال انما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة، ثم زادوه بجعلهم الفعل نفس المفعول، والقضاء عين المقضي، فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضيا محبا لذلك، والتزام رضائهم به.

والذي يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، وينجي من هذه الورطة التفريق بين ما فرق الله بينه، وهو المشيئة والمحبة، فانهما ليسا واحدا ولا هما

وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف مايحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة . فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى مسخوط له ، لعنه الله ومقته وغضب عليه ، ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، وجودها احب اليه من عدمها .

(منها) ان تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات التي هي من اخبث الذوات وشرها ، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل صلى الله عليه وسلم التي هي اشرف الذوات واطهرها وازكاها ، وهي مادة كل خير ، فتبارك الله خالق هذا وهذا . كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار ، والضياء والظلام ، والداء والدواء ، والحياة والموت ، والحر والبرد ، والحسن والقبيح ، والارض والسماء ، والماء والنار ، والخير والشر . وذلك من ادل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه وملكه ، فانه خالق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها على بعض ، وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبيره مملكته

(ومنها) ظهور آثار اسمائه القهرية ، مثل القهار والمنتقم والعدل والضار ، وشديد العقاب، وسريع الحساب ، وذي البطش الشديد ، والخافض والمذل ، فان هذه الاسماء والافعال كمال فلا بد من وجود متعلقها ، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك لم يظهر اثر هذه الاسماء والافعال

(ومنها) ظهور آثار اسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده ، فلولا خلق مايكرهه من الاسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الاسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد ، وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا بقوله « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم »

(ومنها) ظهور آثار اسماء الحكمة والخبرة ، فانه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الاشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولا ينزله غير منزلته ، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فلا يضع الحرمان

والرضاء بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب ، وهو من مقامات أهل الايمان ، وفي وجوبه قولان ، وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له ، والحر والبرد والآلام ونحو ذلك .

والرضاء بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه ، كانواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه وهو مخالفة لربه تعالى ، فان الله لا يرضى بذلك ولا يحبه ، فكيف تتفق المحبة ورضاء ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟ فعليك بهذا التفصيل في مسئلة الرضا بالقضا .

فان قلت : كيف يريد الله سبحانه أمرا لا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكونه ؟ وكيف تجتمع ارادة الله له وبغضه وكراهيته ؟ . قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا ، وتباينت عنه طرقهم واقوالهم . فاعلم ان المراد نوعان : مراد لنفسه ومراد لغيره . فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مراد ارادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته ، وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث افضائه وإيصاله الى مراده ، فيجتمع فيه الامران بغضه وارادته ، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة اذا علم متناوله أن فيه شفاءه ، وكقطع العضو المتآكل اذا علم ان في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة جدا اذا علم أنها توصله الى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في ايثار هذا المكروه وارادته بالظن الغالب وان خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته ، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب ؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته ، ولا ينافي ذلك ارادته لغيره (١) وكونه سببا الى ما هو احب اليه من فوته .

مثال ذلك انه سبحانه خلق ابليس الذي هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات ، وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما يغضب الرب تبارك

(١) أي لاجل أمر غيره وهو ما بينه بقوله : وكونه سببا الخ

(ومنها) أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه وسؤاله ان يجيره منه و يعصمه من كيده وأذاه ٠

(ومنها) ان عبيده يشتد خوفهم وحذرهم اذا رأوا ما حل بعدوه بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية الى المرتبة الشيطانية ، فلا يخلدون الى غرور الامل بعد ذلك ٠

(ومنها) انهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة ، فأ كثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته ٠

(ومنها) ان نفس اتخاذه عدوا من اكبر انواع العبودية واجلها ، قال الله تعالى (ان الشيطان لكم عدوا فتخذوه عدوا) فاتخاذه عدوا أنفع شيء للعبد وهو محبوب للرب ٠

(ومنها) ان الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر ، والطيب والخبيث ، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد ، فخلق الشيطان مستخرجا ما في طبائع أهل الشر من القوة الى الفعل ، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة الى الفعل ، فاستخرج احكم الحاكين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتب عليه آثاره ، وما في قوى أولئك من الشر ليترتب عليه آثاره ، وتظهر حكمته في الفريقين وينفذ حكمه فيهما ، ويظهر ما كان معلوما له مطابقا لعلمه السابق . وهذا هو السؤال الذي سأله ملائكته حين قالوا (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : اني اعلم مالا تعلمون) نظت الملائكة ان وجود من يسبح بحمده و يطيعه و يعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه ، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة ٠

(ومنها) ان ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة والظالمة ، كآية الطوفان ، وآية الريح ، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط ، وآية انقلاب النار على ابراهيم بردا وسلاما ، والآيات التي اجراها

والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عن ما ينبغي الامر به . فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها اليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من ان يمنعها أهلها ويضعها عند غير أهلها، فلو قدر عدم الاسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكمة والمصالح المرتبة عليها، وفواتها شر من حصول تلك الاسباب، فلو عطلت تلك الاسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذى في تلك الاسباب . وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه .

فصل

(ومنها) حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق ابليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها لا كلها، فان عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية اليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه . وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وايثار محاب الرب على محاب النفس .

(ومنها) عبودية التوبة والرجوع اليه واستغفاره، فانه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم، فلو عطلت الاسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها .

(ومنها) عبودية مخالفة عدوه ومراغمته في الله واغاظته فيه، وهي من احب أحب انواع العبودية اليه، فانه سبحانه يحب من وليه ان يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه، وهذه عبودية لا يتفطن لها الا الأكياس .

مادة الخير عنها ، فانها به (١) خلقت في الاصل متحركة لا تسكن ، فان اعينت بالعلم والهام الخير تحركت (٢) وان تركت تحركت بطبعها الى خلافه ، وحركتها من حيث هي حركة خير ، وانما تكون شرا بالاضافة ، لا من حيث هي حركة . والشر كله ظلم ، وهو وضع الشيء في غير موضعه ، فلو وضع في موضعه لم يكن شرا ، فعلم ان جهة الشر فيه نسبته بمشيئته (٣) اضافية ، ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالها خيرا في نفسها وان كانت شرا بالنسبة الى المحل الذي حلت به ، لما أحدثت فيه من الالم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة ، مستعدة له ، فصار ذلك الألم شرا بالنسبة اليها ، وهو خير بالنسبة الى الفاعل ، حيث وضعه موضعه ، فانه سبحانه لا يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات (٤) فان حكمته تأبى ذلك ، بل قد يكون ذلك المخلوق شرا ومفسدة ببعض الاعتبارات ، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسده ، بل الواقع منحصر في ذلك ، فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله ان يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما . هذا من أبين المحال ، فانه سبحانه بيده الخير ، والشر ليس اليه ، بل كل ما اليه خير ، والشر انما حصل لعدم هذه الاضافة والنسبة اليه ، فلو كان اليه لم يكن شرا ، فتأمله ، فانقطاع نسبته اليه هو الذي صيره شرا .

فان قلت : لم تنقطع نسبته اليه خلقا ومشيئة . قلت : هو من هذه الجهة ليس بشر ، فان وجوده هو المنسوب اليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشر ، والشر الذي فيه من عدم امداده بالخير واسبابه ، والعدم ليس بشيء (٥) حتى ينسب الى من بيده الخير .

فان اردت مزيد إيضاح لذلك ، فاعلم ان اسباب الخير ثلاثة : الايجاد ،

---

(١) حذف من البغدادية كلمة « به » ولعله الصواب (٢) في الحجازية « تحركت في الخير » (٣) حذف من البغدادية كلمة « بمشيئته » (٤) في الحجازية « من جميع وجوه الاعتبارات » وفي البغدادية « من جميع الوجوه والاعتبارات » وانفردت نسختنا بالغلط ونصها « من جميع الوجوه الاعتبارات » (٥) في البغدادية « بشر »

الله تعالى على يد موسى ، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها (ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين * وان ربك لهو العزيز الرحيم) فلولا كفر الكافرين ، وعناد الجاحدين ، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلا بعد جيل الى الابد ·

(ومنها) ان خلق الاسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً ويكسر بعضها بعضاً ، هو من شأن كمال الربوبية ، والقدرة النافذة ، والحكمة التامة ، والملك الكامل ، وإن كان شأن الربوبية كاملا في نفسه ولو لم يخلق هذه الاسباب ، لكن خلقها من لوازم كماله وملكه ، وقدرته وحكمته ، فظهور تأثيرها واحكامها في عالم الشهادة تحقيق لذلك الكمال ، وموجب من موجباته ، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته · أحب الى الله سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها ·

فان قلت : فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الاسباب ؟ : فهذا سؤال باطل اذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه . كفرض وجود الابن بدون الاب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فان قلت : فاذا كانت هذه الاسباب مرادة لما تفضي اليه من الحكم ، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه ؟ أم هي مسخوطة من جميع الوجوه ؟ قلت هذا السؤال يورد على وجهين (أحدهما) من جهة الرب سبحانه وتعالى · وهل يكون محبا لها من جهة افضائها الى محبوبه وان كان يبغضها لذاتها ؟ (والثاني) من جهة العبد . وهو انه هل يسوغ له الرضاء بها من تلك الجهة أيضا ؟ فهذا سؤال له شأن .

فاعلم ان الشر كله يرجع الى العدم ، اعني عدم الخير واسبابه المفضية اليه ، وهو من هذه الجهة شر ، واما من جهة وجوده المحض فلا شرفية · مثاله ان النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة ، وانما حصل لها الشر بقطع

كان كارها لما يحبه من طاعته وتوحيده ، فلايكون راضيا بما يختاره من عقوبته ، ولو فعل ذلك لارتفعت عنه العقوبة .

فان قلت : فكيف يجتمع الرضا بالقضا الذي يكرهه العبد من المرض والفقر والألم مع كراهته ؟ قلت : لا تنافي في ذلك فانه يرضى به من جهة افضائه الى ما يحب ، ويكرهه من جهة تألمه به ، كالدواء الكريه الذي يعلم ان فيه شفاءه ، فانه يجتمع فيه رضاؤه به وكراهته له .

فان قلت : كيف يرضى لعبده شيئا ولايعينه عليه ؟ قلت : لأن اعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي اكره اليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة ، بحيث يكون وقوعها منه مستلزما لمفسدة راجحة ، وبفوتها لمصلحة راجحة ، وقد اشار تعالى الى ذلك في قوله (ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل : اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين) فاخبر سبحانه انه كره انبعاثهم مع رسول الله للغزو وهو طاعة وقربة ، وقد امرهم به، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت تترتب على خروجهم او خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «لو خرجوا فيكم مازادوكم الاخبالا» أي فسادًا « ولأوضعوا خلالكم » أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر « يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم » أي قابلون منهم مستجيبون لهم ، فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول اولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم ، فاقتضت الحكمة والرحمة ان منعهم من الخروج وأقعدهم عنه . فاجعل هذا المثال اصلا لهذا الباب وقس عليه .

فان قلت قد تصور لي هذا في رضاء الرب تعالى لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه ، فكيف لي بان يجتمع الامران في حقي بالنسبة الى المعاصي والفسوق ؟ قلت : هو متصور ممكن ، بل واقع ، فان العبد يسخط ذلك و يبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له واقع بسببه وارادته واختياره ، ويرضى بعلم الله

والاعداد، والامداد. فهذه هي الخيرات واسبابها، فايجاد هذا السبب خير وهو الى الله، واعداده خير وهو اليه أيضا، وامداده خير وهو اليه، فاذا لم يحدث فيه اعدادا ولا امدادا حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس الى الفاعل، وانما اليه ضده.

فان قلت: فهلاّ أمده اذ أوجده؟ قلت: ما اقتضت الحكمة ايجاده وامداده فانه سبحانه يوجده ويمده، وما اقتضت الحكمة ايجاده وترك امداده اوجده بحكمته ولم يمده بحكمته، فايجاده خير، والشر وقع من عدم امداده.

فان قلت: فهلاّ امد الموجودات كلها؟ فهذا سؤال فاسد، يظن مورده ان التسوية بين الموجودات ابلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة كل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت، والتفاوت انما وقع بامور عدمية لم يتعلق بها الخلق، والا فليس في الخلق من تفاوت. فان اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

كما ذكر ان الاصمعي اجتمع بالخليل بن احمد وحرص على فهم العروض فاعياه ذلك، فقال له الخليل يوما: قطع لي هذا البيت. وانشده (إذا لم تستطع) البيت، ففهم ما اراد فامسك عنه ولم يشتغل به

وسر المسألة ان الرضاء بالله يستلزم الرضاء بصفاته وأفعاله واسمائه واحكامه، ولا يستلزم الرضاء بمفعولاته كلها، بل حقيقة العبودية ان يوافقه عبده في رضاه وسخطه، فيرضى منها بما يرضى به ويسخط منها (١) ما سخطه. فان قيل: فهو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة. فكيف يمكن العبد ان يرضى بعقوبته له؟ قيل او وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسرورا، ولكن لا يقع ذلك (٢) فانه لم يوافقه في محبته وطاعته التي هي سرور النفس وقرة العين وحياة القلب، فكيف يوافقه في محبته للعقوبة التي هي اكره شيء اليه، واشق شيء عليه؟ بل

(١) حذف من البغدادية كلمة «منها» (٢) وفيها «منه ذلك»

لا بنفسه ، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال البتة ، فان عليه حصنا حصينا من « في يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي » فلا يتصور منه الذنب في هذه الحال ، فاذا حجب عن هذا المشهد وسقط الى وجوده الطبيعي وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس والطبع والهوى ، وهذا الوجود الطبيعي قد نصبت فيه الشباك والاشراك ، وارسلت عليه الصيادون ، فلا بد ان يقع في شبكة من تلك الشباك ، وشرك من تلك الاشراك ، وهذا الوجود وهو حجاب بينه وبين ربه ، فعند ذلك يقع الحجاب ويقوى المقتضي ، ويضعف المانع ، وتشتد الظلمة ، وتضعف القوى . فأنى له بالخلاص من تلك الاشراك بالشباك ؟ فاذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبيعي وانجاب ظلامه ، وزال قتامه ، وصرت بربك ، ذاهبا عن نفسك وطبعك

بدا لك سر طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت انت ظلامه
فأنت غبت عنه حل فيه وطنبت على منكب الكشف المصون خيامه
فأنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه
وجاء حديث لا يمل سماعه شهي الينا نثره ونظامه
اذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المعنى قتامه

فهنالك يحضره الندم والتوبة والانابة ، فانه كان في المعصية (١) بنفسه ، محجوبا فيها عن ربه وعن طاعته ، فلما فارق تلك الوجود وصار في وجود آخر بقي بربه لا بنفسه ، واذا عرف هذا فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه ، وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية ، بل يجامعه ويستمد منه . وبالله التوفيق .

(١) سقط من الحجازية « في المعصية »

وكتابته ومشيئته واذنه الكوني فيه ، فيرضى بما من الله ، ويسخط ما هو منه .
فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان ، وطائفة اخرى رأوا كراهة ذلك مطلقا ، وعدم الرضاء من كل وجه ، وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون اولئك ، فان العبد اذا كرهها مطلقا فان الكراهة انما تقع على الاعتبار المكروه منها ، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيئته وإلزامه حكمه (١) الكوني ، واولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الرب وابغضها لأجله .

وسر المسألة ان الذي الى الرب منها غير مكروه ، والذي الى العبد منها هو المكروه والمسخوط ، فان قلت : ليس الى العبد شيء منها - قلت : هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المكان الضيق ، والقدري اقرب الى التخلص منه من الجبري ، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم اسعد بالتخلص منه من الفريقين .

فان قلت : كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير ، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة ؟ قلت : هذا الذي اوقع من عميت بصيرته في شهود الامر على خلاف ما هو عليه ، فرأى تلك الافعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر ، وقال : ان عصيت أمره فقد اطعت ارادته في ذلك . قيل

أصبحت منفعلا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء اعمى الخلق بصائر ، واجهلهم بالله واحكامه الدينية والكونية ، فان الطاعة هي موافقة الامر لا موافقة القدر والمشيئة ، ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان ابليس من اعظم المطيعين لله ، وكان قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له ، فيكون قد عذبهم اشد العذاب على طاعته ، وانتقم منهم لاجلها ، وهذا غاية الجهل بالله واسمائه وصفاته وافعاله .

فان قلت : ومع ذلك فاجمع لي بين الندم والتوبة وبين مشهد القيومية والحكمة . قلت : العبد اذا شهد عجز نفسه ونفوذ الاقدار فيه ، وكمال فقره الى ربه ، وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين - كان (٢) بالله في هذه الحال

(١) في البغدادية « وحكمه الكوني » (٢) جواب « اذا »

الفَصْلُ الأَول

إِعْلَمْ انه لم يكلف الله احدا من عباده بان يكون حنفيا او مالكيا او شافعيا او حنبليا ، بل اوجب عليهم الايمان بما بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم، والعمل بشريعته . غير ان العمل بها متوقف على الوقوف عليها، والوقوف له طرق ، فما كان منها مما يشترك به العوام واهل النظر كالعلم بفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج والوضوء اجمالا ، وكالعلم بحرمة الزنا والخمر واللواطة وقتل النفس، وغير ذلك مما علم من الدين بالضرورة ، فذلك لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد ومذهب معين ، بل كل مسلم عليه اعتقاد ذلك . فمن كان في العصر الاول فلا يخفى وضوح ذلك في حقه ، ومن كان في الأعصار المتأخرة ، فلوصول ذلك الى علم ضرورة من الاجماع والتواتر وسماع الآيات والسنن ، اي الأحاديث الشريفة المستفيضة المصرحة بذلك في حق من وصلت اليه .

وَأَمَّا ما لا يتوصل اليه الا بضرب من النظر والاستدلال فمن كان قادرا عليه بتوفر آلاته وجب عليه فعله ، كالائمة المجتهدين رضوان الله عليهم اجمعين ، ومن لم يكن له قدرة عليه وجب عليه الاتباع الى من يرشده[1] الى ما كلف به ممن هو أهل النظر والاجتهاد والعدالة، وسقط عن العاجز تكليفه بالبحث والنظر لعجزه بقوله تبارك وتعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) وقوله عز من قائل (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم

(١) المنار : حق العبارة ان تكون « اتباع من يرشده »

القول السديد

في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

اللهم ارنا الحق حقا واهدنا لاتباعه ، وارنا الباطل باطلا ووفقنا لاجتنابه

الحمد لذاته وجميل صفاته ، والشكر له على آلائه ونعمائه وعطائه وهباته ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله المبعوث بالدين المتين ، والكتاب المبين ، سيدنا ومولانا ونبينا محمد الرسول الامين ، وعلى آله واصحابه الهداة المهتدين .

أما بعد فهذه تعليقة موسومة (بالقول السديد . في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد) اذكر فيها ما حضرني من بعض مسائل الاجتهاد ، واقتداء المقلد بامام يرى خلاف قول مقلده — بفتح اللام — إما اجتهادا او تقليدا ، وما يتعلق بذلك ويتفرع عليه ، متصدا للتبع في ذلك ، بل قيدت ما سنح للخاطر الفاتر ، في الوقت الحاضر ، من غير تقيد بمراجعة في ذلك ، وهي نبذة يسيرة من شيء كثير . فاقول وبالله الاعانة

الكلام في هذه المسائل على فصول .

(*) هذه الرسالة هي تأليف الفقيه الاصولي الشيخ محمد بن عبد العظيم المكي الحنفي ابن المقدسي المبروز الملا فروخ بن عبد المحسن الرومي المورروي ، اتم تأليفه سنة ١٠٤٢ للهجرة ظفر بنسخة خطية منها صديقنا الشيخ مصطفى بن محمد سليم الغلاييني فأرسلها الينا فاستحببنا نشرها في المنار لفوائدها وللاستشهاد بها على وجود العلماء المنصفين الميسرين الجامعين للكلمة في كل شعب اسلامي وكل عصر من عصور ضعف العلم

اجتهاده ، لاننا نقول : انما ابيح التقليد بقدر الضرورة . وذلك يندفع بتقليدك له في عملك وكيفيته فقط ، وان شئت قل : في كيفية ايقاع ما كلفت به فقط . واما الحكم ببطلان مخالفه فليس ذلك اليك ، بل للكلام مجال في تسويغ ذلك للمجتهد الذي قلدته .

وَأَمَّا أَنتَ ، ومن هو في مرتبتك من المقلدين ، فقول « كل مجتهد » عنده على حد سواء ، اذ ليس الترجيح بالدليل من وظائفك ، والا كنت في درجتهم ووجب عليك الاجتهاد وارتفع التقليد ، ولكن لا بد للعمل في تصحيحه من مستند ، فانت استندت الى امامك ـ ونعم الامام ـ وهذا الآخر استند الى امام في فعله مثل امامك أو أعلى منه ، فلا يمكنك الحكم على عمله بالبطلان البتة ، فلست حينئذ في تخلفك عن الاقتداء به الا عاملا بمحض التعصب ، وقد نص علماؤنا وغيرهم من اصحاب المذاهب على حرمة التعصب وتصويب الصلابة في المذهب ، ومعنى الصلابة أي[1] الثبات على ما ظهر للمجتهد من الدليل ، وليس ذلك الا للمجتهد نفسه او لمن هو من اهل النظر ممن اخذ بقوله

والتعصب هو الميل مع الهوى لاجل نصرة المذهب ومعاملة الامام الآخر ومقلديه بما يحطط عنهم . وقد نص في جواهر الفتاوى وغيرها من كتب اصحابنا ان الامام الشافعي رحمه الله تعالي لم يكن له تعصب على أئمتنا رحمهم الله تعالى .

(١) لفظ « أي » لاحاجة اليه . فلعله سبق قلم من الناسخ أو المؤلف

لاتعلمون) وهي الاصل في اعتماد التقليد، كما اشار اليه المحقق الكمال ابن الهمام في التحرير[١].

فصل

إذا علمت ذلك، فاعلم ان ابا حنيفة ومالكا والشافعي واحمد بن محمد ابن حنبل رحمة الله عليهم اجمعين، كلٌّ كان من اهل الذكر الذين وجب سؤالهم لمن لم يصل الى درجة النظر والاستدلال، فاذا عمل احد من المقلدين في طهارته وصلاته او شيء مما جرى به التكليف بقول واحد منهم مقلدا له فيه - لو صادف قوله، ولو لم يعلم به حين العمل فقلده فيه بعد انقضائه على ما ظهر لي في المسئلة؛ كما يدل عليه ما استشهد به في المسئلة بعد هذا - فقد ادى ما عليه، وليس لاحد ممن هو في درجة التقليد له. قلت: بل ولا للمجتهد الانكار عليه، كما صرح به في غير كتب عندنا من تصانيف الصدر الشهيد حسام الدين وغيره من كتب المذهب المعتبرة، كالتجنيس والمؤيد لشيخ الاسلام برهان الدين صاحب الهداية كما نقلته بخطي عنها في مظانه.

اذا ثبت ذلك فليس لحنفي او مالكي او شافعي من المقلدين ان يمتنع من الاقتداء بالإمام المخالف لمذهبه، وليس له ان يحتج باني لما قلدت الشافعي وابا حنيفة — مثلا — فقد وجب علي الحكم ببطلان ما خالف

(١) المنار: التقليد الاخذ بالرأي من غير دليل. وإنما تدل الآية على السؤال عن الدليل، وهو ما تواتر عند أهل الكتاب من كون جميع الرسل كانوا رجالا. ومثله طلب النص دون الرأي. هذا وان الاجتهاد يتجزأ فمن لم يقدر على معرفة جميع الاحكام أو أكثرها بالنظر والاستدلال يجوز ان يقدر على مايحتاج اليه منها كله او بعضه، وحينئذ يمتنع عليه ان يأخذ فيه برأي غيره واجتهاده، كما ثبت في علم الاصول

فإن قلت : قد نقل الامام حافظ الدين النسفي صاحب الكنز والكافي في مصنفاه عن المشايخ المتقدمين : انا اذا سئلنا عما ذهبنا اليه في الفروع نجيب بأن ماذهبنا اليه صواب يحتمل الخطأ ، وما ذهب اليه الغير خطأ يحتمل الصواب . انتهى بمعناه ، وان لم يكن بلفظه . وهذا يوجب امتناع المقلد من اتباع امام يرى مخالفة قول امامه لكونه خطأ ، وما تلد فيه صواب عنده .

قلنا : المراد من هذا تخصيص (أن) ماذهب اليه أئمتنا هو صواب عندهم مع احتمال الخطإ ، اذ كل مجتهد قد يصيب وقد يخطئ في نفس الامر . واما بالنظر الينا فهو مصيب في اجتهاده ، وهو معنى ما روي ان كل مجتهد مصيب ، فليس معناه ان الحق يتعدد .

وينبغي ان يكون قد اراد الكلام[1] ان للمجتهد الحكم ظنا لا قطعيا بأن اجتهاد غيره خطإ . واما نفس المجتهد المخالف فهو مصيب في العمل باجتهاد نفسه لا مخطئ في ذلك ، وان كان محكوما بخطإ اجتهاده عند غيره ، لانه مأمور باجتهاد نفسه كما لا يخفى .

قال الامام فخر الاسلام علي بن محمد البزدوي في شرح الجامع الصغير في مسئلة التحري بالقبلة في الليلة المظلمة : وهذا نص من اصحابنا على انهم لم يقولوا : كل مجتهد مصيب . خلافا للمعتزلة ، فان من نسب ذلك اليهم فقد تقول عليهم . هذا لفظ فخر الاسلام رحمة الله عليه .

قلت : وقد ذهب بعضهم الى ان الحق يتعدد في المسئلة ، وهو ما أدى

(١) المنار : كانت هذه الجملة الى الاربعة الاسطر موضوعة في الفصل السابق قبل قوله « وأما أنت » الخ ولا معنى لها هناك ولا مرجع لضميري يكون وأراد .

فصل

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يقتدي بعضهم ببعض ، وكذا التابعون لهم ، — وفيهم المجتهدون — ولم ينقل عن احد من السلف رحمهم الله تعالى انه كان لا يرى الاقتداء بمن يخالف قوله في بعض المسائل ولو في خصوص الطهارة والصلاة ، بل كان يقتدي بعضهم ببعض ، وربما اعتقد بعضهم ولاية بعض ، حتى ان الشافعي رضي الله عنه بعث يطلب قميص الامام أحمد بن حنبل من بغداد يستشفي به في مدة مرضه بغسله وشرب مائه — كما رأيته مثبتا في مناقب احمد رضي الله عنه — وقد روي ذلك بالعكس[1] وكذلك كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يعامل بعضهم بعضاً ، كما يعلم ذلك من سيرهم واحوالهم

ولا يلتفت الى ما قد تمسك به من لا معرفة عنده بان الاختلاف بينهم لم يكن بينهم بهذه الصفة التي عليها المذاهب الآن ، لانا قد قررنا ان ذلك لا يمنع ، لأن الكل كانوا في طلب الحق على حد متساو ، واجتهاد كل واحد منهم يحتمل الخطأ كغيره بعد تسليم بلوغهم درجة الاجتهاد ، وان تفاوتوا فيه .

---

(١) في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي أن الشافعي أرسل الى أحمد كتابا من مصر وهو ببغداد مع الربيع يذكر له فيه ان النبي (ص) أمره ان يكتب اليه « إنك ستمتحن وتدعى الى القول بخلق القرآن فلا تجبهم فيرفع الله لك علما الى يوم القيامة » وان أحمد أعطى الربيع قميصه بشارة ، وأن الشافعي قال للربيع لما عاد : ليس نفجعك به ولكن بله وارفع الي الماء لأتبرك به . فهذا أصل الحكاية وبعض الناس يتصرفون فيها . والسند الذي ذكره السبكي لا يصح ، ولكنهم يقبلون مثله في المناقب

فيه ولا يدري[1] بطلان كل ما عداه فليس مكلفا .

فإن قلت : بل هو مكلف ، والاّ لزم اذاً التكليف مع اعتقاد عدم صحتها .

قلت : لا يلزم ذلك الا لو اعتقد عدم صحة ما قلد فيه، ونحن لانقول به ، بل هو على الصواب ظاهرا حيث فعل ما عليه ، وهو الاخذ بقول مجتهد ، واما تخطئة من اخذ بخلاف قول مقلده فما هو مكلف بها .

وَإِذَا تَقَرَّرَ هذا فلا يسوغ لحنفي او شافعي وجد في المسجد اماما على خلاف مذهبه بعد ان كان من اهل السنة والجماعة تركُ الاقتداء به، نظراً الى عدم صحة صلاته على مقتضى مذهب امامه[2] .

فصل

يؤيد ما ذكرته ما نقله التقي الشمني في شرح المختصر والشيخ عثمان الزيلعي وصاحب البحر الرائق وغيرهم عن الامام الجليل أبي بكر الرازي رحمه الله من صحة الاقتداء بامام رعف ولم يتوضأ ، وهذا يشعر بالاكتفاء باعتقاد الامام نفسه في صحة صلاته ، ولا عبرة حينئذ بفسادها في اعتقاد المقتدي ، كما اشار اليه النسفي ايضا ، وهذا القول هو المقصود روايته وان اعتمد خلافه رواية عندنا . وهو الذي اميل اليه ، وعليه

(١) المنار : كذا في الاصل ولعل في الكلام حذفا والمراد ظاهر . أي: وأما اعتقاد صحة ماقلد فيه ولا يدري مادليله، وبطلان كل ماعداه فليس مما يكلفه .

(٢) تقييده بأهل السنة فيه بحث فقد أجازوا الاقتداء بالفاسق ولو في الاعتقاد كالمبتدع ولكن مع الكراهة وهذا مما يحقق به كونهم أهل الجماعة أي يجمعون كلمة المسلمين ولا يفرقونها

اليه اجتهاد كل مجتهد فيها ، فقد جعل الله تبارك وتعالى حكم المسئلة ما أدى اليه اجتهاد كل مجتهد . ولكن لا نقول به ، بل معناه انه مصيب في اجتهاده ثم العمل به ، والحق عند الله واحد ، ولكن لما ظهر لهم بالدليل حكم من الاحكام وجب عليهم اتباع الدليل ، ومن ضرورة وجوب الاتباع التصويب ، والا فالشرع لا يأمر باتباع الخطإ . ثم من ضرورة تصويب قولهم تخطئة قول مخالفهم مع احتمال الاصابة من مخالفهم ، لان المجتهد لم يحصل له الا الظن لا القطع بذلك ، ولهذا لو حكم بشيء من القطعيات في العقائد يجزم بالاصابة وتخطئة المخالف ، كما ذكره النسفي في تلك المسئلة في المصفى ايضا .

فالحاصل ان المراد من أئمتنا ومن اخذ بقولهم من اهل النظر - كمشايخ المذهب الكبار المتقدمين ، كالشيخ ابي الحسن الكرخي والامام ابي جعفر الطحاوي ، والمتأخرين مثل شمس الأئمة الحلواني وتلميذه السرخسي وفخر الاسلام البزدوي وامثالهم من النظار في القرن الخامس ، والامام قاضي خان وخسرويه صاحب الهداية ، واضرابهما من اهل الانظار ذوي القدر الخطير في القرن السادس — لو سئلوا لكان جوابهم ما ذكره . ويرشد الى ذلك تعبيره بقوله « لو سئلنا » وقوله « عما ذهبنا » الى آخره . ولم يقل : لو سئل المقلد . فهذا الجواب مقدر من جانب الأئمة انفسهم فيما ذهبوا اليه ، وليس المراد ان يكلف كل مقلد ان يعتقد ذلك فيما قلد فيه ، اذ ذلك تقليد فيما لا يحتاج اليه ، وهو ممنوع ، كما افدتك من قبل ان التقليد انما يسوغ بقدر الضرورة ، وهو محتاج الى العمل ، فلا بد من التقليد في كيفية حصوله ، واما اعتقاد صحة ما قلد

مكلف انما تصح فى نفسها إماما ومأموما باعتبار رأيه ومذهبه، لا على مذهب الغير ، إذ كل مجتهد مطاع فى حكمه، ومجزي عن عمله الذي رآه ومثاب عليه ، وان لم يصب الحق ، فالحنفي لا يجزم بفساد صلاة مجتهد خرج منه الدم وهو يرى انه غير ناقض ، وان قطع بفسادها من حنفي ابتلي به على رأيه.

قوله : لا يجزم . وقوله : وان قطع . لا يخفى انه لا جزم ولا قطع فى الظنيات ، فالصواب ان يقال: لا يحكم . او لا يقول بفسادها . وكذا ان يقول: وان حكم ـ أو ـ وان قال بفسادها ، بدل قوله: وان قطع .قال جامعها.. وان قطع بفسادها من حنفي ابتلي به بناء على رأيه ومذهبه ـ الى آخر ما ذكره مما تركت ذكره قصد الاقتصار على ما هو المقصود منه .

وكذلك ايضاً اجاب عنه الشهني فى شرح المختصر وغيره من المصنفين فى مسئلة صحة اقتداء مقلد ابي حنيفة فى الوتر بمن يرى عدم وجوبه ، بانه لا يجب عليه اعتقاد الوجوب . يدل أيضا على ما ارشدتك اليه من ان التقليد انما هو بقدر الحاجة ، واعتقاد الوجوب فى عمل لم يجمعوا على وجوبه لا يجب ، بل ربما لا يسوغ كما سيأتي قريبا . فلذلك نقول : المقلد يحتاج الى ايقاع ما كلف به بطريقه لا غير . فتنبه ! فقد نقل صاحب البحر الرائق ـ وهو خاتمة المتأخرين مولانا العلامة ابن نجيم رحمه الله تعالى في (البحر الرائق شرح كنز الدقائق) عن (شرح منية المصلي) انه صرح بعض مشايخنا بانه لا ينوي فى الوتر انه واجب للاختلاف فى وجوبه ، ونقل هو ايضا عن المحيط والبدائع انه ينوي صلاة الوتر والعيد فقط ، انتهى . وهذا نص فيما اشرت اليه .

يتمشى ما ذهبنا اليه في هذه الوريقات .

بل أزيد واقول : والذي يقتضيه النظر — فيما ذهبنا اليه — لا ينبغي تخصيص عقيدة الامام بالاعتبار في الصحة ، بل يقول : يكفي حصول الصحة على قول مجتهد سواء في ذلك مطابقة عقيدة الامام والمأموم او غير مطابقة ، كمثل شافعي مس فرجه وصلى ناسيا اماما واقتدى الحنفي بالشافعي ثم نسي ودخل في الصلاة ، والحنفي كان عالما بمسه وهو ذاكر له ، فنقول : له ان يقتدي به لانه في حالته بدء ناس ، وهو متوضئ في اعتقاد الحنفي المقتدي فيكفي ذلك .

وقد قال المحقق في فتح القدير في مثل هذه الصورة : ان الاكثر على الصحة خلافاً للهندواني وغيره ، ففي هذه الصورة قد اعتبرنا اعتقاد الحنفي المقتدى ، واكتفينا بصحتها في عقيدته ، وصححنا الاقتداء ، كما انه في مسئلة اقتداء الحنفي بالامام الذي رعف ولم يتوضأ اكتفينا بصحتها في عقيدة الامام الراعف ، وصححنا الاقتداء به ، وهو الذي نقلوه عن الامام الرازي .

وقد ذكر الشيخ الامام المحقق كمال الدين بن الهمام في شرحه على الهداية عن شيخه الامام سراج الدين الشهير بقارئ الهداية انه كان يعتقد قول ابي بكر الرازي ، وانه انكر مرة ان يكون فساد الصلاة بذلك مرويا عن المتقدمين انتهى.

ورأيت في رسالة لبعض الفضلاء ، ان بعض الفضلاء كانوا يرجحون قول ابي بكر الرازي بناء على قوة دليله ووضوح بيانه ، وهو ان شرط صحة صلاة المأموم صحة صلاة الامام في نفسها ، وصلاة كل

فيما اخطأ فيه ، اعني خطأ فاحشا كمن قال : اياك نعبا واياك نستعين . نسبقه اللسان خطأ . فان الفاتحة نقصت كلمة نعبد فلم تجز صلاته على مذهب الامام الشافعي رحمه الله ما لم يعد قراءة نعبد ، فاذا اعادها صحت صلاته ولم تفسد عنده بهذا الخطإ ، لأن عنده الكلام الخطأ لا يفسد اذا كان قليلا ، وعندنا هو مفسد ، فاذا اعادها على الصحة لا يفيد لأن الصلاة قد فسدت. هذا وقد قال بعدم الفساد عندنا بعض المشايخ ان اعادها على الصحة كما نقله الزاهدي ، ولكن ظاهر ما في البزازية عن بعض علماء خوارزم انه لا تفسد ولو لم يعد على الصحة ، وان اخذه بمذهب الشافعي في عدم الفساد بالخطإ ، وهو عين التلفيق .

فان قلت : ان ذلك البعض من علماء خوارزم لعله انما قال بذلك اجتهادا بدليل قوله : ان المجتهد يتبع الدليل لا القائل . قلت : يمنع من ذلك قوله : اخذا بمذهب الشافعي ، فان المتبادر من ذلك انه قلده في ذلك . ومعنى قوله حينئذ: لما تقرر من كلام محمد - الى آخره - يعني ان المجتهد كما يتبع ما دل عليه الدليل باجتهاد لا باتباع من قال بمثل ما اداه اليه اجتهاده ، فكذلك المقلد انما يلزمه خصوص ما قلد فيه ، لا اتباع ذلك المجتهد الذي قلده في جميع ما قال به، وخصوص ما قلت فيه انما هو عدم الفساد بالخطإ في القراءة مطلقا ، سواء كان ذلك في الفاتحة اوغيرها ، وذلك هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه وعن سائر الائمة المجتهدين . وفساد الصلاة بوقوع الخطإ في الفاتحة عنده ليس لخصوص كونه في الفاتحة ، بل لفوات بعض الفاتحة عنده في الصلاة ، ولهذا لو اتي بما اخطأ فيه منها على الصحة فانه لا يقول بفساد صلاته حينئذ .

فصل

قد استفاض عند فضلاء العصر منع التلفيق في التقليد ، وذلك بأن يعمل - مثلا - في بعض اعمال الطهارة والصلاة ، او احدهما بمذهب امام ، وفي بعض العبادات بمذهب امام آخر . ولم اجد على امتناع ذلك برهانا ، بل قد اشار الى عدم منعه المحقق في التحرير ، وانه لم يرد ما يمنع ، ونقل منع التلفيق عن بعض المتأخرين . قال شارح تحريره العلامة ابن امير حاج: القائل بالمنع العلامة القرافي رحمه الله تعالى .

قلت : والقرافي رجل من فضلاء الأصوليين من المالكية ، ولا علينا ان نأخذ بقوله ، خصوصا وقد وجدت عن بعض أئمتنا ما يدل على جوازه ، بل على وقوعه ، وهو ما نقل في البزازية ان من علماء خوارزم من اصحابنا من اختار عدم فساد الصلاة بالخطإ في القراءة فيها أخذا بمذهب الامام الشافعي رحمه الله . فقيل له : مذهبه في غير الفاتحة[1] . فقال : اخترت من مذهبه الاطلاق ، وتركت القيد[2] . لما تقرر في كلام محمد[3] رحمه الله تعالى : ان المجتهد يتبع الدليل لا القائل . حتى صح القضاء بصحة النكاح بعبارة النساء على الغائب ، انتهى . نقله عنها العلامة خاتمة المتأخرين ابن نجيم في بعض رسائله في الوقف . فانظر كيف لفق اخذا بمذهبه بأن الفاتحة ليست بركن فلا يضر نقصان بعضها

---

(١) أي ذلك مذهبه في غير الفاتحة (٢) سينقل المصنف قريبا قول الخوارزمي في هذا السياق « وتركه القيد في غير محله » - أي الشافعي - فهل هو عين هذه العبارة ووقعت هنا محرفة ؟ أم سقط من الكلام هنا ؟ (٣) سيعيد العبارة بلفظ « من كلام محمد »

واجمال ذلك انه انما يقول له : انها باطلة ان كنت اخذت في ذلك الامر الذي حكمت اذا ببطلانه من اجله بمذهبي . واما ان كنت قلدت فيه غيري فلا احكم ببطلانها حينئذ في حقك ان كنت متمسكا بقول مجتهد . وكذلك يقول له الآخر ، والآخر والآخر ، فبطل اطلاق قولهم : يمنع التلفيق بان كلا من المجتهدين حاكم ببطلان صلاته مثلا ، بل يقيد الحكم منه ببطلانها بما اذا كان متمسكا فيها بمذهبه فيما يرى ذلك المجتهد بطلانها بسبب فعله او تركه ، لا ان قلد غيره فيه ، فافهم ما فيه ، فتندفع تلك المغالطة التي حكم من حكم بمنع التلفيق بسببها . فان ابيت وقلت : لا بل المجتهد يطلق القول ببطلانها على رأيه . فنقول : لا يليق هذا الابطال بما اذا قلد مجتهدا غيره في ذلك الامر الذي ابطلها بسببه ، كما لا يليق ابطاله بنقض قول ذلك المجتهد المصحح لها مع وجود ذلك الامر الذي ابطلها بسببه ذلك المجتهد الآخر ، فسلمت له صلاته — اي المقلد — بتقليده لها كل امر من امورها مجتهدا يرى صحة ذلك ، فصار حكم المجتهد المبطل في مصروفا عنه بتقليده من يرى الصحة بذلك الامر ، وبذلك ينصرف عنه حكم كل المجتهدين ، وببطلانها بيان قول المانع فيما اذا قلد المكلف اباحنيفة رضي الله عنه في ان المس غير ناقض مثلا ، وقلد الشافعي رحمه الله تعالى في الاكتفاء بمسح بعض شعرات من الرأس لا تبلغ الربع ، او مقدار ثلاثة اصابع باعتبار الرواية الاخرى في مذهب ابي حنيفة رحمة الله عليه في المقدار المفروض في مسح الرأس ، فان المانع يقول : ان ابا حنيفة والشافعي حاكمان ببطلان صلاته ، فابو حنيفة لفقد مسح المقدار المفروض عنده ، والشافعي لوجود المس ، فهي غير جائزة عندهما .

والخوارزمي لم يقلده في ركنية الفاتحة ، بل قلده في عدم الفساد بالخطإ في القراءة ـ اعني الشافعي رحمه الله تعالى يقول باطلاقه ، وقول القائل «له مذهبه في غير الفاتحة» غير صحيح ، ـ كما تقدم بيانه ـ وكذلك قول الخوارزمي له ، وتركه القيد واقع في غير محله ، لانه لم يقيده الشافعي بغير الفاتحة ، بل خرج ذلك من الخوارزمي للمشاكلة في الجواب لمن نسب اليه القيد ، اي الى الشافعي ، وذلك إما جهل من ذلك القائل بمذهب الشافعي ، او توسع في العبارة وتسامح ، لانه لما كان الشافعي يقول بالفساد بوقوع الخطإ في الفاتحة اذا لم يمد على الصحة ، فكأن غير الفاتحة صار كالقيد لاطلاق الجواز ، وليس قيدا حقيقة ـ كما بيته في اول الكلام فافهم . .

والحاصل انه لم يثبت من كل وجه كون الخوارزمي قال بذلك الاجتهاد ، ولو فرضنا ثبوت ذلك فما ضرنا ذلك فيما قصدنا اليه من جواز التلفيق ، فكما انه لو حصل التلفيق بالاجتهاد حكمنا بالصحة ، فكذلك اذا حصل التلفيق بالتقليد حكمنا بالصحة ، لان الاجتهاد اصل في العمل والتقليد فرع . التكليف في الاصل انما هو بالاجتهاد عند عدم النص ، فان عجز عن ذلك الاجتهاد نزل إلى التقليد ، ففي كل موضع قلنا بالصحة مع الاجتهاد نقول بها مع التقليد عند العجز عنه من غير زيادة امر آخر ، وما زاد على ذلك فهو قول مخترع لا يقوم به دليل مرضي ، ولا تنهض به حجة .

وما يزعمه من منع التلفيق من ان كلا من المجتهدين اللذين قلدهما ـ مثلا ـ يقول ببطلان صلاته الملفقة ـ مثلا ـ لو سئل عنها بانفراده ، فمغالطة مدفوعة بما لا يسع هذا المحل بيانه .

وغيرهما من كتاب النكاح مستشهدا بها في مسئلة من مسائل النكاح سيأتي ذكرها : للحنفي ان يعمل فيها بغير مذهبه .

اقول : فهذا ابو يوسف رحمه الله امام المذهب وكبيره المجتهد الكامل قد قلد عند الضرورة ولم يكن ذلك مذهبا له ، بل مذهبه تنجس الماء القليل وان لم يتغير بوقوع ما ينجسه فيه ، ولا شك ان الظاهر انه فعل الطهارة وصلى الصلاة على مقتضى مذهبه وانما قلد في خصوص الماء فقد حصل التلفيق منه ، وهو اوفى حجة لنا ، ويستفاد منه ايضا انه يقلد اذا احتاج ، اذ هو الظاهر من فعله هنا ، وان كان نقل في جواهر الفتاوى عن الحاوي من كتبنا : ان ابا يوسف رحمه الله بقي على هذا المذهب ستة اشهر ، ثم رجع الى مذهب ابي حنيفة رحمه الله تعالى في المسئلة . فانه يحتمل انه ظهر له بالدليل بعد التقليد صحة ما ذهب اليه غيره ممن قلده في المسئلة خصوصا ، ولفظ نقل المحيط والظهيرية « ولم يكن ذلك مذهبا له بل يدل على وقوعه تقليداً »

وهذه المسئلة وهي : هل للمجتهد ان يقلد مجتهدا في مسئلة فيها خلاف ؟ المشهور انه ليس له ذلك ، وروي عن الامام محمد رحمه الله جواز تقليد العالم للأعلم ، والفقيه للأفقه ، وفرع ابي يوسف هذا يوافقه. ثم رأيت في أصول الامام شمس الائمة ابي بكر بن محمد بن احمد بن ابي سهل السرخسي رحمهم الله تعالى — وهو صاحب — المبسوط ما نصه : على اصل ابي حنيفة رحمه الله تعالى — اذا كان عند مجتهد ان من يخالفه في الرأي اعلم بطريق الاجتهاد فانه مقدم عليه في العلم فانه يدع رأيه لرأي من عرف زيادة قوة في اجتهاده — الى ان قال — : وعلى قول ابي

اقول : وجوابه ما بيناه بأن هذه مغالطة ، واطلاق في محل تقييد، بل الحكم ببطلانها عند كل منهما مقيد بما اذا كان آخذا في ذلك الامر الذي حكم من حكم ببطلانها بسببه بمذهب المبطل - كما تقدم بيانه قريبا - فافهم والله اعلم بالصواب .

اللهم لو ذهب مجتهد الى ان المفروض من الرأس في المسح مقدار ما قال به الشافعي ، والى ان المس غير ناقض ، والى ان الدلك والموالاة في الوضوء لا يلزمان ، لم يسوغ المانع له حينئذ اجتهاده ؟ [1] فكذلك عليه ان يسوغ للمقلد تقليده في كل واحد من المذكورات لمجتهد قال بذلك . كما لا يخفى ، فان تأبّى متأبٍّ عن تلقي هذا البيان بالقبول بعد صحته ووضوحه فاقرعه بما تقدم قريبا من عدم لحوق الابطال من المجتهد بالمقلد لغيره فيما ابطله بسببه ، وان صادف حكمه عنه بذلك .

ثم نرجع ونقول : وكذلك مسئلة النكاح . فانه لا يصح بعبارة النساء على الغائب ، وعندنا الحكم بالعكس في المسئلتين ، فاذا حكم بصحته بعد وقوعه بعبارة النساء على الغائب فقد لفق ، ومع هذا فقد حكموا بصحة هذا الحكم الملفق من المذهبين . وكذلك مسئلة الامام ابي يوسف رحمه الله تعالى لما صلى بالناس الجمعة فاخبر بوجود فأرة في ماء الحمام الذي كان اغتسل منه للجمعة . فقال : نأخذ بقول اخواننا من اهل المدينة « اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا » قال في المحيط البرهاني والفتاوي الظهيرية

---

(١) قوله لم يسوغ الخ جواب لو . ومعنى النفي باطل لأن مانع التلفيق لايمنع المجتهد من القول بهذه المسائل ، ولا يصح المعنى الا اذا جعلت الجملة للاستفهام ولا تبعد على المصنف لضعفه في العربية ، والا فالعبارة محرفة

الصهيونية

(ننقل هذا الفصل من جزء نوفمبر سنة ١٩١٣ لمجلة الهلال المفيدة لاطلاع من لم يطلع عليه من قرائنا في هذه الايام التي كثر فيها الخوض في هذه المسألة)

تاريخها وأعمالها

الصهيونية دعوة اجتماعية سياسية انتشرت في الامة الاسرائيلية باواخر القرن الماضي وكثر تحدث الناس فيها بالاعوام الاخيرة . وقد همنا امرها على الخصوص في اثناء رحلتنا بفلسطين . ولابدلنا في بحثنا عن احوال تلك البلادالاجتماعية والاقتصادية من الاشارة الى هذه الدعوة وتأثيرها الشديد في تلك الاحوال . فرأينا ان نأتي على خلاصة تاريخها وحقيقة غرضها لزيادة الايضاح فنقول .

موضوعها

قد تقدم في كلامنا عن تاريخ فلسطين في الهلال الماضي كيف تشتت اليهود في انحاء العالم بعد ان جاهدوا في الدفاع عن اورشليم دفاع الاسود . وقد مضى عليهم في هـذه الهجرة نحو ١٩ قرنا وهم يندبون وطنهم ودولتهم وهيا كلهم . ولاسيما هيكل سليمان الباقية آثاره في القدس الى الآن كما سنبينه مصورا في رحلتنا . وقد حاولوا استرداد ذلك الوطن عبثا ونظموا الاشعار في رثائه . ولا يزالون الى اليوم يبكون ذلك المجد الذاهب كل اسبوع عند احجار يعتقدون انها من بقايا هيكل سليمان

وقد حاول اليهود المهاجرون السعي في استرجاع ذلك الوطن غير مرة باساليب مختلفة آخرهاالحركة الصهيونية التي نحن في صددها

ولابد لكل دعوة اجتماعية او سياسية من غرض ترمي اليه . وغرض الصهيونية «جمع الشعب الاسرائيلي في فلسطين وجعلها وطنا خاصا به» وهي مبنية من الوجهة الدينية على آيات جاءت في سفر ارميا الفصل ٣٠ عدد ١٠ حيث يقول « لا تخف ياعبدي يعقوب يقول الرب ولاتفزع يااسرائيل فاني اخلصك من الغربة وذريتك من ارض جلائهم فيرجع يعقوب ويستقر في الراحة والخصب ولايرعبه احد» وفي حزقيال (ص ٣٩ عدد ٢٨) «فيعلمون اني انا الرب الههم باجلائي اياهم الى الامم ثم جمعي

يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى « لا يدع المجتهد في زماننا رأيه لرأي من هو مقدم عليه في الاجتهاد من اهل عصره » الى آخر ما ذكره . فأفاد عن محمد خلاف ما رأيته عنه ، فلعل ان له في المسئلة روايتين ، ونقل صاحب الفتاوى الصيرفية عن فوائد تجنيس الملتقط : اشترى الامام الشافعي رحمه الله تعالى اباءلاء من منادى السكك ، فاكلوا واكلارا وصلوا بعد ما حلق وعلى ثوبه شعر كثير ، فقيل له في ذلك ، فقال :

حين ابتلينا انحططنا الى مذهب اهل العراق . وهو يفهم بظاهره انه قلد في ذلك .

فقد تلخص من المنقول عن الائمة ان التلفيق[1] من مسئلتي ابي يوسف وبعض علماء خوارزم ، ومسئلة صحة الحكم على الغائب بصحة النكاح بعدو قوعه - كما سبق في المسئلة التي ذكروها - واستدلالي بمقالة المحقق في التحرير ، وما على الانسان ان يختار الاسهل في العمل .

ثم وجدت شيخ الاسلام خاتمة الائمة المتأخرين مولانا العلامة زين الدين ابن نجيم صرح في رسالة الفها في بيع الوقف على وجه الاستبدال -

---

بان ما وقع في آخر التحرير من منع التلفيق فانما عزاه لبعض المتأخرين وليس هذا المذهب . انتهى . فحمدت الله تبارك وتعالى على موافقة ما ادعيته لما نص عليه مولانا العلامة ابن نجيم .

(للرسالة بقية)

---

(١) كذا والمعنى مأخوذ من مسألتي أبي يوسف الخ

على ذلك تأسيس الجمعية العمومية الفلسطينية وجمعية الاستعمار الفلسطيني . لكن الدعوة لم تكن نضجت بعد فلم تأت هذه المساعي بثمرة . فوجهوا التفاتهم الى وادي الفرات لعله يصح ان يكون مهجرا لهم . وبذل السياسي اولفانت الانكليزي جهده في نيل امتياز خط حديدي في ذلك الوادي ليسكن فيه مهاجري اليهود من روسيا . واقترح انشاء مهجر يهودي في فلسطين بنواحي السلط على ان تتألف جمعية رأس مالها عشرة ملايين فرنك تبتاع مليون فدان يستثمرها يهود بولندا ورومانيا والاناطول. فلم يأذن لهم السلطان — وقس على ذلك سائر مساعيهم في هذا السبيل

لكن روح الصهيونية اخذت تتمكن من قلوب اليهود . وهم يزدادون تمسكا بالعنصرية كلما زاد مقاوموهم شدة . فكثرت الجمعيات التي تألفت لهذه الغاية . واول جمعية افلحت في استثمار ارض فلسطينية نشأت سنة ١٨٧٩ ولما التأم المؤتمر الاسرائيلي سنة ١٨٨٤ للنظر في احوال المستعمرين والاخذ بناصرهم حضره مندوبون عن خمسين جمعية فازداد القوم نشاطا وبلغت الحركة اشدها سنة ١٨٩٤ واوشكوا ان يبلغوا غايتهم لكن العثمانيين انتبهوا لاغراضهم فحالوا بينهم وبين ما يريدون . ولم يستقر عملهم على قواعد متينة الا بعد ظهور الدكتور تيودور هرتسل صاحب الدعوة الصهيونية

وهو رجل نمساوي شديد الغيرة على العنصر الاسرائيلي عالي الهمة قوي الحجة كتب وهو في باريس سنة ١٨٩٥ كتابا في استعمار اليهود سماه « الوطن الاسرائيلي » لم يزعم انه يستنهض به الهمم او يستثير العزائم بل قال انه كتبه لنفسه ولايقاف بعض اصدقائه على آرائه . ولكن الكتاب مالبث ان طبع في فينا بالنمساوية حتى نقل الى الفرنساوية والانكليزية والعبرانية واعيد طبعه مرارا وراج رواجا عظيما . وحرك الهمم فوق ما كان يتوقع الناس منه . وقد عارضه كثيرون لكن المجاري الاجتماعية اقتضت ظهور ثمره لان فكرة استعمار اليهود لفلسطين كانت قد نضجت واستعدت لها الاذهان وتاقت اليها النفوس

وخلاصة آراء هرتسل في ذلك الكتاب « ان اعداء الساميين آخذون في الازدياد ولا يستطيع اليهود مقاومتهم لتشتت شملهم في الارض فهم في حاجة الى الاجتماع في وطن خاص بهم » فاقترح انشاء شركة يهودية اقتصادية رأسمالها ٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيه مركزها لندن . وان تتألف جمعية سياسية يهودية تدبر اعمال هذه الشركة وتشير عليها بما ينبغي عمله . واقترح للقيام بذلك ابتياع فلسطين او الارجنتين على ان

اياهم الى ارضهم بحيث لا أبقي هناك منهم احداً من بعد » وفي عاموس قول صريح (ص٩: ١٤) «واردّ شعبي اسرائيل فيبنون المدن الخربة ويسكنونها ويغرسون كروما يشربون من خمرها وينشئون جنات يأكلون من ثمرها واغرسهم على ارضهم فلا يقتلعون فيما بعد من ارضهم التي اعطيتها لهم »

وهناك نبوات أخرى بهذا المعنى او نحوه في زكريا واشعيا وميخا وغيرها . غير ماعندهم من الاعتقاد بالمسيح الذي سيأتي ويجمع بني اسرائيل حوله ويزحف على القدس ويعيد العبادة للهياكل وغير ذلك مما جاء في التلمود

على ان هذه الاقوال وامثالها لاتكفي لاجماع الامة على العمل بها ان لم يتوقع اصحابها نفعا اقتصاديا أوسياسيا من ورائها او ان يدفعهم للعمل جوع او اضطهاد اوظلم. وكم من اعتقاد يعتقده الناس ولايجتمعون للعمل به لعجزهم عن ذلك او لعدم الاضطرار اليه ؟ وانما يجتمعون للعمل في مايرون لهم فيه مصلحة حقيقية. ويتذرعون الى الاجتماع غالبا باسباب دينية يتوكأون عليها ويؤولونها الى مايساعدهم على ذلك القيام

ولابد في مثل هذه الحال من محرك يبعث على النهوض . وقد بعث اليهود على هذه الحركة امران : الاول تمكن الروح الملية من نفوسهم على اثر الارتقاء الاجتماعي والعلمي في العالم المتمدن . فان شيوع الحرية الشخصية ولد في نفوس الامم عصبية عنصرية غلبت على الجامعات الاخرى . وبهذه العصبية يطلب المجر التخلص من النمسا ويحاول البلقانيون الخروج من سلطة تركيا . والبلقانيون انفسهم يتحاربون الآن باسم العنصرية مع انهم من مذهب واحد واقليم واحد . والامر الثاني مبالغة الامم النصرانية في امتهان اليهود باسم الانتسميتزم (Antisemitism) ومعنى اللفظة «مقاومة الساميين» لكنهم يريدون بهم اليهود خاصة . فآل ذلك طبعا الى اجتماع كلمة اليهود باوربا وفيهم طائفة حسنة من اصحاب الاموال ورجال السياسة والعلم وأهل الهمة والنشاط فاخذوا يبحثون في الدفاع عن امتهم . وآنسوا في انفسهم المقدرة على العمل بتلك الآيات فوجهوا عنايتهم اليها، فأخذ كتابهم يحرضون قومهم على الاستعمار في فلسطين للتخلص من اضطهاد الامم لهم . وقال بعضهم « اذا لم يكن ابتياع فلسطين ممكنا فلنطلب وطنا في مكان آخر على وجه هذه البسيطة »

ونشط آخرون لاستنصار الجمعيات الخيرية الاسرائيلية كجمعية الاتحاد الاسرائيلي على القيام بهذا العمل سنة ١٨٦٣ ولكن هذه الجمعية غرضها الرئيسي تهذيب الشبيبة اليهودية. وحاول غيرهم استنهاض جمعية اليهود الانكليزية في لندن وجمعيتهم في برلين فترتب

الخطب في اللغات العبرانية والالمانية والافرنسية والانكليزية والعربية . وشكلوا عمدة للاستعمار الاسرائيلي . فلما انعقد المؤتمر الثاني في فينا ثم في باسل سنة ١٨٩٨ ظهر في التقارير التي تليت في ذلك الاجتماع ان الجمعيات الصهيونية القائمة بذلك العمل تضاعفت كثيرا واصبح عددها ١١٥٠ جمعية . فاخذ اعداؤها يتقربون منها وآمن بمباديها كثيرون من رجال الدين . وتقرر في هذا المؤتمر تعيين جمعية خاصة بالاستعمار غرضها توسيع نطاقه وان تكون اللغة العبرانية هي لغة اليهود حيثما وجدوا

وقس على ذلك ماجرى في المؤتمرات التالية . فانعقد المؤتمر الثالث في باسل ايضا وكانت ابحاثه اكثرها في نيل امتياز من السلطان عبد الحميد لم يسفر عن نتيجة ، وبلغ عدد الجمعيات الروسية فقط ٨٧٧ جمعية . وعدد المنتظمين في عضوية الجمعية ٢٥٠٠٠ نفس. وانعقد المؤتمر الرابع في لندن سنة ١٩٠٠ والخامس في باسل سنة ١٩٠١ وفي هذا المؤتمر تقرر عقد مؤتمر عمومي كل سنتين . غير المؤتمرات الفرعية في اثناء السنتين. وقرروا انشاء مكاتب للمطالعة ومدارس وتأليف دائرة معارف عبرانية وانعقد المؤتمر السادس في باسل سنة ١٩٠٣ وتقرر فيه ارسال لجنة الى اوغندة تبحث في هل تصلح تلك البلاد للاستعمار . وقرر تخصيص ٢٠٠٠٠٠ جنيه لشراء ارض في فلسطين وسوريا

وفي السنة التالية ١٩٠٤ توفي الدكتور هرتسل صاحب هذه الدعوة فانتخبوا مكانه الدكتور نوردو رئيسا . وعرضت انكلترا في ذلك العام على الصهيونيين ارضا في شرقي افريقيا الانكليزية على سكة حديد اوغندة بين نيروبي وماو لاجل انشاء مستعمرة يهودية مستقلة باحكامها تحت رعاية الدولة الانكليزية . فعينت لجنة للبحث فقررت ان البقعة ضيقة لاتكفي فرفضوها . وقس على ذلك سائر مؤتمرات الصهيونية وآخرها المؤتمر الحادي عشر الذي انعقد هذا في العام فينا برئاسة الموسيو وانسن وقد جاء فيه ان الصهيونية سائرة على قدم النجاح وان سلامتها مرتبطة بسلامة الدولة العثمانية لان المسألة اليهودية والمسألة العربية متفقتان . وقرر اشياء اخرى اهمها انشاء جامعة في اوشليم لتعليم العلوم العالية باللغه العبرانية وفي جملتها اللغات الشرقية والفلسفة القديمة والحديثة . غير المؤتمرات الفرعية التي كانت تعقد في انحاء العالم المتمدن ومنها مؤتمر عقد في زمارين من اعمال فلسطين حضره ٥٠ عضواً وشرط للدخول في الجمعية خمسة غروش يدفعها الطالب . وقسموا فلسطين من حيث الصهيونية الى ست مناطق وتقرر تأليف جمعيات وفروع للاخذ بناصرها .

ومن قرارات المؤتمر السابع من حيث العمل في فلسطين السعي في التنقيب عن

ينتقل اليهـا اليهود انتقالا منتظما . ثم عدل هرتسل رأيه هذا فحصر طلبه باستعمار فلسطين دون سواها لعلمه ان الناس لا يساقون بمثل الشعائر الدينية واليهود هجروا فلسطين وقلوبهم في هيكل سليمان

ولم تمض سنة على نشر آراء هرتسل حتى اقبلت الجمعيات على الاخذ بها. واول من فعل ذلك جمعية اليهودالنمساوية فوقع بضعة آلاف منهم سنة ١٨٩٦ على خطاب يطلبون فيه تأسيس جمعية يهودية في لندن ، غير من أخذ برأيه وتعصب له من الناشئة المتألمين من مقاومة اليهود . على ان طائفة كبيرة من الحاخامين في روسيا والمانيا والنمسا وانكلترا عارضوه في بادئ الرأي لانه لم يعتبرالوجهة الدينية من المسألة كما ينبغي. ولان أتباعه اكثرهم من الشبان المتنورين(١) واتهموهم بكل قبيح . وكان المسيحيون أشدعطفا على الصهيونية من اولئك الحاخامين فنصروها باقلامهم والسنتهم

ومن جملة العقبات التي قامت في طريق الصهيونية مسألة التعليم لان الحاخامين اعتبروا نشر العلوم العصرية من قبيـل الخروج عن الآداب الدينية . واشاعوا ان الصهيونية من آلات الكفر . فلما انعقد المؤتمر الثاني رأى هرتسل من الحكمة مسالمة رجال الدين فاعترف ان الصهيونية تشمل السعي في احياء شعائر الدين فضلا عن الاقتصاد والسياسة

اعمال الصهيونية ووسائلها

قد يستغرب القارئ نجاح هذه الدعوة في هذه المدة القصيرة . لـكنه اذا علم الغرض والوسيلة هان عليه ذلك . دعا هرتسل الشعب اليهودي من انحاء العالم المتمدن الى مؤتمر اجتمع في باسل سنـة ١٨٩٧ حضره نيف ومئتا عضو بعضهـم يمثلون جماعات . وكانت الاذهان متأهبة لقبول الدعوة فلم يكتفوا باعلانهـا — وهي ايجاد وطن شرعي للشعب الاسرائيلي في فلسطين – بل بحثوا في الوسائل المؤدية الى نشرها وتأييدها فقرروا لذلك ثلاث وسائل من ارقى الوسائل المؤدية الى النجاح وهي :

(١) احياء آداب العبرانية ونشرها

(٢) انشاء مدارس لتعليم اللغة العبرانية

(٣) انشاء مالية مشتركة لليهود

واخذوا بعد انفضاض هذا المؤتمر في تأييد هذه القرارت بنشر الكتب والقاء

(١) لعلها المتهورين كما يقتضيه السياق

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

أعيان البيان . من صبح القرن الثالث عشر الهجري الى اليوم

كتاب خاص بتاريخ الآداب العربية في هذا العصر ، وتراجم نوابغ الادباء والشعراء تأليف حسن افندي السندوبي . طبع بمطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ و ١٩١٤ مالية صفحاته ٤٣٢ بقطع المنار بحرف متوسط الحجم على ورق جيد ثمنه ١٠ قروش خلا اجرة البريد ويطلب من مكتبة المنار بشارع عبد العزيز بمصر

اندفع كتاب العربية في هذه السنين الاخيرة الى تدوين آداب اللغة العربية وتاريخها فكتب جرجي بك زيدان والشيخ احمد الاسكندري ومصطفى افندي صادق الرافعي وغيرهم ، وألقى أشهر علماء الادب بمصر الشيخ محمد المهدي استاذ هذا الفن في الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي دروسا في الجامعة المصرية وغيرها في الموضوع تبلغ أسفارا ، واتجهت نفوس الاساتذة والطلبة الى استخراج جواهر هذا الفن من قواميس جهابذة العربية واساطينها . فتسابق المؤلفون والمدرسون في هذا المضمار

وكان مؤلف هذا الكتاب حسن افندي السندوبي يراقب هذه الحركة وضم الى مطالعة كتب الأدب القديمة مطالعة هذه المكتوبات الحديثة وأعد العدة الى تأليف كتاب في ركن من أركان الموضوع لم يطرقه المعاصرون وهو تراجم اشهر ادباء هذا القرن والذي قبله فاثبتها ذاكراً مميزات المترجم فمؤلفاته فنبذا من آثاره القلمية نثرا ونظما

وقد جعل كتابه هدية لمليك البلاد اعزه الله وصدره بمقدمة شعرية تاريخية اجمل فيها تطورات الادب العربي في ست عشرة صفحة أوجز فيها واختصر فالكتاب مفيد وليس له في بابه نظير من المؤلفات العصرية وأني لارجو ان اوفق الى مطالعته لاعطيه حقه من التقريظ والنقد

﴿ ديوان المازني ﴾

الجزء الاول منه نظم ابراهيم عبد القادر المازني طبع بمطبعة البسفور صفحاته ١٥٧ بقطع رسالة التوحيد بحرف كبير ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

صدر المازني ديوانه بمقدمة عنوانها « الطبع والتقليد في الشعر العصري » من انشاء

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

الآثار وترويج الزراعة والصناعة وتحسين سائر الاحوال الاقتصادية وترقية الهيأة الاجتماعية اليهودية وغيرذلك. وبلغت الجمعيات الصهيونية الآن الوفا عديدة ترجع في اعمالها الى قرارات المؤتمرات العامة

وللجمعية مصارف مالية لترويج اغراضها منها «المصرف اليهودي الاستعماري» وغرضه سياسي. وهو اهم ادوات الجمعية في موضوعها الاساسي. والغرض منه «تنشيط الاستعمار الاسرائيلي في فلسطين وسوريا وسائر انحاء تركيا وفي جزيرة سينا وقبرص». وهو بنك مساهمة عدد المساهمين فيه نحو ١٣٥٠٠٠ وله شعبة في يافا باسم الشركة الانكليزية الفلسطينية لها فروع في اكثر مدائن فلسطين. وزاد رأس ماله على ١٢٠٠٠٠ جنيه والبنك اليهودي الملي والغرض منه جمع رأس مال يكون ملك الصهيونية يستخدم لابتياع الارضين في فلسطين. واشترطوا ان رأس ماله لايمس حتى يبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه. وقد زاد الآن على ١٢٠٠٠٠ جنيه

غير ما انشأته الجمعية من وسائل التعليم والتهذيب كالمكاتب والمدارس والجمعيات الادبية والصحية للرجال والنساء وعززوا شأن المرأة واعطوها حق التصويت والانتخاب لعضوية المؤتمر، فالفت الجمعيات النسائية الادبية والتهذيبية والاجتماعية

وناهيك بما انشأوه من الصحف الكبري لخدمة اغراض الجمعية في روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا وانكلترا ومصر وبلغاريا وغيرها. وانتشرت الدعوة الصهيونية بذلك في انحاء العالم المتمدن الى الصين واليابان وتركستان وفيليبين فضلا عن ممالك اوربا واميركا وغيرها. واصبح انصارها يعدون بالملايين. وهي مؤلفة من احزاب وفرق تتناقش وتتباحث سعيا في المصلحة العامة وتأييد الغرض الاصلي المراد بها. فهي اشبه بدولة ديموقراطية منها بجمعية سياسية اجتماعية. وقد اتخذت احسن الوسائل المؤدية الى تقوية البدن وتوسيع العقل وتأييد المبدإ فافلحت مساعيها. وانشأت في فلسطين مستعمرات يهودية في اطيب ارضها واكثرت من المدارس والمزارع والجمعيات والمكاتب والمصارف والمعامل الصحية والطبية. واهم تلك المساعي من الوجهة الاجتماعية احياء اللغة العبرانية وآدبها مما سنأتي على امثلة منه في الكلام عن احوال فلسطين الاقتصادية والاجتماعية من رحلتنا لهذا العام.

---

(١) المنار ليعتبر بهذه الهمة العالية من كان له قلب يشعر وعقل يفكر وليتعلم من سيرة هؤلاء اليهود كيف تحيا الامم بعد موتها وتعز بعد ذلها، وليحث في افواه اليائسين التراب قبل ان يحثى على اجسادهم لعنة الله عليهم أجمعين

(دروس الديانة والتهذيب) الجزء الاول منه طبعة ثانية سنة ١٩١٤ صفحاته ٤٥ بالقطع الصغير والجزء الثاني منه تحت الطبع ويطلب من مكتبة المنار بمصر

(مقرر السنة الاولى لتلاميذ المكاتب منه) ـ مواضيعه، معرفة الله، والرسل، رسالة سيدنا محمد (ص) سيدنا آدم، سيدنا نوح، نجاة سيدنا ابراهيم من النار، سيدنا يوسف واخوته، اجتماع يوسف مع ابيه واخوته، سيدنا موسى والعصا، هجرة سيدنا محمد الى المدينة، نواقض الوضوء، الاشياء اللازمة لكل صلاة، كيفية الصلوات الخمس.

(مقرر السنة الثانية لتلاميذ المكاتب أيضا) سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولادته، أعماله، أخلاقه قبل الرسالة، هجرته الى المدينة، مقابلة أهل المدينة له، انتشار الدين الاسلامي بعد الهجرة، الاسلام بعد فتح مكة، وفاته (ص) قواعد الاسلام الخمس، الشهادتان، الصلاة وأوقاتها، شروط صحتها، مبطلات الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الاخلاق الفاضلة المأخوذة من القرآن الكريم الخ

(كتاب المطالعة السهلة) الجزآن الثاني والثالث مقرران للفرقتين الثالثة والرابعة من المكاتب طبع طبعة ثانية سنة ١٩١٤ منقحا على حسب ما رأته نظارة المعارف صفحاته ٦٩ يطلب من مكتبة المنار بمصر ومن المؤلفين وهو مجموعة حكايات ومحادثات ونبذ علمية واجتماعية واخلاقية وادارية الى غير ذلك

(دروس الحساب) هو كتاب على اسلوب سهل الجزء الاول منه للفرقة الاولى والثاني للثانية من تلاميذ المكاتب وهكذا الى الرابع

هذه الكتب الثلاثة تأليف الاستاذين العالمين الشيخ مصطفى العناني المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية والشيخ عطية الاشقر مساعد مفتش بنظارة المعارف العمومية، وناهيك بكتب يضعها للتعليم من اشتغل فيه عدة سنين في مدارس متفرقة، فاحر بهذه الكتب ان تنتشر في الآفاق العربية وان تستعملها الحكومة العثمانية في مدارسها، على انني لم اطلع بعد على جميع الاجزاء وبما رأيته كفاية

(عظة الناشئين) كتاب اخلاق وآداب واجتماع تأليف الشيخ مصطفى الغلاييني استاذ اللغة العربية في المكتب السلطاني في بيروت طبع في مطبعة الثبات في بيروت سنة ١٣٣١ صفحاته ١٦٠ بالقطع الصغير ويطلب من المكتبة الاهلية في بيروت

الكتاب مجموعة ما كان يكتبه صديقنا الاستاذ الغلاييني في جريدة المفيد وقد جعله هدية لروح فقيد الادب، وريحانة نابتة العرب، فؤاد افندي حنتس احد

عباس محمود العقاد ابدع فيها وان يكن قد جار في بعض احكامه الا انه تكلم على سير الادب كلام ذي ذوق وتطرق الى اسلوب الشاعر (المازني) بالنظم على اوزان لم تكن مسبوقة سيرا مع العصر وفكا لقيود اخنى عليها الدهر

هذا وقد جرى بعض كتاب العصر على سنة سيئة تنافي سيرتهم الاولى وطريقة آبائهم المثلى وهي ترك مكتوباتهم بتراء جذماء لا بسملة فيها ولا حمدلة، وعلى هذه السنة جرى شاعرنا المازني وكاتب المقدمة . على ان كتبة الفرنجة الذين يكتبون بالعربية قلما يدعون كتبهم غفلا ، فكان على كتابنا احد امرين اما السير على سنن الاولين واما تقليد المعاصرين تقليدا اعمى

هذا وان المازني قد طرق عدة مواضيع اجاد النظم فيها وان شعره يشعر بان هلال ادبه سيكون بدرا .

(فتاة النيل) مجلة نسائية علمية تاريخية أدبية صحية تصدرها في مصر الفاضلة سارة الميهية في أول كل شهر عربي قيمة اشتراكها في مصر والسودان ٥٠ قرشا وفي الخارج ١٥ فرنكا صفحاتها ٤٠ مطبوعة على ورق جيد

للفاضلة سارة الميهية مباحث يعرفها قراء العربية بما كانت تنشره في الصحف السيارة باسم (فتاة النيل) وقد رحب القطر المصري بمجلتها « فتاة النيل » لتسد فراغا في عالم الادب بصدور هذه المجلة فنحث التلميذات والمعلمات على قرءاتها كما نحث أرباب العائلات على ذلك

(الرشديات) مجلة تاريخية أدبية شهرية لصاحبها زكريا أحمد رشدي تصدر في مدينة الاسكندرية قيمة اشتراكها السنوي في مصر ٣٠ قرشا وفي الخارج ١٢ فرنكا صفحاتها ٣٢ صدر منها العددان الاول في غرة شعبان والثاني في غرة رمضان سنة ١٣٣١

ولم نر من أعدادها بعد ذلك شيئا فأتمنى لها الحياة ودوام الانتشار لانها ذات مواضيع مفيدة

(البشير) صحيفة تخدم العرب والعربية والملة تصدر في كل شهر عربي مرتين في فيلمبغ « صومترا » لمنشئها محمد بن هاشم بن طاهر ذات اربع صفحات أو خمس قيمة اشتراكها في هولنده ومستعمراتها ثلاث روبيات هولندية

من أجل الخدمات التي قام بها السيد محمد بن طاهر بن هاشم للدين والعرب والعربية هذه الجريدة وهو يكتبها باللغة العربية ولغة البلاد فهي عامل من عوامل الرقي هناك و يمكن الحصول عليها بواسطة ادارة ومكتبة المنار بمصر

﴿ مستقبل الدولة العثمانية وطلاب الاصلاح من العرب ﴾

كنا نسمع ونقرأ منذ وعينا أن لكل دولة من الدول الاوربية مطمعا في ولاية أو قطر من المملكة العثمانية . سمعنا كثيرا أن مملكة طرابلس الغرب ستكون لايطالية . وقرأنا في تاريخ الافغان للسيد جمال الدين ان انكلترة لم تروها مياه التمس والكنج ففغرت فاها لتجرع مياه النيل ونهر جيحون (يعني الاستيلاء على مصر و بلاد الافغان لأن نهر جيحون على التخم الشمالي الشرقي من تلك المملكة) كتب السيد هذا بمصر في عهد اسماعيل باشا . وقد احتلت انكلترة مصر وإيطالية طرابلس . فصدق ما كان يقال

وكنا ولا نزال نسمع ونقرأ أن فرنسة ترى أن سورية لها ، وان انكلترة ترى ان البصرة و بغداد وجميع سواحل جزيرة العرب لها - والداخلية تتبع السواحل بالطبع - كما صرنا نسمع ان لألمانية قلب الاناطول الى العراق . ولروسية شمال الاناطول الى الآستانة - على الخلاف في الغاية اتدخل في المغيا أم لا ؟ . فما يؤمننا ان يحل بهذه البلاد ما حل بما قبلها ؟ ولاسيما بعد ان رأينا ما حل بولايات مكدونية - ونحن ننشد في أمثالنا :

من حلقت لحية جار له　　فليسكب الماء على لحيته

ان جميع من نعرف من عقلائنا في خوف ووجل من قرب تلك الساعة ، والعرب منهم موقنون بأن الدولة ان قدرت على ايجاد اسطول يحمي سواحل البلاد التركية القريبة من الآستانة وجزائرها من اليونان أو البلقان ، فلن تقدر به عن حماية سواحل سورية من فرنسة ولا سواحل العراق أو اليمن والحجاز من انكلترة ، فما حظ بلادهم من الاسطول الذي يبذلون لتأسيسه الاعانات الاختيارية وغير الاختيارية ؟

هذا الخوف على البلاد هو الذي حمل بعض أهل الغيرة على تأسيس حزب اللامركزية ، وكان المحرك لهم على ذلك صوت رسمي سمعوه من باريس تذكر فيه فرنسة حقها في سورية ... وكان أول سعيهم الفزع الى صاحب الدولة رؤف باشا المعتمد (القومسير) العثماني بمصر ومكاشفته بخوفهم على سورية أن تغير عليها فرنسة كما أغارت ايطالية على طرابلس ، و بكونهم ألفوا من أنفسهم لجنة للسعي الى الدفاع

صاحبي المفيد . ولا حاجة بي الى مدح الكتاب باكثر من انه من انشاء من عرفه جمهور قراء العربية بعلمه وفضله وتحريه النفع فيما يكتب وثمنه خمسة قروش

(الفرائد) هو مختار ما كتبه الشيخ محمد مصطفى الهياوي في الأدب والاخلاق والاجتماع ونشره في الجرائد طبع على ورق جيد طبعا نظيفا بمطبعة ابي الهول بمصر سنة ١٣٣١ صفحاته ١٨٩ بقطع رسالة التوحيد ، يطلب من مكتبة المنار وثمنه خمسة قروش

فصول الكتاب شتى ومعظمها شكاية من الدهر وبنيه وابيهم الاول فكأنما نفخ فيه من روح المعري وتسربل برداء ابن الهبارية

كتاب المؤتمر العربي الاول

المنعقد في باريس من ١٣ رجب سنة ١٣٣١ الى ١٨ منه

صدرته اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر مزينا بالصور مفتتحا بمقدمتين (احداها لمنشيء هذه المجلة والثانية لجامعه محب الدين الخطيب) عن فكرة المؤتمر ونتيجته وتاريخ الحركة العربية ويتخللهما صورة الاتفاق الذي تم بين المؤتمر ومندوب جمعية الاتحاد والترقي وفيه محاضر جلسات المؤتمر الاربع وما دار فيها من المناقشات، وفيه خطب: السيد الزهراوي ، العريسي، مطران ، دياب، طباره ، عمون، مكرزل ، بيهم، دباس، غانم . وفيه ١٨ رسالة بريدية وبرقية من ٤٢٠ جمعية وجماعة وشخص في تأييد المؤتمر . وفي آخره قصيدة مهداة من فؤاد الخطيب للمؤتمر ، ثم بيان حزب اللامركزية ومظاهرته السلمية برفع برقيات الاحتجاج الى الصدارة بطلب اللامركزية وقد وقع في ٢٣٤ صفحة كبيرة وطبع على ورق جيد ، ثمنه ٨ قروش مصرية واجرة البريد قرشان ويطلب من مكتبة المنار بمصر

فالكتاب اجتماعي سياسي اداري يمثل شعور الامة بحاجيات الحياة والارتقاء فيها، وضرورة الائتمار بين أولي الأمر، ومداولات اصحاب العقول الراجحة والافكار الثاقبة ، ويجلي سر تطور الامم وانتقالها في الاجتماع والسياسة من طور الى طور

ويشخص بالاجمال امراض الاجتماع في المملكة العثمانية وشعوبها المتعددة المتباينة ، ويصف أنجع دواء يحفظ حياتها ويشد عضدها ، لتقف في صف الاحياء العاملة فتناضل عن حوزتها، وتحفظ بقيتها ، وتدافع عن ملكها وملكها ، فاجدر بكل من يقرأ العربية ان يطلع على هذا الكتاب وخصوصا العثمانيين حاكمهم ومحكومهم، عربهم وعجمهم ، فانه الصق بهم من غيرهم ، وجميع ابحاثه تدور على محور مصلحتهم

ان جمعيتي بيروت والبصرة قد انحلتا والمنافق الذي يكتب مالا يعتقد لأجل ارضاء من ينتفع منهم لايستحي ان يحول الشيء الى ضده بالسفسطة والتمويه

نرى طلاب اللامركزية موقنين بأنهم لايعرفون طريقة لبقاء الدولة وحفظ البلاد ثم عمرانها الا مايطلبونه ، ونرى حجتهم ناهضة يذعن لها المنصفون من غيرهم، وهم يطالبون من كل ذي رأي ان يقنعهم بطريقة يمكن بها حفظ البلاد العربية من استيلاء الدول الطامعة فيها عليها ، ولما يجدوا مقنعا

كنت مرة في دار المعتمد العثماني(القومسيرية)بمصر أتكلم في شؤون الدولة مع اسماعيل حقي بك القائم بأعمال المعتمد الآن ، فجاءنا فؤاد بك سليم (قنصل الدولة الجنرال في سلانيك الآن) ودخل معنا في الحديث ، فانتقد فؤاد بك ما كان من عقد المؤتمر العربي بباريس والمطالبة بالاصلاح في وقت الحرب بمثل ما كان ينتقده به المعارضون المعتدلون . فقلت له كان هذا يقال ويعد محل نظر وبحث في الوقت الذي انعقد فيه المؤتمر اذ كان سيئو الظن وسيئو القصد يقولون انه يمكن ان يفضي الى اتعاب الدولة أو ايقاعها في مشكلة سياسية، وكان القائمون بالعمل يدفعون هذا ليقينهم بحسن نيتهم واحتياطهم في عملهم، ثم أيدهم الحق الواقع فانقضت الحرب وانقضى المؤتمر ولم يكن شيء من عمل طلاب الاصلاح متعبا للدولة في شيء ، وقد قبلوا كل ماعرضه على المؤتمر مندوب جمعية الاتحاد والترقي . فدل ذلك على حسن نيتهم، وبراءتهم من المشاغبة ومن المطالب البعيدة عن المعقول حتى عند الاتحاديين . وانتقدت انا بعض أعمال الاتحاديين بما عز الجواب المقنع عنه . ثم انتقلنا الى المسألة الكبرى

قال فؤاد بك : إن مامضى فات خطأ كان أو صوابا فما الرأي الآن لسلامة الدولة واعلاء شأنها الذي يجب على الجميع السعي له ؟

قلت ان لي في ذلك آراء أشرت اليها في المنار غير مرة ولو علمت ان رجال الدولة يقبلونها وينفذونها لفصلتها لهم تفصيلا ، وأهمها مسألة سلامة الدولة ، فأنا أرى أن ماتوجهت اليه الدولة من اقتراض عشرات الملايين من أوربة لأجل سد عجز ميزانيتها والقيام بمشروعاتها سيفضي الى أكبر الاخطار ، وان نظارتي الحربية

سورية ، وطلبوا منه ان يكتب الى الباب العالي بذلك وبما يطلبون من المساعدة على الاستعداد للدفاع الوطني عن البلاد . ولكن المعتمد لم يجبهم الى طلبهم، ولا يزال القرار الذي كتبوه بذلك وما كتبوه في مسألة تنفيذه محفوظا عندهم

سُمع بعد ذلك الصوت الفرنسي صوت ألماني من برلين معارض له، فاطمأن القوم بعض الاطمئنان الموقوت ، وقويت في نفوسهم فكرة وجوب الاستعداد للدفاع الوطني - أو الملي كما يسميه الترك - ووجوب قضاء شبان كل قطر خدمة العسكرية في قطرهم لأجل ذلك، وعقدوا عدة اجتماعات المذاكرة في ذلك استطردوا فيها من مسألة الدفاع ومسألة المال الذي يتوقف عليه كل شيء الى الجزم بوجوب ترقية كل قطر بأهله ، وتوقف ذلك على الادارة اللامركزية ، فوضعوا برنامج حزب اللامركزية ، رجاء ان يقنعوا به جميع الامة العثمانية، لا العرب خاصة

وفي أثناء ذلك قامت ضجة في بيروت كان من أثرها تأسيس الجمعية الاصلاحية باذن والي الولاية ، وكان من غرضها ان اتفاق المسلمين والنصارى على الاصلاح هو الذي يسد ذريعة الاعتداء الاجنبي على البلاد، ثم قامت ضجة أخرى في العراق وتألفت جمعية اصلاحية عراقية في البصرة

تلا ذلك صوت عربي من باريس يدعو الى عقد مؤتمر سوري عربي يكون أهم مقاصده مقاومة الاحتلال الاجنبي للبلاد . وكان من أمر انعقاده ماهو معروف ، ولم يكن المؤتمر ولا الجمعية الاصلاحية البيروتية ولا العراقية ولا حزب اللامركزية سببا لمداخلة اجنبية قولية ولا فعلية ، لأن غرض أربابها دفع التدخل الاجنبي ، والمقدمات السلبية لا تنتج نتيجة موجبة

قام المنافقون للحكومة طلاب الدراهم والوظائف والمناصب يلعنون طلاب الاصلاح ، زاعمين ان طلبهم له في تلك الاوقات يحرج الحكومة ويكون ذريعة لافتيات الاجانب عليها ، ولم نر أحداً منهم شتم الارمن ولا لعنهم على استغاثتهم بأعدى أعداء الدولة من الاجانب ونيلهم ماطلبوا بسعيها !! وقد كذبهم الحق الواقع ولا يزالون يهذون بزعمهم ان طلب الاصلاح على قاعدة اللامركزية يفضي الى اضاعة البلاد واستيلاء الدول عليها . ومنهم من يخص حزب اللامركزية بهذا الطعن لاعتقاد

عقدت جمعية الاتحاد الاتفاق بين مندوبها (مدحت بك شكري) ومندوب حزب اللامركزية في المؤتمر العربي (السيد الزهراوي) وصدقت حكومتها على بعض ما وقع عليه الاتفاق وصدرت به الارادة السلطانية. ثم عينت الحكومة السيد الزهراوي عضوا في مجلس الاعيان فقبل ذلك ليكون مطلعا ومساعدا على تنفيذ الاصلاح الموعود به قولا وكتابة . فلم يستفد حزب اللامركزية من ذلك الا لوم كثير من الاصدقاء وذم كثير من غير الاصدقاء ، واتهامه بأنه يسعى للمناصب والوظائف خلافا للعهود والوعود . وقد احتمل الحزب كل هذا لتكون له الحجة على الأمة اذا نفذت الحكومة الاصلاح، والحجة على الحكومة اذا لم تنفذه ، وهو لاحجة عليه مطلقا

الحزب لم يقل انه لا يقبل الوظائف ولكنه فعل ، فلم يدخل احد من اعضائه في خدمة الحكومة . وقد بينا قضية السيد الزهراوي من قبل ، ونزيده بيانا

الرجل ثقة مقبول الرواية عند الحزب . وقد كتب الى الحزب انه آنس من الحكومة عزما على الاصلاح المطلوب وأنها تريد ان تعتمد على الثقات المخلصين من العرب وتستعين بهم على اصلاح بلادهم، وانها تكون معذورة في قبول المنافقين، اذا تجنبتها فئة المصلحين الصادقين . ولما تكررت هذه الكتابة منه رغب اليه رئيس الحزب وغيره من اصدقائه بأن يزور مصر قبل افتتاح المجلس ويوقف إخوانه على حقيقة ما رآه ، ويفسر لهم ما أشكل عليهم من أعمال الحكومة (كتقوية إمام اليمن على السيد الادريسي وتسليح ابن الرشيد إمام ابن سعود وغير ذلك مع قدرتها على الاصلاح بين الجميع والاستفادة منهم) فأجاب الدعوة ، وتكرم بالزيارة ، واكد بلسانه مضمون ما كان يكتبه بقلمه ، من ان الدولة تريد إصلاح بلاد العرب ولكنها لا تقدر على تنفيذ ذلك الا بالتدريج ، ووعد بأن يراجع أصحاب الشأن في المسائل التي لم يقف على حقيقتها كمسألة جزيرة العرب وأمرائها ، ويوقف اخوانه على ما يقف عليه منها

والخلاصة ان طلاب الإصلاح اللامركزي في مصر وغيرها من الاقطار لا يزالون في خوف ووجل على بلادهم ودولتهم ، ولم يسمعوا قولا ولا رأوا فعلا يفيد الاطمئنان . فالاقوال مضطربة ، والافعال مشتبهة

والبحرية مهما عملنا لا تستطيع الدولة ان تحمي بهما سواحل سورية والحجاز واليمن والعراق ، ولا أن تحول دون احتلال كل دولة من الدول لما تطمع فيه

قال : انا نوافقك على هذا فما المخرج منه ؟

قلت لم يبق لنا وسيلة فيما أرى الا مسألة الدفاع الملي ، لأن الدول الكبرى التي نخافها لا تحارب بلاداً لأجل البطش والانتقام والتخريب كما كان يفعل الملوك في التاريخ القديم، ولا كما يفعل وحوش البلقان ، وإنما تفعل هذه الدول كل ماتفعله لأجل الكسب ، فمتى كان أهل البلاد مسلحين مستعدين للدفاع عن بلادهم اذا احتلها الاجنبي تمتنع الدول عن الاعتداء عليهم، وان كانت ترى أنها لا تعجز عنهم، لأن معاداة الاهالي وتخريب بلادهم ، يحول دون الانتفاع منها ومنهم . . الخ فوافقني فؤاد بك وكذا اسماعيل بك على ماقلت في هذه المسألة وفي غيرها مما لا حاجة الى ذكره

وجملة القول ان طلاب الادارة اللامركزية انما يطلبونها لأنهم يعتقدون أنها هي المنجية لدولتهم ولبلادهم من الخطر الاجنبي ، وان البلاد لا تعمر الا بها ، وليس في مطالبهم شيء يمنع ان تكون مقاليد القوة البرية والبحرية والسياسية للدولة وان تكون في يد العاصمة .

ولما وعدتهم جمعية الاتحاد المتصرفة في الدولة باجابتهم الى بعض مطالبهم رضوا وصبروا وانتظروا . وقد مرت السنة على انتظارهم ولم يحدثوا شغبا داخليا ، ولا توسطوا الاجانب في شيء من مطالبهم ، وهذه جرائد الشرق والغرب تصخّ مسامعهم بخبر اتفاق الدولة مع الدول الكبرى على جميع سواحل البلاد العربية وباعطائهن الامتيازات فيها ، وبارهاق الولايات كلها بالديون الفاحشة ـ وتلك طرق الدول وسلاحها في الفتح السلمي ـ فيزدادون خوفا ورعبا من سوء العاقبة وخطر المستقبل . أفليس من سنة الله في غرائز البشر وفطرهم ومما توجبه عليهم أديانهم وشرائعهم ، ومما تطالبهم به حقوق أمتهم و بلادهم ، ـ ان يبحثوا عن المأمن من الخوف، والموئل من الفزع، والمنجاة من الخطر ؟؟ أو ليس من مقتضى الفطرة والشريعة أن يطلب الانسان لنفسه فوق تجنب المهلكة ، عيشة راضية وحالة حسنة عزيزة ؟

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ جمادى الآخرة ١٣٣٢ هـ ق ٧ الربيع الثالث ١٢٩٢ هـ ش ٢٤ مايو ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٥٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ،
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٥) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ . فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ
بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ
(٥٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ .

لا ننكر ان الوزارة الحاضرة قد هبت للعمل هبة شديدة ، ووثبت في سياستها وثبة بعيدة ، وأظهر أفرادها من الهمة والذكاء والجرأة ، مالا نعرف له نظيرا في تاريخ هذه الدولة ، فأقدموا على اقتراض عشرات الملايين من أوربة ، واعطاء حكوماتها وشركاتها الامتيازات الكثيرة ، والمساعدة على إزالة التنازع والخلاف الذي بين الدول على منافع بلادها ، ونفوذهن الاقتصادي والسياسي فيها ، وتمهيد السبيل للصهيونيين ، لاستعمار مملكة فلسطين ، والشروع في تقوية الاسطول ، وفتح المدارس الكثيرة في الاستانة والاناطول ، وايجاد مشروعات الصناعة والزراعة الحديثة في البلاد التركية ، واجابة الارمن الى ماطلبوا لبلادهم ، ووعد العرب بالتفضل عليهم ببعض مطالبهم . وارضاء بعض الاذكياء الظاهرين منهم بالوظائف . وتفننت في جمع الاعانات من الامة بأسماء مختلفة ، وأساليب متعددة ، من وطنية ودينية جائزة وغير جائزة ، كل ذلك من مظاهر الذكاء والهمة والاقدام ، ولكن طلاب الاصلاح ازدادوا به خوفا على البلاد لما تجدد من زيادة حقوق الاجانب فيها وديونهم عليها . مع الجزم بأن كل ما شرع فيه من وسائل القوة ، لا يجعل الدولة كفؤا لدولة من هذه الدول الطامعة ، فكيف والدول لا تعمل الا مجتمعة متفقة ؟ ولا هو وسيلة لعمران المملكة ، واتحاد عناصرها المختلفة .

وانما الاصلاح الذي يعقلونه هو ان تكون قوة كل قطر فيه . وعمرانه بأيدي أهله ، وان تجتنب الديون الاجنبية بقدر الطاقة ، و يكون حظ البلاد التي تحمل هذا الدين مقسوما بينها بنسبة ماتحمله منه ، وان توجه العناية والهمة والذكاء والاقدام الى استثمار الامة بمساعدة الدولة الخيرات البلاد ، فهذه الينابيع الكثيرة از يت البترول في العراق وغيره (مثلا) لاتحتاج الى نفقات كثيرة ، ولا الى علوم وفنون كثيرة ، وهي ثروة ستضاعف على ممر السنين لأنها ستحل محل الفحم الحجري في السفن الحربية وغيرها . فلماذا تمنحها الدولة للاجانب دون الاهالي ؟ ولماذا لاتخصص من هذه الملايين التي تقترضها جزءا قليلا لتعليم مئات من شبان الامة ما يلزم من الفنون لاستخراجها ؟

وقصارى القول ان طلاب الاصلاح لايرجعون عن شيء من مطالبهم ، بشتم بعض السفهاء لهم ، وانما يرجعون عما تقوم الحجة على ضرره ، و يساعدون الدولة على كل ما يقوم عندهم الدليل على نفعه ، وهكذا شأن المخلصين ، والعاقبة للمتقين

حارب كل طائفة واظهره الله عليها . فهذا هو السبب العام في النهي عن موالاة أهل الكتاب في هذه الآيات . وكان نصارى العرب . وكذا الروم بالطبع حربا له كاليهود

واما السبب الخاص الذي ذكروه في سبب النزول فهاك ملخصه : اخرج رواة التفسير المأثور والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبادة بن الوليد ان عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله (ص) تشبث بامرهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول (زعيم المنافقين) وقام دونهم . ومشى عبادة بن الصامت الى رسول الله (ص) وتبرأ الى الله والى رسوله من حلفهم . وكان احدَ بني عوف ابن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي كان لعبد الله بن ابي . فخلعهم الى رسول الله (ص) وقال « أتولى الله ورسوله والمؤمنين . وابرأ الى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » . قال : وفيه وفي عبد الله نزلت الآيات في المائدة « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ــ الى قوله ــ فان حزب الله هم الغالبون »

واخرج ابن ابي شيبة وابن جرير عن عطية ابن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج الى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله : ان لي موالي من اليهود كثير عددهم . واني ابرأ الى الله ورسوله من ولاية يهود واتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن ابي : اني رجل اخاف الدوائر لا ابرأ من ولاية موالي . فقال رسول الله (ص) لعبد الله بن ابي « ياابا الحباب : أرايت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه » قال : اذن اقبل . فأنزل الله (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى ... ــ الى ان بلغ ــ والله يعصمك من الناس)

واخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ــ في الآية ــ انها نزلت في بني قريظة اذ غدروا ونقضوا العهد بينهم وبين رسول الله (ص) في كتابهم الى ابي سفيان بن حرب يدعونه وقريشا ليدخلوهم حصونهم . فبعث النبي (ص) ابا لبابة ابن عبد المنذر اليهم يستنزلهم من حصونهم فلما اطاعوا له بالنزول اشار الى حلقه بالذبح . وفيها ان بعض المسلمين كانوا يكاتبون النصارى بالشام . وان بعضهم كان يكاتب يهود المدينة بأخبار النبي (ص) يمتون اليهم لينتفعوا بمالهم ولو بالقرض

من المعلوم في السيرة النبويةالشريفة ان النبي (ص) وادع اليهود حين قدم المدينة واقرهم على دينهم واموالهم . واثبت ذلك في الكتاب الذي كتبه في المؤاخاة بين المهاجرين والانصار وحقوق القبائل والبطون . ومما جاء في ذلك الكتاب : « وانه من تبعنا من اليهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » ومنه في حقوق الحلف والولاء في الحرب : « وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم. وللمسلمين دينهم . مواليهم . وانفسهم . الا من ظلم او أثم فانه لا يوتغ (اي يهلك) الا نفسه واهل بيته . وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف» ثم اعطى مثل ما لبني عوف ليهود بني الحارث وساعدة وجشم والأوس وثعلبة ــ ومنهم جفنة ــ والشطنة .

قال ابن القيم في الهدي النبوي : « ولما قدم النبي (ص) المدينة صارالكفار معه ثلاثة اقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ان لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه . وهم على كفرهم آمنون على دمائهم واموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول اليه امره وامر اعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن . ومنهم من دخل معه في الظاهر . وهو مع عدوه في الباطن . ليأمن الفريقين . وهؤلاء هم المنافقون . فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما امره به ربه تبارك وتعالى . فصالح يهود المدينة وكتب بينهم وبينه كتاب امن . وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة ــ بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر. واظهروا البغي والحسد» ثم قال في فصل آخر « ثم نقض العهد بنوالنضير . قال البخاري وكان ذلك بعد بدر بستة اشهر » وبين كيف تآمروا على قتل النبي (ص) وتقدم ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى من هذه السورة (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم فكف ايديهم عنكم) اذ ورد ان الآية نزلت في ذلك . ثم بين في فصل آخر ان قريظة كانت اشد عداوة للنبي (ص) وأنهم نقضوا صلحه لما خرج الى غزوة الخندق . وبين كيف

النبي (ص) على حربهم لأن له عندهم مالا واهلا فأراد ان يتخذ عندهم يدا لاجل حماية اهله . والنهي عن الشيء لسبب من الاسباب لا يتناول من لم يتحقق فيهم ولا ينافي زوال النهي بزوال سببه . ولذلك قال تعالى بعد هذا النهي في هذه السورة (الممتحنة) ٦٠ : ٧ عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة . والله قدير والله غفور رحيم — ٨ — لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين — ٩ — انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) فهذه الآيات نص صريح في كون النهي عن الولاية لاجل العداوة وكون القوم حربا . لا لأجل الخلاف في الدين لذاته . فان النبي (ص) لما حالف اليهود كتب في كتابه « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » كما امره الله ان يقول لجميع المخالفين (لكم دينكم ولي دين)

وقد جعل المتأخرون من المفسرين - كالزمخشري والبيضاوي ومن تابعهما - الولاية بمعنى المودة وحسن المعاملة واستخدام المخالفين من اهل الكتاب . واستدلوا بحديث « لاتتراءى ناراهما » ودعموا ذلك بأمر عمر (رض) لأبي موسى الاشعري بعزل كاتبه النصراني . والسياق يأبى ذلك كما تقدم . وقد حاول المتقدمون جعل النهي خاصا بمن نزل فيهم مع جعل الولاية ولاية النصرة . وما ابعد الفرق بين الفريقين

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري « والصواب من القول في ذلك عندنا ان يقال : ان الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعا ان يتخذوا اليهود والنصارى انصارا وحلفاء على اهل الايمان بالله ورسوله . واخبر انه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله فانه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين . وان الله ورسوله منه بريئان . وقد يجوز ان تكون الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن ابي بن سلول وحلفائهما من اليهود . ويجوز ان تكون نزلت في ابي لبابة بسبب فعله في بني قريظة . ويجوز ان تكون في شأن الرجلين اللذين ذكر السدي ان احدهما اراد اللحاق بذلك اليهودي والآخر بنصراني بالشام . ولم يصح بواحد من هذه الاقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجة فيسلم لصحته القول

فنهوا عن ذلك . وروى ابن جرير ان بعضهم قال لما خافوا ان يدال للمشركين يوم احد انه يلحق بفلان اليهودي فيتهود معه . وقال آخر انه يلحق بفلان النصراني فيتنصر معه . وان الاية نزلت في ذلك . وكان هؤلاء من المنافقين

اقول : الظاهر ان الآيات نزلت بعد تلك الوقائع وغيرها مما ذكروه ان صحت الروايات . وان معنى جعلها اسبابا لنزولها انها نزلت في المعنى الذي ينتظمها . وهو النهي عن موالاة النصر والمظاهرة لهؤلاء الناس اذ كانوا حربا للنبي (ص) والمؤمنين وكانوا هم المعتدين في ذلك . فان النبي (ص) لم يقاتل الا من نصبوا انفسهم لقتاله . ومعناها عام في كل حال كالحال التي نزلت فيها .

قال الله تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ﴾ علم مما سبق ان المراد بالولاية ولاية التناصر والمحالفة وقيده بعضهم بكونها على المؤمنين. وان النهي لأفراد المسلمين وجماعاتهم دون جملتهم . وانه يشمل المؤمنين الصادقين وغيرهم . لانه مقدمة للانكار على مرضى القلوب الذين يتخذون لهم اليد عندهم لعدم ثقتهم ببقاء الاسلام وثبات اهله . ولولا هذا لجوز ان يكون النهي لجملة المسلمين ايضا . لا لأن من اصول الدين ان لا يحالف اهله من يخالفهم فيه . كيف وقد كان النبي (ص) حالف يهود المدينة عقب الهجرة ؟ بل لأن القوم كانوا في حنق شديد على الاسلام . وحسد للعرب على ما آتاهم الله من فضله . فلا يوثق بوفائهم . بعد ما كان من خيانتهم وغدرهم . ولكن هذا غير مراد من الآية . بل السياق يدل على الوجه الأول وهو ان يوالي افراد او جماعات من المسلمين اولئك اليهود والنصارى المعادين للنبي والمؤمنين ويعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين . رجاء ان يحتاجوا الى نصرهم ، اذا خُذل المسلمون وغُلبوا على امرهم . ونكتة التعبير عنهم باليهود والنصارى دون اهل الكتاب هي ان معاداتهم للنبي والمؤمنين انما كانت بحسب جنسياتهم السياسية لا من حيث ان كتابهم يأمرهم بذلك

هذا النهي عن ولاية اهل الكتاب مثل النهي عن ولاية المشركين في قوله تعالى (٦٠ : ١ يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة) الخ وقد نزلت في حاطب بن ابي بلتعة لما كتب الى قريش يخبرهم بعزم

رسول الله (ص) سرية الى خثعم ، فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل فبلغ ذلك النبي (ص) فأمر لهم بنصف العقل (اي الدية) وقال « انا بريء من كل مسلم يقيم بين اظهر المشركين — قالوا يارسول الله لم ؟ قال — لا تتراءى نارهما » فجعل لهم نصف الدية وهم مسلمون لأنهم اعانوا على انفسهم واسقطوا نصف حقهم باقامتهم بين المشركين المحاربين لله ولرسوله (ص) وشدد في مثل هذه الإقامة التي يترتب عليها مثل ذلك من القعود عن نصر الله ورسوله . والله تعالى يقول في امثال هؤلاء (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فنفى تعالى ولاية المسلمين غير المهاجرين اذ كانت الهجرة واجبة . فلأن ينفي ولاية اليهود والنصارى — وقد كانوا محاربين ايضا — اولى . فذكر هذا الحديث في تفسير هذه الآية لا يصح وضعه في الموضع الذي وضعه فيه الزمخشري والبيضاوي ، وانما يناسبه ما قلنا آنفا . فهو لا يدل — اذا صح الاحتجاج به — على ما ذكر من عدم معاشرة الكتابي والإقامة معه وان كان ذا ذمة او عهد . لا خوف من الاقامة معه ولا خطر . وقد كان اليهود يقيمون مع النبي (ص) ومع الصحابة في المدينة . وكانوا يعاملونهم بالمساواة التامة. حتى ان عليا المرتضى لما تحاكم مع يهودي الى عمر (رضي الله عنهما) وخاطبه عمر امام خصمه اليهودي بالكنية (ياابا الحسن) غضب وعاتب عمر انه عظمه امام خصمه . وعمر لم يقصد تمييزه على خصمه وانما جرى لسانه بذلك لتعوده تكريم علي بمخاطبته بالكنية . على ان الحديث ورد في المشركين وقد فرق الشرع بينهما في عدة مسائل . الم تر ان الله تعالى اباح لنا طعام اهل الكتاب والتزوج بنسائهم دون المشركين ، وهو يقول في حكمة الزوجية وسرها (وجعل بينكم مودة ورحمة)

وقد جرى الذين يفسرون القرآن من المتأخرين تصنيفا وتدريسا على آثار البيضاوي، اذ هوالذي يُدرس الآن في اكثر الامصار الاسلامية . وقد اتفق انني لما زرت مدرسة دار الفنون في الاستانة سنة ١٣٢٩ وطفت على حجرات المدرسين الفيت مدرس التفسير يفسر هذه الآية ، فلما قرر ما قاله البيضاوي قام احد طلاب

بانه كما قيل . فاذا كان ذلك كذلك فالصواب ان يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عم . ويجوز ماقوله اهل التأويل فيه من القول الذي لا علم عندنا بخلافه . غير انه لا شك ان الآية نزلت في منافق كان يوالي يهود او نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر ، لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك » اه

وقال البيضاوي في تفسير النهي عن اتخاذهم اولياء : فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الاحباب . « بعضهم اولياء بعض » : إيماء الى النهي، اي فانهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين واجتماعهم على مضادتكم « ومن يتولهم منكم فانه منهم » اي ومن والاهم منكم فانه من جملتهم . وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام « لا تتراءى ناراهما » او لأن الموالين لهم كانوا منافقين . اه

هكذا خص البيضاوي الولاية بمعاشرة المحبة والاعتماد على الاشخاص في الأمور. وهو خطأ تتبرأ منه لغة الآية في مفرداتها وسياقها كما يتبرأ منه سبب النزول والحالة العامة التي كان عليها المسلمون والكتابيون في عصر التنزيل كما علم مما تقدم . وسبب وقوع البيضاوي في مثل هذا الغلط اعتماده على مثل الكشاف في فهم الآيات دون الرجوع الى تفاسير السلف . على ان صاحب الكشاف ارسخ منه في اللغة قدما ، وادق فهماً وذوقاً ، ولذلك بدأ تفسير الولاية بقوله « تنصرونهم وتستنصرونهم » وهو المعنى الصحيح ، وعطف عليه ولاية الاخوة والمودة . فأخذ البيضاوي المعنى الثاني بعبارة تستحق من النقد ما لا تستحقه عبارة الزمخشري .

واخطأ كل منهما في ايراد حديث « لا تتراءى ناراهما » في هذا المقام، وكل منهما قليل البضاعة في علم الحديث . فالحديث ورد في وجوب الهجرة من ارض المشركين الى النبي (ص) لنصرته ، رواه اهل السنن ـ اما ابو داود فرواه من حديث جرير بن عبد الله وذكر ان جماعة لم يذكروا جريرا اي رووه مرسلا. وهو الذي اقتصر عليه النسائي . واخرجه الترمذي مرسلا وقال : وهذا اصح . ونقل عن البخاري تصحيح المرسل . ولكنه لم يخرجه في صحيحه ولا هو على شرطه . والاحتجاج بالمرسل فيه الخلاف المشهور في علم الاصول . ولفظ الحديث : بعث

ونصرهم على المؤمنين فهو من اهل دينهم وملتهم ، فانه لا يتولى متول احدا الا وهو به وبدينه وما هو عليه راض . واذا رضيه ورضي دينه فقد عادى من خالفه وسخطه ، وصار حكمُه حكمَه . اهـ وبنى على ذلك عد اهل العلم من الصحابة والتابعين [كابن عباس والحسن] بني تغلب من النصارى لموالاتهم لهم ، واجازوا اكل ذبائحهم ونكاح نسائهم – وهم مشركون – لعدهم من النصارى . قال ابن عباس (رض) بعد امره بأكل ذبائحهم وزواج نسائهم ؛ وتلاوة الآية « لو لم يكونوا منهم الا بالولاية لكانوا منهم » وقد قيد ابن جرير الولاية بكونها لاجل الدين ، كما كانت الحال في ذلك العصر . اذ قام المشركون واهل الكتاب يعادون المسلمين ويقاتلونهم لأجل دينهم . وقد تقع الموالاة والمحالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية ، فاذا حالف المسلمون امة غير مسلمة على امة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها فهذه المحالفة لا تدخل في عموم كلامه ، لانه اشترط ان يكون ذلك لمقاومة المسلمين .

﴿ ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ هذا تعليل للوعيد وبيان لسببه . وهو ان من يوالي اعداء المؤمنين الذين نصبوا لهم الحرب وينصرهم او يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها ، ولن يهتدي مثله الى الحق والنجاة ابدا .

﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ﴾ اتفق رواة التفسير المأثور على نزول هذه الآية في المنافقين ، فهم الذين في قلوبهم مرض ، اي ايمانهم معتل غير صحيح ، اذ لم يصلوا فيه الى مستقر اليقين ، وكان عبد الله بن ابيّ زعيم المنافقين ذا ضلع مع يهود بني قينقاع . وكان غيره من المنافقين يمتون الى اليهود بالولاء والعهود ؛ ويسارعون في هذه السبيل التي سلكوها . كلما سنحت لهم فرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ، فهم يسارعون في اعمال موالاتهم مسارعة الداخل في الشيء الثابت عليه ، الراغب فيما يزيده تمكنا وثباتا ، ولهذا قال « يسارعون فيهم » ولم يقل : يسارعون اليهم . فما عذر هؤلاء الذين يرددونه في انفسهم ، ويقولونه عند الحاجة بألسنتهم ؟ ﴿ يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة ﴾ اي نخشى ان تقع بنا مصيبة كبيرة مما

العلم من الترك وقال اذا كان الامر كذلك فلماذا جعلت الدولة بعض الوزراء والاعيان والمبعوثين والموظفين من النصارى واليهود ... ؟ فأرتج على المدرس وعرق جبينه ـ وناهيك بعقاب الحكومة العرفية العسكرية هنالك لمن يطعن في دستورها ! ـ فقلت للمدرس اتأذن لي ان أجيب هذا السائل ؟ قال نعم . فقمت فبينت لهم ان الولاية في الآية ولاية النصرة بنحو ما قدمته هنا ، وانها لا تدل على عدم جواز استخدام الدولة لغير المحاربين لنا ، ولا هي من هذا السياق في شيء . فاقتنع السائل والسامع وسر الاستاذ وسُرّي عنه ، وكان لهذا الجواب احسن الوقع عند مدير قسم الإلهيات والأدبيات من المدرسة ، وبلغه ناظر المعارف فارتاح اليه واعجبه ، فاقترح المدير عليه ان يقرر جعل تدريس التفسير بالعربية ـ وكذلك الحديث ـ رجاء ان يعهد الي به ان اقمت في الاستانة فأجابه الى ذلك (١)

اما قوله تعالى ﴿ بعضهم اولياء بعض ﴾ فهو استئناف بياني سيق لتعليل النهي كما قالوا . ومعناه ان اليهود بعضهم اولياء وانصار بعض . والنصارى بعضهم اولياء وانصار بعض ، لا أن اليهود اولياء وحلفاء النصارى والنصارى اولياء وحلفاء اليهود . ولم يكن للمؤمنين منهم من ولي ولا نصير ، اذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد كما تقدمت الاشارة اليه ، فصار الجميع حربا للرسول ومن معه من المؤمنين ، من غير ان يبدأهم بعدوان ولا قتال ، كما علمت من عبارة ابن القيم السابقة

واما قوله ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ الخ فهو وعيد لمن يخالف النهي ، اي ومن ينصرهم ويستنصر بهم من دون المؤمنين وهم إلب واحد عليكم . فانه في الحقيقة منهم لا منكم ، لأنه معهم عليكم . ولا يعقل ان يقع ذلك من مؤمن صادق . فهو اما موافق لمن والاهم في عقيدتهم ؛ او في عداوتهم لمن والاهم عليهم . وعلى كلتا الحالتين يكون حكمه حكمهم . وقال ابن جرير : يقول فان من تولاهم

(١) كنت في الآستانة وقتئذ اسعى لتأسيس دار الدعوة والارشاد فيها كما يعلم القراء وكان مدير قسم الالهيات والادبيات في دار الفنون اسماعيل حقي بك الازميري من أجل علماء الترك واوسعهم اطلاعا في العلوم العربية الاسلامية ولا سيما الكلام والاصول . وكان ناظر المعارف « امرُ الله » افندي

او الايقاع بهم ، فيصبحوا نادمين على ما كتموه واضمروه في انفسهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين وتوقع الدائرة عليهم . فالفتح في اللغة القضاء والفصل في الشيء وهو يصدق بفتح البلاد و بغير ذلك . ومنه قوله تعالى حكاية (ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق) وقوله (ويقولون متى هذا الفتح) وقيل المراد فتح مكة الذي كان به ظهور الاسلام والثقة بقوته وانجاز الله وعده لرسوله . ولا يصح هـذا القول الا اذا كانت الآيات نزلت قبل فتح مكة ، مع الجزم بان أوائل السورة نزلت بعد ذلك في حجة الوداع . ويمكن حينئذ ان يكون المراد بالفتح فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وغيرها . وفسر بعضهم الامر من عنده بالجزية تضرب على اهل الكتاب . فينقطع امل المنافقين منهم . ويندموا على ما كان من اسرارهم بالولاء لهم . وفسره بعضهم بالايقاع باليهود واجلائهم عن موطنهم . واخراجهم من حصونهم وصياصيهم ، اما بالقهر . والايجاف عليهم بالخيل والركب [كبني قريظة] واما بإلقاء الرعب في قلوبهم . حتى يعطوا بأيديهم [كبني النضير]

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي « ويقولُ » بالرفع على انه كلام مبتدأ معطوف على ما قبله عطف الجمل . وقرأه ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعا بغير واو على انه جواب سؤال تقديره : فماذا يقول المؤمنون حينئذ ؟ وقرأه ابو عمرو ويعقوب بالنصب عطفا على « يأتي » اي فعسى الله ان يأتي بالفتح وان يقول الذين آمنوا حينئذ : ﴿ أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانكم إنهم لمعكم ﴾ اي يقول بعضهم لبعض متعجبين من عاقبة المنافقين : أهؤلاء الذين اقسموا بالله اغلظ الايمان مجتهدين في توكيدها . انهم منكم ايها المؤمنون وعلى دينكم . ومعكم في حربكم وسلمكم. كما قال تعالى في سورة براءة التي فضحتهم (٩٣ : ٥٧ ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) أي فهم لفرقهم وخوفهم يظهرون الاسلام تقية (٥٨ لو يجدون ملجأ او مغارات او مُدَّخلا لولوا اليه وهم يجمحون) اي يسرعون اسراع الفرس الجموح فرارا من الاسلام واهله . وتواريا عنهم ، واعتصاما منهم. او يقولون ذلك لليهود الذين كانوا يغترون بموالاة المنافقين ومودتهم السرية لهم . ويظنون انهم اذا نقضوا عهد النبي (ص) وحاربوه يجدون منهم اعوانا

يدور به الزمان ، او من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها ، فنحتاج الى نصرتهم لنا ، فنحن نتخذ لنا يدا عندهم في السراء . نتنفع بها اذا مست الضراء . والمراد انهم يخشون ان تدول الدولة لليهود او المشركين على المؤمنين ـ وكان اليهود عونا للمشركين على المؤمنين كما ظهر في وقعة بدر والاحزاب ــ فيحل بهم ما يحل بالمؤمنين من النقمة . ذلك بأنهم غير موقنين بوعد الله بنصر رسوله . واظهار دينه على الدين كله . لأنهم في شك من امر نبوته . لم يوقنوا بصدقها ولا بكذبها . فهم يريدون ان ينتفعوا منها باظهارهم الايمان بها . وان يتخذوا لهم يدا عليها لأعدائها ، ليكونوا معهم . اذا دالت الدولة لهم . وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان . وهو الذي جعل كثيرا من وزراء بعض الدول منذ قرن او قرنين ما بين روسي وانكليزي والماني . كل منهم يتخذ له يدا عند دولة قوية ، يلجأ اليها اذا اصابته دائرة . حتى تغلغل نفوذ هذه الدول في احشاء هذه الدولة . فأضعفن استقلالها في بلادها . ويخشى ما هو اكبر من ذلك من خطر نفوذهن فيها . وحتى صار بعض رجالها الصادقين لها . يرون انفسهم مضطرين للاستعانة بنفوذ بعض هذه الدول على بعض . واما الذين استعمر الأجانب بلادهم ــ بأي صورة من صور الاستعمار واي اسم من اسمائه ــ فأمر منافقيهم اظهر . يتقربون الى الاجانب بما يضر امتهم حتى فيما لم يكلفوهم اياه . ويسمون هذا تأميناً لمستقبلهم . واحتياطا لمعيشتهم ، ولو التزموا الصدق في امرهم كله فلم يلقوا امتهم بوجه والاجانب بوجه لكان خيرا لهم ، واقرب الى الجميع بين مصلحة البلاد ومداراة الأجانب . ولكنه النفاق يخدع صاحبه . بما يظن صاحبه انه يخدع به غيره . ويسلك سبيل الحزم لنفسه . وهو الذي يحمل بعض المنافقين الخائنين على نهب مال امتهم ودولتهم ، وايداعه في مصارف أوربة لأجل التمتع به اذا دارت الدائرة على دولتهم .

قال الله تعالى ردا على منافقي عصر التنزيل ﴿ فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين ﴾ اي فالرجاء بفضل الله تعالى وصدقه ما وعد به رسوله (ص) ان يأتي بالفتح والفصل بين المؤمنين ومن يعاديهم من اليهود والنصارى ، او بأمر من عنده في هؤلاء المنافقين ، كفضيحتهم

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع عامة الناس، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(تلقين الميت)

(س ١٤) من صاحب الامضاء في -- كلنتن — جاوه

حضرة امام المرشدين وقدوة العلماء المصلحين. من يتلقى سؤال كل سائل ملهوف بالقبول والرضا. الاستاذ العلامة مرشد الامـة ورشيدها سيدي محمد رشيد رضا. ابقاه الله المسلمين يداوي كل مرض كان عارضا آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ ارجو من فضلكم اجابة السؤال الآتي على صفحات المنار الاغر ـ ما قول سيدي فيما شاع في ناحيتنا الجاوية من قراءة التلقين في حاشية البرماوي على شرح ابن قاسم وهو قوله تعالى (كل شيء هالك الا وجهه) الخ بعد تمام الدفن. وهو مشتمل على آيات قرآنية على خلاف اسباب نزولها، ومعان غير متناسبة، وبعضهم زاد على ما في البرماوي زيادات كثيرة ومناسبات لا تليق بالحال «كقل متاع الدنيا قليل» الخ وهي متعلقة بالاحياء لا بالاموات فهل هو على هذا النظم مأثور ام لا ؟ فان قلتم نعم انه مأثور أو أنه مجموع من متفرقات مأثورة، فأرجو من سعة علمكم وكريم انسانيتكم ان تشرحوه لنا شرحا وافيا حتى لا تخفى معانيه على أمثالنا من القاصرين. وان قلتم لا، فقد اشكل علينا ان البرماوي يقول ويسن تلقينه بعد الدفن وتسوية القبر فيجلس عند رأسـه انسان ويقول بسم الله الرحمن الرحيم كل شيء هالك الا وجهه الخ والبرماوي من علماء المسلمين فـكيف يسوغ له ان يقول بالسنية مالم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء هم ادلاء الامة ومرشدوهم الى سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ؟ فكيف يرشدون بما لم يرشدهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويخترعونه بعقلهم ورأيهم؟ وكيف يجوز لنا أن نلقن موتانا بما لم يرد عن نبينا صلى الله عليه وسلم ومبنى التلقين على التعبد لا مجال للرأي فيه ؟ أفيدونا بيانا شافيا لانا قليلو الاطلاع، فانا لم نجد سجعاته في الآيات القرآنية ولا في الاحاديث النبوية والسلام

الداعي : الحاج موسى عبد الصمد

وانصارا بين المسلمين يقاتلون معهم أو يوقعون الفشل والتخذيل في جيش المسلمين لاجلهم . كما قال تعالى في سورة الحشر (٥٩ : ١١ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم . ولا نطيع فيكم احدا ابدا . وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ١٢ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم . ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) الخ .

وقوله ﴿ حبطت اعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ يحتمل ان يكون من حكاية قول المؤمنين . ويكون معناه بطلت اعمالهم التي كانوا يتكلفونها نفاقا ليقنعوكم بانهم منكم، كالصلاة والصيام والجهاد معكم . فخسروا ما يترتب عليها من الاجر والثواب لو صلح حالهم وقوي ايمانهم بها . قال الزمخشري وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما احبط اعمالهم وما اخسرها . ويحتمل ان يكون من قول الله عز وجل تعقيبا على قول المؤمنين . فهو شهادة منه تعالى بحبوط اعمالهم الاسلامية . اذ كانت تقية لا تقوى فيها ولا إخلاص . وبخسرانهم في الدنيا بعد الفضيحة . وفي الآخرة يوم الجزاء .

وفي هاتين الآيتين من خبر الغيب ما هو صريح . وفي « عسى » هنا يصح قول المفسرين ان الرجاء من الله تعالى للتحقيق، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، واعز جنده . وهزم الاحزاب وحده . فخذل الله الكافرين . وفضح الله المنافقين، وظهر تأويل الآيتين وما في معناهما وقوله (والعاقبة للمتقين) وفي القرآن كثير من اخبار الغيب التي يعبر عنها اهل الكتاب بالنبوات . وهي الاصل عندهم في صدق الانبياء ، وهم مع ذلك يكابرون في نبوة خاتم النبيين . ويمارون في (نبواته) الظاهرة الصريحة على تصديقهم (بنبوات) رمزية تختلف فيها وجوه التأويل . يرونا السهى فنريهم القمر . بل نريهم ما هو أضوأ من الشمس واظهر . (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

هذا وقد لقن حجته ؟ ويكون الله حجيجهما دونه. قيل : ان كنت لا احفظ اسم أمه؟ قال فانسبه الى حواء (ابن النجار عن أبي امامة)

واورده في سنن الافعال معزوا الى ابن عساكر بهذا اللفظ : عن سعيد الأموي قال شهدت أبا أمامة وهو في النزع فقال لي : يا سعيد اذا أنا مت فافعلوا بي كما أمرنا رسول الله (ص) قال لنا رسول الله (ص) « اذا مات احد من إخوانكم فسويتم عليه التراب » الخ ما تقدم

فانت ترى أنه ليس في شيء من ألفاظ هذا الحديث شيء من تلك الآيات ، ولا تلك السجعات ، ولهذا سكت بعض الفقهاء عن مسألة التلقين وقال بعضهم باستحبابه بناء على تساهلهم في العمل بالحديث الضعيف في فضائل الاعمال ، وقد أدخل هذا التساهل بدعا كثيرة في الاسلام ، كما حققه الامام الشاطبي في الاعتصام ، وحسبك منه ما نقله عنه في هذه الايام ، من اثبات بدعية الدعاء بعد الصلاة من الجماعة مع الامام . حتى الادعية والاذكار المأثورة عنه عليه الصلاة والسلام ، فان ما ثبت عمله على الانفراد ، لا يجوز فيه التزام الاجتماع ، والمدققون من الفقهاء لم يزيدوا على ما ورد في حديث أبي أمامة

قال النووي : هذا التلقين استحبه جماعات من اصحابنا منهم القاضي حسين وصاحب التتمة والشيخ نصر المقدسي في كتابه التهذيب وغيرهم . ونقله القاضي حسين عن الاصحاب مطلقا . والحديث الوارد فيه ضعيف ولكن احاديث الفضائل يتسامح فيها عند أهل العلم من المحدثين وغيرهم. وقد اعتضد هذا الحديث بشواهد من الاحاديث الصحيحة كحديث « اسألوا الله له التثبيت » ووصية عمرو بن العاصي اه المراد منه

أقول أن حديث الدعاء للميت بالتثبيت لا يعضد شرعية التلقين التي يراد بها منع السؤال الذي ثبت الدعاء بالتثبيت لاجله ورجاء السداد فيه ، ولو كان التلقين يحول دون السؤال لكان تلقينه خيرا من الدعاء له . وكذلك وصية عمرو لا تعضده ، فانه أوصى بان يقيموا عند قبره قدر ما ينحر جزور ويفرق لحمها ، لاجل أن يستأنس بهم ، يعني ان روحه تشعر بوجودهم فتستأنس بهم في ذلك الوقت الذي هو أول العهد بذلك العالم وحيث يمتحن الداخل فيه . فمسائل التشريع لا تبنى على مثل هذا.

وأنت ترى فيما نقله الشاطبي عن الامام مالك اصلا راسخا من أصول الشريعة وهو ان ما تركه النبي (ص) والصحابة (رض) مع وجود سببه وداعيته فتركهم إياه إجماع على انه غير مشروع ولا جائز في الدين ـ أي في العبادات دون العادات ـ

(ج) ما ذكره البرماوي ليس بسنة ، ولم يرد فيه حديث يثبت السنية ولا الاستحباب ، بل لم يرد في التلقين حديث صحيح ولا حسن ، وانما ورد فيه حديث واحد ضعيف لم يخرجه أصحاب الصحاح ولا السنن ، بل رواة الضعاف والمناكير والموضوعات وغيرها لاجل تدوينها ، على أن الاعتماد في مسألة الاحتجاج على اسانيدها ومتونها ، وقد اختلفت ألفاظهم فيه بعض الاختلاف ، وهو حديث أبي أمامة رضي الله عنه . رواه ابن عساكر وابن النجار والطبراني والديلمي ، وهاك رواياتهم مرموزا فيها اليهم ، من سنن الاقوال ، من كنز العمال ، وهي ثلاث :

١ ـ «اذا مات الرجل فدفنتموه فليقم احدكم عند رأسه فليقل : يا فلان ابن فلانة ! فانه سيسمع ، فليقل يا فلان ابن فلانة ! فانه سيستوي قاعدا ، فليقل يا فلان ابن فلانة ! فانه سيقول له ارشدني رحمك الله ، فليقل : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة ان لا إله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور . وان منكرا ونكيرا عند ذلك كل واحد يأخذ بيد صاحبه ويقول : قم ما تصنع عند رجل لقن حجته ؟ فيكون الله حجيجهما دونه » كر عن أبي أمامة)

٢ ـ «اذا مات احد من اخوانكم فسويتم عليه التراب فليقم رجل منكم عند رأسه ثم ليقل يا فلان ابن فلانة فانه يسمع ولكن لا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة ، فانه يستوي جالسا ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة فانه يقول أرشدنا رحمك الله ، ولكن لا تشعرون . ثم ليقل اذكر ما خرجت عليه من الدنيا ـ شهادة ان لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وانك رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن إماما . فانه اذا فعل ذلك أخذ منكر ونكير أحدهما بيد صاحبه ثم يقول له : اخرج بنا من عند هذا ، ما نصنع به فقد لقن حجته ؟ ولكن الله عز وجل حجته دونهم . قال رجل يارسول الله فان لم أعرف أمه ؟ قال انسبه الى حواء (طب . كر الديلمي . عن أبي أمامة)

٣ ـ «يا أبا أمامة : ألا ادلكم على كلمات هي خير للميت من الدنيا وما فيها وما غابت عليه الشمس وطلعت ؟ اذا مات أخوكم المؤمن وفرغتم من دفنه فليقم أحدكم عند قبره ثم ليقل يا فلان ابن فلانة ، والذي نفس محمد بيده انه ليستوي قاعدا ، ثم ليقولن يا فلان ابن فلانة : فيقول ارشدني الى ما عندك يرحمك الله (١) فليقل اذكر ما خرجت عليه من الدنيا . شهادة ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله ، وقد كنت رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ، فيقوم منكر فيأخذ بيد نكير فيقول قم بنا ما يقعدنا عند

(١) لم يذكر النداء في هذه الرواية الامرتين ، ولعله الآفة من النساخ

فصل (*)

وكذلك مسئلة التحرير ايضا - وهي التي عبر عنها بعضهم بقوله : « لا تقليد بعد العمل » - فيها نظر . وهو ان هذه العبارة لها معنيان (احدهما) انه اذا عمل وصادف الصحة على مذهب امام ولم يكن عالما بذلك، والحال انه على مقتضى مذهبه بطل ذلك العمل، فهل له ان يقول : اخذت بمذهب من يرى صحة ذلك ، ام لا ؟ فعلى ما ذكر ليس له ذلك على تقدير تفسير العبارة بهذا المعنى . اقول : وفرع ابو يوسف المنقول في مسئلة الفأرة يرده، اذ هو عين التقليد بعد انتهاء العمل، وهو الذي اذهب اليه واقول به ، بل قد اختار عالم قطر اليمن في زمانه الامام العلامة الفقيه عبد الرحمن ابن زياد الشافعي في فتاويه - ان العامي اذا وافق فعله مذهب امام من الائمة الذين يجوز تقليدهم صح وان لم يقلده ، توسعة على العباد ، واختلاف الائمة رحمة . وقال المحقق ابن حجر : لا يكون صحيحاً الا ان قلد ذلك القائل بالصحة، لأن تقليده لامام من الأئمة المذكورين التزم متابعته في الاحكام كلها ، فلا يجزئ في خلاف ذلك الا بتقليد صحيح .

وقد ذكر بعض أولياء الله تعالى الصالحين انه كشف له ان الله لا يعذب من عمل في المسئلة بقول امام مجتهد من الذين يجوز تقليدهم ، وهم الآن الأئمة الاربعة المدونة مذاهبهم ، والمحررة اصول وفروع مسائلهم ؛ أما المجتهدون السابقون فلا ، للجهل بضوابط الاحكام عندهم،

*) تابع لما نشر في ص ٣٦٨ ج ٥

وقد ذهب بعضهم الى تقوية الحديث بعمل أهل الشام به من العصر الاول في زمن من يقتدى به . قال في شرح الاقناع من كتب الحنابلة بعد ذكر المتن استحباب الاكثر للتلقين وذكر الحديث وضعفه ما نصه : وقال الاثرم قلت لابي عبد الله (أي الامام أحمد) هذا الذي يصنعون اذا دفن الميت يقف الرجل ويقول : يا فلان ابن فلانة اذكر ما فارقت عليه- شهادة أن لا إله الا الله - فقال ما رأيت احدا نقل هذا الا أهل الشام حين مات أبو المغيرة ، جاء إنسان فقال ذاك . وكان ابو المغيرة يروي فيه عن أبي بكر بن مريم عن اشياخهم أنهم كانوا يفعلونه اه

أقول أبو بكر بن أبي مريم ضعيف وقد احتاط عقله . وأما أبو المغيرة فهو عبد القدوس بن الحجاج الحمصي روى عنه أحمد والبخاري في غير الصحيح وأصحاب السنن وهو ثقة وقال النسائي لا بأس به وقد ذكر التلقين أبو عبد الله ابن القيم في في سياق الاستدلال على سماع الموتى بعد الدفن . قال وقد سئل عنه الامام أحمد فاستحسنه واحتج عليه بالعمل . ويروي فيه حديث ضعيف ذكره الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة . - فذكر الحديث وقواه باتصال العمل به في سائر الامصار والاعصار من غير انكار . ثم ذكر حكايات مناسبة لمعنى التلقين

أقول لو أن ابن القيم رحمه الله تعالى اراد تحقيق هذه المسألة في حد ذاتها لكتب غير هذا ، ولكنه أوردها في سياق يريد تقويته بسرد الدلائل الكثيرة كعادته فجاء كلامه فيه موضعا للنظر والنقد . فاما جواب الامام أحمد عنه للاثرم فلا يدل على استحسانه ولا على تقويته بالعمل به ، اذ لم ينقل العمل به الا عن أهل الشام من رواية أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف ، فيدل لفظ الامام أحمد على ان التلقين في عصره من القرن الثالث لم يكن معروفا الا عن أهل الشام ، فسقط بهذا قول ابن القيم باتصال العمل به في سائر الامصار والاعصار والحق أن العمل لا يعد حجة الا اذا كان مستفيضا عن أهل الصدر الاول من الصحابة والتابعين فما حدث بعد ذلك فلا قيمة لشيوعه وكثرة العمل به ، فكم من بدعة عمت الاقطار والامصار، يقيم الحجج على بطلانها وقبحها مثل ابن القيم واستاذه ابن تيمية من انصار السنة.

وجملة القول ان التلقين لم يثبت بكتاب الله ولا بسنة رسوله ولا قال احد من المحققين انه سنة ، بل قال بعض الفقهاء باستحبابه للتساهل في العمل بالحديث الضعيف والاستئناس له بما يناسبه . والبرماوي ليس قدوة ، وكم في كتب أمثاله وكتب من هم اعلم منه من البدع ، فلا ينبغي لاحد ان يثق الا بما يصرح المحققون بثبوت نقله عن النبي وجمهور السلف ، دون ما يذكر غفلا

يظهر له بالدليل صحة ما قلد فيه اولا كما ظهر للمجتهد ، وهنا مجتهد آخر قائل بخلافه فهو احرى بتجويز الانتقال له .

ثم ظهر لي بعدمدة من تسطيري هذه الاسطر ظهوراً بينا منكشفا لاريب فيه — ان مرادهم من قولهم : لاتقليد بعد العمل . انه اذا عمل مرة في مسئلة بمذهب في طلاق أو عتاق أو غيرهما واعتقده وأمضاه ، ففارق الزوجة مثلا واجتنبها وعاملها معاملة من حرمت عليه ، واعتقد البينونة بينه وبينها بما جرى منه من اللفظ مثلا ، فليس له ان يرجع عن ذلك ويبطل ما أمضاه ويعود اليها بتقليده ثانيا اماماً غير الامام الاول الذي قلده فيها ، حيث كان الثاني يرى خلاف مارآه الامام الاول ، فهذا معنى قولهم « ليس له التقليد بعد العمل ولا يرجع عما قلد فيه وعمل به» ونحو ذلك من العبارات ، فاما اذا وقعت تلك الواقعة مرة ثانية مع امرأة اخرى أو مع زواجها بنكاح جديد ، فله الاخذ بقول امام آخر ، ولا مانع منه — كما سيأتي قريبا -

على انه قد نقل العلامة ابن امير الحاج الحلبي الحنفي تلميذ المحقق ابن الهمام عن الزركشي من أئمة الشافعية في شرح التحرير — ان فى كلام بعض الائمة ما يقتضي جريان الخلاف فى جواز التقليد بعد العمل أيضاً وان منعه ليس باتفاق فاعلمه . وقد نقل صاحب الفتاوى الصرفية عن الظهيرية والنسفية والنصاب — واللفظ من الظهيرية — انه سئل شيخ الاسلام عطاء بن حمزة السندي ، عن الصغيرة اذا زوجها ابوها من صغير وقبل ابوه وكبر الصغير وبينهما غيبة منقطعة وقد كان التزوج بشهادة الفسقة : فهل يجوز للقاضي ان يبعث الى شافعي المذهب ليبطل

لفقد التدوين، لتطاول السنين. كذا رأيت ما حكيته في بعض المجاميع .

قلت: وفي تخصيص الائمة الاربعة كلام لا يسع في هذا المحل بيانه ثم رأيت في البحر الرائق شرح الكنز للعلامة ابن نجيم في باب قضاء الفوائت عند قوله : ويسقط بضيق الوقت والنسيان ، ما نصه : وان كان عاميا ليس له مذهب معين فمذهبه فتوى مفتية — كما صرحوا به — فان أفتاه حنفي اعاد العصر والمغرب ، وان افتاه شافعي فلا يعدهما ولا عبرة برأيه ؛ وان لم يستفت أحدا وصادف الصحة على مذهب مجتهد أجزأه ، ولا إعادة عليه إنتهى . وهذا موافق لما اختاره عالم قطر اليمن في زمانه وفقيهه العلامة عبد الرحمن بن زياد الشافعي رحمه الله تعالى .

والمعنى الثاني انه ليس للانسان اذا عمل في مسئلة بمذهب ان يعمل بخلافه فيها ثانيا ، وهذا أيضاً مدفوع من وجوه (الاول) انه لم يقم عليه دليل الا لزوم صورة التلاعب ، وذلك لا يلزم الا لو قصد به ذلك ، أو دلت عليه قرائن احوال ، أو مكلف ضاق به الحال فالتجأ الى الاخذ في واقعة كان عمل فيها مرة بقول امام فوقعت له مرة ثانية ، فاراد الأخذ فيها في المرة الثانية بقول امام آخر ، لدفع ضرورة ألجأته الى ذلك ـ والغرض صحيح ـ فلا ينسب الى التلاعب ، وقد صح وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه رجع عن قوله في مسئلة كان حكم فيها بحكم، ثم تكررت فتبدل نظره فيها فحكم بخلافه ، وقال : تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي .

فان قلت : انه مجتهد وهذا حال المجتهد انه يجب عليه الرجوع الى ما سنح له من الدليل بخلاف المقلد . قلت : مهلا يا اخي ! فان المقلد لم

بمرضية ، بل ربما يقع التصريح بخلافها من المتقدمين ، ويوجد من هذا النوع في كتاب التحرير الذي ألفه المحقق وجمع فيه من مقالات المتأخرين من فضلاء عصره فمن قبلهم بقليل حتى من كلام ارباب المذاهب غير مذهبنا ، فلا علينا ان ناخذ بما ظهر لنا صواب خلافه [1] ان أنعم الله علينا بحصول ضرب من النظر يمكن الوقف به على الصواب . هذا ونحن مع ذلك بحمد الله تعالى لانخرج عن درجة التقليد لامامنا الاعظم ابي حنيفة رحمة الله عليه ، ونحن مقلدون له ولكبار أصحابه ومن بعدهم من كبار ائمتنا كشمس الائمة واضرابه [2] . وأما مايبحثه ويقرره المتأخرون من أهل التاسع والعاشر [3] من فضلاء المذهب فلنا النظر فيه ان أمكن ، وعلينا التمسك بما هو منقول عن المتقدمين وخصوصاً اذا انتهض متمسكا لنا فيما نرتضيه . والله الموفق الى الصواب وبه الاعتصام .

فصل

ومما ينشأ من الجهل والتعصب تفويت فرض من فروض الله تعالى مع امكان اقامته على رأي مجتهد جليل ، بل على رأي جمع من المجتهدين ، وذلك (ان) جهلة المتعصبين يمتنعون ويمنعون من جمع الصلاتين فى السفر التي ذهب الى جوازها الامام الشافعي وغيره من صدر الاسلام رحمة الله عليهم ، ويؤدي ذلك الى تفويت الغرض رأساً ، وذلك انهم

(١) يوشك ان يكون قد سقط بعض الكلم من هذا السياق (٢) يريد بتقليدهم العمل بأصولهم والسير على طريقتهم في الفهم والعمل (٣) أي أهل القرنين التاسع والعاشر والمصنف من أهل القرن الحادي عشر. فهو يعد أهل ذينك القرنين كأهل قرنه لغلبة التقليد المحض عليهم و بعدهم عن الاستقلال والاجتهاد حتى في المذهب

هذا النكاح بينهما بهذا السبب ؟ قال : نعم . وللحنفي أن يفعل ذلك بنفسه أيضاً اخذا بمذهب الخصم ، وان لم يكن ذلك مذهبه . انتهى .

ثم اورد فى المحيط والظهيرية مسئلة ابي يوسف فى الفأرة عقبها مستشهداً فاعلم ذلك . وكذا مولانا خاتمة المتأخرين العلامة ابن نجيم رحمه الله فى البحر الرائق في مسئلة اليمين المضافة عن البزازية عن أصحابنا أنه لو استفتى فقيها عدلا فافتى ببطلان اليمين : هل له العمل بفتواه وامساكها؟ وروى أوسع من هذا وهو انه لو افتاه مفت بالحل ، ثم افتاه آخر بالحرمة بعد ما عمل بفتوى الاول ، فانه يعمل بفتوى الثاني فى حق امرأة أخرى، لا فى حق الاولى ، أي فى هذه المرأة التي مضت - كما نبهتك عليه قريبا - وانظره فقد صرح بجواز العمل بخلاف ما عمل للعامي ، وانما منع من ان يفتي به المفتي لئلا ينسب الى الغرض والتشهي والتلاعب ، ولئلا ينسب العلماء الى التناقض من جهة العوام ، فافهم[1] . هذا ما قام عندي فى وجه ذلك ، ورأيت في عبارة بعضهم تعليله « بكيلا يتطرق به الى هدم مذهب اصحابنا » أو نحو ذلك من العبارة والله أعلم .

واعلم أنّ من المسائل مايقع التصريح بها من بعض المتأخرين رحمة الله عليهم أجمعين - وخصوصاً في الاصول التي ألفها المتأخرون - وليست

---

(١) هذا التعليل ضعيف وأضعف منه ما يذكره بعده عن بعضهم . وله تعليل آخر أقوى منهما وهو ان تقليده الثاني يجب ان لا يبطل عمله بالتقلد الأول بعد التزامه لأنه تناقض في حقه . ولا يباح لأحد ان يلتزم التناقض ويعمل به وهولا يتحقق الا في الموضوع الواحد والمسألة الواحدة كالطلاق والعتق الذي أمضاه بالفعل . ومثله المجتهد اذا تغير رأيه في المسألة بعد إمضائها لا ينقض اجتهاده الثاني ما أمضاه بالأول

البزدوي صاحب المبسوطين واضرابهم من رؤساء المذهب الذين هم قدماء الدهر، وعظماء ماوراء النهر .

هذا مع أن الجاهل المتعصب الغبي يكفيه ايقاعها مجموعة مع الظهر تقليد الامام[1] الشافعي وغيره، ثم ان اراد الاحتياط وادرك في الوقت فسحة اعادها على مذهبه أو قضاها بعد المغرب احتياطا ان لم تطعه نفسه فى ادائها مجموعة مع الظهر ، والله أعلم والموفق لارب غيره وهو حسبي ونعم الوكيل .

قال جامعها محمد عبد العظيم المكي الحنفي غفران الله تبارك وتعالى له ولوالديه ولسائر المسلمين : ثم بعد تسطير هذه الاسطر ظفرت فى اثناء المطالعة بعدة من النقول تؤيد ماذكرته بهذه الرسالة وتشهد له لم انشط لالحاقها . ثم رأيت كلاما للإمام الكبير المجتهد فى العلوم رأس الفقهاء والمحدثين الشهير بابن تيمية الحنبلي رحمه الله تعالى فاحببت تعليقه في ذيل هذه الرسالة وهومؤيد لما اشرنا اليه مطابق الى جميع[2] ما اوردته فيها ، فالحاصل وان كان في كلامي زيادة أيضاح وبيان فهو لايخالفه بل يعضده ويؤيده . ولفظ ما رايته :

« سئل الامام العلامة شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحنبلي رحمه الله تعالى عن أهل المذاهب الاربعة : هل يصح اقتداء بعضهم ببعض في الصلوات المفروضة وغيرها أم لا ؟ وهل قال احد من السلف انه لا يصلي بعض المسلمين

---

(١) لابد ان يكون الاصل : بتقليد الامام ـ أو ـ تقليداً للامام الخ .

(٢) الصواب « لجميع »

لما يعزمون على السير عند الزوال مثلا فيصلون الظهر [١] لاول وقتها ويمتنعون من جمع العصر اليها ، فيركبون ويسيرون بناء على انهم ينزلون قبل المغرب آخر وقت العصر فيدركونها ، والحال انهم قد لا يتهيأ لهم النزول الا مع المغرب أو الغروب بحيث لا يتسع الوقت الى الطهارة والصلاة [٢] وخصوصاً في حق من تتعسر الطهارة عليه فتفوتهم الفرصة ، وقد كانوا يمكنهم اداؤها فى المنزل [٣] مجموعة جمع تقديم الى الظهر على مذهب الامام الشافعي رحمة الله عليه ، وعلى مذهب غيره ممن جوز الجمع لاجل السفر ، فيمتنعون عن ذلك ويرضون بتفويتها ، ولا بفعلها [٤] على مذهب مجتهد يجوز لهم أو عليهم يجب اتباعه ، والحال ما قرر ، لأن تحصيل الفرض من وجه مقدم على تفويته من كل وجه ، وما هذا الا محض التعصب والجهل. وقد (ذكر) الامام الاجل ظهير الدين الكبير المرغيناني عن استاذه السيد الامام أبي شجاع رحمه الله تعالى : انه سئل شمس الائمة الحلواني عن كسالى بخارى انهم يصلون الفجر والشمس طالعة : فهل نمنعهم من ذلك ؟ فقال : لا يمنعون ، لانهم لو منعوا يتركونها اصلا ظاهراً . (أي مما يظهر من حالهم) ولو صلوها تجوز عند اصحاب الحديث ، ولا شك ان الاداء الجائز عند البعض اولى [٥] من الترك اصلا. هذا جواب الحلواني ، وناهيك به اذ هو شيخ المذهب في عصره تخرج به الفحول النظار من ائمتنا كشمس الائمة السرخسي وفخر الاسلام

(١) كان الظاهر ان يقول : وذلك انهم عند ما يعزمون على السفر بعد الزوال يصلون الظهر الخ (٢) الصواب للطهارة والصلاة . يقال اتسع لكذا لا الى كذا (٣) لعل أصله « في المنزل الاول » اي من منازل السفر (٤) لعل اصله « ولا يرضون بفعلها » الخ (٥) لعل الاصل « وهو اولى من الترك »

يصلي خلف بعض مثل ما كان ابوحنيفة واصحابه والشافعي وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين يصلون خلف الائمة المرتبة من المالكية وغيرهم وان كانوا لايقرؤن البسملة لاسراً ولاجهرا . وصلى الرشيد إماما وكان قد احتجم فصلى الامام ابو يوسف خلفه ولم يعد صلاته ، وكان أفتاه الامام مالك بانه لاوضوء عليه ، وكان الامام أحمد ابن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة ، فقيل له في ذلك اذا كان الامام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ تصلي خلفه ؛ فقال كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيب [1]

وفي الجملة فهذه المسائل لها صورتان (احداهما) ان لا يعرف المأموم ان امامه فعل مايبطل الصلاة ، فهذا يصلي خلفه باتفاق السلف والائمة الاربعة وغيرهم ، وليس في هذا خلاف متقدم ، وانما خالف بعض المتعصبين من المتأخرين فزعموا ان الصلاة خلف الحنفي لا تصح وان أتى بالواجبات — قال — لانه اداها وهو لايعتقد وجوبها . وقائل هذا القول الى ان يستتاب كما يستتاب أهل البدع احوج منه الى ان يعتقد بخلافه [2] ، فانه ما زال المسلمون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه رضي الله عنهم يصلي بعضهم ببعض ، وأكثر الائمة لا يميزون بين المسنون والمفروض بل يصلون الصلوات الشرعية ، ولو كان العلم بهذا واجبا لبطلت صلاة أكثر المسلمين ولم يمكن الاحتياط، فان كثيرا

---

(١) كأن سقط من هذه العبارة كلمات أوفقرات من نسختنا فأتممناها من أصل فتاوى ابن تيمية ، وفي الاصل تقديم سعيد بن المسيب على مالك لأنه اعلم التابعين

(٢) هذا نص الفتوى وعبارة نسختنا « الى ان يعتقد بطلانها »

خلف بعض اذا اختلفت مذاهبهم أم لا ؟ وهل قائل ذلك مبتدع أم لا ؟ واذا فعل الامام ما يعتقد ان صلاته صحيحة والمأموم يعتقد خلاف ذلك مثل ان يكون الامام تقايأ او رعف أو احتجم او لمس النساء بشهوة أو مس ذكره أو قهقه في صلاته أو أكل مامسته النار أو أكل لحم الابل وصلى ولم يتوضأ ، وهو لا يعتقد وجوب الوضوء من ذلك ، أو كان الامام لا يقرأ البسملة أو لم يتشهد التشهد الاخير أو لم يسلم من الصلاة والمأموم يعتقد وجوب ذلك ـ : فهل تصح صلاة المأموم والحالة هذه ؟ افتونا مأجورين ولكم الثواب .

«أجاب رحمه الله تعالى : الحمد لله رب العالمين . نعم تجوز صلاة المسلمين بعضهم خلف بعض كما كان الصحابة والتابعون لهم باحسان ومن بعدهم من الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين يصلي بعضهم خلف بعض مع تنازعهم في هذه المسائل المذكورة وغيرها ، ولم يقل أحد من السلف الصالح رحمهم الله تعالى : انه لا يصلي بعضهم خلف بعض . ومن انكر ذلك فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة واجماع سلف الامة وأئمتها ؛ وكان الصحابة والتابعون ومن بعدهم منهم من يقرأ البسملة ومنهم من لا يقرأها ومنهم من يجهر بها ومنهم من لا يجهر بها ، وكان منهم من يقنت في الفجر ومنهم من لا يقنت ، ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ، ومنهم من يتوضأ من لمس النساء بشهوة ومس الذكر ومنهم من لا يتوضأ من جميع ذلك ، ومنهم من يتوضأ مما مسته النار ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ، ومنهم من يتوضأ من أكل لحوم الابل ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ، ومع هذا كان بعضهم

عليه كانت صلاة كل منهما صحيحة، وكان كل منهما قد أدى ما يجب عليه؛ وقد حصلت موافقـة الامام فى الافعال الظاهرة .

وقول القائل: «ان المأموم يعتقد بطلان صلاة الامام» خطأ منه لأن المأموم يعتقد ان الامام قد فعل ما وجب عليه، وان الله قد غفر له ما اخطأ فيه، وانه لا تبطل صلاته لاجل ذلك، ولو أخطأ الامام والمأموم فسلم الامام خطأ واعتقد المأموم جواز متابعته فسلم كما سلم المسلمون خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ركعتين سهوا مع علمهم بانه انما صلى ركعتين ، وكما لو صلى خمساً سهوا فصلوا خلفه سهوا مع علمهم بانه صلى خمساً لاعتقادهم جواز ذلك فانه تصح صلاة المأموم فى هذه الحالة ، فكيف اذا كان المخطئ هو الامام وحده ؛ وقد اتفقوا كلهم على ان الامام لو سلم خطأ لا تبطل صلاة المأموم اذا لم يتابعه ، فدل ذلك على أن ما فعله الامام خطأ لا يلزم فيه بطلان صلاة المأموم والله أعلم .

انتهى بلفظه فانظره فانه مطابق ومؤيد لما ذكرته في هذه الرسالة ولله الحمد على موافقة من مضى من كبار الأئمة .

وكثيرا ما أختار شيئاً الا فأجد من قد سبقني الى اختياره الفحول من الرجال من الأئمة [1] أو أستشكل شيئاً فاجد استشكاله منقولا عن كبار المتقدمين، وكذلك اذا ابديت قولا لم يكن وقف من رأى كلامي على

---

(١) كلمة « الا » وكلمة « من » قبل الأئمة زائدتان . أي كثيرا ما اختار شيئا فأجد الذين قد سبقوني الى اختياره هم الفحول من الرجال والأئمة. وسبب موافقة المصنف في كثير من المسائل لهؤلاء عدم التعصب للمذهب وحب الانصاف . ولو عنى بالتفسير والحديث كما عني بالفقه الحنفي مع زيادة اتقان للعربية لكان مجتهد مستقلا تام الاستقلال

من هذا فيه نزاع وادلة ذلك خفية ، وأكثر ما يمكن المتقدمين ان يُحتاطَ من الخلاف ، وهو لا يجزم باحد القولين وان كان الجزم باحدهما واجبا ؛ فاكثر الخلق لا يمكنهم الجزم بذلك ، وهذا القائل ليس معه الا تقليد بعض الفقهاء ، ولو طولب بادلة شرعية تدل على صحة قول امامه دون غيره لعجز عن ذلك ، ولهذا لا يعتد بنقل مثل هذا فانه ليس من أهل الاجتهاد .

(والصورة الثانية) ان يتيقن المأموم ان الامام فعل مالا يسوغ عنده ، مثل ان يمس ذكره أو يلمس النساء بشهوة ، أو يحتجم ، أو يتقايأ ثم يصلي بلا وضوء . فهذه الصورة فيها نزاع مشهور ، فاحد القولين : لا تصح صلاة المأموم لانه يعتقد بطلان صلاة امامه — كما قال ذلك جماعة من اصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى — والقول الثاني : تصح صلاة المأموم ؛ وهو قول جمهور السلف وهو مذهب مالك رحمه الله ، واحد قولي الشافعي وأحمد ، بل وأبي حنيفة ، وأكثر نصوص الامام أحمد على هذا ؛ وهذا هو الصواب ، لما ثبت في الصحيح وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « يصلون بكم فان أصابوا فلكم ولهم وان اخطؤا فلكم وعليهم » فقد بين صلى الله عليه وسلم ان خطأ الامام لا يتعدى الى المأموم ، ولأن المأموم يعتقد ان ما فعله سائغ له ، وأنه لا اثم عليه فيما فعل فانه مجتهد ، أو مقلد مجتهد ، وهو يعلم ان هذا قد غفر الله له خطأه ، فهو يعتقد صحة صلاته ، وأنه لا يأثم اذا لم يعدها ، بل لو حكم حاكم بمثل هذا لم يجز له نقض حكمه ، بل كان ينفذه ؛ واذا كان الامام قد فعل باجتهاده — ولا يكلف الله نفساً الا وسعها — والمأموم قد فعل ما يجب

كالماوري والدارمي والشيخ في المهذب والتنبيه ، وكلام الشيخ أبي حامد فيها محتمل فانه قال : لو اقتدى به وهو يحتمل الكراهة وعليها جرى الروياني في البحر، ولم يصح عن القاضي أبي الطيب شيء، بل حكي عن الدارمي الجواز ، وعن أبي اسحاق المنع ، والقائلون به لم يقفوا للشافعي على نص ، بل قالوا : إنه قياس مذهبه في المختلفين في القبلة والاواني . وهذا ممنوع نقلاوتوجيها . (أما) النقل، فان المنصوص للشافعي ـ ما نقله القفال ـ الصحة ، ومما يشهد للصحة ماحكاه المحاملي في المجموع قال· قال الشافعي رحمه الله تعالى في الامالي : واذا دخل الرجل بلدا فنوى ان يقيم أربعين يوما، وكان يرى جواز القصر حينئذ، ومعه رجل يعتقد عدم جوازه، فيكره له ان يقدمه ويصلي خلفه لانه يعتقد ان صلاته المقصورة لاتجوز ، فان قدمه وصلى خلفه جاز لانه محكوم بصحة صلاته في حقه . هكذا حكاه القاضي أبو الطيب عن الامالي .

ولو كانت العبرة باعتقاد المأموم لكان اقتداؤه به باطلا لان عند المأموم ان نية القصر لا تنعقد معها الصلاة . ومع ذلك صحح الشافعي الاقتداء به اعتبارا باعتقاد الامام ، وهذا النص ذكره الامام النووي أيضاً في باب صلاة المسافر في شرح المهذب ، ووقع في بعض نسخ شرح المهذب هكذا «والمختار والظاهر قول القفال» فلم تزل الائمة المختلفون في الفروع يصلي بعضهم خلف بعض ويشهد له تصحيحهم ان الماء الذي توضأ منه الحنفي وغيره — ممن لا يرى وجوب النية — مستعمل وان لم ينو على الاصح ، وهذا هو الصواب الذي ينبغي ان تكون الفتوى عليه، وقد كان الامام الشافعي رحمه الله تعالى يصلي خلف أئمة المدينة ومصر ،

نقله فيقع منهم موقع الانكار ويحملهم الجهل والتعصب على رده ثم اجده منقولا بعد ذلك بعينه أو بما يوافقه عن السلف فمن بعدهم من كبار الأئمة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، بل ربما افعل أمورا من الامور العادية فيستغربه الناس ويتعجبون من صدوره مني ، وربما عيب علي ، بل ربما أنسب به عند بعض الجهال الى سخافة العقل ثم اجده أو مثله محكيا عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أو عن التابعين أو عن بعض الخلفاء أو السلاطين الكبار المجمع على اصابة فعلهم وجلالتهم ، والحمد لله رب العالمين

ثم لخص لي تلخيصاً شافياً شافعي زمانه السيد الجليل عمر بن عبد الرحيم البصري المكي رحمه الله تعالى ، ومن خطه الكريم نقلت ما نصه:

« قال الامام الرافعي في[1] وان كانت صلاته صحيحة في اعتقاد الامام دون المأموم أو بالعكس ، فان كان الاختلاف فى الفروع كما اذا مس الحنفي فرجه وصلى ، أو ترك الاعتدال أو قرأ غير الفاتحة : ففي صحة اقتداء الشافعي به وجهان (أحدهما) يصح ، وبه قال القفال لان خطأه غير مقطوع به (والثاني) - وبه قال الشيخ ابو حامد : لا يصح لفسادها عند المأموم - فأشبه ما لو اختلف اجتهاد رجلين فى القبلة لا يقتدي احدهما بالآخر ، وهو اظهر عند الاكثرين انتهى .

قال الامام الزركشي فى الخادم ما حاصله : وخلاصة ما رجحه ونقله عن الاكثرين غير مسلم فانما تعرض له طائفة كالبرزنجي والروياني في الحلية والبغوي وصاحب الكافي والغزالي فى فتاويه ، ولم يذكر المسئلة طائفة

(١) بياض في الاصل والذي سقط اسم الكتاب ولعله « الشرح الكبير » للوجيز ولا يبعد ان يكون مما سقط اسم الباب او البحث

الظن القوي ؛ وأيضاً الاجتهاد الاول يمكن التوصل [1] الى القطع بالخطإ فيه بخلاف الثاني

وممن اختار ذلك من المتأخرين صاحب الذخائر وأفرد المسئلة بتصنيف سماه « بيان المشروع في الاقتداء بالمخالفين فى الفروع » وقال ابن أبي الدم فى باب الجنائز من شرح الوسيط : لعل الاصح الصحة مطلقا ، واقام الدليل على الجواز من وجوه ، ثم نبه على أمر حسن فقال : وهذا الخلاف كله فى المجتهدين ، وأما عوام الناس فليسوا مقصودين في الخلاف فانهم لا مذهب لهم يعولون عليه ، وانما فرضهم التقليد عند نزول المنازعه فمن أفتاهم من أهل الفتوى وجب عليهم قبول قوله، وانتسابهم الى المذاهب عصبية، ومعناه ارتضى ان يعمل فى عبادته وكل احواله بقول امام انتسب اليه ، فهؤلاء يصح قدوة كل منهم باي امام كان من غير تفصيل .

ونقل عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أنه كان يرى الوضوء من الدم الكثير فقيل له : اذا كان الامام لايتوضأ من ذلك أتصلي خلفه ؟ فقال : سبحان الله تعالى ! أقول إنه لايصلى خلف سعيد ابن المسيب ومالك رضي الله عنهما ؟

وكان القاضي أبو عصام العامري الحنفي مارا في باب مسجد القفال والمؤذن يؤذن المغرب فنزل عن دابته ودخل المسجد ، فلما رآه القفال أمر المؤذن أن يثني في الاقامة ، وقدم القاضي أباعصام فتقدم وصلى

(١) لعل الاصل « يمكن التوصل به »

وكانوا لا يسلمون ؛ ولم ينقل عنه الامتناع عن الاقتداء بهم ، وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه انه أتم بمنى مع عثمان رضي الله عنه مع انكاره عليه ذلك ؛ فقيل له في ذلك ، فقال : الخلاف شر فتنة .

وأما توجيه المانعين بقولهم : « ان المأموم يعتقد بطلان صلاة الامام » فمردود ؛ فانها مسئلة اجتهاد واعتقاد ، والخطأ فيها لا يسوغ كما في غيرها من المسائل الاجتهادية ، كالحكم بصحة حكمه وامتناع نقضه بشرطه .

وأما قياسهم على المجتهدَين في القبلة أو في الاواني فيصرف بان الامام والمأموم فيهما يعتقدان فساد صلاة من صلى بطهارة من اناء نجس ، أو صلى الى غير القبلة ، بخلاف المأموم في اقتدائه بتارك الفاتحة فانه لا يعتقد بطلان صلاته مع تركها ، لانه مستند لاجتهاد من جملة عقيدة المأموم التي يدين بها ربه اعتقاد صحته ؛ وبان المجتهد لو بان له في مسئلتي الاواني والقبلة ان الامر على خلاف ظنه يقينا لزمته الاعادة ، بخلاف المجتهد في الفروع لو عثر على نص جلي مخالف لاجتهاده السابق ، لا تلزمه اعادة ما صلاه بالاجتهاد السابق ؛ وسر ذلك ان الاجتهاد الاول مستند الى أمر عادي وقرائن تشير [1] الظن اكتفى بها الشارع تخفيفا على الامة ، فان تحقق الخطأ فيها رجع الى الاصل وتبين عدم صلاحيتها لمن ظن بها ، بخلاف الاجتهاد الثاني فانه مستند الى امر شرعي أوجب الشارع عليه اتباعه ، فلم يقع عمله السابق على خلاف حكم الله تبارك وتعالى ؛ وان فرض وصرح النصّ الثاني المعثور عليه بحيث افاد اليقين أو ما قاربه من

(١) سقط من هنا كلام والمعنى ان الاجتهاد الأول مبني على قرائن ظنية لا هي علم ولا شرع وانما اجازها الشرع للضرورة

فصل

﴿ الابتداع بالتشدد في الدين . والتزام مالم يرد وتتبع آثار الصالحين ﴾
من كتاب الاعتصام للامام الشاطبي

ثبت بمضمون هذه الفصول المتقدمة آنفا ان الحرج منفي عن الدين جملة وتفصيلا ، — وان كان قد ثبت ايضا في الاصول الفقهية على وجه من البرهان ابلغ — فلنبن عليه فنقول :

قد فهم قوم من اصول[1] السلف الصالح واهل الانقطاع الى الله ممن ثبتت ولايتهم انهم كانوا يشددون على انفسهم ، ويلزمون غيرهم الشدة ايضاً والتزام الحرج ، ديدنا في سلوك طريق الآخرة . وعدوا من لم يدخل تحت هذا الالتزام مقصرا مطرودا ومحروما . وربما فهموا ذلك من بعض الاطلاقات الشرعية ، فرشحوا بذلك ما التزموه ، فافضى الأمر بهم الى الخروج عن السنة الى البدعة الحقيقية او الاضافية .

فمن ذلك ان يكون للمكلف طريقان في سلوكه للآخرة ، احدهما سهل والآخر صعب ، وكلاهما في التوصل الى المطلوب على حد واحد ؛ فيأخذ بعض المتشددين بالطريق الاصعب الذي يشق على المكلف مثله ، ويترك الطريق الاسهل بناء على التشديد على النفس ، كالذي يجد للطهارة ماءين سخن وبارد فيتحرى البارد الشاق استعماله ، ويترك الآخر . فهذا لم يعط النفس حقها الذي طلبه الشارع منه . وخالف دليل رفع الحرج من غير معنى زائد ، فالشارع لم يرض بشرعية مثله ، وقد قال تعالى

(١) كلمة « أصول » لا يظهر لها معنى ههنا ولعلها لاحوال

وجهر بالبسملة ، وأم بشعار الشافعية فى صلاته ، وكان ذلك منهما تهوينا لأمر الخلاف فى الفروع . وقال القاضي الحسين فى تعليقه : والمختار أن كل مجتهد مصيب، الا أن أحدهم أصاب الحق عند الله والباقون أصابوا الحق عند أنفسهم . وقال ابن السمعاني : قال علماؤنا ـ:من أخطأ كان مخطئا للحق عند الله مصيباً فى حق عمل نفسه، حتى إن عمل نفسه يقع صحيحاً عند الله شرعا كانه أصاب الحق عندالله . وقدحكى الامام الشافعي رحمة الله عليه الاجماع على أن كل مجتهد اداه اجتهاده الى أمر فهو حكم الله تعالى فى حقه ولايشرع له العمل بغيره حينئذ ، فمن صلى بحكم اجتهاده فصلاته صحيحة عنده وعند من يخالفه في المسئلة لاعتقاده ان ذلك حكم الله تعالى عنده ، وصلاته صحيحة لاتيانه بها على الوجه المأمور به حينئذ ، فكيف يمنع الاقتداء به مع الحكم بصحة صلاته في نفسه ؟ انتهى مع تلخيص وتحرير . واقتضى نسخه الى هنا انتهى ما رأيته بخط المذكور دامت افادته، وقد أرسل به اليّ في ذيل نسخة من هذه الرسالة بعد امرار نظرالديد عليها ، وهذا بحمد الله تعالى أيضاً مؤيد لما أشرت اليه، واعتمدت فيها عليه ،والله الموفق الى الصواب.

قال جامعها ومؤلفها محمد بن عبد العظيم المكي الحنفي بن المقدسي الميروز الملا فروخ بن عبد المحسن الرومي الموروي حفظه الله تعالى فى نفسه واولاده وجميع نعم الله تعالى عليه ، واحياه حياة طيبة سالمة من الاسواء فيما وصل ويصل من منة الله اليه ، بعد ان علم بانه مر عليه مطالعة وتصحيحا وتمة في يوم الجمعة الثانية من شوال سنة اثنتين وخمسين والف من الهجرة النبوية ، والحمد لله على ذلك ، وصلى الله على نبيه كذلك.

حياتكم الدنيا) لان المراد به الاسراف الخارج عن حد المباح ، بدليل ما تقدم . فإذاً الاقتصار على البشيع في المأكول من غير عذر تنطع ؛ وقدمر مافيه في قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ماأحل الله لكم) الآية .

ومن ذلك الاقتصار في الملبس على الخشن من غير ضرورة ، فانه من قبيل التشديد والتنطع المذموم . وفيه ايضامن قصد الشهرة ما فيه.

وقد روي عن الربيع بن زياد الحارثي انه قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه : أعد بي على اخي عاصم . قال : ما باله ؟ قال : لبس العباء يريد النسك . فقال علي رضي الله عنه : عليّ به . فأتى به مؤتزرا بعباءة مرتديا بالاخرى ، شعث الرأس واللحية ، فعبس في وجهه وقال : ويحك ! أما استحييت من أهلك ؟ أما رحمت ولدك ؟ اترى الله أباح لك الطيبات وهو يكره ان تنال منها شيئا ؟ بل انت اهون على الله من ذلك ، اما سمعت الله يقول في كتابه (والارض وضعها للانام — الى قوله - يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ؟ أفترى الله أباح هذا لعباده الا ليبتذلوه [١] ويحمدوا الله عليه فيثيبهم عليه ؟ وان ابتذالك نعم الله بالفعل خير منه بالقول . قال عاصم : فما بالك في خشونة مأكلك وخشونة ملبسك ؟ قال: ويحك ! ان الله فرض على أئمة الحق ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس .

فتأملوا كيف لم يطالب الله العباد بترك الملذوذات ! وانما طالبهم

---

(١) الابتذال ضد الصون ، وما يستعمل يبتذل ؛ فالمراد استعمال النعم والطيبات والانتفاع بها . ويستعمل الابتذال في لازمه وهو الامتهان والاحتقار ، وليس بمراد هنا .

(ولا تقتلوا انفسكم ، ان الله كان بكم رحيما) فصار متبعا لهواه ؛ ولا حجة له فى قوله عليه السلام « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ اسباغ الوضوء عند الكريهات » — الحديث . من حيث كان الاسباغ مع كراهية النفس سببا لمحو الخطايا ورفع الدرجات ، ففيه دليل على ان للانسان ان يسعى فى تحصيل هذا الاجر باكراه النفس ، ولا يكون الا بتحري إدخال الكراهية عليها . لانا نقول : لا دليل فى الحديث على ما قلتم ، وانما فيه ان الاسباغ مع وجود الكراهية ، ففيه امر زائد ، كالرجل يجد ماء باردا فى زمان الشتاء ولا يجده سخنا فلا يمنعه شدة برده عن كمال الاسباغ .

واما القصد الى الكراهية فليس فى الحديث ما يقتضيه ، بل فى الأدلة المتقدمة ما يدل على انه مرفوع عن العباد ، ولو سلم ان الحديث يقتضيه لكانت ادلة رفع الحرج تعارضه ، وهي قطعية وخبر الواحد ظني ، فلا تعارض بينهما للاتفاق على تقديم القطعي . ومثل الحديث قول الله تعالى (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة) ـ الآية .

ومن ذلك الاقتصار من المأكول على اخشنه وافظعه لمجرد التشديد لا لغرض سواه ، فهو من النمط المذكور فوقه ، لان الشرع لم يقصد الى تعذيب النفس فى التكليف ؛ وهو ايضا مخالف لقوله عليه السلام « ان لنفسك عليك حقا »وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الطيب اذا وجده ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويعجبه لحم الذراع ، ويُستعذب له الماء .فاين التشديد من هذا ؟

ولا يدخل الاستعمال المباح فى قوله تعالى (أذهبتم طيباتكم فى

الثائرين على المبايعة [1] في انفس التكاليف انواعا من اللذات العاجلة ، والأنوار الشارحة للصدور ، ما لا يعدله من لذات الدنيا شيء ، حتى يكون سببا لاستلذاذ الطاعة والفرار اليها وتفضيلها على غيرها ، فيخف على العامل العمل ، حتى يتحمل منه ما لم يكن قادرا قبل على تحمله الا بالمشقة المنهي عنها ، فاذا سقطت سقط النهي .

بل تأملوا كيف وضع للأطعمة على اختلافها لذات مختلفات الالوان ، وللاشربة كذلك ، وللوقاع الموضوع سببا لاكتساب العيال - وهو أشد تعبا عن النفس - لذة اعلى من لذة المطعم والمشرب ؛ الى غير ذلك من الامور الخارجة عن نفس المتناول ، كوضع القبول في الارض وترفيع المنازل ، والتقدم على سائر الناس في الامور العظائم ؛ وهي ايضاً تقتضي لذات تستصغر في جنبها لذات الدنيا

واذا كان كذلك ، فاين هذا الموضع الكريم ، من الرب اللطيف الخبير ؟ فمن يأتي متعبدا بزعمه بخلاف ماوضع الشارع له من الرفق والتيسير والاسباب الموصلة الى محبته ؛ فيأخذ بالاشق والاصعب ، ويجعله هو السلم الموصل والطريق الاخص ؟ : هل هذا كله الا غاية في الجهالة ، وتلف في تيه الضلالة ؟ عافانا الله من ذلك بفضله .

فاذا سمعتم بحكاية تقتضي تشديدا على هذا السبيل ، أو يظهر منها تنطع أو تكلف ؛ فإما ان يكون صاحبها ممن يعتبر كالسلف الصالح ، او من غيرهم ممن لا يعرف ولا يثبت اعتباره عند اهل الحل والعقد من العلماء ، فان كان الاول فلا بد أن يكون على خلاف ما ظهر لبادي

(١) لعل اصله · السائرين أو الثابرين على المتابعة

بالشكر عليها اذا تناولوها ؛ فالمتحري الامتناع من تناول ماأباحه الله من غير موجب شرعي مفتات على الشارع[١] وكل ماجاء عن المتقدمين من الامتناع عن بعض المتناولات من هذه الجهة وانما[٢] امتنعوا منه لعارض شرعي يشهد الدليل باعتباره ، كالامتناع من التوسع لضيق الحال في يده ، أو لأن المتناوَل ذريعة الى ما يكره أو يمنع ، أو لأن في المتناول وجه شبهة تفطن اليه التارك ولم يتفطن اليه غيره ممن علم بامتناعه . وقضايا الاحوال لاتعارض الادلة بمجردها ، لاحتمالها في أنفسها . وهذه المسئلة مذكورة على وجهها في كتاب الموافقات .

ومن ذلك الاقتصار في الافعال والاحوال على ما يخالف محبة النفوس ، وحملها على ذلك في كل شيء من غير استثناء ؛ فهو من قبيل التشديد . الا ترى أن الشارع اباح اشياء مما فيه قضاء نهمة النفس وتمتعها واستلذاذها ؛ فلو كانت مخالفتها برًّا لشرع ، ولندب الناس الى تركه فلم يكن مباحا ، بل مندوب الترك او مكروه الفعل .

وايضاً فان الله تعالى وضع في الامور المتناولة ايجابا أو ندبا أشياء من المستلذات الحاملة على تناول تلك الامور ، لتكون تلك اللذات كالحادي الى القيام بتلك الامور ، كما جعل في الأوامر اذا امتثلت وفي النواهي اذا اجتنبت اجوراً منتظرة ، ولو شاء لم يفعل ؛ وجعل في الاوامر اذا تركت والنواهي اذا ارتكبت جزاءا على خلاف الاول ، ليكون جميع ذلك منهضا لعزائم المكلفين في الامتثال ، حتي انه وضع لاهل الامتثال

(١) يقال افتأت على فلان افتئاتا وافتات افتياتا . اذا تصرف بشيء من شؤونه بدون إذنه ولا رضاه (٢) لعل الاصل «فانما» والجملة خبر قوله «وكل ما جاء عن المتقدمين» و يبعد ان يكون خبر المبتدا قوله « من الجهة »

ومع ذلك فلم يثبت فيها اذا عمل بها في البيوت دائماً ان يقام جماعة في المساجد البتة ، ما عدا رمضان — حسبما تقدم — ولا في البيوت دائما ، وان وقع ذلك في الزمان الاول في الفرط[1] كقيام ابن عباس رضي الله عنهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما بات عند خالته ميمونة ، وما ثبت من قوله عليه السلام « قوموا فلأصلي لكم »

وما في الموطإ من صلاة يرفا[2] مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الضحى ، فمن فعله في بيته وقتا ما فلا حرج ، ونص العلماء على جواز ذلك بهذا القيد المذكور ، وان كان الجواز قد وقع في المدونة مطلقاً فما ذكره تقييد له ، واظن ابن حبيب نقل[3] عن مالك مقيدا ، فاذا اجتمع في النافلة أن تلتزم التزام السنن الرواتب إما دائماً وإما في اوقات محدودة وعلى وجه محدود ، واقيمت في الجماعة في المساجد التي تقام فيها الفرائض ، او المواضع التي تقام فيها السنن الرواتب ، فذلك اتباع[4] . والدليل عليه انه لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن اصحابه ولا عن التابعين لهم باحسان فعل هذا المجموع هكذا مجموعاً ، وان اتى مطلقاً من غير تلك التقييدات . فالتقييد في المطلقات التي لم يثبت بدليل الشرع تقييدها رأي في التشريع ؛ فكيف اذا عارضه الدليل ، وهو الامر باخفاء النوافل مثلا ؟

---

(١) كذا ولا يظهر لهذه الكلمة هنا معنى . والمثل الذي ذكره ثابت في الصحيح هو ان ابن عباس أراد ان يعرف صلاة النبي (ص) في الليل فبات عند خالته ميمونة في ليلتها ، فلما قام النبي (ص) من الليل قام معه واقتدى به فصلى أحدى عشرة ركعة فهي قيامه ووتره (٢) كذا في الاصل (٣) لعله « نقله » أو نقل ذلك (٤) كذا . وصوابه « ابتداع » اذ لا تصح تسميته اتباعا الا بتمحل بعيد

الرأي - كما تقدم - وان كان الثاني فلا حجة فيه ، وانما الحجة فى المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذه خمسة فى التشديد في سلوك طريق الآخرة يقاس عليها ما سواها .

فصل

قد يكون اصل العمل مشروعاً ولكنه يصير جارياً مجرى البدعة من باب الذرائع ، ولكن على غير الوجه الذي فرغنا من ذكره . وبيانه ان العمل يكون مندوباً اليه - مثلا - فيعمل به العامل فى خاصة نفسه على وضعه الاول من الندبية ، فلو اقتصر العامل على هذا المقدار لم يكن به بأس، ويجري مجراه اذا دام عليه فى خاصيته غير مظهر له دائماً ، بل اذا اظهره لم يظهره على حكم الملتزمات من السنن الرواتب والفرائض اللوازم ، فهذا صحيح لا اشكال فيه . واصله ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم لاخفاء النوافل والعمل بها في البيوت ، وقوله « افضل الصلاة صلاتكم فى بيوتكم الا المكتوبة» فاقتصر فى الاظهار على المكتوبات - كما ترى - وان كان ذلك في مسجده عليه السلام او فى المسجد الحرام او في مسجد بيت المقدس، حتى قالوا : ان النافلة في البيت افضل منها في احد هذه المساجد الثلاثة بما اقتضاه ظاهر الحديث . وجرى مجرى الفرائض في الإظهار السنن كالعيدين والخسوف والاستسقاء وشبه ذلك ، فبقي ما سوى ذلك حكمه الاخفاء ، ومن هنا ثابر السلف الصالح رضي الله عنهم على اخفاء الاعمال فيما استطاعوا او خف عليهم اقتداء بالحديث و بفعله عليه السلام ، لأنه القدوة والاسوة .

يقول : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجره التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقطعها لان الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها نخاف عليهم الفتنة .

قال ابن وضاح : وكان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك الآثار للنبي صلى الله عليه وسلم ماعدا قباء وحده - وقال - وسمعتهم يذكرون ان سفيان دخل مسجد بيت المقدس فصلى فيه ولم يتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها ، وكذلك فعل غيره أيضا ممن يقتدى به ؛ وقدم وكيع أيضا مسجد بيت المقدس فلم يعدُ فِعلَ سفيان - قال ابن وضاح - فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين ، فقد قال بعض من مضى : كم من امر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكراً عند من مضى ؟ .

وقد كان مالك يكره كل بدعة وان كانت في خير . وجميع هذا ذريعة لئلا يتخذ سنة ماليس بسنة ، أو يعد مشروعا ما ليس معروفاً .

وقد كان مالك يكره المجيء الى بيت المقدس خيفة ان يتخذ ذلك سنة ؛ وكان يكره مجيء قبور الشهداء ، ويكره مجيء قباء خوفا من ذلك ، مع ماجاء في الآثار من الترغيب فيه .

ولكن لما خاف العلماء عاقبة ذلك تركوه .

وقال ابن كنانة واشهب : سمعنا مالكا يقول: لما اتاه سعد ابن ابي وقاص قال : وددت ان رجلي تكسرت وأني لم أفعل .

وسئل ابن كنانة عن الآثار التي تركوا بالمدينة فقال: اثبت ما في ذلك

ووجه دخول الابتداع هنا ان كل ما واظب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوافل واظهره في الجماعات فهو سنة ؛ فالعمل بالنافلة التي ليست بسنة على طريق العمل بالسنة، إخراج للنافلة عن مكانها المخصوص بها شرعاً . ثم يلزم من ذلك اعتقاد العوام فيها ومن لا علم عنده انها سنة . وهذا فساد عظيم ، لأن اعتقاد ما ليس بسنة والعمل بها على حد العمل بالسنة نحو من تبديل الشريعة ؛ كما لو اعتقد في الفرض انه ليس بفرض، او بما ليس بفرض انه فرض ، ثم عمل على وفق اعتقاده فانه فاسد ، فهب العمل في الاصل صحيحاً فاخراجه عن بابه اعتقادا وعملا من باب إفساد الاحكام الشرعية . ومن هنا ظهر عذر السلف الصالح في تركهم سننا قصدا لئلا يعتقد الجاهل أنها من الفرائض كالاضحية وغيرها . — كما تقدم ذلك —

ولأجله ايضاً نهى اكثرهم على اتباع الآثار ، كما خرج الطحاوي وابن وضاح وغيرهما عن معروز بن سويد الاسدي قال : وافيت الموسم مع امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما انصرفنا الى المدينة انصرفت معه ، فلما صلى لنا صلاة الغداة قرأ فيها (ألم تر كيف فعل ربك) و (لإيلاف قريش) ثم رأى ناساً يذهبون مذهبا ، فقال : اين يذهب هؤلاء ؟ قالوا يأتون مسجدا هاهنا صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : انما هلك من كان قبلكم بهذا ، يتبعون آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا ؛ من ادركته الصلاة في شيء من هذه المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فليصل فيها والا فلا يتعمدها .

وقال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس مفتي أهل طرسوس

هذا[1] غير مشروعة ، لأن وضع الاسباب للشارع لا للمكلف ، والشارع لم يضع الصلاة في مسجد قباء أو بيت المقدس — مثلا — سببا لان تتخذ سنة ، فوضع المكلف لها كذلك رأي غير مستند الى الشرع ، فكان ابتداعا .

وهذا معنى كونها بدعة اضافية . أما اذا استقر السبب وظهر عنه مسببه الذي هو اعتقاد العمل سنة والعمل على وفقه ، فذلك بدعة حقيقية لا اضافية ، ولهذا الاصل أمثلة كثيرة وقعت الاشارة اليها في أثناء الكلام ، فلا معنى للتكرار .

واذا ثبت في الامور المشروعة أنها قد تعد بدعا بالاضافة ، فما ظنك بالبدع الحقيقية ؟ فانها قد تجتمع فيها ان تكون حقيقية واضافية معا ، لكن من جهتين ، فاذا بدعة « اصبح ولله الحمد » في نداء الصبح ظاهرة . ثم لما عمل بها في المساجد والجماعات مواظبا عليها لا تترك كما لا تترك الواجبات وما اشبهها ، كان تشريعا اولا يلزمه ان يعتقد فيها الوجوب اوالسنة ، وهذا ابتداع ثان اضافي ؛ ثم اذا اعتقد فيها ثانيا السنية اوالفرضية صارت بدعة من ثلاثة اوجه . ومثله يلزم في كل بدعة اظهرت والتزمت ، واما اذا خفيت واختص بها صاحبها فالامر عليه اخف ؛ فيا لله ويا للمسلمين ! ما ذا يجني المبتدع على نفسه مما لا يكون في حسابه ؟ وقانا الله شرور انفسنا بفضله .

---

(١) لعل الاصل « من هذا القبيل » أو « من هذا الوجه » وكتب في الاصل « فهي من هذه البدعة غير شرعية » ووضع فوق كلمة « البدعة » علامة الترميج

عندنا قباء ، إلا ان مالكا كان يكره مجيئها خوفا ان يتخذ سنة .

وقال سعيد بن حسان : كنت اقرأ على ابن نافع ، فلما مررت بحديث التوسعة ليلة عاشوراء قال لي : حرّق عليه (١) قلت : ولم ذلك يا ابا محمد ؟ قال خوفا من ان يتخذ سنة .

فهذه امور جائزة او مندوب اليها ، ولكنهم كرهوا فعلها خوفا من البدعة ، لان اتخاذها سنة انما هو بأن يواظب الناس عليها مظهرين لها ؛ وهذا شأن السنة ، واذا جرت مجرى السنن صارت من البدع بلا شك .

فان قيل : كيف صارت هذه الاشياء من البدع الاضافية ؟ والظاهر منها انها بدع حقيقية ، لأن تلك الاشياء اذا عمل بها على اعتقاد أنها سنة فهي حقيقية ، اذ لم يضعها صاحب السنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا لم توجه (٢) فصارت مثل ما اذا صلى الظهر على انها غير واجبة واعتقدها عبادة فانها بدعة من غير اشكال ؛ هذا اذا نظرنا اليها بمآلها ، واذا نظرنا اليها أولا فهي مشروعة من غير نسبة الى بدعة اصلا .

فالجواب ان السؤال صحيح ، الا ان لوضعها اولا نظرين (احدهما) من حيث هي مشروعة فلا كلام فيها . و (الثاني) من حيث صارت كالسبب الموضوع لاعتقاد البدعة ، أو للعمل بها على غير السنة ، فهي من

(١) لعلها حوق بالواو . يقال حوق عليه الكلام اذا خلطه وأفسده عليه بحيث لا يفهم ، او لا يقرأ اذا كان مكتوبا . وهو من الحواقة اي الكناسة التي يختلط بها ما يكنس بعضه ببعض . يقال حاق الدار بالمحوقة : كنسها . ومما حفظته من صبيان المكتب اذ كنا نتعلم الخط « حوق » عليه أي السطر (مثلا) أي رمجه او جعل حوله خطا ليعلم انه غير مقصود . وهو استعمال عربي . وأما حرق عليه بالراء فلا يظهر له معنى هنا الا اذا كانوا استعملوا التحريق بمعنى برد المعدن بالمبرد في حك الحروف المكتوبة بمبراة القلم ولم أره (٢) لعله « على هذا الوجه »

علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قام الى الصلاة المكتوبة رفع يديه - الحديث الى قوله : ويقول عند انصرافه من الصلاة «اللهم اغفر لي ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت ، انت إلهي لا إله الا انت» حسن صحيح . وفي رواية ابي داود : كان رسول صلى الله عليه وسلم اذا سلم من الصلاة قال « اللهم اغفر لي ماقدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت وما اسرفت وما انت اعلم به مني ، انت المقدم وانت المؤخر لا إله الا انت » .

وخرج ابو داود : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دبر كل صلاة « اللهم ربنا ورب كل شيء انا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء انا شهيد ان العباد كلهم اخوة ، اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصا لك واهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة ، ياذا الجلال والاكرام اسمع واستجب ، الله اكبر الله اكبر ، الله نور السموات والارض ، الله اكبر الله اكبر ، حسبي الله ونعم الوكيل » .

ولأبي داود في رواية[1] «رب اعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وأمكن لي ولا تمكن علي ، واهدني ويسر هداي الي ، وانصرني على من بغى علي » — الى آخر الحديث .

وفي النسائي انه عليه السلام كان يقول في دبر الفجر اذا صلى « اللهم اني اسألك علما نافعا ، وعملا متقبلا ، ورزقا طيبا » . وعن بعض الانصار قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دبر الصلاة « اللهم اغفر لي وتب عليّ انك انت التواب الغفور » حتى يبلغ مائة مرة .

(١) حذف لفظ رواية من نسختنا

فصل

من تمام ما قبله

وذلك انه وقعت نازلة : أمامٌ مسجد ترك ما عليه الناس بالاندلس من الدعاء للناس بآثار الصلوات بالهيئة الاجتماعية على الدوام - وهو ايضا معهود في اكثر البلاد ، فان الامام اذا سلم من الصلاة يدعو للناس ويؤمن الحاضرون - وزعم التارك ان تركه بناء منه على انه لم يكن من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فعل الأئمة بعده ، حسبما نقله العلماء في دواوينهم عن السلف والفقهاء . أما أنه لم يكن من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهر ، لان حاله عليه السلام في ادبار الصلوات مكتوبات او نوافل — كانت بين امرين : إما ان يذكر الله تعالى ذكرا هو في العرف غير دعاء ، فليس للجماعة منه حظ ، الا ان يقولوا مثل قوله او نحوا من قوله كما في غير ادبار الصلوات ، كما جاء انه كان يقول في دبر كل صلاة « لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وقوله « اللهم انت السلام ومنك السلام ، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام » وقوله « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » الآية ، ونحو ذلك . فانما كان يقوله في خاصة نفسه كسائر الاذكار ، فمن قال مثل قوله فحسن ؛ ولا يمكن في هذا كله هيئة اجتماع .

وإن كان دعاء فعامة ما جاء من دعائه عليه السلام بعد الصلاة مما سمع منه انما كان يخص به نفسه دون الحاضرين ، كما في الترمذي عن

عليه السلام ينام وهو جنب من غير أن يمس ماء ، بل قد يأتي في بعض الاحاديث «كان يفعل فيما لم يفعله لامرة واحدة» نص عليه اهل الحديث.

ولو كان يداوم [1] المداومة التامة للحق بالسنن كالوتر وغيره ؛ ولو سلم : فاين هيئة الاجتماع ؟

فقد حصل ان الدعاء بهيئة الاجتماع دائماً لم يكن من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما لم يكن من قوله ولا إقراره .

وروى البخاري من حديث أم سلمة انه صلى الله عليه وسلم كان يمكث اذا سلم يسيرا . قال ابن شهاب : حتى ينصرف الناس فيما نرى . وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها : كان اذا سلم لم يقعد الا مقدار مايقول «اللهم أنت السلام ومنك السلام . تباركت ياذا الجلال والاكرام» .

واما فعل الأئمة بعده فقد نقل الفقهاء من حديث أنس في غير كتب الصحيح : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا سلم يقوم . وصليت خلف ابي بكر رضي الله عنه فكان اذا سلم وثب كأنه على رضفة (يعني الحجر المحمى) ونقل ابن يونس الصقلي عن ابن وهب عن خارجة انه كان يعيب على الأئمة قعودهم بعد السلام ، وقال : انما كانت الأئمة ساعة تسلم تقوم . وقال ابن عمر : جلوسه بدعة . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لأن يجلس على الرضف خير له من ذلك . وقال مالك في المدونة : اذا سلم فليقم ولا يقعد الا ان يكون في سفر اوفي فنائه.

---

(١) اي على ما ذكر من الادعية والاذكار . ويوشك ان يكون قد سقط من الناسخ ما يدل على ذلك . والمداومة والاجتماع لا تكون الا لشعائر الدين وانما تثبت الشعائر بعمل الرسول

وفي رواية ان هذه الصلاة كانت صلاة الضحى .

فتأملوا سياق هذه الأدعية كلها مساق تخصيص نفسه بها دون الناس؛ فيكون مثل هذا حجة لفعل الناس اليوم ؟ الا ان يقال: قد جاء الدعاء للناس في مواطن، كما في الخطبة التي استسقى فيها، ونحو ذلك . فيقال: نعم، فاين التزام ذلك جهراً للحاضرين في دبر كل صلاة ؟

ثم نقول: ان العلماء يقولون فى مثل الدعاء والذكر الوارد على اثر الصلاة: انه مستحب لا سنة ولا واجب. وهو دليل على امرين (احدهما) ان هذه الادعية لم تكن منه عليه السلام على الدوام. (والثاني) انه لم يكن يجهر بها دائما ولا يظهرها للناس فى غير مواطن التعليم؛ اذ لو كانت على الدوام وعلى الاظهار لكانت سنة، ولم يسع العلماء ان يقولوا فيها بغير السنة؛ اذ خاصيته — حسبما ذكروه — الدوام والاظهار فى مجامع الناس. ولا يقال: لو كان دعاؤه عليه السلام سرا لم يؤخذ عنه. لانا نقول: من كانت عادته الاسرار فلا بد أن يظهر منه، او يظهر منه ولو مرة، اما[1] بحكم العادة بقصد التنبيه على التشريع .

فان قيل: ظواهر الاحاديث تدل على الدوام بقول الرواة «كان يفعل» فانه يدل على الدوام كقولهم «كان حاتم يكرم الضيفان» . قلنا: ليس كذلك، بل يطلق على الدوام وعلى الكثير والتكرار على الجملة؛ كما جاء فى حديث عائشة رضي الله عنها انه عليه السلام كان اذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة . وروت أيضاً انه كان

(١) يظهر ان في العبارة تحريفا وحذفا. ولعل الاصل « فلا بد ان يظهر منه إما بحكم العادة واما بقصد التنبيه على التشريع »

وأما في التفصيل فزعم انه مازال معمولا به في جميع اقطار الارض أو في جلها من الأئمة في مساجد الجماعات من غير نكير الا نكير ابي عبد الله ؛ ثم اخذ في ذمه . وهذا النقل تهور بلا شك ؛ لانه نقل إجماع يجب على الناظر فيه والمحتج به قبل التزام عهدته ان يبحث عنه بحث اصل عن الاجماع ، لأنه لابد من النقل عن جميع المجتهدين من هذه الأمة من اول زمان الصحابة رضي الله عنهم الى الآن . هذا أمر مقطوع به . ولا خلاف انه لا اعتبار باجماع العوام وان ادعوا الامامة .

وقوله «من غير نكير» تجوز ، بل ما زال الانكار عليهم من الأئمة ؛ فقد نقل الطرطوشي عن مالك في ذلك اشياء تخدم المسئلة ، فحصل انكار مالك لها في زمانه ، وانكار الامام الطرطوشي في زمانه ، واتبع هذا اصحابه وهذا اصحابه ؛

ثم القرافي قد عدّ ذلك من البدع المكروهة على مذهب مالك ، وسلمه ولم ينكره عليه أهل زمانه — فيما نعلمه — مع زعمه ان من البدع ما هو حسن ؛

ثم الشيوخ الذين كانوا بالاندلس حين دخلتها هذه البدعة — حسبما يذكر بحول الله — قد انكروها ، وكان من معتقدهم في ذلك أنه مذهب مالك . وكان الزاهد ابو عبد الله بن مجاهد وتلميذه ابو عمران الميرتلي رحمهما الله ملتزمين لتركها ، حتى اتفق للشيخ ابي عبد الله في ذلك ماسنذكره إن شاء الله .

قال بعض شيوخنا راداً على بعض من نصر هذا العمل: فانا قد

وعدّ الفقهاء اسراع القيام ساعة يسلم من فضائل الصلاة، ووجهوا ذلك بأن جلوسه هنالك يدخل عليه فيه كبر وترفع على الجماعة، وانفراده بموضع عنهم يرى به الداخل انه امامهم؛ واما انفراده به حال الصلاة فضروري. قال بعض شيوخنا الذين استفدنا منهم: واذا كان هذا في انفراده في الموضع، فكيف بما انضاف اليه من تقدمه امامهم في التوسل به بالدعاء والرغبة وتأمينهم على دعائه جهراً؟ - قال - ولو كان هذا حسنا لفعله النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم، ولم ينقل أحد من العلماء مع تواطئهم على نقل جميع أموره، حتى: هل كان ينصرف من الصلاة عن اليمين أو عن الشمال؟.

وقد نقل ابن بطال عن علماء السلف انكار ذلك والتشديد فيه على من فعله بما فيه كفاية.

هذا ما نقله الشيخ بعد أن جعل الدعاء بأثر الصلاة بهيئة الاجتماع دائماً بدعة قبيحة، واستدل على عدم ذلك في الزمان الاول، بسرعة القيام والانصراف لأنه مناف للدعاء لهم وتأمينهم على دعائه؛ بخلاف الذكر ودعاء الانسان لنفسه، فان الانصراف وذهاب الانسان لحاجته غير مناف لهما. فبلغت الكائنة بعض شيوخ العصر فردى على ذلك الامام ردًّا أمرع فيه على خلاف ما عليه الراسخون، وبلغ من الرد -على زعمه- الى أقصى غاية ما قدر عليه، واستدل بامور اذا تأملها الفطن عرف ما فيها، كالامر بالدعاء إثر الصلاة قرآنا وسنة، وهو — كما تقدم — لا دليل فيه، ثم ضم الى ذلك جواز الدعاء بهيئة الاجتماع في الجملة الا في ادبار الصلوات، ولا دليل فيه أيضاً - كما تقدم - لاختلاف المتأصّلين.

الا اني اقول : ارأيت ان كثر المقلدون ثم أحدثوا بآرائهم فحكموا بها ، افهم الحجة على السنة ولا كرامة ؟

ثم عضد ما ادعاه باشياء من جملتها « قوله » : ومن امثال الناس « أخطئ مع الناس ولا تصب وحدك » أي ان خطأهم هو الصواب ، وصوابك هو الخطأ . — قال — ومعنى ما جاء في حديث « عليك بالجماعة فانما يأكل القاصية »[1] فجعل تارك الدعاء على الكيفية المذكورة مخالفا للاجماع ـ كما ترى ـ وحض على اتباع الناس وترك المخالفة لقوله عليه السلام « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وكل ذلك مبني على الاجماع الذي ذكروا[2] ان الجماعة هم جماعة الناس كيف كانوا . وسيأتي معنى الجماعة المذكورة في حديث الفرق ، وانها المتبعة للسنة وان كانت رجلا واحدا في العالم .

قال بعض الحنابلة : لا تعبأ بما يعرض من المسائل ويدعى فيها الصحة بمجرد التهويل ، أو بدعوى ان لاخلاف في ذلك . وقائل ذلك لا يعلم احدا قال فيها بالصحة فضلا عن نفي الخلاف فيها ، وليس الحكم فيها من الجليات التي لا يقدر المخالف[3] — ذل — وفي مثل هذه المسائل قال الامام أحمد بن حنبل : من ادعى الاجماع فهو كاذب وانما هذه دعوى كثير وابن علية يريدون ان يبطلوا السنن بذلك . يعني أحمد ان المتكلمين في الفقه على أهل البدع اذا ناظرتهم بالسنن والآثار قالوا : هذا خلاف الاجماع . وذلك القول الذي يخالف ذلك الحديث لا يحفظونه الا عن

(١) لفظ الحديث « ... فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » (٣) كذا في نسختنا ، والظاهر ان الناسخ قد اسقط كلاما من هذا الموضع واقل مايفهم به الكلام ان يقال « وان الجماعة » الخ (٣) كذا في نسختنا ، ولعله : لا يعذر المخالف بجهله

شاهدنا العمل الأئمة [1] الفقهاء الصلحاء المتبعين للسنة المتحفظين بامور دينهم يفعلون ذلك ائمة ومأمومين ، ولم نر من ترك ذلك الا من شذ في احواله .ـ فقال ـ وأما احتجاج منكر ذلك بان هذا لم يزل الناس يفعلونه فلم يأت بشيء ، لأن الناس الذين يقتدى بهم ثبت انهم لم يكونوا يفعلونه. قال — ولما كانت البدع والمخالفات وتواطأ الناس عليها صار الجاهل يقول : لو كان هذا منكرا لما فعله الناس . ثم حكى اثر الموطإ « ما اعرف شيئاً مما ادركت عليه الناس الا النداء بالصلاة » — قال — فاذا كان هذا في عهد التابعين يقول : كثرت الاحداثات فكيف بزماننا ؟ ثم هذا الاجماع لو ثبت لزم منه محظور ، لأنه مخالف لما نقل عن الأولين من تركه ؛ فصار نسخ اجماع باجماع ، وهذا محال في الاصول .

وأيضاً فلا تكون مخالفة المتأخرين لاجماع المتقدمين على سنة حجة على تلك السنة ابداً ؛ فما اشبه هذه المسئلة بما حكي عن ابي علي بشاذان [2] بسند يرفعه الى ابي عبد الله ابن اسحاق الجعفري ، قال : كان عبدالله بن الحسن — يعني ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم — يكثر الجلوس الى ربيعة ، فتذاكروا يوما ، فقال رجل كان في المجلس : ليس العمل هذا [3] فقال عبد الله : أرأيت ان كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام، أفهم الحجة على السنة ؟ فقال ربيعة : اشهد ان هذا كلام ابناء الانبياء. انتهى.

---

(١) لعله « من الأئمة » (٢) شاذان لقب رجلين من رواة الحديث احدهما الاسود بن عامر أبو عبد الرحمن الشامي نزيل بغداد مات سنة ٢٠٨ وثانيهما عبد العزيز بنُ عثمان بن جبلة مات سنة ٢٢١ وظاهر ان في عبارة نسختنا تحريفا
(٣) لعل الاصل « ليس العمل على هذا » أي الذي تقولونه

والشهرة المنهي عنها ، فكأنه يقول : اترك اتباع السنة في زمان الغربة خوف الشهرة ودخول العجب . وهذا شديد من القول وهو معارض بمثله ؛ فان انتصابه لا يكون داعيا للناس بإثر صلواتهم دائما مظنة لفساد نيته بما يدخل عليه من العجب والشهرة ؛ وهو تعليل القرافي ، وهو اولى فى طريق الاتباع ،فصار تركه للدعاء لهم مقرونا بالاقتداء ، بخلاف الداعي فانه في غير طريق من تقدم ؛ فهو اقرب الى فساد النية .

وعد منها ما يظن به من القول برأي اهل البدع القائلين بان الدعاء غير نافع ؛ وهذا كالذي قبله لانه يقول للناس : اتركوا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الدعاء بهيئة الاجتماع بعد الصلوات لئلا يظن بك [1] الابتداع . وهذا كما ترى .

قال ابن العربي : ولقد كان شيخنا ابو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع وعند رفع الرأس منه ، وهو مذهب مالك والشافعي ، وتفعله الشيعة - قال - فحضر عندي يوما فى محرس ابي الشعراء بالثغر موضع تدريسي عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المحرس المذكور، فتقدم الى الصف الاول وانا في مؤخره على طاقات البحر، أتنسم الريح من شدة الحر ، ومعي في صف واحد ابو ثمنة رئيس البحر وقائده فى نفر من اصحابه ينتظر الصلاة ، ويتطلع على مراكب المنار ، فلما رفع الشيخ الفهري يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه ، قل ابو ثمنة واصحابه : الا ترى الى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا ؟ قوموا اليه فاقتلوه وارموا به فى البحر فلا

(١) المناسب لقوله « اتركوا » ان يقول هنا « بكم » ويعبر عن هذا المعنى بعبارة اخرى فيقال : ابتدعوا بالفعل لئلا يظن باطلا انكم ابتدعتم . او اتركوا السنة بالفعل، لئلا تتهموا بتركها بسوء الظن

بعض فقهاء المدينة أو فقهاء الكوفة - مثلا - فيدعون الاجماع من قلة معرفتهم باقاويل العلماء، واجترائهم على رد السنن بالآراء، حتى كان بعضهم تسرد عليه الاحاديث الصحيحة في خيار المجلس ونحوه من الاحكام فلا يجد لها معتصما الا ان يقول: هذا لم يقل به احد من العلماء؛ وهو لا يعرف الا أبا حنيفة أو مالكا، لم يقولوا بذلك، ولو كان له علم لرأى من الصحابة والتابعين وتابعيهم ممن قال بذلك خلقاً كثيرا.

في هذا الكلام ارشاد لمعنى ما نحن فيه، وانه لا ينبغي ان ينقل حكم شرعي عن أحد من أهل العلم الا بعد تحققه والتثبت، لانه مخبر عن حكم الله؛ فاياكم والتساهل فانه مظنة الخروج عن الطريق الواضح الى البنيات.

ثم عدّ من المفاسد في مخالفة الجمهور انه يرميهم بالتجهيل والتضليل؛ وهذا دعوى من خالفه فيما قال، وعلى تسليمها، فليست بمفسدة على فرض اتباع السنة، وقد جاء عن السلف الحض على العمل بالحق، وعدم الاستيحاش من قلة أهله.

وأيضاً فمن شنع على المبتدع بلفظ الابتداع فاطلق العبادة بالنسبة الى المجتمعين يوم عرفة بعد العصر للدعاء في غير عرفة - الى نظائرها - فتشنيعه حق كما يقوله بالنسبة الى بشر المريسي ومعبد الجهني وفلان وفلان؛ ولا يدخل بذلك - ان شاء الله - في حديث « من قال: هلك الناس. فهو أهلكهم » لان المراد ان يقول ذلك ترفعا على الناس واستحقارا، واما ان قاله تحزنا وتحسرا فلا بأس. قال بعضهم: ونحن نرجو ان نعرج على ذلك - ان شاء الله - فالاستدلال به ليس على وجهه.

وعدّ من المفاسد الخوف من فساد نيته بما يدخل عليه من العجب

﴿ حظر الشحاذة والسؤال والذل لغير الله ﴾

فصل من فصول كتاب (مدارج السالكين . بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) للامام المحقق ابن القيم . ذكره في بحث منزلة الرضاء بالله ومن الله ، فحرر المسألة به تحريرا كعادته ، قال أجزل الله ثوابه :

(فصل) والمسئلة في الاصل حرام ، وانما أبيحت للحاجة والضرورة ، لانها ظلم في حق الربوبية وظلم في حق المسئول ، وظلم في حق السائل

(أما الاول) فلانه بذل سؤله وفقره وذله واستعطاءه لغير الله ، وذلك نوع عبودية ، فوضع المسألة في غير موضعها وانزلها بغير اهلها ، وظلم توحيده واخلاصه وفقره الى الله وتوكله عليه ورضاءه بقسمه ، واستغنى بسؤال الناس عن مسئلة رب الناس ، وذلك كله يهضم من التوحيد ويطفئ نوره ويضعف قوته

(واما ظلمه) المسئول فلأنه سأله ما ليس له عنده ، فاوجب له بسؤاله عليه حقا لم يكن له عليه ، وعرضه لمشقة البذل أو لوم المنع ، فان اعطاه اعطاه على كراهة ، وان منعه منعه على استحياء واغماض . هذا اذا سأله ما ليس عليه ، واما اذا سأله حقا هو له عنده ، لم يدخل في ذلك ، ولم يظلمه بسؤاله .

(واما ظلمه لنفسه) فانه اراق ماء وجهه ، وذل لغير خالقه ، وأنزل نفسه ادنى المنزلتين ، ورضي لها بأبخس الحالتين ، ورضي باسقاط شرف نفسه وعزة تعففه وراحة قناعته ، وباع صبره ورضاءه وتوكله وقنعه بما قسم له واستغناءه عن الناس بسؤالهم ، وهذا عين ظلمه لنفسه ، اذ وضعها في غير موضعها ، وأخمل شرفها ، ووضع قدرها ، واذهب عزها ، وصغرها وحقرها ، ورضي ان تكون نفسه تحت نفس المسئول ، ويده تحت يده ، ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع . وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في

يرا كم احد . فطار قلبي من بين جوانحي ، وقلت : سبحان الله ! ـ هذا الطرطوشي فقيه الوقت. فقالوا لي : ولم يرفع يديه؟ فقلت كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل، وهو مذهب مالك في رواية اهل المدينة عنه، وجعلت أسكتهم واسكنهم حتى فرغ من صلاته، وقمت معه الى المسكن من المحرس؛ ورأى تغير وجهي فانكره ، وسألني فأعلمته فضحك، وقال : من اين لي ان اقتل على سنة ؟ فقلت له : ويحل لك هذا ؟ فانك بين قوم ان قمت بها قاموا عليك، وربما ذهب دمك . فقال: دع هذا الكلام وخذ في غيره .

فتأملوا في هذه القصة ففيها الشفاء ، اذ لا مفسدة في الدنيا توازي مفسدة اماتة النفس ، وقد حصلت النسبة الى البدعة، ولكن الطرطوشي رحمه الله يرى ذلك شيئا [1] فكلامه للاتباع [2] اولى من كلام هذا الراد ، اذ بينهما في العلم ما بينهما .

وأيضا فلو اعتبر ما قال لزم اعتباره بمثله في كل من انكر الدعاء بهيئة الاجتماع يوم عرفة في غير عرفة ، ومنهم نافع مولى ابن عمر ومالك والليث وعطاء وغيرهم من السلف ؛ ولما كان ذلك غير لازم فمسألتنا كذلك

ثم ختم هذا الاستدلال الاجماعي بقوله وقد اجتمع أئمة الاسلام في مساجد الجماعات في هذه الاعصار في جميع الاقطار على الدعاء ادبار الصلاة ، فيشبه ان يدخل ذلك مدخل حجة اجماعية عصرية

فان اراد الدعاء على هيئة الاجتماع دائما لا يترك كما يفعل بالسنن ـ وهي مسألتنا المفروضة ـ فقد تقدم ما فيه . (انتهى الفصل والبحث طويل)

---

(١) كذا في نسختنا ، والسياق يقتضي النفي أي كان لا يرى ذلك شيئا ـ والاظهر ان تكون العبارة : لم ير ذلك شيئا . (٢) لعله بالاتباع

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ثم قال « ياحكيم ! ان هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف(١) نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليدالعليا خيرمن اليدالسفلى» قال حكيم فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا ارزأ احدا بعدك شيئا حتى افارق الدنيا . وكان ابو بكر رضي الله عنه يدعو حكيما الى العطاء فيأبى ان يقبله منه ، ثم ان عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى ان يقبل منه شيئا ، فقال عمر : اني اشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني اعرض عليه حقه من هذا الفيء ، فيأبي ان يأخذه . فلم يرزأ حكيم احدا من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي . متفق على صحته .

وعن الشعبي قال حدثني كاتب المغيرة بن شعبة ، قال كتب معاوية الى المغيرة ابن شعبة ان اكتب الي شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب اليه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «ان الله كره لكم ثلاثا . قيل وقال ، و إضاعة المال ، وكثرة السؤال » رواه البخاري ومسلم . وعن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تلحفوا في المسئلة ، فو الله لا يسألني احدمنكم شيئا فتخرج له مسألته مني شيئا وانا له كاره فيبارك له فيما اعطيته » — وفي لفظ — انما انا خازن، فمن اعطيته عن طيب نفس يبارك له فيه ، ومن اعطيته عن مسئلة وشره كان كالذي يأكل ولا يشبع » رواه مسلم .

وعن ابي مسلم الخولاني قال حدثني الحبيب الامين ـ اما هو فحبيب الي واما هو عندي فأمين ـ عوف ابن مالك الاشجعي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تسعة او ثمانية او سبعة فقال « ألا تبايعون رسول الله ؟ » صلى الله عليه وسلم ـ وكنا حديث عهد ببيعة ـ فقلنا قد بايعناك يارسول الله . قال « الا تبايعون رسول الله ؟ ـ فقلنا قد بايعناك يارسول الله ثم قال . ـ الا

---

(١) في البغدادية « باسراف » والرواية بالمعجمة . ومعنى الاشراف التطلع الى الشيء بحرص

وجهه مزعة لحم » وفي صحيح مسلم عن (١) أبي هريرة رضي الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل الناس اموالهم تكثرا ، فإنما يسأل جمرا ، فليستقل أو ليستكثر » وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسي بيده لأن يأخذ احدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من ان يأتي رجلا فيسأله ، أعطاه أو منعه » وفي صحيح مسلم عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ، و يستغني به عن الناس ، خير له من ان يسأل رجلا ، أعطاه أو منعه ذلك فإن (٢) اليد العليا خير (٣) من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ـ زاد الامام أحمد ـ ولأن يأخذ ترابا فيجعله في فيه خير له من ان يجعل في فيه ماحرم الله عليه » وفي صحيح البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لأن يأخذ احدكم حبله فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها (٤) وجهه ، خير له من ان يسأل الناس اعطوه أو منعوه » وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه ان ناسا من الانصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فاعطاهم . حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين انفق كل شيء بيده « مايكون عندي من خير فلن ادخره عنكم ، ومن يستعفف (٥) يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي احد عطاء خيرا وأوسع من الصبر » وعن عبد الله بن عمر (٦) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر ، وذكر الصدقة والتعفف عن المسئلة (٧) « اليد العليا خير من اليد السفلى ، فاليد العليا هي المنفقة واليد السفلى هي السائلة » رواه البخاري ومسلم .

---

(١) في الحجازية « عنه أيضا » وهو الحديث الآتي « لان يغدو أحدكم » الخ فحذف منها حديثان (٢) في نسختنا والبغدادية « بان » وفي الحجازية « فان » (٣) في البغدادية « افضل » (٤) حذف من الحجازية اسم الجلالة (٥) في غير الحجازية « يستعف » (٦) وفي غيرها « ابن عامر » وهو غلط (٧) وفي غيرها « والمسألة »

لا أدري ما فيه كصحيفة المتلمس ، فأخبر معاوية بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سأل وعنده (١) ما يغنيه فإنما يستكثر من النار ـ وفي لفظ آخر ـ من جمر جهنم» قالوا : يا رسول الله ! وما يغنيه ؟ ـ وفي لفظ ـ وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة ؟ قال ـ قدر ما يغديه ويعشيه ـ وفي لفظ ـ ان يكون له شبع يوم وليلة » رواه ابو داود والامام احمد .

وعن ابي الفراس (٢) قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أسأل يارسول الله؟ قال « لا ، وأن كنت سائلا لا بد فسل (٣) الصالحين » رواه النسائي •

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي ، قال : تحملت حمالة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم أسأله فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ـ قال ثم قال ـ ياقبيصة إن المسئلة لا تحل الا لاحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسئلة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسئلة حتى يصيب قواما من عيش ، ـ او قال ـ سدادا من عيش ، ورجل اصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه : لقد اصابت فلانا فاقة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواما من عيش ـ او قال ـ سدادا من عيش ، فما سواهن من المسئلة يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا » رواه مسلم .

وعن عائذ بن عمرو ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعطاه ، فلما وضع رجله على اسكفة الباب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو يعلمون ما في المسئلة ما مشى احد إلى احد يسأله شيئا » رواه النسائي •

وعن مالك بن نضلة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الايدي ثلاثة ـ فيد الله العليا ، ويد المعطي التي تليها ، ويد السائل السفلى ، فأعط الفضل ولا

---

(١) في البغدادية « وله » بدل « وعنده » (٢) في البغدادية « وعند ابن الفراس ان الفراس » والصواب « وعن ابن الفراسي أن الفراسي » . وفي الاصابة ان البخاري سماه فراسا • وأطلق عليه غيره لفظ الفراسي • فقيل هو اسم وقيل نسب والاسم مجهول ، وعزى الحديث الى ابن ماجه وابن حبان ، أقول : وهو في أبي داود أيضا (٣) وفيها « فاسأل »

تبايعون رسول الله ؟ - قال فبسطنا ايدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلى م نبايعك ؟ - قال . أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات (١) الخمس وتطيعوا الله - واسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئا » فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط احدهم فما يسأل احدا يناوله اياه . رواه مسلم .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان المسئلة كد يكد بها الرجل وجهه الا أن يسأل الرجل سلطانا اوفي امر لابد منه » رواه الترمذي وقال ، حديث حسن صحيح .

وفي مسند الامام احمد عن زيد بن عقبة الفزاري ، قال دخلت على الحجاج ابن يوسف الثقفي فقلت : أصلح الله الامير ، ألا أحدثك حديثا سمعته من سمرة ابن جندب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال بلى ، قال سمعته يقول « المسائل كد يكد بها الرجل وجهه ، فمن شاء ابقى على وجهه ومن شاء ترك ، إلا أن يسأل رجل ذا سلطان ، او يسأل في امر لا بد منه »

وعن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يتقبل لي بواحدة اتقبل (٢) له بالجنة - قلت انا . قال - لا تسأل الناس شيئا » فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لاحد ناولنيه ، حتى ينزل هو فيتناوله. رواه الامام احمد واهل السنن . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن انزلها بالله اوشك الله له بالغنى ، اما بموت عاجل اوغنى عاجل » رواه ابوداود والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح (٣)

وعن سهل بن الحنظلية قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن والاقرع بن حابس فسألاه فامر لهما بما سألا ، وأمر معاوية فكتب لهم بما سألا ، فأما الاقرع فأخذ كتابه فلفه في عمامته وانطلق ، واما عيينة فاخذ كتابه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتابه ، فقال : يا محمد أراني حاملا الى قومي كتابا

---

(١) في البغدادية « وتقيموا الصلوات » (٢) كان نص نسختنا « واتقبل »
(٣) حذف من البغدادية - لفظ حسن -

تشريف امير البلاد

مدرسة دار الدعوة والارشاد

ان عناية مولانا عزيز مصر العباس (أيده الله تعالى) برفع منار العلم والعرفان ، مما سارت به الركبان ، وعرف فضله فيه الثقلان ، وقد أدرك حفظه الله بنور بصيرته الثاقب ، أن التعليم الذي شيد لمعاهده أركانها ، وأقام من مدارسه بنيانها ، لا تصلح به حال الامة الا اذا قرن بالتربية العملية ، وتهذيب الاخلاق في المدارس الداخلية ، ولما وقف على مشروع مدرسة دار الدعوة والارشاد ، ورأى قواعد نظامها قائمة على هذا الاساس ، أظهر ميله الشريف اليها ، واستحسانه لطريقتها ، وقد أراد في هذه الايام أن يظهر للامة ميله اليها ، وعنايته السامية بها ، تشجيعاً للقائمين بأمر المدرسة على عملهم ، وارشاداً لمحبي الخير الى شد أزرهم ، فأظهر لناظر المدرسة عزمه الشريف على زيارتها فى ضحوة يوم الاثنين (٢ جمادى الآخرة) وأنه يحب أن يراها كما هي من غير زينة ولا كلفة ، ولم يأذن لي بدعوة أحد الى استقباله فيها ، الا من حضر من أعضاء جماعتها . وكان ذلك اليوم قد ضرب موعداً لاجتماع مجلس النظار في الساعة العاشرة صباحاً ، وموعد خروج الامير من قصر القبة رأس الساعة التاسعة . فكان اجتهاد رجال التشريفات انه يشرف قصر عابدين أولا ثم يؤم المدرسة منه ، وان مدة مكثه في المدرسة تكون من عشر دقائق الى ١٥ دقيقة .

ولما تشرفت يوم السبت الماضي بتهنئته بعيد مولده السعيد فى

تعجز عن نفسك » رواه الامام احمد وأبو داود .

وعن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سأل مسئلة وهو عنها غني كانت شينا في وجهه يوم القيامة » رواه الامام احمد . وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث والذي نفس محمد بيده ان كنت لحالفا عليهن: لا ينقص مال من صدقة ، فتصدقوا ، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله ألا رفعه الله بها ، ولا يفتح عبد باب مسئلة إلا فتح الله عليه باب فقر » رواه الامام احمد .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : سرحتني أمي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله . فأتيته فقعدت ـ قال ـ فاستقبلني فقال « من استغنى اغناه الله ، ومن استعف اعفه الله ، ومن استكفى كفاه الله ، ومن سأل وله قيمة اوقية فلقد ألحف » فقلت ناقتي هي خير من أوقيه ، ولم أسأله . رواه الامام احمد وابو داود (١) . وعن خالد بن عدي الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جاءه من اخيه معروف من غير اشراف ولا مسئلة فليقبله ولا يرده . فانما هو رزق ساقه الله اليه » رواه الامام احمد .

(١) هذا الحديث لم يخرجه أبو داود وانما أخرج حديثه المتفق عليه في سؤال الانصار وتقدم في ص ١٣٠ وأما هذا الحديث فعزاه الحافظ في الفتح الى النسائي . ولعل هذا من سهو النساخ لا المصنف ، اذ رأيت في هذه الاحاديث اغلاطا كثيرة صححتها على الاصول

ثم دخل سموه المدرسة فكان أول شيء رآه وتعاهده فيها مسجدها في الطبقة الاولى منها . ثم صعد الى الطبقة الثانية فشرف حجرة الناظر أولا ، ثم حجرة المعلمين . فقدمتُ له المعلمين واحداً بعد واحد ، فكان يسأل كل واحد عن العلم الذي يدرسه وعن عدد دروسه . ثم دخل حجرة السنة التمهيدية ، فبينت لسموه أجناس الطلبة بالاشارة اليهم فكان يسأل : أين كانوا قبل الانتساب الى المدرسة ، وعن درجة فهم الاعاجم منهم للعربيــة ونطقهم بها . فاستأذنته بسماع إلقاء طالب هندي لبعض محفوظه من الشعر العربي فأذن . فقام الطالب عبد الله خدايار وأنشد بلسان فصيح أبيات أبي تمام التي أولها

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما ترياوجوه الروض كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

فأعجبـه إنشاده وإلقـاؤه وفصاحة لسانه . ثم عرضتُ على مسامع سموه ان بعض الطلبة قد نظموا على ضيق الوقت شيئاً من الشعر ترحيبا بتشريفه: فهل يأذن بانشاد شيء منها ؛ فأذن فأنشدوا ما سيذكر بعد ، وهو واقف يسمع ، وقـد جبر قلوب المنشدين باشارة الرضا والاستحسان . ثم مرّ سموه من وسطهم متفرسا فيهم ، ودخل حجرة السنة الاولى ، فاستأذن الطالب الاول فيهـا وهو محمد أبو زيد وأنشد هذين البيتين :

شرفت دار المرشدين ياملي كما نورت أضواؤه لمن سلك
عباسنا فى رفع شأن شعبه لم يأل جهداً فهوخير من ملك

وكان بعض الطلبة من هذه الفرقة قد نظموا شيئاً من الشعر أيضا فلم

المقابلة العامة تفضل باجلاسي بجانبه وقال لي عند الانصراف انه سيخرج من قصر القبة على رأس الساعة التاسعة ويقصد المدرسة توًّا ، فاستبشرت حينئذ بأن مدة تشريفه ستكون طويلة

وفي ضحوة ذلك اليوم الميمون جاء المدرسة صاحب العزة محمد بك فهمي التشريفاتي الاول فتعهد المدرسة والطريق الموصل اليها ، وكان قد تعهد الطريق غيره من رجال المعية السنية وكذا مهندس السيارات ، ثم جاءت فصيلة من العسكر المصري ووقفت عند طريق المدرسة الخاص لاداء السلام العسكري لسموه

ولما كان تمام الساعة التاسعة جاء نبأ المسرة بلسان المسرَّة (التلفون) من قصر القبة بأن الركاب العالي قد تحرك ، وكان قد جاء المدرسة لاستقبال سموه صاحب الفضيلة السيد عبد الحميد البكري رئيس جماعة الدعوة والارشاد ، وكل من الاستاذ الشيخ محمد المهدي المدرس بمدرسة القضاء الشرعي والاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار المدرس بمدرسة البوليس وأصحاب العزة محمود بك سالم ومحمود بك صادق ومحمد بك لبيب البتانوني وعبد الله بك فائق والطبيب محمد توفيق افندي صدقي من أعضاء جماعة الدعوة والارشاد ، وشقيقي السيد صالح رضا ، نخف الجميع مع محمد بك فهمي الى باب حديقة المدرسة ، ووقفنا خارجه ، وبعد ربع ساعة من نبإ المسرة وصل سموه الى المدرسة في سيارة كهربائية تسابق البرق ، فصافح المستقبلين كما هو دأبه الشريف ، وكان مع سموه رئيس حجاب معيته السنية ، وجاء أيضا صاحب السعادة علي باشا ذو الفقار محافظ العاصمة وحده ليكون فى خدمته مدة زيارته للمدرسة

مشيعا بالقلوب والاجسام . حتى اذا ما بلغ باب حديقة المدرسة ودع المشيعين وودعوه بتقبيل يده الكريمة. وأراد أن يمشي في الشمس الى الشارع العام ، فلما رآنا نريد المشي في خدمته ركب سيارته . وأمر سعادة محافظ العاصمة بالركوب معه . وانصرف والالسنة تلهج بحمده والدعاء له . وكانت الساعة بلغت ١٠ وه دقائق .

وعلى أثر ذلك تألف وفد من رئيس الجماعة والشيخ محمد المهدي والشيخ عبدالوهاب النجار وكاتب هذه السطور (ناظر المدرسة)لاداء واجب الشكر الى سموه ، فجئنا قصر عابدين ، فأبلغنا رجال التشريفات أن موعد انعقاد مجلس النظار قد حان ، فلا وقت لمقابلة سموه الآن . فاكتفينا بكتابة أسمائنا في الدفتر كما هي العادة المتبعة

ثم ان كاتب هذه السطور أمّ قصر عابدين مرة أخرى في أصيل ذلك اليوم فتكرم الجناب العالي بمقابلته مقابلة خاصه ، فأديت ما يجب من الشكر بلساني ولسان اخواني، وتفضل أيده الله تعالى بابداء سروره من زيارة المدرسه ورضاه عنها ، وببعض الاوامر الارشادية المتعلقة بها وبما تبرع به لها ، فخرجت حامداً شاكراً داعياً . أما ما تبرع به لها فهو خمسمائة جنيه مصري . وما يرجى من عنايته وبره فوق ذلك، أدام الله توفيقه وتأييده ، آمين .

أر من الذوق استئذان سموه بانشاده .

ثم انه حفظه الله تعالى سألني عن جميع الدروس التي يتلقونها ، وأمر أن يسألهم معلم اللغة الانكليزية أمامه بعض الاسئلة ، وأن يطلعه على خطوطهم وترجمتهم ففعل ، ونطق حفظه الله تعالى بكلمات من الحكمة في منافع لغات العلم الاوربية وحاجة طلاب هذه المدرسة اليها فى هذا العصر .

ثم عاد الى حجرة ناظر المدرسة فاستأذنته بالقاء بعض مايخالج القلب من واجب الشكر والدعاء ، فأذن فألقيت ما سيذكر بعد ، وهو حفظه الله واقف والجميع وقوف فى خدمته ، فتكرم بكلمة القبول المؤذنة بتواضعه المعهود ، وأظهر استحسانه لكل مارأى . ووعد بأن يزور المدرسة فى كل سنة . ودعا الله تعالى بأن يراها تزداد تقدما وارتقاء فى كل عام . فشكرت له هذا بما يليق بالمقام ، وأطلعته على دفاتر ذات جداول وضعناها فى هذا العام لتكون سجلات لتاريخ الطلبة فى تربيتهم وتعليمهم ، تحصى فيها درجات الامتحانات المختلفة ، وأنواع المخالفات والعقاب عليها ، وغير ذلك ، فأظهر استحسانه لها .

ثم انه نزل الى الطبقة الاولى فتفقد حجرات النوم والطعام ، والمتوضأ والحمام ، فأعجبه كل ذلك . وعلم برؤية ذلك اننا جددنا عمارة فى المدرسة لم تكن ، فسأل عن ذلك فذكرت لسموه ما جددناه فيها . وسأل عن اجارتها وأجرتها وكم بقي لنا من مدتها ، فأجبته عن ذلك ، وقد كرر عبارات استحسان المكان في بنائه وموقعه ، فذكر ذلك فى بدء الدخول وعند ارادة الخروج

وبعد أن أتم بحثه وتفتيشه بدقة يعجز عن مثلها أمهر المفتشين خرج

روح الثقة فى جسم الجامعة المصرية ، باعانتك المالية وعنايتك المعنوية .

وأنت أنت الذي رقيت بعلمك وعملك الزراعة ، وجددت فى قطرك السعيد أعمال الصناعة ، ووسعت بهديك دائرة التجارة .

تفعل كل هذا بحق، بما آتاك الله من الهمة العلية ، وتجري فيه على عرق ، بالوراثة المحمدية العلوية .

فأنت أنت الذي لله مافعلا وأنت أنت الذي لله ما صنعا

وأنت أنت الذي لله ما وصلا وأنت أنت الذي لله ما قطعا

ولكن : هل رضيت نفسك الكبيرة بكل هذا ووقفت همتك العلية عنده ؟ كلا ! انك أيدك الله بروح منه قد توجهت الى ما وراءه من الاصلاح الاجتماعي والسياسي ، والاصلاح الديني الروحي

أما الاول: فقد أشهدت الشرق والغرب -وكفى بالخافقين شاهدي عدل - على انك تريد أن تشاركك أمتك في سلطتك الذاتية ، وتجعل حكومتك حكومة نيابية ، ولا تزال تمهد لذلك السبيل ، وتمتزج مع الامة من كل قبيل ، وهذه رحلتك الميمونة المباركة التي أزمعتها . آية بينة على احيائك سنة الراشدين فى احترام الامة ومعاشرتها ، ومحبتها والتحبب اليها (١)

وأما الثاني: فهو عنايتك بأمر هذه المدرسة ورغبتك في نجاحها، على

(١) كنت بدأت في صبيحة يوم تشريف الامير بكتابة كلمة الدعاء والشكر لاجل ان ترسل الى الصحف بنصها ولكنني كتبت قليلا منها وشغلني استقبال من حضر وتعاهد نظام المدرسة عن اتمامها كتابة فأتممتها ارتجالا ، ولما نشرتها في الجرائد قال لي غير واحد ممن كان حاضرا ان ما قلته في هذه الرحلة كان اوسع مما كتب وابلغ عبارة وأحسن تأثيرا

كلمة الدعاء والشكر

التي وجهها الى سمو أمير البلاد ، ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد (١)
وهو واقف بين يديه فى حجرته من المدرسة

مولانا العزيز العظيم !

ليس في طاقتنا ولا فى طاقة الامة أن تقوم بما يجب لك من الاجلال والتكريم ، بتشريفك هذا العهد الاسلامي من معاهد التربية والتعليم ، ولكن لسان كل منا يردد قول الابوصيري :

ماله حيلة سوى حيلة العا جز إما توسل أو دعاء

فنقول : أعز الله بك أيها العزيز الاسلام ، ورفع بهمتك منار العلم والعرفان ، واحيا بهديك السنة ، وجدد بعنايتك مجد الامة .

نحمد الله تعالت اسماؤه ثم نحمدك ، ونشكره جل ثناؤه ثم نشكرك ، ولو كبر عن الثناء محسن لكبرت يامولاي عن الحمد ، ولو جل عن شكر الصنيعة منعم لجلت صنائعك عن الشكر .

فانت أنت الذي انفردت دون أمراء المسلمين ، بالجمع بين المدنية الصحيحة واقامة شعائر الدين . ففي أوروبة تزاحم بمنكبك مناكب أعاظم الملوك ، وفى حرم الله ورسوله يزاحمك بمنكبه البدوي والصعلوك .

وأنت أنت الذي أفضت المال والنظام على معاهد العلم الدينية ، ولم تنس من فيضك مدارس الفنون الدنيوية ، ولم ترض بما رفعت من شأن الازهر حتى أنشأت أزهراً ثانياً فى مدينة الاسكندرية ، كما نفخت

(١) نشرت هذا وما قبله في الجرائد اليومية المشهورة عقب تشريف الامير نشرته هنا بالنص الذي نشر في الجرائد ـ فلهذا قلت وجهها ناظر المدرسة ولم أقل وجهت

القصائد والمقاطيع التي انشدها الطلاب

على مسامع مولانا الامير

القصيدة الاولى لمحمد افندي الشريقي اللاذقي من الطلاب المستمعين في القسم الخارجي الذين يختلفون الى المدرسة في هذا العام، وهو حسن الالقاء والانشاد، وكنت اشرت اليه بعد انشاد ابيات من الغزل أن يختصر منه، تفاديا من طول وقوف مولانا العزيز على قدميه، فأشار أعزه الله واشارته أمر مطاع، وحكم لا يقرن الا بالتنفيذ والاتباع، بأن يتم الطالب إنشاده فأتمه، وهذا نص قصيدته:

بلابل الروض بالتغريد تطربنا ... وبالنواح حمام الروض يشجينا
وما أحيلى نسيمات الصبا سحرا ... رسائلَ الحب نهديها وتهدينا
والطل يحنو على الازهار يلثمها ... حسبته والها بالحب مفتونا
وقفت أرنو إلى الأزهار مبتسما ... لله يازهر ما أحلى تدانينا
وقفت والقلب لا يدري محجته ... أيعشق الورد أم يهوى الرياحينا
حتى اذا ما بدت والغصن قامتها ... مليكة الروض عن بعد تحيِّينا
شعرت ان الهوى قد دب في كبدي ... يا وجد رفقا بأكباد المحبينا
رنت اليّ بطرف زانه حورٌ ... فالوجه يجذبنا والطرف يرمينا
راقت ورقت فلما جئتها ولهاً ... قطفت من خدها ورداً ونسرينا

* * *

دع الخيال خيال الشعر ما خطرت ... بنتُ الحقيقة تجلى في مغانينا
ما ذلك الروض عندي غير مدرسة ... وما أزاهرها الا المريدينا
وما مليكة ذاك الروض باسمةً ... الا مثال حياة العلم تحيينا
حياة مدرسة نقضي مراحلها ... والدرس رائدنا والجد حادينا
تنير أذهاننا تعلي مداركنا ... فلا يلذّ لنا الا تآخينا

علم منك بأنها تقوم فى الاسلام بخدمة لايغني غيرها غناءها ، من حيث انها رباط لتربية الاخلاق والاداب الاسلامية، على ما كان عليه السلف الصالح وقدماء الصوفية ؛ ومعهد لتعليم العلوم الدينية ، وما يحتاج اليه المرشدون والدعاة من العلوم الكونية والعقلية ؛ وان الغرض منها احياء دعوة الاسلام والدفاع عنه بحسب ماتقتضيه حال العصر ، وارشاد عامة المسلمين الى ما يصلح به أمر دينهم ودنياهم، ويحارون به غيرهم ويعيشون عيشة الوفاق مع من عداهم .

وان ارتباط جماعة الدعوة والارشاد بمشيخة الطرق الصوفية . مما يمهد السبيل للمرشدين الذين يتخرجون في هذه المدرسة لاصلاح شؤون العامة ، لان أكثر العامة تنتمي الى طرق الصوفية ، فاذا انبث المرشدون المستعدون بالتأثير بالوعظ والخطابة فى هؤلاء الناس ، وعهدت اليهم المشيخة الصوفية بارشادهم وتعليمهم . فالمرجو بحسب سنة الله تعالى في تأثير الدين فى النفوس أن يصلح حالهم في أقرب وقت ، وبذلك تقل الجرائم والجنايات ، والتعديات على الزرع والبهائم والناس ، بعد ان أعيا الحكومة أمرها ، وحارت في الوسائل التي تقللها . فعنايتك يا مولانا بهذه المدرسة ستكون عهد اصلاح جديد للامة والبلاد . ان شاء الله تعالى

هذا . ولولا أن أشق على مولاي باطالة الوقوف لاطلت القول بحمده وشكره، وشرح ما أعتقد من الخير والنفع للامة بعنايته وبره . ولكنني أكتفي بما فى القلب ، وما في القلب كثير .

وأقمت صرح العلم والأدب الذي أخنت عليه نوائب الحدثان
وأريتنا كيف الصعود الى العلى وعظمت حتى لا يرى لك ثان
لو تعرف الأبطال فعلك بالوغى علموا بأنك فارس الميدان
أو يشهدونك في المكارم والندى شهدوا بأنك نخبة الأزمان
ولقد نرى ملك البلاد كأنه ملك بدا في صورة الانسان
مولاي ان المسلمين كما ترى مابين مظلوم وبين مهان
والدين أنت نصيره وحفاظه فارفع دعائمه على الأديان
وانهض فدار الرشد تعلي شأنه تهدي القلوب بساطع البرهان
فمنارها للشرق أعظم مصلح يحيي النفوس بمحكم القرآن
فأقم دعائمها وشيد ذكرها فهي السبيل الى هدى الانسان
لازلت عز المسلمين وكهفهم ماغرد القمري في الافنان

* * *

ثم أنشد الطالب الداخلي في ذلك القسم الشيخ عبد السميع البطل هذه الابيات

أهذا كوكب أم ضوء صبح أم القمر المنير أم الأمير
وذا ملك كريم أم مليك أم العباس يعلوه السرور
هو العباس مولي كل خير وطل عطائه بحر غزير
مليك القطر انا قد بسطنا اليك يدا الى الجدوى تشير
فنحن غراسكم نحيا اذا ما سقاه ماء جودكم النمير
اترضى ان يكون لكل دين دعاة في ممالكنا تسير
ولا يدعو الى الاسلام داع ولا يبدي حقائقه بشير
اعباس هداة الناس أموا علاك وملء قلبهم سرور
فأنت المرتجى لسداد أمر وأنت لدينا نعم النصير

كم قربت بيننا سقيا لعاملها وأشرق النور وانجابت لياليناحياة مدرسة قلبي بها وله سلوت في حبها الغزلان والعينا
حياة مدرسة تذكي قرائحنا نظل من بعدها غرًّا ميامينا
نبغي الحقائق مهما عز مطلبها نقدس العقل والوجدان والدينا

*

أرى بأفق العلا نورا يجللنا لله نور أضاء اليوم نادينا
نور الأمير الذي قد عم نائله وغيث نعمائه أروى مغانينا
فاسجع حمام الحمى واطرب بلا ملل واهتف لعباسنا وآحمد خديوينا
إني أرى مصر في أيام دولته بغدادنا وأرى العباس هارونا
والنيل يجري فراتا في كنانته وما وردناه الا راح يروينا
مولاي اني عشقت العلم من صغر ولا أزال بحب العلم مفتونا
وأنت خير أمير شاد معهده وقام للعلم والتحصيل يدعونا
لذا سكنت فؤادي دون ما عجب وكنت أفضل من أحيا أمانينا
هذا فؤادي باخلاص أقدمه على وفائي الى مولاي عربونا

* * *

ثم أنشد الطالب الشيخ أحمد كمال الغزي الطالب الداخلي في القسم التمهيدي هذه القصيدة وجعل عنوانها ﴿ الترحيب ﴾

أهلا بمن طلعت شموس سعوده وفعاله تاج لكل زمان
أهلا بمن نال المعالي والذي سهر الدجى لمصالح الأوطان
أهلا بمن ملك النفوس وساسها بالحزم فانقادت مع الأبدان
أهلا بعباس الذي لولاه ما نشرت علينا راية العرفان
فلأنت للاسلام أقوى ساعد يسعى الى الاصلاح والعمران

له أثر يذكر ، او منقبة تؤثر ، الا جمع المال واقتناء العقار ، والتعالي على الناس ولو بالظلم والافساد .

احمد فتحي زغلول ذلك الرجل الذي شهد له كل ذي علم وفهم في مصر بانه بذ الافران ، وكان المجلي من حلبة المدنية في كل ميدان ، لم يجمع مالا ، ولم يتأثل عقارا ، ولم يترك درهما ولا دينارا ، وانما كان هو ذلك الرجل بما آتاه الله من الذكاء واللوذعية ، والعقل والروية ، والهمة العلية ، وما تربى عليه من ملكة الاستقلال ، وما اكتسبه من العلوم وما احسنه من الاعمال .

خلق احمد فتحي زغلول كبير الاستعداد ، آتاه الله فؤاداً ذكيا ، وذهنا لوذعيا ، والأذكياء في أمتنا العربية كثيرون ، فان كان حظ هذا الرجل من الذكاء عظيما فكم من عظيم الذكاء اطفأت التربية السوءى والبيئة الفاسدة نور ذكائه ، وهدمت ما بنته الفطرة من قوة استعداده ؟ وكم من ذكي وجهت القدوة السوءى ذكاءه الى ما يضره او يضر أمته كلها ، وقد اتفق لهذا الذكي اللوذعي ان نبت في بيئة خاصة ، مثل فيها امام عينيه من اول العهد بالتمييز إمام الاصلاح في هذا الزمان ، ومن حوله من المريدين والاخوان ، الذين لم يكن لهم سمر ولا حوار ، الا في شؤون التربية والاصلاح ، فكان يرى منذ عهد التعلم الابتدائي الاستاذ الامام متجليا في فضائله وحكمته ، والشيخ عبد الكريم سلمان متحليا بآدابه وفطنته ، واخاه (سعدا) معتصما باستقلاله وحجته ، مع أتراب لهم من مريدي السيد جمال الدين حكيم الاسلام ، وخليفته الاستاذ الامام ، وكل في فلك العلم والحكمة يسبحون ، وحول قطب الاصلاح وتجديد حياة الامة يدورون ، فلقح استعداد احمد فتحي بفكرة العمل والسعي لتجديد حياة الامة ، وصحب الاستاذ الامام بعد عودته من أوربة ودخوله في اعمال الحكومة كاخيه الاكبر (سعد باشا) صحبة المريد الصادق للمرشد الكامل ، فاستفاد من ذلك الافكار السامية ، والمقاصد العالية ، والفصاحة الخلابة ، والبلاغة الجذابة ، ما شاء الله ان يستفيد . وكان زيته صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فاتصل بذلك القبس المتألق فاشتعل نورا على نور .

أروي عن فقيدنا النابغة كلمتين في أستاذنا الامام رحمهما الله تعالى . الاولى سمعتها منه في أول مجلس لقيته فيه : زار الفقيد طرابلس الشام بصحبة الاستاذ ايام كنت اطلب العلم فيها ، فكنت مدة مكثهما في طرابلس ملازما لهما من الصباح الى وقت النوم ، لانني كنت اطلعت على ما صدر من جريدة (العروة الوثقى)

مصاب مصر والشام

برجال العلم وحملة الاقلام

اكبر مصائب البلاد موت العلماء والادباء والكتاب الذين يغذون العقول ويزكون النفوس بالتعليم والتصنيف ونشر العلوم والآداب . وقد رزئت الديار المصرية والسورية في هذه الأيام بوفاة اربعة كهول من اشهر رجالهما في علوم الدين والدنيا واللغة ، يعدون من عوامل التحول والانقلاب الاجتماعي في الامة العربية . وهم احمد فتحي باشا زغلول المصري والشيخ حسن المدور والشيخ محي الدين الخياط البيروتيان — والشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي

١ — احمد فتحي باشا زغلول

في آخر يوم من الشهر الماضي شيعت مصر جنازة نابغة العرب فيها صديقنا احمد فتحي باشا زغلول ، وشعر كل ذي بصيرة فيها بأنها فقدت رجلا لا خلف له في مواهبه ومزاياه

ولد الفقيد لليلتين او ثلاث خلت من شهر رمضان ١٢٧٩ (الموافق اول شهر الشتاء الثاني سنة ١٢٤١ هجرية شمسية — ٢٢ فبراير ١٨٦٣ م) والده من بيت كريم ينتمي الى بعض قبائل العرب التي استوطنت القطر المصري ، ووالدته من بيت كريم يسمى بيت بركات وهما من قرية من قرى مديرية الغربية اسمها (إبيان) وكان والده سماه (فتح الله صبري) ثم غير اسمه ناظر المعارف فسماه باسمه (احمد) لما ظهر له من نجابته ، ولقبه بفتحي للاشارة الى اسمه الأول . وتلقى التعليم الابتدائي والوسط في مدارس الحكومة بمصر والاسكندرية ، واختار له ناظر المعارف ان يتلقى التعليم العالي في فرنسة ، فكان في مدارس التعليم كلها آية الذكاء والاجتهاد . ولما عاد من اوربة دخل في خدمة الحكومة في النيابة والقضاء حتى صار رئيسا لمحكمة مصر الاهلية ثم وكيلا لنظارة الحقانية ، ونال مانال من رتب الحكومة واوسمتها العالية ، وكان العارفون يجزمون بأن ترقيه دون استحقاقه واستعداده . فهل هذا هو احمد فتحي باشا زغلول ؟

تعلم في مدارس مصر واوربة ألوف ، عاش اكثرهم ومات كما يعيش ويموت الملايين من الجهلة والمغمولين ، وتقلب كثيرون منهم في مناصب الحكومة واعمالها . وما كل واحد منهم يستحق ان يترجم في الصحف ويخلد اسمه في دواوين التاريخ ، اللهم الا تواريخ المنافقين الذين يعظمون كل صاحب منصب او ثروة وان لم يكن

وترجم عدة كتب يبتغي بها الاصلاح والنهوض بالامة ، دون الكسب والثروة ، وكان اول ما اخرجه للغة العربية من نفائس مصنفات الافرنج (كتاب أصول الشرائع) لبنتام ، وهو كتاب جليل في فلسفة القوانين وعللها ومداركها ، يعجز عن ترجمته من لم يكن راسخا في علوم القوانين والفلسفة ، وسعة الاطلاع في علم اللغة ، ولو كان العلم في الامة حيا لاعيد طبع هذا الكتاب مرارا .

وكان آخر كتاب ألفه في القضاء (شرح القانون المدني المصري)شرحه شرح العالم المجتهد المستقل ، وتصرف في تنسيقه وترتيبه تصرف المصلح المنقح ، وغير في هذه الترجمة كثيرا من الاصطلاحات القضائية المترجمة عن اللغة الفرنسية ترجمة غير صحيحة ، فأعجبت الحكومة وجمهور رجال القضاء بهذا الشرح ، واعترفوا بشدة الحاجة اليه ، وكان هو الباعث على احتفالهم بالشارح ذلك الاحتفال الذي نوهنا به في وقته

وله في هذه المباحث القضائية كتاب حافل سماه (المحاماة) وقد بين في هذا الكتاب تاريخ المحاماة عند الامم القديمة بالاجمال وعند الامم الغربية بالتفصيل ومنه الكلام في نظامها عند هذه الامم ، والمؤتمر الذي عقد لها ، ثم افاض القول في المحاماة في مصر ، وبيان حال المحاكم المصرية وتاريخها وتأسيس الحكومة المصرية ودخولها في سلك النظام الاوربي ، وأطال الكلام على القضاء فيها ، وبعد استيفاء كل ما أراده من الكلام على المحاماة وأهلها من التاريخ والنظام والقوانين والآداب وما يناسب ذلك ختم الكتاب بملحقات في قوانين مصرية سابقة ولوائح وأوامر رسمية مصرية متممة للموضوع . فكانت صفحات الكتاب ٤٣٤ وصفحات الذيل ٢١٠ وله رسالة قضائية في التزوير مفيدة في بابها

وله ترجمة كتاب (الاسلام ـ خواطر وسوانح) للكونت هنري دي كاستري الفرنسي ، في رد مفتريات الصليبيين وأشباههم على الاسلام ، فقد كان هذا الكونت واسع الاطلاع في كتب المسلمين ، ونقل في هذا الكتاب من مطاعن الافرنج في الاسلام مالم يخطر على بال مسلم في الدنيا ، وردها واثنى على الاسلام خير الثناء . وقد ترجم هذا الكتاب وطبعه في اواخر سنة ١٣١٥ وهي التي صدر فيها المنار ، وقرظناه في العدد الحادي عشر من السنة الاولى ، ونشرنا مقدمته للترجمة العربية التي نقل الفقيد فيها نبذة من المنار . وكان غرضه من ترجمة هذا الكتاب الدفاع عن الاسلام وبيان محاسنه وتنبيه المسلمين الى ذلك

وأما الكتب التي ترجمها لغرض التجدد العلمي والمدني في مصر وسائر الامة

فعشقت السيد جمال الدين مدير سياستها، والشيخ محمد عبده رئيس تحريرها، وصرت مريدا لهما بالغيب. وقد جئت الدار التي ناما فيها ليلة قدما فقيل لي انهما ذهبا الى حمام عز الدين، جئت الحمام فألفيت بعض العلماء والوجهاء قعودا في خارج الحمام ينتظرون مع الفقيد، والاستاذ في الداخل، فترجمني الشيخ خير الدين الميقاتي من علماء طرابلس للفقيد، وكان مما قاله: انه اكتب الكتاب عندنا وهو لا يرى لنفسه استاذا في الكتابة الا الاستاذ الشيخ محمد عبده على انه لم يره. فقال الفقيد كلنا ليس لنا استاذ في الكتابة غير الاستاذ. واحسب انه فسر ذلك بان التمايز في الكتابة انما هو بالافكار واساليب التصرف في الكلام، وأن كل من يقرأ ما كتبه الشيخ او يسمع كلامه يجد فيه القدوة المثلى والمادة الغزيرة في ذلك. ولم احفظ من كلامه بنصه وقتئذ الا تلك الكلمة

واما الكلمة الثانية فقد قالها منذ ثلاث سنين اذ كنا نتذاكر في داره بعض المسائل الاجتماعية، فذكرنا كلمة من حكم الاستاذ في دلك فسرتها الحوادث فقال: ان كثيرا من كلام الشيخ لم يظهر لنا معناه المراد الا بعد موته. وقد كان يقول الكلمة فنظن اننا فهمناها ثم يظهر لنا بعد عدة سنين اننا لم نكن فهمنا بعد غوره فيها، حتى كشفه طول البحث وسعة الاختبار. اه بالمعنى

تلك البيئة الاصلاحية هي التي جعلت من استعداد احمد فتحي زغلول خطيبا مفوها، كما جعلته كاتبا قديرا، فكان في مصر ثاني الاستاذ الامام في فصاحة لسانه، والتزام الفصيح في اكثر كلامه، اما الاستاذ فقد كتب الشيخ ابراهيم اليازجي في ترجمته — وناهيك بنقده ودقته — ان كلامه الذي كان يلقيه في مجالسه العادية كابلغ ما يكتبه المترسلون المتأنقون. أقول: وناهيك به قدوة صالحة، ومربيا للملكة.

تلك البيئة الطيبة والقدوة الصالحة هي التي لقحت ذلك الذهن الوقاد بلقاح الاستقلال، الذي به تظهر ثمرات العلوم عند القيام بالاعمال، فكان مضطلعا بالعمل بما تعلم، وكان علمه ملكة ثابتة، وصفة راسخة، وشجرة مثمرة، واكثر المتعلمين منا مقلدون، يودعون العلم بوداع المدرسة، وما عرفنا رجلا مثله كانت الحكومة تشعر بحاجتها الى علمه، وترجع اليه حتى في القوانين والاعمال التي لا تتعلق بعمله، فهو واضع اللائحة الاصلاحية للمحاكم الشرعية، وهو واضع قانون إصلاح الازهر، وناهيك بهما، وبما يتوقف عليه وضعهما، وقد اشتهر أنه كان في نظارة الحقانية الركن الركين، لوضع جميع الانظمة واللوائح والقوانين.

لم تشغل الفقيد خدمة الحكومة التي كان يتقنها من كل وجه، عن خدمة الامة بالعلم والعمل، فقد كان عضوا عاملا في الجمعية الخيرية الاسلامية، وألف

من تلقاء نفسها ، فلم يكن يدعو الى ترك العادات الضارة ويشنع على أنصارها ، لذلك لم يطعن الناس في رأيه ومذهبه كما طعنوا في صديقه قاسم بك امين ، بل لم يكن الجمهور يعرفون ان له رأيا يرمي اليه في الانقلاب الاجتماعي. فان فهم بعض اذكياء الحزب الوطني ان ما شرحه كتاب روح الاجتماع من امر اندفاع الجماعات بغير عقل ولا شعور ينطبق على حزبهم ، فهل كان يسهل عليهم ان يطعنوا بوطنية مترجم الكتاب ويعدونه خصما لهم ؟

هذا وان الفقيد قد كان ميالا الى الاصلاح الديني ، معتقدا انه شطر أو شرط للاصلاح المدني والسياسي ، وقد كان أخبرني في أوائل العهد بانشاء المنار ان ابراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية مغتبط بالمنار ويرى وجوب تعميم نشره بين المسلمين . وأنه هو قد سر بذلك وتواعد مع الناظر باتخاذ وسيلة لذلك يوزع بها ألوف من النسخ على طلاب العلم وفقراء القراء بثمن قليل . ثم لم أراجعه ولا كلمت ابراهيم باشا في ذلك عندما كنت ألقاه وأسمع منه الثناء على المنار . ولا هما وفقا لشيء مما تحدثا به .

ولما توفي شيخنا الاستاذ الامام تذكر أصدقاؤه ومريدوه في عمل شيء يذكر به ، فاقترحت ان تنشأ باسمه مدرسة كلية يجمع بها بين التربية الدينية الصحيحة وتعليم العلوم الدينية والدنيوية على طريقته التي كان يسعى لها سعيها باصلاح الازهر ، فقبلوا الاقتراح بكل ارتياح ، وانتخبوا في دار سعد باشا زغلول لجنة لوضع نظام المدرسة مؤلفة من حسن باشا عاصم والفقيد وصاحب هذه المجلة ، فكان الفقيد مهتما بهذا ، وذاكر به لورد كرومر ــ كما تقتضي المصلحة ــ فاظهر اللورد له الاستحسان . ووعده بأن يحضر له نظام وبرنامج مدرسة عليكرة الاسلامية الهندية للاقتباس منه واستحسن ان يبدأ بالعمل صغيرا ليكبر بالتدريج . ويعلم الذين يقرؤن المنار منذ سنين ان الذي حال دون إنشاء هذه المدرسة هو ظهور مشروع مدرسة الجامعة المصرية ونوط أمرها بسعد باشا زغلول وقاسم بك أمين . وكان سعد باشا هو الركن الركين لمشروعنا فتركه للجامعة وما كان يمكن ان يشتغل به وبمشروع الجامعة معا

ولما عزمت على السفر الى الاستانة منذ أربع سنين لاجل مشروع الدعوة والارشاد اهتم بذلك الفقيد اهتماما عظيما ، وجاءني ليلة من ليالي رمضان الذي سافرت فيه واقترح ان نتكلم في المشروع منفردين ، فاقفلنا باب الدار ، وظللنا نتحدث في المشروع الى ما بعد نصف الليل ، فلما شرحت له وسائله ومقاصده سر به وبالغ في استحسانه ، ووعد بأن يساعد الجمعية التي تؤسس له هناك بقدر الطاقة وعهد اليّ

العربية فهي كتاب (سر تقدم الانكليز السكسونيين) في الطريقة المثلى للتربية والتعليم، لعالم فرنسي اسمه (أدمون ديمولان) وكتاب (روح الاجتماع) وكتاب (تطور الامم) كلاهما للفيلسوف الفرنسي الكبير (غوستاف لوبون) فكان غرضه من هذه الكتب بث فكرة التربية الاستقلالية والتعليم العملي في الامة ، واعتماد الافراد على انفسهم لا على حكوماتهم(١) وتنبيهها الى اسباب التحول والانقلاب في الامم والشعوب، وكونه لا يحصل الا بالتدريج البطيء ، وتذكيرها بالآفات والعلل الكامنة في التطورات الاجتماعية الحديثة في الافرنج، كالاشتراكية والاحزاب والجمعيات السياسية والاقتصادية وغيرها . ولغوستاف لوبون مذهب خاص في هذه المباحث يخالفه في كثير من آرائه بعض علمائهم . والناظر المستقل لا يقلد أحدا من المختلفين ، وانما يمحص المسائل ويتبع قوة الحجة والدليل

ويقال انه كان بدأ بترجمة كتاب مدنية العرب أو حضارة العرب لغوستاف لوبون أيضا ، وكان الاستاذ الامام حضه على ترجمته . وآخر ما أخرجه قلمه للناس ترجمة رسالة سياسية في سوء حال الدولة العثمانية وشدة حاجتها الى تغيير وضعها ونظامها ، وهي للامير مصطفى فاضل باشا زعيم الاحرار الاول في الآستانة خاطب بها السلطان عبد العزيز ، ورسالة أخرى في قواعد وفذلكات اجتماعية لغوستاف لوبون جملها كالمذكرات والعناوين لما فصله في كتبه الاجتماعية . فترجمها الفقيد بالعربية وسماها (جوامع الكلم)

وقصارى القول في صفة الرجل الاجتماعية والسياسية انه حجة على كفاءة العربي وقدرته على العلم والعمل بالنظام الاوربي كأرقى الاوربيين، لانه ركن في العمل بذلك.

وأما صفاته الشخصية فقد كان حسن المعاشرة، حلو المفاكهة، نزيه النفس واللسان، يقدر على إرضاء كل جليس بغير دهان ، لا يمل جليسه جده ، ولا يعبث بوقاره هزله، وقلما تربى في اوربة شاب مثله في عفته وصيانته، والاعتصام من استخفاف حرية الفسق لشرة الصبا وخفته. وكان دقيق النظام في كل شيء متأنقا جد التأنق في زيه ومعيشته بلا تكلف، ولا اضاعة وقت في العبث . وأما رأيه في الاصلاح والتجدد فهو ان يبني ولا يهدم، لان الامة اذا وجدت البناء الجديد أصلح لها ، تركت المباني العتيقة تسقط

(١) كتبت في منار اول المحرم سنة ١٣١٧ مقالة عنوانها (الاعتماد على النفس) فقال لي وقتئذ : انني استعملت هذه الكلمة في ترجمة كتاب (سر تقدم الانكليز) الذي يطبع الآن واراك سبقتني الى استعمالها ، ثم كثر استعمال هذه الكلمة بانتشار ذلك الكتاب لا بمقالي

جريدة مصر . ثم ذكرت له ان المنار لما كان هو المجلة الاسلامية الوحيدة التي اخذت على نفسها الدفاع عن الاسلام في هذه البلاد الحرة التي ينشر المبشرون فيها الصحف والرسائل الكثيرة في الطعن في الاسلام والقرآن والنبي (ص) وجب علينا شرعا ان نرد عليها اعتداءها ولو بما هو دونه ، اذ لا يسمح لنا ديننا أن نطعن في سيدنا عيسي ولا في اصل دينه وكتابه . فأنا لا أترك مدافعة المبشرين الا اذا كانت الحكومة تريد منع حرية المسلمين في دينهم وتجعل الحرية للنصارى وحدهم . فقال الرئيس كلا ان الحكومة لا تسلبك حرية الدفاع عن الاسلام ولكن نوصيك بالاعتدال والتزام خطة الدفاع . قلت اني أعني بالدفاع انهم البادئون واننا نجزيهم بما دون عملهم ، وانهم اذا تركوا الكلام في ديننا تركنا الكلام في دينهم ، واني مستعد لتقديم جدول للحكومة بالشواهد من كتب المبشرين ورسائلهم على ما فيها من الطعن الفاحش في الاسلام الخ ...

كان ما أطلعني عليه الرئيس اول ما اطلعت عليه من المطاعن الكثيرة التي وجهتها الي والى المنار جريدة مصر ، وكنت اسمع بها ، ولا احاول الاطلاع على شيء منها . ثم جاءني احد الاصدقاء بعددين منها فاذا في احدهما ما نصه تحت عنوان (صاحب المنار)

« اتصل بنا ان ولاة الامر قد اهتموا بما كتبناه عن الشيخ صاحب المنار وطعنه الطعن الجارح في الدين المسيحي واهله فاستدعاه عطوفة رئيس النظار الى منزله وحذره من الكتابة في مثل هذه المواضيع المهيجة وانذره بتعطيل مجلته ان عاد الى تلك الكتابات . فعسى ان يكون هذا الانذار مانعاً من الوقوع في المصائب التي يريد صاحب المنار جلبها على البلاد واهلها . » ''

دع كذب جريدة مصر على رئيس الحكومة في هذا العدد وانتظر ما كتبت في الآخر : كنت كتبت مقالة في الرد على جريدة (دوكير) التي تصدر بمصر باللغة الفرنسية اذ نشرت مقالة تنكر فيها على المنار ما كتبه في النصرانية يظهر انها لاحد السوريين ، بينت فيها طريقة المنار في الجمع بين الاسلام والمدنية الصحيحة والتأليف بين المسلمين وغيرهم ، والصحف الفرنسية التي شهدت له بذلك ، وكون رده على دعاة النصرانية لا ينافي ذلك . وارسلت المقالة الى المؤيد فلم ينشرها الا بعد زهاء شهر من ارسالها اليه . وقد هاج نشرها جريدة مصر فكتبت مقالة في اليوم التالي لنشر المقالة في المؤيد (وهو ٢٧ جمادى الآخرة) استفرغت فيها ما في قلب صاحبها ومحررها من السباب والشتائم والحقد والضغينة على صاحب المنار ، تظهر من فحوى ذلك سر من الاسرار ، وهو سبب حملة جريدة مصر علينا في هذا الشهر ، مع ان المنار يرد على المبشرين من بضع عشرة سنة . وهاك ما فضح السر منها :

« ولكن هذا الرجل المسكين لم يعد يعطف أحد عليه . فالوطنيون يكرهونه

بأن أتعاهده بالكتابة من الآستانة ، فكانت الكتابة بيننا متصلة في ذلك ، ولم أر أحداً من أصدقائي بمصر اهتم بذلك بعض اهتمامه رحمه الله تعالى

كان سبب موته مرض ألمّ بدماغه، سببه كثر تفكره واشتغاله ، ولا غرو فقد كانت قوة ذلك الدماغ اعظم من مادته ، وعمله فوق استطاعته ، وذلك منتهى أكثر الرجال الذين همتهم اكبر من قوتهم ، تنسى عقولهم حقوق ابدانهم : فيجنون على امتهم بجنايتهم على انفسهم، اذ ينتزعهم القدر منها ، أقدر ما كانوا على خدمتها ، فمنهم من يقتضر في سن الشباب ، ومنهم من ياتي مصرعه عند الاكتهال ، وبلوغ قواه كلها مستوى الكمال ، كمن فقدنا اليوم ، ومن فقدنا بالامس ، رحمهم الله تعالى .

محاربة متعصبي القبط وغيرهم للمنار

في يوم السبت في ٢١ جمادى الاخرة دعانا بالمسرة (التلفون) رئيس النظار حسين رشدي باشا الى داره فوافيناه فيها فاذا هو في سرير النوم لانحراف صحته ، واذا بجانبه جريدة مصر القبطية ، فأطلعنا عليها ، وسألنا عما تنسبه الى المنار من الطعن المعلم عليه بالحبر الأحمر فيها ، وملخصه أنه يجعل النصارى كلهم وثنيين وان طعنه يكاد يضرم نار الثورة في البلاد ؟؟ فلما قرأت ما فيها قلت للرئيس : ياعطوفة الرئيس ! انت قاض قبل كل شيء ، وقد اشتهرت في حياتك القضائية بالاستقلال، ومن مقتضى ذلك ان نقرأ الطعن الذي تشير اليه جريدة مصر، قبل ان تحكم في المسألة بشيء . هذه العبارة التي تشير اليها جريدة مصر اوردها المنار كعنوان لموضوع كتاب في سياق تقريظه له. هذا الكتاب اسمه « نشوء فكرة الله » مؤلفه انكليزي، وترجمه بالعربية سلامه افندي موسى القبطي، وطبعه بمطبعة يوسف افندي الخازن الماروني السوري، محرر جريدة الوطن القبطية ، وقرظته الجرائد والمجلات السورية والقبطية والاسلامية، ولم يعب المترجم والناشر احد منها بانه عاب النصرانية وكاد يضرم نار الثورة في البلاد ! ولكن لما قرظته مجلة المنار الاسلامية وذكرت ان ملخصه اثبات كون الديانة النصرانية وثنية الاصل — وقيدتها بالحاضرة تبرئة للمسيحية الصحيحة التي كان عليها المسيح عليه السلام وحواريه رضي الله عنهم — صار ذلك اكبر الجرائم المحركة للثورات والفتن، واستحق صاحب المنار النفي من مصر ، واستحقت الحكومة هذا الانذار من جريدة مصر — اذ فيها: ان من انذر فقد اعذر — بعد الاقتراح على الحكومة ان بان تعاقب صاحب المنار بمثل ما عاقبت به عبد العزيز شاويش عدو القبط من سجن ونفي . ثم اعطيت للرئيس نسخة المنار فلما قرأ التقريظ فيها ضحك مستغربا كتابة

كتاب

مجمع البيان

في

تفسير القرآن

نزف لقراء العربية والأمة الاسلامية في أقطار الارض بشرى طالما تاقت اليها النفوس واشرأبت لها الاعناق ألا وهو طبع التفسير الشهير (مجمع البيان) لمؤلفه الشيخ الطبرسي من اكابر العلماء في القرن السادس ومع انه الف في ذاك القرن فهو موافق لروح هذا العصر كل الموافقة ولا نبالغ اذا قلنا أنه لم يؤلف في علم تفسير القرآن الكريم كتاب مثله وقد رتبه ترتيبا حسنا فانه ذكر اولا الآية القرآنية ثم القراءة فالحجة فاللغة فاسباب النزول فالاعراب فالمعنى وربما تكلم في السياق اذا اقتضاه المقام الى غير ذلك من النكات اللطيفة والوجوه البديعة خصوصا فلسفة اللغة مما لم يجتمع في تفسير قبله وبعده فيما نعلم .

وقد طبعنا نسخا زائدة من الملزمة الثالثة نرسلها مجانا لمن يطلبها من مطبعة العرفان في صيدا . وجعلنا اشتراك هذا التفسير الجليل

اربعة مجيديات

ما عدا التجليد وأجرة البريد وهو يحتاج الى ريال مجيدي في البلاد العثمانية أما في مصر والبلاد الاجنبية فقيمة اشتراكه بدون تجليد عشرون فرنكا خالص أجرة البريد .

ويبقى الاشتراك مفتوحا إلى ستة اشهر من تاريخ هذه النشرة وبعد ذلك يصبح ستة مجيديات (وثلاثون فرنكا في الخارج) وعند تمام الطبع ثمانية مجيديات (أربعون فرنكا)

وقد باشرنا طبعه على ورق متين وطبع جيد وتصحيح متقن ويتولى تصحيحه لجنة من افاضل العلماء وسوف يكون له فهارس حسنة ما بين مختصرة ومطولة ان شاء الله .

ويقع التفسير باربع مجلدات وهي عبارة عن الفي صفحة كبيرة من ذلك يعلم انه ارخص كتاب ظهر لعالم الطبع وكلما زاد المشتركون اقبالا ازددنا اسراعا به اما قيمة الاشتراك فترسل لمطبعة العرفان باسم احمد عارف الزين وهي ترسل للمشترك وصلا بالقيمة وكل وصل لم يختم بختم مطبعه العرفان ويوقع بتوقيع صاحبها يعد لغوا والسلام

مطبعة العرفان * صيدا   غرة رجب سنة ١٣٣٢ ٢٥ مايو {ايار} سنة ١٩١٤

لانه يعاكس مبادئهم . والانكليز يبغضونه لانه عدو مدنيتهم . وعلماء المسلمين يكرهونه لانه غير واقف على اسرار الدين . وقد ادركت الحكومة سوء طويته وستوقفه عند حده عن قريب .

«اننا اذا اغتفرنا لهذا الرجل كل سيئاته وتغاضينا عن مدرسته التي لا ندري الغرض منها . فانه لا يرضينا منه تداخله في ما لا يعنيه وشرحه للدين المسيحي شرحا يخالف ما يعتقد به اهله . وطعنه ذلك الطعن الاثم في المدنية الاوربية، ووضعه القناصل والمبشرين والمومسات والقوادين في مستو واحد .

لذلك كله نرى من واجباتنا الوطنية ان نلاحق هذا الرجل ونعمل جهد استطاعتنا لمحاربته كما تحارب الحكومات الامراض المعدية ولو تسلح برضا بعض ولاة الأمر عنه وشد جريدة مثل المؤيد لأزره بقولها عنه : « ان صاحب المنار مهضوم الجانب وفي حاجة الى الدفاع عن نفسه ودينه » اه بحروفه

(المنار) ظهر لنا من هذا التصريح الذي لا يحتمل التأويل ان سبب انفجار بركان التعصب على صاحب المنار في جريدة مصر هو تشريف مولانا الامير عزيز مصر مدرسة دار الدعوة والارشاد ، وما تضمنته هذه الزيارة من اعلان ثقته بالمدرسة وعطفه السامي على ناظرها صاحب المنار ، ولذلك عرضت جريدة مصر بذكر المدرسة وقالت انها تغاضت عنها ، على كونها لا تدري الغرض منها ! ! كأنه يجب على كل مسلم يعمل للاسلام عملا ان يوقف جريدة مصر على غرضه من عمله ! !

تقول جريدة مصر في صاحب المنار ان المصريين والانكليز يبغضونه وإن الحكومة قد ادركت سوء طويته وستوقفه عند حده عن قريب . أثبتت جريدة مصر كل هذا ، فكان ينتظر من مديرها ومحرريها انصار الديانة المسيحية بزعمهم ان يجد صاحب المنار من قلوبهم عطفة او نفحة من الرحمة المسيحية المبني اساسها على محبة الاعداء ومباركة اللاعنين !! ولكنهم لم يزدادوا الا قسوة وحقدا عليه ، فبعد الجزم بجميع ما ذكر قالوا ان الواجب عليهم أن يعملوا جهد استطاعتهم لمحاربته ولو تسلح برضا بعض اولياء الامور عنه ؟ فاذا كان الانكليز ورجال الحكومة غاضبين عليه . فمن نعني ببعض أولياء الامور المتسلح برضاهم عنه ؟؟

ثم ماذا تريد جريدة مصر بالمحاربة الجديدة التي توعدتنا بها بعد ما كان من تهييجها المبشرين وغيرهم من رجال النصرانية علينا، وبعد هذه السباب والشتائم وبعد انذار الحكومة بخطر الثورة اذا لم تنكل بصاحب المنار ؟ وهل بعد هذا من حرب تقدر عليه جريدة ؟ نعم بلغني ممن يعاشر بعض محرري جريدة مصر أنهم يعنون بهذه المحاربة الاستعانة بنفوذ المبشرين في انكلترة على اقناع حكومة لندرة نفسها بوجوب إلغاء المنار والتنكيل بصاحبه وإقفال مدرسة دار الدعوة والارشاد . ــ الى هذا الحد وصلت ثقة متعصبي القبط بكيدهم للمسلمين ، فاعتبروا يا أولي الابصار

(الجزء الثامن) ١٣٣٢ (المجلد السابع عشر)

(قيمة الاشتراك)
عن سنة ٨٠ قرشاصاغا في مصر والسودان و٤ ريالات في المملكة العثمانية و٢٣ فرنكا و٩٠ سنتيما في الخارج و١٩ شلنا في الهند و٩ روابل في روسيا ويجب الدفع سلفا

المنار
١٣١٥

(تنبيه)
يجب أن يكون وصل الاشتراك مختوما بختم الادارة الخاص وموقعا عليه بتوقيع منشئ المجلة والمستلم

الاشتراك في المجلة يكون دائما من أول سنتها «المحرم» ومنتصفها «رجب»

(مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران)

(لمنشئها)
السيد محمد رشيد رضا

(مدير الادارة والمطبعة)
السيد صالح مخلص رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي «المنار بمصر»

(فهرس)

﴿ أثمان مطبوعات المنار عدا أجرة التجليد ﴾

البريد مليم	الثمن مليم	الثمن قرش	
٤		٣	تفسير سورة الفاتحة
٤	٥	١	» سورة والعصر
٣٠		١٢	» القرآن الحكيم ثمن كل جزء منه
٨		٥	المصلح والمقلد
٦		٥	أم القرى (طبع المنار)
٦		٣	الانقلاب العثماني
٥٠		٢٤	شرح عقيدة السفاريني
٦		٦	رسالة التوحيد ورق جيد
٨		٥	الاسلام والنصرانية
٨		٤	الدين في نظر العقل
٢٠		٥	دين الله في كتب أنبيائه
٣٠		١٥	انجيل برنابا
١٢		٢	الصلب والفداء ص ١٦٨
٨		٤	شبهات النصارى
١٠		٣	نظرة في كتب العهد الجديد
٤		١	المسلمون والقبط
٦		٣	انتقاد مؤلفات زيدان بك
١٦		٥	التوسل والوسيلة
	٥		ذكرى الهجرة
١٦		٨	سيرة خديجة
٥٠		٢٥	العلم الشامخ مع الذيل

البريد مليم	الثمن مليم	الثمن قرش	
٤٠		٢٠	التربية الاستقلالية
٣٠		٢٠	تاريخ الاستاذ الامام (المنشآت)
٣٠		١٠	تاريخ الاستاذ الامام (التأبين والمراثي)
٥٠		٦٠	ثمن مجموعة السنة الاولى وكل الـ ٤-١٤ من المنار
٥٠		٢٠٠	ثمن المجموعة الثانية » »
٥٠		١٠٠	» الثالثة » »
٥٠		٨٠	» الخامسة عشرة
٥٠		٨٠	» السادسة »
٣٠		٢٠	دلائل الاعجاز . طبعة ثانية
٣٠		٢٠	أسرار البلاغة » أولى
٤		٢	اغاثة اللهفان
٤		٢	الجرح والتعديل (للقاسمي)
		٣	تاريخ الجهمية والمعتزلة له
٦		٤	اصلاح المحاكم الشرعية
٢		١	فتاوى في القضا الاسلامي
٦		٥	اعمال مجلس ادارة الازهر
٢	٥	٠٠	خلاف الامة
٢	٥	٠٠	الصوفية والفقراء
		٨	تحفة المحقق بشرح المنطق

ثمن كل جزء من المنار (ان وجد) للمشترك ٨ قروش و١٠ لغير المشترك يضاف خمسة قروش لكل جزء من اجزاء التفسير أو التاريخ ولكل نسخة من انجيل برنابا وأسرار البلاغة اذا كان المطلوب من الورق الجيد .

اجرة التجليد الافرنجي بالكعب الجلد خمسة قروش لكل كتاب يكون ثمنه من عشرة قروش فصاعدا واربعة قروش لما دون ذلك والتجليد الممتاز عشرة قروش لكل مجلد

المنار

١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران
« تصدر في كل شهر عربي مرة »

منشئها
السيد محمد رشيد رضا
ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد السادس عشر

سنة ١٣٣١

قيمة الاشتراك عن سنة ثمانون قرشا صحيحا في مصر والسودان وفي المملكة العثمانية اربعة ريالات وفي الخارج ٢٣ فرنكا و٥٩ سانتيما و١٤ روبية في الهند و٩ روابل في روسية والدفع سلفا

الطبعة الاولى

مطبعة المنار بمصر

﴿ أثمان مطبوعات المنار عدا أجرة التجليد ﴾

بريد ملم	الثمن ملم	الثمن صـ	
٤		٣	تفسير سورة الفاتحة
٤	٥	١	» سورة والعصر
٣٠		١٢	» القرآن الحكيم ثمن كل جزء منه
٧		٥	المصلح والمقلد
٦		٥	أم القرى (طبع المنار)
٦		٣	الانقلاب العثماني
٥٠		٢٤	شرح عقيدة السفاريني
٦		٦	رسالة التوحيد ورق جيد
٨		٥	الاسلام والنصرانية
٨		٤	الدين في نظر العقل
٢٠		٥	دين الله في كتب أنبيائه
٣٠		١٥	انجيل برنابا
١٢		٢	الصلب والفداء ص١٦٨
٨		٤	شبهات النصارى
١٠		٣	نظرة في كتب العهد الجديد
٤		١	المسلمون والقبط
٦		٣	انتقاد مؤلفات زيدان بك
١٦		٥	التوسل والوسيلة
	٥		ذكرى الهجرة
١٦		٨	سيرة خديجة
٥٠		٢٥	العلم الشامخ مع الذيل
٤٠		١٠	الجزء الاول من مدارج السالكين

البريد ملم	الثمن ملم	الثمن صـ	
٤٠		٢٠	التربية الاستقلالية
٣٠		٢٠	تاريخ الاستاذ الامام (المنشآت)
٣٠		١٠	تاريخ الاستاذ الامام (التأبين والمراثي)
٥٠		٦٠	ثمن مجموعة السنة الاولى كل الـ ٤-١٤ من المنار
٥٠		٢٠٠	ثمن المجموعة الثانية » »
٥٠		١٠٠	» الثالثة » »
٥٠		٨٠	» الخامسة عشرة
٥٠		٨٠	» السادسة »
٣٠		٢٠	دلائل الاعجاز . طبعة ثانية
٣٠		٢٠	اسرار البلاغة » أولى
٤		٢	اغاثة اللهفان
٤		٢	الجرح والتعديل (القاسمي)
		٣	تاريخ الجهمية والمعتزلة له
٦		٤	اصلاح المحاكم الشرعية
٢		١	فتاوى في القضا الاسلامي
٦		٥	اعمال مجلس ادارة الازهر
٢	٥	٠٠	خلاف الامة
٢	٥	٠٠	الصوفية والفقراء
		٨	تحفة المحقق بشرح المنطق
٦		١	القول السديد في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد

ثمن كل جزء من المنار (ان وجد) للمشترك ٨ قروش و١٠ لغير المشترك يضاف خمسة قروش لكل جزء من اجزاء التفسير أو التاريخ ولكل نسخة من انجيل برنابا وأسرار البلاغة والجزء الاول من مدارج السالكين اذا كان المطلوب من الورق الجيد.

(تنبيه) صدر فهرس المجلد الـ١٦ فعلى من يصل ان يطلبه ليرسل اليه

(فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد السادس عشر)

هذا الفهرس يشمل أكثر المسائل المهمة في هذا المجلد . والاصفار التي عن يسار الارقام فيه تشير الى ان المسألة مكررة في ذلك السياق . ويليه فهرس لابواب المجلة وفهرس للمطبوعات وآخر لاسماء الكتاب ، وقد راعينا الترتيب الهجائي في الكلمة الثانية اذا كانت الكلمة التي قبلها عاثلها وأهملنا الترتيب في حروف العطف والجر والتعريف

أ

صفحة

صفحة

ح

ص

ن

فهرس ثان للفتاوى

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ شعبان ١٣٣٢ هـ ق ٢ الصيف الثاني ١٢٩٢ هـ ش ٢٤ يوليو ١٩١٤ م

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٦٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ: يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ. غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا. وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ الى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا. وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٨) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتٰبِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنٰهُمْ جَنّٰتِ النَّعِيمِ (٦٩) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرٰىةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

فهرس ثالث للمطبوعات

فهرس رابع لاسماء الكتاب

صدور هذا القول عنهم ، ولانه يخالف عقائدهم ومقتضى دينهم . ومما قالوه في حل الاشكال : إنهم قالوا ذلك على سبيل الإلزام ، فانهم لما سمعوا قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له) قالوا : من احتاج الى القرض كان فقيرا عاجزاً مغلول اليدين . بل قالوا ماهو أبعد من هذا في تعليل قولهم والخرص في بيان مرادهم منه . وما هذا الا غفلة عن جرأة أمثالهم في كل عصر ، على مثل هذا القول البعيد عن الادب بعد صاحبه عن حقيقة الايمان . ممن ليس لهم من الدين الا العصبية الجنسية ، والتقاليد القشرية ، فلا اشكال في صدوره عن بعض المجازفين من اليهود في عصر النبي (ص) وقد كان أكثرهم فاسقين فاسدين . وطالما سمعنا ممن يعدون من المسلمين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق . وفي ابان المصائب . وعبارة الآية لاتدل على ان هذا القول يقوله جميع اليهود في كل عصر . حتى يجعل انكار بعضهم له في بعض العصور وجهاً للاشكال في الآية ، وانما عزاه الى جنسهم لما ذكرناه آنفاً . على أن الناس في كل زمان يعزون الى الامة مايسمعونه من بعض أفرادها اذا كان مثله لاينكر فيهم . والقرآن يسند الى المتأخرين ما قاله وفعله سلفهم منذ قرون . بناء على قاعدة تكافل الامة وكونها كالشخص الواحد . ومثل هذا الاسلوب مألوف في كلام الناس أيضاً

واليد تطلق في اللغة على عدة معان يقول أهل البيان ان بعضها حقيقة و بعضها من المجاز أو الكناية . فتطلق على الجارحة وعلى النعمة والقدرة والملك والتصرف وغير ذلك . رأى أهل التأويل ان هذه الآية يجب تأويلها لان اليد بمعنى الجارحة مما يستحيل نسبته الى الله تعالى . ويقول بعض أهل التفويض بل نثبت له اليد وننزهه عن لوازم هذا الاطلاق من مشابهة الناس ، وتفسير ابن عباس امام مفسري السلف والخلف للآية يدل على أنها ليست مما يجري فيه الخلاف بين الخلف والسلف في التأويل والتفويض . لان استعمال غل اليد في البخل وبسطها في الجود معروف في اللغة مألوف . ومنه قوله تعالى (١٧ : ٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) ولا يقول أحد يفهم اللغة ان هذا من اخراج اللفظ عن ظاهره المسمى عندهم بالتأويل .

مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ

لما أسرفت يهود المدينـة وما حولها في عداوة النبي (ص) بعد ما فضلهم على مشركي قومه ، وأقرهم على دينهم وما في أيديهم، بين الله تعالى له مخازيهم التي يشهد بها تاريخهم وكتب دينهم. وما كان من تأثيرها في أخلاق المعاصرين له وأعمالهم. ثم عطف على ما تقدم من ذلك هنا قولا فظيعا قاله بعضهم يدل على الجرأة على الله تعالى فيهم ، الذي هو أثر ترك التناهي عن المنكر فيما بينهم، فقال :

﴿ وقالت اليهود : يد الله مغلولة ﴾ هذا القول الفظيع من شواهد قولهم الاثم الذي أثبته فيما قبل هذه الآية. وقد عزي اليهم ـ وهو قول واحد أو آحاد منهم ـ لانه أثر ما فشا فيهم من الجرأة على الله وترك انكار المنكر ـ كما قلنا آنفاً ـ والمقر للمنكر شريك الفاعل له ، وهذا هو وجه وصل هذه الآية بما قبلها

روى ابن اسحق والطبراني في الكبير وابن مردويه عن ابن عباس ـ : قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس : ان ربك بخيـل لا ينفق . فأنزل الله « وقالت اليهود » الآية. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنها نزلت في فنحاص رأس يهود بني قينقاع .وروى ابن جرير مثله عن عكرمة . وروى عن مجاهد انهم قالوا : لقد يجهدنا الله يابني اسرائيل حتى جعل يده الى نحره ــ أو حتى ان يده الى نحره. فعلى هذا يكون مرادهم أنه ضيق عليهم الرزق. كأنهم اعتذروا بهذا عن انفاق كان تطلب منهم . أو في حال جدب أصابهم . قيل: كانوا اغنى الناس فضاق عليهم الرزق بعد مقاومتهم للنبي (ص) ــ وروى عن السدي في قولهم ومرادهم ـ : قالوا : ان الله وضع يده على صدره فلا يبسطها حتى يرد علينا ملكنا . وروى عن ابن عباس في معنى عبارتهم أنه قال : ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكنهم يقولون انه بخيل أمسك ماعنده ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا • فجعل العبارة ابن عباس من باب الكناية لا من باب الحقيقة

وقد جعل بعض أهل الجدل الآية من المشكلات لان يهود عصره ينكرون

اعتدائه وتشويهه للمصحف ، لأن السلطان لم يعلم بذلك، ولاجل هذا عد المصنف الايقاع به من معجزات القرآن . وإنما عجبنا نحن في هذه الحكاية من تساهل المسلمين في عهد الحكومة العباسية كيف وصل الى هذا الحد. رجل من أشقياء اليهود أهل النفوذ يجيء بغداد فينزل في مدرسة من أشهر المدارس الاسلامية ويكون له من حرية التصرف فيها والعبث بكتبها ما يمكنه من تشويه مصحف أثري كان أحسن المصاحف التي حفظها التاريخ في بغداد ؟ !! فليعتبر بهذا التسامح المعتبرون

ثم رد عليهم تعالى بقوله ﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ أي بل هو صاحب الجود الكامل ، والعطاء الشامل ، عبر عن ذلك ببسط اليدين لان الجواد السخي اذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته يعطي بكلتا يديه . وصفوه بغاية البخل والامساك ، فأبطل قولهم وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء . ولا غرو فكل ما يتقلب فيه العالم كله من الخير والنعم ، هو سجل من ذلك الجود والكرم، والنكتة في قوله « كيف يشاء » بيان أن تقتير الرزق على بعض العباد ، الجاري على وفق الحكمة وسنن الله تعالى في الاجتماع ، لا ينافي سعة الجود ، وسريانه في كل الوجود ، فان له الارادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، بحسب السنن التي أقام بها نظام الخلق .

والعجب من الامام الجليل أبي جعفر ابن جرير الطبري كيف صور استعمال لفظ اليد هنا أحسن تصوير ، ثم خفيت عنه نكتة تثنيته فجعلها حجة المفوضة على أهل التأويل ، ونحن معه في اثبات الصفات ، ننعي على المؤولين النفاة ، ولا يمنعنا ذلك أن نفهم نكتة تثنية اليد، من استعمال لفظها المفرد ، قال ابن جرير بعد تفسير غل اليد بالامساك وحبس العطاء عن الاتساع ما نصه : وانما وصف تعالى ذكره اليد بذلك والمعنى العطاء لان عطاء الناس و بذل معروفهم الغالب بأيديهم، فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضا اذا وصفوه بجود وكرم ، أو ببخل وشح وضيق ، باضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف الى يديه ، كما قال الاعشى في مدح رجل :

يداك يدا جود فكف مفيدة　وكف اذا ما ضُن بالزاد تنفق

أما قوله تعالى ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ فهو دعاء عليهم يناسب جرمهم هذا، وجزاء لهم بالطرد والابعاد من رحمة الله تعالى وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين. قد جاء على طريقة الاستئناف البياني لانه مما تستشرف له النفوس وتتساءل عنه بالفعل او بالقوة . والمشهور من معنى «غلت أيديهم» أمسكت أيديهم وانقبضت عن العطاء والانفاق في سبيل البر والخير. وهو دعاء عليهم بالبخل؛ وما زالوا أبخل الامم فلا يكاد أحدمنهم يبذل شيئاً. الا اذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً . وقد حسنت أحوالهم في هذا الزمان ، وارتقت معارفهم وحضارتهم في كثير من البلاد ، وتربوا في أمم من الافرنج صار من تقاليدهم الاجتماعية بذل المال لمعاهد العلم والملاجئ والمستشفيات والجمعيات الخيرية ، وهم على كونهم أغنى هذه الامم ومضطرون لمجاراتها لا يبذلون الا دون ما يبذل غيرهم من الاعانات الخيرية. بل هم على شدة تكافلهم واستمساكهم بالعصبية الملية فيما بينهم. قلما يساعد أغنياؤهم فقراءهم بالصدقة الخالصة لوجه الله تعالى وحبا في الخير، بل يتجرون ويرابون بالإعانات ، فيعطون الفقراء مالا على أن يعملوا به في تجارة أو غيرها . بشرط أن يردوه في مدة معينة مع ربا قليل في الغالب

وقيل : أن المراد بغل الايدي ربطها الى الاعناق بالاغلال في الدنيا أو في النار أو فيهما . نقل عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذا الغل : يغللون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم . وقال في تفسير اللعنة : عذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار . حكاه عنه نظام الدين النيسابوري في تفسيره. وأورد واقعة بهذا المعنى حدثت في زمنه قال : ومما وقع في عصرنا من إعجاز القرآن ما حكي ان متغلبا من اليهود مسمى بسعد الدولة - وهو من أشقى الناس - كان سمع بهذه الآية. فاتفق أن وصل الى بغداد فنزل بالمدرسة المستنصرية، ودعا بمصحف كان مكتوباً بأحسن خط وأشهره من خطوط الكتاب الماضين . وكان يعلم ان أهل هذا العصر لا يقدرون على كتابة مثله ، ثم قال : أين هذه الآية ؟ - يعني قوله « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » فأروه اياها فمحاها . فلم يمض الا أسبوع الا وقد سخط السلطان عليه وبعث في طلبه وأمر بغل يديه، فغلوه وحملوه اليه فأمر بقتله. اه والمراد ان السلطان غضب عليه بسبب من أسباب شقاوته التي عرف بها لا بسبب

كفروا به ـ وفي رواية : على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه ـ وهم يجدونه مكتوباً عندهم . فعلم مما شرحناه ان زيادة طغيان الكثيرين منهم وكفرهم جاء على خلاف الظاهر وضد ما يقتضيه الدليل، فلهذا اكده بالقسم الذي تفيده اللام في قوله « وليزيدنّ »

﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ﴾ قال المفسرون ان الضمير في قوله « بينهم » يرجع الى اليهود والنصارى في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) رواه ابن جرير عن مجاهد واقتصر عليه . وعزاه غيره الى الحسن أيضاً ، ورواه أبو الشيخ عن الربيع ، فلا نعرف في التفسير المأثور عن السلف غيره . وفي تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم ، ويراد به حينئذ عداوة المذاهب والبغضاء بين الافراد ، لان هذا لا ينقطع من بين الناس ، ولكن لا يظهر معه فائدة لتخصيص اليهود به ، وهم الآن من أشد الامم تعاطفا وتعاضدا وائتلافا . وأما العداوة بينهم وبين النصارى فلم تنقطع ، وهي على أشدها الآن في بلاد روسية وعلى أقلها في انكلترة وفرنسة وألمانية ، لما في هذه الممالك من القوانين الحرة والحكومات المنتظمة ، ولما للمال وأهله فيها من النفوذ والتأثير في السياسة وسائر شؤون الاجتماع ، واليهود أغنى أهلها ، والمديرون لأرحية اعظم الاعمال المالية فيها . وهم على مكانتهم هذه مبغوضون من جماهير النصارى ، وكم ألفت كتب في فرنسة وغيرها في التحريض عليهم . وقد أخبرني ألماني من العلماء المستشرقين أنهم لا يعدون اليهودي في بلاده منهم ، بل يقولون هذا يهودي وهذا ألماني . واما العداوة بين النصارى فهي اشد . وان دولهم الكبرى تستعد دائما لحرب يسحق بها بعضها بعضا .

﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ الحرب ضد السلم وليس مرادفا للقتال بل اعم ـ كما حققناه في تفسير آية المحاربة من هذه السورة ـ فهو يصدق بالاخلال بالامن، والنهب والسلب ولو بغير قتل ، ويصدق بتهييج الفتن والاغراء بالقتال . خص مجاهد الحرب هنا بحربهم للنبي (ص) والحسن باجتماع السفلة من الاقوام على قتل العرب . وقال السدي في تفسير الجملة : كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله وأطفأ حدهم ونارهم وقذف في قلوبهم الرعب . وفسره الربيع بما كان من مفاسدهم الماضية

فأضاف ما كان صفة صاحب اليد من انفاق وافادة الى اليد ؛ ومثل ذلك في كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن تحصى ، فخاطبهم الله بما يتعارفونه او يتحاورونه بينهم في كلامهم اه . ثم لما ذكر قول من قال من أهل الجدل ان يد الله نعمته أو قدرته أو ملكه . وقول من قال ان يد الله صفة من صفاته غير أنها ليست بجارحة كجوارح بني آدم ، ـ رد القول الاول ورجح الثاني بتثنية اليد وعدم إفرادها ، وابطال قول من قال ان التثنية بمعنى الجمع .

نعم ان التثنية ليست بمعنى الجمع ، واليد واليدين لم يقصد بلفظهما النعمة ولا القوة ولا الملك . وانما الاستعمال في الموضعين من الكناية ، ونكتة التثنية افادة سعة العطاء ومنتهى الجود والكرم . وليس في هذا القول المروي عن ابن عباس تأويل ، ولا نفي لما أثبته البارئ لنفسه من صفة اليد واليدين والايدي في آيات أخرى . وما سبب ذهول ابن جرير عن نكتة التثنية الا توجهه الى الرد على أهل الجدل في المذهب الذي كانوا قد انتحلوه في تأويل الصفات . ومتى وجه الانسان همه الى شيء يكون له منه حجاب ما عن غيره . وتقرير الحقيقة لذاتها ، غير الرد على من يعدون من خصومها ، (ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ولهذا غلط كثير من أنصار مذهب السلف في مسائل خالفوا فيها المذهب من حيث يريدون تأييده . وهذه آفة من آفات عصبية المذاهب لا تنفك عنها

﴿ وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفرا ﴾ الخطاب للنبي (ص) أي ان هذا الذي أنزلناه عليك من خفي أمورهؤلاء اليهود المعاصرين لك ومن أحوال سلفهم وشؤون كتبهم وحقائق تاريخهم، هو من أعظم الحجج والآيات على نبوتك، فكان ينبغي أن يجذبهم الى الايمان بك . لانك لولا النبوة والوحي لما علمت من ذلك شيئاً ـ لامن ماضيه لانك أمي لم تقرأ الكتب . وما كل من قرأها يعلم كل ماجئت به عنهم ـ ولامن حاضره لانه من خفايا مكرهم وأسرار كيدهم ـ ولكنهم لتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد للعرب والعصبية الجنسية لانفسهم ، لايجذبهم الى الايمان ولا يقربهم منه الا قليلا منهم ، ووالله ليزيدن كثيرا منهم طغياناً في بغضك وعداوتك وكفرا بما جئت به . قال قتادة : حملهم حسد محمد (ص) والعرب على ان

اقرب مودة للمؤمنين بعد آيات قليلة . فتحتم ان العداوة من السياسة لامن الدين .

﴿ ويسعون في الارض فسادا ، والله لايحب المفسدين ﴾ اي انهم لم يكونوا فيما يأتونه او على مايأتونه من عداوة النبي والمؤمنين وايقاد نيران الحرب والفتن والقتال ، مصلحين للاخلاق والاعمال ، او لشؤون الاجتماع والعمران ، بل كانوا يسعون في الارض سعي فساد أو لأجل الفساد ، بمحاولة منع اجتماع كلمة العرب ، وخروجهم من الامية الى العلم . ومن الوثنية الى التوحيد . وبالكيد للمؤمنين . وتشكيكهم في الدين . حسدا لهم ، وحبا في دوام امتيازهم عليهم . والله لا يحب المفسدين في الارض ، فلا يصلح عملهم . ولا ينجح سعيهم . لانهم مضادون لحكمته في صلاح الناس وعمران البلاد

والدليل على صحة هذا ان الله ابطل كل ما كاده اولئك الاقوام ، للنبي (ص) وللعرب والاسلام . وان العرب لما اجتمعت كلمتها وصلحت حالها بالاسلام ، أصلحوا بين الناس . وعمروا الارض في كل بلاد كان لهم فيها سلطان . وأما غيرهم فكانوا مفسدين بالظلم ومخربين للبلاد . فالاسلام يأمر بالصلاح والاصلاح على اكمل وجه وهو ما يحبه الله تعالى . فلما قام المسلمون به حق القيام . ايدهم ونصرهم على جميع من ناوءهم من الاقوام . وكذلك التوراة والانجيل ما أنزلت الا لهداية الناس الى الصلاح والاصلاح . وانما كان اهلها مفسدين في ذلك العصر . لانهم تركوا هدايتهما ، كما هو شأن جماهير المسلمين في هذا العصر : تركوا هداية القرآن ، وأعرضوا عما أرشد اليه من الصلاح والاصلاح . فزال ملكهم . وسلط الله عليهم غيرهم . وقس جزاء الآخرة على جزاء الدنيا . فكل منهما مرتب بحسب حكمة الله تعالى على صلاح النفوس والاصلاح في الاعمال . وبناء على هذه الحقيقة قال :

﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴾ أي لو انهم آمنوا بخاتم النبيين والمرسلين ، واتقوا باتباعه تلك المفاسد التي جروا عليها ، لكفرنا عنهم تلك السيئات لان هذا الايمان يجب ما قبله . والتقوى التي تتبعه تزكي النفس وتطهرها من تأثير تلك السيئات فيمحى أثرها ، ويكون ذلك كفارة

التي أغرت بها البابليين والروم قبل النصرانية وبعدها ثم المسلمين ، كأنه يرى أن أن ايقادهم لنار الحرب هو تلبسهم بالاعمال التي هي سبب لها ، وان لم يريدوها بها . والمراد ان الله تعالى يخذلهم في كل ما يكيدون به لرسوله وللمؤمنين الصادقين ؛ فإما أن يخيبوا ولا يتم له مايسعون اليه من الاغراء والتحريض ، وإما ان ينصر الله رسوله والمؤمنين . وكذلك كان ، وصدق الله وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده .

وجعل بعض المفسرين ذلك عاما عملا بظاهر اللفظ دون السياق والقرينة والاسباب والعلل ، فقال الزمخشري في تفسيره : كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط . - ثم قال - وقيل كلما حاربوا رسول الله (ص) نصر عليهم . اه وما اخترناه أظهر

ومن المفصل في السيرة النبوية ان اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي (ص) والمؤمنين ، وكان منهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم ، ومنهم من كان يقطع الطريق على المؤمنين ويؤوي أعداءهم ويساعدهم ، ككعب بن الاشرف

وكل ما كان من مقاومة اليهود للنبي (ص) والمؤمنين كان سببه الحسد والعصبية ، وتوقع الاحبار والرؤساء ازالة الاسلام لما كان لهم من الامتياز بين العرب في الحجاز من مكانة العلم والمعرفة ، اذ كان المشركون يحترمونهم لكونهم أهل كتاب وعلم وان لم يدينوا بدينهم . فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا من روحه ، ولذلك كان ضلع اليهود مع المسلمين في الشام والاندلس لما رأوا ماعند مسلمي العرب من العدل ، المزيل لما كان عليه الروم والقوط من الجور عليهم والظلم . وكذلك كانت عداوة النصارى للمسلمين في الصدر الاول للاسلام سياسية ، ولذلك كانت على أشدها بينهم وبين الروم (الرومان) المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالشام ومصر ، وكان نصارى البلاد أقرب الى الميل للمسلمين بعد ماوثقوا بعدلهم ، لما كانوا يقاسون من ظلم الروم على كونهم من أهل دينهم ، وهذا شأن الناس في العداوة والمودة ابدا ، يتبعون في ذلك مصالحهم ومنافعهم ، فلا ينبغي ان يجعل ما ذكر وصفاً ذاتيا لهم او لدينهم ، ولينتظر القارىء شهادة الله تعالى للنصارى بكونهم

الاخيار؟ — وهؤلاء المعتدلون في الامم هم الذين يسبقون الى كل صلاح واصلاح يقوم به المجددون من الانبياء في عصورهم، ومن الحكماء في عصورهم، ولما جاء الاصلاح الاسلامي على لسان خاتم النبيين والمرسلين (ص) قبله المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم؛ فكانوا مع اخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب. والمحيين للعلوم والفنون والعمران، فهل يعتبر المسلمون بذلك الآن، ويعودون الى اقامة القرآن، وأخذ الحكمة من حيث يجدونها، وعدد الاصلاح والسيادة من حيث يرونها، أم يفتؤن يسلكون سنن من قبلهم في طور الفساد والإفساد، شبرا بشبر وذراعاً بذراع، ومنه الغرور بدينهم مع عدم اقامة كتابه، والتبجح بفضائل نبيهم على تركهم لسنته وآدابه؟

روى ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله (ص) قال «يوشك أن يرفع العلم» قلت: كيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟ فقال «ثكلتك أمك يا ابن نفير. إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والانجيل بأيدي اليهود والنصارى؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله»؟ ثم قرأ (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) الآية. وأخرج أحمد وابن ماجه من طريق ابن أبي الجعد عن زياد ابن لبيد قال: ذكر النبي (ص) شيئاً فقال «وذلك عند ذهاب العلم» [1] قلنا يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم الى يوم القيامة؟ قال «ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، ان كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والانجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء» اه من الدر المنثور. والشاهد فيه أن العبرة بالعمل بما في الكتب الالهية والاهتداء بهدايتها. وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له، كما هو شأن المسلمين اليوم، على أن عصبيتهم الجنسية له قد ضعفت أيضاً واستبدل كثير منهم بها جنسية اللغة أو الوطن

(١) في نسخة الدر المنثور المطبوعة كلمة «ابنائنا» مكان كلمة «العلم» وهو غلط ظاهر وهذه الطبعة كثيرة الغلط

لها ، فيستحقون جنات النعيم التي لا بؤس فيها

﴿ ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ إقامة التوراة والانجيل العمل بهما على أقوم الوجوه وأحسنها ، سواء فيه عمل النفس وهو الايمان والاذعان ، وعمل القوى والجوارح . أي لو أقاموا ما في التوراة والانجيل المنزلين من قبل بنور التوحيد والفضائل ، المبشرين بالنبي الذي يأتي من أبناء أخيهم اسماعيل كما قال موسى . والبارقليط روح الحق الذي يعلمهم كل شيء كما قال عيسى (عليهم السلام) وأقاموا بعد ذلك ما أنزل اليهم من ربهم على لسان هذا النبي الذي بشرت به كتبهم وهو الفرقان الذي أكمل الله به الدين — لو أقاموا جميع ذلك ولم يفرقوا بين رسل الله وكتبه — لوسع الله عليهم بالتبع لذلك ما يهمهم من موارد الرزق . فأكلوا من الثمرات والبركات التي تنتج من أمطار السماء ونبات الارض ، وتمتعوا بما وعد الله به هذا النبي وأمته من سعة الملك .

وقيل إن المراد بما أنزل اليهم من ربهم سائر ما أوحاه الله تعالى الى أنبيائهم من أمر الدين وآدابه والبشارة بالنبي الاخير (ص) كزبور داود وحكم سليمان وكتب دانيال وأشعيا وغيرهما عليهم السلام وفي مجلدات المنار بيان لكثير من هذه البشارات . واقامة هذه الكتب من أسباب الصلاح والاصلاح . فلو أقامها قبل البعثة المحمدية اهل الكتاب . لما غلب عليهم ما عزاه المؤرخون اليهم من الطغيان والفساد . ولما عاندوا النبي المبشرة به ذلك العناد . ذلك بأنهم لم يقيموها ولا تدبروها . وانما كان الدين عندهم أماني يتمنونها . وبدعاً وتقاليد يتوارثونها . فهم بين غلو وتقصير ، وافراط وتفريط . والمراد أن دهماءهم وسوادهم الاعظم كان كذلك كما يعلم من تواريخهم وتواريخ غيرهم . ومن دقة القرآن وعدله . تمحيص الحقيقة في ذلك بقوله :

﴿ منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ أي منهم جماعة معتدلة في أمر الدين . لا تغلو بالافراط ولا تهمل بالتقصير . قيل هم العدول في دينهم ، وقيل هم الذين أسلموا منهم . والمعتدلون لا تخلو منهم أمة . ولكنهم يكثرون في طور صلاح الامة وارتقائها ، ويقلون في طور فسادها وانحطاطها ... وهل تهلك الامم الا بكثرة الذين يعملون السوء من الاشرار ، وقلة الذين يعملون الصالحات من

تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس. إن الله لا يهدي القوم الكفرين (٧١) قل يا أهل الكتب لستم على شيء حتى تقيموا التورىة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم، وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغينا وكفرا، فلا تأس على القوم الكفرين (٧٢) إن الذين آمنوا والذين هادوا والصبئون والنصرى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صلحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك﴾ تقدم ان نداء النبي (ص) بلقب الرسول لم يرد الا في موضعين من هذه السورة، وهذا ثانيهما؛ وكلاهما جاء في سياق الكلام في دعوة اهل الكتاب الى الاسلام ومحاجتهم في الدين. وقد اختلف مفسرو السلف في وقت نزول هذه الآية. فروى ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس، وأبو الشيخ عن الحسن، وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد — مايدل على انها نزلت في اول الاسلام. وبدء العهد بالتبليغ العام. وكأنها على هذا القول وضعت في آخر سورة مدنية للتذكير بأول العهد بالدعوة في آخر العهد بها، وروى ابن ابي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابي سعيد الخدري انها نزلت يوم غدير خم في عليّ بن ابي طالب.

وروت الشيعة عن الامام محمد الباقر ان المراد بما أنزل اليه من ربه النص على خلافة عليّ بعده، وانه (ص) كان يخاف ان يشق ذلك على بعض أصحابه فشجعه الله تعالى بهذه الآية. وفي رواية عن ابن عباس ان الله امره ان يخبر الناس بولاية علي فتخوف ان يقولوا: حابى ابن عمه، وان يطعنوا في ذلك عليه. فلما نزلت الآية عليه في غدير خمّ اخذ بيد علي وقال «من كنت مولاه فعلي مولاه؛ اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» ولهم في ذلك روايات واقوال في التفسير مختلفة، ومنها

ولا يمنعنا من الاعتبار بهذا الحديث ماعلل به من الضعف واقتطاع السند والقلب والاختلاف ، لاننا لا نريد أن نثبت به حقيقة ولا حكما شرعيا لا دليل عليها سواه . وهو لا يدل على سلامة التوراة والانجيل من التحريف بالزيادة والنقصان، لانهما على ثبوت ذلك يشتملان على التوحيد والهداية الى البر والتقوى، ولكن أهلهما لا يقيمون ذلك، فالحجة عليهما قائمة على كل حال. وقد علمت أن هذا الحديث تثبت به العبرة ، ولكن لا تقوم به حجة . وقد أشار الحافظ في ترجمة زياد بن لبيد من الاصابة الى مخرجيه وعلله عندهم ، ومنه يعلم قصور ما اكتفى به السيوطي في الدر المنثور

﴿ تنبيه ﴾ ان الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال في هذه الآية له نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقوله (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك) ـ الآية ـ وغير ذلك . ولولا أن هذا القرآن وحي من الله لما وجدت فيه مثل هذه الشهادة ، لان الانسان مهما كان عادلاً فاضلاً لا يرى الفضيلة المستترة في خصومه الذين يناوئونه ويحاربونه فيشهد لهم بها ، بل اكثر الناس يعمى عن محاسن عدوه الظاهرة المستفيضة ، وان رأى شيئاً منها يظن أنه نفاق وخداع ، قال شاعرنا الحكيم :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

ومن شواهد العبرة على هذه الحقيقة كلمة قالتها امرأة كبيرة العقل والعلم والسن من فضليات النساء في سويسرة لشيخنا الاستاذ الامام ؛ قالت له « انني لم اكن قبل معرفتك أظن ان القداسة توجد في غير المسيحيين » فاذا كانت هذه المرأة الواسعة العلم بأخلاق البشر التي لها عدة مؤلفات في علوم التربية تظن مثل هذا الظن في هذا العصر الذي عرف البشر فيه من أحوال البعداء عنهم وتاريخهم ما لم يعرف مثله سلفهم في عصر ما ، فهل يظن أن رجلا أميا في الحجاز يهتدي بغير وحي من الله الى تلك الحقيقة في أولئك القوم منذ ثلاثة عشر قرنا ؟ ؟

---

(٧٠) يَاءَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ

واستمالتهم اليه . ذلك ان عليا كرم الله وجهه كان قد وجهه النبي (ص) في سرية الى اليمن، فقاتل من قاتل وأسلم على يديه من أسلم ، ثم انه تعجل الى رسول الله (ص) ليدرك معه الحج واستخلف على جنده رجلا من اصحابه فكسا ذلك الرجل كل واحد منهم حلة من البز الذي كان مع علي . فلما دنا جيشه خرج اليهم علي فوجد عليهم الحلل فأنكر ذلك وانتزعها منهم . فأظهر الجيش شكواه من ذلك . وروي ايضاً عن بريدة الاسلمي انه كان مع علي في غزوة اليمن وانه رأى منه جفوة فشكاه الى النبي (ص) فلما رأى النبي (ص) ان بعض المؤمنين يشكو عليا بغير حق ، اذ لم يفعل الا ما يرضي الحق ، خطب الناس في غدير خم ، واظهر رضاه عن علي وولايته له وما ينبغي للمؤمنين من موالاته . وغدير خم مكان بين الحرمين قريب من رابغ على بعد ميلين من الجحفة . قالوا وقد نزله النبي (ص) وخطب الناس فيه في اليوم الثامن من ذي الحجة . وقد اتخذته الشيعة عيدا على عهد بني بويه في حدود الاربع مئة

ويقول اهل السنة ان الحديث لايدل على ولاية السلطة التي هي الامامة او الخلافة . ولم يستعمل هذا اللفظ في القرآن بهذا المعنى . بل المراد بالولاية فيه ولاية النصرة والمودة التي قال الله فيها في كل من المؤمنين والكافرين (بعضهم اولياء بعض) ومعناه من كنت ناصرا وواليا له فعلي ناصره وواليه، أو من والاني ونصرني فليوال عليا وينصره . وحاصل معناه انه يقفو أثر النبي (ص) فينصر من ينصر النبي (ص) وعلى من ينصر النبي أن ينصره . وهذه مزية عظيمة. وقد نصر كرم الله وجهه ابا بكر وعمر وعثمان ووالاهم . فالحديث ليس حجة على من والاهم مثله . بل حجة له على من يبغضهم ويتبرأ منهم . وانما يصح ان يكون حجة على من والى معاوية ونصره عليه . فهو لا يدل على الامامة بل يدل على نصره اماما ومأموما. ولو دل على الإمامة عند الخطاب لكان اماماً مع وجود النبي (ص) والشيعة لاتقول بذلك . وللفريقين اقوال في ذلك لانحب استقصاءها والترجيح بينها ، لانها من الجدل الذي فرق بين المسلمين، واوقع بينهم العداوة والبغضاء. وما دامت عصبية المذاهب غالبة على الجماهير فلارجاء في تحريهم الحق في مسائل الخلاف، ولا في تجنبهم ما يترتب على الخلاف من التفرق والعداء .ولو زالت تلك العصبية ونبذها الجمهور فلايضر المسلمين حينئذ ثبوت

ما ذكره الثعلبي في تفسيره ان هذا القول من النبي (ص) في موالاة علي شاع وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى النبي (ص) على ناقته وكان بالابطح فنزل وعقل ناقته وقال للنبي (ص) وهو في ملاءٍ من اصحابه : يا محمد امرتنا عن الله ان نشهد ان لااله الا الله وانك رسول الله ؛ فقبلنا منك -- ثم ذكر سائر اركان الاسلام وقال — ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمك وفضلته علينـا ، وقلتَ « من كنتُ مولاه فعلي مولاه » فهذا منك ام من الله ؟ فقال (ص) « والله الذي لااله الا هو ، هو امر الله» فولى الحارث يريد راحلته وهو يقول (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم) فما وصل اليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره ، وانزل الله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين) الخ وهذه الرواية موضوعة . وسورة المعارج هذه مكية . وما حكاه الله من قول بعض كفار قريش (اللهم ان كان هذا هو الحق من عنـدك) كان تذكيرا بقول قالوه قبل الهجرة ، وهذا التذكير في سورة الانفال وقد نزلت بعد غزوة بدر قبل نزول المائدة ببضع سنين . وظاهر الرواية ان الحارث ابن النعمان هذا كان مسلما فارتد، ولم يعرف في الصحابة ، والابطح بمكة والنبي (ص) ولم يرجع من غدير خم الى مكة ؛ بل نزل فيه منصرَفه من حجة الوداع الى المدينة

أما حديث « من كنت مولاه فعلي مولاه » فقد رواه احمد في مسنـده من حديث البراء وبريدة ، والترمذي والنسائي والضياء في المختارة من حديث زيد ابن ارقم ، وابن ماجه عن البراء ، وحسنه بعضهم وصححه الذهبي بهذا اللفظ ، ووثق أيضا سند من زاد فيه « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» الخ وفي رواية انه خطب الناس فذكر اصول الدين، ووصى بأهل بيته فقال « اني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما . فانهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض. الله مولاي ، وانا ولي كل مؤمن » ثم أخذ بيد علي وقال الحديث : ورواه غيرهم من ذكر بأسانيد ضعيفة ومنها ان عمر لقيه فقال له : هنيئا لك اصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة . وذكروا ان سببه تبرئة علي مما كان قاله فيه بعض من كان معه في اليمن

وأما المتبادر من الآية فالظاهر انه الامر بالتبليغ العام في اول الاسلام، كما رواه أهل التفسير المأثور ، ولولاه لاحتمل ان يكون المراد به تبليغ اهل الكتاب ما بعد هذه الآية . كأنه قال : بلغ ما أنزل اليك في شأن أهل الكتاب ، واذكر لهم ما يكون فصل الخطاب، فان سألت عن ذلك فهاك الجواب : « قل يا اهل الكتاب استم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل » الخ. ولو صح حديث ابن عباس الذي رواه ابن مردويه والضياء لما بقي للاحتمال مجال . قال : سئل رسول الله [ص] اي آية من السماء انزلت اشد عليك ؟ فقال : « كنت بمنى ايام موسم واجتمع مشركو العرب وافناء الناس في الموسم، فنزل عليّ جبريل فقال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) الاية. — قال — فقمت عند العقبة فقلت: يا أيها الناس من ينصرني على ان أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة؟ أيها الناس قولوا : لا اله الا الله ، وأنا رسول الله اليكم ، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة — قال (ص) فما بقي رجل ولا امرأة ولا أمة ولا صبي الا يرمون علي بالتراب والحجارة ويقولون: كذاب صابئ. فعرض علي عارض فقال : يا محمد ان كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك . فقال النبي (ص) اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون ، وانصرني عليهم أن يجيبوني الى طاعتك » فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه . وسيأتي لهذا مزيد تأكيد .

قال تعالى ﴿ وان لم تفعل ﴾ أي وان لم تفعل ما أمرت به من التبليغ العام لما أنزل اليك كله - وهو ماعليه الجهور — أوالخاص بأهل الكتاب — على ماسبق من الاحتمال — بأن كتمته ولو موقتاً خوفاً من الاذى بالقول أو الفعل أو بهما جميعاً ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ أي فحسبك جرما انك ما بلغت الرسالة ولا قمت بما بعثت لاجله، وهو تبليغ الناس ما أنزل اليهم من ربهم (ان عليك الا البلاغ) وذهب الجهور الى ان معناه : وان لم تبلغ جميع ما انزل اليك من ربك بأن كتمت بعضه فـ كأنك لم تبلغ منه شيئاً قط ، لان كتمان البعض ككتمان الجميع . فهو من قبيل قوله تعالى (من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً)

هذا القول او ذاك . لانهم لا ينظرون فيه حينئذ الا بمرآة الانصاف والاعتبار ، فيحمدون المحقين ، ويستغفرون للمخطئين (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا انك رؤف رحيم)

ثم اننا نجزم بأن مسألة الامامة لو كان فيها نص من القرآن او الحديث لتواتر واستفاض ، ولم يقع فيها ماوقع من الخلاف ، ولتصدى علي للقيام بأمر المسلمين يوم وفاة النبي [ص] فخطبهم وذكرهم بالنص ، وبين لهم ما يحسن بيانه في ذلك الوقت . وكان هو الواجب عليه لو كان يعتقد انه الامام بعد رسول الله [ص] بأمر من الله ورسوله . ولكنه لم يقل ذلك ولا احتج بالآية هو ولا احد من آل بيته وانصاره الذين يفضلونه على غيره ، لا يوم السقيفة ولا يوم الشورى بعد عمر ، ولا قبل ذلك ولا بعده في زمنه ، وهو هو الذي كان لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يعرف التقية في قول ولا عمل ؛ وانما وجدت هذه المسائل ، ووضعت لها الروايات واستنبطت الدلائل ، بعد تكوّن الفرق وعصبية المذاهب . والوصية بالخلافة لامناسبة لها في سياق محاجة اهل الكتاب ، فهي مما لاترضاه بلاغة القرآن . بل لو اراد النبي (ص) النص على خليفته من بعده وتبليغ ذلك للناس لقاله في خطبته في حجة الوداع . وهي التي استشهد الناس فيها على تبليغه فشهدوا ، واشهد الله على ذلك . دع سياق الآية وما قبلها وما بعدها ، فانها هي نفسها لاتقبل ان يكون المراد بالتبليغ فيها تبليغ الناس امارة عليّ ، فان الجملة الشرطية . التي بعد هذه الجملة الأمرية ، وجملة الامر بالعصمة ، وجملة التذييل التعليلي بنفي هداية الكافرين — لا يناسب شيء منها تبليغ الناس مسألة الامارة . فتأمل الآية في ذاتها بعين البصيرة لابعين التقليد

واما الحديث فنهتدي به : نوالي عليا المرتضى ونوالي من والاهم ، ونعادي من عاداهم ، ونعد ذلك كموالاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . ونؤمن بان عترته (ص) لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وان الكتاب والعترة خليفتا الرسول ، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير ؛ فاذا اجمعوا على امر قبلناه واتبعناه . واذا تنازعوا في أمر رددناه الى الله والرسول .

بتبليغه ، ولولا ذلك لبطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ ، فما حكمة التصريح مع هذا بالامر بالتبليغ ، وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمانه كله ؟

قلت: حكمته بالنسبة الى الرسول (ص) إعلام الله تعالى اياه بأن التبليغ حتم لا تخيير فيه ، ولا يجوز كتمانه ولو موقتاً بتأخير شيء منه عن وقته على سبيل الاجتهاد ، اذ كان يجوز لولا هذا النص ان يكون من اجتهاد الرسول تأخير بعض الوحي الى أن يقوى استعداد الناس لقبوله، ولا يحملهم سماعه على رده ، وايذاء الرسول لاجله ، — وبالنسبة الى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص ، فلا يعذروا اذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم

أما الاول — فيؤيده تأخير الرسول [ص] الاذن لمولاه زيد بن حارثة بتطليق زينب مع علمه بأن الله تعالى ما قضى بتزويجها له — وهو يعلم ان طباعهما لا تتفق وانه لابد ان يضطر الى طلاقها — الا ليتزوجها النبي [ص] بعد الطلاق ، ويبطل بذلك جريمة التبني وما يترتب عليها من الباطل . وكان النبي [ص] يخشى أن يقول الناس : تزوج مطلقة ابنه . لانه تبنى زيدا قبل البعثة . ولما لم يوقت الله تعالى وقتا لتطليق زيد لزينب ولتزوج النبي [ص] بها ، وافق اجتهاد النبي [ص] طبعه البشري والعمل بظاهر الشريعة من كراهة الطلاق فكان بناء على هذا يقول لزيد كلما شكا اليه عشرة زينب « أمسك عليك زوجك واتق الله » ويخفي في نفسه ما يعلمه من أنه لابد من طلاق زيد لها وتزوجه هو بها ، ولكنه كان يحب تأخير ذلك . فلو كان في تبليغ الوحي هوادة لجاز في بعض مسائل الوحي مثل هذا التأخير بالاجتهاد. ولأجل هذا الشبه والتناسب بين تنفيذ ما اراد الله من ابطال التبني ولوازمه بزواج الرسول (ص) بزينب بعد تطليق زيد لها وبين مسألة تبليغ الوحي وكونه لايجوز تأخيره خشية من قول الناس أو فعلهم — لاجل هذا — بين الله تعالى عقب هذه المسألة من سورة الاحزاب سنته في عدم الحرج على الرسل وفي تبليغهم رسالات الله ، وكونهم يخشونه ولا يخشون احدا سواه .

وأما الثاني — وهو ما ذكرنا من حكمة ذلك بالنسبة الى الناس — فيؤيده ما نقل الينا من الاقوال والآراء في جواز كتمان بعض الوحي — غير القرآن — أو العلم

ويقويه قراءة نافع وابن عامر وابن أبي بكر « رسالاته » بالجمع

فمعنى هذه القراءة افادة استغراق النفي لكل مسألة من مسائل الوحي الذي كلف الرسول تبليغه، لكن في الحكم لافي الواقع . فكأنه قال : وان لم تفعل كنت كأنك مابلغت شيئاً ما من مسائل الرسالة لانها لاتتجزأ . وقد ضعف هذا الوجه الامام الرازي وان كان رأي الجمهور ، لانه يقتضي ان ترك تبليغ بعض المسائل ترك لتبليغ كل مسألة بالفعل ، وذلك خلاف الواقع ؛ أو في الحكم ، ولا يصح ان يجعل تارك صلاة واحدة كتارك جميع الصلوات. وانما المعنى على التشبيه من بعض الوجوه. ولا يعارَض ما لا يتجزأ في الحكم كالايمان والكفر ، بما يتجزأ كالعبادات والمعاصي. وترك التبليغ لوجاز وقوعه كفر. ولهذا المعنى نظير يؤيده وهو حكم الله بأن من كذب بعض الرسل كان كمن كذبهم كلهم ، وذلك قوله تعالى (٤ : ١٤٩ ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ١٥٠ أولئك هم الكافرون حقا) بل ورد ما يؤيد الوجه الآخر ايضا ، وهو تشبيه قاتل النفس الواحدة بقاتل الناس جميعا ، وتقدمت الاشارة الى ذلك . وأما معنى قراءة الآخرين « رسالته » بالافراد فهو نفي القيام بمنصب الرسالة .

وقد جاء في القرآن ذكر تبليغ الرسالات بالجمع في قوله تعالى من سورة الاحزاب بعد قصة زيد وزينب (٣٣ : ٣٩ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله) هكذا قرأ الجماعة كلهم « رسالات » بالجمع ، وانما قرئ بالافراد في الشواذ . وجاء في مواضع أخرى من سورة الاعراف وغيرها . والاستشهاد بآية الاحزاب أنسب في هذا المقام ، لان مانزل في قصة زيد وزينب هو أشد ما نزل على النبي (ص) متعلقا بشخصه الكريم ، وهو قوله تعالى (٣٣ : ٣٧ واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) حتى روي عن عائشة وأنس (رض) أنهما قالا: لو كتم النبي (ص) من القرآن شيئاً لكتم هذه الآية.

فان قيل: ان الله تعالى قد عصم الرسل عليهم السلام من كتمان شيء مما أمرهم

حفظت من رسول الله (ص) وعاءين فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قطع مني هذا البلعوم — يشير الى عنقه ، لانه اذا ذبح ينقطع بلعومه وهو مجرى الطعام — فجهلة المتصوفة يزعمون ان ماعندهم من علم الحقيقة هو من قبيل ما في الوعاء الآخر من وعائي أبي هريرة ؛ وبعضهم يظن ان لشيوخهم سندا في تلقي علم الباطن ينتهي الى بعض الصحابة أو أئمة آل البيت عليهم الرضوان . والذي عليه المحققون ان أبا هريرة يعني بما كتم من الحديث أحاديث الفتن وما يكون من الفساد في الدين والدنيا على أيدي اغيلمة من سفهاء قريش . وهم بنو أمية . وقد روي عنه انه دعا الله تعالى أن ينقذه من سنة ستين وامارة الصبيان . وقد مات سنة سبع وخمسين، وقيل سنة تسع وخمسين ؛ وفي سنة ستين ولي يزيد ابن معاوية ؛ فعلم ان أبا هريرة كان يستعيذ بالله من امارته ؛ وقد أعاذه الله تعالى فلم ير أيامها السود . وروي عنه انه كان يقول في اغيلمة قريش الذين يفسدون على المسلمين امر دينهم كما ورد في الحديث : لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لفعلت . فهذا دليل على انه سمع كحذيفة بن اليمان أخبار الفتن وأمراء الجور من النبي (ص) وكان يكتمها عند وقوعها خوفاً من انتقام أولئك الامراء المستبدين المفسدين . واما كتمان شيء من امر الدين فهو محرم بالاجماع وبنصوص الكتاب والسنة ، فكيف يكتمه ؟ . وقد روى البخاري عنه انه قال : ان الناس يقولون اكثر ابو هريرة الحديث، ولولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حدثت حديثاً .ثم يتلو قوله تعالى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى — الى قوله تعالى — الرحيم) وقوله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)الخ وروى عنه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه حديث « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وروي عن غيره ، وله طرق حسنة وصحيحة ، والوعيد في بعض ألفاظه على الكتمان مطلقا

والحق الذي لامرية فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزله الله اليه، ولم يخص أحدا بشيء من علم الدين، وانه لايمتاز أحد في علم الدين على أحد الا بفهم القرآن. وهو على نوعين : نوع كسبي يتوسل اليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء

النبوي غير الوحي ، عن كل الناس أو عن جمهورهم ، وتأويل هذه الآية وما ثبت في معناها تأويلا يتفق مع آرائهم ؛ فكيف لو لم ترد هذه الاية في المسألة . ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين والسنن من سؤال بعض الناس عليا المرتضى : هل خصهم الرسول بشيء من الوحي أو علم الدين ؟ يعني اهل البيت . وقد ورد في ذلك روايات متعددة بألفاظ مختلفة . منها قول أبي جحيفة لعلي : هل عندكم شيء من الوحي الا ما في كتاب الله ؟ قال علي : لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، الا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ، وما في هذه الصحيفة . (قال السائل) قلت: وما في هذه الصحيفة ؟ قال العقل وفكاك الاسير وأن لا يقتل مسلم بكافر . ومن البديهي ان الاستثناء في كلام الامام علي منقطع لان الفهم في القرآن ليس من الوحي ، وكذا مافي الصحيفة وهو العقل أي دية القتل وفكاك الاسير الخ (١) وقال بعض العلماء: ان سبب سؤال علي عن ذلك ان بعض غلاة الشيعة كانوا يتحدثون أو يبثون في الناس ان عند علي وآل بيته من الوحي ما خصهم به النبي (ص) دون الناس . ويروى عن بعضهم جواز الكتمان على سبيل التقية

ومن الناس من قال ان ما يوحيه الله للرسل أنواع : منها ما هو خاص بهم لا يأذنهم بتبليغه لاحد ، ومنه ما يأمرهم بتبليغه لجميع الناس ، ومنه ما يخص به من يراهم اهلا له من الافراد . ومن هنا أخذ من يقولون إن علم الانبياء قسمان ظاهر وباطن ، فالظاهر عام والباطن خاص . ولبعض المتصوفة والباطنية سبح طويل في بحر هذه الاوهام .

فأما الباطنية فأئمتهم في مذاهبهم زنادقة تعمدوا هدم الاسلام بالشبهات والتأويلات المشككات

وأما المتصوفة فقد راج على بعضهم بعض تلك الشبهات والتأويلات لضعفهم في علم الكتاب والسنة . فاستمسكوا بالاحاديث الموضوعة ، وأخذوا بظواهر بعض الاحاديث والآثار الصحيحة . كقول أبي هريرة المروي في صحيح البخاري :

---

(١) بينا روايات هذا الحديث ومعانيها في الجزء الخامس من مجلد المنار السابع عشر

والحاكم وأبو نعيم والبيهقي والطبراني عن بضعة رجال من الصحابة أن النبي (ص) كان يُحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك الحرس ، وكان أبو طالب أول الناس اهتماماً بحراسته ، وحرسه العباس أيضاً . ومما روي في ذلك عن جابر وابن عباس أن النبي (ص) كان يحرس وكان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت الآية فقال « ياعم ! ان الله قد عصمني لاحاجة لي الى من تبعث » ومعنى « يعصمك من الناس » يمنعك من ايذائهم ، مأخوذ من عِصام القربة ، وهو ماتوكأ به — أي مايربط به فمها — من سير جلد أو خيط . والمراد بالناس الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم ، وفساد عقائدهم وأعمالهم ، والنعي عليهم وعلى سلفهم ، فان ذلك يغيظهم ويحملهم على الايذاء . لذلك كان المشركون يتصدون لايذائه (ص) بالقول والفعل ، وائتمروا به بعد موت أبي طالب ، وقررو قتله في دار الندوة ، ولكن الله تعالى عصمه منهم . وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة . ولذلك قيل : ان هذه الآية نزلت مرتين ، فان لم تكن نزلت مرتين فقد وضعت في سياق تبليغ أهل الكتاب لتدل على أن النبي (ص) كان عرضة لايذائهم ، وان الله تعالى هو الذي عصمه من كيدهم ، ولتذكر بما كان من ايذاء مشركي قومه من قبلهم .

أما قوله تعالى ﴿ ان الله لايهدي القوم الكافرين ﴾ فهو تذييل تعليلي للعصمة ، أي انه تعالى لايهدي أولئك الناس الذين هم بصدد ايذائك على التبليغ — وهم القوم الكافرون — الى مايهمون به من ذلك ، بل يكونون خائبين ، وتتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين .

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم ﴾ أي « قل » لاهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى « لستم على شيء » يعتد به من أمر الدين ، ولا ينفعكم الانتساب الى موسى وعيسى والنبيين « حتى تقيموا التوراة والانجيل » فيما دعيا اليه من التوحيد الخالص ، والعمل الصالح ، وفيما بشرا به من بعثة النبي الذي يجيء من ولد اسماعيل ، الذي عبر عنه المسيح بروح الحق وبالبارقليط « وما أنزل اليكم من ربكم » على لسانه وهو القرآن

الامصار في الصدر الاول ، ومفردات اللغة العربية وأساليبها ، وكذا بعلوم الكون وشؤون البشر وسنن الله في الخلق ، فان هذه العلوم المكتسبة من نقلية وعقلية هي التي يستعان بها على فهم القرآن — ونوع وهبي وهو الذي أشار اليه الامام علي المرتضى بالفهم الذي يؤتيه الله عبدا في القران ، وهو ما به يفضل أهل العلم الكسبي بعضهم بعضاً ، ومن لاحظ له من علم العربية والسنن والآثار لاحظ له من هذا العلم الوهبي ، لان الكسبي هو الاصل الذي يثمر العلم الوهبي . وقد ذكر القسطلاني في شرح البخاري ان قول علي يدل على جواز استخراج العالم بفهمه من القرآن ما لم يكن منقولا عن المفسرين . وانما اشترط العلماء لكل فهم جديد في القرآن شرطين أحدهما أن يوافق مدلولات اللغة العربية ، وثانيهما أن لا يخالف أصول الدين القطعية . فسقطت بذلك ضلالات الباطنية ، وأهل الوحدة من غلاة الصوفية ، وأشباههم من الذين يعبثون بكتاب الله بأهوائهم ، كالدجال عبيد الله الذي صنف في هذه الايام تصانيف باللغة التركية حرف فيها القرآن أبعد تحريف ، بحيث لا ينطبق على اللغة العربية ، ولا على أصول الاسلام ولا فروعه . منها كتاب (قوم جديد) وكتاب (صوك جواب) أي الجواب الاخير . والظاهر ان الغرض من هذه الكتب تنفير الترك من الاسلام وتحويلهم عنه .

وقد بينا غير مرة أن القرآن هو اصل الدين ، وان السنة بيان له واستنباط منه . وذكرنا بعض الشواهد على هذا في التفسير وفي المنار ، ثم رأينا النقل في ذلك عن الامام الشافعي فقد قال : جميع ماحكم به النبي (ص) فهو مما فهمه من القرآن . ذكره السيد الآلوسي في روح البيان . ومن أجدر من النبي (ص) بالفهم الوهبي من القرآن ، وقد اختصه الله بانزاله اليه وبيانه للناس ؟ وتقدم ايضاح هذا البحث في تفسير (اليوم اكملت لكم دينكم) في أوائل هذه السورة . وقد روي عن اكابر الصوفية مالم يرو عن غيرهم في اثبات كون القرآن ينبوع علوم الدين ، بل صرح بعضهم بكونه ينبوع جميع العلوم والحقائق الكونية كلها ، وسنعود الى هذا البحث فنوفيه حقه ان شاء تعالى في تفسير قوله تعالى (مافرطنا في الكتاب من شيء) وما في معناه

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ روى أهل التفسير المأثور والترمذي وأبو الشيخ

لا نصدق بأنكم تدينون الله بهذه الكتب التي تدعوننا اليها ، حتى تقيموها على وجهها . — فهل يعد دعاة النصرانية مثل هذا الخطاب لهم اعترافاً منا بسلامة كتبهم من التحريف والزيادة والنقصان ؟ أم يفهمون انه حجة مبنية على التسليم الجدلي لاجل الالزام ؟ نعم يفهمون هذا ولكنهم يقولون لعوام المسلمين ، ان هذه الآية شهادة للتوراة والانجيل بالسلامة من التحريف ! ! .

﴿ وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفرا ﴾ هذه جملة مستأنفة موكدة بالقسم الذي تدل عليه اللام في أولها تثبت أن الكثير من أهل الكتاب لايزيدهم القرآن الذي اكمل الله به الدين، المنزل على محمد خاتم النبيين، الا طغياناً في فسادهم ، وكفرا على كفرهم — ذلك بأنهم ما كانوا على ايمان صحيح بالله ولا بالرسل ، ولا على عمل صالح مما تهدي اليه تلك الكتب، وانما كان أكثرهم على تقاليد وثنية ، وعصبية جنسية ، وعادات وأعمال ردية ، فهم لهذا لم ينظروا في القرآن نظر إنصاف . وليس لهم من حقيقة دينهم الحق ما يقربهم من فهم حقيقة الاسلام، ليعلموا أنهما واحد وانما ذلك بدء وهذا اتمام. بل ينظرون اليه بعين العصبية والعدوان ، وهذا سبب زيادة الكفر والطغيان . — والطغيان مجاوزة الحد المعتاد

وأما غير الكثير، وهم الذين حافظوا على التوحيد ، ولم تحجبهم عن نور الحق تلك التقاليد ، فهم الذين يرون القرآن بعين البصيرة فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وان من أنزل عليه هو النبي الاخير المبشر به في كتبهم ، فيسارعون الى الايمان ، على حسب حظهم من العلم وسلامة الوجدان .

والفرق بين نسبة انزال القرآن الى الرسول هنا ونسبة انزاله اليهم في أول الآية (على القول المشهور بان المراد بما أنزل اليهم القرآن) هو أن خطابهم بانزال القرآن اليهم يراد به انهم مخاطبون به ومدعون اليه ، ومثله (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا) وأما اسناد انزاله الى الرسول (ص) فليس لافادة أنه أوحي اليه فقط ، بل يشعر مع ذلك بان انزاله اليه سبب لطغيانهم وكفرهم ، وانهم لم يكفروا به لاجل انكارهم لعقائده وآدابه وشرائعه أو استقباحهم لها ، بل لعداوة الرسول الذي أنزل اليه وعداوة

المجيد ، فانه هو الذي أكمل به دين الانبياء والمرسلين ، على حسب سنته في النشوء والترقي بالتدريج .

وقيل: ان المراد بما أنزل اليهم من ربهم ما أنزل على سائر أنبيائهم ، كما قيل مثله في آية (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم) وتقدم توجيهه ، ولم يبعد العهد به فنعيده . الا أن ذاك حكاية ماضية ، وهذا بيان للحال الحاضرة ، والحجة عليهم في الزمنين قائمة . فهم لم يكونوا مقيمين لتلك الكتب قبل هذا الخطاب ، ولا في وقته ، ولا كان في استطاعتهم أن يقيموها في عهده ، كما انهم لا يستطيعون أن يقيموها الآن . فهذا تعجيز لهم ، وتفنيد لدعواهم الاستغناء عن اتباع خاتم النبيين ، باتباعهم لأنبيائهم السابقين . ولا يتضمن الشهادة بسلامة تلك الكتب من التحريف. ومثله أن نقول الآن لدعاة النصرانية من الامريكان والالمان والانكليز : يا أيها الداعون لنا الى اتباع التوراة والانجيل . نحن لا نعتد بكم ، ولا نرى انكم على ايمان وثقة بدينكم ، وصدق واخلاص في دعوتكم . حتى تقيموا أنتم وأهل ملتكم التوراة والانجيل اللذين في أيديكم ، فتحبوا أعداءكم ، وتباركوا لاعنيكم ، وتعطوا ما لقيصر لقيصر ، وتخضعوا لكل سلطة لانها من الله ، واذا اعتدى عليكم أحد فلا تعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، بل أديروا له الخد الايسر ، اذا ضربكم على الخد الايمن ، وتتركوا التنافس في إعداد آلات الفتك الجهنمية . ليكون للناس السلام في الارض . واخرجوا من هذه الاموال الكثيرة والثروة الواسعة . لان الغني لا يدخل ملكوت السموات ، حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ولا تهتموا برزق الغد ، الخ ونحن نراكم على نقيض كل ما جاء في هذه الكتب ، فأنتم لا تخضعون لكل حاكم بل ميزتم أنفسكم . واستعليتم على الشرائع والحكام من غيركم ، واذا اعتدي على أحد منكم في بقعة من بقاع الأرض . تجردون سيوف دولتكم وتصوبون مدافعها على بلاد المعتدي ودولته لا عليه وحده ، حتى تنتقموا لانفسكم بأضعاف ما اعتدي به عليكم . ولا همّ لامكم ودولكم الا بامتلاك ثروة العالم وزينته ونعيمه ، وتسخير غيركم من الامم لخدمتكم بالقوة القاهرة . والاستعداد لسحق من يناسكم في مجد هذا العالم الفاني ، لعدم اهتمامكم بمجد الملكوت الباقي ، فنحن

كلمة النصارى. فأما الرفع ففي اعرابه وجوه أشهرها انه مبتدأ خبره محذوف والتقدير « والصابئون كذلك » أو معطوف على محل اسم ان ؛ وقد أجاز الكوفيون النحويين هذا وعدوه من الفصيح اذا كان الاسم مبنيا كما هو هنا . كقولك انك وزيد صديقان . والبصريون يمنعونه . ومن هذا القبيل قول الشاعر

وإلا فاعلموا أنا وأنتم   بغاة ما بقينا في شقاق

والإعراب صناعة يستعان بها على ضبط كلام العرب وفهمه . والعمدة في اثبات اللغات كلها السماع من أهلها . وقد ثبت بالسماع ان هذا الاستعمال فصيح ولكن ما نكتته ؟ النكتة التي كان بها رفع الصابئين فصيحاً ههنا على مخالفته نسق عطف المنصوب على المنصوب، هي تنبيه الذهن الى أن الصابئين كانوا اهل كتاب وان كان حكمهم كحكم المسلمين واليهود والنصارى في تعليق نفي الخوف والحزن عنهم يوم القيامة بشرط الايمان الصحيح والعمل الصالح، اللذين تتزكى بهما النفوس، وتستعد لارث الفردوس . ولما كان هذا غير معروف عند المخاطبين بهذه الآية ، وكان الصابئون غير مظنة لاشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السماوية ، حسن في شرع البلاغة ان ينبه الى ذلك بتغيير نسق الاعراب . فمثل هذا التغيير . لا يعد فصيحاً الا في مثل هذا التعبير . وهو ما كان لما تغير اعرابه وأخرج عما يماثله ، صفة خاصة تريد التنبيه عليها . فاذا قلت « ان زيدا وعمرا — وكذا بكر — أو بكر كذلك — قادرون على مناظرة خالد » لم يكن هذا القول بليغاً الا اذا كان بكر في مظنة العجز عن مناظرة خالد ؛ وأردت أن تنبه على خطإ هذا الظن ، وعلى كون بكر ، يقدر على ما يقدر عليه من ذلك زيد وعمرو .

وههنا قاعدة عامة في البلاغة تدخل في بلاغة النطق والخط . وهي أن ما يراد تنبيه السمع أو اللحظ اليه من المفردات أو الجمل يميز على غيره ، إما بتغيير نسق الاعراب في كل الكلام العربي مطلقا ، وإما برفع الصوت في الخطابة ، واما بكبر الحروف أو تغيير لون الحبر أو وضع الخطوط عليه في الكتابة . والمسلمون يكتبون القرآن في التفسير، والمتون المشروحة بحبر أحمر . وفي الطبع يضعون الخطوط فوق الكلام الذي يميزونه كآيات القرآن في بعض كتب التفسير، فصار الكثيرون منهم يقلدون الافرنج

قومه العرب . وقيل انه يفيد براءتهم منه، وانه لاحظ لهم فيه

﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أي فلا تحزن عليهم لانهم قوم تمكن الكفر منهم، وصار وصفاً لازماً لهم . وهذه نكتة وضع الظاهر موضع الضمير — وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمني قومك ومنهم ، كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم . قال الراغب : الاسى الحزن، وأصله اتباع الفائت بالغم

والعبرة للمسلم في الآية أن يعلم أن المسلمين لايكونون على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيموا القرآن وما أنزل اليهم من ربهم فيه ويهتدوا بهدايته ، فحجة الله على جميع عباده واحدة ، فاذا كان الله تعالى لايقبل من أهل الكتاب قبلنا ، تلك التقاليد التي صدتهم عما عندهم من وحي الله تعالى ، على ما كان قد طرأ عليه من التحريف بالزيادة والنقصان ، فأن لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظه لكتابنا أولى . والناس عن هذا غافلون ، وبالانتساب الى المذاهب راضون، وبهدي أئمتها لا يقتدون، والى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون ، (ويحسبون أنهم على شيء : ألا انهم الكاذبون) ولما كان الانتساب الى الدين لا يفيد في الآخرة الا باقامة كتاب الدين ، بين الله تعالى بعد تلك الحجة أصول الدين المقصودة من اقامة الكتب الالهية كلها التي يترتب عليها الجزاء والثواب فقال

﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى — من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ مناسبة وضع هذه الآية هنا لما قبلها وما بعدها بيان ان اهل الكتاب لم يقيموا دين الله ، وما كلفهم الله اياه ، لا وسائله ولا مقاصده . فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها ، ولا هم تركوا ماعندهم منها على ظواهرها ؛ ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر ، على الوجه الذي كان عليه سلفهم الصالح ، ولا هم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون ؛ اللهم الا قليلا منهم كان مخبوءاً في طيات الزمان . أو شعاف الجبال وزوايا البلدان ، كانوا يعذبون على توحيد الله، ويرمون بالزندقة أو الهرطقة لرفضهم تقاليد الكنائس . وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة فيراجع تفسيرها المفصل ، في جزء التفسير الاول ،

وفي هذه الآية بحث لفظي ليس في تلك؛ وهو رفع كلمة الصابئين وتقديمها على

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع عامة الناس، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(وجوب تعلم العربية على كل مسلم)

(١٩ س) من صاحب الامضاء بمصر

السيد الامام صاحب المنار

قرأنا في أعداد سابقة من مجلتكم المنار أدلة وجوب تعلم اللغة العربية على كل مسلم وأشرتم في بعض الاجزاء الى ان الامام الشافعي (رح) قال بذلك . ثم قرأنا في الجزء السابع من المجلد ١٧ قول عبيد الله صاحب «قوم جديد» باستغناء المسلمين عن تعلم العربية . فنرجو أن تنشروا قول الامام الشافعي بذلك الجاماً لذلك الدجال واطمئنانا لقوم يؤمنون ما؟

مستفيد

يقرأ المنار

(ج) جاء في رسالة الامام الشافعي التي هي أول رسالة كتبت في أصول الفقه برواية الربيع بن سليمان المرادي ما نصه :

(قال الشافعي) رضي الله عنه والقرآن يدل على أن ليس في كتاب الله شيء الا بلسان العرب ، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدا له وتركا للمسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه ، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم والله يغفر لنا ولهم . ولعل من قال: ان في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه ذهب الى أن من القرآن خاصا يجهل بعضه بعض العرب ، ولسان العرب أوسع الالسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب

في وضع هذه الخطوط تحت الكلام الذي يريدون التنبيه عليه بتمييزه .

وقد تجرأ بعض أعداء الاسلام على دعوى وجود الغلط النحوي في القرآن ! وعدّ رفع الصابئين هنا من هذا الغلط !! وهذا جمع بين السخف والجهل . وانما جاءت هذه الجرأة من الظاهر المتبادر من قواعد النحو مع جهل أو تجاهل أن النحو استنبط من اللغة ولم تستنبط اللغة منه، وان قواعده اذا قصرت عن الاحاطة ببعض ماثبت عن العرب فانما ذلك لقصور فيها ، وان كل ما ثبت نقله عن العرب فهو عربي صحيح ، ولا ينسب الى العرب الغلط في الالفاظ ولكن قد يغلطون في المعاني. ولم توجد لغة من لغات البشر دفعة واحدة ، وانما ترتقى اللغات وتتسع بالتدريج، ولم يكن التجديد في مفرداتها ومركباتها . والتصرف في أساليبها ومشتقاتها ، بالتشاور والتواطؤ بين جميع أفراد الامة ولا بين الجماعات منها ، ـ إلا ما يحصل في بعض المجامع العلمية والادبية عند بعض الافرنج في هذا العصر ـ وانما كان التصرف والتجديد من عمل الافراد ، ولا سيما من يشتهرون بالفصاحة كالخطباء والشعراء . فلو لم يكن ذلك المعترض ضعيف العقل أو قوي التعصب على الاسلام ، لنهاه عن هذا الاعتراض رواية هذا اللفظ عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وان لم يؤمن بانه منزل عليه من الله عز وجل . بل يجب أن ينهاه مثل ذلك نقله عن أي بدوي من صعاليك العرب ولو برواية الآحاد . وليت شعري هل يعد ذلك المتعصب الاعمى مبتكرات مثل شكسبير في الانكليزية وفيكتور هيغو بالفرنسية من اللحن والغلط فيهما ؟ ؟

وأما تقديم الصابئين هنا على النصارى فمن قال ان المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الايمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، يرى أن نكتته الترتيب بين هذه الاصناف بالترقي من الجدير بقبول توبته اذا صح ايمانه ودعم بالعمل الصالح الى الاجدر بذلك ، ويجعل النصارى أقربها الى القبول، ويليهم عنده الصابئون ، فاليهود فالمنافقون . وأنت تعلم ان العطف بالواو لا يفيد الترتيب بل مطلق الجمع فلا حاجة الى تكلف النكتة للتقديم والتأخير

وسلم كانوا يرسلون الى قومهم خاصة وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الى الناس كافة ، قيل : فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه أو ما أطاقوه منه ، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم، فان قال قائل : فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : فالدلالة على ذلك بينة في كتاب الله عز وجل في غير موضع ؛ فاذا كانت الالسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض . وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع . وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يجوز — والله تعالى أعلم — أن يكون أهل لسانه أتباعاً لاهل لسان غير لسانه في حرف واحد ؛ بل كل لسان تبع للسانه . وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه . وقد بين الله تعالى ذلك في غير آية من كتابه . قال الله عز ذكره (وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربيّ مبين) وقال (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) وقال (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (حم . والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها . ثم اكد ذلك بأن نفى عنه جل وعز كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقال (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي ؟)

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : وعرّفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه) الآية ـ وقال (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) الآية ، وكان مما عرّف الله تعالى نبيه عليه السلام من انعامه عليه ان قال (وانه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه بكتابه

منه شيء على عامتها ، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه ، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه ، لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء ، فاذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن ، واذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها ، ثم كان ماذهب عليه منها موجودا عند غيره ، وهم في العلم طبقات ، منهم الجامع لا كثره وان ذهب عليه بعضه ، ومنهم الجامع لاقل مما جمع غيره ، وليس قليل ماذهب من السنن على من جمع اكثرها دليلا على أن لا يطلب علمه عند غير أهل طبقته من أهل العلم ، بل يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه حتى يؤتى على جميع سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم. بأبي هو وأمي ، فينفرد جملة العلماء بجمعها ، وهم درجات فيما وعوا منها . وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها لا يذهب منه شيء عليها. ولا يطلب عند غيرها ولا يعلمه الا من قبله عنها ، ولا يشركها فيه الا من اتبعها في تعلمه منها ، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها ، وانما صار غيرهم من غير أهله بتركه، فاذا صار اليه صار من أهله. وعلم اكثر اللسان في اكثر العرب أعم من علم اكثر السنن في اكثر العلماء

فان قال قائل: فقد نجد من العجم من ينطق بالشيء من لسان العرب؛ فذلك يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم . فان لم يكن ممن تعلمه منهم فلا يوجد ينطق الا بالقليل منه . ومن نطق بقليل منه فهو تبع للعرب فيه ، ولا ينكر اذا كان اللفظ قبلُ تعلما أو نطق به موضوعاً أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليل من لسان العرب ، كما ياتفق [1] القليل من ألسنة العجم المتباينة في اكثر كلامها ، مع تنائي ديارها واختلاف لسانها ، و بعد الاواصر [2] بينها و بين من وافقت بعض لسانه منها

فان قال قائل : ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره ؟ فالحجة فيه كتاب الله ، قال الله تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) فان قال قائل : فان الرسل قبل محمد صلى الله تعالى عليه

(١) قوله ياتفق هو مضارع بمعنى يتفق لكن لم تدغم فيه فاء الافتعال بل قلبت حرفا لينا من جنس الحركة قبلها وهى لغة أهل الحجاز يقولون : ايتفق ياتفق فهو موتفق ولغة غيرهم الادغام (٢) الاواصر جمع آصرة وهى الرحم والقرابة

فصل (*)

اذا ثبت هذا انتقلنا منه الى معنى آخر :

وهو أن المحرم ينقسم في الشرع الى ماهو صغير والى ما هو كبير ــ حسبما تبين في علم الاصول الدينية ــ فكذلك يقال في البدع المحرمة إنها تنقسم الى الصغيرة والكبيرة اعتبارا بتفاوت درجاتها ــ كما تقدم ــ وهذا على القول بان المعاصي تنقسم الى الصغيرة والكبيرة . ولقد اختلفوا في الفرق بينهما على أوجه ، وجميع ماقالوه لعله لا يوفي بذلك المقصود على الكمال . فلنترك التفريع عليه .

وأقرب وجه يلتمس لهذا المطلب ماتقرر في كتاب الموافقات ان الكبائر منحصرة في الاخلال بالضروريات المعتبرة في كل ملة ، وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال . وكل ما نص عليه راجع اليها ، وما لم ينص عليه جرى في الاعتبار والنظر مجراها ، وهو الذي يجمع اشتات ما ذكره العلماء وما لم يذكروه مما هو في معناه ؛

فكذلك نقول في كبائر البدع : ما أخل منها باصل من هذه الضروريات فهو كبيرة ، ومالا فهي صغيرة . وقد تقدمت لذلك أمثلة أول الباب . فكما انحصرت كبائر المعاصي أحسن انحصار ــ حسبما أشير اليه في ذلك الكتاب ــ كذاك تحصر كبائر البدع أيضاً ، وعند ذلك يعترض في المسئلة إشكال عظيم على أهل البدع يعسر التخلص عنه في اثبات الصغائر فيها . وذلك ان جميع البدع راجعة الى الاخلال بالدين

*) تابع لما نقل من كتاب الاعتصام للامام الشاطبي

وقال (وأنذر عشيرتك الاقربين) وقال (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى مكة وهي بلده وبلد قومه ، فجعلهم في كتابه خاصة وأدخلهم مع المنذرين عامة ، وقضى أن ينذروا بلسانهم العربي لسان قومه منهم خاصة . فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك . وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرا له ، كما عليه ان يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت وما أمر باتيانه ، ويتوجه لما وجه له ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب اليه لا متبوعاً

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى وانما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لانه لا يعلم من ايضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمها انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تنبيه العامة على ان القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين ، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، أو ادراك نافلة خير لا يدعها الا من سفه نفسه وترك موضع حظه ، فكان يجمع بين النصيحة لهم قياما بايضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله . وطاعة الله جامعة للخير

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : أخبرنا سفيان بن عيينة عن زياد بن علاقة قال سمعت جرير بن عبد الله يقول : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وأخبرنا سفيان بن عيينة عن سهيل ابن أبي صالح عن عطاء بن يزيد الليثي عن تميم الداري ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة — قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال — لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم » اه المراد منه

ما تفقدون من دينكم الامانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، ولتنقضن عرى الايمان عروة عروة ، وليصلين نساء وهن حيض - ثم قال - حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة تقول احداهما : ما بال الصلوات الخمس ؟ لقد ضل من كان قبلنا ، انما قال الله « أقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفا من الليل » لا تصلُنّ الا ثلاثا . وتقول أخرى : انا لنؤمن بالله ايمان الملائكة ، ما فينا كافر . حق على الله ان يحشرهما مع الدجال » وهذا الاثر - وان لم تلتزم عهدة صحته - مثال من أمثلة المسئلة .

فقد نبه على ان في آخر الزمان من يرى أن الصلوات المفروضة ثلاث لا خمس ، وبين ان من النساء من يصلين وهن حيض ، كانه يعني بسبب التعمق وطلب الاحتياط بالوساوس الخارج عن السنة . فهذه مرتبة دون الاولى

وحكى ابن حزم ان بعض الناس زعم ان الظهر خمس ركعات لا اربع ركعات ، ثم وقع في العتبية ، قال ابن القاسم : وسمعت مالكا يقول : أول من أحدث الاعتماد في الصلاة حتى لا يحرك رجليه رجل قد عرف وسمي الا أني لا أحب ان اذكره ، وقد كان مُساء (أي يساء الثناء عليه) قال - قد عيب ذلك عليه ، وهذا مكروه من الفعل . قالوا «ومساء» أي يساء الثناء عليه . قال ابن رشد : جائز عند مالك ان يروّح الرجل قدميه في الصلاة ، قاله في المدونة . وانما كره ان يقرنهما حتى لا يعتمد على احداها دون الاخرى ، لان ذلك ليس من حدود الصلاة ، اذ لم يأت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من السلف والصحابة المرضيين ، وهو من محدثات الامور . انتهى .

إما أصلا وإما فرعا، لأنها إنما أحدثت لتلحق بالمشروع زيادة فيه أو نقصانا منه أو تغييرا لقوافيه ، أو ما يرجع الى ذلك، وليس ذلك بمختص بالعبادات دون العادات ، ان قلنا بدخولها في العادات ، بل تعم الجميع

واذا كانت بكليتها اخلالا بالدين فهي اذا اخلال باول الضروريات وهو الدين ، وقد أثبت الحديث الصحيح ان كل بدعة ضلالة ، وقال في الفرق «كلها في النار الا واحدة» وهذا وعيد أيضاً للجميع على التفصيل.

هذا وان تفاوتت مراتبها في الاخلال بالدين فليس ذلك بمخرج لها عن أن تكون كبائر، كما ان القواعد الخمس اركان الدين وهي متفاوتة في الترتيب، فليس الإخلال بالشهادتين كالاخلال بالصلاة ، ولا الاخلال بالصلاة كالاخلال بالزكاة، ولا الاخلال بالزكاة كالاخلال برمضان، وكذلك سائرها مع الاخلال ، فكل منها كبيرة . فقد آل النظر الى ان كل بدعة كبيرة

ويجاب عنه بان هذا النظر يدل على ما ذكر ، ففي النظر مايدل من جهة أخرى على اثبات الصغيرة من أوجه :

(أحدها) أنا نقول : الاخلال بضرورة النفس كبيرة بلا إشكال ، ولكنها على مراتب ادناها لا يسمى كبيرة ، فالقتل كبيرة وقطع الاعضاء من غير اجهاز كبيرة دونها ، وقطع عضو واحد كبيرة دونها ، وهلم جرا الى ان تنتهي الى اللطمة ، ثم الى أقل خدش يتصور ، فلا يصح أن يقال في مثله كبيرة ، كما قال العلماء في السرقة : إنها كبيرة ، لأنها اخلال بضرورة المال . فإن كانت السرقة في لقمة أو تطفيف بحبة فقد عدّوه من الصغائر. وهذا في ضرورة الدين أيضاً .

فقد جاء في بعض الاحاديث عن حذيفة رضي الله عنه قال : «أول

(والثالث) ان المعاصي قد ثبت انقسامها الى الصغائر والكبائر، ولا شك ان البدع من جملة المعاصي – على مقتضى الادلة المتقدمة – ونوع من أنواعها، فاقتضى اطلاق التقسيم أن البدع تنقسم أيضاً، ولا يخصص وجوها (؟) بتعميم الدخول في الكبائر، لأن ذلك تخصيص من غير مخصص، ولو كان ذلك معتبرا لاستثنى مَن تقدم من العلماء القائلين بالتقسيم قسم البدع، فكانوا ينصون على ان المعاصي ما عدا البدع تنقسم الى الصغائر والكبائر، الا أنهم لم يلتفتوا الى الاستثناء وأطلقوا القول بالانقسام، فظهر أنه شامل لجميع أنواعها.

فان قيل: إن ذلك التفاوت لا دليلَ فيه على اثبات الصغيرة مطلقا، وانما يدل ذلك على أنها تتفاضل، فمنها ثقيل وأثقل، ومنها خفيف وأخف، والخفة هل تنتهي الى حد تعد البدعة فيه من قبيل اللمم؟ هذا فيه نظر، وقد ظهر معنى الكبيرة والصغيرة في المعاصي غير البدع؛

وأما في البدع فثبت لها أمران: احدهما انها مضادة للشارع ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه نصب المستدرك على الشريعة، لا نصب المكتفي بما حدّ له.

والثاني أن كل بدعة – وان قلّت – تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للاصل الصحيح؛ وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحقا بما هو مشروع، فيكون قادحا في المشروع. ولو فعل أحد مثل هذا فى نفس الشريعة عامداً لكفر، اذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير قلّ أو كثر كفر، فلا فرق بين ما قل منه وما كثر. فمن فعل مثل ذلك بتأويل فاسد أو برأي غالط رآه، أو ألحقه بالمشروع، اذا لم نكفره لم يكن فى

فمثل هذا ــ ان كان يعده فاعله من محاسن الصلاة وان لم يأت به أثر ــ فيقال في مثله : إنه من كبائر البدع . كما يقال ذلك في الركعة الخامسة في الظهر ونحوها ، بل انما يعد مثله من صغائر البدع ان سلمنا ان لفظ الكراهية فيه ما يراد به التنزيه ، وإذا ثبت ذلك في بعض الامثله في قاعدة الدين ، فمثله يتصور في سائر البدع المختلفة المراتب ، فالصغائر في البدع ثابتة كما أنها في المعاصي ثابتة .

(والثاني) ان البدع تنقسم الى ماهي كلية في الشريعة والى جزئيه ، ومعني ذلك ان يكون الخلل الواقع بسبب البدعة كليا في الشريعة ، كبدعة التحسين والتقبيح العقليين، وبدعة انكار الاخبار السنية اقتصارا على القرآن، وبدعة الخوارج في قولهم : لاحكم الا الله . وما أشبه ذلك من البدع التي لاتختص فرعا من فروع الشريعة دون فرع ، بل تجدها تنتظم مالا ينحصر من الفروع الجزئية ، أو يكون الخلل الواقع جزئيا انما يأتي في بعض الفروع دون بعض ، كبدعة التثويب بالصلاة ــ الذي قال فيه مالك : التثويب ضلال . ــ وبدعة الاذان والاقامة في العيدين ، وبدعة الاعتماد في الصلاة على احدى الرجلين، وما اشبه ذلك . فهذا القسم لاتتعدي فيه البدعة محلها ، ولا تنتظم تحتها غيرها حتى تكون اصلا لها .

فالقسم الاول اذا عدّ من الكبائر اتضح مغزاه وأمكن ان يكون منحصرا داخلا تحت عموم الثنتين والسبعين فرقة ، ويكون الوعيد الآتي في الكتاب والسنة مخصوصا به لا عامافيه وفي غيره ، ويكون ماعدا ذلك من قبيل اللمم المرجوّ فيه العفو ، الذي لا ينحصر الى ذلك العدد ، فلا قطع على أن جميعهامن قبيل واحد ، وقد ظهر وجه انقسامها .

قولا مطلقاً ، الا أنها وان عظمت لما ذكرناه ، فاذا نسب بعضها الى بعض تفاوتت رتبها . ثم ذكر معنى ما تقدم ؛ ولم يوافقه غيره على ما قال ، وان كان له وجه في النظر وقعت الاشارة اليه في كتاب الموافقات . ولكن الظاهر يأبى ذلك ـ حسبما ذكره غيره من العلماء ـ . والظواهر في البدع لا تأبى كلام الامام اذا نزل عليها ـ حسبما تقدم ـ فصار اعتقاد الصغائر فيها يكاد يكون من المتشابهات ، كما صار اعتقاد نفي الكراهية التنزيه عنها من الواضحات .

فليتأمل هذا الموضع أشد التأمل ويعط من الانصاف حقه ، ولا ينظر الى خفة الأمر في البدعة بالنسبة الى صورتها وان دقت ، بل ينظر الى مصادمتها للشريعة ورميها لها بالنقص والاستدراك ، وأنها لم تكمل بعد حتى يوضع فيها ، بخلاف سائر المعاصي فانها لا تعود على الشريعة بتنقيص ولا غض من جانبها ، بل صاحب المعصية متنصل منها مقر لله بمخالفته لحكمها .

وحاصل المعصية أنها مخالفة في فعل المكلف لما يعتقد صحته من الشريعة ؛ والبدعة حاصلها مخالفة في اعتقاد كمال الشريعة ، ولذلك قال مالك بن أنس : من احدث في هذه الامة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لان الله يقول « اليوم أكملت لكم دينكم » الى آخر الحكاية . وقد تقدمت .

ومثلها جوابه لمن اراد أن يُحرِم من المدينة وقال : أي فتنة فيها ؟ إنما هي أميال أزيدها . فقال : وأي فتنة أعظم من أن تظن أنك فعلت فعلا قصر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الى آخر الحكاية ، وقد تقدمت

حكمه فرق بين ما قل منه وما كثر ، لان الجميع جناية لا تحملها الشريعة بقليل ولا بكثير .

ويعضد هذا النظر عموم الادلة في ذم البدع من غير استثناء ، فالفرق بين بدعة جزئية وبدعة كلية ، وقد حصل الجواب عن السؤال الاول والثاني .

وأما الثالث فلا حجة فيه لان قوله عليه السلام « كل بدعة ضلالة » وما تقدم من كلام السلف يدل على عموم الذم فيها .وظهر أنها مع المعاصي لا تنقسم ذلك الانقسام ، بل إنما ينقسم ما سواها من المعاصي . واعتبر بما تقدم ذكره في الباب الثاني يتبين لك عدم الفرق فيها . وأقرب منها عبارة تناسب هذا التقرير أن يقال : كل بدعة كبيرة عظيمة بالاضافة الى مجاوزة حدود الله بالتشريع، الا أنها وان عظمت لما ذكرناه ، فاذا نسب بعضها الى بعض تفاوتت رتبتها فيكون منها صغار وكبار ، أما باعتبار ان بعضها أشد عقابا من بعض ، فالاشد عقابا اكبر مما دونه ، واما باعتبار فوت المطلوب في المفسدة ، فكما انقسمت الطاعة باتباع السنة الى الفاضل والأفضل ، لانقسام مصالحها الى الكامل والاكمل ، انقسمت البدع لانقسام مفاسدها الى الرذل والارذل ، والصغر والكبر، من باب النسب والاضافات ، فقد يكون الشيء كبيرا في نفسه لكنه صغير بالنسبة الى ما هو أكبر منه .

وهذه العبارة قد سبق اليها امام الحرمين لكن في انقسام المعاصي الى الكبائر والصغائر فقال : المرضي عندنا أن كل ذنب كبيرة وعظيم بالاضافة الى مخالفة الله، ولذلك يقال : معصية الله أكبر من معصية العباد -

وسلم . فلما قيل له : إنك تكذب عليه. وقد قال « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قال : لم أكذب عليه وإنما كذبت له. أو نقص منها تأويلا عليها لقوله تعالى فى ذم الكفار (إن يتبعون الا الظن ! وإن الظن لايغني من الحق شيئا) فاسقط اعتبار الاحاديث المنقولة بالآحاد لذلك ولما أشبه،لان خبر الواحد ظني ؛ فهذا كله من قبيل التأويل.

وأما المقلد فكذلك أيضاً لانه يقول : فلان المقتدى به يعمل بهذا العمل ويثني (؛) كاتخاذ الغناء جزءا من أجزاء طريقة التصوف بناء منهم على أن شيوخ التصوف قد سمعوه وتواجدوا عليه ، ومنهم من مات بسببه ، وكتمزيق الثياب عند التواجد بالرقص وسواه لانهم قد فعلوه ، وأكثر مايقع مثل هذا في هؤلاء المنتمين الى التصوف ،

وربما احتجوا على بدعهم بالجنيد والبسطامي والشبلي وغيرهم فيما صح عندهم أو لم يصح، ويتركون أن يحتجوا بسنة الله ورسوله وهي التي لا شائبة فيها اذا نقلها العدول وفسرها أهلها المكبون على فهمها وتعلمها . ولكنهم مع ذلك لا يقرون بالخلاف للسنة بحتا ، بل يدخلون تحت اذيال التأويل، اذ لا يرضي منتم الى الاسلام بابداء صفحة الخلاف للسنة اصلا .

واذا كان كذلك فقول مالك : من أحدث فى هذه الامة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم خان الرسالة . وقوله لمن اراد ان يحرم من المدينه : أي فتنة أعظم من أن تظن أنك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ الى آخر الحكاية ـ انها الزام للخصم على عادة أهل النظر،كانه يقول : يلزمك في هذا القول كذا.

أيضاً . فاذاً يصح أن يكون في البدع ما هو صغيرة .

فالجواب أن ذلك يصح بطريقة يظهر ان شاء الله أنها تحقيق في تشقيق هذه المسئلة ؛

وذلك أن صاحب البدعة يتصور أن يكون عالما بكونها بدعة وأن يكون غير عالم بذلك . وغير العالم بكونها بدعة على ضربين ، وهما المجتهد في استنباطها وتشريعها و المقلد له فيها . وعلى كل تقدير فالتأويل يصاحبه فيها ولا يفارقه اذا حكمنا له بحكم أهل الاسلام ، لانه مصادم للشارع مراغم للشرع بالزيادة فيه أو النقصان منه أو التحريف له ؛ فلا بد له من تأويل كقوله «هي بدعة ولكنها مستحسنة» أو يقول « إنها بدعة ولكني رأيت فلانا الفاضل يعمل بها » أو يقربها ولكنه يفعلها لحظ عاجل ، كفاعل الذنب لقضاء حظه العاجل خوفا على حظه ، أو فرارا من خوف على حظه ، أو فراراً من الاعتراض عليه في اتباع السنة ، كما هو الشأن اليوم في كثير ممن يشار اليه ، وما أشبه ذلك .

وأما غير العالم وهو الواضع لها ، فانه لا يمكن ان يعتقدها بدعة ، بل هي عنده مما يلحق بالمشروعات ، كقول من جعل يوم الاثنين يصام لأنه يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل الثاني عشر من ربيع الاول ملحقا بايام الاعياد لانه عليه السلام ولد فيه ، وكمن عدّ السماع والغناء مما يتقرب به الى الله بناء على أنه يجلب الاحوال السنية ، أو رغب في الدعاء بهيئة الاجتماع في ادبار الصلوات دائما بناء على ما جاء في ذلك حالة الوحدة ، أو زاد في الشريعة احاديث مكذوبة لينصر في زعمه سنة محمد صلى الله عليه

وصفان ـ كونها جزئية وكونها بالتأويل ـ صح أن تكون صغيرة ، والله أعلم.

ومثاله مسئلة من نذر أن يصوم قائما لا يجلس ، وضاحيا لا يستظل ، ومن حرم على نفسه شيئا مما أحل الله من النوم أو لذيذ الطعام ، أو النساء أو الاكل بالنهار ، وما أشبه ذلك مما تقدم ذكره أو يأتي ؛ غير ان الكلية والجزئية قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية ، كما أن التأويل قد يقرب مأخذه وقد يبعد ؛ فيقع الاشكال في كثير من أمثلة هذا الفصل ، فيعد كبيرة ما هو من الصغائر وبالعكس ، فيوكل النظر فيه الى الاجتهاد اه

فصل

واذا قلنا : إن من البدع ما يكون صغيرة . فذلك بشروط (أحدها) أن لا يداوم عليها ؛ فان الصغيرة من المعاصي لمن داوم عليها تكبر بالنسبة اليه ، لان ذلك ناشئ عن الاصرار عليها ، والاصرار على الصغيرة يصيرها كبيرة ، ولذلك قالوا : لا صغيرة مع اصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكذلك البدعة من غير فرق ؛ الا أن المعاصي من شأنها في الواقع أنها قد يصر عليها ، وقد لا يصر عليها ، وعلى ذلك ينبني طرح الشهادة وسخطة الشاهد بها أو عدمه ، بخلاف البدعة فان شأنها في الواقع المداومة والحرص على أن لا تزال من موضعها ، وأن تقوم على تاركها القيامة ، وتنطلق عليه ألسنة الملامة ، ويرمى بالتسفيه والتجهيل ، وينبز بالتبديع والتضليل ، ضد ما كان عليه سلف هذه الامة ، والمقتدى بهم من الائمة ؛ والدليل على ذلك الاعتبار والنقل ، فان أهل البدع كان من شأنهم القيام بالنكير على أهل السنة إن كان لهم عصبة ، أو لصقوا بسلطان تجري أحكامه في

لا أنه يقول قصدت اليه قصدا ، لانه لا يقصد الى ذلك مسلم ، ولازم المذهب : هل هو مذهب أم لا ؟ هي مسئلة مختلف فيها بين أهل الاصول ، والذي كان يقول به شيوخنا البجائيون والمغربيون ويرون أنه رأي المحققين أيضاً : ان لازم المذهب ليس بمذهب ، فلذلك اذا قرر على الخصم أنكره غاية الانكار،[1] فاذا اعتبار ذلك المعنى على التحقيق لا ينهض، وعند ذلك تستوي البدعة مع المعصية صغائر وكبائر ، فكذلك البدع .

ثم أن البدع على ضربين : كلية وجزئية ، فأما الكلية فهي السارية فيما لا ينحصر من فروع الشريعة ، ومثالها بدع الفرق الثلاث والسبعين فانها مختصة بالكليات منها دون الجزئيات ، حسبما يتعين[2] بعد ان شاء الله .

وأما الجزئية فهي الواقعة في الفروع الجزئية ، ولا يتحقق دخول هذا الضرب من البدع تحت الوعيد بالنار ، وإن دخلت تحت الوصف بالضلال ، كما لا يحتقق ذلك في سرقة لقمة أو التطفيف بحبة ، وان كان داخلا تحت وصف السرقة، بل المتحقق دخول عظائمها وكلياتها كالنصاب في السرقة ، فلا تكون تلك الادلة واضحة الشمول لها ، ألا ترى أن خواص البدع غير ظاهرة في أهل البدع الجزئية غالبا ؟ كالفرقة والخروج عن الجماعة ، وإنما تقع الجزئيات في الغالب كالزلة والفلتة ، ولذلك لا يكون اتباع الهوى فيها مع حصول التأويل في فرد من افراد الفروع، ولا المفسدة الحاصلة بالجزئية كالمفسدة الحاصلة بالكلية ، فعلى هذا اذا اجتمع في البدعة

(١) ما كل لازم للمذهب ينكره صاحبه لو عرض عليه ولذلك جعل بعضهم الانكار شرطا لكون لازم المذهب ليس بمذهب وهذا التفصيل هو التحقيق
(٢) لعله يتبين

المجتمعات ممن يقتدى به أو ممن به [1] الظن فذلك من أضر الاشياء على سنة الاسلام ، فانها لاتعدو أمرين : اما ان يقتدى بصاحبها فيها ، فان العوام اتباع كل ناعق ، لاسيما البدع التي وكل الشيطان بتحسينها للناس ، والتي للنفوس في تحسينها هوى ، واذا اقتدي بصاحب البدعة الصغيرة كبرت بالنسبة اليه ، لان كل من دعا الى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، فعلى حسب كثرة الأتباع يعظم عليه الوزر ؛

وهذا بعينه موجود في صغائر المعاصي ؛ فان العالم مثلا اذا أظهر المعصية — وان صغرت — سهل على الناس ارتكابها ، فان الجاهل يقول : لو كان هذا الفعل كما قال من أنه ذنب لم يرتكبه ، وانما ارتكبه لأمر علمه دوننا. فكذلك البدعة اذا أظهرها العالم المقتدى فيها لامحالة ،فانها في مظنة التقرب فى ظن الجاهل ، لان العالم يفعلها على ذلك الوجه ، بل البدعة أشد فى هذا المعنى ، اذ الذنب قد لا يتبع عليه، بخلاف البدعة فلا يتحاشى أحد عن اتباعه الا من كان عالما بانها بدعة مذمومة ، فحينئذ يصير فى درجة الذنب ، فاذا كانت كذلك صارت كبيرة بلا شك ، فان كان داعيا اليها فهو أشد ، وان كان الاظهار باعثا على اتباع، فبالدعاء يصير ادعى اليه .

وقد روي عن الحسن أن رجلا من بني اسرائيل ابتدع بدعة فدعا الناس اليها فاتبع ، وأنه لما عرف ذنبه عمد الى ترقوته فنقبها فادخل فيها حلقة ثم جعل فيها سلسلة ثم أوثقها فى شجرة فجعل يبكي ويعج الى ربه، فاوحى الله الى نبي تلك الامة ان لا توبة له قد غفر له الذي أصاب . فكيف بمن ضل فصار من أهل النار ؟ .

(١) لعل الاصل « بمن يحسن به الظن »

الناس وتنفذ أوامره في الاقطار . ومن طالع سير المتقدمين وجد من ذلك ما لا يخفى .

وأما النقل فما ذكره السلف من أن البدعة اذا أحدثت لا تزيد الا مضيا ، وليست كذلك المعادي ، فقد يتوب صاحبها وينيب الى الله ؛ بل قد جاء مايشد ذلك في حديث الفرق ، حيث جاء في بعض الروايات « تتجارى بهم تلك الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه » ومن هنا جزم السلف بان المبتدع لا توبة له منها — حسبما تقدم — .

(والشرط الثاني) أن لا يدعو اليها ، فان البدعة قد تكون صغيرة بالاضافة ، ثم يدعو مبتدعها الى القول بها والعمل على مقتضاها فيكون إثم ذلك كله عليه ، فانه الذي أثارها ، وسبب كثرة وقوعها والعمل بها ، فان الحديث الصحيح قد أثبت ان كل من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا ؛ والصغيرة مع الكبيرة انما تفاوتها بحسب كثرة الاثم وقلته ، فربما تساوي الصغيرة من هذا الوجه الكبيرة أو تربي عليها ؛

فمن حق المبتدع اذا ابتلي بالبدعة ان يقتصر على نفسه ،ولا يحمل مع وزره وزر غيره ، وفي هذا الوجه قد يتعذر الخروج ،فان المعصية فيما بين العبد وربه يرجو فيها من التوبة والغفران مايتعذر عليه مع الدعاء اليها، وقد مر في باب ذم البدع . وباقي الكلام في المسئلة سيأتي ان شاء الله .

(والشرط الثالث) ان لا تفعل في المواضع التي هي مجتمعات الناس ، أو المواضع التي تقام فيها السنن، وتظهر فيها اعلام الشريعة. فاما اظهارها في

يعرف الناس طلوع الفجر فيقوموا . فقال له مالك : لا تفعل ، لا تحدث في بلدنا شيئا لم يكن فيه ، قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد عشر سنين وأبو بكر وعمر وعثمان فلم يفعلوا هذا ، فلا تحدث في بلدنا مالم يكن فيه ، فكف المؤذن عن ذلك واقام زمانا ، ثم انه تنحنح في المنارة عند طلوع الفجر ، فارسل اليه مالك فقال له : ما الذي تفعل ؟ قال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر . فقال له : ألم انهك ان لا تحدث عندنا مالم يكن ؟ فقال : انما نهيتني عن التثويب . فقال له لا تفعل . فكف زمانا . ثم جعل يضرب الابواب ، فارسل اليه مالك فقال : ماهذا الذي تفعل ؟ فقال : أردت ان يعرف الناس طلوع الفجر . فقال له مالك : لا تفعل ، لا تحدث فى بلدنا ما لم يكن فيه .

قال ابن وضاح : وكان مالك يكره التثويب — قال — وإنما احدث هذا بالعراق . قيل لابن وضاح : فهل كان يعمل به بمكة أو المدينة أو مصر أو غيرها من الامصار ؟ فقال : ماسمعت الا عند بعض الكوفيين والاباضيين .

فتأمل كيف منع مالك من احداث أمر يخف شأنه عند الناظر فيه ببادي الرأي وجعله أمرا محدثا ، وقد قال في التثويب : إنه ضلال . وهو بين ، لأن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، ولم يسامح المؤذن في التنحنح ولا في ضرب الابواب ، لأن ذلك جدير بان يتخذ سنة ، كما منع من وضع رداء عبد الرحمن ابن مهدي خوف أن يكون حدثا احدثه .

وقد أحدث بالمغرب المتسمي بالمهدي تثويبا عند طلوع الفجر وهو قولهم « أصبح ولله الحمد » اشعارا بان الفجر قد طلع ، لإلزام الطاعة ،

وأما اتخاذها في المواضع التي تقام فيها السنن فهو كالدعاء اليها بالتصريح ،لأن عمل اظهار الشرائع الاسلامية[(١)] توهم ان كل ما أظهر فيها فهو من الشعائر ، فكأن المظهر لها يقول : هذه سنة فاتبعوها .

قال أبو مصعب: قدم علينا ابن مهدي فصلى ووضع رداءه بين يدي الصف ، فلما سلم الامام رمقه الناس بابصارهم ورمقوا مالكا — وكان قد صلى خلف الامام — فلما سلم قال : من هاهنا من الحرس ؟ فجاءه نفسان. فقال : خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه . فحبس ، فقيل له : انه ابن مهدي ، فوجه اليه وقال له : ما خفت الله واتقيته ان وضعت ثوبك بين يديك في الصف ، وشغلت المصلين بالنظر اليه ، وأحدثت في مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من احدث في مسجدنا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» فبكى ابن مهدي وآلى على نفسه ان لايفعل ذلك ابدا في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في غيره . وفي رواية عن ابن مهدي قال: فقلت للحرسيين : تذهبان بي الى أبي عبد الله؟ قالا ان شئت، فذهبنا اليه . فقال : يا عبد الرحمن ! تصلي مستلبا ؟ فقلت يا أبا عبد الله إنه كان يوما حارا — كما رأيت — فثقل ردائي عليّ . فقال : الله ما أردت بذلك الطعن على من مضى والخلاف عليه ، قلت : الله[(٢)] . قال خلياه .

وحكى ابن وضاح قال ثوّب المؤذن بالمدينة في زمان مالك ، فارسل اليه مالك فجاءه ، فقال له مالك : ما هذا الذي تفعل ؟ فقال : أردت أن

(١) هذا قسم حذفت أداته . لقنه القسم فحلف على ما لقنه فكأنه قال له : قل والله ما أردت بهذا الطعن الخ فقال : والله . أي ما اردت ذلك (٢) كذا ولعل فيها تحريفا وسقطا والمراد ظاهر من القرينة

وزر ذلك عائداً على الفاعل أولا ، فيكثر وزره ويعظم خطر بدعته .

(والشرط الرابع) ان لا يستصغرها ولا يستحقرها — وان فرضناها صغيرة — فان ذلك استهانة بها ، والاستهانة بالذنب أعظم من الذنب؛ فكان ذلك سببا لعظم ما هو صغير . وذلك ان الذنب له نظران :— (نظر) من جهة رتبته في الشرط ، ونظر من جهة مخالفة الرب العظيم به ؛ فاما النظر الاول فمن ذلك الوجه يعد صغيرا اذا فهمنا من الشرع انه صغير، لانا نضعه حيث وضعه الشرع ؛ وأما الآخر فهو راجع الى اعتقادنا في العمل به حيث نستحرم جهة الرب سبحانه بالمخالفة ، والذي كان يجب في حقنا ان نستعظم ذلك جدا ، اذ لا فرق في التحقيق بين المواجهتين — المواجهة بالكبيرة والمواجهة بالصغيرة .

والمعصية من حيث هي معصية لا يفارقها النظران في الواقع أصلا ، لأن تصورها موقوف عليهما ، فالاستعظام لوقوعها مع كونها يعتقد فيها انها صغيرة لا يتنافيان ، لانهما اعتباران من جهتين : فالعاصي وان تعمد المعصية لم يقصد بتعمده الاستهانة بالجانب العليّ الرباني ، وانما قصد اتباع شهوته مثلا فيما جعله الشارع صغيرا أو كبيرا ، فيقع الاثم على حسبه ، كما ان البدعة لم يقصد بها صاحبها منازعة الشارع ولا التهاون بالشرع ، وانما قصد الجري على مقتضاه ، لكن بتأويل زاده ورجحه على غيره ، بخلاف ما اذا تهاون بصغرها في الشرع ، فانه انما تهاون بمخالفة الملك الحق، لان النهي حاصل ومخالفته حاصلة ، والتهاون بها عظيم ، ولذلك يقال : لا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى عظمة من واجهته بها .

ولحضور الجماعة ، وللغدو لكل ما يؤمرون به. فيخصه هؤلاء المتأخرون تثويبا بالصلاة كالأذان . ونقل أيضاً الى أهل المغرب الحزب المحدث بالاسكندرية ، وهو المعتاد فى جوامع الاندلس وغيرها ، فصار ذلك كله سنة في المساجد الى الآن ، فانا لله وانا اليه راجعون .

وقد فسر التثويب الذي اشار اليه مالك بان المؤذن كان اذا اذن فابطأ الناس قال بين الأذان والاقامة : قد قامت الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح . وهذا نظير قولهم عندنا : الصلاة — رحمكم الله.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل مسجدا اراد ان يصلي فيه، فثوّب المؤذن، فخرج عبد الله بن عمر من المسجد ،وقال: اخرج بنا [1] من عند هذا المبتدع . ولم يصل فيه . قال ابن رشد : وهذا نحو مما كان يفعل عندنا بجامع قرطبة من ان يفرد المؤذن بعد اذانه قبل الفجر النداء عند الفجر بقوله : حي على الصلاة . ثم ترك — قال — وقيل : انما عنى بذلك قول المؤذن في اذانه : حي على خير العمل . لانها كلمة زادها في الاذان من خالف السنة من الشيعة . ووقع في المجموعة ان من سمع التثويب وهو في المسجد خرج عنه كفعل ابن عمر رضي الله عنهما .

وفى المسئلة كلام المقصود منه التثويب المكروه الذي قال فيه مالك إنه ضلال . والكلام يدل على التشديد في الامور المحدثة ان تكون فى مواضع الجماعة أو في المواطن التي تقام فيها السنن ، والمحافظة على المشروعات أشد المحافظة ، لانها اذا اقيمت هنالك اخذها الناس وعملوا بها ، فكان

(١) يظهر انه كان معه صاحب قال له ذلك . وهل كان في كلام المصنف تصريح بذلك سقط من الناسخين ام لا ؟ الله اعلم

ترجمة الامام الشاطبي

من كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج [1]

هو ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ابو اسحاق الشهير بالشاطبي. الامام العلامة ، المحقق القدوة ، الحافظ الجليل المجتهد ، كان أصوليًّا مفسرا ، فقيها محدثا ، لغويا بيانيّـا ، نظارا ثَبْتاً ، ورعا صالحا ، زاهدا سنيّـا ، اماما مطلقـا ، بحاثا مدققا ، جدليا بارعا في العلوم ، من افراد العلماء المحققين الاثبات ، وا كابر الأئمة المتفننين الثقات ، له القدم الراسخ والامامة العظمى في الفنون ـ فقها وأصولا ، وتفسيرا وحديثا ، وعربية وغيرها ـ مع التحرّي والتحقيق ، له استنباطات جليلة ، ودقائق منيفة ، وفوائد لطيفة ، وابحاث شريفة ، وقواعد محررة محققه ، على قدم راسخ من الصلاح والعفة والتحري والورع ، حريصا على اتباع السنة ، مجانبـا للبدع والشبهة . ساعيا في ذلك مع تثبت تام ، منحرفا عن كل ما ينحو للبدع واهلها ، وقع له في ذلك امور مع جماعة من شيوخه وغيرهم في مسائل .

وله تآليف جليلة ، مشتملة على ابحاث نفيسة ، وانتقادات وتحقيقات شريفة .

قال الامام الحفيد ابن مرزوق في حقه : انه الشيخ الاستاذ الفقيه الامام المحقق العلامة الصالح ، ابو اسحاق . انتهى ، وناهيك بهذه التحلية من مثل هذا الامام ، وانما يعرف الفضل لأهله اهله .

اخذ العربية وغيرها عن أئمة ، منهم الامام المفتوح عليه في فنها ما لا مطمع فيه لسواه ، بحثا ، وحفظا ، وتوجيها ، ابن الفخار الألبيري . لازمه الى ان مات ، والامام الشريف رئيس العلوم اللسانية ، ابو القاسم السّبتي ، شارح مقصورة حازم . والامام المحقق اعلم اهل وقته ، الشريف ابو عبد الله التلمساني ، والامام علامة وقته باجماع ، ابو عبد الله المقري ، وقطب الدائرة ، شيخ الجلة ، الامير الشهير ، ابو سعيد ابن لبّ ، والامام الجليل ، الرحلة الخطيب ، ابن مرزوق الجد ، والعلامة المحقق

(١) تأليف أحمد بن أحمد بن عمر اقيت المعروف ببابا التكروري ثم التنبكي المولود سنة ٩٦٣ والمتوفى سنة ١٠٣٢

وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع «أي يوم هذا ؟ — قالوا : يوم الحج الاكبر . قال — فان دماءكم واموالكم واعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، لا يجني جان الا على نفسه ، ألا لا يجني جان على ولده ولا مولود على والده ، ألا وان الشيطان قد يئس ألاّ يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولا تكون له طاعة فيما يحتقرون من أعمالكم فسيرضى به »[1] فقوله عليه السلام « فسيرضى به » دليل على عظم الخطب فيما يستحقر .

وهذا الشرط مما اعتبره الغزالي في هذا المقام ، فانه ذكر في الاحياء ان مما تعظم به الصغيرة ان يستصغرها — قال — فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله . ثم بين ذلك وبسطه .

فاذا تحصلت هذه الشروط ، فاذ ذاك يرجى ان تكون صغيرتها صغيرة ، فان تخلف بشرط منها أو اكثر صارت كبيرة ، أو خيف ان تصير كبيرة ، كما ان المعاصي كذلك ، والله أعلم .

*

(١) كذا في نسخة الكتاب . ولا أذكر لاحد روايته بهذا اللفظ . وفي حديث عمرو بن الاحوص عند اصحاب السنن ماعدا ابا داود « ألا ان الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى بها »

بليت يا قوم والبلوى منوّعة　　بمن اداريه حتى كاد يرديني
دفعَ المضرة لا جلبا لمصلحة　　فحسبي الله في عقلي وفي ديني

انشدهما تلميذه الامام ابو يحيى بن عاصم له مشافهة .

اخذ عنه جماعة من الأئمة كالامامين العلامتين ، ابي يحيى بن عاصم الشهير ، واخيه القاضي المؤلف ابي بكر بن عاصم . والشيخ ابي عبد الله البياني ، وغيرهم . وتوفي يوم الثلاثاء ثامن شعبان سنة تسعين وسبعمائة ولم اقف على مولده رحمه الله .

(فائدة) وكان صاحب الترجمة ممن يرى جواز ضرب الخراج على الناس ، عند ضعفهم وحاجتهم . لضعف بيت المال عن القيام بمصالح الناس ، كما وقع للشيخ المالقي في كتاب الورع . قال: توظيف الخراج على المسلمين من المصالح المرسلة ، ولا شك عندنا في جوازه . وظهور مصلحته في بلاد الاندلس في زماننا الآن . لكثرة الحاجة لما يأخذه العدوّ من المسلمين ، سوى ما يحتاج اليه الناس . وضعف بيت المال الآن عنه ، فهذا يقطع بجوازه الآن في الأندلس . وانما النظر في القدر المحتاج اليه من ذلك . وذلك موكول الى الامام ، ثم قال اثناء كلامه : ولعلك تقول كما قال القائل لمن اجاز شرب العصير بعد كثرة طبخه وصار رُبًّا : احللتها والله يا عمر . يعني هذا القائل احللت الخمر بالاستجرار الى نقص الطبخ . حتى تحل الخمر بمقالك . فاني اقول – كما قال عمر رضي الله عنه : والله لا احل شيئا حرمه الله ، ولا احرّم شيئا احله . وان الحق احق ان يتبع . (ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه)

وكان خراج بناء السور في بعض مواضع الاندلس في زمانه موظفا على اهل الموضع . فسئل عنه امام الوقت في الفتيا بالاندلس الاستاذ الشهير ابو سعيد ابن لبّ . فأفتى انه لا يجوز ولا يسوغ ، وافتى صاحب الترجمة بسوغه ، مستندا فيه الى المصلحة المرسلة . معتمدا في ذلك الى قيام المصلحة ، التي ان لم يقم بها الناس فيعطونها من عندهم ضاعت . وقد تكلم على المسئلة الامام الغزالي في كتابه ، فاستوفى . ووقع لابن الفراء في ذلك مع سلطان وقته وفقهائه كلام مشهور ، لا نطيل به .

وكتب جوابا لبعض اصحابه في دفع الوسواس العارض في الطهارة وغيرها

المدرس الاصولي ، ابو علي منصور بن محمد الزواوي ، والعلامة المفسر المؤلف ابو عبد الله البلنسي ، والحاج العلامة الرحلة الخطيب ابو جعفر الشقوري . وممن اجتمع معه ، واستفاد منه ، العالم الحافظ الفقيه ، ابو العباس القبّاب ، والمفتي المحدث ابو عبد الله الحفار ، وغيرهم .

اجتهد وبرع ، وفاق الاكابر ، والتحق بكبار الأئمة في العلوم ، وبالغ في التحيقق ، وتكلم مع كثير من الأئمة في مشكلات المسائل من شيوخه وغيرهم ، كالقبّاب ، وقاضي الجماعة الفِشْتالي ، والامام ابن عرفة ، والولي الكبير ابي عبد الله بن عباد . وجرى له معهم ابحاث ومراجعات ، اجلت عن ظهوره فيها ، وقوة عارضته وامامته ، منها مسئلة مراعاة الخلاف في المذهب [1] فيها له بحث عظيم ، مع الامامين القباب وابن عرفة . وله ابحاث جليلة في التصوف وغيره . وبالجملة فقدره في العلوم فوق ما يذكر ، وتحليته في التحقيق فوق ما يشهر .

الّف تواليف نفيسة ، اشتملت على تحريرات للقواعد . وتحقيقات لمهات الفوائد . منها شرحه الجليل على الخلاصة في النحو . في اسفار أربعة كبار ، لم يؤلف عليها مثله بحثا وتحقيقا فيما اعلم . وكتاب (الموافقات) في أصول الفقه سماه « عنوان التعريف باصول التكليف » كتاب جليل القدر جدا لا نظير له ، يدل على امامته . وبعد شأوه في العلوم . سيما علم الاصول . قال الامام الحفيد بن مرزوق : كتاب الموافقات المذكور ، من انبل الكتب ، وهو في سفرين . وتأليف كبير نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الاجادة ، سماه (الاعتصام) وكتاب (المجالس) شرح فيه كتاب البيوع من صحيح البخاري . فيه من الفوائد والتحقيقات . مالا يعلمه الا الله . وكتاب (الافادات والانشادات) في (كراسين فيه طرف وتحف ، وملح ادبيات وانشادات . وله ايضا كتاب (عنوان الاتفاق ، في علم الاشتقاق) وكتاب (أصول النحو) ، وقد ذكرهما معا في شرح الألفية . ورأيت في موضع آخر انه اتلف الاول في حياته وان الثاني اتلف ايضا . وله غيرها . وفتاوي كثيرة

ومن شعره لما ابتلي بالبدع :

---

(١) اشار الى هذه المسألة في المقدمة الثالثة عشرة من كتاب الموافقات

الأصحاب ، لا تجوز مخالفته ، وذلك مشعر بالتساهل جدا ، ونص ذلك القول لا يوجد لاحد من العلماء فيما اعلم .

والعبارة الخشنة التي اشار اليها ، كان ينقلها عن صاحبه ابي العباس القبَّاب انه كان يقول في ابن بشير وابن شاس : افسدوا الفقه . وكان يقول : شأني عدم الاعتماد على التقاييد المتأخرة . اما للجهل بمؤلفيها او لتأخر ازمنتهم جدا ، فلذلك لا اعرف كثيرا منها ولا اقتنيته ، وعمدتي كتب الأقدمين المشاهير . ولنقتصر على هذا القدر من بعض فوائده .

الجنسيات في المملكة العثمانية

٢

بينا في المقالة الاولى من هذا البحث ان الحكومة العثمانية الاتحادية تركت فى طورها الاخير عقاب من يلهج بالعرب والعربية من اصحاب الجرائد العربية وغيرهم، وان العرب لم يغلوا في إحياء الجنسية العربية كما غلت الجمعيات والجرائد التركية ، التي جاهرت بالدعوة الى كل شيء في الدولة تركيا . بالقول والفعل ، وهجر اسم «العثمانية» ولم نسمع لاحد من كتاب الترك صوتا في انكارهذا الغلو والانتصار للجامعتين الاسلامية والعثمانية على التركية الا لعلي بك كمال ، فقد كتب في جريدة (بيام) ردا على أولئك الغلاة بين فيه ان الحياة التركية ، لا تقوم الا بالجامعة العثمانية السياسية ، وان المجاهرة بحصر كل شيء في الترك والتركية يبعث العرب والكرد وغيرهم من العناصر العثمانية الى مثل هذه الدعوة فلا يبقى للترك شيء . واشتدت المناظرة بينه وبين (اقچورا) وغيره من غلاة الجنسية التركية حتى انتهت الى السباب والشتم

وكان مما كتبه (اقچورا) في (تورك يوردي) بالاستانة في اوائل ربيع الآخر من هذا العام ما ترجمته بالاختصار والاجمال :

«يجب ان نعمد الى الحقائق فنقررها . ما العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية ؟ أليست العثمانية نسبة الى عثمان التركي ؟ ان الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه العناصر المتباينة مرتبطا بعضها ببعض وراء ستار وهمي ، وتحت اسم خلق بال !

« وصلني جوابكم فيما تدفعون به الوسواس، فهذا امر عظيم في نفسه ، وانفع شيء فيه المشافهة ، واقرب ما اجد الآن ، ان تنظروا من اخوانكم من تدلون عليه وترضون دينه، و يعمل بصلب الفقه ، ولا يكون فيه وسوسة ، فتجعلونه امامكم على شرط أن لا تخالفوه ، وان اعتقدتم ان الفقه عندكم بخلافه . فاذا فعلتموه رجوت لكم النفع . وان تواظبوا على قول « اللهم اجعل لي نفسا مطمئنة توقن بلقائك ، وتقتنع بعطائك، وترضى بقضائك ، وتخشاك حق خشيتك، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » فانه نافع للوسواس ، كما رأيته في بعض المنقولات .

وكان يقول : لا يحصل الوثوق والتحقيق بشأن الرواية في الأكيال المنقولة بالأسانيد . واختبرت ذلك فوجدت الأكيال مختلفة ، متباينة الاختلاف ، وهي ذوات روايات ، فالكيل الشرعي تقريبا منقول عن شيوخ المذهب ، يدركه كل احد، حفنة من البُر أو غيره بكلتا اليدين مجتمعين، من ذوي يدين متوسطتين، بين الصغري والكبرى ، فالصاع منها اربع حفنات . جربته فوجدته صحيحا . فهذا الذي ينبغي ان يعول عليه، لانه مبني على اصل التقريب الشرعي، والتدقيقات في الامور غير مطلوبة شرعا ، لانها تنطع وتكلف ، فهذا ما عندي .

ومن كلامه : اما من تعسف وطلب المحتملات ، والغلبة بالمشكلات ، واعرض عن الواضحات . فيخاف عليه التشبه بمن ذمه الله في قوله (فاما الذين في قلوبهم زيغ) الآية .

وكان لا يأخذ الفقه الا من كتب الاقدمين . ولا يرى لأحد ان ينظر في هذه الكتب المتأخرة ، كما قرره في مقدمة كتابه الموافقات وترد عليه الكتب في ذلك، من بعض اصحابه ، فيوقع له : واما ماذكرتم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة ، فليس ذلك مني محض رأي ، ولكن اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع المتأخرين كابن بشير ، وابن شاس ، وابن الحاجب ، ومن بعدهم ، ولان بعض من لقيته من العلماء بالفقه، اوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين ، واتى بعبارة خشنة ولكنها محض النصيحة ، والتساهل في النقل عن كل كتاب جاء لا يحتمله دين الله . ومثله ما اذا عمل الناس بقول ضعيف ، ونقل عن بعض

الجنسية اللبنانية

نعم ان بعض الجرائد والجمعيات اللبنانية ، قد غلت في الدعوة الى الانسلاخ من كل صفة عثمانية ، والاستقلال بجنسية لبنانية لا عربية . فلبنان يتمتع باستقلال داخلي لا يشاركه في مثله جبل من الجبال ، ولا سهل من السهول ، ولا ولاية ولا مملكة في الارض ، حتى قال الدكتور يعقوب صروف — وهو من يفتخر لبنان بسكانه من العلم والفلسفة ومعرفة شؤون العالم — : إن كل تغيير يطرأ على نظام لبنان يكون شرا ، اذ لا خير مما هو عليه . ولكن كثيرا من اللبنانيين لا ينظرون الى هذه النعمة بالعين التي ينظر بها هذا العالم الخبير ، فترى صراخ شكواهم قد ملأ فضاء امريكة الشمالية والجنوبية ومصر ، ونقلت الجرائد صداه الى كل قطر يوجد فيه لبنانيون أو سوريون . فمنهم من يدعو الى الاستقلال التام ، ومنهم من يدعو الى احتلال فرنسة للبلاد . ولهم عدة جمعيات سياسية يشترك فيها ألوف منهم في الوطن وفي ديار الهجرة من مصر الى أوربة وامريكة وغيرها من الممالك .

وقد قرأنا كثيرا من مقالاتهم وقصائدهم واناشيدهم الاستقلالية فرأيناهم يفخرون فيها بعراقة هذا الجبل في الاستقلال ، وامتناعه على الفاتحين من جميع الامم والاجيال ، أي فهم لا يطلبون الآن ، الا الاستقلال الذي كانوا متمتعين به في كل زمان . وقد حددوا لانفسهم علما وطوابع بريد ، ومنهم من يختار الاستقلال تحت حماية فرنسة والاستظلال بعلمها . وقد عرف أهل الخافقين ما كان من مبالغة أهل الجبل في الحفاوة بضباط الاسطول الفرنسي والمظاهرات الولائية لهم عند ما زاروا بطرك الموارنة و بعض البلاد منذ اشهر ، اذ كان الاسطول في مياه بيروت . ويلي ذلك ما كان لمسيو جورج بيكو قنصل فرنسة عند ما زار لبنان مصاحبا لمسيو مورسي بارس احد اعضاء مجلس النواب الفرنسي . وهذا النوع من الاحتفالات والمظاهرات قد تكرر ، وتكررت الوعود من فرنسة بإنالة الجبل ما يريد .

لسنا نريد الاستقصاء التاريخي في هذه المسائل فنفصل القول فيه ، ولا الانتقاد على الغلو والشذوذ الذي كان يتخلل ذلك مما لا يعهد له نظير للاجانب في مملكة من الممالك ، فنتتبع من ذلك ماقيل وما كتب ، وما انتقده بعض المسلمين في جرائد بيروت على ذلك ومارد به اللبنانيون على هؤلاء . وانما نريد أن نبين بالاجمال ان اللبنانيين منهم المعتدلون فيما ينقمون من الدولة وما يطلبون لبلادهم ، ومنهم الغلاة . وأن ذلك الكاتب العربي المدافع عن الجامعة العثمانية أو الجامعة الاسلامية ، المعادي للجنسيه العربية والموضعية (كاللبنانية) لم يكتب كلمة في انتقاد هؤلاء الغلاة من

« يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة (ليت شعري هل تدخل الشريعة الاسلامية في هذه الشرائع التي عناها ام هم في غنى عنها لان الله تعالى يقول « إنا انزلناه حكما عربيا » ؟)

« يجب ان نعلم اننا من أمة ظهر فيها قواد اعظم من نابليون . وعظماء اشهر من يوليوس قيصر ، وشعراء اكبر من هيغو . وان في استطاعتنا ان نفعل ما يفعله الجرمان والسكسونيون لحياة قومهم ، فلا ينبغي ان نظل مقيدين بالاوهام والخرافات الماضية . »

وقد انهزم علي كمال بك امام حملات الغلاة واضطر الى مجاراتهم . واننا لنرى اشد كتاب العرب لهجا بالعربية لا يعدون غلاة بالنسبة الى الكتاب المعتدلين من الترك بل يعدون مقصرين ، وان جماعة حزب اللامركزية لم يجعلوا مسألة الجنسية العربية من موضوع حزبهم ، الا اذا كانت المحافظة على اللغة العربية بين اهلها يعد دعوة الى الجنسية العربية ولهذا انكرنا على ذلك الكاتب العربي رميهم بالعصبة الجنسية التي ذمها ذما إسلاميا ، وجعلها هادمة للاسلام! كأن الاسلام الذي دخل فيه يموت بحياة لغته العربية ، ويحيا باللغة التركية !

استدللنا بتخصيص الحزب بهذا الذم و بسكوته عن غلاة العصبية التركية ، على انه لم يكتب ما كتب الا تزلفا ونفاقا ، وجعل اسم الدين الاسلامي شبكة لصيد المال والجاه. ولو أنكر على أولئك الغلاة والمعتدلين في العصبية الجنسية ، واتبع هواه باضافة اللامركزيين اليهم ، واشراكه معهم ، لما اعتقدنا فيه كل هذا الاعتقاد

سلكت الجماعات العربية كلها مسلك الاعتدال فيما تطلبه لامتها من الدولة وفيما تنصح به للامة ، الا ما عرض لجماعة البصرة ، فقد كان في بعض كلامها شيء من الشدة ، ثم كان زعيمها السيد طالب بك النقيب ساعد الحكومة وعضدها في عقد الوفاق بينها و بين الامير عبد العزيز بن سعود أمير نجد ، وفي غير ذلك مما عهدته اليه من خدمتها في تلك البلاد ، وقد تبرع هو ووجهاء البصرة للاسطول وغير الاسطول بمبالغ قلما رأت مثلها الدولة من بلد آخر . على انها لم تجبهم الى شيء مما طلبوه من الاصلاح . فكان ذلك دليلا على ان أشد العرب في ولايات الدولة شكيمة ، وأقواهم عصبية ، لا يني ولا يقصر في خدمتها ، اذا هي أظهرت الثقة به ، وعهدت اليه بعمل يعمله .

توحيد قوة المهاجرين ما بين القطبين وجعلهم قوة واحدة تسعى للاصلاح سعيا مجردا صادقا ، الى ان ينفلت المتخلفون من قيود الوظائف ، ويكشفوا عنهم غيوم السفاسف ، التي لا يزال حتى في المهجر اثر مجلوب (؟)

٣ - طلب امير اجنبي من دول أوربا الست الضامنة استقلال لبنان تكون غايته غايتنا ومصلحته مصلحتنا ، ولغتنا لغته ولغة اولاده ، فلا يكون دخيلا لا يشعر بشعورنا ، ولا يهمه وهو المرجع الاكبر في الجبل ان يتعلم لغة الناس فيه ليكون حكمه معقولا وقضاؤه مقبولا امير اجنبي يكون لنا ما كان مثله لرومانيا وبلغاريا واليونان وألبانيا ولا تعود تهمه « المدة » تنقضي وينقضي الاهتمام بعد الابتداء بها بايام - الشعب الخامل الغافل برضى بحاكمه وقاضيه دخيلا اعجميا لا يشعر معه ولا يفهم لغته ليقضي بالعدل ، ولا يهمه الا تناول المرتب وربما الرشوة (؟) مباشرة وبواسطة ، وتفريق الناس لاتخاذ الاحزاب منهم . وقد يكون وضيعا قبل ان يصير حاكما بلقب كبير ومرتب كبير وتغطرس كبير وعمل صغير .

٤ ارجاع لواء لبنان اليه فان لكل شعب على شيء من الاستقلال راية او علما او لواء الا لبنان الذي كان منذ بدء التاريخ على كثير من الاستقلال حتى وقوع حوادثه الاخيرة التي زعم انه نال بعدها حكما ذاتيا لا نرى له اثرا

٥ « تمديد لبنان بعد تقلصه » اي اعادة حدوده الاولى والطبيعية اليه ما بين نهري القاسمية والعاصي . ومعنى ذلك ان تكون حدوده كما كانت على عهد امرائه الاصلاء من القاسمية الى جبل الشيخ الى لبنان الشرقي الى حمص فالنهر الكبير وهي حدود تتناول بيروت وطرابلس وصيدا والسهول المحيطة به - اللبنانيون لا يطلبون التوسع بهذه المطالب بل اعادة الحدود التي انتزعها المنتزعون اليهم

٦ اعادة الجمارك والبريد والبرق الى لبنان لان الدولة « ضمنتها من لبنان ضمانا » ولكنها لم تتقيد بشروط الضمان ولم تدفع الى لبنان ماهو من حقوقه ولكل صاحب ملك حق باستعادة ملكه الذي لا يدفع الضامن ضمانه او المستأجر اجرته ، فضلا عن ان اللبنانيين لم يطلبوا المرافىء لتكون بغير جمارك ، ولا البريد ليظل عمال الاتراك عابثين ومتلاعبين به وبأقدس اسراره وغير حافلين بغير سرقة الحوالات المالية حتى من الكتب المضمونة وبمصادرة الصحافة الحرة لئلا يستفيق الشعب من غفلته

٧ جعل كل قدم تتكسر عليها امواج البحر المتوسط من شواطىء لبنان مرفأ له اذا شاء اللبنانيون عدم الاكتفاء بجونة والنبي يونس .

٨ اطلاق حرية الفكر والخطابة والكتابة وانشاء الجمعيات اذ لا يوجد في نظام لبنان ما يحول دون ذلك « لولا انتصاب التماثيل الشمعية المحركة بزنابرك (؟) المآرب .

أبناء وطنه ، وأين منهم مؤسسو حزب اللامركزية ، الذين لم يدخلوا حزبهم في باب مباحث المسألة الجنسية .

واننا نثبت ما قلناه عن اللبنانيين أولا بنشر ماجاء في جريدة الهدى التي تصدر في نيويورك من مطالب جمعية النهضة اللبنانية التي يرأسها مدير تلك الجريدة وهذا نصه :

من مبادئ النهضة اللبنانية ومنازعها

« لكل امرئ من دهره ما تعودا » وما تعودناه ان نصون الوعد فلا نخلفه، والعهد فلا نخفره ، وان نكث الناكثون ، وعبث العابثون، مستأثرين بايام، نرجو ان تنقضي على سلام ، فلا يلؤم فيها احد ، بما يجيئه من الفيش والفند .

أرسلنا في « الاغراض من سياحتنا » كلمة ، وترسل الآن في بعض مبادئ النهضة اللبنانية أخرى نحن دون احد من الناس المسئولون عنها .

كنا في رحلتنا نبشر بهذه المبادئ بلساننا ، ونحن الآن نبشر بها بقلمنا ، الى ان تعود الخطابة ، فتنوب عن الكتابة .

اللبنانيون مظلومون وظالمون مظلومون لان السلطة ضعيفة ضاغطة وجائرة، وظالمون لانهم وهم تحت الضغط والجور يتنابذون ويتطاحنون مؤثرين الخصوصيات على العموميات . فيجب على خدمتهم ـ ونحن منهم ـ التجرد في النصح لهم، والدعوة الى ما فيه صلاحهم ونجاحهم ، و وضع مبادئ يقوم عليها حزبهم السياسي الاكبر المدعو « النهضة اللبنانية » .

قد يقوم من اللبنانيين انفسهم من يناكر و يصادر ، و يناكس و يعاكس ، ولكن لبنانية المناوئين هؤلاء غير صحيحة ، لقيامها على التعصب والتحزب والنكاية والغواية. والحق ظافر ، والاخلاص ظاهر .

فمن مبادئ النهضة اللبنانية

١ جمع اللبنانيين بدين الوطنية الشامل الكامل الفاضل « وتمزيق الاناجيل الطائفية لبسلم انجيل المسيح » وما يقال عن الانجيل يقال عن القرآن والتلمود وكل كتاب مقدس عند اهله . إلا ان ذلك لا يعني الكفر ولا التعطيل ، فليعبد الناس إلههم في كنيستهم وكنيسهم وجامعهم وخلوتهم وتحت افياء الشجر وظلال الصخور اذا شاؤا وانما فليجتمعوا (؟) بدين الوطنية الواحد وهم المفلحون .

٢ استقلال المهاجرين « بنهضتهم اللبنانية » ما زال الاصلاح لا يتم الا عن طريق المهاجرة وعلى همم المهاجرين . الا ان هذا الاستقلال لا يعني الانفصال، بل

مما تدعو اليه الحاجة ويجب ان تكون اسماء الاعضاء و بيان الدخل والخرج في آخر هذا الكتاب مع قانون النهضة المعدل .

١٥ تعديل قانون النهضة اللبنانية عند التئام كل مؤتمر تعقده يكون مؤلفا من نواب كل فرع مستقل او مرتبط في مدينة متوسطة وموافقة للجميع وقبل انتهاء مدة المتصرف بسنة (؟؟)

١٦ من حق كل مشترك في النهضة اللبنانية التصويت لمرشحي المركز الرئيسي مباشرة لمن كان غير منضم الى فرع او بواسطة الفرع الذي يكون منه ويعلن الترشيح مقدما

١٧ للمرأة الحقوق الوطنية بالانضمام الى النهضة اللبنانية وبانشاء الفروع لها او بالانتخابات عموما (؟)

١٨ السعي مع المتمولين لانشاء الشركات على اختلافها لا تكون النهضة فيها الا منشطة (؟) وتكون كل شركة مستقلة بادارتها ونظامها — الشعب الذي لا يجد في الشركات لا يستطيع الاتحاد في غيرها و بكل اسف نقول انه لا يكون ارتقى كثيرا .

١٩ العدول عن التبرعات للمشاريع المدعوة في الوطن عمومية وهي خصوصية لم يتم منها حتى الآن مشروع واحد على ما نعلم بعد جمع عشرات ألوف الدولارات ولاسيما ان (؟) فضل المهاجرين غير معترف به واذا كان من اعتراف فبتفوق عليهم (؟) و بذكر واجب لا ندري مصدره قبل الاعتراف المخلص بالمساواة (؟) — المهاجرون ساعدوا كل مشروع وهمي فى الوطن منذ ثلاثة عقود من السنين ولم يساعدهم المتخلفون بشيء حتى في اصلاح البلاد فمن العدل ان يعدلوا عن الاستئثار الى الخدمة الوطنية المتساوية وامام المهاجرين واجبات كثيرة من الضروري القيام بها - يجب العدول عن التبرعات الى ان يتم المشروع الوطني على الاقل

٢٠ تكافل المهاجرين والمتخلفين في كل ما يعود على الوطن بالاصلاح والرقي

٢١ الاهتمام بالجندية اللبنانية اهتماما تنظر فيه النهضة

٢٢ بذل العناية التامة لانجاح قلم المهاجرة وصون اموال واعراض المهاجرين الجدد

٢٣ اذا كان المهاجرون مطالبين بالاموال الاميرية وسائر الضرائب فمن الواجب ان يكون لهم رأي في حكومتهم واعمالها وانتخاباتها .

٢٤ عضو مجلس الادارة « شيخ مشترع » او « سناتور » فمن العار على البلاد ان يكون غير متعلم ولا متهذب ان لم يكن متشرعا

والمفاسد في مجلس ادراة لبنان » ـ ان مجلس ادارة لبنان هو المجلس المشترع في الاصل ويجب ان يكون الاكفاء دون سواهم فيه لا ان يجاز القمار ، الذي هو على كل شعب متمدن عار ، لمجرد ان اعضاء مجلس الادارة مقمرون ... ـ ان حرية الصحافة ضرورية للبنان الا اذا رضي مجلس الادارة بان يكون خائنا متلاعبا خوفا من الانتقاد وعملا بالاستبداد ولكن كم يطول هذا الوقت ... ـ يجب ان يكون لبنان في الشرق مثل سويسرا في أوروبا فهل تحرك « التماثيل » لابقاء آثار وطنية لا آثار عار واقذار !!!

٩ اقامة مندوب في اوروبا يمثل اللبنانيين ويطالب بحقوقهم ولا يكون له اهتمام بغير مفاوضة الدول الضامنة استقلال لبنان ومفاوضة وزاراتها الخارجية بكل ما يحتاج اليه الجبل

١٠ اقامة «رقيب» على الحكومة اللبنانية في نفس لبنان يناصر الاكفاء المخلصين للوطن ويصادر الادنياء الخونة فيه وينشيء الفروع للنهضة في كل قضاء ومديرية وبلدة ويكون الحرب من ورائه يشد أزره وأزر كل مندوب أمين .

١١ ما زالت اكثرية المهاجرين من اللبنانيين فيجب (؟) ان يكون القناصل في كل مهجر من المهاجر من اللبنانيين او يستغنى عنهم وتفاوض قناصل الدول الضامنة في امر حماية اللبنانيين ومصالحهم .

١٢ انشاء مدارس عمومية في لبنان تعلم فيها لغة البلاد قبل سائر اللغات وتنصرف فيها الهمم الى تعليم الصناعة والتجارة والزراعة والتعدين وغير ذلك مما يحتاج اليه اللبنانيون ويجب ان يوضع للبنان تاريخ صادق وخريطة صحيحة لمدارسه العمومية. والهدى الذي يقترح هذا الاقتراح يقوم بنفقات الطبع فلا نظل نتعلم تواريخ الامم الغربية وحدودها ونجهل تاريخنا وحدود بلادنا

١٣ وضع قانون عام للنهضة اللبنانيـة لا يجوز لاي فرع منها الزيادة عليه او الحذف منه الا في الترتيبات المحلية التي لا علاقة لهـا بالمبادىء ويجب ان يكون المركز الرئيسي للولايات المتحدة وكندا والمكسيك وجزائر الهند الغربية وبعض الجمهوريات اللاتينية واحدا في نيويرك اما في سائر المهاجر فيجب ان يكون النظام واحدا باستقلال كل بلاد بنهضتها وفروعها بشرط التقيد « النظـام الواحد » والاشـتراك في العمل الواحد على حد ما هي الولايات من « مركز الاتحاد » او المقاطعات من العاصمة (؟؟)

١٤ اصدار كتاب كل عام من اقلام ادباء النهضة اللبنانية في كل بقعة من العالم تكون مواضيعه الاصلاح والتربية والسياسة والاجماع والتعليم بفروعه وغير ذلك

٤٠ يجب ترغيب الشبان في تعليم الصناعات والفنون استعدادا لخدمة الوطن بما يكونون تعلموه

٤١ يعتبر مفشي اسرار الجمعية « خائنا » ويطرد بعد المحاكمة

٤٢ لا يقبل عضو في النهضة كل (؟) من يكون منتظما في سلك جمعية في مبادئها ما يخالف مبادئ النهضة اللبنانية

٤٣ للجمعية شارة وكلمة تعارف وقوانين تعرف من النظام العمومي بعد طبعه

٤٤ تسعى النهضة اللبنانية لاحياء ذكر النوابغ في العلم والوطنية من رجال ونساء بطبع نتاج قرائحهم واقامة تماثيل للعظماء منهم

٤٥ من مساعي النهضة اللبنانية انشاء المتاحف الوطنية وصون كنوز الحفريات والعاديات وحفظ كل ما يهتم القوم الراقي (؟) بحفظه

٤٦ يجب ان يكون لنا « جمعية علماء » تبذل منتهى العناية باحياء اللغة والفنون الجميلة ومنها تتفرع فروع العلوم والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك

هذا اهم ما مر في خاطرنا من المبادئ والمنازع التي نقبل المسؤولية عليها دون احد من الناس ولنا في اكثر هذه البنود كلام نتبسط فيه ونرجو ان يكون عند صادقي الوطنية مقبولا

الا اننا لا ندعي بان ما جئنا به يجب ان يعتبر فصل الخطاب وانما اردنا ان نوقف الشعب على الاهم من مرامي هذا الحزب الاكبر المدعو نهضة لبنانية وهو حزب لم يظهر مثله حتى يومنا هذا في العالم العربي ولا انضوى تحت لواء اي جمعية عربية العدد المنضوي تحت لوائه

في كل مصر وقطر انصار لهذا الحزب لا نعلن اسماء جميعهم لحوائل سياسية ونؤكد للبنانيين اننا بعد سنة واحدة نصبح ٢٥ الفا في المهاجر وحدها فمن كان مؤمنا بكتاب اللبنانية الشريف فليحمل لواءه بالاخلاص خفاقا، وينشر تعاليمه بالوطنية نطاقا ، والفوز للمجاهدين اهـ

(المنار) نشرنا هذه المقالة بحروفها ووضعنا بجانب بعض المفردات والجمل علامة (؟) للاشارة الى ما فيها من خطأ أو ضعف لفظي او معنوي (ولولا ان استحسنا انشاء الكاتب لما أشرنا الى ذلك) . ويظهر منها ان هذه الجمعية سياسية علمية اقتصادية ادبية خيرية سرية جهرية. وفي هذه المواد المنشورة تعارض وتهافت، يعني بعضها بمملكة مستقلة ، كما يني بعضها على تابعية مبهمة . ولعل رئيس النهضة البارع يصححها ويرتبها بعد اعادة النظر فيها . ولا نسأله عن القوة التي يؤسس المهاجرون بها هذا الملك العظيم

٢٥ ترمي النهضة اللبنانية الى انشاء مدرسة داخلية في امريكا الشمالية لاحيا اللغة العربية و بهاء الوطنية ولتنشئة الصغار على المبادىء القويمة واهم ما ترمي اليه حمل مدارس الوطن على تعديل انظمتها فلا ينفق التلميذ ربع عمره قاتلا ويخرج بعد هذه الخسارة غافلا

٢٦ جعل لبنان مصيفا جميلا ونقيا بالآداب والاخلاق مثله بالمناظر والماء والهواء (؟)

٢٧ تحويل افكار المهاجرين عن اقامة الدور والقصور ـ الا ما كان ضروريا ـ الي انشاء المعامل والعناية بالزراعة والصناعة واستثارة دفائن كنوز لبنان

٢٨ تعليم الاقتصاد على انواعه وترويج المصنوعات والمستغلات الوطنية

٢٩ حؤول اعضاء النهضة اللبنانية دون الخلافات الطائفية والقوميــة والبلدية والفصل بين المختلفين منهم في محاكم النهضة الخصوصية الا اذا عز التوفيق

٣٠ انشاء جريدة رسمية مساهمة في كل بلاد فيهــا مركز رئيسي للنهضة وانشاء مجلة نسائية عند الحاجة والمقدرة

٣١ الاهتمام بالغرف التجارية الضرورية للمهاجرين

٣٢ السعي لاقامة رؤساء اساقفة في المهاجر للطوائف النائلة امتيازات في الوطن لصون الشرف ومنع الاستئثار اسوة بالطوائف الممتازة في اوروبا

٣٣ مساعدة نوابغ اعضاء النهضة او نوابغ ابنائهم

٣٤ عدم مساعدة الكنائس الا اذا كان لها مدارس في الوطن والمهجر

٣٥ التفاهم مع رؤساء الاديان لخدمة الشعب وافادته بتنفيـذ غاية الواقفين من الاوقاف دون تعرض لاي حق راهن لهم

٣٦ يجب اقامة وكلاء للنهضــة حيث لا يوجد فروع او حيث يكون انشــاء الفروع مبدءا لا موحدا

٣٧ مرتب الدخول دولار واحد في السنة يجب ايصاله الى المركز الرئيسي من كل عضو في النهضة الا اذا شاء العضو التبرع. اما الفروع فلها ان تتفاهم مع الاعضاء على طرائق القيام بالنفقات المحلية (؟)

٣٨ ينتخب نائب الرئيس وامناء الصندوق والمديرون من التجار اما الرئيس فيجب ان يكون غير تاجر صونا لحقوق مصالح سائر التجار

٣٩ لا يقبل الامي ـ الذي لا يحسن القراءة ـ عضوا الا في السنين الخمس بعد إعداد القانون الاساسي ولا يقبل غير المستقيم على الاطلاق

ومائة في المائة يعرفون ان الامير « لازار » قاد الجيش السربي في معركة قوصوة وقتل فيها

وثمانون في المائة يعرفون ان الامبراطور « دوشان » المتوفى سنة ١٣٥٥ كان اعظم ملوك سربيا القديمة

ومائة في المائة يعرفون ان الامبراطورية السربية قد سقطت في موقعة قوصوه

واثنان وستون في المائة يعرفون ان « كراجورجس » كان زعيم الثورة الاولى السربية ضد الاتراك سنة ١٨٠٤ — ١٨١٣

وتسعة وخمسون في المائة يعرفون ان الامير « ميلوش » قاد الثورة الثانية التي ولدت منها سربيا الحالية سنة ١٨١٥

واثنان واربعون في المائة يعرفون اسم الملك الحالي

وثلاثة وعشرون في المائة يعرفون اسم ولي العهد

وثمانية وتسعون في المائة اجابوا انه يوجد سربيون كثيرون خارج سربيا

فهذه النتائج تثبت بوضوح ان الشعب السربي باجمعه كان — ساعة شهر الحرب على تركيا — متشربا تذكارات تاريخه الوطني البعيدة والقريبة ومعتقدا بان أمنية سربيا الحالية قائمة بتوسيع حدودها لامتلاك الاراضي المغتصبة وجعل سربيا كافية لضم جميع السربيين

في هذه التذكارات كمنت قوة سربيا الحقيقية . وبهذه التذكارات انتقمت للتاريخ وانتصرت على تركيا

***

لم اوكل هذه المقدمات لاحدث القراء عن سربيا والسربيين . ولكنها أمثولة للامم التي تريد ان تتكون وتحيا !

نحن معاشر اللبنانيين لانحلم بمحاربة تركيا او الثورة عليها . ولكن الاوان قد آن لنسعى في تعزيز جامعتنا القومية وتأليف أمة يعرفها العالم المتمدن « بالامة اللبنانية » . ومن اجل ذلك يجب ان نبدأ باعتناق الايمان الوطني وان نؤسس هذا الايمان على تذكارات تاريخنا البعيدة والقريبة

لقد انهكت مذابح الستين قوانا الوطنية ولكن نصف جيل خلا كاف لتجديد الدم اللبناني

ولنزد ما تقدم بيانا بنقل النبذة التالية من جريدة ابي الهول التي تصدر في البرازيل وهي :

أنا لبناني

ليقرأها اللبنانيون بتمعن ! !

لا تصبح الامة أمة حقيقية ولا يستتب لها كيان الا متى نمت في صدور اغلبيتها عاطفة حب الوطن ، وكان هذا الحب مؤسساً على معرفة تاريخها ، وما التاريخ الا قطعة من قلب الامة ، وما أبناء هذا الجيل الا أحفاد أجيال اذا تناسيناها مسخنا نفوسنا وانكرنا الاصول التي انما نحن لها فروع

ولقد اثبت المدققون ان قوة الشعوب الحقيقية قائمة في ايمانها الوطني ، وعرف العالم باجمعه ان العثماني قد غلب في الحرب البلقانية لانه فاقد هذا الايمان ، وان الامم البلقانية لم تنتصر ذلك الانتصار الباهر الا لامتلاكها القوة الادبية علاوة على قواها الحربية

ومن الثابت ان السرب مثلا قد انتصروا لانهم بأجمعهم -- من القائد الكبير الى الجندي الصغير -- كانوا قد رسموا في قلوبهم وأدمغتهم تذكارات تاريخهم القديم الذي طمست به سنوات الحكم العثماني عليهم

وفي سنة ١٩٠٧ تشكلت لجنة نيابية سربية لفحص حالة استعداد الجيش العامة ، وارادت اللجنة ان تعلم مقدار معرفة الجنود تاريخ بلادهم فوقعت القرعة على فرقة من الفرق المقيمة في اقصى ارجاء سربيا فالقيت على كل من الجنود الاسئلة العشرة التالية :

ما ذا تعرف عن كراليفتش ماركوا ؟ وعن ميلوش او بليتش ؟
عن الامير لازار ؟ وعن الامبراطور دوشان ؟
عن موقعة قوصوه ؟ وعن كاراجورجس ؟
عن الامير ميلوش وما هو اسم الملك الحالي ؟
واسم ولي العهد وهل يوجد سربيون خارج سربيا ؟

فأيدت الاجوبة ان مائة في المائة من الجنود يعرفون ان « كراليفتش ماركو » ملك سربيا و بطل التاريخ الوطني كان آخر حماة استقلال سربيا ضد الاتراك

ومائة في المائة يعرفون ان السربي « ميلوش او بليتش » قتل السلطان مراد في موقعة قوصوه سنة ١٣٨٩

في تحسين شؤون الجبل وتوسيع اراضيه ، واسوأ متصرف هم كل المتصرفين الذين سبقوا متصرفنا الحالي

وان على اللبناني ان يحلم اليوم باستعادة الامارة اللبنانية ، ويساعد جمعيات المجاهدين المخلصة ليعود المهاجرون الى بلادهم ، وتعود الى لبنان حياته ومعها العز والفخار . . . في ذلك اليوم . . . في ذلك اليوم يصبح اللبنانيون أمة حقيقة ويستطيع اللبناني ان يسمي جبله وطناً ، وان ينادي على رؤوس الملا بكل مباهاة وافتخار : « انا لبناني ! » « انا لبناني ! ! ! »

(المنار) : لولا هذه النقط التي أبهم بها الكاتب النتيجة ، لقال القارئ ان النتيجة جاءت أصغر من المقدمات ، لا متبعة أخس المقدمات كما يقول علماء المنطق. والمجال واسع امام من يريد انتقاد ما كتب الكاتب ، واهم ما يهم دعاة النهضة العربية من ذلك جعل البلاد السورية أو طانا متعددة ، ومن فروع ذلك جعل هذا الكاتب اللبنانيين كلهم فينيقيين — على مذهب عبيد الله التركي الذي زعم ان نصارى سورية ليسوا عربا — وهذا خطأ مبين ، فان كثيرا من سكان الجبل يعرفون انهم من سلالة العرب ، ومنهم أمراؤه كبني معن و بني شهاب الذين يفخر الكتاب بكبيريهما الامير فخر الدين والامير بشير ، و بني رسلان وغيرهم من الدروز . والباقون من سلائل العرب والفينيقيين وغيرهم . ولكنهم صاروا كلهم عربا بتوحيد لغتهم ، وانما الجنسية باللغة فكثير من الاسبانيين من سلالة العرب ولكنهم لا يعدون الآن عربا

يظهر مما نشرنا ومما لم ننشر مما يكتبه غلاة الدعوة اللبنانية انهم عنون أنفسهم بما ليس في طاقتهم ، عنون أنفسهم بأن يكونوا دولة قوية مستقلة تمام الاستقلال ، منفصلة عن جدتهم الامة العربية وأمهم سورية نفسها ، لا عن الدولة العثمانية فقط. ولا يكون مثل هذا الا لشعب حربي قوي ، ولذلك يكثر أصحاب دعوة هذا الاستقلال من ذكر قوة الجبل وامتناعه عن الفاتحين ، وانتصاره على المصريين ، واخراجهم جيش محمد علي الكبير من سورية وردها الى الدولة ! والاسترسال في المبالغات التي ليس من موضوعنا البحث فيها . ولنسلم لهم حديثهم عن ماضيهم ، فانه لا يمنعنا من الجزم بأنهم لا يستطيعون ان يأخذوا بقوتهم شبرا من أرض الدولة ولا درهما من خزينتها ، وانما مسألتهم أوربية مفتاحها بيد الدول الكبرى ، فاذا هن اتفقن على إعطاء الجبل شيئا فهو الذي يرجى ان يأخذوه ، واذا لم يتفقن ففرنسة وحدها لا تستطيع ان تعمل للجبل شيئا . واذا استطاعت الدولة ان ترضي الدول بالغاء امتياز لبنان فانها تلغيه ، وخلاف فرنسة وحدها لا يحول دون ذلك . فمن يعرف هذه الحقائق يجزم بأن مؤسسي جمعية (الاتحاد اللبناني) في مصر ارسخ قدما في السياسة من سائر اللبنانيين . وان وراء ذلك كله سياسة مثلى لو قدروها قدرها ، ولم تحجبهم آمالهم بفرنسة وغيرها عنها ! !

لو ألفت اليوم لجنة لبنانية واختارت بضعة قرى من قرى لبنان واخذت تطرح على ابنائها الاسئلة التالية :

من هم اجداد اللبنانيين ؟ هل فقد لبنان يوما استقلاله ؟
من هو أعظم أمير لبناني ؟ من اخرج محمد علي من سوريا ؟
ماهي حدود لبنان الاصلية ؟ ماهي المسئلة اللبنانية ؟
مارأيك بمذابح الستين ؟ ما الفرق بين المسيحي والدرزي ؟
من هو احسن متصرف واسوا متصرف حكم لبنان ؟
بماذا يجب ان يحلم اللبناني اليوم ؟

لو الفت هذه اللجنة وسألت هذه الاسئلة واجاب مائة في المائة ان أجداد اللبنانيين هم الفينيقيون غزاة البحر وتجاره واساتذة اليونان وممدنو قسم من افريقيا الشمالية وايطاليا وفرنسا واسبانيا

ومائة في المائة : ان لبنان لم يخضع يوما لدولة من الدول التي اجتاحت سوريا خضوعا تاماً وانه لايستطيع الحياة إلا مستقلا

وثمانون في المائة بان أعظم أمير لبناني هو الامير فخر الدين المعني الثاني الذي أوصل حدود لبنان في الجيل السابع عشر من اطراف حلب الى اوئل فلسطين ولقبه سلطان تركيا « بسلطان البر » — يليه الامير الشهابي الكبير الذي نريد نقل رفاته من الاستانة الى لبنان احياء للروح الوطنية

ومائة في المائة بان سيوف اللبنانيين كانت العامل الاول في اخراج محمدعلي باشا المصري واعادة سوريا الى تركيا في اوائل الجيل الاخير

ومائة في المائة أيضا بان حدود لبنان الاصلية التي اغتصبتها الدولة تمتد من اعالي طرابلس الى صيدا ومن ساحل البحر المتوسط وفيه بيروت الى اطراف الشام وفيها سهل البقاع وجبل انتيلبنان المعروف بجبل حرمون او جبل الشيخ

ومائة في المائة بان المسألة اللبنانية مشكلة بين الدولة ولبنان لا تحل الا باستعادة لبنان حدوده المغتصبة وحقوقه في الكمرك والبريد — وان هذه المسألة يجب ان يطرحها المجلس الاداري امام محكمة أوربا التي تحمينا ولنا بها علاقة منذ بضعة اجيال بتقديم دعوى الديون التي لنا في ذمة الدولة

وثمانون في المائة بان مذابح الستين التي كان لمأموري الدولة اليد الاولى في اثارتها ودمغة على جبين لبنان يجب ان يمحوها بنزع التعصب الديني وابداله بالتعصب الوطني

ومائة في المائة بان الدرزي أخ للمسيحي في الوطنية، للاول ماللثاني وعليه ماعليه وان أحسن متصرف جاء قبل المتصرف الحالي هو داود باشا الارمني الذي سعى

طبع في صيدا سنة ١٣٣٠ (٣٠) حاشية على الروضة الندية

(٣١) درء الموهوم ، من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم (٣٢) دلائل التوحيد . مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٦ « ٣٣ » ديوان خطب مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٥ .

« ٣٤ » رفع المناقضات ، بين ما يزيد في العمر و بين المقدرات « ٣٥ » رسالة في الشاي والقهوة والدخان . مطبوعة في بيروت سنة ١٣٢٣ « ٣٦ » رسالة في أوامر من مشايخ الاسلام بالحكم بغير المذهب الحنفي . مطبوعة بعد نشرها في مجلة المنار سنة ١٣٣١ « ٣٧ » رسالة في المسح على الجوربين مطبوعة في بيروت سنة ١٣٣٢ « ٣٨ » رسالة في المسح على الرجلين .

« ٣٩ » زوال الغشاء ، عن وقت العشاء « ٤٠ » زبدة الاخبار ، عن أولاد الكفار « ٤١ » السطوات ، في الرد على منع العشاء قبل الصلوات

« ٤٢ » شمس الجمال ، على منتخب كنز العمال « ٤٣ » الشذرة البهية في حل ألفاظ نحوية . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٢ « ٤٤ » شذرة من السيرة المحمدية . مطبوعة بمطبعة المنار في مصر سنة ١٣٣١ « ٤٥ » شرح لقطة العجلان . مطبوعة في مصر سنة ١٣٢٦ « ٤٦ » شرح مجموعة أربع رسائل في الاصول . مطبوعة في بيروت سنة ١٣٢٤ « ٤٧ » شرح مجموعة أربع رسائل في الاصول أيضا . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٣ « ٤٨ » شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٣١ « ٤٩ » شرح مختصر المستصفى لابن رشيق .

« ٥٠ » الطائر الميمون ، في حل لغز الكنز المدفون . مطبوع مرتين سنة ١٣١٦ وسنة ٢٢ « ٥١ » طراز الخلعة ، فيما نقل من قول الرملي : وأقسام الاسم تسعة « ٥٢ » الطالع المسعود ، على تفسير أبي السعود (لم يتم) « ٥٣ » الطالع السعيد ، في مهمات الاسانيد

« ٥٤ » العقود النظيمة في ذكرى مولد النبي (ص) وأخلاقه العظيمة ، ومحاسن شريعته القويمة « ٥٥ » غنيمة الهمة ، على كشف الغمة « ٥٦ » فصل الكلام ، في حقيقة عود الروح الى الميت حين الكلام « ٥٧ » الفضل المبين ، على عقد الجوهر الثمين ، ويعرف بشرح الاربعين العجلونية « ٥٨ » فتاوى الاشراف ، في العمل بالتلغراف . مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٩ « ٥٩ » قواعد التحديث ، من فن مصطلح الحديث

٦٠ الكواكب السيارة ، في مدح الفوارة ٦١ كتاب الفتوى في الاسلام . مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٩ . (٦٢) كتاب ارشاد الخلق ، الى العمل بخبر البرق .

مصاب مصر والشام برجال العلم وحملة الاقلام

٤ — الشيخ محمد جمال الدين القاسمي (تتمة ترجمته)

تصانيفه ورسائله

كان أثابه الله سيال القلم سيال القريحة ، سريع الذاكرة سريع المراجعة ، وقد كتب كثيرا من الكتب والرسائل تصنيفا وشرحا واختصارا لبعض المطولات ، أحصاها لنا بعض تلاميذه فزادت على السبعين ، وهو العقد الذي تعبر به العرب من الكثرة . وهذه أسماؤها مرتبة على حروف المعجم :

(١) الاستئناس ، في تصحيح أنكحة الناس . طبع في دمشق سنة ١٣٣٢
(٢) الانوار القدسية ، على متن الشمسية في المنطق ، كتب عليها الى آخر قسم التصورات (٣) ايضاح الفطرة ، في أهل الفترة (٤) الارتفاق ، بمسائل الطلاق (٥) ازالة الاوهام ، بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي هم به عليه الصلاة والسلام (٦) افادة من صحا ، في تفسير سورة والضحى (٧) اعلام الجاحد ، عن قتل الجماعة المتمالئة بالواحد (٨) الاقوال المروية ، في من حلف بالطلاق الثلاث في قضية (٩) الاوراد المأثورة ـ مطبوع في دمشق (١٠) الاجوبة المرضية ـ مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٦ (١١) اصلاح المساجد ، من البدع والعوائد
(١٢) بذل الهمم ، لموعظة أهل وادي العجم (١٣) بديع المكنون ، في أهم مسائل الفنون (١٤) بيت القصيد ، في ديوان الامام الوالد السعيد (١٥) بحث في جمع القراآت المتعارف
(١٦) تعطير المشام ، في مآثر دمشق الشام (١٧) تعليقات على حصول المأمول لصديق حسن خان (١٨) تنوير اللب ، في معرفة القلب (١٩) تاريخ الجهمية والمعتزلة . نشر في مجلة المنار وطبع في مطبعتها سنة ١٣٣١ (٢٠) تنبيه الطالب ، الى معرفة الفرض والواجب ـ طبع في مصر سنة ١٣٢٦
(٢١) ثمرة التسارع ، الى الحب في الله وعدم التقاطع
(٢٢) الجواب السني ، عن سؤال السيد أحمد الحسني (٢٣) الجوهر الصاف ، في نقابة الاشراف (٢٤) جواب المسألة الحورانية (٢٥) جوامع الآداب ، في أخلاق الانجاب (٢٦) جدول في مخارج الحروف وصفاتها (٢٧) جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل ـ نشر في مجلة المنار
(٢٨) حسن السبك ، في الرحلة لوعظ قضاء البنك (٢٩) حياة البخاري ـ

ويمكنني أن أقول : ان الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر وان لم يدخل كل ما كتبه في باب الاصلاح الذي يفهمه قراء المنار ، فمسمى الاصلاح ومفهومه واسع ، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان ، والسن والعشراء والاقران ، والتلاميذ والمريدين ، وغيرهم من المخاطبين ؛ والمصلح لا يخلق مصلحا بالفعل ، بل يخلق كغيره لا يعلم شيئا ؛ ويكون الاستعداد للاصلاح فيه كامنا ، ثم تظهره التربية والتعليم ، وما يتجدد المرة بعد المرة له من العبرة والتأثير . فهل يطلب ممن عاش خمسين ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحوا من سبعين ، ان يكون جميع ما كتبه او شرحه اصلاحاً في الدنيا والدين ، مرضيا عند الكهول المجربين ، والشيوخ المحنكين ؟

طريقته في الاصلاح

حسب من نشأ وتعلم وتربى في أرض التعصب للتقليد ، والجمود على العادات والخرافات ، تحت سماء الاستبداد ، والحجر على الالسنة والاقلام ، — ولم تكن هذه المفاسد في الاستانة أشد منها في الشام — ان يكون بسلامة فطرته ، وعناية الله به ، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي في استقلاله ، ونزاهته واعتداله ، ونظافة عقله وقلمه ولسانه ، وجرأته على مجاهدة الجمود والتقليد ، والجمع في احياء علوم اللغة والدين بين الطريف والتليد .

أما طريقته في الاصلاح وغايته منه فلم يكن فيهما على خطة مقررة من اول النشأة ، وانما كونتهما الحاجة بقدر استعداد البيئة : فتح الرجل عينيه فرأى أطلال العلم في بلده دارسة ، وأعلامه طامسة ، وقد كانت مهاجرا يرحل الطلاب اليها ، فأصبحت مهجورة يرحل عنها . فكان الاصلاح الضروري فيها ايجاد نشء جديد من طلبة العلم يعلمون تعليما صالحا يرجى أن يحيا به ويبهم العلم ، وقد كان سبب اختيار الشيخ لقراءة بعض الكتب ولكتابة بعض الشروح والتعاليق على بعضها ، هو الضرورة أو الحاجة الى تدريسها ، لا كونها صالحة في نفسها ، او محاولته اصلاح التعليم بها . مثال ذلك ما كتبه على شرح الفناري ومتن الشمسية في المنطق ، كان مما لا بد منه ، لان طلبة العلم كانوا يمتحنون بهما لاجل اعفائهم من الخدمة العسكرية . ونقيس ما لم نعرف عذره فيه — كقراءة كتاب جمع الجوامع وشرح بعض المتون — على ما عرفنا عذره فيه

طبع بدمشق سنة ١٣٢٩ ، ٦٣ كتاب الاسراء والمعراج . طبع بدمشق سنة ١٣٣١ ٦٤ كتاب شرف الاسباط . طبع بدمشق ٦٥ كتاب (شرح العقائد) وهو كتاب كبير كتب الفقيد منه نحوا من مائتي صفحة ولم يتم ٦٦ اللف والنشر ، في طبقات المدرسين تحت قبة النسر ٦٧ لزوم المراتب ، في الادب مع الامام الراتب

٦٨ المسند الاحمد، على مسند الامام احمد ٦٩ منتخب التوسلات . مطبوع في دمشق سنة ١٣ ، ٧٠، مذاهب الاعراب وفلاسفة الاسلام في الجن . طبع بدمشق سنة ٣٢٨ ، ٧١، ميزان الجرح والتعديل طبع في مصر سنة ١٣٣٠ ٧٢ موعظة المؤمنين، من احياء علوم الدين . طبع بمصر سنة ١٣٣١ ، ٧٣ محاسن التأويل) وهو التفسير العظيم الذي يقع في اثني عشر مجلدا مع مقدمته التي كتبت في مجلد حافل

٧٤ النفحة الرحمانية ، على متن الميدانية . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٢ ٧٥ نقد النصائح الكافية . طبع بدمشق سنة ١٣٢٨

٧٦ هداية الالباب ، لتفسير آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب » ٧٧ الوعظ المطلوب من « قوت القلوب » ٨٧ وفاء الحبيب وحده ، في ايضاح جهة الوحدة (المسوقة في الفناري) ٧٩ ينابيع العرفان، في مسائل الارواح بعد مفارقة الابدان

اقول: ان بعض ما ذكرنا رسائل صغيرة مؤلفة من كراسة او كراستين او كراسات قليلة ، له او لغيره ، وبعض ما ذكرنا من الشروح عبارة عن تعليقات لا يصح ان تسمى شرحا ، وقد كتب الي في العام الماضي ان له كتابا في العبادات مقتبسا من كتب المذاهب مع بيان حكمة التشريع. كان اخذه منه الشيخ احمد طباره ليطبعه في مطبعته ببيروت ولم يعده اليه ، وعلمت مما كتب الي انه من اهم كتبه ، وكنت وعدت بتأليف كتاب في ذلك فسبقني رحمه الله اليه، فتمنيت لو يطبع لأستغني به . ولعل هذا الكتاب وتفسيره الحافل هما اكبر مظاهر علمه واصلاحه، على ان له رسائل مختصرات . لاتغني عنها المطولات !

سيقول كثير من الناس: إنك عددت القاسمي من رجال الاصلاح ، وان أسماء كثير من هذه الكتب التي صنفها أو شرحها تدل على انها ليست من الاصلاح في ورد ولا صدر ، ولا تشتمل على عين منه ولا أثر ؛ فكيف يضيع العالم المصلح وقته في شرح لغز ، أو ما يعد أبعد عن الاصلاح من اللغز ؟

زعم النـــاس بأني مذهبي يدعى الجمالي
واليـه حيـنما أفـ ـتي الورى أعزو مقالي
لا وعمر الحق اني ســلفيّ الانتحــال
مذهبي ما في كتا ب الله ربي المتعالي
ثم ما صح من الاخـ ـبـار لا قيــل وقال
أقتفي الحــق ولا أر ضى بآراء الرجال
وأرى التقليد جهلا وعمى في كل حال

وقال ايضا في هذا المعنى :

أقول كما قال الأئمة قبلنــا صحيح حديث المصطفى هو مذهبي
أألبس ثوب القيل والقال باليا ولا أتحـلى بالرداء المـذهب

(٤) كان يتحرى في المسائل الخلافية الاعتدال والانصاف ، واتباع ما يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل . وكان لحرصه على الوفاق وجمع كلمة المسلمين يجتهد في استبانة حجة كل فريق من اصحاب المذاهب ، وتقريب احدهما من الآخر ، باظهار حجته أو شبهته ، وحكاية ما يعارض الخصم به . ومن كانت هذه طريقته فكثيرا ما يغضب الخصمين معاً . فيتهمه كل منهما بالتشيع للآخر . ثم اذا كان احدهما مصيباً والآخر مخطئا يتعذر على محب الاعتدال في الحكم بينهما ان يرضى باستحداث مذهب ثالث يجعله وسطا بينهما ، اذ ليس بين الحق والباطل وسط ، وانما يكون الحق وسطا بين باطلين ، او أباطيل ترجع كثرتها الى نوعين — الزيادة على الحق او النقص منه. وقد اتهم الفقيد بعض السلفيين بأنه خالف مذهب السلف في رسالته (تاريخ الجهمية والمعتزلة) التي نشرناها في المنار ، على شدة حرصه عليه وتحريه اياه ؛ وانتقدها بعض الشيعة كما يأتي . واتهمه بعض المستقلين بعثرة اخرى في رسالته (نقد النصائح الـكافية) وهي ان حب الاعتدال وتقريب احد الخصمين من الآخر اخرجه عن الاعتدال في بعض المسائل ، ولـكن بقصد الاصلاح

وهنا مسألتان (أحداهما) أن المستقل في علمه وحكمه حق الاستقلال يتحرى

كمتن الشمسية وشرح الفناري، وكلاهما لا يصلحان للتدريس، في رأي العارفين بطرق اصلاح التعليم. ولو كان الشيخ في مصر لقلنا ان عذره في قراءة جمع الجوامع اعتماد الجامع الازهر عليه في الامتحان ونيل شهادة العالمية

لعلنا لو اطلعنا على جميع ما كتبه لظهر لنا من عذره مالا يظهر لنا الآن . أو ننتقد منها مالا نظن الآن انه منتقد ، وحسب الرجل ان يكون مصلحا في سيرته ومجموع أعماله

قد اطلعنا على كتاب دلائل التوحيد وبعض الرسائل من مؤلفاته المطبوعة ، وقرظنا بعضها في المنار وبينا مزيتها فيه . ويمكننا أن نستنبط منها ومن مذاكراتنا القصيرة له مانعده للقارئين من مزاياه ومزاياها

(١) ان القاسمي درس فنون اللغة العربية والعلوم الشرعية على الطريقة المألوفة في مدارس المسلمين منذ قرون ، وتلقى تلك الكتب التي اختارها المتأخرون للتدريس ، ورأى حاجة أهل البلاد الى بعض تلك الكتب لاجل امتحان الاعفاء من العسكرية ، وان المشتغلين بالعلم منهم يظنون أن العالم لا يكون عالما حقيقة الا بتحصيل كذا وكذا منها (كجمع الجوامع وكتب السعد التفتازاني) فكانت هذه الامور الثلاثة أسباباً لمحافظته على بعض ذلك التليد

(٢) انه كان يرى ان ما يثبت بالدليل النقلي في النقليات والعقلي في العقليات وبالتجربة في المجربات، لا تتلقاه بالقبول هذه الامة التي جمدت على التقليد، وبعد عهد جمهورها بالحجة والدليل ، الا اذا أيد بنقل عن بعض العلماء السابقين ، ولا سيما اذا كان من المشهورين ، فكان يرى هذا ركنا من أركان الاصلاح في التدريس والتأليف لاجل اقناع المستدلين والمقلدين معا، ونحن نجري على هذا في المنار والتفسير احيانا

(٣) انه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته وما مذهب السلف الا العمل بالكتاب والسنة ، بلا زيادة ولا نقصان ، على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الاول . وقد اتهم – كما اتهم غيره من المستقلين — بأنه احدث مذهبا جديدا في الاسلام ، ولما كانت حادثة السعاية التي أشرنا اليها ، وذكرنا انه حبس فيها ، لغط حساده بهذه المسألة فقال يرد عليهم :

لا يطبيه طمع مدنس اذا استمال طمع او اطبى

وقد بينا ما كان لاخلاقه الكريمة من حسن الاثر ، والوقاية من كيد الجامدين والحاسدين ، والاعانة على الاصلاح

ومن حسن وفائه انه لم يقطع مراسلتنا ولا مراسلة الاستاذ الامام في ابان ثقل وطأة الاستبداد الحميدي ، اذ كانت مراسلتنا تعد من الجنايات السياسية التي تعاقب الحكومة صاحبها أشد العقاب ، ولكنه ترك التصريح بنقل شيء عنا كما نعلم من كتابه (دلائل التوحيد) وصرح لنا بذلك

وقد عبرنا عن بعض ماوجدناه من الحزن لفقده بكتاب وجهناه الى أهله ، وكان من يعرف ما بيننا من الاخاء يعزينا عنه كما يعزى الاخوة في النسب. وما بيننا من أخوة النسب الروحي، أعلى من النسب الجسدي، على أن نسب امه يتصل بنسبنا أيضا

وحسبي أن أدون من تلك التعازي ما كتبه الي صديقي وصديقه علامة العراق ورحلة أهل الآفاق، السيد محمود شكري الالوسي الشهير . وقد كنت اليه مثل الذي كتبه الي بباعث القلب ، ولكنه سبق كدأبه في السبق الى كل فضل . وهذا ما كتبه بعد الالقاب ، وفاتحة الخطاب :

« أما بعد فقد نعت الينا صحف البلاد الشامية وفاة العلامة السيد جمال الدين القاسمي قدس الله روحه الزكية، فأمضَّ ذلك الخبر قلبي وأفضَّ لبي، وجرح فؤادي وطرد رقادي . وأحدث لي حزناً ملازماً ، وألما دائما ، وأورثني قلقا واخزا . وانزعاجا حافزا . وحيث كان المشار اليه من أعزة أحبابكم، وخلص أصفيائكم، مع ما كان عليه من الفضل الوافر ، والادب الباهر ، والورع الظاهر ، والنسب الطاهر ، والذب عن الشرع المبين ، وقوة الايمان واليقين ، ومناضلة الحائدين والملحدين ، وانه حسبما اعترف له الموافق والمخالف

أحيا به الله الشريعة والهدى وأقام فيه شعائر الاسلام
حكم على أهل العقول يبثها منعوتة الاوضاع والاحكام
ويريك في ألفاظه وكلامه سحر العقول وحيرة الافهام

فاني اعزيك على فقده، وتوسده للحدد، ومفارقته لهذه الدنيا الغدارة، الخائنة المكارة ، فان نعيمها زائل، وكوكب سعدها آفل، فلا اوجع الله لك قلبا، ولا كدر لك خاطرا ولا لبا ، وللاسلام من طلعتكم الغراء ، سلوان عمن مضى من الفضلاء، وانما يجل الرزء اذا قل العوض ، ويكبر المصاب اذا عدم الخلف . فاما اذا كنت الباقي، وغيرك الماضي، وصرت الموجود، وسواك المفقود، فالفادحة خفيفة الوقع، مرؤبة الصدع ويد الدهر فيما نال قصيرة، ومنته فيما ترك كبيرة. هذا مع أسفي عليه كل الاسف، وتصاعد أنفاسي بمزيد اللهف، وقد جرت عليه من العيون عيون، فانا لله وإنا اليه

مايظهر له أنه الحق فيقوله ويحكم به وان أغضب جميع الناس عليه . وقصارى ما يستبيحه من ارضاء الناس أو استمالتهم التلطف في القول ، وتزيين الحق الذي ثبت عنده بحلي البيان وحلله ، دون ابرازه لهم عاري الجسد عاطل الجيد

(الثانية) ان الاصلاح بين الرجلين أو القبيلين من الناس فضيلة حث عليها الشرع وعرف حسنها العقل ، وقد أبيح فيها الكذب عند الضرورة عملا بقاعدة « ارتكاب أخف الضررين » فبالاولى يباح فيها التماس العذر لكل خصم فيما خالف فيه الآخر ، وتوجيه ماقام عنده من الحجة أو شبه الحجة . وهذه الطريقة في الاصلاح أقرب الطرق لارضاء المعتدلين من أهل المذاهب المختلفة، وأما الغلاة في التعصب لمذاهبهم فلا يرضيهم الا موافقتهم واتباعهم .

أما العمل بهاتين المسألتين واعطاء كل واحدة منهما حقها فهو عسر جدا، فان المستقل جد الاستقلال اذا تصدى للتوفيق بين الخصمين المتعصبين يغضبهما جميعاً وانما يمكن أن يرضي المستقل من كل فريق أو المستعد للاستقلال، اذا أوتي الحكمة وفصل الخطاب

ومن الآيات على ذلك أن رسالة (تاريخ الجهمية والمعتزلة) لم يكتب أحد في هذا العصر كتابة أعدل منها في التأليف بين فرق المسلمين الكبرى — وهم أهل السنة الأثرية والاشاعرة والمعتزلة والشيعة والخوارج — وقد كتب بعض علماء الشيعة ردا عليها قبل اتمام نشرها ، وهل يرضى شيعي بتعديل بعض الخوارج والرواية في الصحيحين عنهما ؟ وانكر بعض اهل السنة الأثريين بعض المسائل فيها كما تقدم.

فأين هذه من تلك الرسالة التي كتبها احد علماء الشيعة للتوفيق بين الامة بزعمه او دعواه الظاهرة فكانت عبارة عن دعوة أهل السنة الى التشيع بتخطئتهم وتصويب الشيعة في جميع مسائل الخلاف ! !

أخلاقه وشمائله

كان من اكمل مارأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله : كان أبيض اللون نحيف الجسم ربعة القد ، أقرب الى القصر منه الى الطول ، غضيض الطرف ، كثير الاطراق ، خافض الصوت ، ثقيل السمع ، خفيف الروح ، دائم التبسم

وكان تقيا ناسكا واسع الحلم ، سليم القلب ، نزيه النفس واللسان والقلم ، برا بالاهل ، وفيا للاخوان ، يأخذ ماصفا ويدع ما كدر ، عائلا عفيفاً قانعا

وكان بعض من آنس فيه الاستعداد من أهل العلم يقرأ له دروسا خاصة يستعد بها لدخول القسم الطبي من المدرسة الكلية الامريكانية الشهيرة ببيروت ، و بعد تحصيل قليل أدي الامتحان ودخل المدرسة فكان يتعلم فنون الصيدلة و يؤدي بعض الخدمة لاجل المعاش ، ولكنه ترك المدرسة في أثناء السنة الثانية لما كان عرض فيها من الاختلال الداخلي المعروف . وقصد بعد ذلك الديار المصرية ليتم دروسه في مدرسة القصر العيني فلم يتح له ذلك ، بل دخل في طور العمل والكسب

ان كثيراً من النابغين لم يقيموا في المدارس زمنا طويلا ، ومن الثابت بالاختبار ان طول الاقامة في المدارس تضعف ملكة الاستقلال ، فيخرج الطالب بعده مقلدا جامدا على ماأطال درسه ومزاولته . فان كانت سعة العلم لاتحصل الا في الوقت الواسع ، فالواجب ان يكون أطول زمن التحصيل خارج المدرسة لا داخلها ، وفي أثنا العمل بالعلم ، لا في أثناء تلقي نظرياته ومصطلحاته . ورب ذكي أو مجتهد يحصل من مسائل العلم في سنة ما لا يحصله غيره في سنين كثيرة . وما تحصيل المدرسة الا دلالة على طريق العمل بالعلم ، فمن يطلب العلم فيها لاجل الاستعانة به على العمل بعد الخروج منها ، فربما يكفيه القليل من العلم، فيجعله أهلا للعمل الذي لا يكمل العلم الا به . واما من يطلب العلم لاجل نيل شهادة مدرسية يتوسل بها الى رزق لا يتوقف على دوام الاشتغال به والارتقاء فيه ، فهجرته الى ماهاجر اليه ، فهو يحصل ورقة الشهادة، ولكنه قلما يكون عالما عاملا بعلمه مرتقيا فيه . وناهيك اذا كان طلبه للعلم بارادة ولي أمره ، لابارادته الذاتية ورغبته .

أما فقيدنا اليوم فقد كانت نفسه العصامية هي الحافزة لهمته والباعثة له على طلب العلم ، وكان يقصد من العلم ان يعمل به فيفيد مالا وجاها يكون به في مقدمة امته لافي ساقتها . ولذلك حصل بجده وقوة ارادته في الزمن القليل ، ما مكنه من العمل الذي عجز عن مثله من هم أكثر منه تحصيلا ، وأوسع في العلوم والفنون عرفانا . وأما اذا اتفق لمثل صاحب هذه الهمة والارادة تحصيل المقدمات تامة من أول النشأة ، فان عمله يكون أقوم ، وسيره فيه يكون اسرع وأتم .

اشتغل الفقيد عقب هجرته الى مصر بالتحرير في جريدة يومية اسمها الزمان نحوا من سنة ، ثم سافر مع الحملة النيلية الانكليزية الى السودان مترجما في قلم المخابرات ، وشهد بعض وقائع الحرب في السودان ، ومكث هنالك عشرة أشهر ، ثم عاد وسافر الى سورية فاشتغل فيها مدة بدراسة اللغتين العبرانية والسريانية . ثم الى بلاد الانكليز . ثم عاد الى مصر فندبه أصحاب المقتطف الى مساعدتهم في ادارته فتولاها سنة واشهرا ، ثم استقال منها وانصرف بكل همته الى التأليف فألف تاريخ الماسونية ومختصر التاريخ العام وتاريخ مصر الحديث . ثم تولى ادارة

راجعون. نسأله تعالى ان يديمكم ركنا للاسلام، ومرجعا للخاص والعام، ويصونكم من طوارق الليالي والايام، تذكرة للسلف الاعلام » اه

وأقول ان مما يعزيني ويعزي هذا الاخ الكريم . والمصلح العظيم ، الذي لا استحق بعض ثنائه ، ولا ينيسيني نقصي كمال إطرائه ان أخانا الفقيد قدربى وعلم افرادا من اخوته وغيرهم يرجى ان يقفوا اثره، ويتلو تلوه، وان كان نسيج وحده فتبقي بهم ديار الشام . آهلة ان شاء الله بالعلماء الاعلام. على مدى السنين والايام.

(٥ — جرجي بك زيدان)

قضى الله — ولا رادّ لقضائه - ان لا نفرغ من رثاء وترجمة رجال العلم الذين فجعت بهم الأمة العربية في هذه السنة في مصر والشام ، الا وقد رزئ القطران بفجيعة أخرى ، فقد فاجأت المنية في التاسعة والعشرين من هذا الشهر جرجي بك زيدان صاحب مجلة الهلال ، وأحد أركان النهضة العربية الحديثة ، فاجأته كهلا قد بلغ اشده واستوى، حسن الصحة تام القوى- وقد أتم في هذه الليلة تصحيح آخر كراسة من آخر جزء من أجزاء السنة الثانية والعشرين للهلال ، وآخر كراسة من كتاب تاريخ العرب . وتنفس الصعداء من تعب ليلة شعر بأنه ألقى عن عاتقه في أولها تعب عشرة أشهر ، ثم ألقى نفسه على سريره ليبدأ فيها باستراحة شهرين كاملين ، فغاضت نفسه فاذا هو قد ألقى عنها تعب ربع قرن، في الجهاد العقلي كان هو القاضي على مادة ذلك الدماغ الذي يشبه معملا من معامل الكهرباء ، في السرعة والنور والحرارة والضياء، والمقوض لدعائم تلك الحياة الحميدة، حياة الجد والعمل والعفة والاستقامة. فاذا كان الجهاد العقلي قد صرع احمد فتحي باشا زغلول والاستاذ القاسمي بعد مرض طويل أو قصير ،فقد صرع جرجي بك زيدان من غير مرض ولا شكوى

فقدت الأمة العربية بهذا الرجل ركنا من أركان نهضتها الحديثة في العلم والأدب ، بعد أن نضج علمه ، واتسعت معارفه ، وكملت تجاربه ، وصار اقدر على اتقان خدمتها ، ومساعدة نهضتها .

نشأ الرجل عصاميا ، فقد ولد في أواخر سنة ١٨٦١ م من أبوين فقيرين اميين، ولكن يظهر انه كان له في الأرومة العربية عرق راسخ، فقد بحث عن أصل بيتهم — وكان يسمى بيت مطر — فانتهى به البحث الى ترجيح كونه من عرب حوران ، وكان يظن انه كأكثر الروم الارثوذكس في سورية من بني غسان .

تلقى مبادي القراءة والكتابة في بعض مكاتب بيروت الابتدائية . وكان يشتغل مع والده في مهنته لاجل المعاش، ولكن استعداده للعلم وعشقه للمدارس كان قويا جدا ، فكان يختلف الى بعض المدارس الليلية ، يتعلم فيها اللغة الانكليزية . ويبحث عن رجال العلم والأدب ويتقرب اليهم ، وانتظم مع طائفة من خيارهم في سلك جميعة شمس البر الادبية ، فازداد حبا للعلم ورغبة في طلبه

الشبان المتعلمين في الرد على هذا التاريخ ولم يظهر منهم شيء . ثم اتفق أن انبرى للرد عليه في هذه المسألة الاستاذ الشهير الشيخ شبلي النعماني من أشهر علماء الهند وأوسعهم اطلاعا في التاريخ. وكتب الينا هذا الاستاذ الكبير وهو صديقنا وصديق فقيدنا المردود عليه يخبرنا بما شرع فيه من الرد، ويقترح علينا أن نشر رده في المنار ، ولما كنا نعهد من الفقيد تلقي الانتقاد عليه بسعة الصدر ، بل عهدنا منه مطالبة الكتاب بهذا الانتقاد ـ ونعلم ان الاستاذ الشيخ شبلي النعماني صديقه ـ ونرى ان تمحيص هذه المسألة اصبح ضروريا ـ بادرنا الى نشر الرد من غير أن نقرأه ، بل نشر في أثناء رحلتنا الهندية، ثم قرأناه بعد عودتنا من الهند وعمان والعراق وسورية فرأيناه فوق ما كنا نظن من شدة الرد ، ورمي الفقيد بسوء القصد . وكنا علمنا من المنتقد عند لقائه في الهند أنه كان يرى بعض الغلط في تاريخ التمدن الاسلامي وغيره من مؤلفات صاحبه فيحمله على الخطاء أو سوء الفهم ، ولكنه لما قرأ مجموع طعنه في العرب جزم بأنه صادر عن سوء قصد . فهذا سبب شدة حملته عليه ، على ما كان من موادته له . وقد كتبنا مقدمة لانتقاد الشيخ شبلي اذ طبع على حدته بينا فيها ذلك ، واننا لو اطلعنا على ما فيه من الشدة قبل نشره، لراجعنا الكاتب فيه واستأذناه بحذف الطعن الشخصي منه ، وقد نشرنا تلك المقدمة في المنار تعزيزا لدفاعنا السابق بالقلم واللسان، عن رجل عددناه صديقا لنا . وعضوا نافعا في أمتنا ، على اننا لم نسلم مع ذلك من سوء ظنه فينا :

ثقلت وطأة رد الشيخ شبلي النعماني على الفقيد لشدته ، ولأنه كان يعده من أصدقائه واثنى عليه غير مرة في هلاله ، فلم يصدق أولا انه هو المنتقد ، واتهمنا بذلك ، وكتب الى الشيخ شبلي كتابا ذكر فيه ذلك، راجيا ان يكتب اليه متنصلا منه ليبين ذلك في الهلال ، ويظهر ان النقد لصاحب المنار ! ! وقد اطلعني الاستاذ الشيخ شبلي على كتابه ذاك في (لكهنؤ) أيام كنت فيها ، ورأيته متعجبا منه ، فكان عجبي أشد من عجبه . وقد ذكرت للفقيد ذلك معاتبا ، فكان حقي عليه في سوء ظنه بي ، أكبر من حقه علي في نشر النقد . وقد نشر في غيبتي .

وقد اتفق لي مثل هذا مع كاتب سوري آخر ، كانت حقوق الصحبة بيني و بينه أقوى منها بيني و بين جرجي بك زيدان، وكنت أثني عليه للاستاذ الامام واستميله لمساعدته ، فكتب الى الاستاذ كتابا يطعن بي فيه ، ويتهمني بتنفير الاستاذ عنه ، والطعن فيه عنده ، فتعجب الاستاذ من أمري وأمره !!

أما مؤلفاته فهي مطبوعة مشهورة وهاك أسماؤها :

١ التاريخ العام
٢ تاريخ مصر الحديث ـ جزآن

التعليم بالمدرسة العبيدية سنتين

وفي أواخر سنة ١٨٩٢ ميلادية أنشأ مجلة الهلال ، وجعل جل عنايته فيها بالتاريخ والاخبار العلمية ، وجعل لها ذيلا من القصص (الروايات) الغرامية الممزوجة بتاريخ الاسلام ، فظهر من خطته فيما ينشئ وينقل أنه من أقدر من اشتغل بالصحف العربية والتأليف في هذا العصر ، أو أقدرهم على جذب جمهور القراء الى ما يكتب ، بمحاولة جعل ما يكتبه لذيذا سهل الفهم ، كالطعام اللذيذ سهل الهضم ، وكان يختار في كل وقت ما يناسبه ، وفي كل حال ما يلائمه ، فاذا ألمت ملمة ، أو حدثت حادثة مهمة – كالحروب ومشاكل الدول وموت الملوك والكبراء – بادر الى كتابة ما يتعلق بذلك من مباحث التاريخ القديم والحديث ، مزينا له بما يتعلق به من الصور والرسوم .

وكان سلما نزيه القلم ، يتقي كل ما يثير غضب أصحاب المذاهب الدينية ، والاحزاب السياسية ، ولكنه لم يسلم مع ذلك من اتهام بعض سيئي الظن من المسلمين والنصارى ، فقد اتهمه بعض الاولين تعمد الطعن في الاسلام بفرية يفتريها ، أو دسيسة يدسها ، وكانوا يستدلون على ذلك ببعض الاغلاط التي وقع فيها ، أو تصوير بعض المسائل بغير الصورة التي يعرفونها ، لفهمها بغير الصفة التي يفهمونها ، ورد عليه بعض هؤلاء في المؤيد . وطالما رددت على بعضهم مبرئا له من سوء القصد ، لما لي فيه من حسن الظن . وأشرت الى ذلك في المنار غير مرة .

وقد حدثني إن بعض سيئي الظن من النصارى قد اتهمه بضد ما يتهمه به بعض المسلمين : اتهموه بمصانعة المسلمين ومحاباتهم ، ومدح الاسلام والمسلمين تقربا اليهم ، لاجل الكسب منهم . ولا نسلم من ألسنة الناس أحد ، كيف وقد كفروا بالواحد الاحد ، الفرد الصمد ، سبحانه وتعالى

نعم انه قد ظهر منه بعد الانقلاب العثماني نزعة جديدة ، تقدمتها نزغة عدت احياء لمذهب الشعوبية : ذلك بأنه زار الآستانة ولقي فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، ثم عاد متشبعا بالنهضة التركية ، مستنكرا مجاراة العرب لاخوانهم الترك بالقيام بنهضة عربية ، مستصوبا خطة الاتحاديين الاولى من تتريك العناصر وادغام العرب في الترك . وقد كتب في الهلال مايشعر بهذه النزعة ، فهاج ما كتبه جماعات فتيان العرب في الاستانة وسورية ، وكادوا يحملون عليه في الصحف ردا واحتجاجا ، ولكن حالت دون ذلك معارضة مسموعة مقبولة

وأما النزغة التي سبقت هذه النزعة ، فهي مطاعن للفقيد في العرب أودعها في تاريخ التمدن الاسلامي فطن لها أخيرا من لم يكن يحفل بها . وزادهم التفاتا اليها ترجمة جريدة (إقدام) التركية لتاريخ التمدن الاسلامي ونشره فيها بالتتابع . فتشاور كثير من

كتاب
مجمع البيان
في
تفسير القرآن

نزف لقراء العربية والأمة الاسلامية في أقطار الارض بشرى طالما تاقت اليها النفوس واشرأبت لها الاعناق ألا وهو طبع التفسير الشهير مجمع البيان لمؤلفه الشيخ الطبرسي من اكابر العلماء في القرن السادس ومع انه الف في ذلك القرن فهو موافق لروح هذا العصر كل الموافقة ولا نبالغ اذا قلنا أنه لم يؤلف في علم تفسير القرآن الكريم كتاب مثله وقد رتبه ترتيبا حسنا فانه ذكر اولا الآية القرآنية ثم القراءة فالحجة فاللغة فاسباب النزول فالاعراب فالمعنى وربما تكلم في السياق اذا اقتضاه المقام الى غير ذلك من النكات اللطيفة والوجوه البديعة خصوصا فلسفة اللغة لم يجتمع في تفسير قبله وبعده فيما نعلم .

وقد طبعنا نسخا زائدة من الملزمة الثالثة نرسلها مجانا لمن يطلبها من مطبعة العرفان في صيدا • وجعلنا اشتراك هذا التفسير الجليل

اربعة مجيديات

ما عدا التجليد وأجرة البريد وهو يحتاج الى ريال مجيدي في البلاد العثمانية أما في مصر والبلاد الاجنبية فقيمة اشتراكه بدون تجليد عشرون فرنكا خالص أجرة البريد •

ويبقى الاشتراك مفتوحا إلى ستة اشهر من تاريخ هذه النشرة وبعد ذلك يصبح ستة مجيديات (وثلاثون فرنكا في الخارج) وعند تمام الطبع ثمانية مجيديات (أربعون فرنكا)

وقد باشرنا طبعه على ورق متين وطبع جيد تصحيح متقن ويتولى تصاحيحه فئة من افاضل العلماء وسوف يكون له فهارس حسنة ما بين مختصرة ومطولة ان شاء الله .

ويقع التفسير باربع مجلدات وهي عبارة عن الفي صفحة كبيرة من ذلك يعلم أنه ارخص كتاب ظهر لعالم الطبع وكلما زاد المشتركون اقبالا زدنا اسراعا به اما قيمة الاشتراك فترسل لمطبعة العرفان باسم احمد عارف الزين وهي ترسل للمشترك وصلا بالقيمة وكل وصل لم يختم بختم مطبعة العرفان ويوقع بتوقيع صاحبها يعد لغوا والسلام

مطبعة العرفان ٭ صيدا غرة رجب سنة ١٣٣٢ ٢٥ مايو {ايار} سنة ١٩١٤

٣ « التمدن الاسلامي . خمسة أجزاء
٤ « العرب قبل الاسلام . جزء واحد
٥ « الماسونية العام »
٦ « اليونان والرومان « صغير
٧ « انكلترة « لم نره
٨ « اللغة العربية »
٩ « آداب اللغة العربية - ٤ أجزاء
١٠ الفلسفة اللغوية . جزء صغير
١١ انساب العرب القدماء »
١٢ علم الفراسة الحديث »
١٣ طبقات الامم »
١٤ عجائب الخلق »
(١٥ ٣٦ قصص (روايات) منها ١٨ قصة تتعلق بتاريخ الاسلام وثلاث تتعلق بتاريخ مصر ، وواحدة غرامية محضة .

وأما أخلاقه وشمائله فقد كان أديب النفس، نزيه اللسان والقلم، بشوش الوجه معتصما بحبوة الجد ، متنزها عن اللغو والعبث، محبا للنظام ، حفيا بالأهل، وصولا للرحم ، محبا للغريب

ورأيي فيه أن عقله كان اكبر من علمه ، ومن فضل عقله على علمه حسن اختيار ما كان يكتب، وحسن ترتيبه وتبويبه، فقد كان في هذا وهو من ثمرات العقل أبرع منه في تحرير المباحث وتنقيحها ، وتمحيص الحقائق بالقول الفصل فيها . وسبب ما انتقد وما ينتقد من الغلط على كتبه بحق، هو أنه كان يقدم على الكتابة في مباحث لم تسبق له دراستها ، معتمدا على مراجعتها من مظانها عند الحاجة اليها ، ومن كان يكتب المقالة في يوم أو ايام أو ساعة أو ساعات، لاجل أن تنشر في مجلة شهرية ، ويؤلف الكتاب في عدة أشهر لانه وعد بنشره في وقت معين من السنة ، قلما يستطيع أن يجمع بين المواد وتنسيقها وترتيبها ، وبين تمحيص الحقائق فيها وتحريرها . ولعمر الانصاف انه ليقل من يستطيع كتابة تلك الكتب في مثل الزمن الذي كتبها فيها مصنفها، وهل يوجد في أمتنا كثير من أمثال من فقدته اليوم؟

وقد ترك للامة ما يعزيها عنه - تلك المصنفات الجامعة بين الفائدة واللذة ، ونجله النجيب أميل زيدان الذي أحسن تعليمه وتربيته . وقد رأى قراء الهلال من آثار قلمه فيه، ما يبشر باستمرار بزوغه عليهم ما داموا مقبلين عليه موازرين له ، ,, ولا غرو ان يحذو الفتى حذو والده ،،

﴿ تكمل المنار ﴾

